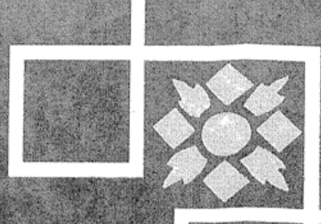


الدراسات التاريخية

نصوص يمنية

مفرح بن أحمد الربعي

سيرة الأميرين الجليلين الشريفين الفاضلين

نص تاريخي يمني من القرن الخامس الهجري

تحقيق ودراسة

عبد الغني محمود عبد العاطي

السيد





سيرة الأميرين الجليلين الشريفين الفاضلين
القاسم ومحمد ابني جعفر ابن الإمام
القاسم بن علي العياني
نص تاريخي يمني من القرن الخامس الهجري

الطبعة الأولى

1413هـ - 1993م

دار المنتخب العربي
للدراسات والنشر والتوزيع
ص. ب : 113/ 6311 ـ بيروت ـ لبنان

توزيع

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع
بيروت ـ الحمرا ـ شارع اميل اده ـ بناية سلام
هاتف : 802428 -802407 -802296
ص. ب : 113/ 6311 ـ بيروت ـ لبنان
تلكس : 20680- 21665 LE M.A.J.D

مفرّح بن أحمد الربعي

سيرة الأميرين الجليلين الشريفين الفاضلين القاسم ومحمد ابني جعفر ابن الإمام القاسم بن علي العياني

نصٌّ تاريخيٌّ يمنيٌّ من القرن الخامس الهجري

تحقيق ودراسة

رضوان السيد
أستاذ الدراسات الإسلامية
بالجامعة اللبنانية

د. عبد الغني محمود عبد العاطي
أستاذ التاريخ الوسيط
بجامعة المنصورة

دار المنتخب العربي
للدراسات والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

ننشر هنا نصاً تاريخياً مهماً هو « سيرة الأميرين » لمفرّح بن أحمد الربعي ، يتعلّق بالتاريخين السياسي والاجتماعي للأجزاء الشمالية من اليمن في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري . أما الأميران القاسم ومحمد ابنا جعفر بن القاسم بن علي العياني اللذان تدور حولهما « السيرة » فقد تزعّما الحركة السياسية للزيدية في صراعها مع الصليحيين في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري .

والمعروف أنّ المصادر التاريخية شديدة الندرة فيما يتصل بالأحداث السياسية بشمالي اليمن طوال القرن الخامس . لكنّ « السيرة » ليست مهمةً لهذا السبب فقط . بل أيضاً لأنّ قادة تلك الحركة كانوا من الشيعة الحُسينية ؛ وهي انشقاقٌ ضمن الزيدية لا نعرف غير القليل عنه من المؤلَّفات الكلامية .

وقد قمت مع الزميل الدكتور عبد الغني محمود عبد العاطي ، الأستاذ بجامعة المنصورة بمصر بتحقيق نصّ « السيرة » على مخطوطةٍ فريدةٍ ، وألحقنا به ثلاثة نصوص من مصادر أُخرى بعضُها معاصر للفرقة الحسينية توضّح ما غمض من تاريخها ، وانتشارها وعقائدها . وقدّمنا للسيرة بتقديمين :

أحدهما : ترجمةٌ لمقالٍ عن السيرة للأستاذ المعروف في مجال الدراسات الزيدية Wilferd Madelung كان قد نشره عام 1979 .

وثانيهما : تحليلٌ تاريخيٌّ ومضمونيٌّ لنصّ السيرة ، وعقائد الفرقة الحسينية ، ومصير الأشراف القاسميين الذين تزعموا الحركة . والله من وراء القصد .

رضوان السيد

تمهيـد

سيرة الأميرين الجليلين الشريفين الفاضلين القاسم ومحمد ابني جعفر ابن الإمام القاسم بن علي العياني

ويلفريد مادلونغ

السيرة كمصدرٍ تاريخي(*)

I

سيـرةُ الأميـرين القـاسم ومحمـد ابني جعفـر بن القـاسم العيـاني ، عمـلٌ تاريخيٌّ ، يصفُ حقبةً متأخّرةً نسبياً من تاريخ الدولة العلوية باليمن ؛ تلك الحقبة الناجمة عن حركةٍ دينيةٍ تعودُ أصولُها إلى أواخـر القرن الـرابع الهجـري/العاشـر الميلادي .

وجدُّ الأميرين ، ومؤسِّسُ أسرتهما هو القاسم بن علي العياني . وهو حفيدُ محمد بن القاسم بن إبراهيم الرسّـي ، عمّ الهادي إلى الحقّ يحيـى بن الحسين مؤسِّس الدولة الزيدية باليمن . وكان القاسم العيـاني قد دعـا لنفسه لـوقتٍ قصيرٍ عام 383 هـ/993 م[1] ، والمعروفُ أنه كان يقيم بتَرْج من بلاد خثعم[2] ، ثم عاد

(*) نشر ويلفريد ماديلونغ Wilferd Madelung هذه المقالة عن السيرة في : Studies in the History of Arabia, Vol. I. Sources for the History of Arabia, Part 2, Riyad 1979, PP. 69- 87.

(1) يذكر المقريزي في اتّعاظ الحنفا (نشرة جمال الدين الشيّال ، القاهرة 1387 هـ/1967 م) ص 278 أنه في العام 383 هـ ظهر الشريف القاسم بن علي داعياً لنفسه في الحجاز . وقد هُزم بسرعةٍ وقُبض عليه لأنه في المحرَّم عام 384 هـ/فبراير ـ مارس 994 م وصل إلى القاهرة أمير مكة عيسى بن جعفر الحَسَني جالباً معه الشريف الأسير فاستقبلهما الخليفة العزيز بالترحاب (اتعاظ الحنفا 1/281) . وفي جمـادى الثانيـة /يوليـو ـ أغسطس ، غـادر عيسى بن جعفر القـاهرة ومعـه الشريف (اتعـاظ 1/282) . إذ يبدو أنه سُمح للأخير بالعودة إلى منزله بترْج بين مكة واليمن . وفي رسالةٍ كتبها أثناء=

للثورة عام 388 هـ/ 988 م ، ففتح صعدة واستولى على صنعاء ، وحكم متلقّباً بالمنصور بالله . وقد اعترف به أكثر الزيدية باليمن باعتباره إمام الوقت وإن لقي معارضةً من بعض أعقاب الهادي وعَلَويين آخَرين . وفي السنتين الأخيرتين من حياته وحكمه فقد السيطرة على صنعاء وصعدة ، وبقي بشكلٍ مستمرٍّ في مقرّه ببلدة عِيان [2] . وهناك دُفِن بعد وفاته في 9 رمضان 393/ 11 يوليو 1003 م .

وقد ادّعى وراثته وخلافته بدايةً أحد أبنائه الصغار المسمّى بالحسين المهدي لدين الله [3] . دعا الحسين لنفسه في صفر عام 401 هـ/سبتمبر - أكتوبر 1010 م ، ووجد أنصاراً بين قبائل وعشائر حمير وهمدان وأهل المغارب . واستطاع كوالده السيطرة على صعدة وصنعاء لفترةٍ قصيرة . وما لبثت المعارضة له بين أعقاب الهادي والأشراف الآخرين أن تزايدت وخاصةً بعد أن تجاوز دعوى الإمامة إلى ادّعاء

= ثورته عام 388 هـ/ 898 م ، وذكرها الحُسين بن أحمد بن يعقوب في سيرة الإمام المنصور بالله القاسم بن علي ؛ يذكر أنه سبق له أنْ كان باليمن ، وتلقّى البيعة من الناس ؛ لكنهم ما لبثوا أن غدروا وخانوا عندما عاد إلى تَرْج (سيرة الإمام المنصور ، مخطوطة المتحف البريطاني ، Or. 3816, fol. 2v) . وليس هناك تاريخٌ مذكورٌ لهذه الأحداث . وليس بعيداً أن يكون المقصود بتلك الثورة باليمن ما يتحدّث عنه المقريزي . وقد عمد أمير مكّة إلى احتجازه عقب عودته إلى ترج . لكنْ ليس في سيرته ما يشير إلى أسره وأخذه إلى القاهرة .

(1) تقع ترج على وادٍ فرعيٍّ غربيٍّ يصبُّ في وادي بيشة على مسافةٍ إلى الجنوب من واحة بيشة . ويسميها فيلبي تـرْق ، قارن : W.E. Mulligan , E.I[2]., art Bisha ; H. St. Philby , Arabian Highlands , Ithaca 1952 , 37 , 119

(2) قارن بيحيى بن الحسين : غاية الأماني (نشرة سعيد عبد الفتّاح عاشور ، القاهرة 1388 هـ/1968 م) 1/233 وما بعدها . ويبدو واضحاً من السياق أنّ البلدة التي اختارها القاسم بن علي لإقامته ، والتي تشير إليها نسبتُهُ هي عِيان بالجوف شمال شرق خَولان ، (قارن بالهمداني : صفة جزيرة العرب ، نشرة ميللر ، لايدن 1884 - 9 ، 83 ، 110 ، 244 ، والخريطة رقم 3 في Edward Glaser's Reise nach Marib ، نشرة د. هـ. ميللر و ن . رودوكاناكيس ، فيينا 1913 - ويظهر الاسم هناك باعتباره عَيَان) ؛ وهي غير العيّان في سَراة المصانع (الهمداني : صفة ، الفهارس) .

(3) يُشار إلى الحسين في سيرة والده باعتباره من أصاغر أولاده (السيرة ، ق 70) . ويذكر نشوان الحميري (الحور العين ، القاهرة 1367 هـ/1948 م ، ص 157) أنه وُلد عام 378 هـ/988 - 989 م . ويأتلف هذا مع وصف والده له باعتباره صبياً في رسالة عام 390 هـ/1000 م (سيرة الإمَام المنصور ، ق 70) .

المهديّة ؛ وبذلك وضع نفسه فوق كلّ الأئمة السابقين . وانقلبت القبائل ضدّه فقُتل في معركةٍ عنيفةٍ مع همدان ، قاتل فيها مثل « أسدٍ مُغْضَب »[1] ، بذي عُرار على مقربةٍ من ريدة في الرابع من صفر 404 هـ/15 أغسطس 1013 م[2] . لكنّ الاعتقاد بمهديته لم يَمُتْ مع موته في المعركة السالفة الذكر . إذ ظلّ كثيرون من أنصاره يُنكِرون موته[3] ، ويتوقّعون رجعةً سريعةً له يملأ فيها الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً . ولهذا السبب فإنّ أقاربه الذين ثاروا من بعده لم يدّعوا الإمامة بل ظلّوا يعتبرون أنفُسهم أُمراء ووكلاء عن الإمام الغائب مستعدّين للتنازل عن السلطةِ ، وتسليمها للمهدي لدين الله بمجرّد ظهوره . وقد عُرف أتباعُهُ والمتحزّبون لمهديته بعد وفاته بالحسينية أو الشيعة الحسينية ؛ وهو اسمٌ كانوا يستعملونه هم أيضاً عَلَماً عليهم كما تُظهر السيرةُ التي بين أيدينا[4] .

تولّى قيادة الحركة الحسينية بعد غياب القاسم المهدي أخوه جعفر بن القاسم[5] . وكان جعفر أكبر من أخيه الحسين بثلاثة عشر عاماً ، وقد تولّى على

---

(1) غاية الأماني 1/239 .

(2) يورد نشوان التاريخ الدقيق لذلك في **الحُور العين** ، ص 211 .

(3) يذكر يوسف بن محمد الحَجوري في كتابه **روضة الأخبار وكنوز الأسرار** (الذي يشارُ إليه عادةً باسم : روضة الحَجوري) أنّ جعفراً أخاه كان أول المنكرين لموته ، قبل أن تقبل الأسرة دعوى همدان بقتله . لكنّ جعفراً ما لبث أن وجد شاهداً سنّياً اسمه مدرك بن إسماعيل ، حلف سبعين يميناً أنه رأى المهديّ بعد الوقعة سالماً إلّا من جروحٍ طفيفةٍ في جبهته (روضة الحجوري ، مخطوطة باريس رقم 5982 ، ق 241) . وانظر عن هذه المخطوطة مقالتي في JNES (1973), PP. 179ff

(4) انظر عن الحسين المهدي والحسينية بشكلٍ عام كتابي : **الإمام القاسم بن إبراهيم** ، برلين 1965 ، ص ص 198 ـ 201 (بالألمانية) . ويذكر نشوان الذي كتب **الحور العين** بعد مائة عامٍ من التقارير التي توردها **السيرة** أنه كانت هناك في زمانه فرقتان من الحسينية ، تدّعي إحداهما أنها على اتصالٍ سراً بالمهدي ، الذي يزورهم ، وهم لا يأتون شيئاً أو يَذَرونه إلّا بأمره . أمّا الأخرى فترى أنه لا يُشاهَدُ في غَيبته حتّى يعودَ للظهور ؛ وهم يتّبعون أثناء غيبته ما ورد في كتبه (الحور العين ، ص 157) . وليس في السيرة ما يشير إلى مثل هذا الانقسام بين الحسينية ، وذهاب البعض إلى أنهم على اتصالٍ بالمهدي . وما يظهر في السيرة مراراً اقتناعٌ عميقٌ بعودته للظهور ، واتّباعٌ لآرائه الواردة في كتبه .

(5) لم يترك الحسين ذكوراً بل ترك ابنتين (المحلي : **الحدائق الوردية** ، مخطوطة فيينا ، مجموعة غلازر 101 ، ق 74) . وقد تزوّج إحدى البنتين فيما بعد الشريف الفاضل ابن عمّها ، وتُوُفّيت قبل مقتل زوجها (سيرة الأميرين ، ق 241) .

صنعاء في حُكْم والده عام 391 هـ/1001 م[1] . وفي إمامة أخيه الحسين ولي صنعاء وصعدة أيضاً[2] . ولا تذكر المصادر شيئاً معتبراً عن نشاطه بعد مقتل أخيه . إذ يبدو أنّ المتحدّثين عنه يستندون جميعاً إلى أخبارٍ في تاريخٍ لصنعاء لم يكن مؤلِّفُهُ يهتمُّ إلّا لما يتصل بالمدينة مباشرةً . لكنهم يذكرون أنّ جعفراً وصل إلى صنعاء حوالي نهاية العام 413 هـ/مارس 1023 م قادماً من عِيان ـ التي يبدو أنها كانت دار المقام الدائم للأسرة ـ واستطاع دخولها بمساعدة حمير وهمدان . ثم ما لبث أن غادر صنعاء بعد شهرٍ متجهاً إلى صعدة التي دخلها وأمر بإحراق بعض المنازل فيها ؛ ربما لبعض أعقاب الهادي لموقفهم السلبي من ادّعاء الحسين للمهدية . ثم عاد من هناك إلى عِيان . ثم ما لبث أن استولى على صنعاء من جديدٍ في صفر 415 هـ/إبريل ـ مايو 1024 م[3] . وفي عام 416 هـ/1025 م ثار عليه الهمدانيون والحميريون وسيِّد مَسْوَر ، وحاصروه في بيت شُعيب لكنه استطاع الصمود[4] . وتذكر المصادر أنه عاد بعدها لدخول صنعاء بدعوةٍ من همدان في شهر ربيع 429 هـ/شتاء 1037 ـ 1038 م[5] . وعاد إلى المدينة مرّتين عام 431 هـ/1039 ـ 1040 م . لكنّ شريفاً ثائراً آخر هو أبو هاشم الحسن بن عبد الرحمن ما لبث أن استولى على صنعاء أواخر ذلك العام[6] . وتمر سنواتٌ سبعٌ ويأتي العام 438 هـ/1046 ـ 1047 م فيقدم جعفر إلى صنعاء من جديد مُعيناً هذه المرة للإمام الزيدي أبي الفتح الناصر

---

(1) غاية الأماني 1/233 .

(2) أمّا « صِنْو الإمام » (أخوه) الذي تذكر غاية الأماني 1/235 أنه وصل إلى صنعاء في نهاية العام 402 هـ/يونيو 1012 م فيبدو أنه جعفر . وقد عُيِّن نائباً عن الإمام بصنعاء ، ثم نُقل حاكماً لصعدة عام 403 هـ/1012 ـ 1013 م (غاية الأماني 1/237 وما بعدها) .

(3) غاية الأماني 1/242 ، والكتاب التاريخي الغُفل المتضمَّن في مخطوطة المتحف البريطاني رقم Or 4581 ، ق 182 ـ وهي تذكر تواريخ دقيقةً لأحداث صنعاء .

(4) غاية الأماني 1/243 .

(5) مخطوطة المتحف البريطاني السالفة الذكر ، رقم 4581 ، Or ، ق 183 ، دونما ذكرٍ للمَعْنيّ بربيع ، هل هو ربيع الأول أو الثاني .

(6) غاية الأماني 1/245 ـ 246 . وتبدأ أخبار يحيى بن الحسين عن الأميرين تحت العام 431 هـ/1039 م ، لكنّ ما يذكره يتطابق مع ما في التاريخ الغفل أو المجهول لصنعاء تحت ربيع عام 429 هـ .

الديلمي ، الذي ما لبث أن سمّاه أميراً للأمراء ، ومنحه رُبع خراج البلاد . ولم يَطُلْ عهد الوئام بين العَلَويَّين فبدآ يتشاجران ، ونشبت بينهما « عدة معارك » في إقليم أثافت وعجيب[1] . وما لبثت خصوماتُهما أن انتهت بإعلان علي بن محمد الصُّليحي للدعوة الإسماعيلية بجبل مسار لصالح الخلافة الفاطمية بالقاهرة في جمادى الثانية 439 هـ/ديسمبر 1047 م . وقد أدّى ذلك إلى تغيير جذريٍّ في الساحة السياسية باليمن .

II

تبدأُ « سيرةُ الأميرين » موضوع الدراسة هنا بثورة الصُّليحيين الإسماعيلية . ذلك أنّ موضوعها الرئيسي هو صراع الأميرين ، ابني جعفر بن القاسم مع الصُّليحيين . أمّا مؤلّفُ السيرة فيعلن أنه سيبدأُ **سيرة الأميرين** من حيث انتهت **سيرة الإمام المهدي لدين الله**[2] . ويبدو أنّ السيرة المكتوبة للمهدي لدين الله ضاعت دون أن تترك أثراً في أعمال المؤرّخين اللاحقين لليمن . أمّا سيرةُ الأميرين ابني أخ المهدي فقد بقيت لحسن الحظّ ، دون أن تترك أيضاً آثاراً كثيرةً في أعمال الدارسين . إذ لم يذكرها بروكلمان Carl Brockelmann كما أنّ أيمن فؤاد سيّد غفل عنها في عمله الصادر حديثاً عن مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي[3] . ولم يشر يحيى بن الحُسين بن المؤيَّد بالله (ت 1100 هـ/1689 م) إلى **السيرة** حينما ذكر مصادره لعمله التاريخيّ أنباء الزمن في أخبار اليمن[4] . لكن من المؤكّد أنه استعملها في مختصره **لأنباء الزمن** المعروف **بغاية الأماني** بشكلٍ مباشرٍ أو غير

(1) غاية الأماني 1/247 .

(2) السيرة ، ق 217 . وليس من الواضح ما إذا كانت السيرة تريد أن تشير إلى أنّ **سيرة المهدي** تتضمن أخبار حركة جعفر بن القاسم أيضاً حتى ظهور الصليحيين ؛ وذلك لأنّ السيرة هنا تمضي في تلخيص الأحداث بعد وفاة المهدي بالقول إنّ الناس بعده غرقوا في الجهل والظلام ؛ وإن يكن قد بقي بين أقاربه وأبناء أُسرته أُناسٌ يمكن الرجوع إليهم .

(3) مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي ، القاهرة 1974 .

(4) مقتبس في الغاية 1/48 ـ 50 .

مباشرٍ ؛ بل إنه أشار إلى السيرة مرةً في أخباره باسم سيرة الشريف[1] . ولم يطّلع على السيرة في حدود علمي من بين المؤرّخين المُحْدَثين غير محمد الأكوع الحوالي في سياق نشرته لتاريخ اليمن لعُمارة[2] ، إذ أشار إليها باسم سيرة ذي الشَرَفين منبِّهاً إلى أهميتها كمصدرٍ لتاريخ مؤسِّس الدولة الصُّليحية من حيث إنها تُكملُ وتُصحِّحُ المعلومات المأخوذة من المصادر المعروفة من قبل . ولم يُشِر الأكوع إلى ماهية المخطوطة التي استعملها للسيرة[3] . ولستُ أعرفُ الآن إن كانت للسيرة مخطوطةٌ أُخرى غير الحاضرة في مكتبة الجامع الكبير بصنعاء ، المصادرة بعد الثورة اليمنية عام 1962 وتقعُ ضمن مجموعٍ متنوِّعٍ .

وتحتفظُ دار الكتب المصرية بصورةٍ فلميةٍ عن مخطوطة صنعاء تحت رقم 1077[4] . وقد حصلْتُ على صورةٍ عن ذلك الفيلم[5] .

ويبدو لي أننا لا نعرفُ عن مؤلِّف السيرة مفرِّح بن أحمد الرَبَعي غير ما ذكره هو نفسُهُ في السيرة . أما نسبتُهُ : الرَبَعي ؛ فيبدو أنها قَبَليةٌ[6] وقد تُشير إلى ربيعة خَولان في ناحية صعدة . ويُذْكَرُ هؤلاء مراراً في السيرة بين أنصار الأميرين . لكنّ هناك عدة

(1) غاية الأماني 271/1 : قال صاحب سيرة الشريف ، . ويتوافق النصُّ مع ما ورد في السيرة ، ق 290 . وعليّ هنا أن أُشير إلى أنّ مخطوطة برلين رقم 1304 ، والتي يُشار في صفحة عنوانها إلى أنها كتاب أنباء الزمن ، والتي كان يُظَنُّ أنها تتضمن النصّ الكامل للكتاب ، هي في الحقيقة مختصرٌ له .

(2) القاهرة 1387 هـ/1967 م .

(3) يشير الأكوع في مقدمته (ص 9) إلى المعلومات الواردة في ثبت المصادر . لكنّ الثبت غير موجودٍ في نهاية نشرته للكتاب .

(4) انظر قائمة المخطوطات العربية المصوّرة بالمايكروفيلم من الجمهورية اليمنية ، القاهرة 1967 ، ص 24 . ويقع نصُّ السيرة في 87 ورقة وليس 98 كما يذكر المفهرس . ذلك أنّ الصفحات الإحدى عشرة الأخيرة تتضمن ديوان أبي طالب . وهكذا فإنّ نصَّ السيرة يقعُ بين الورقة 217 والورقة 304 من ضمن الترقيم الشامل للمجموع .

(5) أودُّ أن أشكر هنا للدكتور حسين مؤنس تدخُّله الذي مكّنني من الحصول على صورةٍ عن مايكروفيلم دار الكتب .

(6) ياقوت : معجم البلدان ، نشرة فيستنفلد ، لايبزغ 1866 ـ 1873 ، 752/2 ـ ويذكر قلعةً في ذَمار اسمها الرَبَعة . لكن من غير المرجّح أن يكون المؤلِّف منسوباً إلى هذه البقعة الضئيلة الشهرة ، والتي لا تذكرها المصادر قبل ذلك .

بطونٍ قَبَليةٍ أُخرى باسم ربيعة باليمن . ويظهر مفرِّح باعتباره شاهدَ عيان في كثيرٍ من الوقائع والأحداث التي يقُصُّها ابتداءً من العام 461 هـ/1069 م[1] . والمرجّح أنه دخل في خدمة الأميرين قبل هذا التّاريخ كخطيبٍ وكشاعرٍ رسمي . وتُذكر في السيرة أشعارٌ كثيرةٌ له نَظَمها في الانتصارات ومناسباتٍ أُخرى . وقد كلّفه الشريف الفاضل مرةً بنظم شعرٍ باسمه للأمير جيّاش بن نجاح ، حاكم زَبيد ؛ يشكره فيه على مساعداته العسكرية والمالية ، وقد أرسله من قِبَلِهِ ليُنشِدَ جيّاشاً تلك القصيدة ، فعاد بهدايا كثيرةٍ للأميرين من عندِ جيّاش[2] . وعندما استولى الفاضل على صعدة عام 463 هـ/1071 م طلب من مفرِّح إنشاء خطبةٍ وإلقاءها بجامع الهادي بصعدة[3] . وعندما قُتل الفاضل قام مفرِّح بإلقاءمرثية الدفن بالحَضن[4] . وعندما نشب نزاعٌ بين الأمير ذي الشرفين وأخيه سنان الدولة أحمد قام مفرِّح بالتوسُّط في النزاع بين الطرفين[5] . وفي رجب 485 هـ/أغسطس 1092 م كلّفه الأمير عمدة الإسلام جعفر ابن ذي الشَرَفين وخَليفته بكتابه السيرة[6] ، وأتاح له استعمال رسائلَ ووثائق تتّصل بتاريخ الأميرين . وقد اقتبس مفرِّح فعلاً من بعض الوثائق بشكلٍ مطوَّلٍ في السيرة .

ويورد مفرِّح بالإضافة إلى تلك الوثائق والرسائل أقوالاً وتقارير لشهود عيان يذكر أحياناً أسماءَهم . كما أنه يستخدم في كثيرٍ من الأحيان تقارير ومعلومات أخذها من الأميرين نفسيهما . أمّا مصدراه الرئيسيان للأحداث والوقائع السابقة على دخوله في خدمة الأميرين فهما نصيرا الشريف الفاضل وصاحباه : الفقيه أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك بن أبي الجيش ، وسلامة بن علي بن محمد المُحَلّي[7] . ويبدو أنّ هذين الرجلين رافقا الشريفَ الفاضلَ منذ بداية حياته

(1) السيرة ، ق 247 .
(2) السيرة ، ق 256 ـ 257 .
(3) ق 258 .
(4) ق 283 .
(5) ق 288 ـ 289 .
(6) ق 281 .
(7) تشكيل الاسم غير مؤكَّد .

السياسية ؛ إذ كانا معه في الهِرابة أثناء صموده الشجاع في وجه حصار الصُّليحيين عام 448 هـ/1056 م ، وظلاّ معه بعد احتجاز الصُّليحيين له . وكان سلامة مهتماً بتأمين غذائه ، وحاجاته الشخصية الأُخرى[1] . ورافقه سلامةُ في منفاه الاختياري بعد خروجه من الأَسْر ، ومُضيّه من اليمن إلى تَرْج ومكّة (451 ـ 459 هـ/1059 ـ 1067 م) .

أمّا المخطوطةُ الباقيةُ من السيرة فيبدو أنها عبارةٌ عن مختصرٍ للسيرة نفسها . ففي نهاية المخطوطة يـذكر النـاسخُ أنهـا « مختصرٌ من كتـاب السيرة »[2] . وفي الحديث عن الحملة على صنعاء يُحيلُ المختصِرُ المجهولُ على السيرة الكاملة أو كتاب السيرة من أجل تفصيلٍ أكبر للأحداث[3] . وفي بعض المواطن يُشـارُ إلى إغفال بعض التفاصيل دون أن نعرفَ إن كان الإغفالُ قد أتى من جانب المؤلّف أو المختصِر . ولا نستطيع أن نحدِّد مدى مسؤولية كلٍّ من المؤلِّف والمختصِر في كثيرٍ من الأحيان ؛ من حذف بعض جزئيات المعارك وحتى نهايـة النصّ[4] . ويمكن القولُ إنّ اختصارات النهاية حدثت بعد كتابة السيرة لكنها يمكن أن تكون قد أتت من جانب المختصِر كما يمكن أن تكونَ قد أتت من جانب الناسخ . ويذكر مفرِّح نفسه في بداية السيرة أنه سيُعْرِضُ عن تفاصيل كثيرة في عَرْضه[5] . لكنّ من جهةٍ ثانيةٍ، فإنّ الصيغة التي بين أيدينا للسيرة هي من التفصيل بحيث يصعُبُ وصفُها باعتبارها موجَزاً لها .

III

سأُحاولُ هنا أن أعرض موجزاً لأحداث حيوات أشراف بني القاسم كما أوردتها

---

(1) ق 288 . كان هناك أيضاً أحد محرَّري آل القاسم واسمه أحمد بن طريف ، ضمن الذين لازموا الشريف الفاضل في فترة احتجازه .

(2) ق 304 .

(3) ق 243 : « . . . اختصرتُ ذكره لأنه مشهورٌ ، وهو في كتاب السيرة مذكور » .

(4)) ق 204 حول الحملة إلى أَقَر ، والأخبار الواردة في الفقرة تتّصل بما يرد في ق 285 من أنباء ، وكان ينبغي أن تَرِدَ من قبل .

(5) ق 217 : ومِلْتُ إلى الاختصار والتلخيص .

السيرة . كان عبد الله أحد أبناء جعفر بن القاسم أول الثائرين على علي بن محمد الصُّليحي في ناحية الحَيمة متزعِّماً تحالفاً قبلياً[1] . وقد أرسل الصليحي جيشاً لمواجهته فهُزم عبد الله وأُسِرَ واقتيد إلى مَسَار ، مقرّ الصليحي . وبعد بعض الوقت أطلق الصليحي سَراحَهُ بعد أن استحلفه وواثقه أن لا يثورَ عليه من جديد . ولا نسمعُ شيئاً بعد ذلك عنه . ثم ثار الأبُ جعفر بن القاسم ، بمساعدة وجهاء حمير وهمدان . لكنه ما لبث أن هُزِمَ وأُسِرَ في بيت بَرَار (؟)[2] . وقد اقتيد إلى مَسَار ، وأُطلق سراحُهُ بعد حين على أثر تعهُّده بعدم الثورة ثانيةً[3] . وغادر الشريف إلى الحجاز ، وكان قد بلغ من العُمُر عتياً ، فخرج من الحياة السياسية .

وفي عام 444 هـ/1052 ـ 1053 م هَزم الصُّليحيُّ أولاً أبا حاشد بن الضحّاك ، زعيم همدان ، وحاكم صنعاء ، في معركة صَوف[4] ، ثم الإمام أبا الفتح الديلمي في **نجد حاج**[5] . عندها تحوّلت أنظار التحالف القَبَلي المُعادي للصليحيين إلى الشريف الفاضل وحمزة ، ابن الإمام السالف الذكر أبي هاشم . وقد تنبَّه الصليحيُّ إلى الاتجاهات الجديدة للرياح فأرسل رسالةَ تحذيرٍ إلى الشريف الفاضل من تهامة ؛ فأجاب عليها الفاضلُ برفضٍ قاسٍ . وفي عام 447 هـ/1055 م ثار الشريف الفاضل واحتلّ صعدة ؛ لكنه سرعان ما انسحب منها إلى بلاد بني صُريم عندما وصل إلى علمه زحفُ الصليحي من تهامة باتجاه

---

(1) يبدو أنّ المقصود الحَيمة الواقعة بين حَضُور وحَرَاز (غاية 1/249) .

(2) القراءة غير مؤكّدة.

(3) ق 218 . هذه الأحداث ، التي لا تُذكر في مصادر أخرى ، تورِدُها السيرةُ بعد ذكر الخروج القصير المدة الذي قام به جعفر بن عبّاس الشاوري في مغارب اليمن الأعلى عام 439 هـ/1048 م . وفي المصادر الأخرى أنّ منطلق الثورة الأخيرة كان محاصرة جعفر بن القاسم لحصن الأُخروج الذي كان بيد أنصار الصليحيين . لكنّ جعفراً اضطُرّ للانسحاب بعد هزيمة الشاوري ومقتله (قارن بالهمداني : الصليحيون ، القاهرة 1955 ، ص 78 ؛ وغاية الأماني 1/249) . ولا تذكر السيرة حصار الأخروج .

(4) الصليحيون ، ص 81 . وتؤرّخ السيرة المعركةَ في ربيع الأول عام 444 هـ/يوليو 1052 م . وفي غاية الأماني 1/243 تُذكر الموقعة خطأً تحت العام 439 هـ .

(5) الصليحيون ، ص 82 ، والغاية 1/250 . ولا تذكر السيرةُ المعركة .

صنعاء . وقد عانى الشريف الفاضلُ هزيمةً قاسيةً أمام الصليحيين بقَراتيل على مقربةٍ من حاز ، فتراجع مع أُسرته بما في ذلك أخوه ذو الشرفين ، وأعوانه ، وألفا مقاتلٍ مع أُسَرِهم إلى حصن الهِرابة ببلاد وادعة ، حيث تحصّن وعزم على المقاومة حتى النهاية . وهناك استطاع أن يصمد للحصار الصُّليحي سبعين يوماً (منذ بداية جُمادى الأولى وحتى العاشر من رجب 448 هـ/من منتصف يوليو حتى 23 أكتوبر 1055 م) . وتُورِدُ السيرة وصفاً حياً مؤثّراً للقتال الشرِس ، والمصاعب والمجاعات التي نزلت بالمحاصَرين[1] . وفي النهاية ضمن لهم الصُّليحي انسحاباً حراً ، وصادر أسلحتهم ووزّعها على جنده ؛ ولم يحتفظ في يده بغير الشريف . وأُرسل الفاضل إلى صنعاء حيث بقي هناك محتَجزاً زُهاء عامٍ ونيّف . وقد وُضع في البداية تحت حراسةٍ مشدَّدة ؛ لكن عندما تبيَّن للصُّليحي أنّ شبهة الائتمار من جانب الشريف للهرب غير صحيحةٍ ؛ سمح له بحرية حركةٍ محدودة . واصطحبه الصُّليحي معه في المحرَّم من العام 450 هـ/مارس 1058 م في حملته على يَعْفُر بن أحمد الكرندي خلال تهامة فالقُحمة[2] فَزَبيد وعَرد (؟)[3] طوال تسعة أشهر . وقد أرسل الشريف رسالةً إلى والده جعفر من هناك عندما علم بمجيء الأخير إلى اليمن من الحجاز وبلوغه الجبجب لزيارة أُسرته ، راجياً أن يجيءَ إلى معسكر الصليحي ليعمل على إطلاق سراحه . وعند وصول جعفر إلى عَرَد في رمضان 450 هـ/أكتوبر ـ نوفمبر 1058 م استسلم الكِرندي للصليحي ، وسقط الشريف جعفر وابنه الفاضل مريضَين ، وعاد الجميع إلى صنعاء حيث أمر الصليحي طبيبه الخاصّ بمعالجة الشريفين . ومات جعفر بن القاسم في ذي الحجّة 450 هـ/يناير ـ فبراير 1059 م عن عمرٍ يُناهز الخمسة والثمانين عاماً . فانتهز الصليحي حَدَث الوفاة ليطلق سراح الشريف الفاضل من أجل تعزية أُسرته عن وفاة الوالد ، وزوّدهُ بما تحتاجه الرحلة ، كما أعطاه مخصّصاً شهريّاً[4] .

---

(1) ق 225 ـ 228 . يستند تقرير **غاية الأماني** عن العام 448 هـ بما في ذلك حصار الهِرابة (1/251 ـ 252) إلى السيرة بطريقةٍ مباشرةٍ أو غير مباشرة . قارن : الصليحيون ، ص 82 وما بعدها .

(2) الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص ص 53 ، 119 .

(3) عرد ـ التشكيل غير مؤكّد .

(4) ق 228 ـ 233 .

ولم يمكث الشريف الفاضل طويلاً مع أُسرته بل آثر أن يغادر اليمن ، ليس خوفاً على نفسه ، كما تؤكّد السيرة ، بل تورُّعاً من أن يبقى تحت سيطرة الصليحيين ، الذين كانوا ينتظرون منه أن يظهر في بلاطهم بين الحين والآخَر ، وأن يُصاحبهم في غزواتهم . وهكذا خرج مع أخيه ذي الشرفين ، وقلّةٍ من أتباعه سراً باتجاه مذاب بالجَوف ، ماضياً خلال بلاد بني بحر ، متجاوزاً صعدة ، خائفاً أن تؤذيه بعضُ القبائل أو تحتجزه تقرُّباً للصليحي ، مُتابعاً مسيرته السريعة عبر بدر إلى بلاد عنز بن وائل حتّى وصل إلى تَرْج ببلاد خثعم ؛ وهي المقرُّ القديمُ للأسرة منذ عهد جدّه . وكان بعضُ أفراد الأسرة ما يزالون يقيمون بترج ، ولهم صِلاتٌ حسنةٌ بالبطون القَبلية بالمنطقة . وهناك تزوّج ذو الشرفين بابنة عمّه سليمان بن القاسم بن علي ؛ أمّا هو فتزوّج امرأةً من آل صُهيب .

وما أن استقرّ به المقامُ بترج حتّى أرسل أخاه إلى مكّة بهديةٍ عبارة عن فَرَسين وبغلتين لشريفها السليماني شكر بن أبي الفتوح ، أمير مكّة . وكان شكرٌ من أصدقاء الأسرة ، لذا فقد كاتبه الشريف الفاضل أثناء الصراع مع الصليحي طالباً مساعدتَهُ لكنه لم يحظ بجواب[1] . سار ذو الشرفين ومُرافِقوه قاصدين مكّة عبر تُربة وذات عِرْق في رجب 452 هـ/أغسطس 1060 م[2] . ثم أدّوا العمرة وانتظروا فلمّا حضر الحجُّ أدّوا الفريضة أيضاً . وفي النهاية استقبلهم الأمير شُكْر بالترحاب ، ومنحهم ذَهَباً وهدايا أُخرى مقابل هديتهم . كما أرسل رسالةً إلى الشريف الفاضل مع ذي الشرفين لم تذكر السيرةُ محتواها . لكن يبدو أنّ الشريف شكر أبدى في الرسالة رغبةً في أن يزور الشريف الفاضل مكّة في موسم الحجّ المُقْبل ؛ لأنّ الفاضل عبّر ـ عَقِبَ قراءته للرسالة ـ عن الأمل في تغيير الأُمور حتّى الموسم المقبل . وربما عنى الفاضل بذلك ما كان الشريف شكر متورّطاً فيه ؛ إذ نعلمُ من مصادر أُخرى أنّ شكراً قام عام 453 هـ/1061 م بقطع الخطبة للفاطميين بمكّة ، وتعرّض من جرّاء ذلك

---

(1) ق 228 . لام الصليحي الشريفَ الفاضلَ بوجهٍ خاصٍّ بعد استسلام الهِرابة لطلبه المساعدة من شكرٍ وبني الحسن .

(2) لا تحدِّدُ السنةَ في السيرة (ق 235) ، لكن يمكنُ تخمينها من سياق الأحداث وترتيبها على السنين .

لمضايقاتٍ وتهديداتٍ من جانب الصُّليحي[1] . لكنّ شكراً ما لبث أن تُوُفِّي[2] قبل حلول موعد الحجّ المقبل ؛ وعندما وصل الشريف إلى مكّة للحجّ في العام التالي كانت الخطبة قد عادت للخليفة الفاطمي بالحَرَم[3] . واعتزم الشريف الفاضل أن يمضي من مكة إلى الكوفة ، واتّفق مع أحد بني هلال أن يكونَ دليله عبر الصحراء . لكنّ الجمال التي كان ينبغي أن تحمل الشريف وصحبه تأخّرت في الوصول من عرفات فمضى الهلاليُّ وتركهم مما أدّى إلى تحوُّل عزم الشريف عن السفر إلى الكوفة واعتزامه العودةَ إلى تَرْج . وفي ترج انهمك الشريفُ في إقامة مشروعٍ زراعيٍّ إذ كان مُغْرَماً بالعمل في الأرض ؛ وهو ميلٌ ربما ورثه عن جدِّه القاسم بن عليّ[4] . وقد عمد الشريف في البداية إلى إحياء الأرض التي كان قد مهَّدها جدُّهُ . لكنّ سيّد تَرْج خشي على الشريف من أهل الناحية التي كان قد ازدرعها فعرض عليه قطعة أرضٍ أخرى وبئراً كان يملكهما ؛ فانصرف الشريف وأتباعُهُ إلى استغلال تلك القطعة الممنوحة .

وفي عام 454 هـ/1062 م وصلت إلى الشريف الفاضل معلوماتٌ عن اعتزام الصليحي القيام بحملةٍ إلى الحجاز[5] . ولأنّ الشريفَ لم يكن متأكداً من مقاصد الصليحي من وراء الحملة . فقد عزم على التحوُّل إلى اليمامة تجنباً للقيا الصليحي ؛ في حين عاد أخوه ذو الشرفين إلى أهله باليمن . ولا تذكر السيرةُ شيئاً عن رحلة الفاضل إلى اليمامة ؛ لكن يبدو أنّه عاد إلى تَرْج فور عودة الصليحيِّ

---

(1) الصليحيون ، ص 88 وما بعدها .

(2) يثبتُ القلقشندي في صبح الأعشى ، القاهرة 1912 ـ 1917 ، 4/269 وفاة شكر عام 453 هـ/1061 م .

(3) ق 236 : الدعوةُ في هذا اليوم إسماعيلية . لكنّ الفقرة تشير ، على أيِّ حالٍ ، إلى أنّ الخطبة كانت للفاطميين في يومٍ محدّدٍ وليس بشكلٍ دائم . ويتفق هذا التخمين مع سلوك أمير مكّة محمد بن جعفر بن أبي هاشم فيما بعد ، الذي اعتاد على تبديل الخطبة بين الفاطميين والعباسيين ؛ قارن : الصليحيون ، ص 92 .

(4) في غاية الأماني 1/227 أنّ القاسم بن علي ترك بلاد خثعم لبعض الوقت ، وأقام زراعةً مسقيةً في تبالة . فلا بدّ أنّ ذلك يشير إلى مشروعٍ زراعيٍّ آخر له غير مشروعه بناحية تَرْج .

(5) عن تاريخ حملة الصليحي إلى مكة ، التي لا تُذْكرُ في السيرة ؛ قارن : الصليحيون . وأكثر المصادر تذكر خطأً تاريخ الحملة العام 455 هـ .

لليمن . أمّا ذو الشَرَفين فقد ثارت حوله وحول أخيه الحسن بن جعفر شكوكٌ من جانب الصليحيين في اعتزامهما الثورةَ مع الشيعة الحسينية بالظاهر فمضيا إلى صنعاءَ لتطمين السُلُطات هناك ، والحصول على أمانٍ مجدَّدٍ منهم . وفي صنعاء استقبلهما الأمير أحمد بن مظفَّر لكنهما لم يستطيعا إقناعه ببراءتهما . وعندما رُفع الأمر إلى علي بن محمد الصُّليحي رفض هو بدوره تجديد « الأمانَ » لهما ؛ فاشتدّ الخوفُ بذي الشَرَفين ، وخشي حدوثَ الأسوأ ، فاختفى أياماً بصنعاء ثم خرج منها على استخفاءٍ بمعاونة بعض الأتباع الأُمناء حتّى وصل إلى عِيان التي قضى فيها أسبوعاً مختفياً حتّى عن أعين أفراد أُسرته . ثم غادر عيانَ عائداً إلى تَرّج التي وصل إليها دونما مزيدٍ من الإزعاج[1] .

وعندما تجمّع بترج آخرون من رجالات الشريف الفاضل ، اقترح عليهم الانصرافَ الكاملَ والمنعزل لقراءة وتدارُس « كتب الأئمة » لمدّة عام . وقد بلغ من قسوة تلك العزلة الدراسية أن فقد سليمان ابن الشريف الفاضل عقله ، وتُوُفّي على أثر ذلك . وبعد فترةٍ بلغت الشريفَ الفاضلَ أنباءٌ جعلتْهُ يخافُ على سلامته بترج فتجدّد عزمُهُ على المُضيّ إلى العراق . وصل الشريف الفاضلُ إلى مكّة في رجب 459 هـ/مايو ـ يونيو 1067 م وأدّى العمرة . وكانت مكةُ وقتها قد عادت للسيطرة الصُّليحية فلم يَعُدِ الشريفُ آمِناً على نفسه فيها ؛ وبخاصّةٍ أنّ شريف مكّة آنذاك (محمد بن جعفر) بن أبي هاشم اعتذر عن استقباله . وهكذا خرج الشريف الفاضل من مكّة قاصداً المدينة ووصلها في شعبان / يونيو ـ يوليو وقد شارفت أزوادُهُ وأزوادُ مُرافقيه على النَفاد . فاتّجه الشّريف الفاضل إلى نائب أمير المدينة الحسين بن مهنّا الحُسيني طالباً المُساعدة ؛ ذلك أنّ الأمير نفسه محيط (؟)[2] بن أحمد الحَسَني كان غائباً بمصر . فاستجاب نائب الأمير لطلبهم وخصّص لهم مسكناً ضيّقاً مجاوراً لبيتٍ كانت تؤتى فيه المنكراتَ ، ومنحهم أطعمةً ضئيلةً ومتواضعة . وانصرف الفاضل لمتابعة خططٍ بالسفر إلى الكوفة ومن هناك إلى بيت المقدس . ثم

---

(1) ق 237 ـ 238 .

(2) الاسم غير مفهوم .

ما لبث الفاضل أن ترك تلك الخطط لظروفٍ متعدّدة . فقد وصلت للمدينة قافلةٌ من العراق سطا عليها الأعرابُ في الطريق . كما عاد أمير المدينة إليها وتبيّن أنه أكثر بُخْلاً من نائبه ، وأقلّ استعداداً لتأمين متطلبات الرحلة من الأزواد والرواحل . وأخيراً فإنّ اعتزامَ الشريف الفاضل زيارةَ بني حَسَنٍ بالصفراء لم يصل به إلى شيءٍ لأنّ أحد الذين وعدوا بمرافقته ما لبث أن اختفى دون أن يترك أثراً .

لهـذه الأسباب كلّهـا استقرّ رأي الشـريف الفاضـل على العـودة إلى اليمن للاستتار بين أفراد أُسرته وبدأ رحلةَ العودة بالمرور بمكّةَ دون أن يدخلها لما بلغه من أنّ غريب بن البقاء وزير الصليحي وصل إليها برجالٍ ومالٍ إعداداً لزيارة سيّده للبلد الحرام . وعندما مضى قُدُماً في رحلته بدأت تصل إليه إشاعاتٌ عن مقتل علي بن محمد الصليحي (11 ذو القعدة 459 هـ/22 أكتوبر 1067 م) . ومـا لبثت تلك الإشاعاتُ أن تأكّدت عند بلوغه تَرْجاً . وأراد الفاضل بدايةً أن يقيم لبعض الوقت بترْج ؛ لكنّ طول بعاده عن أُسرته وأصدقائه وأتباعه ، كلُّ ذلك دفعه للإسراع بالعودة إلى اليمن . وأثناء حركته جنوباً ماراً بجُرَش بلد بني حيّ من خَولان ، والحقل ؛ وصلته رسالةٌ من أخيه ذي الشَرَفين ، الذي كان قد سبقه في العودة لليمن ، تخبره بثورة الشريف حمزة بن أبي هاشم وتدعوه لمساعدته . وقد وجدت مقترحاتُ أخيه قبولاً لديه فبدأ يجمع حوله الأنصار والأتباع من وادعة وخولان وبني مالك والربيعة . لكنه عندما وصل إلى البَطنة لقيه أخوه ذو الشرفين مع جماعاتٍ من أتباعه ، وبعض أعقاب القاسم بن علي ، وأخبره بهزيمة الشريف حمزة ومقتله في معركة الملوى (22 ذو الحجة 459 هـ/2 نوفمبر 1067 م)[1] . وأحدثت تلك الأخبار المؤسية خيبة أملٍ كبيرةٍ لديه فترك كلّ خطط الثورة والخروج ومضى إلى عِيان[2] .

وفي عيان لم تتركه القبائل بسلام ، فحـوالي نهايـة العام 459 هـ/نـوفمبر 1066 م أتته بطون بني **الدعام** ، وبني بحير[3] ، ووجهاء نِهم إلى عيان ، وطلبت

(1) الصليحيون ، ص 117 وما بعدها ؛ والغاية 1/255 وما بعدهـا حيثُ تُذكـر المعركـةُ خطأً تحت العام 458 هـ .

(2) ق 240 ـ 241 .

(3) الاسم في هذه الفقرة غير منقوطٍ لكنه مشكّلٌ بضمةٍ وفتحة . وفي المواطن الأخرى فإنه مكتوبٌ

إليه الخروجَ والدعوة . وتردّد الرجل لبعض الوقت ، ثم خضع للضغوط وتبعهم إلى الجَوف . قرابة هذا الوقت وصله رسولان من سعيد (الأحول) بن نجاح ، حاكم زبيد ، الذي كان المسؤول عن قتل الصليحي ، ونقلا إليه دعوة سيِّدهما لحملةٍ مشتركةٍ على صنعاء . فأرسل الشريف الفاضلُ معهما أخاه سنان الدولة أحمد ، والقاضي عيسى بن الحُسين بن أحمد ، لإنجاز التحالُف مع ابن نجاح . لكن في الوقت نفسه تقريباً مضى الأمير ذو الشرفين بضغطٍ من أخيهما حسن إلى صنعاء لمحاولة الاتّفاق مع الصليحيين . وهناك استقبلهما إسماعيل بن أبي يعفر الصليحي استقبالاً حسناً ، ثم ما لبث حاكم صنعاء أحمد بن مظفّر أن عاد إلى المدينةَ ودعاهما أيضاً للقائه . كان الصليحيون وقتها يعدُّون لحملةٍ ضخمةٍ على زبيد للثأر لمقتل علي بن محمد الصليحي ، ولتحرير زوجته الملكة أسماء من الأسْر ؛ ولذلك كانوا على استعدادٍ لإعطاء تنازُلات في العلاقة مع الأشراف . وهكذا أكّد أحمد بن مظفّر للشريفين أنه في حال فشل الصليحيين في حملتهم فإنّ البلاد كلَّها ستقع في يد الأشراف ؛ أمّا إذا نجحوا فإنّ الفضل في ذلك سيعود للسادة أيضاً . وهكذا أعاد الرسولين إلى عيان مع هدايا للشريف الفاضل ، ورسولٍ من جانبه اسمه دُلهام بن عبد الله الحَرازي يحملُ رسالةً للفاضل . لكنّ الفاضل ـ الذي كان ما يزال مع القبائل في الجوف يستعدّ للثورة ـ رفض محاولات التقارُب مع الصليحيين أولاً ، ثم رضي بمقابلة رسولهم . وفي النهاية جرى التوقيع من جانب الشريف الفاضل على ثلاث وثائق ، كان أخوه ذو الشرفين قد تفاوض عليها مع الصليحيين بصنعاء وأكّد مضامينها إسماعيل بن أبي يعفر الصليحي ودلهام الحرازي[1] . أمّا الوثيقة الأولى فتنصُّ على التسليم بأرض وادعة وبكيل للشرفاء ويحدّها نقيل عجيب . وأمّا الوثيقة الثانيةُ فتؤمّن حرية الحركة والإقامة للشيعة الحسينية حيث كانوا . وأمّا الثالثة فتؤكّد

= ب ح ي ر . أمّا الهمداني (الصليحيون ، ص 127) فيسمّيهم تبعاً للداعي إدريس : بنو جُبير ـ وهذا لا شكّ تحريف .

(1) لا يتضح من تقرير السيرة ما إذا كانت الوثائق قد كُتبت بصنعاء ، ووُقّعت من إسماعيل بن أبي يعفر ، أو أنها كُتبت بعِيان ثم أُرسلت إلى صنعاء للتوقيع . ويبدو أنّ الاحتمال الأول هو الأرجح ؛ وبخاصةٍ أنّ السيرة تكرّر اضطرار الفاضل للموافقة على ما سبق لذي الشرفين أن اتفق عليه مع الصليحيين .

ملكية الأشراف لبعض المدن والبلدات مثل حمودة وحاز وبيت شُعيب وبيت سود . ولم يكن يسع الشريف الفاضل رفض تلك الوثائق التي وافق عليها أخوه فوافق عليها أيضاً ، وأرسل ابنه محمداً إلى صنعاء رهينةً لدى الصليحيين حيث بقي هناك طوال حملتهم على زبيد (19 صفر ـ 26 ربيع الثاني 460 هـ/28 ديسمبر 1067 ـ 2 مارس 1068 م) .

أمّا الداعي الإسماعيلي إدريس المُوالي للصليحيين فيزعُمُ في كتابه : **العيون** أنّ الشريف الفاضلَ هو الذي نقض العهد مع المكرَّم بتهديده لصنعاء خلال غياب الصليحيين عنها ، وهو يعتبر ذلك بين أسباب تخلّي المكرَّم عن ملاحقة سعيد الأحول ، وإسراعه في العودة إلى صنعاء[1] . لكن مؤلّف السيرة يُصِرُّ على رعاية الفاضل لتعاقُده مع الصليحيين ، ويتّهمهم بنقض العهد بمجرَّد فوزهم على الأحول وعودتهم من زَبيد . والحقُّ أنّ الاتهامات ضدّ الشريف الفاضل لها ما يُسوِّغُها في استمراره في الإعداد للإغارة على صنعاء كما سبق أن اتفق على ذلك مع سعيد الأحول ؛ لكنّ لا شكّ أنّ ذلك كان من جانبه لاحتمال انتصار الأحول على الصليحيين . وكان رسولاه إلى سعيد الأحول قد عادا من زبيد بتفاصيل حول الحملة المشتركة وكان هو ما يزال مرابطاً بخرفان[2] ، وما كادا يصلان إليه حتى بلغته أخبارُ هزيمة سعيد وهربه[3] . وسارع الشريف الفاضل بالانسحاب إلى عيان . ولذا كان بوسعه الادّعاء أنه لم يخالف شروط التعاقُد مع الصّليحي ، وأنّ الصليحيين هم الذين بدأوا بالهجوم . وكان الصليحيون من جانبهم عقب عودتهم من تهامة قد فقدوا الاهتمام بالحفاظ على العهد مع الفاضل أو تجديده وبخاصةٍ أنّ ذلك العهد تضمن تنازُلاتٍ عن أراضٍ وبلادٍ للشرفاء اضطر إليها الصليحيون لكي لا يقاتلوا على

(1) الصليحيون ، ص 120 وما بعدها ، 125 . ومما يلفت الانتباه أنّ الداعي إدريس لا يذكر التنازلات السياسية المعتبرة التي وافق عليها الصليحيون لصالح الشريفين ؛ بل يكتفي بالقول إنّ المكرَّم أمر للشريفين « بكسوةٍ فاخرةٍ ودنانير كثيرة » .

(2) تقع خِرفان في جنوب شرق خَيوان (قارن : Edward Glaser's Reise nach Márib ,Maps 2, 3) وهكذا فإنّها بعيدةٌ عن صنعاء .

(3) ق 243 . وتتحدّث السيرة خطأً عن مقتل سعيد بن نجاح ، الذي لم يُقتل في الحقيقة إلاّ في الحملة الثانية للمكرّم على تهامة عام 461 هـ/1069 م (الصليحيون ، ص 13) .

جبهتين . سارع الصليحيون بمجرد عودتهم للإغارة على الجَوف الأعلى فخرَّبـوا الحدائق والكروم ، وقطعوا أشجار النخيل ، وكتبوا رسالةً إلى بني الدِعام يتهددونهم فيها ، ويحاولون صرفهم عن الاستمرار في الانتصار للشـرفاء . ولم يتـراجع بنـو الدِعام بل أعلموا الشريف الفاضل بما كان ، ورفضوا عرض الصليحيين للتقارب معهم . ونجح المكرَّم الصليحي أكثر مع بني ذيبان الذين هزمهم وأرغمهم على عقدٍ معه لمساعدته عسكرياً ، والامتناع عن مساعدة الأشراف أو إيوائهم[1] .

أمام تحديات الهجوم الصُليحي ، قرّر الفاضل البحث عن قلعةٍ جبلبةٍ يستطيع عند الضرورة الانسحابَ إليها والصمودَ فيها مع أتباعه . فوقـع اختياره على قـرية شهارة الجبلية الواقعة في بلاد الأهنوم . وهكذا أرسل أولاً أخاه ذا الشرفين للسيطرة على الجبل ؛ لكنه لم يكن قادراً على القيام بتلك المهمة إذ لم تجر مشاورات مُسْبَقَةٌ بينه وبين السكّان المحليّين . لذا أرسل الفاضل بعدها الفقيه علي بن أحمد بن أبي الجيش والشيخ يعقوب بن سليمان العُبيدي مع جماعةٍ من الأنصار ، حيث استطاعوا الحصول على موافقة وتعاون بعض شيوخ الأهنوميين والظُليميين : وتحرك الفاضل إلى حُـوث ، وأرسل أخـاه سنان الـدولة مـع عشرة رجـالٍ لكي يصعدوا إلى قمـة جبـل شهارة فيوقدوا عليها النيران علامةً على نجاح مهمتهم إن كان ذلك . وأخفى الرجال أنفسهم في بيت أحد المتعاونين معهم من الأهنوم . وفي ظلمة الليل تسلّقوا الجبل وانصرف أحدهم لمشاغلة حرّاس باب سُور القرية ، وقرع الآخرون الباب فلمّا سارع بعضُ أهل القرية ليلاً ورأوا خارجه الشريف وشيوخ الأهنوم الموافقين لهم خـافوا وتفرّقوا . ودخل الشريف وأتباعه القرية ؛ وفي الليلة المقبلة أوقدوا النيران على قمة جبل شهارة . فعاد الشريف الفاضل بسرعةٍ إلى الجوف الأسفل ، ومضى بعد أيامٍ بخيلٍ ورجالٍ من بني نِهم وسُفيان ، والشيعة الحسينية ، إلى شهارة . وصعد إلى الجبل ودخل القرية في آخر أيام رمضان عام 460 هـ/2 أغسطس 1068 م . بذلك صارت شهارةُ حصْنَ الشرفاء القاسميين ، والمقرّ الدائم للأمير ذي الشرفين ؛ بينما

---

(1) يتحدّث الداعي إدريس عن انتصار المكرَّم (الصليحيون ، ص 127) . وقد عُقدت المعاهدة في 24 جُمادى الأولى عام 460 هـ/ 28 مارس 1068 م .

بقي الفاضلُ غالباً في الجَوف الأسفل . وقد مكّن جبل شهارة وحصنها الشرفاء من الثبات في وجه هجمات الصليحيين رغم تفوُّقهم العسكري الواضح . ويبدو أنّ نقطة التحوُّل في الحرب بين الطرفين كانت فَشَل الصليحيين في الاستيلاء على شهارة بعد حصارهم الكبير لها . قاد الحصارَ على شهارة كُلٌّ من المكرَّم وأحمد بن مظفَّر مع صليحيين آخرين عام 462 هـ/1070 م بعد عودة المكرَّم من حصاره الثاني لزَبيد . وصمد ذو الشرفين للحصار الذي استمرّ زهاء الخمسة الأشهر[1] ؛ والذي لم يستطع الفاضلُ الوقوفَ فيه إلى جانب أخيه لشغل الصليحيين له بميادين أخرى . لكنه تمكّن من إيصال أموالٍ لذي الشرفين كان قد تلقّاها من جيّاش بن نجاح حاكم زَبيد الجديد[2] الذي استمرّ في دفع مبالغ شهريةٍ للشرفاء . وقد أوصلها مع وفدٍ سمح له الصليحيون بالوصول عبر خطوطهم لأنه كان يحملُ رسالةً من الفاضل إلى ذي الشرفين ينصحُهُ فيها بالاستسلام[3] . وانتهى الحصارُ بهجومٍ مُباغتٍ قام به المحاصَرون على الصليحيين فقتلوا منهم ثمانمائة رجل ، أو تسعمائة رجل حسب روايةٍ أخرى ، بمنطقة الرحْبة بأسفل الجبل ، ولم يفقد المحاصَرون غير ثلاثة رجال . ومنذ ذلك الحين صارَ بوسع الشرفاء رفض عروض الصليحيين للتعاقُد والتقارب[4] .

وتُورِدُ السيرة بتفصيلٍ كثيرٍ أخباراً وتقارير عن حملاتٍ ومعارك في حياة وحكم الشريف الفاضل قبل حصار شهارة وبعده . ولن أتتبّع ذلك هنا إذ يحتاج الأمر لدراسةٍ منفصلة[5] . ويذكر صاحب **غاية الأماني** كثيراً من تلك الأحداث والمعارك ، بين

---

(1) ق 251 . ولا تذكر السيرةُ تاريخاً لحصار شهارة . لكنها تذكر وصيةً لذي الشرفين كُتبت أثناء الحصار ؛ وهي مؤرَّخةٌ في رجب 462 هـ/إبريل - مايو 1070 م (ق 249) .

(2) هرب جيّاش إلى الهند بعد أن هزم المكرَّم آل نجاح في رمضان عام 461 هـ/ يوليو 1069 م (الصليحيون ، ص 131 وما بعدها) . ويذكر عُمارة (نشرة الأكوع ، ص 136) أنه عاد إلى زبيد بعد ستة أشهر .

(3) ق 251 ـ 252 .

(4) ق 242 .

(5) هناك مشكلةٌ ناجمةٌ عن أخبار حملة العام 461 هـ/1068 ـ 1069 م يحسُنُ التعرضُ لها هنا . فخلال الحديث عن تحركات الفاضل ذلك العام تذكر السيرة وصول الشريف أبي الفتح الناصر بن =

العامين 463 و 478 هـ بإيجاز معتمداً في ذلك على السيرة اعتماداً كاملاً تقريباً[1] . ولا شكّ أنّ ذُروة انتصارات الشريفين كانت استيلاء الفاضل على صعدة في رمضان عام 463 هـ/يونيو 1071 م حيث أُقيمت الخطبةُ باسمه في جامع الهادي هناك ، وأُخذ زعيم أنصار الصليحيين بالمدينة أسيراً[2] . ثم الاستيلاء على جبل مَسْوَر في رمضان عام 464 هـ/مايو ـ يونيو 1072 م[3] ـ وهو الانتصار الذي خلّده ذو الشرفين بإنشاء دارٍ لِسَكِّ النقود بمَسْوَر[4] . لكن لم تكن كلُّ الغارات التي ذكرتْها السيرة غاراتٍ على الصليحيين . فمع مُضِيّ السنوات صار ضرورياً في كثيرٍ من الأحيان إخماد تمرداتٍ كانت تنشب ضدّهم بين القبائل الموالية لهم . وكانت الضرائب الثقيلة التي يستصفيها الأميران السبب الرئيسي لأحداث التمرد بين رعاياهم . أمّا

= الحسين الحَسَني الديلمي من العراق ، ونشاطاته خلال العام (السيرة ، ق 247 ـ 248) . لكنْ كلّ المصادر الأخرى تذكر أنّ الإمام الزيديَّ أبا الفتح الناصر الديلمي كان قد أتى إلى اليمن قبل أكثر من عقدين من السنين ، وقُتل في معركة نجد حاج عام 444 هـ/1052 ـ 1053 م . ولذا فإنّ ذكره في السيرة في العام 461 هـ/1069 ـ 1069 م مدعاةٌ للاستغراب . فهل يرجع ذلك إلى خَلْطٍ بينه وبين أحد أبنائه ؟ يبدو هذا الاحتمال غير مرجّح لأنّ مفرّحاً كان حاضراً بنفسه في بعض تلك الأحداث . أو أنّ الرجل ادّعى أنه الإمام أبو الفتح العائد ؟ ولا يمكن الحكم على مدى جدية هذا الاحتمال استناداً إلى السيرة لأنها لا تذكُرُ الإمام أبا الفتح من قبل . لذا فلا أستطيع في الوقت الحاضر تفسير أخبار السيرة المتأخّرة هذه عن أبي الفتح .

(1) غاية الأماني 1/262 ـ 270 .

(2) ق 258 وما بعدها . وتبعاً للخبر الذي تورده غاية الأماني 1/262 فإنّ الخطبة كانت قد جُعلت « لبني الهادي » في فترة « سابقة » حتّى كسب أنصار الصليحيين الجَولة على آل الهادي هناك . ولا تذكر السيرة ذلك بالتحديد . لكنّ هذه لم تكن المرة الأولى التي يُخْطَبُ فيها للصليحيين بالمدينة . فالسيرة تذكر أنْ « مُجاب بني الصليحي » كان يسيطر على صعدة إبّان هرب الشريف الفاضل من اليمن عام 451 هـ/1059 م (السيرة، ق 242) . فربما أمكن لآل الهادي بصعدة أن يحوّلوا الخطبة لصالحهم بعد فشل الصليحيين في حصار شهارة قبل ذلك بعام . ويظهر أنّ أكثر الناس والتجار بالمدينة كانوا موالين للصليحيين . أمّا زعيم الحزب الصليحي جعفر بن الحسن الشميري (الإعجام غير مؤكّد) فقد بقي أسيراً بشهارة لستّ سنين إلاّ شهرين ، أي حتى العام 469 هـ/1077 م (ق 283 ، وليس حتى العام 470 هـ كما في ق 259) حيث أُطلق سراحُهُ من جانب ذي الشرفين بناءً على رجاء أهل صعدة ، بعد أن دفع فديةً قدرها ثلاثة آلاف دينار .

(3) ق 261 ؛ والغاية 1/264 .

(4) ق 266 . جمع الشريف الفاضل الفضّة من أتباعه وأقاربه لهذا الغرض .

الشريفان فكانا يبرّران تلك الضرائب بضرورات ونفقات الجهاد ضدّ « الكفرة » من الصليحيين ، الذين كانوا ينبزونهم باسم القرامطة . وتُورِدُ **السيرة** بالتفصيل أقوالاً واقتباساتٍ للأميرين من تراث الأئمة في تسويغ تلك الضرائب الاستثنائية لمجاهدة أولئك الملحدين القُدامى . ومن جهةٍ ثانية ، فإنّ هذه الحملات ضدّ القبائل الثائرة كانت أقلّ شعبيةً لدى الجيش من الحرب مع الصليحيين ؛ إذ كانت الغاراتُ على أولئك تَعِدُ بمغانم أكبر . ولا تُخفي **السيرة** تذمُّر الجيش من قرارٍ اتخذه الفاضل في المحرَّم عام 467 هـ/سبتمبر 1074 م بالقضاء أولاً على تمردٍ في ناحية مسور بدلاً من غارةٍ كان قد خطّط لها ضدّ الصليحيين . وقد أطاع الجيش أوامر الفاضل بعد تردُّدٍ ، وانتهت تلك الحملةُ بالفشل ، وبخسائر كبيرةٍ للشريفين[1] .

وفي مطلع العام 468 هـ/ أغسطس 1075 م استولى على الشريف الفاضل من جديدٍ غرامه القديم بالزراعة ، وقرّر أن يحوِّل منطقة عَمران بوادي الخارد[2] من جديد إلى بيئةٍ زراعيةٍ لصالح المسلمين والإسلام . وهكذا جمع عمالاً ومتطوعين واستعداداتٍ أخرى ، ومضى إلى تلك المنطقة بحريمه وخيله ومتطوعيه ، آخِذاً على بني الدِعام أهل تلك المنطقة العهودَ والأيمان بحسن الجوار . وقُسّمت منطقة عَمران إلى ثلاثة أقسامٍ ؛ الثلث الأول لبني نِهْم ، والثلث الثاني لبني الدِعام وبني نِشْق ؛ الذين كانت لهم المنطقة في غابر الزمان[3] ، والثلث الثالث للفاضل وذي الشرفين . وبقي ذو الشرفين بشهارة مع أتباعه ورفاقه . ولم يكن بعضُ بني نهم راضين عن الثلث الذي جُعِلَ لهم ؛ وقد عبّروا عن عدم رضاهم بإشعال النيران على جبلٍ قريب . وتلقّى الفاضل من جديدٍ أيماناً وتأكيداتٍ من بني الدعام بالحماية وحسن الجوار واستقرّ بعَمران . ولم يكد الفاضل ينتهي من جرّ ساقية ماءٍ ، ودرب للمساكن بالناحية حتّى هوجم من جانب بعض رجال القبائل وقُتِلَ في 23 صفر 468 هـ/5 أكتوبر 1075 م[4] . وعلى مقربةٍ منه قُتل الشريف القاسم بن

(1) ق 275 ـ 276 .

(2) الهمداني : صفة ـ الفهارس . وانظر أيضاً : عَمران

(3) الهمداني : صفة ، ص 82 ، 127 .

(4) ق 241 : كان عمره سبعةً وخمسين عاماً . وفي غاية الأماني 1/268 فإنّ تاريخ وفاته يُذكر خطأً باعتباره ذا الحجة عام 468 هـ .

إبراهيم ابن سليمان ، وسُلبت أفراسُهُم وأسلحتُهم . أمّا محمد ابن الشريف الذي كان حينها في السَكَن مع الحريم فقد أخذ مع الحريم من جانب رجال القبائل مع سلاحه وخيله . وتـوبع القَتَلةُ السـالبون تلك الليلة من جـانب الجحّاف بن مـانع ونُباتة بن ربيع الدعاميين ، حيث نجحا في إطلاق سراح محمدٍ والحريم . ودُفن الشريفان المقتولان أولاً بحُوث لدى الحسن بن الدعام[1] . وتذكر **غاية الأماني** أنّ المكـرّم الصليحي كان وراء حـادث الاعتداء . أمّـا مُفَـرِّح فـلا يـذكـر شيئـاً عن الصليحيين ، ويعتبر نهماً وبني الدعام المسؤولين الوحيدين عن ذلك .

ترك مقتلُ الشريف الفاضل الأمير ذا الشرفين متفرداً بالسلطة ؛ لكنّ موقفه كان محفوفاً بمصاعب كثيرة . واتّجه في حركته الأولى للثأر للشريفين القتيلين . وفي سبيل ذلك كتب رسالة استصراخٍ واستنجادٍ إلى سائر القبائل المُوالية طالباً العون والمُساعدة ، وواصفاً القتلة من بني نِهم بأنهم « أشرّ وأخبث مَنْ علمتُ من جميع الناس »[2] . ولا تذكر **السيرة** إن كان القتلةُ قد أُدركوا أو عوقبوا ؛ مع أنها تُسمّي واحـداً منهم[3] . وبـدلاً من أن يصغي ذو الشـرفين لاعتبـارات استقـرار السلطة ومستقبلها ، تحوّل إلى كتلةٍ من الغضب المشتعل بالرغبة في الثأر ، ومال إلى إيقاع عقوبات « جماعية » ببني نِهم ، وبني الـدعام ؛ رغم أنّ الأخيـرين كانـوا العمود الفقري لجيشه . وكانت قبائلُ أخرى قد خرجت على طاعته عندما قُتـل الشريف الفاضل[4] . ويبدو محتَملاً أنه في هذه الظروف عاد ذو الشرفين للتعاقُد وتحديـد الحدود مع أحمد بن المظفّر الصليحي رغم أنّ **السيرة** لا تـذكر تـاريخاً للمهـادنة الجـديدة[5] . وصـارت حملةُ الثأر مستعـدةً للانـطلاق أخيراً في جُمـادى الأولى عام 469 هـ/ يناير 1077 م . وكانت أعدادٌ كبيرةٌ من المقاتلين قد تجمّعت خارج شهارة للانطلاق في غارةٍ إلى الشَرَف الذي ظهر فيه ثائرٌ إباضيٌّ يدعو إلى نفسه .

---

(1) في المخطوطة : في حَرْث الحسن بن الدعام . ويبدو أنه هو الصحيح (المترجم) .

(2) ق 278 ـ 279 .

(3) ق 278 .

(4) ق 288 .

(5) ق 303 . وتُذكَرُ في هذه الفقرة محاولاتٌ سابقةٌ لتجديد التعاهد والتعاقُد بين الطرفين دون إيضاحٍ لظروف ذلك .

لكنّ ذا الشرفين أخبرهم قبل الانطلاق مباشرةً بالاتجاه الحقيقي للحملة . وفي البطِنة حاول نُباتةُ بنُ الربيع الدعامي الانضمامَ إلى الجيش ، وسأل الوصولَ إلى ذي الشرفين من أجل الاعتذار والأمان . وأبى الشريف استقباله ، واضطُرّ للهرب مع رجاله عندما ساورهم الخوفُ على حيواتهم . واخترق الجيش أراضي بني نهم وبني الدعام مُخرِّباً ومُحَرِّقاً وقاتلاً كلّ مَنْ لم يهرب . واستُخرجت جثّتا الشريفين المقتولين ، وتنازعت القبائلُ شَرَف دفنهما بأرضها . وجرى الاتفاقُ أخيراً على دفن الشريف الفاضل بالحَضن من بلاد وادعة بالظاهر ، والشريف القاسم بن إبراهيم في عيان .

وكما كان متوقّعاً فإنّ القبائل المُطارَدَة انتقمت لنفسها بممالأة العدوّ . فقد كتب بنو الدعام إلى الصليحيين عارضين عليهم الانضمامَ إلى قواتهم . وسارع الصليحيون بعد موت السلطان أحمد بن مظفّر إلى نقض العهد[1] مع ذي الشرفين ؛ وصار بوسعهم الاندفاع عميقاً في شمالي اليمن . وهكذا اجتاح سليمان ابن عمير الزواحي البَون[2] وشَرَف البياض من مخاليف شَهارة . أمّا خيلُ المكرَّم فقد وصلت إلى أقَر على مقربةٍ من شهارة مقرّ ذي الشرفين[3] . واستطاع ذو الشرفين مؤقتاً استعادة زمام الأُمور . فقد اتجه للاستعاضة عن قبائل الجَوف ببني مالك وربيعة خَولان من قبائل نواحي صعدة ، كما استعان بالصعديين . وهناك تفاصيل في السيرة عن تحركات ذي الشرفين العسكرية لن نعود إليها هنا . بل نريد أن نذكر فقط حملة ذي الشّرفين ضدّ الثائر الإباضي الحَطيط بن عبد المجيد في ذي القعدة عام 469 هـ/يونيو 1077 م . وقد نجح في إخضاع الثوار مع الحطيط ، وعيّن نشوان بن نشوان سلطاناً على الشّرَف . لكنّ السيرة لا تذكر شيئاً عن مصير الحطيط نفسه[4] .

(1) ق 303 . ولا نعرف تاريخ وفاة أحمد بن المظفّر . أمّا غاية الأماني 1/269 فتذكر أخبار الهجوم الصليحي بالكامل تحت العام 469 هـ . ويبدو ذلك ملائماً بالنسبة لبداية الهجوم ، أمّا حملة المكرّم فيبدو أنها كانت بعد ذلك .

(2) ق 285 .

(3) ق 303 .

(4) ق 284 ـ 286 ؛ وغاية الأماني 1/269 .

كان ذو الشرفين قد أُصيب بمرضٍ خطيرٍ عام 473 هـ/1080 ـ 1081 م لكنه ما لبث أن أبلّ منه ليسقط مريضاً مرةً ثانيةً في ذي القعدة عام 477 هـ/مارس 1085 م . ويوردُ مفرِّح تقريراً مفصَّلاً عن تطورات مرض ذي الشرفين أخذه من عن ابنه عمدة الإسلام ، الذي يذكر حالات إغماءٍ طويلةٍ لوالده أثناء المراحل الأخيرة من المرض[1] . ومات ذو الشرفين أخيراً في 23 محرَّم 478 هـ/19 مايو 1085 م عن عمرٍ يُناهز السبعة والأربعين عاماً[2] .

وتكتفي السيرة بعد هذا بإيراد تعازي القبائل للأمير عمدة الإسلام جعفر ابن الشريف وخليفته ، ثم تتوقّفُ عند هذا الحدّ من السرد التاريخي[3] .

أمّا **غاية الأماني** فتذكر أنّ جعفراً كان آخِر الحكّام من آل الإمام القاسم العياني . وقد انتهى حكمهم في عهده بسبب الخلافات التي نشبت فيما بينهم[4] . لكنّ السيرة التي كُتبت بعد وصول جعفر للسلطة باثني عشر عاماً لا تذكر شيئاً عن ذلك . فقد كانت هناك خلافاتٌ بين ذي الشرفين وأخيه سنان الدولة أحمد لأسبابٍ مجهولةٍ ، أدَّت إلى افتراقٍ مؤقَّتٍ بينهما وتمردٍ للأخير بصعدة[5] . لكنّ الأزمة ما لبثت أن انتهت ، و السيرة تذكر سنان الدولة بين المعزّين لجعفر والمُبايعين له . وكان محمد ابن الشريف الفاضل يملك حظوظاً طيّبةً للخلافة بعد وفاة ذي الشرفين . وفي السيرة وصيةٌ منسوبةٌ لذي الشرفين تُسمّي محمد ابن الفاضل ، وجعفر ابن ذي الشرفين باعتبارهما قد صارا « كبيري هذه الذرية »[6] . وكان عمدةُ الإسلام جعفر قد عيّن محمداً آمراً على قلعة شهارة . وليس في السيرة ما يفيد أنّ محمداً تسبّب بعدها بأيِّ إزعاجٍ لابن عمّه . ويصف مفرّح شهارةَ زمن كتابته للسيرة باعتبارها مدينةً شديدة الازدهار ؛ فقد بلغ عددُ منازلها 511 منزلاً . وكان الأمير

(1) ق 291 ـ 293 .
(2) ق 297 . ومولده في رجب عام 430 هـ/إبريل 1039 م .
(3) ق 292 ـ 293 .
(4) غاية الأماني 1/270 .
(5) ق 288 .
(6) ق 293 : قد صرتما كبيري هذه الذرية .

عمدة الإسلام قد أمر بتمهيد طريقٍ من أسفل الجبل يمكّن من وصول الجِمال إليها . كما بنى قبةً بثلاثة أبوابٍ على قبر والده[1] .

IV

ومما يدعو للأسف أنّ السيرة لم تُتابَعْ بعد ذلك . لذلك فإنّ تاريخ الأشراف القاسميين المتأخّر ، ومصائر الشيعة الحسينية التي نعرفُ أنها استمرت حتى القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي[2] ، لا بُدَّ أن تُجمع قطعةً قطعةً من أخبارٍ عارضةٍ بالمصادر الأخرى عن تاريخ اليمن . أمّا بالنسبة لعقود السنين الواقعة أواسط القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ؛ فإنّ سيرة الأميرين تُعتبر مصدراً معاصراً وتفصيلياً من الطراز الأول ، ليس للتاريخ السياسي والديني لشمالي اليمن فقط ، بل وللجغرافية التاريخية وللحياتين الدينية والاجتماعية بتلك النواحي من اليمن . ورغم أنها مكتوبةٌ أصلاً لتخليد أعمال الشريفين ، وإبراز معاناتهما وإنجازاتهما ؛ فإنها تتّسم عموماً بطابعٍ حَدَثيٍّ تقريريٍّ ، تمكن الثقة به والاعتماد عليه[3] . لذا فلا حاجة لمزيدٍ من التأكيد على أهميتها كمصدرٍ تاريخيٍّ وضرورة نشرها كاملة . ومما يؤسَفُ له أنّ المخطوطة التي وصلتنا (من مختصرها) متأخّرة النّسْخ[4] ، وسيّئة النوعية ، وحافلة بمواطن البياض ، ووجوه التشويه ، والأسماء غير المعجمة . فالمرجوّ أن تظهر نسخةٌ أخرى لها أحسن نوعاً تسهّلُ عمل الناشر . لكنْ حتّى في حال عدم وجود النسخة الأُخرى ؛ فإنّ نشرةً جيّدةً للسيرة تظلُّ ممكنةً إذا توافرت لنصّها العناية الضرورية ، والجهد الكافي .

---

(1) ق 260 . وهناك معلوماتٌ عن نباتات شهارة وأشجارها ومعادنها في السيرة ، ق 244 ـ 245 .

(2) W. Madelung ; Der Imām al- Qāsim , P. 201

(3) لا أستطيع موافقة القاضي محمد الأكوع في حكمه على مؤلّف السيرة بأنه : « يطوي انتصارات الصليحي ويذويها بينما يطبّل ويزمّر لمولاه في أضاليل وكرامات هي بالخرافات أشبه . . . » (ص 110 من الطبعة الأولى ، وص 95 من الطبعة الثانية) . فمؤلّف السيرة لا يكتب تاريخاً لآل الصليحي . أمّا في سياق تاريخ الشريفين فإنّه لا يتردّدُ في ذكر انتصارات الصليحيين وهزائم الأشراف . ولذا فإنّ أيّ مقارنةٍ لمؤلّف السيرة بعمارة والداعي إدريس ستكون لصالح صاحب السيرة ؛ إذ إنّ الآخرين يتجاهلان تماماً هزائم الصليحيين ، وإخراجهم من المناطق الشمالية باليمن في عهد المكرّم .

(4) تاريخ الانتهاء من نَسْخ المخطوطة هو 1 رجب 1066 هـ/25 أبريل 1656 م .

في التقديم

سيرة الأميرين الجليلين الشريفين والشيعة الحسينية باليمن

I

يبدأُ تقليد كتابة « السِيَر » عند الزيدية بثائرهم الثالث بعد زيد بن علي بن الحسين (ـ 122 هـ) وابنه يحيى (ـ 125 هـ) محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ، الملقّب بالنفس الزكية القائم على المنصور (136 ـ 159 هـ) مع أخيه إبراهيم عام 145 هـ .

لكنّ « سيرة » أو « سِيَر »[1] النفس الزكية تدخُلُ في جنسٍ آخَر من أجناس التأليف غير التراجم الشخصية اشتهر في القرن الثاني على الخصوص . ويُعنى هذا الجنس « بسيرة المسلمين في المُعاملة مع المشركين من أهل الحرب ، ومع أهل العهد منهم من المستأمنين وأهل الذمة ، ومع المرتدّين الذين هم أخبَثُ الكفّار بالإنكار بعد الإقرار ، ومع أهل البغي الذين حالُهُم دون حال المشركين وإن كانوا

(1) تختلف المصادر الزيدية في تسمية الكتاب ؛ فيسمّيه أبو طالب يحيى بن الحسين بن هارون (ـ 424 هـ) في **الإفادة في تاريخ الأئمة السادة** (مخطوطة ضحيان) ص 22 ـ 23 : **كتاب السِيَر** ؛ وقارن **بالحدائق الوردية** لحُميد المحلّي ، 1/155 . وفي **الجامع الكافي** لأبي عبد الله محمد بن علي الحَسَني العلوي (ـ 429 هـ) (مخطوطة الجامع الكبير بصنعاء) م 5/ق 279 ب تسميته بالسيرة ؛ وقارن **بالروض النضير** 4/666 . وانظر عن كتاب النفس الزكية وفكره ؛ رضوان السيد : محمد النفس الزكية ورسالته في السيرة في أهل البغي ؛ مجلة كلية الآداب بجامعة صنعاء ، م 11/1990/ ص 105 ـ 132 . وقد جمع رضوان السيد كتاب « **السيرة** » للنفس الزكية ، ويصدر قريباً عن دار المنتخب العربي ببيروت .

جاهلين وفي التّأويل مُبْطلين »[1] . أمّا « السيرة » بالمعنى المفهوم لها اليوم (أي الترجمة الشخصية) فقد افتتح التأليفَ فيها علي بن محمد العلوي ، صاحب الهادي إلى الحقّ يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم (245 ـ 298 هـ) مؤسِّس الدولة الزيدية باليمن[2] . فقد كتب العلويُّ سيرةً للهادي ، لا تعرض لحياته قبل دخوله الأول إلى اليمن عام 280 هـ ؛ لكنها تتحدّث بالتفصيل عن أعماله باليمن ، ودعوته فيها ، وعلاقاته بالقبائل ، وما أُصيبت به دعوته من انتكاساتٍ أواخر حياته . ولسيرة العلوي ـ كما هو شأنُ سِيَر أصحاب الدعوات ـ طابعٌ أيديولوجي وأخلاقي ؛ لكنّ ذلك لا ينفي حدَثيّتَها وموضوعيتها السردية . فهي ليست « سيرة » داخليةً لأفكار المترجَم ومشروعاته ، بل إنها تتبع أحداث حياة الهادي باليمن ، وامتداد سلطانه ، وصراعاته مع القبائل ، والقبائل التي تحالفت معه لأسبابٍ دينيةٍ أو جغرافيةٍ أو مصلحية . وهي تُظهرُنا على بيئةٍ شديدة التعقيد والتفاوت من النواحي كافة . وتحفل بكلمات الهادي وخُطَبه ورسائله التي ينبغي الاستنادُ إليها في معرفة العقائد الزيدية آنذاك ، وعلاقات تلك العقائد بفقه الهادي أو فتاواه الفقهية ، وصِلات ذلك كلّه بما كان في الحجاز والعراق آنذاك .

والسيرة الثانية من سِيَر الزيدية باليمن ؛ تلك التي كتبها عبد الله بن عمر الهمداني لمحمد المرتضى وأخيه الناصر أحمد بن الهادي[3] . وهي لا تكاد تختلف

---

(1) **المبسوط** للسرخسي م 10/ص 2 .

(2) نشرها سهيل زكّار بدار الفكر ببيروت عام 1972 بعنوان : « سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين عليه وآله السلام . رواية علي بن محمد بن عبيد الله العبّاسي العلوي ابن عمّ الهادي وصاحبه » .

(3) لم تصلنا سيرةُ المرتضى والناصر للهمداني مستقلةً ؛ بل وصلت مشذَّبةً ضمن الجزء الباقي من تاريخ مسلّم اللحجي (ـ 552 هـ) ـ وقد نشرها الأستاذ ويلفريد ماديلونغ W. Madelung بعنوان : سيرة الإمام أحمد بن يحيى الناصر لدين الله ـ منتزعة من كتاب أخبار الزيدية من أهل البيت عليهم السّلام وشيعتهم باليمن . تأليف أبي الغمر مسلّم بن محمد بن جعفر اللحجي ، Ithaca Press. Exter مع المعهد الشرقي بجامعة أكسفورد ، الطبعة الأولى 1990 . ويقول مسلّم في المقدمة (ص 4 ـ 5) : «وأوردُ هنا لُمَعاً ونُكَتاً من من أخبار الإمامين الفاضلين أبي القاسم محمد وأبي لحسن أحمد ابني الهادي إلى الحقّ يحيى بن الحسين عليهما السّلام : رواية الشيخ عبد الله بن عمر الهمداني صاحبه ؛ وهو كتابٌ عظيم القدر في الدين . وقد كاد ينقطع ويعدم لضعف هِمَم كثيرٍ من الناس في اقتنائه لا سيما أهل اليمن . . . » .

من حيث طرائق السرد ، والتركيز على الأحداث لا على شخصية المترجَم نفسه ؛ عن سيرة الهادي للعلوي . بيد أنها تعرض لإشكاليةٍ تتعلق بالشرعية عند الزيـدية الأوائل ، ما كانت مطروحةً من قبل . فالمعروف أنّ محمداً المرتضى خلف أبـاه الهادي عند وفاته . على أنه تحت وطأة النكسات المتتابعة اعتزل الأمر عملياً دون أن يتنازل عنه صراحةً ؛ فتولّى أخوه الناصر النهوض بأعباء الدعوة والدولة مع بقاء الأمور على شيءٍ من الغموض حتى وفاة المرتضى عام 310 هـ إذ لم ينقض إمامة أخيه المرتضى ، ولم يصرّح بدعوةٍ جديدةٍ غير دعوته . لذلك يحاولُ الهمداني التأكيدَ على تفوُّق الناصر العلمي ، وتوافر شروط الإمـامة فيـه على الوجـه الأكمل . ثم ينصرفُ للتدليل على أنّ أعمال الناصر السياسية والعسكرية في حيـاة أخيه كـانت بموافقته بعد أن مال هو نفسه للاعتزال ، ويئس من إخلاص القبائـل له في وجـه مصاعب مصارعة القرامطة ، الذين قاتلهم الناصر عندها بكفايةٍ منقطعة النظيـر . وبذلك تُضاف « الضرورة » المتمثّلة في الدفاع عن الإسلام والمسلمين إلى مؤهّلات الناصر وأسباب شرعيته . وقد تكفّلت كتب التراجم الزيدية فيما بعد بضبط الصورة تماماً عندما ذهبت إلى أنّ الناصر ما ادّعى الإمامة ، إلّا بعد وفاة أخيه عام 310 هـ ، مع أنه قاد الجيش والدولة منذ العام 302 هـ[1] . وفيما عدا ذلك ينصرف عبد الله بن عمر الهمداني لِسَرْد أعمال النـاصر العسكـرية ضـد القرامـطة وغيرهم من أعـداء الدولة . وتدعم إطالتُهُ في ذلك دعواه في كفايات الناصر الدينية والشخصية .

وتظلُّ مسألةُ الشرعية هماً رئيسياً بين هموم كُتّاب سِير الأئمة من الزيدية بعد

---

(1) أمّا أبو العباس أحمد بن إبـراهيم الحسني (ـ 352 هـ) في **كتاب المصـابيح من أخبـار المصطفى والمرتضى والأئمة من ولدهما** (مخـطوطة السيـد أحمد بن محمـد الشامي بصنعـاء) ، ق 116 أ (بترقيمنا) ، والسيد أبو طالب في **الإفادة** (مخطوطة ضحيان) ، ص 83 فيقولان إنه « تسلّم الأمر من أخيه في صفر سنة 301 هـ » . وأمّا حُميد المحلّي فيقول في **الحدائق الوردية** 1/ 46 : « واعتزل رضي الله عنه الأمر وخلا بربّه . . . وأقام الأمر على حاله ولم يُظهِروا له خلافاً ولا كراهةً لأمره . . . وكان أخوه الناصر . . في الحجاز فقدم بعد ذلك ، فأشار المرتضى عليه بالقيام بالأمر ، وكانت مدة انتصاب المرتضى للأمر نحو سنتين . وتوفي بصعدة سنة عشرٍ وثلاثمائة . . . » . ويوردُ مفرِّحُ بنُ أحمـد صاحب **سيـرة الأميرين** ، في المخـطوطة ق 92أ ـ 94 ب رسـالةً طـويلةً للمـرتضى كتبهـا للريان (؟) الهمداني في تسويغ سلوكه في الاعتزال ، لكنه لا يصرّح بترك الإمامة .

الهمداني ؛ دون أن يقلّل ذلك من طابعها السردي الحَدَثي . فقد كانت مشكلةُ الحسين بن أحمد بن يعقوب كاتب سيرة المنصور بالله القاسم بن علي العياني (310 ـ 393 هـ) أنّ الأخير لم يكن من سُلالة الهادي[1] ، بل من سُلالة عمِّه محمّد بن القاسم بن إبراهيم ، ولذا فقد لقي مُعارضةً من بعض أعقاب الهادي . ومن هنا جاء تأكيد كاتب السيرة على أمرين اثنين لمواجهة تلك المعارضة : النظرية الزيدية في الإمامة التي لا تعترف بالوراثة في السلطة ، والكفايات البارزة للقاسم بن علي وبخاصةٍ الاجتهاد والشجاعة . ثم إنّ « السيرة » تذكر بالتفصيل مصيرَ اليمنيين إليه عاماً بعد عامٍ بمقرِّه بترج يدعونه للمجيء لبلادهم وقيادتهم . وعندما جاء للمرة الثانية عام 388 هـ سارع يوسف الداعي ، أحد أعقاب الهادي ، والذي كان قد ثار ودعا لنفسه عام 369 هـ ، إلى مُبايعته والانضواء تحت لوائه وإن خرج عليه فيما بعد . وتبرز من خلال « السيرة » رؤيةُ المنصور العِياني لنفسه وكفاياته . فقد قضى بترج ببلاد خثعم زُهاء العشرين عاماً متفرّغاً للعبادة والعلم قبل أن يقدم لليمن ، ولذلك فإنه بخلاف أعقاب الهادي وابنه الناصر كان أعلم أهل زمانه ، وأحقّهم بالإمامة . وقد ترك كتباً عديدةً في الفقه والأصول وعلم الكلام . ومع أنّ آراءه الفقهيّةَ والأصولية لا تخرج بشكلٍ عامٍّ عمّا عُرِفَ من تُراث الهادي وجدّه القاسم بن إبراهيم ؛ فقد كان أكثر انفتاحاً على زيدية الشمال بجيلان والديلم وطبرستان . فهو لا يرى أنّ الاختلاف في الفروع بين الأئمة مدعاة للنزاع . بل إنه لا يرى مانعاً من قيام إمامين اثنين شرعيين في وقتٍ واحدٍ ؛ هذا وإن لم يكن واضحاً متى ألّف كتاب

---

(1) قارن عن تلك السيرة: A, Madelung; Der Imam al Qāsim b. Ibrahim, P. 194- 197; ders Al- Hamdani's Descripition of Northern Yemen in the Light of Chronicles of the 4th/10th and 5th/11th Centuries; in: Al- Hamdani, a great Yemani Scholar -(ed.Y.M. ʿAbdallah, Sanaa 1986); P. 131-132.

وانظر عن سيرة ابن دعثم للمنصور بالله عبد الله بن حمزة ؛ دراسة عبد الغني محمود عبد العاطي : « أبو فراس ابن دعثم وكتابه السيرة المنصورية » في مجلة كلية الآداب بجامعة صنعاء ، م10/ 1989/ ص 224 ـ 263 . وقد حقّق د. عبد العاطي السيرة، وتصدر قريباً عن دار الفكر بدمشق .

« التفريع »[1] الذي يعبّر فيه عن هذا الرأي أقبل دعوته وإمامته أم بعدها . ثم إنه ليس واضحاً هل يرى إمكان تعدُّد الأئمة باختلاف البلدان أم في البلد الواحد ؛ وإن كان ذهابُهُ إلى أنّ ذلك مشروطٌ بألاّ يحدُثَ خلافٌ بين أتباعهما مُشْعِرٌ بإمكان ذلك في البلد الواحد .

وتعاصرت دعوة القاسم بن علي العِياني مع دعوةٍ أخرى بالديلم هي دعـوةُ المؤيّد بالله أبي الحسن أحمد بن الحسين بن هارون ، من سُلالة الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب (333 ـ 411 هـ) . وللمؤيَّد بالله « سيرةٌ »[2] كتبها المُرشَد (أو المرشِد ؟) بالله أبو الحسين يحيـى بن الحسين بن إسماعيل الحسني الشجري الجرجاني (ـ 477 هـ) . وكان الحسين الموفَّق بالله والد المرشد صديقاً للمؤيّد بالله . وعنه ، وعن آخرين من تلامذة المؤيَّد وزملائه نقل أكثر أخباره . عُرف عن المؤيَّد بالله وأخيه أبي طالب يحيـى بن الحسين الهـاروني (340 ـ 424 هـ) قُربُهما من مـذهبي القاسم والهـادي في الأصول والفـروع ، ولذلـك وجدا أكثـر أنصارهما بين القاسمية بديلمان . لكنّ اختلاف البيئات العلْمية والسياسية بين اليمن من جهة ، والعراق وإيران من جهةٍ ثانيةٍ دفع كاتب سيرة المؤيَّد للتركيز على نواحٍ أُخرى في شخصية المؤيّد وسلوكه غير تلك التي أبرزها كُتّاب سِيَر الأئمة باليمن . فأبرز أسباب شرعية إمامة المؤيّد عنـد المرشـد كاتب «السيـرة» : زهده وورعـه وعلمه . ولذا تطغى أحداث العلم والورع في « سيرة » المؤيَّد حتّى على الأحداث السياسية والعسكرية التي كان المؤيّد على أيِّ حالٍ غير موفَّقٍ فيها . فبخلاف أبيه وأفراد أُسرته انتقل المؤيّد من مذهب الإمامية إلى المذهب الزيدي في شبابه لا لشيءٍ إلاّ لترجّح ذلك عنده بالأدلّة . وعرف المؤيَّد الاعتزالين البصري والبغدادي ، والفقه الحنفي

---

(1) كتاب التفريع (مخطوطة المتحف البريطاني ، رقم 3977) ، ق 244 (عن ماديلونغ) .

(2) رجّح الأستاذ ماديلونغ ضياع سيرة المؤيَّد بالله (أخبار أئمة الزيدية ، القسم الإنجليزي ، ص 20 ـ 21) لذلك اعتمد في أخبار المؤيَّد على ما نقله حُميد المحلي في : الحدائق الوردية (أخبار أئمة الزيديـة ، القسم العربي ، ص ص 261 ـ 292) . لكننـا وجدنـا للسيرة مخطوطتين باليمن ؛ إحداهما بملك السيد أحمد الشامي ، والأخرى بضحيان بجوار صعـدة . وسننشر السيـرة استناداً للمخطوطتين مع تقديمٍ ودراسةٍ لفقه المؤيّد بالله .

من كبار شيوخ الاعتزال بتلك الديار (آمُل والري حاضرة البويهيين) . وربطته صداقةٌ عميقةٌ بالصاحب بن عبّاد (وزير البويهيين المشهور) ، والقاضي عبد الجبّار بن أحمد الأسد أبادي المفكّر المعتزلي الكبير . وما أن بلغ المؤيَّد الخمسين من عمره حتى كان كبير علماء عصره في الفقه والأصولَين . ولذا رأى واجباً عليه أن يخرج داعياً لنفسه كما هو مذهبُ الزيدية في الإمامة . ومع أنه لم يوفَّق في اجتذاب أنصارٍ كثيرين في خروجه الأول عام 380 هـ ؛ فإنّ ذلك لم يثنه عن الخروج مراراً بعد ذلك بمقتضى ما افترضه الله على المجتهدين المحتسبين من أهل البيت[1] .

II

وتذكر « سيرة الأميرين » التي نعرضُ لها هنا ، وننشر نصَّها وملاحقَ معه « سيرةً » للمهدي لدين الله الحسين بن القاسم بن علي العياني . ولا يذكر مفرِّحُ بنُ أحمد مؤلِّفَ تلك « السيرة » ، التي يبدو أنها ضاعت دون أن تُخَلِّفَ أثراً في أعمال المؤرّخين وكُتّاب التراجم من اليمنيين . وعلى الرغم من ضياع « سيرة المهدي لدين الله » فلا بُدَّ من ذكر شيءٍ عن الحسين بن القاسم ودعوته وفكره لما كان له من أثرٍ بعيدٍ على مصائر القاسميين العيانيين ، وبالتالي على كاتب سيرة الشريفين . فالمعروف أنّ همدان قتلت الحسين بن القاسم بذي عَرّار[2] بجانب ريدة عام 404 هـ . لكنْ كان من بين أبناء أسرته وأتباعه مَنْ رأى أنه لم يَمُتْ ، وأنه سيعود ليملأَ الأرضَ عدلاً كما مُلئت جوراً . وليس هناك خلافٌ بين مؤرّخي الزيدية في وجود « الفرقة الحسينية » التي زعمت ذلك ، واستمرّت إلى حدود القرن التاسع الهجري . إنما الخلافُ في عقيدة الحسين بن القاسم نفسه . فأكثر الزيدية

---

(1) تقع سيرة المؤيَّد بالله للمرشد بالله في مخطوطة السيد أحمد الشامي ، في 11 ورقة ضمن مجموعٍ متنوّعٍ ، نُسِخَ بمحروس شهارة عام 1054 هـ . وقد استوعبها المحلّي فعلاً في أهمّ أجزائها .

(2) يُسمّي الأستاذ ماديلونغ المكان : ذو عَرر . لكنّ ابن الوزير (في تاريخ بني الوزير ، مخطوطة الجامع الكبير بصنعاء ، ق 106) ، وابن مظفّر (ـ 925 هـ) (في الترجمان المفتح لثمرات كمائم البستان ، مخطوطة الجامع الكبير بصنعاء ، ق 71أ) ، وناصر بن عبد الحفيظ بن المهلاّ (ـ 1081 هـ) (في عَلَم الإفادة في تاريخ ذوي الشرف والسادة ، مخطوطة الجامع الكبير بصنعاء ، ق 55 ب) يسمّون الموضع : ذو عَرار ـ ويبدو أنه الاسم الصحيح .

المتأخّرين يميلون إلى نفْي هذه العقيدة عنه ، نعني عقيدة المهدية ، والرجعة . أمّا « السيرة » ، نعني سيرة مفرِّح بن أحمد للأميرين فتُثبتُ وجودَ هذه العقيدة لدى الأميرين ـ وإن مال الشريف الفاضل إلى إخفائها وخالفه أخوه ذو الشرفين في إظهارها والتأكيد عليها ـ ، كما تُثبتُ وجود الشيعة الحسينية القائلة برجعة المهدي الحسين بن القاسم كفرقةٍ أو فريقٍ في جيش الأميرين ؛ لكنها لا تقولُ شيئاً عن عقيدة المهدي الحسين نفسه . وقد ترك الحسين بن القاسم مؤلّفاتٍ كثيرة (يقال إنها بلغت ثلاثةً وسبعين كتاباً ورسالة) ظننا أنه بالرجوع إليها يمكن الوصولُ إلى حقيقة المسألة . لكنّ المخطوطتين اللتين رجعنا إليهما لكتبه الباقية [1] تشير إلى اختيارٍ واختصارٍ من جانب المتأخّرين بحيث يصعُبُ عن طريقها تبيُّنُ اعتقاده على وجه الدّقة . والمختصراتُ الباقيةُ ضئيلةُ القيمة من الناحية الفكرية [2] ، وأكثرها في أصول الدين وعلم الكلام لا في الفقه . وفي المصادر ما يشير إلى أنه كتب كثيراً وبسرعةٍ للردّ على خصومه ممن أنكروا عليه استحقاقه للإمامة وهو ما يزال في مقتبل العُمُر (وُلد عام 378 هـ ، وقُتل عام 404 هـ) ، قليل العلم ، وهو يصرّ ـ رداً على خصومه ـ على أنه موافقٌ في المذهب للهادي وابنه المرتضى [3] ، لكنه من جهةٍ ثانيةٍ

---

(1) أما **المخطوطة الأولى** فهي ضمن مجموع بمكتبة العلاّمة السيد محمد بن محمد المنصور بصنعاء ، وتتضمن الكتب (أو المختصرات ؟) التالية له : كتاب المعجز الباهر ، وكتاب التوحيد ، وكتاب التناهي والتحديد ، وكتاب الردّ على المُلْحِدين ، وكتاب شواهد الصنع ، وكتاب الردّ على عَبَدة النجوم ، وكتاب الطبائع ، وكتاب التوكل على الله . وأمّا **المخطوطة الثانية** فهي مجموعٌ متنوّعٌ بمكتبة السيّد صلاح الهاشمي بضحيان بجوار صعدة ، وتتضمن الكتب التالية للحسين بن القاسم : كتاب الولاء والبراء ، كتاب الفرق بين الأفعال والردّ على الكفرة الضُلاّل ، وكتاب الأدلّة ، وكتاب الأكفاء ، وجزء من كتاب الردّ على مَنْ أنكر الوحي بعد خاتم النبيين ، وكتاب التوفيق والتسديد ، وجزء من كتاب السبيلين ، وجزء من كتاب تفسير الصلاة . وذكر سزكين CAS, I, PP. 569-570 مجموعةً لمؤلفاته ببرلين تبلغ أربعةً وعشرين كتاباً . أما عدد الثلاثة والسبعين لمؤلفاته فيذكره المحلّي في **الحدائق الوردية** 2 / 64 . ويعود السيد حُميدان إلى أكثر من عشرين كتاباً ورسالةً للحسين في رسالته للدفاع عنه ؛ قارن عن ذلك الملحق الثالث للسيرة المنشورة هنا بعد المقدمة .

(2) قارن بدراسة الأستاذ ويلفرد ماديلونغ السالفة الذكر : الإمام القاسم بن إبراهيم (بالألمانية) ، ص 198 .

(3) قارن بهذا القول منقولاً عن كتابين للحسين بن القاسم في الملحق الثالث لهذه النشرة ، كتاب « بيان الإشكال » للسيد حميدان .

يُشيدُ بمؤلّفاته ويعتبرها متفوِّقةً على كلّ ما كتبه السابقون من الأئمة وغيرهم ، فالمرجّحُ من موازنة ذلك كلّه ومحاكمته أنه كان يذهبُ للقول بأنه المهديُّ المنتظَر الذي بشّر به النبي ﷺ . صحيحٌ أنّ تلقُّبه بالمهديّ لدين الله لا يشير ضرورةً إلى ذلك ؛ فقد تلقّب بذلك أحد كبار علماء أهل البيت الثائرين بالديلم من قبل دون أن يدّعي المهديّة[1] . لكنْ هناك إلى جانب اللقب أمورٌ أخرى هي بمثابة قرائن تدعم شكوكَ مسلّم اللحجي (ـ 552 هـ) ، والمتوكّل على الله أحمد بن سليمان (ـ 566 هـ) ، وابن الوزير[2] ؛ هذا وإن اختلفت تعليلاتُهم لذلك . من تلك الأمور ، اتّساع دعواه مع ازدياد المعارضة له ، وقسوته ضدّ منافسيه من آل الهادي ، ومزاجيته الخاصّة ـ وهي شيمةٌ معروفةٌ عن والده ، وتظهر أيضاً لدى الشريفين في سيرة مفرِّح لهما ـ ، وذهاب ابني عمّه ومجموعة من أنصاره بعد مقتله إلى أنه لم يُقتل وسيعود ، وعدم ادّعاء أحدٍ من أبناء أسرته الإمامةَ بعده بل الإمارة والاحتساب ترقُّباً فيما يُظنُّ لعودته ، وانتشار دعاوى المهدية على رأس القرن الخامس وأفكار وتيارات الغُلُوّ بشكلٍ عامٍّ . أمّا اتّساع دعواه فيظهر في عناوين كتبه مثل المُعْجِز ، والتحدي للعلماء والجهّال والردّ على الزنيم وغيره من الضُلّال الكَفَرة الفَجَرة الأوباش (والزنيم ، رجلٌ اسمه يوسف بن عقيب اتّهم الحسين بالجهل !) ، والردّ على

---

(1) هو أبو عبد الله محمد بن الحسن بن القاسم ، المعروف بأبي عبد الله ابن الداعي . خرج إلى الديلم ودعا إلى نفسه عام 353 هـ ، ولم يلق نجاحاً كبيراً ، وتوفّي عام 360 هـ عن سنٍّ عالية . قارن عنه : أخبار أئمة الزيدية في طبرستان وديلمان وجيلان ، نصوص تاريخية جمعها وحققها ويلفريد ماديلونغ ، بيروت 1987 ، ص 103 ـ 118 .

(2) عن رأي مسلّم اللحجي ؛ قارن بالنصوص التي أوردناها عنه في الملحق الأول لهذه النشرة لسيرة الأميرين . وعن رأي المتوكّل على الله أحمد بن سليمان ؛ قارن بكتابه **حقائق المعرفة** (مخطوطة ضحيان) ق 251 ـ 253 ، **والحكمة الدرية** (مخطوطة عبد الوهّاب بن محمّد أحسن المتميّز بضحيان) ص ص 323 ـ 325 . وعن رأي محمد بن العفيف ابن الوزير ؛ قارن بتاريخ بني الوزير (مخطوطة الجامع الكبير بصنعاء) ق 5 . أمّا السيد حُميدان بن يحيى (النصف الأول من القرن السابع) فينفي أن يكون الحسين بن القاسم قال إنه المهدي (قارن بنشرتنا لكتابه : بيان الإشكال ـ في الملحق الثالث) ، وكذا يفعل السيد أحمد بن محمد بن صلاح الشرفي (ـ 1055 هـ) في اللآلي المضية (مخطوطة ضحيان) م 2/ص 145 ـ 146 . وقارن بأحمد عبد الله عارف : مقدمة في دراسة الاتجاهات الفكرية والسياسية في اليمن فيما بين القرنين الثالث والخامس الهجريين ، نشر المؤسسة الجامعية ، بيروت 1991 ، ص 186 ـ 187 .

الملحدين ، وكتاب الرحمة ، والردّ على مَنْ أنكر الوحْيَ بعد خاتَم النبيين ، والولاء والبراء . . . الخ . وكان يمكن التحقُّق من غُلُوّه أو عدمه من مؤلَّفاته لولا أنها نُظّفت من قبل وربما في عصر الشريفين ابني عمّه لأنّ المتوكّل على الله أحمد بن سليمان (ـ 566 هـ) يأخذ عليه من ضمن ما يأخذ تسمية أحد كتبه **بالمعجز**[1] ، بينما **المعجز** كتابُ الله وحده . وأخذه عليه التسمية فقط يدلُّ على أنه لم ير في الكتاب في عصره ما يزعج أو يثير القلق غير الاسم . والكتاب ـ أو ما بقي منه ـ بين أيدينا اليوم هو بالفعل غير مشكلٍ إذ اسمُهُ الكامل : « كتاب المعجز الباهر في العدل والتوحيد لله العزيز القاهر » ـ وهو عبارةٌ عن إجاباتٍ على أسئلةٍ عن وجود الله ، وذاته ، وصفاته ، على طريقة البغدادية من المعتزلة ، وبعنفٍ يذكّرُ من بعيدٍ بأسلوب القاسم بن إبراهيم في الكتب المنسوبة إليه . فالظاهر أنّ الكتاب نُظِّف وتعرّض للحذف والاختصار قبل انتشاره فما استطاع الخصوم الاستناد إلى غير اسمه في الحطّ على الحسين بن القاسم . وربّما استناداً إلى عنوان هذا الكتاب بالذات ، كان ذهابُ مَنْ ذهب إلى أنّ الحسين زعم أنه أفضلُ من رسول الله ﷺ ، وأنّ كلامه « أبْهَرُ » من كلام الله ، ومعنى « أبهر » عندهم : أي أقطع للخصوم الملحدين من كلام الله ! وهناك عنوان كتابٍ آخَر من بين كتبه هو : « الردُّ على مَنْ أنكر الوحْيَ بعد خاتم النبيين »[2] . ويبدو أنه على أساسٍ من هذا الكتاب قال عنه محمد بن العفيف ابن الوزير (وهو غير مُعادٍ له ولأسرته إذ ينوّه بأنّ جدته لأبيه عاتكة بنت محمد بن إبراهيم من ولد علي بن القاسم بن علي العياني) : « وعرض معه **اختلالٌ** لأجله صدرت منه أفعالٌ وأقوالٌ لا تصدُرُ من العقلاء . فادّعى أنه أفضلُ من رسول الله ﷺ ، وأنّ كلامه أبهر من القرآن ، وأنه **يُوحى إليه في المنام** . . . »[3] .

---

(1) **الحكمة الدرية** ، ص 323 : « . . وألّف في التوحيد كتاباً وسمّاه كتاب **المعجز** ـ وهذا أول الخطأ في تسمية الكتاب لأنّ المعجز كتاب الله . وكان أكثر ما فيه أنه احتجّ على عُبّاد الدهرية . . ثم قال بعد ذلك إنّ العرش هو الله . . . !» . وقارن بالملحق الثاني .

(2) هذا هو اسم الكتاب في المخطوطة التي بين أيدينا . لكنّ السيّد حُميدان يسمّيه في « بيان الإشكال » (الملحق الثالث لهذه النشرة) : « كتاب الردّ على مَنْ أنكر الوحي في المنام »!

(3) تاريخ بني الوزير ، ق 5أ .

ومع شدة اختصار الكتاب فيمكن التبيُّن منه فعلاً أنّ الوحْيَ في نظره عدة أنواع[1] : « فمنه ما يكون على ألْسُن الملائكة المقرَّبين ، ومنه ما يُخْلَق في أسماع المُرْسَلين ، ومنه ما يُقـذَفُ في القلوب ، ومنه مـا يُرى في المنـام . . . » . وهو ينفي إمكـان الخطاب عن طريق الملائكة بعد خاتم النبيين ، كما ينفي إمكان الخَلْق في الأسماع بعد النبي محمدٍ ﷺ أيضاً[2] : « وأمّا الوحي الذي جعله الله في المنام فلا ينقطعُ أبداً عن أهل الفضـل والإسلام . **ولأئمـة الهدى من ذلـك ما لا يكـونُ لأحدٍ من المخلوقين** . ولا يمكن أن يُلقى إلى أحدٍ من المؤمنين **لأنّ الأئمة شركاء النبيين** وفي ذلـك مـا يقـول أميـر المؤمنين الهـادي إلى الحقّ المُبين عليـه صلواتُ ربّ العالمين ، بلغنا عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الرؤيا الحسنةُ من الرجل الصالح جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءً من النبوة . . . » . ثم يتابع متحدّثاً عن تجربته الشخصية[3] : « ولقد شاهدنا بحمد الله من عجائب الأسرار المكتوبة ما لو ذكرناه لما صدّق به إلاّ مَن امتحن الله قلبه بالإيمان . وإني لأحتاج إلى الحاجة فأطلبها من مـولاي تبارك وتعـالى فأرى في المنـام قائـلاً يقول : إنّ حـاجتك التي تـطلب في موضـع كذا وكذا . . . وربما تحيّرتُ في سببٍ فأطلب منه البيان فما ألبثُ في منامي إلاّ يسيراً حتّى أرى قائلاً يقول : قد استُجيبت الدعوة . . . »! .

وتبدو قسوته ومزاجيتُهُ في كثرة الناس الذين قتلهم بين عامي 401 و 404 هـ . وبينهم أناسٌ من أعقاب الهادي ، كأنما ليقضي على مُنافسيه من بينهم . ويذكـر يحيـى بن الحسين تخريبه لدورٍ كثيرةٍ بصنعاء وصعدة ، وحملته على رجالٍ وعشائر كـانوا من أنصـاره في الأصل[4] . ويـذكر المتـوكّل على الله أحمـد ابن سليمـان

(1) كتاب الردّ على من أنكر الوحي بعد خاتم النبيين ، ص 345 ـ 346 .

(2) المصدر السابق ، ص 346 .

(3) المصدر السابق ، ص 346 .

(4) يحيى بن الحسين بن القاسم : كتاب **أنباء الزمن في تاريخ اليمن** (مخطوطة العلاّمة السيد محمد بن محمد المنصور بصنعاء) م 1/ص 143 ، 144 ـ 145 . يقول يحيى بن الحسين (ص 145) : « وقد كان بعض البلاد خالفت عليه لمّا عقد سيره إلى الهان ، فلمّا عاد فعل بهم مـا لم يفعله إلاّ الظلمة ، ولـزم مشايخهم وصلبهم منكّسين ، ووهب خيلهم وسـلاحهم للشيعة ، وألـزم جماعتهم الجزية وقبضها منهم . وسار إلى صعدة في جيشٍ عظيمٍ فخرّب دُورَها . . . » . وقارن **بغاية الأماني** =

(ـ 566 هـ) قصةً وقعت له مع إمام مسجد الهادي بصعدة المحسِّن بن محمد بن المختار ، أحد أعقاب الناصر تصبُّ في مصبّ التطرف الذي عُرف عنه . فقد بلغه عن المحسِّن أنه ينعي عليه سوء تصرفه وقسوته ، وينصحُ بـالتورُّع والتـواضع في الدعوى العلمية ؛ فأجابه الحسين شاتماً ولاعناً وزاعماً أنّ كتاباته أكثر وضوحاً وإقناعاً من الإنجيل والتوراة والقرآن[1] . وعندما طلّق إحدى نسائه فعمدت إلى الزواج من جديدٍ ، انتزعها من زوجها محتجاً بقوله تعالى في نساء النبي : ﴿ **وما كان لكم أن تؤذوا رسـولَ الله ، ولا أن تنكحوا أزواجـه من بعده أبـداً إنّ ذلكم كـان عنـد الله عظيماً** ﴾[2] . هذا الغُلُوّ البادي في الأقوال والتصرفات دفع مسلّماً اللحجيّ ـ خصم الشيعة الحسينية لا خصم الأشراف القاسميين ـ إلى الزعم بأنّ المهديّ الحسين بن القاسم ووالده المنصور كانا يريان أشياء تقضي بمخالفتهما لمذاهب أسلافهمـا ، وأنهما ربما يستـرجحان أشيـاءَ من مذهب الفـاطميين[3] . على أنّ المعروف أنّ الإسماعيلية لا يقولون بمهديٍّ منتظَر ؛ وإن كانوا يرفعون القائم من أئمتهم إلى مراتب

= ليحيى بن الحسين ، م 1/ص ص 235 ـ 239 . والفروق ضئيلةٌ بين « **أنباء الـزمن** » و « **غايـة الأماني** » مع أنّ السائد أنّ الغاية اختصارٌ للأنباء مما دفع الأستاذ ماديلونغ للقول إنّ نسخة برلين من **أنباء الزمن** مختصرٌ أيضا (قارن بالحاشية في ص 12 من مقاله المترجَم في التمهيد). ويذكر ابن العفيف في **تاريخ بني الوزير** (ق 106) قصة قتل الحسين بن القاسم لمحمد بن القاسم بن الحسين الزيدي الثائر عليه مستهجِناً؛ وبخاصةٍ قوله بعد الوقعة: « إنما صُلْتُ بأوباشٍ على أوباش» ! .

(1) **الحكمة الدرية** ، ص 323 ـ 324 : « وهذا الكتاب صحيح منه . وهو في أيدي أصحابه إلى اليوم . وهو أيضاً عندنا في كتب بني الهادي . . المبتدأ والجواب ، ولا يمكن نفيه عنه لتواتر الأخبار ، ولقرب العهد ، ولإجماع المخالف والمؤالف أنه منه . . » . وفي **حقائق المعرفة** ، ق 251 أ أنّ المحسِّنَ كتب إليه يسأله عن مسائل ، وينهاه عن أمور فأجابه ذلك الجواب . وقارن بالملحق الثـاني لنشرة السيرة .

(2) **حقائق المعرفة** ، ق 251 أ . والآية في سورة الأحزاب/53 . وربما كتب لهذا السبب كتابه **الأكفاء** (في مخـطوطة الهـاشمي بضحيان ، ص 343 ـ 345) ؛ وهـو يقيم فيه الكفـاءة على أساسي : المنصب والدين ، ويتهدّد من يخالف ذلك في منطقة سيطرته بالنكال : « . . . ومن لم يزدجر من أولئك بآدابنا وكلامنا فسنردُّه إلى الحقّ بسيوفنا ورماحنا . وقد عرّضْتُ لمن عقل بالتلويح قبل المباينة والضرب والتصريح . فمن قبل ما أمرنا به من حكم القرآن وإلاّ قتلْتُهُ بحدّ السيوف والمران . . . !» .

(3) ليس فيما بين أيدينا من تاريخ مسلّم تصريحٌ بذلك بل هناك اتهامٌ لبعض المتظاهرين بالتعصّب لمهدية الحسين بن القاسم بأنهم كانوا جواسيس للإسماعيلية لفتنة عوامّ الزيدية (قارن بـالملحق الأول ، ص ؟). لكنّ الزُحيف ، محمد بن علي بن يونس (ـ 916 هـ) ينقل ذلك عن مسلّم (في اللّواحق =

من الخشوع والتقدير والطاعة لا تعرفُها الزيديةُ على الإطلاق . ويكون علينا هنا أن لا ننسى أنّ الحسين ابن القاسم جاء على رأس القرن الخامس ، ورؤوس القرون يظهر عليها وفيها المجدِّدون والمهديّون ، وأصحاب الأحلام الكبرى في تاريخنا كلّه . والشبهُ قويٌّ بين الحاكم بأمر الله (386 ـ 411 هـ) الخليفة الفاطمي المعاصر بمصر ، والحسين بن القاسم باليمن . فكلاهما وصل للسلطة وهو فتىً صغير . وكلاهما ووجه بمعارضةٍ قويةٍ من الطامعين بالسلطة . وكلاهما أحسَّ بالغربة في محيطه فغاص في عالمٍ خاصٍّ به بدت آثارُهُ في تصرفاته . وكلاهما كان قاسياً ، متقلّب المزاج ، بالغ العنف مع الخصوم والأصدقاء . لكنّ النظرية الإسماعيلية في الإمامة والأئمة تملكُ من إمكانيات المُضيّ والغُلُوّ ما لا يتوافر حتّى في حدّه الأدنى في الإمامة عند الزيدية . ومن هنا وصل الحاكم إلى ادّعاء الأُلوهية ـ أو قيل ذلك عنه[1] ، بينما لم يتجاوز الحسين بن القاسم تلميحاتٍ وخواطر كان لا بُدَّ أن يستعيرها من الفِرَق الشيعية الغالية لانعدامها في الفرقة الزيدية ، ولتشدُّد أهل اليمن

= الندية للحدائق الوردية ، أو مآثر الأبرار في تفصيل مجملات جواهر الأخبار ، مخطوطة ضحيان ، ص 178) ، ويأخذ ذلك عنه الشرفي (ـ 1055 هـ) في اللآلي المضية (مخطوطة ضحيان ، م 2 ، ص 145) . فربما ذكر مسلّم ذلك في القسم الثالث الضائع من تاريخه . وقارن بأئمة اليمن للسيد محمد زبارة 1/85 . ويذكر يحيى بن الحسين في **أنباء الزمن** م 1/ص 144 أنّ الحسين بن القاسم أغار على صنعاء مع أخيه عام 402 هـ : « فهدم دوراً لأهل صنعاء ، واصطفى أموالهم ، وأخذ **أخماسها موافقةً للعبيدية . . . »** .

(1) الدراسات حول الحاكم بأمر الله كثيرةٌ ، وهي تختلف اختلافاً شاسعاً في تفسير تصرفاته خلال فترة حكمه ، كما تختلف في تفسير وتأويل حَدَث اختفائه أو مقتله . وأحدث تلك الدراسات وآخرها اثنتان ؛ **إحداهما** : ليوسف فان أس J. van Ess بعنوان : **الأحلام النشورية ومغامرة التألُّه** : **الخليفة الحاكم** (386 ـ 411 هـ) (هايدلبرغ / بالألمانية / 1977) . وهو يوافق فيها مذهب القائلين بادّعاء الحاكم للألوهية لعلتين : الإمكانيات الكامنة لذلك في النظرية الإسماعيلية ، وانتظارات الناس والقرانات الفلكية على رؤوس القرون . **والثانية** : لهاينز هالم H. Halm بعنوان : **أمين الله في الأرض** : مراسيم الخليفة الحاكم (مجلة Der Islam م 63 ، 1986 ، ص ص 11 ـ 72) وهو يذهب إلى استبعاد ذلك عنه ، ويحاول بالرجوع إلى المصادر الأصلية المعاصرة أو شبه المعاصرة له ، إثبات وجود سوابق كثيرة لدى الفاطميين لمثل تصرفاته ؛ وإن تكن كثافة تلك التصرفات تشي بإمكان وجود تشكّكٍ وخوفٍ مَرَضيَّيْنِ لديه تجاه محيطه للظروف التي أحاطت بسنيّ وصوله الأولى إلى السلطة في صِغَره ؛ بالإضافة إلى نزعةٍ متأصّلةٍ لديه للزهد والتطهر والسياحة ، وإحساسه الحادّ بأنه « خليفةُ الله » والمؤتَمَنُ على الناس ، والرادع لهم عن التردّي في مهاوي الغفلة والفساد .

في الارتباط بالهادي ومذهبه . فبينما يشكّل كُلّ حاكمٍ أو إمامٍ جديدٍ عند الإسماعيلية عهداً جديداً تماماً يستطيع فيه أن يفعل ما يشاء ، ويذر ما يشاءُ ، فإنّ زيدية اليمن ما كانوا وقتها يسمحون بالخروج على مذهب الهادي في الأصول والفروع . والمعروف فيما استقرّ عليه الأمر منذ القرن الثالث الهجريّ أنّ المهديّ لا يموتُ قبل أن يملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً ، لكنه عند بعض محدّثي أهل السنة والجماعة أمارةٌ من أمارات يوم القيامة ؛ بينما هو عند الشيعة الإثني عشرية الإمام الثاني عشر ، الذي لم يمت ، بل غاب غيبةً كبرى ، ويعود ليملأ الأرضَ عدلاً كما مُلئت جوراً . لذلك كان من المنطقيّ ـ ما دام من المرجّح أنّ الحسين ادّعى المهديّة ـ أن يذهبَ أتباعُهُ إلى أنه لم يمُت وإنما غاب امتحاناً وابتلاءً . فإذا كانت في أفكاره بعض وجوه الشبه بالفكر الإسماعيلي ـ كما تَنَبه لذلك مسلَّم اللحجي ـ؛ فإنّ **فكرة الغيبة** ليست إسماعيلية[1] بل هي من تُراث الشيعة الإثني عشرية .

* * *

بدأ الإنكارُ على المهدي الحسين بن القاسم في حياته من جانب بعض علماء اليمن ، والأشراف من أتباع مذهب الهادي[2] . ثم نعرفُ حملة مسلَّم اللحجي المفكّر والمؤرّخ والمطرِّفي على اعتقادات العيانيين ، وشيعتهم الحسينية . وقد أورد

---

(1) يورد هاينز هالم في دراسته السالفة الذكر (قارن بالملاحظة رقم 26) (ص 72) نصاً درزياً يقول إنّ الحاكم غاب ولم يُقتل : « اعلموا أنّ غيبتي عنكم غيبةُ امتحان » . بل إنّ هناك نصاً إسماعيلياً (وليس درزياً لأنّ الحاكم يُسمّى فيه : وليّ الله ـ ولا تُدَّعى أُلوهيته) انتشر في القاهرة بعد اختفائه يقول إنه غاب بسبب معاصي الناس ، وفقد الأعوان على الحقّ (قارن بدراسة هالم ، ص 11 ، حاشية رقم 1 ، و ص 70) . ولذا ربما كان هناك تيارٌ جانبي ضمن إسماعيلية مطالع القرن الخامس يقول بالغيبة والرجعة . والطريف التشابُهُ الواضح في تعليل الغيبة بين النصين السالفين ، ونصّ مفرِّح بن أحمد في السيرة (ق 6أ) : « لمّا كان من غيبة إمام العصر وصاحب الدهر المهدي لدين الله الحسين بن القاسم . . وكان امتحاناً لأولياء الله ، ونقمةً على أعداء الله . . بقي الناس في ظلمةٍ وفِتَن . . » .

(2) يذكر الشرفي في اللآلي المضية (مخ. ضحيان، م 2/ص 145 ـ 146) نقلاً عن مسلَّم اللحجي أنّ الداعي الباطني حسين بن عامر بن طاهر الحميري كان بين أوائل من أنكروا على الحسين ؛ فقال من قصيدة :

يا مدعي الوحي إنّ الوحي قد خُتما ... بالمصطفى فأمِطْ عن نفسك الوهما

وليس للحسين بن عامر ذكرٌ بين دعاة الفاطميين باليمن ؛ قارن : الصليحيون ، ص 59 ـ 60 .

المتوكّل على الله أحمد بن سليمان مآخذ عدة على الحسين في « **حقائق المعرفة** » و « **الحكمة الدرية** » عقّب عليها بالقول : « . . . وبأقلّ قليلٍ مما تكلّم به تسقط إمـامتُهُ اللّهم إلاّ أن يكـون الكلامُ مكـذوبـاً عليـه »[1] . ويـذكـر حُميـد المُحَلّي (ـ 652 هـ) في « **الحدائق الوردية** » أنه ألّف رسالةً في ذَمِّ غُلُوّ الحسينية عنوانها : « الرسالة الزاجرة لذوي النُهى عن الغُلُوّ في أئمة الهُدى »[2] . والمُلاحَظُ من العنوان أنه يحملُ فيها على الحسينية وليس على المهديّ الذي يعتبره من « أئمة الهدى » ويُثني على كتبه . أمّا السيّد حُميدان (من النصف الأول من القرن السابـع) فقد خاض مهمةً أصعب عندما ألّف رسالةً بعنوان : « كتاب بيان الإشكال فيما حُكي عن المهديّ من الأقوال » وصلت إلينا ضمن مجموعه المعروف[3] . وهو يعمدُ إلى كتب المهديّ الحسين فيقتبس منها ما يدلُّ على حُسْن إسلامه ، وغزارة علمه وهديه ؛ ذَاهباً إلى أنّ الأقوال الغالية المنسوبة إليه ؛ إمّا أنها ممكنة التأويل ، أو أنها من تشويه خصومه ووضعهم . وقد أشار المهديُّ نفسه إلى إمكان تشويه أقواله ومقاصده في حياته فكيف بالأمر بعد مماته ؟! لكنّ السيّد حميدان لا يرى أفضلية المهدي على « السَلَف » من أئمة آل البيت . وقد وضعْنا رسالة السيد حميدان ملحقاً للسيرة لذا نعودُ لتحليلها بالتفصيل فيما بعد .

ولا تخرجِ معلوماتُ نشوان بن سعيد الحميري (ـ 552 هـ) كثيراً عمّا أورده الآخرون من قبلُ ومن بعدُ عن الحسين المهدي والحسينيـة . ويبدو أنّ الأكثـرين يستنـدون في ذلك إلى مسلّم اللحجي والمتـوكّـل على الله أحمـد بن سليمـان ، ونشوان . يقول نشوان[4] : « ومنهم ـ أي من الزيدية ـ فرقةٌ يُقالُ لها الحسينية يقولون إنّ الحسين بن القاسم . . . حيٌّ لم يمُتْ ولا يموت حتّى يملأ الأرضَ عدلاً ، وأنه

---

(1) حقائق المعرفة ، ق 252 أ . وقارن بالحكمة الـدرية ، ص ص 323 ـ 325 . وقـد نشرنـا نصي أحمد بن سليمان كملحقٍ ثانٍ آخِر السيرة .

(2) الحدائق الوردية 2 / 64 .

(3) قارن عن السيّد حميدان ورسالته ما يأتي بعد في سياق المقدمة .

(4) الحور العين ، ص 208 ، 211 . وانظر فيما بعد نصاً في تاريخ بني الوزير (ق 106) يفيد أنّ والد نشوان ونشوان ـ في بدء أمره ـ كانا من الحسينية !

القائم المهدي المنتظَر عندهم . وكان قُتل يوم السبت الرابع من شهر صفر سنة أربعٍ وأربعمائة . وكان مولده في سنة ثماني وسبعين وثلاثمائة ؛ قتلته همدان في موضعٍ من أعمال صنعاء . ويقولون في الحسين هذا إنه **أفضَلُ** من رسول الله ﷺ ، وإنّ كلامه **أبْهَرُ** من كلام الله . ويروون أنّ مَنْ لم يقل بقولهم هذا فيه فهو من أهل النار . ثم افترقوا فرقتين ؛ فرقة تزعُمُ أنه يأتيهم في السرّ ولا ينقطع عن زيارتهم في حال مغيبه ، وأنهم لا يفعلون شيئاً إلاّ بأمره . وفرقة تُبطل ذلك ؛ ويقولون إنه لا يُشاهَدُ بعد الغيبة إلى وقت ظهوره وقيامه وإنما يعملون بما وضع في كتبه » . الجديد عند نشوان قسمته الحسينية (ربما في عصره) إلى فرقتين . وسيرة مفرِّح بن أحمد لا تشير إلى شيءٍ من ذلك . لكنّ مسلَّماً اللحجيَّ يذكر في **تاريخه** ما يُشْعِر بذاك الانقسام ؛ فهو يذكر شريفاً اسمه يحيى بن عيّاش الرسّي القاسمي ، وآخر اسمه محمد بن إبراهيم الصبري ، كانا في عهد ولاية الشريف جعفر بن محمد بن جعفر بن القاسم على شهارة يزعُمان ظهوره لهما . وقد اختصّ الشريف ابن عيّاش بالقول إنه يظهر له أيضاً الخضر وعيسى بن مريم[1] : « وكان قد استعمل استعمالاتٍ واحتال بحيلٍ قبلها القوم من عوامّ الحسينية ؛ ولم **يلتفتوا مع ذلك إلى تكذيب مَنْ كذّبه من الأشراف والشيعة** ، وما قالوا فيه من الشعر لا سيّما أمير شهارة يومئذٍ جعفر بن محمد بن جعفر بن القاسم بن علي . . . وكان ابن عيّاش قد واعد الناسَ لظهور المهدي الحسين بن القاسم وقيامه بالأمر وقتاً عرّفه إليهم بابيضاض المَطْو ـ يعني عذق الذُرة وهو سنبلتها ـ . . فمضى ذلك الوقت ولم يروا شيئاً مما قال فكذّبه بعض . . والمعروف أنّ نشوان الحميريّ نفسه اشتبك مع الأمير عبد الله ابن القاسم بن جعفر في نزاعٍ حول حياة المهدي ورجعته اللتين نفاهما الحميري . وقد تهدّده الشريفُ بالموت فاعتذر نشوان بأنّ أبيات الذمّ للمهدي ليست له ؛ لكنه لم يخفِ عدم إيمانه برجعة الحسين بن القاسم[2] .

---

(1) تاريخ مسلّم اللحجي م 4/ص 256 ، 260 . وقارن بنصوص مسلّم في ذلك في الملحق الأول لنشرة السيرة هذه .

(2) تاريخ بني الوزير ، ق 106 ، واللواحق الندية على الحدائق الوردية للزحيف ، مخطوطة ضحيان ، ص 177 ـ 178 ، واللآلي المضيئة ، م 2/ص 232 ـ 233 ، ومطلع البدور لابن أبي الرجال =

أمّا أوسع المعلومات عن مصائر الشيعة الحسينية في جيلها الثالث ، أي في النصف الأول من القرن السادس الهجري ، فيملكها مسلَّم اللحجي في الجزء الرابع الباقي من تاريخه . ولذا نعود إليها بالتحليل فيما بعد وننشر فقراتٍ منها كملحق أول مع نصوص مفرِّح بن أحمد وحُميدان وأحمد بن سليمان .

III

ويريد يحيى بن الحسين (ـ 1099 هـ) إرجاعَ النزاع بين الهادوية والأشراف العيانيين إلى أيام القاسم بن علي العياني ، أي قبل ظهور فكرة مهدية الحسين بن القاسم .

يقول يحيى بن الحسين في « طبقات الزيدية »[1] : « القاضي عبد الملك بن غطريف الصائدي . ممن عاصر الإمام القاسم بن علي العياني . وهو الذي كاشف الإمام بالنكر ، وتخلّف عن إمامته هو وَمَنْ تبعه ؛ وذلك بسبب مخالفة القاسم في مسائل الفروع للهادي . لأنّ الزيديّةَ كانوا يعتقدون في ذلك الوقت أنّ المُصيب في الاجتهاديات واحدٌ والحقّ معه إلى زمن المتوكّل على الله أحمد بن سليمان . . . » . وقد يكون فيما ذكره يحيى بن الحسين بعض الحقّ . لكنّ الواقع أنّ الزيديّة مذهباً ودولةً كانت قد تضاءلت وانكمشت منذ وفاة الناصر أحمد

= م 4/ص 225 ـ 226 . وفي طبقات الزيدية ليحيى بن الحسين (1/ 117) ذكرٌ للشريفين عبد الله بن جعفر بن القاسم و « صنوه سليمان بن عبد الله بن جعفر بن القاسم (؟)» وأنهما كانا من سكّان الأهنوم ، وعاصرا الإمام المنصور بالله ، وبايعاه وأطاعاه . وفي اللآلي المضية م 2/ص 229 ذكرٌ لشريفٍ اسمه فليتة من الأشراف القاسميين ، ادّعى الإمامة أيام المتوكّل أحمد بن سليمان فعيّره الأمير الحسين بن بدر الدين بمخالفة مذاهب آبائه في القول بمهدية الحسين بن القاسم ! والمعروف أنه أسر الإمام بعد ذلك (ص 229) .

(1) طبقات الزيدية 1/ 63 . وفي تاريخ مسلَّم م 4/ص 284 : « والذي كان عليه مشايخ في عصره (عصر أبي السعود ابن المنصور بن أبي ثور ، النصف الأول من القرن الخامس الهجري) ، تقليد الهادي إلى الحقّ عليه السّلام في الفقهيات لا يعرفون غير مذهبه ، ويستنكرون التصويب لغيره » . والطريف ما يذكره ابن الوزير من أنّ الحسين بن القاسم نفسه « كان إذا مرّ بقبر أبيه ركضه برجله وقال : هو خالف مذهب الهادي !» (تاريخ بني الوزير ، ق 106أ) .

عام 322 هـ . ولم يخرج من أعقاب الناصر من استطاع إثبات وجوده حتى أواخر القرن الرابع . وعندما استدعت القبائلُ القاسم العياني ـ في عمليةٍ تشبهُ استدعاء الهادي من قبل ـ كانت اليمن تغصُّ بثوار آل الهادي الذين لم يحظوا بأيّ نجاح . ورغم أنّ العيانيّ ما استطاع فعل الكثير بسبب قِصَر مدّته ؛ فلا شكّ أنه اعتُبر ناجحاً تماماً مُقارنةً بالخارجين السابقين والمُعاصرين . ونحسبُ أنّ هذا كان السبب الرئيسي لنزاعات القاسم العياني وأولاده وأحفاده مع آل الهادي وهادوية الزيدية . فقد أسَّس العيانيُّ أُسرةً حاكمةً استمرّت حتّى أواخر القرن الخامس تلعبُ دوراً ملحوظاً في السياسات بشمالي اليمن .

* * *

وعانت البلاد اليمنية كلُّها من فوضى ضخمة في النصف الأول من القرن الخامس الهجري ، لسقوط الدويلات القوية بالتهائم وأعماق الجنوب ، واستشراء الفوضى القبلية في الشمال .

يقول صاحبُ « أنباء الزمن »[1] : « من سنة 405 إلى سنة 448 هـ عمَّ الخَرابُ صنعاء وغيرها من بلاد اليمن لكثرة الخلاف والنزاع وعدم اجتماع الكلمة الواحدة . . . وأظلم اليمن وكثُر خرابُهُ وفسدت أحواله . . وكانت صنعاء وأعمالها كالحرقة ، لها في كلّ سنةٍ أو شهرٍ سلطانٌ غالبٌ عليها ، حتى ضَعُفَ أهلُها وانتقلوا إلى كلّ ناحية . وتوالى عليها الخراب وقلّت العمارة في هذه المدة حتى أصبح عددُ دُورها ألف دار بعد أن كانت مائة ألف دار في عهد الرشيد . . . إلاّ أنّ صنعاء تراجعت بعضَ التراجُع في زمن الصليحيين لمّا اجتمع لهم مُلْك اليمن » . وزاد الطين بلّةً استشراءُ القحط والمجاعات ، والتخريب القَبلي والسلطوي المتبادَل للحياتين الحَضرية والريفية في غزوات الاستعادة ، وإغارات السلْب والنهب . وبسببٍ من ذلك كلِّه وُفِّق علي بن محمد الصليحي الذي أعلن الدعوة للفاطميين عام 439 هـ إلى اكتساح أكثر أجزاء اليمن في وقتٍ قصيرٍ . فقد كان عمادُ جيشه من المؤمنين بالدعوة الإسماعيلية ؛ لا من المرتزقة أو القبائل المتقلِّبة الولاء . ومع أنه

(1) أنباء الزمن م 1/ص 146 ـ 147 . وقارن بغاية الأماني 1/ 240 .

كان همدانياً من بطن الأُصلوح ؛ لكنه اصطدم في بدايات دولته ، وهو يحاول بسط سلطته على البلاد ببطون همدان الكبرى ، وبعض بطون حِمْيَرَ وخولان والحارث . وكانت وطأته على همدان بالذات بالغة الشدّة ؛ رمى من ورائها إلى كسْر شوكتها وإخضاعها تماماً لسيطرته . وهكذا خاض معها ومع حلفائها ثلاث معارك في سِنِيّ حكمه الأُولى . وكانت آخِر تلك المعارك (وقعة صَوف) أقساها عليها إذ افتتح الصليحيُّ بعدها صنعاء التي كان أميرها الهمداني أبو حاشد بن يحيى بن أبي حاشد قد قُتِلَ فيها مع ألفٍ من شجعان فرسان همدان وأشرافهم من مختلف البطون . يقول مفرِّح بن أحمد في « سيرة الشريفين »[1] : « ونزل بالناس بلاءٌ عظيمٌ ، وخَطْبٌ هائلٌ جسيم . . . » . ويقول مسلّم اللحجي[2] : « . . . كانت وطأةُ الصليحي على همْدان وطأة المتثاقل حتّى لم يَذَرْ لهم طِباخاً لأنهم كانوا أهمَّ أجناد اليمن عليه لوجوهٍ ؛ أحدها : لشدّتهم وفراستهم وشموخِ أنوفهم عن الخضوع للملوك حتى أنّ الملوك لَتُداريهم ، وتقبل المسالمة منهم ، وتُحمل إليهم الجوائز والأموال الجمّة من زبيد وغيرها من ممالك شيعة بني العبّاس باليمن وغيرهم من المتغلّبين على المخاليف . . . » . ثم يعودُ مسلّم للمقارنة بين وضعهم تحت وطأة الصليحي ، وأوضاعهم السابقة فيقول[3] : « . . . فأخبرني مسعود قال : أدركْتُ همدان قبل خروج الصليحي ودعوته وهم ألف فارس في صنعاء والبَون وأعمالهما غير وادعة وبَكيل ويام وحَجور . وأدركْتُ عنساً وهم ألف فارس أيضاً ، وبني الحارث بالرحبة وفيهم خمسمائة فارس . . . فلم يَزَلْ الصُّليحي بهم حتى تركتهم دولته رحمةً للعالمين ، وعِبرةً للناظرين . وقسّم ابنُهُ بعده بلاد همدان وبلحارث والأبناء وعنس بين جنب وسنحان ونهد والحجازيين ، وبين (من) كان من همدان من جنده » .

ويعلّلُ هذا كلّه مصير تلك القبائل للتحالف مع الأشراف القاسميين في محاولاتها للثّأر من بني الصُّليحي واستعادة أرضهم وبلادهم التي سُلبت منهم[4] .

(1) السيرة ، ق 7أ .

(2) تاريخ مسلّم ، م 4/ ص 14 ـ 15 . وقارن بص 174 .

(3) تاريخ مسلّم ، م 4/ص 15 .

(4) السيرة ، ق 13 ب .

لكننا نعلم أنه كانت للأشراف القاسميين آنذاك عصبيتهم الخاصّة المتمثّلة في الشيعة الحسينية . ونعرفُ الآن من أخبار مسلَّم الكثيرة عنهم أنّ المؤمنين بمهدية الحسين ورجعته في الجيل الأول كانوا في الأكثر من وادعة (من خولان)[1] . أمّا من بين الأشراف فقد انحصر الأمر في أعقاب القاسم بن علي العياني ، وشريف اسمه عيسى بن عيّاش الرسّي القاسمي يذكره مفرِّح في « السيرة » بين أوائل أنصار القاسم بن جعفر ، ويذكر مسلَّم اللحجي ابنه يحيى بين الشيعة الحسينية بعد ذلك بخمسين عاماً[2] . وكنّا من قبل قد تحدّثنا عن الأسباب التي قد تكونُ كامنةً وراء اعتقاد الحسين ابن القاسم لمهديته ؛ أمّا دوافع أنصار الفكرة من بين أفراد أسرته ، وبعض البطون القَبَلية فقد تكمن في بعض خصوصيات شخصية الحسين بن القاسم نفسه ؛ فقد قدّمته الأُسرةُ على أخيه الأكبر جعفر بعد والده رغم صِغَر سِنِّهِ ؛ وتُظهر أخبار مسلَّم اللحجي عنه[3] ـ من خلال ذكريات أتباعه على الأقلّ ـ أنه كان يتمتع بشخصيةٍ كارزميةٍ تثير الإعجاب والانجذاب من بعض فئات الناس . والمعروف أنّ القاسم بن علي العياني نفسه عانى من تجذُّر تقاليد السلطة والمذهب باليمن في أعقاب الهادي والناصر ؛ فكان لا بُدَّ من تأسيسٍ آخر للقاسميين خاصّ بهم يستطيعون بناءً عليه تثبيت دعائم سلطانهم الديني والسياسي .

---

(1) جاء في السيرة ، ق 99 ب ضمن كتاب لذي الشرفين : « وأما بلد وادعة الصريمي منهم والآخر فأكثرهم شيعتنا ومحابّنا . وبينهم المنازل والأموال . وأكثرنا عندهم من قديمٍ وحديث حال . . . » . وقارن عن ديار وادعة : صفة جزيرة العرب للهمداني (نشرة الأكوع) ص 225 ـ 226 .

(2) قارن بنصّ مسلَّم في الملحق الأول ، ص 336 . وفي **تاريخ بني الوزير** (ق 5) أنّ القاسم بن علي العياني أعقب خمسة أولاد : علي ، وسليمان ، والحسين ، وجعفر ، ومحمد . أمّا أعقاب عليٍّ فكانوا في القرن الثامن بهجرة دار معين بالقرب من صعدة ـ وقد انقرضوا . وأمّا أعقاب سليمان فكانوا بخيوان . وأمّا الحسين بن القاسم (المهدي) فلم يُعْقِب غير ابنتين . وأمّا جعفر بن القاسم فله أولاد منهم أحمد بن جعفر جدّ أهل براقش ـ وابنه القاسم بن جعفر له عقبٌ منهم بعض أهل غربان (؟) . وأمّا محمد بن جعفر « فمن أولاده أكثر أهل غربان وشهارة ، وقبره بشهارة . . » . ويذكر **ابن الوزير** (التاريخ ، ق 106 ب) أميراً اسمه فُليتة بن القاسم لزم (= أسر) المتوكّل أحمد بن سليمان بأثافت وكان من الحسينية . ويذكر المتوكل أحمد بن سليمان (**في الحكمة الدرية** ، ص 325) شريفاً اسمه القاسم بن محمد بن القاسم بن جعفر « زعم أنه يشافه المهدي ويكالمه » .

(3) قارن بالملحق الأول للسيرة ، ص 330 وما بعدها .

لكنّ العصبية الشيعية الحسينية وحدها لم تكن كافيةً لقيادة حركةٍ سياسيةٍ ناجحةٍ لضآلة انتشارها ، ومقاومة آل الهادي والزيدية الهادويين لها . وقد أثبتت ذلك المواجهة العنيفة بين الصليحيين وأصحاب الشريف الفاضل من الحسينية حول حصن « الهِرابة » الذي حاصره الصليحيون ، وأرغموا من خلاله الشريف على الاستسلام رغم المقاومة البطولية للمحاصَرين[1] . بل إنّ الشريف الفاضل نفسه عبّر في مناسباتٍ عدّةٍ عن اقتناعه بعدم إمكان القضاء على الصليحيين بهذه الثُلّة من الأنصار[2] . وقد اضطرّتْه هزيمةُ « الهِرابة » لمغادرة اليمن لسنواتٍ عدّةٍ ؛ ولم يتجدّد أملُهُ بإمكان مقاتلة الصليحيين بفعالية إلاّ بعد مقتل علي بن محمد الصليحي عام 459 هـ ، وإقبال همدان وحمير عليه لقيادتهم في استعادة أرضهم وكرامتهم . ولم تُظْهِرْ سنواتُ غياب الشريف الفاضل وأخيه ذي الشرفين عن المسرح السياسي باليمن (451 ـ 459 هـ) بين أعقاب الهادي مَنْ يمكن الاعتمادُ عليه فظلّ الأمر على النحو الذي كان عليه في أربعينيات القرن . يقول مفرّح بن أحمد ـ كاتب السيرة ـ، وينقلُ عنه ذلك مسلّم اللحجي[3] : « فلمّا اشتدّ البلاءُ عليهم فزعوا إلى آلِ رسول الله صلواتُ الله عليه ، والتمسوا الفَرَجَ من عندهم . فالتمسوا الأفضلَ منهم ، وَمَنْ يُشارُ إليه فيهم ، ووجدوا الفضل في الشريفين الفاضلين الطاهرين الكاملين القاسم بن جعفر بن الإمام القاسم بن علي رضي الله عنه ، وحمزة بن أبي هاشم الحسن بن عبد الرحمن ؛ وسألوهما القيامَ فيهم والجهادَ لأعدائهم ، وعقدوا لهما بذلك بَذْلَ النفوس والأموال ، والمُواساة في الإكثار والإقلال ، وأعطوا على ذلك مواثيقَ وعهوداً ، وأزِمَّةً وعقوداً » . وقُتل حمزةُ بن أبي هاشم إبّان عودة الشريف الفاضل إلى اليمن في المنوى[4] فلم يبق غير الأخوين : الشريف الفاضل

(1) قارن بالسيرة ، ق 13 ب وما بعدها .

(2) قارن بنصّ مسلم اللحجي في ذلك ، المحلق الأول . وفي السيرة (ق 12 ب) أنه قال لأحد أنصاره : « لو ملأتُ هذا الوادي رماحاً ما كان بد القرامطة من ملكه . . » .

(3) السيرة ، ق 7 أ ، وتاريخ مسلّم اللحجي ، م 4/ص 208 وما بعدها .

(4) يذكر الأستاذ ماديلونغ (نصه المترجَم سابقاً ص 20 ، وكتابه بالألمانية : الإمام القاسم بن إبراهيم ، ص 206) ، أنّ اسم مكان استشهاده : الملوى ـ لكنّ سائر المصادر تسمّي المكان :

القاسم بن جعْفر ، وذي الشرفين محمد بن جعفر .

وكما كان حِصارُ « الهِرابة » عام 448 هـ من جانب علي بن محمد الصُّليحي ذروة فشل القاسميين ، فإنّ فَشَل المكرَّم ابنه في اقتحام معقلهم بشهارة عام 462 هـ كان ذروة انتصاراتهم .

ويبدو أنّ الشريف الفاضلَ كان يتمتّع بحسٍّ واقعيٍّ أكثر من أخيه ذي الشرفين . فهو الذي أصرّ على اتخاذ شهارة معقلاً للأسرة وللشيعة الحسينية ؛ بينما كان ذو الشرفين ما يزال متردّداً خوفاً من كابوس « حصن الهِرابة » من قبل . وقد أثبتت التجربةُ صدق إحساس الشريف الفاضل عندما حوصر الحصن بعدها بعامين دون أن يسقط ، بل إنّ المحاصِرين انهزموا بعد معركةٍ خلّفت منهم أكثر من ثمانمائة قتيل . وانطلق الأشرافُ بعدها في حملاتٍ وإغاراتٍ على المناطق الجبلية الواقعة ضمن مثلّث : صعدة ـ حَجّة ـ صنعاء ، وهذا أمرٌ مفهومٌ ؛ ففضلاً عن الغنائم التي كانت القبائل تتوقُ إليها ؛ كان هؤلاء يريدون استعادة ما أخذه منهم الصليحيون أو تثبيت أقدامهم في مواطن جديدة . بيد أنّ « السيرة » تشير إلى انسحاب الشريفين من أكثر تلك الحصون فيما بعد أواخرَ حياة الشريف الفاضل . وحُجّةُ الشريفين في ذلك أنّ الإنفاق كان يفوقُ الواردات[1] . ولم تحدُثْ بعد « معركة الرحبة » تحت شهارة مواجهاتٌ مهمةٌ مع الصليحيين رغم أنّ الشريفَ الفاضلَ ـ كما يتردَّد في عدّة مواطن بالسيرة ـ كان يعتبر ذلك مهمة حياته الأساسية . وربما عاد ذلك إلى اقتناع الشريف القديم بعدم إمكان القضاء على الصليحيين . بل إنّ « السيرة » تذكر حماس القبائل إحدى المرّات للهجوم باتّجاه صنعاء للحصول على غنائم أكبر ، في حين آثر الشريف استعادة بعض نواحي مَسْوَر[2] . بل إنّ الشريف الفاضل ومن بعده خليفتُهُ وأخوه ذو الشرفين عقدا عدة معاهداتٍ للصلح وتحديد الحدود مع الصليحيين[3] ،

= المنوى . يقول مسلّم اللحجي في التاريخ م 4/ص 213 ـ214 : وقُتل بالمنوى في بلد بوسان من ناحية الخشب من شرق بلد همدان .

(1) السيرة ، ق 56 ويكرّر مسلّم نقل ذلك عن سيرة مفرّح ؛ م4/ص 191 ، 211 ـ 212 .

(2) السيرة ، ق 58 .

(3) قارن بمقدمة الأستاذ ماديلونغ ، ص 22 ، وق 31 أ ـ 31 ب من السيرة .

وازدادت مناطقُ سلطتهم انكماشاً بعد مقتل الشريف الفاضل إذ لم يقم ذو الشرفين إلّا بعمليةٍ انتقاميةٍ لمقتل أخيه . وهكذا اقتصرت حركتهم في النهاية على المنطقة الواقعة بين شهارة وصعدة . وكان الشريف الفاضل قد قام عام 463 هـ بعمليةٍ ذات طابع رمزيٍّ إذ أخرج الصليحيين من صعدة حمايةً لقبر الهادي ومسجده[1] إظهاراً منه للوفاء لذكرى مؤسِّس الدولة باليمن ، وتوبيخاً لآل الهادي هناك لموقفهم المتحفظ من أسرته ، وتنبيهاً إلى أنه صار حامي حُماة آل البيت باليمن .

بيد أنّ مواقف الشريفين المتردّدة من الصليحيين لها ولا شكّ سببٌ آخَر غير قوة الصليحيين . فالسيرة تشكو باستمرار من تقلُّب القبائل المقاتلة مع الشريفين في الولاء . وعلينا أن لا ننسى أنّ قَتَلَة الشريف الفاضل كانوا من نِهم عندما كان هو في جوار بني الدِعام ـ والقبيلتان شاركتا بدايةً في كلّ المعارك تحت قيادتهما . وربما كان ذلك وراء انعزال ذي الشرفين بشهارة بين أنصاره من الحسينية لا يخرجُ منها إلّا نادراً حتّى في حياة أخيه . فيبدو أنه بعد الفورة الأُولى للصليحيين أيام علي بن محمد ، والسنوات الأُولى من سيطرة ابنه المكرّم ؛ فإنّ هؤلاء مالوا للتسويات والتنازُلات ليس مع الشريفين فقط ؛ بل ومع القبائل أيضاً . فلم تَعُدْ لتلك القبائل دوافع قويةٌ للقتال ما دامت قد استعادت مواطنها وحرياتها وبخاصةٍ أنها في أكثرها لم تكن من الشيعة الحسينية . لكنّ المؤرّخ مسلّماً اللحجيَّ ـ الذي لم يكن على أيّ حالٍ صديقاً للشيعة الحسينية ـ يذكر سبباً آخَرَ لفتور القبائل ؛ بل وتمرُّدها على آل القاسم أحياناً . فقد كان الشريف الفاضل يفرضُ عليهم ضرائبَ ثقيلةً بلغت أحياناً ـ في زمن الحرب ـ تسعة أعشار أموالهم[2] . وفي « السيرة » ما يؤيِّدُ مسألة الضرائب وثقلها على الناس من خلال تلك الفتاوى والآثار التي تُورِدها « السيرة » عن الشريفين باعتبارها جزءً من تُراث المذهب ، ويقتبس الرجلان بعضها عن الهادي بالذات كأنما ليحتجُّوا بها على سائر الزيدية[3] . ويُورِدُ مفرِّح بن أحمد في « السيرة » رسالةً طويلةً كتبها محمد المرتضى بن الهادي إلى الريّان (؟) الهمداني ،

---

(1) السيرة ، ق 86 ونقل ذلك مسلّم عن سيرة مفرِّح مُشيداً بالحملة ، م 4/ 209 وما بعدها .

(2) تاريخ مسلّم ، م 4/ص 190 .

(3) السيرة ، ق 9 ب وما بعدها ، 91 أ وما بعدها .

يعلّلُ له فيها اعتزاله قتالَ القرامطة بتوقُّف القبائل عن القتال وعن الإنفاق على الحرب[1] . والقياسُ واضحٌ فهو يضعُ الأميرين في موضع المرتضى ، ويضعُ شيعة الفاطميين أيامه في موضع القرامطة . أمّا فتوى « التسعة الأعشار » فتوردُها « **السيرة** » عن القاسم العياني وابنه الحسين لكنها لا تذكر إنْ كانت قد طُبِّقت أم لا[2] . ويذكر مسلَّم اللحجي أنّ القاسميين كانوا قُساةً وظَلَمةً منذ أيام الحسين بن القاسم . وهو يذكر بالتحديد حوادثَ جرت مع الحسين والشريف الفاضل ، كان **أولهما** فيها رؤوفاً بالحيوان غير رفيقٍ بالإنسان . أمّا **الثاني** فكان فيها غليظاً مع أنصاره ، غاضّاً للطرف عن نهب القبائل وسلبها للناس حتى لو كانوا من الزيدية[3] . ويتّهم مؤرِّخون آخَرون جعفر بن القاسم ، والقاسم العيانيّ نفسه بالقسوة الشديدة أيضاً[4] .

وتُشيد « **السيرة** » كثيراً بوَرَع الرجلين في المال ، وتوردُ في ذلك رسائل ووصايا وأحاديث لهما . ولا تشير بشيءٍ إلى مدى اعتقاد الشريف الفاضل بالذات في حياة المهدي ورجعته . لكنّ مسلَّماً اللحجيَّ يذكر قصةً عن رجلٍ عنه تفيد اعتقاده بذلك[5] . ثم إنه لم يكن يتدارسُ مع أتباعه وتلامذته غير كتب الحسين بن القاسم فيما يبدو[6] . ومع ذلك فقد تحفّظ في الحديث عن حياة المهدي أمام علي بن محمد الصليحي عندما كان في أَسْره[7] . أمّا ذو الشرفين فيبدو أنه كان ثابت الاعتقاد في ذلك كما تشير رسائل ووصايا له في « **السيرة** » . بل إنّ إحدى وصاياه تذكر ما يفيدُ أنّ مصير الصليحيين متروكٌ للمهديّ عند عودته سواءٌ أكان ذو الشرفين ما يزال

(1) السيرة ، ق 92 وما بعدها .
(2) السيرة ، ق 10 أ وما بعدها .
(3) تاريخ مسلَّم ، م 4/ص 208 وما بعدها ، وص 266 ـ 267 .
(4) غاية الأماني 1/227 وما بعدها .
(5) تاريخ مسلَّم ، م 4/ص 208 .
(6) السيرة ، ق 28أ .
(7) السيرة ، ق 19 ب . ويقول الهادي بن إبراهيم بن علي بن المرتضى (768 ـ 822 هـ) في هداية الراغبين إلى مذهب العترة الطيبين (مخطوطة ضحيان) ص 489 : « وطالعت سيرة الأميرين الشريفين صاحبي شهارة فوجدتُ كلامهما فيها مصرِّحاً بهذا الاعتقاد ، وبقيا عليه إلى يوم المعاد » .

حياً أم لا[1] . ولعلّه كان يسوِّغُ لنفسه بذلك إعراضَهُ عن الاستمرار في مواجهتهم . أمّا مسلَّم اللحجي الذي قابل في شبابه الشريف جعفراً ابن ذي الشرفين وخليفته ، وروى عنه عدة أخبار ، فيريدُ أن يُشْعِرَ بأنّ الأمير جعفراً لم يكن يعتقد ذلك في قرارة نفسة[2] . لكنْ كان ما يزال هناك شيعةٌ حسينيون كثيرون أيام مُسَلَّم ، في النصْف الأول من القرن السادس الهجري ؛ وعن هؤلاء واعتقاداتهم الساذجة الباطلة يُفيضُ مسلَّم في الحديث على سبيل التهويل والتشهير والتعجيب[3] ! . ويذكر محمد بن العفيف بن الوزير[4] أنّ والد نشوان بن سعيد بن أبي حمير الحميري (ـ 573 هـ) كان من الحُسينية ؛ وكذا نشوان في بَدء أمره ، ومن شعره في ذلك آنذاك قوله :

بـريتُ إلى الـرحمن من كـلِّ مُـدَّعٍ لمهـديَّـةٍ غيـر الحُسيـن بن قـاسـم

لكنه رجع بعد ذلك « ووقع بينه وبينهم خصامٌ وكلامٌ وأشعـارٌ » . وكان من شعرائهم في النصف الأول من القرن السادس الهجري الجعيد[5] (؟) صهر نشوان زوج ابنته ! « وكان أهلُ هذا المذهب من الحسينية منتشـرين في كثيرٍ من البـلاد كالظواهر والأودية وشظب والشَرَفين وصنعاء وبلاد جهة الجيمة . . . وكذلك بلاد سنحان ومذحج . . وإنْ كانوا في بعضها غالبين وبعضها مغلوبين . ومنهم الأميـر فُليتة بن قاسم الذي لزم الإمام المتوكِّل على الله بأثافت وهو القائل :

أنـا شـاهـدٌ بـالله فـأشهـد يـا فتى بفضـائـل المهـدي على فضـل النبي

وطالت مدة أهل هذه المذاهب كانت من زمن الحسين بن القاسم إلى زمن الإمام يحيـى بن حمزة . وحكى الفقيه عبد الله الورد أنه يعرفُ قبل الفناء الأعظم (الطاعون) الواقع في سنة أربعين وثمانمائة رجلاً في ثُلا من الكبراء يعتقد حياة الحسين بن القاسم ويرى رأيَ الحسينية . . . » . لكنّ **أحمد بن يحيـى المرتضى** (ـ 840 هـ) يقول في معرض ذكره لفرق الزيدية إنّ الحسينية التي اختصّت « بأن

(1) السيرة ، ق 98 .

(2) تاريخ مسلّم ، م 4/ص 258 ـ 260 .

(3) تاريخ مسلّم ، م 4 وقد جمعنا النصوص في الملحق الأول لهذه السيرة .

(4) تاريخ بني الوزير ، ق 106 ـ 107 .

(5) هو الجعيد بن حجاج الوادعي ؛ قارن عنه لواحق الزحيف على الحدائق (من .ضحيان) ص 177 .

زعمت أنّ الحسين بن القاسم بن علي المقتول برَيدة لم يُقْتَلْ ، وأنه لا بد أن يظهر قبل موته . . »[1] قد انقرضت كما انقرضت الفرقة المطرفيَّة ، ولم يبق إلّا **المخترِعة** من فِرَق الزيدية باليمن .

وقد عمدنا إلى إثبات ملاحق آخر نشرتنا هذه **للسيرة** . يتضمّنُ **الثالث** نصاً للسيّد حميدان (من النصف الأول للقرن السابع الهجري) يدافِعُ فيه عن عقيدة الحسين بن القاسم من خلال نصوصٍ من كتبه . ويتضمّن **الأول** نصوصَ مسلَّم اللحجي في القسم الرابع الباقي من **تاريخه** في « أخبار الزيدية » عن حُسينية عصره واعتقاداتهم . ويتضمّن **الثاني نصين** للإمام المتوكّل على الله أحمد بن سليمان من كتابيه : **حقائق المعرفة ، والحكمة الدرية** في معلوماته عن الحسينية وعقائدهم . وسنتحدث في هذه المقدمة عن تلك الملاحق بعد الحديث عن سيرة مفرِّح بن أحمد للأميرين .

IV

عقد يحيى بن الحسين (ـ 1099 هـ) في كتابه « **طبقات الزيدية** » فصلاً قصيراً ذكر فيه « **مَنْ عُرِف** » « من أعيان **الحسينية** من الهدوية أصحاب الإمام الحسين بن القاسم العياني »[2] . والعلماء الذين ذكرهم هم : الشريف **قاسم بن جعفر** : « وكان هذا الفاضل في درجة الإمامة لكنه لم يدْعُ . قالوا لأنه رُوي عنه أنه كان يعتقد أنّ عمّه الحسين حيّ ، وأنه المنتظر » ، و« كان مع صِنوه (أخيه) محمد بن جعفر آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر على صورة المحتسِب » ؛ وأخوه

---

(1) المنية والأمل ، ص 98 ـ 99 . وفي **العسجد المسبوك** فيمن ولي اليمن من الملوك للخزرجي ، مخطوطة مصوَّرة ، سلسلة وزارة الإعلام والثقافة ، طبعة ثانية 1981 ، ص 52 : « . . . وفي جَهَلة الشيعة من يزعم أنه حيٌّ لم يُقتل ، وأنه المهدي الذي بشّر به النبي ﷺ . وكان على هذا الاعتقاد كثيرٌ من الأشراف . ثم انقرض **أهل هذا الاعتقاد** ؛ وكانوا خلقاً كثيراً في مغارب صنعاء . والأئمةُ من أهل البيت وعلماؤهم باليمن مجمعون على أنّ الحسين بن القاسم اختلط عقله في آخِر عُمرُه لأنه ظهرت منه أشياء من الأقوال والأفعال تخالف الشرع الشريف . . » .

(2) طبقات الزيدية ، ص 97 ـ 98 .

محمد بن جعفر ، الذي « كان يعتقد اعتقاد أخيه في الحُسين » ؛ **والشيخ محمد بن أحمد النضري** (؟) و « كان عالماً على مذهب الحسينية يعتقد أنّ الحسين بن القاسم حيٌّ لم يَمُتْ وأنه المهديُّ المنتظَر ، وله في هذا رسالةٌ وكلامٌ طويلٌ لا فائدةَ في ذكر شيءٍ منه ، وردٌّ على اعتراضات الشيخ عامر التي اعترض بها الحسين بن القاسم في سيرته » ؛ **وأحمد بن بُريه** « وقتله الحسين بن القاسم » ؛ ومحمَّد بن حُميد « العالم المشهور الذي قيل فيه : لو صلحت الإمامةُ في العامّة لصلحت فيه . . . » ؛ والقاضي العلّامة **أبو نضر** (؟) **ابن أبي طالب** ابن أبي جعفر « فقيه الزيدية وعالمهم اجتمع في خزانته من فنون العلم اثني عشر ألف كتاب . وكان ممن عاصر الإمام أبا طالبٍ الأخير يحيى بن أحمد بن الحسين ابن الإمام المؤيَّد بالله ، ووصل من جهته إلى صعدة . . » ؛ والشريف العلّامة **سليمان بن حمزة** . ولا ينسى يحيى بن الحسين صاحبنا مفرِّحاً لكنه يقول عنه فقط[1] : « الشيخ مفرِّح بن أحمد : كان رأيُهُ رأي الحسينية وهو صاحبُ سيرة الأميرين المذكورين : الفاضل وصنوه » . ومصدرا يحيى بن الحسين الأساسيان لهذه المعلومات عن الشيعة الحسينية هما : كتاب **تاريخ بني الوزير** الذي يسمّيه « **الفضائل** » ، **واللآلي المُضيّة** لأحمد بن محمد الشرفي (ـ 1055 هـ)[2] . والمصدران المذكوران لا يذكران فعلاً غير ذلك عن الشّيخ مفرِّح بن أحمد . لذا فقد حاولنا أن نجد شيئاً عنه في أكثر المصادر الباقية أخباراً عن الشيعة الحُسينية ؛ وهو **تاريخ مسلَّم اللَّحجي** .

يترجم اللحجي[3] ضمن **الطبقة الرابعة** من علماء الزيدية لمن يسمّيه : أبو القاسم (محمد؟) الرَبَعي . ويذكر ضمن الترجمة مفرِّح (أو مفرِّج؟) بن أحمد الرَبَعي فيقول عنه : إنه « القاضي الأديب الشاعر . وأظنه أخاً لأبي القاسم بن أحمد . وطالت صحبته للأشراف الرسيِّين بشهارة ، وهو مصنِّفُ **سيرتهم** . وله فيها

---

(1) طبقات الزيدية ، ص 98 .

(2) تاريخ بني الوزير ، ق 5 ، 100 ، 106 ، واللآلي المضية ، مخطوطة ضحيان ، م 2/ص 149 . وقد رجع يحيى بن الحسين أيضاً إلى «المنصور بالله في سيرته . . وكان المطرّفية والحسينية والقاسمية من رافضة الشيعة يسبّون الصحابة ، ولهم قواعد أربعٌ ، ولهم كتب وتصانيف ورسائل وأشعار . . . » .

(3) تاريخ مسلَّم اللحجي ، م 4/ص 249 ـ 252 ، 272 .

من الأشعار ما يُستحسَنُ ويُستجاد . . . »[1] . أمّا معلوماتُهُ عن الأُسرةَ فَتَرِدُ خلال الترجمة الطويلة نسبياً لأبي القاسم ؛ وتتلخَّصُ في أنهم كانوا ينزلون من البَون الأسفل ببلد همدان بنحو رَيدة ، وبناحية بلد الصيد . فهم من ربيعة همدان[2] . وكانوا في النصف الأول من القرن الخامس الهجري « من بيوتات العلم والشعر ببلاد همدان » ، وقد خرج منهم عدةُ شعراء امتدحوا « الصليحيين والشهاريين » ؛ يذكرهم مسلّم ، ويورد بعض أشعارهم . ولم يكن أبو القاسم نفسه شاعراً محترفاً ؛ لكنه كان يقول الشعر ؛ كما أنه لم يكن سيِّيء العلاقة بالصليحيين فقد تولّى ابنه أحمد ابن أبي القاسم القضاء برَيدة ونواحيها للصليحيين . ويضيف مسلَّم إنّ صناعة قومٍ من آل الربعي كانت « تعليم القرآن » بالناحية التي يقيمون بها . فيبدو أنّ تقاليد الأُسرة المتوارثة في الأدب واللغة والشعر والخطابة والكتابة والعلم بالقرآن ؛ هي التي كانت وراء اتّصال جماعةٍ منهم بالقاسميين ؛ شأنهم في اتّصالهم بالصليحيين ـ ومن هؤلاء مفرِّح بن أحمد . لكن رغم تردُّد ذكر الرجل في السيرة أو مختصرها ، وعند مسلَّم ؛ فإننا لم نتوصَّلْ لرأيٍ قاطعٍ في شأن ضبط اسمه وهل هو مفرِّح (بالحاء غير المعجمة) أو مفرِّج (بإعجام الحاء) إذ يرد الاسم تارةً بنقط الحاء وطوراً بإهمالها في السيرة وعند مسلَّم . وكان الأستاذ ولفريد ماديلونغ قد آثر القراءة بالإعجام ، أما نحن فنؤْثِرُ القراءة بالإهمال : مفرِّح ، لا لشيءٍ غير أنّ اسم مفرِّج ـ بالإعجام ـ نادرٌ باليمن .

وفيما عدا ذلك فإنّ فيما كتبه الأستاذ ماديلونغ في المقالة السالفة الإثبات مقنعاً . وقد اعتمد كما هو ظاهر على السيرة فقط ، ولم يستطع الرجوع إلى القسم الرابع من تاريخ مسلَّم رغم معرفته بوجوده باليمن . وقد قام الأستاذ ماديلونغ أخيراً بنشر جزءٍ من القسم الأول من تاريخ مسلَّم مختصّ بسيرة أحمد الناصر ابن الهادي

---

(1) تاريخ مسلّم ، م 4/ص 251 .

(2) في منتخبات في أخبار اليمن (من كتاب شمس العلوم لنشوان بن سعيد الحميري) ص 40 : « ربيعةُ في قبائل اليمن كثير . والربيعة ـ بالألف واللام ـ حيٌّ من اليمن من قُضاعة . . يُنْسَبُ إليهم ربيعي ـ بإثبات الياء ـ ويُنْسَبُ إلى غيرهم رَبَعي بحذفها » . فمفرّح من ربيعة همدان لا قُضاعة أو خولان قُضاعة ؛ وبخاصةٍ أنّ أسرته كانت متوطنةً بديار همدان . وقارن ما توصلنا إليه بما رجّحه الأستاذ ماديلونغ في دراسته التقديمية هنا (ص 12 ـ 13) .

إلى الحقّ[1] . وكنا قد لاحظنا في حواشي هذا التقديم بعض الهنات في دراسة الأستاذ ماديلونغ . ونضيف هنا أنّ قول الأستاذ ماديلونغ بعدم معرفة أحدٍ بسيرة مفرِّح غير يحيى بن الحسين قديماً ، والعلّامة الأستاذ محمد الأكوع حديثاً ، غير دقيق . ففي القديم نقل عنها بكثرة مسلّم اللحجي كما يظهر من حواشينا على السيرة المنشورة بعد هذا التقديم . كما نقل عنها الشَرَفي في « اللآلي المضية » بعد يحيى بن الحسين[2] . وقد تتبَّعْنا مواطن إفادة هؤلاء جميعاً في حواشي نشرة السيرة . وفي العصر الحديث نعرفُ مصدرين اثنين أفادا منها كثيراً قبل العلّامة الأكوع هما : محمد بن إسماعيل الكِبْسي (ـ 1308 هـ) في : اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمانية[3] ، والعلّامة الشهيد أحمد بن أحمد المُطاع في : تاريخ اليمن الإسلامي من سنة 204 هـ إلى سنة 1006 هـ[4] . أمّا الكبسي فلم يذكر السيرة غير مرةٍ واحدةٍ ؛ لكنه لخّص معلوماتها تلخيصاً جيداً ربما لم يكن عن السيرة مباشرةً بل عن طريق يحيى بن الحسين[5] . وأمّا الشهيد المُطاع فقد عرف السيرة جيداً ونقل عنها كلّ الأخبار المتصلة بتاريخ شمالي اليمن في القرن الخامس ، وثوار آل البيت ، وصراع القاسميين الطويل مع الصليحيين[6] . ويكملُ المطاع

---

(1) The Sira of Imam Ahamadb. Yahay Al- Nasir li- Din Allah from Musallam al-Lahji's Kitab Akhabar Al- Zaydiyya bi L-Yaman. Edited by Wilferd Madelung, Ithaca Press, Exeter, Oxford 1990.

(2) لخّص الشرفي (ـ 1055 هـ) في **اللآلي المضية** (مخ ضحيان) م 2/ 149 ـ 186 سيرة مفرّح تلخيصاً كاملاً . وهو يعتمد في ذلك على المختصر ، بينما يرجع مسلّم ـ فيما يبدو ـ إلى السيرة بصيغتها المبسوطة .

(3) اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية . تم طبعه ونشره بعناية السيد عبد الله بن محمد بن عبد الله الكبسي ، أحد أحفاد المؤلف . مطبعة السعادة بمصر ، بدون تاريخ .

(4) تاريخ اليمن الإسلامي من سنة 204 هـ إلى سنة 1006 هـ ، تحقيق عبد الله محمد الحبشي ، نشر دار التنوير، بيروت، الطبعة الأولى 1986 .

(5) يبدأ الكبسي بنقل أخبار القاسم بن علي العياني منذ العام 389 هـ (ص 20) عن يحيى بن الحسين فيما يبدو في « أنباء الزمن » أو « غاية الأماني » . ويلخّص أخبار أولاده متبعاً في ذلك يحيى بن الحسين . ولا يصرّح بذكر **السيرة** غير مرةٍ واحدةٍ (ص 37) إذ يقول : قال « صاحب السيرة » ـ وهو المكان نفسه الذي يذكر فيه يحيى بن الحسين **السيرة** (غاية الأماني 1/ 270) ، وأنباء الزمن 1/ق 176أ : قال صاحب سيرة الأشراف) مما جعلنا نرجّح أنّ الكبسي لا ينقل عن **السيرة** مباشرة بل عن تلخيص يحيى بن الحسين لها .

(6) يبدأ المطاع أخباره عن دولة القاسميين عام 388 هـ (ص 186) بدعوة القاسم بن علي العياني الذي ينقل =

المعلومات عن تلك الأحداث بعد ذكر سيرة مفرِّح ؛ باللجوء إلى تاريخ مسلَّم اللحجي ، واللآلي المُضِيَّة للشرفي ، والعسجد المسبوك للخزرجي ، وأنباء الزمن ليحيى بن الحسين .

* * *

ولا نعرف لسيرة الأميرين لمفرِّح غير مخطوطٍ واحدٍ بالمكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء . وهي ضمن مجموعٍ متنوِّع[1] . أمّا المخطوطة الأخرى للسيرة التي

= أخباره ـ فيما يبدو ـ عن سيرته لابن يعقوب ، **واللآلي المضية** ، **والعسجد المسبوك** (يقول مثلاً : قال في سيرة الإمام المنصور . . الخ . وانظر عن سيرة القاسم ما تقدم عند ماديلونغ ، وفي تمهيدنا في الصفحات الأولى) . وفي صفحة 187 يصرّح بالنقل عن **أنباء الزمن** ليحيى بن الحسين والخزرجي (قارن ص 187 ـ 203) . ثم يعود (ص 203) للتصريح بالنقل عن سيرة المنصور (وقارن ص 206) . أمّا أخبار المهدي الحسين بن القاسم فينقلها عن **الحدائق الوردية** ، والخزرجي (ص 215 ـ 218) . وينقل أخبار المُعيد لدين الله الظاهر عام 418 هـ عن **أنباء الزمن** ، **والعسجد المسبوك** ، **واللآلي المضية** (ص 220 ـ 222) . ويصرّح (ص 221) بالنقل عن تاريخ مسلَّم اللحجي (ص 221) لكن يبدو أنّ ذلك كان بواسطة **اللآلي المضية** . ويصرّح بالنقل عن « سيرة الأمير ذي الشرفين » (ص 229 وما بعدها) في سياق ذكره لإذلال همدان وسيطرة الصليحيين . وعلى الصفحة 231 يقول : فلنرجع إلى سيرة ذي الشرفين (أحداث العام 444 هـ) . وينقل بعدها المراسلة الأولى الموجودة في السيرة والتي تمت بين الصليحي والشريف الفاضل (ص 231 ـ 233) . ويركّز بعدها في النقل عن **سيرة الأميرين** (حصار الهرابة : 234 ـ 237 ، محاربة الصليحي لآل الكرندي واصطحابه للشريف الفاضل معه : 237 ـ 238) . وبعد نقلٍ طويلٍ عن **أنباء الزمن** يعود لسيرة الأميرين (التي يسميها دائماً : سيرة الأمير ذي الشرفين)(ظهور حمزة ابن أبي هاشم : ص 245 ـ 246) . ومنذ انتقال الأشراف إلى شهارة يصرّح المطاع (ص 251) بالاعتماد على ما في **سيرة ذي الشرفين** . ولأنّ التفاصيل التي يوردها لا توجد في غير السيرة من المصادر ، ذهبنا إلى أنّ المطاع اطّلع على مخطوطةٍ من **سيرة الأميرين** ربما كانت هي الموجودة بالمكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء الآن .

(1) فهرس مخطوطات المكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء ـ إعداد أحمد محمد عيسوي ، ومحمد سعيد المليح . ط . منشأة المعارف بالإسكندرية ، 1978 ؛ ص 675 : سيرة ذي الشرفين محمد بن جعفر (تاريخ 117) . ولم تعد أرقام المجاميع والمخطوطات المفردة بالمكتبة الغربية صحيحةً بسبب التغير الذي طرأ عليها نتيجةً لاستعادة الأسر الصنعانية بعض مخطوطاتها المُصادَرة سابقاً ، ولإقبال إدارة المخطوطات على اقتناء عددٍ كبيرٍ من المخطوطات تعمل الآن على إعداد فهرسٍ شاملٍ لها . وكان الأستاذ عبد الله محمد الحبشي ، العالم المعروف في مجال التراث اليمني قد ذكر مخطوطة السيرة في كتابه : مراجع تاريخ اليمن (1972) . ثم عاد لذكر المهدي الحسين بن القاسم ، وسيرة الأميرين بتفصيلٍ أكبر في كتابه : مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن ، نشر مركز الدراسات اليمنية ، صنعاء ، بدون تاريخ ، =

رجع إليها العلّامة الأكوع في حواشيه على تاريخ عُمارة ؛ فإنها منسوخةٌ بذي سفال عام 1935[1] . وقد تبيَّن لنا أنها تتضمن الأخطاءَ نفسها ، ومواطن البياض نفسها ، التي بمخطوطة الجامع الكبير ؛ مما يقطع بأنّها منسوخةٌ عنها . ولم نرقّم مخطوطة الجامع الكبير من السيرة ضمن المجموع كما فعل الأستاذ ماديلونغ بل رقّمناها على حِدةٍ فجاءت في 100 ورقة . وتاريخ الانتهاء من نسخها : شهر ذي الحجة آخِر شهور سنة 1026 هـ ، وليس كما ذكره الأستاذ ماديلونغ .

وقد استطعنا بالعودة لمختلف المصادر التاريخية والجغرافية والنَّسَبية ضبط الغالبية العظمى من أسماء الأماكن وتحديدها ، وأكثر أسماء الأعلام . لكنْ لم تكن لنا حيلةٌ في مواطن البياض وبخاصةٍ في الشعر وأكثره لمفرِّح والأمير ذي الشرفين .

V

نشرنا في الملحق الأول لسيرة الأميرين نصوصاً مأخوذةً عن كتاب **أخبار الزيدية** لمسلِّم بن محمد بن جعفر اللحجي (ـ 545 هـ أو 552 هـ) . وكان يحيى بن الحسين (ـ 1099 هـ) في **طبقات الزيدية أو الطبقات الكبرى** قد أوضح ترتيب مسلِّم لكتابه المهمّ هذا فقال[2] : « وله تاريخٌ جعله طبقات وأكثر في ذكر حال المطرَّفية من أصحابه . وذكر أولادَ الهادي المرتضى والناصر . وهو أربعة أجزاء لِطاف يأتي جميع الكتاب في مجلَّدين متوسطين . وجعله خمس طبقات . **الطبقة الأولى** : في أحوال ابنَي الهادي استوفى ذكر الحروب بين الناصر وبين القرامطة وغيرهم . **والطبقة الثانية** : في ذكر أحوال المختار وأولاده وبني الضحّاك ، وذكر

= ص 526 ـ 529 . وقد ذكر 31 أثراً كتابياً للحسين بن القاسم أكثرها ببرلين ، وشهيد علي باستانبول ، وعند زبارة في أئمة اليمن . لكنه لم يعرف بوجود كتبٍ للمهدي الحسين بن القاسم في مجموعاتٍ خاصةٍ باليمن . (قارن بالصفحة 37 من تمهيدنا هذا) . وانظر ثبت المصادر والمراجع .

(1) D. Thomas Gochenour : A Revised Bibliography of Medieval Yemeni History in Light of Recent Publications and Discoveries ; in Der Islam , Bd. 63, 1986, PP/ 309- 322.

(2) طبقات الزيدية ، ص 97 .

فيها ترجمةً وافيةً للشيخ أحمد بن موسى الطبري . **والطبقة الثالثة** : مَنْ أخذ عن الطبري مثل مطرّف بن شهاب وابن أبي الفوارس والإمام القاسم العياني وسائر العلماء ممن أخذ عن أهل الطبقة الثانية واختلاف الزيدية . **والرابعة** : مَنْ أخذ عن مطرّف بن شهاب مثل نهد بن الصبّاح وابن صعتر وغيرهم . . . **الطبقة الخامسة** : مَنْ كان في عصر مسلّم من العلماء المطرّفية . وأول من بدأ (بـه) **في تاريخه** المرتضى محمد ابن الهادي . . ولم يذكر من سِيَر الهادي ومن تقدمه اكتفاءً **بالسيرة** له ، **وبالمصابيح** لأبي العبّاس الحَسَني ، **والإفادة** ، وغيرها من التواريخ »

وكان المعتقد أنه لم يبق من الكتاب غير قسمٍ من المجلّد الأول ، يتضمَّنُ أخبار المرتضى والناصر ، وقسماً من أخبار الشيخ أحمد بن موسى الطبري [1] . ثم ظهرت مخطوطةٌ قديمةٌ ناقصةٌ من المجلد الثاني ، منسوخة عام 566 هـ ، وتتضمن بقية الطبقة الثالثة ، والطبقتين الرابعة والخامسة (من حوالي العام 450 هـ وحتى حوالي العام 520 هـ) [2] . وقد عاصر شيوخ مسلَّم لا مسلَّمٌ [3] نفسه حقبة الازدهار

(1) في مخطوطةٍ من مجموعة Glaser بمكتبة الدولة ببرلين ، رقمها 1300 (= 9644 بالفهرس) ؛ قارن : Verzeichnis der arabischen Handschriften der Königlichen Bibliothek zu Berlin, 1887- 99, IX, 209. Fol 38b- 70b.

وقد نشر الأستاذ ويلفريد ماديلونغ القسم الأكبر من مخطوطة برلين ، والمتضمن لترجمة الناصر أحمد ابن الهادي (ـ 322 هـ) ، وبعض الأخبار عن أخيه محمد المرتضى (ـ 310 هـ) ـ لندن 1990 .

(2) أخبرنا الأستاذ عبد الله محمد الحبشي ، كما كان قد أخبر Gochenour من قبل أنّ جالب المخطوطة إلى صنعاء ، زيديٌّ من نجران . ويظن الأستاذ الحبشي أنّ الرجل باعها فيما بعد لجامعة الملك سعود بالرياض (قال لنا بعد ذلك أنّ الذي باعها ربما كان رجلاً من آل الوزير) ، ومنها عدة صُوَرٍ بصنعاء ، إحداها لدى عبد الله الحبشي . وهناك مصوَّرةٌ عنها بالمكتبة المركزية بالجامعة ، وأخرى لدى الدكتور عبد الرحمن شجاع أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة صنعاء ، وقارن : ; Gochenour ; Revised Bibliography op. cit. 315-317.

(3) هـو مسلَّم بن محمد بن جعفـر اللحجي الشّظَبي . وُلـد حوالي العـام 485 هـ ، وتوفي عـام 545 هـ أو 552 هـ . يبدو أنه اهتمّ في فتوته باللغة والأدب والشعر ، وألّف في ذلك كتاباً سمّاه الأُتْرُنْجة في شعراء اليمن . ويظهر أنّ ياقوت الحموي (معجم البلدن ، مادة لحج) اطّلع على نسخةٍ منه مكتوبة عام 530 هـ بخطّة فاستنتج أنه كان ما يزال حياً آنذاك . وبدأ اهتمامه بآراء الفرقة المطرّفية من الزيدية (510ـ 515هـ) . ويظهر أن ذلك هو الذي دفعه لكتـابة تـاريخ للزيـدية ورجـالاتها وأفكـارها بـاليمن هدفـه إثبات الصـورة المطرّفية عن تُراث المذهب بالبلاد تدليلاً لكونهم أتباع الهادي الحقيقيين . وكانت الفرقة قد بدأت تواجه تحدياتٍ حقيقية منذ مطالع القرن السادس من جانب الأشراف ، والعلماء المرتبطين بالتقاليد السلطوية =

للفرقة الحسينية حين استطاع الشريف الفاضل والأمير ذو الشرفين تجاوز مأساة الهرابة ، والتحصُّن بشهارة ، وتحدِّي الصليحيين تحدياً حقيقياً . لكنّ تلك الحقبة كانت أيضاً حقبة ازدهار فرقة المطرِّفية من الزيدية ، التي كان مسلِّم اللحجي (المولود حوالي 485 هـ) ينتمي إليها . وواضحٌ أنّ مسلّماً كان معنياً بتتبُّع أخبار علماء المطرِّفية بالذات ، والترجمة لهم . لكنه يستطردُ لذكر المخترِعة من الزيدية ، أعداء المطرِّفية الرئيسيين ، كما لا يفوتُهُ أن يذكر أخبار الحسينية في جيلهم الثاني . ويتّضح من الطرائف والنوادر الكثيرة التي يُوردُها عنهم أنه كان لهم انتشارٌ واسعٌ بين العوامّ في مناطق شهارة والجوف ، وصنعاء . ولا نعرفُ شيئاً عن رأي مسلّم في الحسين بن القاسم نفسه من خلال تاريخه لأنّ القسم الأول من المجلد الثاني من تاريخه لم يُعْثَرْ عليه بعد[1] . كما أنّ معرفته بعصر الأميرين وعقائدهما ضئيلة لأنه لم

= لأعقاب الهادي بالبلاد . وبلغ ذلك ذروته بدعوة المتوكّل على الله أحمد بن سليمان ، وعودة القاضي جعفر بن أحمد بن عبد السلام من العراق وجلبه لكثير من كتب زيدية الجيل والديلم ، والمعتزلة معه . وفي مخطوطة نجران من تاريخ مسلّم معلوماتٌ ثمينةٌ جداً عن تفاصيل الصراع بين المطرّفية وخصومهم من المخترعة . كما يمكن استنتاج الكثير عن حياة مسلّم من خلال أخباره . وهناك معلوماتٌ كثيرةٌ جداً عن العلاقات القبلية والدينية في شمالي اليمن ، وآثار السيطرة الصليحية على التحالفات بين القبائل ، ومواطن استقرارها وانتشارها ، والنواحي التي كان المذهب الزيدي ينتشر فيها في القرن الخامس وبداية السادس . فضلاً عن معلومات لسانية وأنثروبولوجية وديموغرافية وحَضَرية متناثرة في ثنايا التراجم والأخبار . وليست هناك دراسةٌ مستوعبةٌ عن مسلّم حتى الآن ؛ ولكن قارن ؛ ياقوت : معجم البلدان (مادة : لحج) ، وطبقات الزيدية ليحيى بن الحسين 1/ 96 ـ 97 ، وإنباه الرواة للقفطي 1/ 326 ، وتاريخ بني الوزير ، ق 109 ب ، Gochenour :op.cit. 315-317 ;W.Madelung :DerImam ,203-204 . وعبد الله الحبشي : مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن ، ص 405 ـ 406 ، وأيمن فؤاد سيّد : مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي ، القاهرة 1974 ، ص 106 ، ولنفس المؤلّف : تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجري ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة 1988 ، ص 36 .

(1) لكنّ الزحيف والشرفي يذكران (في لواحق الحدائق الوردية ، ص 178 ، واللآلي المضية م 2/ ص 145) أنّ مسلّماً اللحجيّ « حكى في تاريخه عن الإمام المهدي وعن والده القاسم بن علي عليهما السلام ما يشوّش خاطر المغرب عن معرفة فضلهما . فإنه حكى أشياء كثيرةً تقضي بمخالفتهما لمذاهب أسلافهما ، وأنهما ربما يسترجحان شيئاً من مذاهب العبيديين الذين ملكوا مصر والمغرب وغيرهما من بلاد الإسلام وكان الصليحيون يدعون لهم . وذلك لا يُسلّمُ للشيخ مسلّم ! . . . » . وتابع الشرفي قائلاً : إنّ مسلّماً اتهم الحسين بن القاسم بأنّه ادّعى أنه ينزل عليه الوحي « . . . وأكثر الطعن عليه ، وملأ الأوراق من سبّه . . في كلامٍ كثير . . » .

يعاصرهما ؛ ولذا يعمد لينتظم سِياقُ خبره إلى أخبار شيوخه عن عصرهما ، وإلى سيرة الأميرين لمفرِّح بن أحمد الربعي [1] . ويبدو أنه لم يدرك مفرِّحاً نفسه حياً ؛ لأنه يوردُ أخباراً واسعةً نسبياً عن أُسرته في جيلها الثاني أيضاً (أي جيل القاضي أحمد بن أبي القاسم الربعي ، ابن أخ مفرّح) . لكنه عرف الأمير جعفر بن محمد بن جعفر ، آخِر أُمراء آل القاسم بشهارة [2] . ويعني هذا أنّ عمدة الإسلام جعفر بن محمد بن جعفر كان حياً حوالي العام 510 هـ على وجه التقريب .

تتبَّعْنا استطرادات مسلَّم اللحجي ، ونوادره ، عن الشيعة الحسينية ، فجاءت في اثنتي عشرة فقرة . وتهتمّ الفقرات الأربع الأُولى بآل القاسم في عصر الشريفين . وأكثر الأخبار فيها منقولةٌ عن السيرة لمفرّح . وقليلها الباقي مأخوذٌ مشافهةً عن القاضي أحمد بنِ عبد السلام بن أبي يحيى ، والد جعفر بن أحمد بن عبد السلام (ـ 573 هـ) . وأُسرة القاضي جعفر إسماعيلية كما هو معروف ؛ فقد كان والده قاضياً للصليحيين ، كما يقال إنّ جعفراً نفسه كان إسماعيلياً في شبابه [3] . ويظهر من هذه الأخبار الواردة ضمن تراجم علماء المطرّفية ، تقديره العالي للدور الكبير الذي قام به الشريفان في مناهضة الصليحيين . لكنه يأخذ عليهما اعتقادهما بمهدية الحسين بن القاسم عمّهما ، وقسوتهما على الناس ، وفتور همتهما النضالية بعد الاستقرار بشهارة مما أدّى إلى انسحابهما من كثيرٍ من الحصون لأسبابٍ مالية .

أمّا الفِقَر الثماني الباقية فتنشغل بإيراد نوادر وطرائف وقصص وغرائب عن الشيعة الحسينية أواخر القرن الخامس ، ومطالع القرن السادس الهجريين . وتتناولُ تلك الطرائف والغرائب اعتقاداتهم في حياة الحسين بن القاسم ، وصحبته لعيسى بن مريم والخضر في الغيبة ، وظهوره أحياناً لبعض الأشخاص [4] . ويطيل

---

(1) أشرنا في حواشي السيرة إلى مواطن نقل مسلَّم والمصادر الأخرى عنها .

(2) استطعنا العثور على موطنين في م 4 من تاريخ مسلَّم يذكر فيهما لقاءه بالأمير جعفر بن محمد بن جعفر (ص 72 ، 139) .

(3) W. Madelung : Der Imam al-Qasim b. Ibrahim 204, 212-216

(4) رغم التشنيع الكثير من جانب مسلَّم على الحسينية ؛ فإنه لا يذكر شعيرةً من شعائرهم يذكرها المتوكّل أحمد بن سليمان في الحكمة الدرية (ص 325) : « ومنها ـ أي من عقائدهم ـ أنّ رجلاً من بني أخيه يقال له

مسلّم في إيراد حكاياتٍ عن استغلال بعض الخبثاء لاعتقاد غيبة الحسين وقرب رجعته لإيهام أولئك أنهم رأوه ، وأنه يريد كذا وكذا ، ليحصلوا بهذا الطريق على الأموال منهم .

تقع المخطوطةُ في 355 صفحة . والخطّ منقوطٌ ومشكولٌ وواضحٌ في الأصل ؛ لكنّ صورة المخطوطة الموجودة بمكتبة جامعة صنعاء سيئة ؛ وقد أثّر ذلك في قراءتنا لبعض الكلمات ، كما أنّ كلماتٍ أُخرى سقطت أو امّحت في التصوير .

VI

ونشرنا في الملحق الثاني نصّين للإمام المتوكّل على الله أحمد بن سليمان (ـ 566 هـ) عن المهدي الحسين بن القاسم ، والحسينية . والمعروفُ أنّ المتوكّل عاصر بعض أتباع الفرقة ، وعرف جماعةً من آل القاسم كانوا ما يزالون يؤمنون بمهدية الحسين بن القاسم وظهوره . وقد اصطدم بهم في أواخر سنيّ إمامته ، فأسروه واقتادوه إلى مقرّهم بأثافت ثم أطلقوه بوساطةٍ من صاحب صنعاء ؛ كما تذكر سيرتُه للثقفي[1] . أمّا النصُّ الأولُ فهو من كتاب **حقائق المعرفة** له . وهو مؤلَّفٌ مبكّرٌ نسبياً قبل أن يختلف مع القاسميين . وهو يوردُ فيه أقوال خصوم الحسينية في اعتقاداتهم واعتقادات المهدي . ويذكر صدام المهدي مع آل الهادي بصعدة . لكنه بعد أن يُطيلَ في ذكر أوهام المهدي كما وردت في كتبه ، وأوهام أتباعه ، يعودُ لنفْي

= قاسم بن محمد بن قاسم بن جعفر زعم أنه يشافهُه ويكالمه . وحدّثني مَنّ أثق به أنه قال له : هل رأيتَ المهدي أنت ؟ قال : نعم ! قال : كان معي في بيتٍ ثم قام وتهيأ للخروج فانفلق له جدار البيت فخرج منه ولم يخرج من الباب ! وقال ؛ إنه أمره بالحج إلى عيان ، ونسخ شريعة الحجّ من مكة إلى عيان ؛ فأقام يحجُّ سنين كثيرة هو وقومٌ من أصحابه قدر ماية رجلٍ أو يزيدون . وكانوا يفعلون ذلك في أيام عيد عرفة حتى قال فيهم (شا)عرٌ ممن (. . .) :

حجَّ الأنام إلى المحصَّب من مِنًى ... وإلى مذاقة (؟) حَجَّ آلُ القاسِمِ

وقارن بالنصّ بكامله في ملاحق هذه النشرة للسيرة .

(1) سيرة المتوكّل على الله أحمد بن سليمان لسليمان بن يحيى الثقفي ، مخطوطة الجامع الكبير بصنعاء ، مبتورة من أولها وآخرها ، ق 261 وما بعدها .

ذلك عنه ، وينسبُ الضلال إلى بعض بني إخوته ، وعوامّ شيعته ، ويُطيلُ في قَصّ أوهامهم والردّ عليها .

والنصّ الثاني من كتاب **الحكمة الدرية** للمتوكّل . وهو أقصَرُ من الأول لكنه أكثر جِدّة وإن لم يختلف كثيراً في المضامين . ويتميّزُ إلى جانب جِدّته بتصديق نسبة تلك الأقوال الغالية إلى المهديّ نفسه . ومع أنه ألّفه قبل أسره من جانب آل القاسم ؛ لكنْ يبدو أنّ الخصومة كانت قد دبّت بينه وبينهم فلم يعد يرى ضرورةً لمجاملتهم أو رعاية ذكرى عميد أسرتهم .

اعتمدنا في نشر النصّ عن مخطوطة كتاب « **حقائق المعرفة** » على نسخةٍ حديثةٍ تعودُ للعام 1377 هـ ، وتقع في 370 صفحة . والنصُّ عن الحسين بن القاسم والحسينية على الصفحات (247 ـ 251) . أمّا مخطوطة « **الحكمة ـ الدرية** » التي أخذنا منها النصّ الثاني فهي من نسخ العام 1254 هـ ، وتقع في 329 صفحة . والنصُّ فيها على الصفحات (323 ـ 325) .

VII

ونشرنا في الملحق الثالث كتاب « بيان الإشكال فيما حُكي عن المهديّ من الأقوال » . وواضحٌ أنّ هذا الكتيّب كان نتيجةً من نتائج الصراع مع الفرقة الحسينية وعليها . ويندرجُ في محاولات تبرئة الحسين بن القاسم من دعوى المهدية ، والادّعاءات الأخرى التي شاعت عنه . فغرضُها حَصْرُ النزاع مع « الفرقة الحسينية » ، بالأتباع أنفسهم ، وتبرئة آل القاسم وزعيمهم الحسين بن القاسم من تُهمة الخروج على تُراث آل البيت باليمن . وللمؤلّف حُميدان بن يحيى همٌّ شخصيٌّ أيضاً . فهو نفسه من آل القاسم . يقول صاحب « تاريخ بني الوزير »[1] : « حُميدان بن يحيى القاسمي ، من ولد جعفر بن القاسم العياني . ممن عاصر الإمامَ المهديَّ أحمد بن الحسين (ـ 656 هـ) وناصره . وكان علّامةً في الكلام ،

(1) **تاريخ بني الوزير** ، ق 59 ب ، وتمام نسبه عند يحيى بن الحسين في **طبقات الزيدية** ، ص 123 : حميدان بن يحيى بن حميدان بن القاسم بن الحسن بن إبراهيم بن سليمان بن القاسم بن علي . . الخ .

مطّلعاً على أقوال أهله ومُتبحّراً في ذلك متقناً غاية الإتقان . وكتابُهُ هو **المجموعُ** المشتمل على أقوال الناس وحكاية مذاهبهم» .

ويقصد صاحب « تاريخ بني الوزير » **بالمجموع** ما عُرف في تراث المذهب الزيدي بمجموع السيّد حُميدان ؛ وهو يتضمن عدة رسائل صغيرة تبلُغُ اثنتي عشرة رسالة ، يحكمُها همٌّ مُحافظٌ مؤدّاهُ الدعوةُ للتمسُّك بتُراث الهادي إلى الحقّ يحيى بن الحسين ومذهبه ، وإظهار وجود خطٍّ غالبٍ ومستمرٍّ منذ الهادي وحتّى عصر السيّد حُميدان ، يملكُ مبادىء وعقائد هي المذهب الصحيح ، وهي تُراث الفرقة الناجية . بعيداً عن التطرف المنسوب (باطلاً في نظر السيّد حميدان) إلى الحسين بن القاسم ، وبعيداً عن الاعتزال الذي تغلغل في أوساط الزيدية نتيجة اتّصالهم بزيدية الجيل والديلم وفي سياق صراعهم مع المطرّفية[1] .

وكتابُ « بيان الإشكال فيما حُكي عن المهديّ من الأقوال » هو الرسالةُ التاسعةُ ضمن المجموع . يعترفُ السيّد حميدان في مطلع الرسالة أنّ هناك من الناس مَنْ غلا في الحُسين بن القاسم حتّى فضّله على السَلف . وهناك مَنْ تطرّف في الحطّ عليه حتّى نسبه إلى الجهل أو الجنون . ويريد هو أن يوضّح ـ استناداً إلى الصحيح من كتبه ـ أنه « قد كُذب عليه في كثيرٍ مما يُنْسَبُ إليه » . وقد رجع السيد حُميدان فعلاً إلى عشراتٍ من كتب المهدي ورسائله لإثبات دعواه في أنه إمام هدًى وحقّ ، وأنّ ما نُسِبَ إليه مكذوبٌ عليه .

بدأ ذلك بفصلٍ أوردَ فيه أقوالاً من عدة كتبٍ للمهديْ حَذّر فيها من التقول عليه ، ونسبة ما لم يُقلْهُ إليه . ويُثبتُ هذا من وجهة نظر السيّد حُميدان أنّ الحسين بن القاسم عانى من البهتان والظلم في حياته ، فكيف بعد مماته ؟!

لكنّ المشكلة أنّ كثيراً مما قيل عنه موجودٌ في كتبه التي أخذها عنه أقاربُهُ وأعقابُهُم . بيد أنّ السيد حُميدان يتجاوز المشكلة بالقول إنّ أولئك الأقارب

---

(1) في **طبقات الزيدية** ليحيى بن الحسين ، ص 123 ـ 124 : « وكان مرماه تقرير عقيدة الهادي ومن تبعه دون غيره من أهل البيت السابقين قبل الهادي فلهم عقائد أُخَر ؛ كما تضمنه **الجامع الكافي** جامع آل محمّد وغيره » .

متوهّمون ، مدسوسٌ عليهم . وكُلّ بشرٍ يجوزُ عليه الخطأ والتصديق بما ليست له حقيقةٌ ، ولسنا مُلْزَمين بتصديق الشواذ التي وردت عن المهديّ ولو رواها أقاربه لجواز التوهُّم عليهم . وبخاصةٍ أنه هو نفسه حذَّرنا من تصديق ما يرد عنه وعن غيره من الأئمة مما يخالف صريح مذهب الهادي ، أو صريح الكتاب والسنة .

ثم يعودُ السيد حميدان لتفصيل الأُمور التي قيل إنّ المهديّ ادّعاها . **وأولها** : الادّعاء أنه فضّل نفسه على النبيّ ﷺ . **وثانيها** : الادّعاء أنّ كلامه أبهرُ من كلام الله سبحانه . **وثالثها** : الادّعاء بأنه قال إنه لا حُجَّة بعده . **ورابعها** : الادّعاء بأنه زعم أنه مهديُّ عيسى . **وخامسها** : الادّعاء عليه أنه قال إنه لا يموتُ ولا يُستشهَدُ حتّى يقومَ في آخِر الزمان . **وسادسها** : ما ادُّعي عليه أنه قال إنه يُوحى إليه في المنام . وطريقتهُ في ردّ كلّ تلك الدعاوى إيراد فِقَر من كتب الحسين بن القاسم يرى السيّد حميدان أنها تكذّب ذلك تماماً .

ثم تأتي الخاتمةُ وتشتمل على عدة أسئلةٍ وإشكالاتٍ أهمّها أنه ثبتت للمهديّ كتبٌ وأقوالٌ ، كما أنّ هناك أقوالاً مختلفاً عليه فيها . وهو يرى أن نردّ المختَلَف عليه فيه إلى الثابت عنه .

وما أورده السيد حُميدان في كتابه ليس مقنعاً كلّه ؛ لا لأنه ينتزع الأقوال أحياناً من سياقاتها ، ويؤوّلها على غير الظاهر منها أحياناً أخرى ؛ بل لأنّ الحسين بن القاسم نفسه تختلف أقوالُهُ وتتناقضُ تبعاً لحالاته النفسية فيما يبدو ، ولطبيعة اتهامات الخصوم له . فقد كان مضطراً أحياناً للتراجُع عن بعض ما ادّعاه أمام هجمات الطاعنين ، ثم يعودُ في رسالةٍ أُخرى أو كتابٍ آخر لإثبات ما أنكره من قبلُ .

ويبدو أنّ محاولة السيّد حميدان لتصوير المذهب الزيدي بصورةٍ معيَّنةٍ ، بما في ذلك رأيه في الحسين بن القاسم وتُراثه ؛ لم تحظ بالاستحسان الكامل من جانب الزيدية المعاصرين واللاحقين ؛ وإن قرّظها بعض المعاصرين[1] . يقول يحيى بن الحسين (ـ 1099 هـ) في « طبقات الزيدية » إنّ الإمام الناصر لدين الله

(1) قارن بتقريظ ابن شُبيل له آخِر هذا التمهيد .

صلاح الدين محمد بن علي (ـ 793 هـ) لمّا قرأ مجموع السيّد حُميدان كتب للهادي بن إبراهيم[1] : « مجموع السيّد حميدان قد وقفْتُ على شيءٍ منه . وفي كلامه جِدَّةٌ . وهو من فضلاء أهل البيت . والأقوالُ تختلف . ولقد وقفنا على شيءٍ في علوم آل محمّد لأحمد بن عيسى بن زيد وغيره مما يخالف القواعد الأصولية الكلامية . وفيه أشياء من كلام أهل البيت منسوبةٌ إلى أهل البيت ادّعى أنها عقيدة أهل البيت كافّة . وفي النفس أنّ ذلك غير متّسِق . ثم إنّ كلامه وإيراده على وجه الإلـزام . وبنى على ذلك قاعدة التعليل . والتعليل الحقيقي لا يقعُ بالإلزام والإفحام . ولعلّه حذا حَذْوَ القاسم (بن علي العياني) في كتاب **الدعامة في تثبيت الإمامة** ؛ فإنه على هذا النحو . . . » .

* * *

اعتمدنا في نشر كتاب « بيان الإشكال » في الملحق الثالث على مخطوطتين اثنتين ؛ **إحداهما** : تتضمّن مجموع السيّد حُميدان (بالجامع الكبير ، المكتبة الغربية ، رقم 8 ـ مجاميع)[2] . من نسخ العام 1040 هـ . ويقع كتاب بيان الإشكال فيها على الورقات (92 ـ 97) . **والمخطوطة الثانية** : بملك العلاّمة السيّد محمد بن محمد المنصور بصنعاء ، وتتضمّن ثمانيةً من كتب مجموع السيّد حميدان ، وفي مقدمة المخطوطة كتاب الأنوار في معرفة الله ومعرفة رسله لأبي الحسين أحمد بن موسى الطبري (توفي حوالي 325 هـ) صاحب الهادي . و « بيان الإشكال » يأتي سادساً بين كتب هذه المخطوطة ، ويقع على الصفحات (118 ـ 130) ؛ بينما يبلغ مجموع صفحات المخطوط (بما في ذلك كتاب **الأنوار**) 146 صفحة . وهو من نسخ العام 1054 هـ (الرابع عشر من ذي القعدة) . وقد ذكرنا في نشرته هنا أرقام صفحاته .

وفي نهاية مخطوطتي « بيان الإشكال » تقريظٌ للكتاب ، ولمجموع السيّد حُميدان ؛ نصُّه : « وفي الأُمّ المنقول منها ؛ قال القاضي الأوحد الأفضل العالم

(1) طبقات الزيدية ، ص 124 .

(2) فهرس مخطوطات المكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء ، ص 717 ـ 718 .

العامل الأكمل أبو عبد الله محمد بن جعفر بن الشُبيل بن عبد الله[1] رحمه الله : لمّا سمعتُ من السيّد الشريف الفاضل حُميدان بن يحيى هذه المجموعات التي جمعها وذلك بعد أن نسخْتُها من الكراريس التي بخطّه ، ومن جملتها هذا الذي من كلام مولانا الإمام المهديّ لدين الله الحسين بن القاسم سلامُ الله عليه ورضوانه قلتُ فيه أبياتاً وهي هذه :

هـذا إمـامٌ عـالـمٌ عـامـلٌ	أبـرا إلى الـرحمن من بُغْضِـهِ
ومـن مُـوالاةٍ لأعـدائـه	ومـن غُـلُوٍّ فـيـه أو رَفْـضِـهِ
قـف واتّـق إلّـه الـسـمـا	يـا أيُّها الـطاعنُ في عِرضِـهِ
إن تـكُ منـه اليـوم مستقرضـاً	ففي غـدٍ تـنـدمُ من قـرضِـهِ
أديـنُ أنّ الـحـقَّ مـا قـالـه	من صفـة البـاري ومن فـرضِـهِ
وأنّ مَـنْ في فـضـله قـد غـلا	أكبـر جُـرْمـاً من ذوي بُغْضِـهِ
فَخَفْ إلّـه الخَلْق يـا مَنْ غـلا	في خَلْطِ ما قد شيبَ في مَخْضِـهِ
مثل ابن غطريف الـذي لم يَقُلْ	فـي كُـلِّه الـحقّ ولا بـعـضِـهِ
قـال ابنُ غـطريف الـذي قـالـه	فشمّـر المهـديُّ فـي نقـضِـهِ
وردَّ مـا قـال ولـم يَـرْضَـهُ	إذ أسـخط الـلّهَ ولـم يُـرْضِـهِ
صـلّى عـليـه الله مـن راحضٍ	طاب فطاب الدينُ من خطّه (؟)

(1) قارن عنه : طبقات الزيدية ليحيى بن الحسين ، ص 124 .

الصفحة الأولى من المخطوطة

الصفحة الأخيرة من المخطوطة

بسم الله الرحمن الرحيم

/ قال مفرِّح بن أحمد ـ وفّقه الله لمسالك الجنّة وأعانه على العمل بالكتاب [م ق 6أ] والسنّة ـ: رأيتُ أن أُثْبِتَ أخبار الدولة الفاطمية الحسينية ، وأذكر أقاصيص الحضرة القاسمية اليمنيـة . وأبتدىءُ ذلـك بأخبـار الشريف المبـارك الأمين من حيث كان انتهى[1] سيرة الإمام المهدي لدين الله صلوات الله عليـه . وملتُ إلى الاختصار والتلخيص ، وأخذ ما كان من عيون الأخبار والأقاصيص ، ولو ذهبْتُ إلى ذكر ما كان من جميع الفتن ، وما لاقى آل رسول الله صلوات الله عليهم من البلايا والمِحَن ، لطال به الكتاب وبَعُدَ فيه الخطاب . وقد أجريتُ في تأليفي هذا أسباباً ، وجعلْتُ فيه رواياتٍ وأبواباً . فمنها مـا رويتُهُ لمعـرفة عِـظَمِ المحنة التي امتُحن بهـا الشريفُ الفاضل وما كان بسببه . ومنها ما رويتُهُ ليكون لأوليائه القدوة به < ليعلم ذلك من لم يدركه من آله وعقبه . ومنها ما رويته >[*] لإبانة فضله لمن جهله ليعرف غـائبٌ ويتوب مناصب ؛ ليعلم من لم يختبره أنه لم يكن له في الحُطام رغبة ، ولو كانَ له في الدنيا رغبة لكان قد بلغ إلى أقصى رتبة . بل همَّ بشيءٍ ففعله ، وكان لـه غرضٌ فوصله . وفي كلٍّ من آله وذويه فضلٌ فلكثيرٍ من عظماء هذه الدولة مكانٌ وفعلٌ ولكلِّ شيءٍ[**] من موضع ومحلّ . وأنا إن شاء الله مُثْبتٌ كلَّ شيءٍ من ذلك في أوانه ،

(*) ما بين الحاصرتين عن الهامش الأيمن من الصفحة .

(**) سقط في الأصل بمقدار كلمة .

(1) كذا في الأصل ، وربما كانت : انتهت .

ومبيّنٌ فضلَ كلِّ ذي فضلٍ في مكانه ، قال :

لمّا كان من غيبة إمام العصر وصاحب الدهر المهدي لدين الله الحسين ابن القاسم صلوات الله عليه[1] ، وكان امتحاناً لأولياء الله ونقمةً على أعداء الله فلمّا < . . . >[*] وأراهم برهانه فما عقلوا؛ بقي الناسُ في ظلمةٍ وفِتَن ، وزلازل ومِحَن من سنة أربعٍ وأربعمائة سنة إلى سنة تسعٍ [**] وثلاثين ، خرج عدوُّ الله علي بن محمد الصُّليحي متوجِّهاً إلى الحرم ودعا إلى مذهب الإسماعيلية[2] بالحجاز < وأجابه إلى ذلك طوائف من حراز وجعل طريقة نجد في مبتداه ، وجعل طريقه تهامة في منتهاه . وفي هذه السنة أخذ حاجّ اليمن بجازان[3] وتابع من يأتي من الحجاز>[***] وغيرهم على وصولهم إليه ليوم ذي أمار. وطلع في رأس الحول من قابل في شهر جمادى من هذه السنة مسار[4] . وتألّب أهل المغرب إلى رجلٍ من بني

---

[*] سَقَطَ في الأصل .

[**] في الأصل : سبع .

[***] ما بين الحاصرتين عن الهامش الأيمن من الصفحة .

(1) أعلن الإمام المنصور بالله القاسم بن علي العياني قيامه في سنة 389 هـ وظل إماماً للزيدية إلى أن توفي في شهر رمضان سنة 393 هـ. انظر يحيى بن الحسين : غاية الأماني جـ 1 ص 229 ، 234 . أما الإمام الحسين بن القاسم فقد أعلن القيام بعد وفاة أبيه سنة 393 . وقتل بالقرب من ريدة في صراعه مع ابن الضحاك . يقول يحيى بن الحسين : « وفي جهلة الشيعة من يزعم أنه حي وأنه المهدي المنتظر » ؛ غاية الأماني 1/239 ، وقارن بالمقدمة والتمهيد .

(2) كان علي بن محمد الصليحي شافعياً ثم تحول إلى المذهب الإسماعيلي . وفي سنة 439 هـ أعلن الثورة في مسار إيذاناً بقيام الدولة الصليحية . انظر : عمارة ، تاريخ اليمن ، ص 101 ، ويحيى بن الحسين ، غاية الأماني ، جـ 1 ص 247 ، وحسين الهمداني ، الصليحيون ، ص 75 .

(3) وادي جازان من أكبر أودية تهامة ، وعلى مصب الوادي مدينة جازان التي كانت عاصمة للمخلاف السليماني ؛ الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص 98 ؛ الحجري ، مجموع بلدان اليمن ، جـ 1 ص 171 ؛ البلادي ، بين مكة وحضرموت ، ص 179 ـ 189 .

(4) مسار بفتح الميم والسين ، قرية وعزلة في ناحية مناخة وبني إسماعيل ، قضاء حراز . وبها حصن مسار المشهور الذي يطل على مدينة مناخة ؛ الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص 133 ، جـ 1 نفس الصفحة ؛ الحجري ، مجموع بلدان اليمن ، جـ 4 ص 707 ؛ التوزيع السكاني في محافظة صنعاء ، جـ 1 ص 42 ـ 44 ؛ خريطة ج . ع . ى. 1 : 500000 قطعة رقم 1 .

شاور[1] المعيّل يقال : إنه جعفر بن عبّاس[2] ، واجتمع معه على قتال الصُليحي كثيرٌ من الناس ، فلمّا خفّوا إليه قتلهم وكسرهم ، وفجع قلوب الناس وبهرهم . وقتل منيع بن إسحاق الهمداني من بني حمادٍ[3] في جماعةٍ من بني عمّه بالجحادب[4] . وصار للصليحي في تلك النواحي طوائل على جميع مَنْ بها من العرب في تلك المغارب . ثم إنّ رؤساء الناس من همدان[5] وحمير[6] ورؤساء المغرب ووجوه الأحبوب[7] ضربوا لقاءً إلى بيت معدي كرب[8] / حضر فيه الأميران جعفر بن القاسم وولده عبد الله بن جعفر وأبو حاشد بن يحيى بن أبي حاشد بن الضحّاك[9] . فسألوا الأمير عبد الله بن جعفر التقدم إلى نواحي الحَيمة[10] لفتنة الصليحي لأنه كان له بها خِبْرة ، وكان أهلها له عشيرة فأجابهم إلى ذلك ونهض فيمن

---

(1) بنو شاور : من قبائل همدان ويمتد نسبهم إلى كهلان من قحطان . ابن رسول ، طرفة الأصحاب ، ص 47 .

(2) ذكر يحيى بن الحسين أنه كان هناك تحالف بين الأمير جعفر بن الإمام القاسم وبين جعفر بن عباس . وقد انتصر الصليحي وقتل جعفر بن عباس وتفرق الناس عن الأمير جعفر بن القاسم ؛ غاية الأماني ، جـ 1 ص 249 .

(3) بلاد بني حماد ذكرها الهمداني من مساقي وادي مور بالقرب من مسور ؛ الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص 134 .

(4) الجحادب وعلسان : عزلة في ناحية الحيمة الخارجية قضاء صنعاء . والجحادب قرية من عزلة البشاري وبني حبش ناحية الطويلة ؛ التوزيع السكاني في محافظة صنعاء ، جـ 2 ص 196 ؛ التوزيع السكاني في محافظة المحويت ، ص 1 .

(5) همدان : أشهر قبائل اليمن ، وتنحصر قبائل همدان في البطنين حاشد وبكيل ابني جشم بن خيران . . . بن همدان . انظر ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن ، جـ 4 ص 752 ـ 759 .

(6) حمير : بكسر الحاء ، شعب عظيم في اليمن من ولد حمير بن سبأ بن قحطان . وينقسم إلى عدة قبائل . انظر ، ابن رسول ، طرفة الأصحاب ، ص 50 ؛ الحجري ، مجموع بلدان اليمن ، جـ 2 ص 282 ـ 298 .

(7) الأحبوب : عزلة من ناحية الحيمة الداخلية قضاء صنعاء ؛ التوزيع السكاني في محافظة صنعاء ، جـ 2 ص 215 ـ 216 .

(8) بيت كرب : من مخلاف شبام أقيان (كوكبان) ؛ الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص 213 .

(9) أبو حاشد بن الضحاك كان صاحب السلطة الفعلية في صنعاء . وكان يطلق عليه أحياناً اسم سلطان أو ملك صنعاء . انظر ، يحيى بن الحسين ، غاية الأماني ، جـ 1 ص 249 ؛ عمارة ، تاريخ اليمن ، ص 107 .

(10) الحيمة هي ما يطلق عليها الآن الحيمة الداخلية والحيمة الخارجية وهما جهتان تابعتان لقضاء صنعاء .

تبعه من الناس وبالغ في الفتنة إلى جهده . وكان في موضع يقال لـه المحارم[1]، بالحدب فَجَرَّد له الصُليحيُّ منسراً فخذله الناسُ وأسلموه ، فقُتل مَن استقـام معه وأُسِـر إلى مسار فأقام هناك مُدّةً ثم سَرّحه وَمَنَّ عليه بعد أن حَمّله العهود وأكّد عليه العقود أن لا يفاتنه . ثم أجمعت رؤساء حمير ورؤساء همدان إلى والده جعفر ابن القاسم وسألوه القيام في بلدانهم والمحاماة على أوطانهم ، فنهض معهم إلى صيد البرار[2] فبالغ في الفتنة هنالك إلى جهده ، ثم أخرج له الصليحي عسكراً وانهزم عنه جمهور الناس وأسلموه ، واستقام معه نفرٌ من أصحابه فاستُشهدوا رحمةُ الله عليهم ؛ منهم : أَنَسُ بنُ يعقوب الهمداني وعبـد الرحمن بن حسّـان الحوالي[3] وعلي بن عبـد الله الأكبر، ورجـلٌ يقال لـه : المعقّر ـ في جمـاعةٍ من وجـوه حميـر زهـاء ثـلاثين فارساً ، وأُسر الأمير جعفر بن القاسم إلى مسار ، فأقام هنالك ما علم الله . ثمّ حَمّله العهود وأكّد عليه العقود على سراحه أن لا ينصب له حرباً ولا يقاتل له حِزْباً/ [م ق 6ب]

وروى لي جهضم بن أبي الحروب ـ وهو من أهل الورع والدين ـ عن الأمير جعفر بن القاسم أنّ الصُليحيَّ قال له : أنـا أسأُلُـكَ أن تكفيَني وَلَدَكَ القاسم بن جعفر ! رواها لي عنه سماعاً والقاسمُ بنُ جعفر في ذلك الوقت حَدَث السن ما نصبَ لحربٍ ولا قام فيه .

فلمـا كان في سنـة أربعٍ وأربعين وأربعمـائة طلع الصُّليحي ينـاع[4] وقتل

---

(1) في الأصل : (المحادم) . والمحارم : قرية من عزلة الحدب ناحية الحيمة الداخلية قضاء صنعاء ؛ التوزيع السكاني في محافظة صنعاء ، جـ 2 ص 214 ، والتقسيمات الإدارية لعام 1985 : عزلة الحدب .

(2) البرار الأسفل والبرار الأعلى من قرى عزلة حمدة ناحية ريدة ؛ قارن بالتوزيع السكاني في محافظة صنعاء ، جـ 2 ص 313 . ويرجح الأكوع أن يكون المكان المقصود هو « صيد حضور » ؛ انظر : عمارة ، تاريخ اليمن ، ص 108 .

(3) الحوالي : بكسر الحاء المهملة أفصح من فتحها . والحواليون من قبائل حمير ؛ انظر ، الهمداني ؛ صفة جزيرة العرب ، ص 211 ، جـ 12 ، نفس الصفحة ؛ والحجري : مجمـوع بلدان اليمن ، جـ 2 ص 299 .

(4) يناع : حصن في أسفل جبل حضور بالحيمة الداخلية . انظر : الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص 210 ؛ الحجري : مجموع بلدان اليمن ، جـ 2 ص 277 ، جـ 4 ص 806 ؛ عمارة : تاريخ اليمن ، ص 110 .

الأحبوب وأهل الجبل في يفاعة[1] ، وظافَرَهُ في أموره أبـو الحسين بن مهلهل بن جناح وكان < . . . >(*) موضع بني الصُّلَيحي بالأخروج[2] يوم < . . . >(**) ودافع العشائر على ما خلَّفوه من مالٍ أو دارٍ وقتل ابني أبي العسكر والعطّاب في جماعةٍ من وجوه أهل ذلك الجناب ، وبسببه كان قتل الأحبوب وأهل الجبل وطلوع بيت خولان[3] . وتعاظمت المِحَن وارتاع أهل اليمن ، واجتمعوا إلى حاشـد بن يحيـى ـ وهو يومئذٍ الرئيس والسلطان من حمير وهمدان وبني الحارث[4] وخولان[5] في عددٍ من رؤسائهم وكثرةٍ وقوةٍ ووفرةٍ وأجمعوا على مُكاسرة الصليحي ، وساروا بأجمعهم إليه . وكان عبد الأكبر بن وهيب الهمداني من أهل الرئاسة والشدة والبأس والنجدة قد نهض مقدّمةً لعسكر الهمدانيين وطلع الجبل وغنم ، وقتل ، وراح سالماً غانماً . فكان فيمن قتله ذلك اليوم محمد بن جعفـر بن راسان ، وكـان لسان بني الصُّليحي وشـاعرهم وخـاصتهم . وسار أبـو حاشـد بن يحيـى في بقيـة العسكـر وجمهـوره حتى إذا كانـوا بيازل[6] من وادي صَـوف نزل عليهم عسكـر الصليحي فقُتل

(*) في الأصل : أحـ ، والباقي ساقط .

(**) في الأصل بياض .

(1) يفاعة : قرية من عزلة الجحادب ناحية الحيمة الخـارجية محـافظة صنعـاء . التقسيمات الإداريـة لعام 1985 ، عزلة الجحادب .

(2) الأخروج : بلد الأخروج بن الغوث ، وتقع ما بين حضور وهوزن من حراز وهو ما يسمى بالحيمة . انظر ، الهمداني ؛ صفة جزيرة العرب ، ص 122 جـ 6 ؛ الحجري ؛ مجموع بلدان اليمن ، جـ 2 ص 255 ، ص 277 .

(3) بيت خولان : قرية على قمة جبل حضور إلى الغرب من صنعاء ؛ الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص 122 ج 6 .

(4) بنو الحارث بن كعب حي ، من مذحج يسكنون عدة مناطق منها منطقة في شمال صنعاء وأخـرى، بالقرب من رداع ؛ الهمـداني ، صفة جـزيرة العـرب ، ص 181 ؛ نشوان : منتخبـات في أخبار اليمن ، ص 25 ؛ كحالة : معجم القبائل العربية ، جـ 1 ص 227 ـ 228 .

(5) خولان : هم ولد خولان بن عمرو . وتنقسم خولان إلى ثلاثة أقسام خولان صعدة ، وخولان العالية شرقي صنعاء ، وخـولان بني الخياط ؛ انـظر ، ابن رسول ، طـرفة الأصحـاب ، ص 78 ـ 79، والحجري : مجموع بلدان اليمن ، جـ 2 ص 313 ـ 322 .

(6) يازل : قرية من عزلة بني سوار ناحية بني مطر قضاء صنعاء ؛ التعداد السكاني التعاوني لمحـافظة صنعاء ، جـ 1 ص 88 ؛ التقسيمات الإدارية لعام 1985 .

أبو حاشد بن يحيى في عِدّةٍ من الرؤساء والسلاطين ، وقُتل في ذلك اليوم خَلْقٌ كثير وغُنم ما كان معهم من الخيل / والسلاح والعدد والرماح . ونزل بالناس بلاءٌ عظيم ، [م ق 7أ] وخَطْبٌ هائلٌ جسيم ؛ وذلك بسبب أعمالهم وقُبْح أفعالهم واعتزالهم لآل نبيِّهم وما كان منهم في أيام مهديِّهم : ﴿وليمحّص الله الذين آمنوا ويمحَقَ الكافرين﴾[1] ، وكان ذلك في يوم الأحد من شهر ربيع الأول سنة أربعٍ وأربعين وأربعمائة سنة . فلما اشتدّ البلاءُ عليهم فزِعوا إلى آل رسول الله صلواتُ الله عليه والتمسوا الفَرَج من عندهم وبهم . فالتمسوا الأفضل منهم وَمَنْ يُشارُ إليه فيهم ، ووجدوا الفضل في الشريفين الفاضلين الطاهرين الكاملين القاسم بن جعفر بن الإمام القاسم بن علي رضي الله عنه ، وحمزة بن أبي هاشم الحسن بن عبد الرحمن[2] . فأقبلوا إليهما مسرعين ، ومدّوا أعناقهم لهما خاضعين ، وسألوهما القيامَ فيهم والجهادَ لأعدائهم ، وعقدوا لهما بذلك بذل النفوس والأموال والمُواساة في الإكثار والإقْلال ، وأعطوا على ذلك مواثيق وعهوداً وأزِمّةً وعقوداً .

واستعاد[3] الصُّليحيُّ من بيت خولان إلى تهامة فافتتحها وأقام بها إلى سنة سبعٍ وأربعين وأربعمائة . وكتب إلى الشريف الفاضل عليه السّلام من هنالك كتاباً يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم .

أمّا بعد ؛ فإنّ الله لو أراد للنملة صلاحاً ما جعل لها جناحاً < . . . . >(*) بعد ذلك على كلامٍ قال فيه : وأنا في استدعاء الفرسان ، وسَنّ الرماح ، وصقل الصفاح . ثم أنا ناهضٌ إليه ومُطِلٌ بمشيئة الله عليه فكأني به وقد رأى الأمر في خلاف ما رتّب فاستشار أهل خلّته في أمره أيُحارب أم يُسالم فقال قائلٌ منهم : المسالمة سلامة ، ويقول منهم من يريد بذل روحه من جسده في طاعته : والله لنخوضَنَّ المنيّة حتّى نبلُغَ الأُمنيّة أو نذهب قتلاً بالكلية ! فيميل هو إلى هذا القول اتّباعاً للهوى وسبباً لحلول المنية والردى . ثم أتى بعد ذلك على كلامٍ وكتب أبيات شِعْرٍ يقول فيهنّ :

(*) بياض في الأصل مقدار كلمتين .

(1) سورة آل عمران/141 .

(2) نقل مسلّم اللحجي في م 4/ص 210 هذا النصّ عن مفرّح .

(3) يستخدم الكاتب هذا الفعل بمعنى : « رجع » دائماً .

هــذا الـيقـين وخيــل الحق مـقبلـةٌ تحثّ في نقعهــا جَـرْيَ الســراحينِ
هنــاك لا تنـفــع الــرسِّي نــدامتُــهُ وعضّ إبهــامــه في الــوقـت والحينِ
فيــا لهـمــدان لا يغــرُرْكُـمُ طَـمَــعٌ إنّ الـغــرور حِبــالاتُ الـشيــاطيـنِ

ثم قال : ألم تعلم أنّ خيلي منصورةُ المقاصد ، وأني أُرتّبُ فيها القواعدَ بعد القواعد ، وأُوردها سمّ الأسود والأساود ، فليدبّر الشريف في نفسه رأياً . والسلام .

فلمّا قرأ الشريف الفاضل كتابه أعاد على يد رسوله جوابه يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم وحمد الله وأثنى عليه وصلّى على محمّدٍ صلّى الله عليه / ثم قال : [م ق 7ب] وقفْنا على كتاب رجلٍ قد طما في بحر الغرور وعلا في أسفل الأمور يخبط العشوى في تجبُّره ، ويمشي الخُيَلاء بتكبُّره والكبرياء لذي العِزّة المنّان الذي غمر العاصين بالجود والإحسان حتّى يستدرجَهُم في أقرب أوانٍ : ﴿ ولو ترى إذ فزعوا فلا فوتَ وأُخِذوا من مكانٍ قريب ﴾[1] . ذكر كثرة كتائبه ومن يتألّفه برغائبه ؛ وتلكم العُصَبُ أول أنصارنا وأكبر أعضادنا لأنّهم من ولد قحطان[2] وأبناء حمير وكهلان[3] الذين لهم عُلُوّ الشأن في قديم الزمان وحدوث الأوان فبادّعائه إلى نحلتنا أكرموه وعظّموه ، واللّهُ يفتحُ بصائرهم بنور الهدى وبرهان التُّقى حتّى يعودَ الحقُّ منصوراً والباطل مقهوراً بأنصار الدين وتقارب الأجناد المعاضدين فلا يغره يازل وما قُتل فيه من فارس وراجل فإنها أمنيةٌ خدعَتْهم وعدوةٌ فاجأَتْهم فلو تأهّبوا لقتاله وأخذه ونزاله لضاق به الفِجاج وكثُر منه الارتجاج . وقد علم مقامَ شيخهم عبد الأكبـر بن وهيب لمّا استيقظ في عصبةٍ يسيرةٍ تركت مَنْ قاتله صريعاً ، وخرج بأصحابه سالمين جميعاً . وهم الآن فقد أصلحوا السلاح وثقفوا الرماح انتظاراً ليوم الكفـاح واثقين بإزالـة الدولـة عنه للبراهين التي قد لاحتِ وللأمور التي أتى وقتها وفاحت لِما أتى في مُحْكَم التنزيل

---

(1) سورة سبأ/51 .

(2) قحطان : هو الجد الجامع لقبائل اليمن . وآل قحطان في بلاد صعدة ؛ الحجري : مجموع بلدان اليمن ، جـ 4 ص 647 .

(3) كهلان : بنو كهلان هم الأزد بن الغوث وينسبون إلى كهلان بن سبأ . . . بن قحطان ؛ ابن رسول ، طرفة الأصحاب ، ص 54 ـ 55 ؛ الحجري : مجموع بلدان اليمن ، جـ 4 ص 673 ـ 674 ؛ الويسي : اليمن الكبرى ، ص 239 ـ 241 .

وفسّره أمير المؤمنين . فالأمر صائرٌ إلى أربابه حقّاً ، والفرع عائدٌ إلى نصابه صِدْقاً . فكأنّي به قد رأى الأمر في خلاف ما رتّب فقام وقعد وانحدر وأصعد . وكتب أبياتاً يقول فيهن :

هـذا اليقين وإبلائي عن الدين ... ليس الوعيد ولا الإرجاف يثنيني
عزمي وثيقٌ وقلبي غيرُ مرتعبٍ ... إذا ألمَّ نواميس الدهاقينِ
لا بدّ من وقعةٍ منّي تظلّ بها ... أشلاؤكم مِزَقاً بين السراحينِ
تظلّ فيكم سيوفُ الهند راتعةً ... يطير من وقعها قُطْنُ الخفاتينِ
هناك تعرفُ للرّسيّ صولتَهُ ... إذا رأيتَ قريص الموتِ في الحينِ
وإنّ همدان لا تغضي على قذأٍ ... ولا تلاقيه إلّا في الميادينِ
بكلِّ أجرَد سبّاحٍ وسابحةٍ ... على مناكبها شُمٌّ العرانينِ
فلا يغرُّك ما قد نِلْتَ من لمَمٍ ... حراثة ما(*) وأصحاب الدكاكين
ولا يصيبك ما قد قلت ممتثلاً ... إنّ الغرور حِبالاتُ الشياطينِ
[م ق 8أ] لا تحسبوا في لُقَيّانا لكم فَرَجاً ... بنا تَبيدون يا رَكْبَ البراذينِ /
بإسمنا نلْتُمُ السلطان لا بِكُمُ ... كما تُصاد القُمارى بالشواهينِ
ونحن نُنْزِلُكُم عنه بمقدرةٍ ... منّا عليكم بتسهيلٍ وتمكينِ
كأني بك والخيلانُ مقبلةٌ ... تأتي وتذهب أوساطَ العثانين
قد غصَّك الريقُ واستعبرْتَ منتحِباً ... بكلِّ صوتك تسميني وتكنيني
تود أنك لم تحملك ناجيةٌ ... ولا آدّعيت إلى اسمِ السلاطينِ

ثم ختم كتابه يقول : ألم تعلم أنّا أهل بيت نقمع من ناوأناه ، وندمغ مَنْ عاديناه في أوقاتٍ إذا عرفها الفاضل وأطْرد الجحافل وأسر القبائل ونحن من ذرية ذلك الشخص اليتيم الذي كان في كفالة عمٍّ فقير كان يقول : أنا أُدوّخُ مُلْكَ كسرى وقيصر ! فيقول السامعون : ساحرٌ كذّاب ومعلَّمٌ مجنون ! وأنا في رباب ما غرسه وتشييد ما أسسه . وتلك البركة تطرقني ، وذلك التوفيق يؤيّدني . والسلامُ على رسول الله .

(*) كذا في الأصل .

ولمّا وصلهُ كتب إلى الشريفين المقدَّم ذكرُهُما كتاباً جميلًا يستعفيهما من القيام مع العشائر ، ويعتذر في قتل همدان ، ويبالغ في الإجمال ، ويصفُ كراهيته لدماء الشرفاء ، ويحذّرهما عواقب الأمور .

رواية الشيخ الفقيـه أبي الحسن علي بن محمد بن أبي الجيش قـال : لمّا استعاد الصُّليحي إلى تهامة كثُر اختلاف أهل اليمن إلى الشريف الفاضل عليه السّلام وإلحاحهم ومطالبتهم له يسألونه إثبات الأمر والنهي والمناصبة لأعداء الله ويُلِحّون ويطلبون ويأتون ويذهبون فيدافعهم وهو في خلال ذلك يديرُ الفكر ويناقش نفسـه وينظر في كتب آبائه ويستخير الله ويستشير إخوانه في جميع آرائه . فلمّا أجمع شيعتُهُ على أنّ الله لا يعذره من مدافعة الظلمة مع ما وجده من الآثار عن الأئمّة وتحقّق أنّ ذلك فرضٌ قد لزمه لا يطيق له ردّاً ولا يجدُ من القيام به بُدّاً إذ كان الفَذَّ من جميع أهل زمانه والمشار إليه بالصلاح في جميع أفنانه .

* * *

قال مفرِّح بن أحمد : لمّا نشأ الشريف الفاضل القاسم بن جعفر عليه السّلام كان منشؤه طاهراً وورعه ظاهراً عفيفاً كفيفاً قريباً لطيفاً رحيماً رؤوفاً ، ليس له همةٌ إلّا تعليم الدين ومجالسة الموحِّدين ، ودراسة كتب آبائه الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين .

يلبس خشِناً ، ويأكُلُ يسيراً ، ويصـوم طويـلاً ، معتزلاً للقُـرى ابتنى خارج حمدة[1] منزلاً ، ثمّ صار إلى يشيع[2] فابتنى عنها معزلاً ، ثم صار إلى أثافت[3] فانفرد منها جانباً فشخصت إليه العيون وقصده المتعلّمون ، وعُرف بالفقه والفهم ،

---

(1) حمدة : بفتح الحاء وكسر الميم : قرية من عزلة حمدة ناحية ريدة قضاء عمران ، وتقع على بعد 8 كم غربي ريدة ؛ التوزيع السكاني في محافظة صنعاء ، جـ 2 ص 312 ؛ التعداد السكاني التعـاوني لمحافظة صنعاء ، جـ 2 ص 490 ؛ خريطة ج . ع . ى . 1 : 50000 ، القطعة 1543 B2

(2) يشيع : قرية من عزلة الظاهر ناحية خمر ، تقع على بعد 9 كم شمال غرب حمدة . التوزيع السكاني في محافظة صنعاء ، جـ 1 ص 64 ؛ خريطة ج . ع . ى . 1 : 50000 ، القطعة 1543 B2

(3) أثافت بضم الهمزة وكسر الفاء ، وقد ذكرها البعض بفتح الهمزة . بلدة بالقرب من دماج شرقي خمر ؛ الهمـداني : صفـة جـزيـرة العـرب ، ص 114 ـ 115 ؛ البكـري : معجم مـا استعجم ، جـ 1 ص 105 ؛ ياقوت : معجم البلدان ، جـ 1 ص 89 .

واشير إليه بالفضل والعلم . فلمّا فزع الناس مما أظلّهم فزِعوا إليه فأبى عليهم فأبَوا عليه ، وتباعد منهم فقرُبوا منه . فلمّا قرب منهم / تباعدوا عنه وذلك سبيل الناس فيه [م ق 8ب] وفي مثله من آبائه الطاهرين وخَلَفه الغابرين : ﴿ واللهُ يحكم لا معقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ ، ﴿ وهو خيرُ الحاكمين ﴾[1] .

قال مفرّح بن أحمد : رُوِيَ لي أنّ الشريف الفاضل عليه السّلام لمّا بلغ إلى مكّة والمدينة يسأل الله أن يرزُقه الجهادَ في سبيله فسألْتُهُ عن الرواية وأردْتُ أن آخذها عنه سماعاً فقال لي عليه السّلام : أُعْلِمُكَ لمّا وصلْتُ مكّة أو قال المدينة ومكة رُوي أنّ بها موضعين لا يسأل الله بهما حاجة إلاّ قضاها . فآليتُ على نفسي أن لا أسأل اللّهَ فيهما حاجةً من حوائج الدنيا ؛ وأكْنَى عني مسألته لربّه ؛ ثمّ قال : ما أظنّ ذلك إلاّ ما تراني فيه ! وكان عليه السّلام لا يلوي على مالٍ ولا ولدٍ ولا يلتذّ من العيش إلاّ باليسير ولا يطعَمُ النومَ إلاّ الحقير ولا يأوي منزلاً إلاّ أقلّ عمره ، قد أنْحَفَ السيرُ ركابه ، وأنْهك الحطُّ والارتحالُ أصحابه . يجاهد ليله ونهاره وآصاله وأبكاره ولا يأكل شيئاً من الجبايات دقيقاً كان أو جليلاً ، ولا يلبس منها ثوباً ولا يدخّر منها ديناراً ولا درهماً . ولقد كان رحمةُ الله عليه إذا داخله شكٌّ في شيءٍ مما يجوز ليأْكُلَهُ ويسمح له بذلك الشيء أهله يعيده إلى بيت مال المسلمين وإن كان أحوجَ المسلمين إليه في الوقت والحين وَرَعاً منه وتكفُّفاً عنه . ولقد زُرعت له زراعةٌ < نواحي صنعاء > (*) من خاصته وماله ، فلمّا كان قريباً من حصاد الزرع وكماله بعد أن بالغ فيها عملاً وأنفق فيها من خاصّته جُمَلاً ذُكر له أنه استوهب له من الرعية سقو فردين من الغيل المعروف بربقين فكره ذلك وأعاده إلى بيت مال المسلمين . ولقد روى لي القائد مقبل السحرتي وهو من أهل الورع والدين أنه التامّ له بُرٌّ من وادي صَناف وحُمل على جملين وسار في جملة قطارٍ لبيت مال المسلمين . فلما صاروا بأقِر[2] خالطهم الشكّ فقيل هو هذا بل هو هذا فصرف جميع ذلك إلى بيت مال المسلمين .

(*) عن الهامش الأيسر للصفحة .

(1) سورة الرعد/41 : ﴿ والله يحكم لا معقّب لحكمه وهو سريع الحساب ﴾ . وفي سورة الأعراف/87 : ﴿ فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾ .

(2) أقِر : بفتح الهمزة وكسر القاف وراء مهملة : وادٍ شرقي شهارة في بلاد حاشد ؛ الحجري : مجموع بلدان اليمن ، جـ 1 ص 87 .

وروى لي أيضاً أنّه لمّا صار ببيت الجالد[1] مجهَّزاً إلى مصنعة ذمرمر[2] مخرجاً أتاه أهل بيت الجالد بِبُرٍّ قد جمعوه له وهو شبه عشرين ديناراً فصرف ذلك إلى بيت مال المسلمين فَسُئل عن ذلك فقال : لم تجر العادةُ منهم لنا ببرٍ وأنا أخشى أن يكون هذا لمكان هذا الأمر . ورواها لي عنه القاضي يعقوب بن عيسى سماعـاً . وروى لي الشيـخ الفقيه علي بن محمـد أنه أتي لـه بدينـار وسألـه صاحبـه كتابـاً فقـال : اصـرف الدينار إلى بيت مال المسلمين واكتب له بما سأل فإني أخشى أن يكون الدينار لمكان الكتاب . وروى لي أيضاً سلامة بن علي أنه جعل معه وديعةً تسعة عشر ديناراً براً وديناراً من الزكاة وأمره أن يشتاط[3] له بدنانير البرّ طعاماً ثم سأله عن دينار الزكاة فقال له قد خلطْتُهُ بتلك الدنانير ناسياً واشتطْتُ بالكُلّ والسعر معروف . فأمره بصرف الكلّ إلى بيت مال المسلمين . ولقد كان / يؤتى بطعام فارغ(*) يتبرع به أهله فيقول : لم [م ق 6ب] تجر لنا العادة منهم قبل هذا الأمر بهذا فلا يأكله ، ثم يؤتى بطعامٍ مثله من بعض من كان يعرف ذلك منه قديماً فيأكله . ولقد كان له فرسٌ في خاصّته وحسكةٌ من بيت مال المسلمين فصرفه بنفسه إلى بيت مال المسلمين . ولقـد ملك رحمه الله البيضـاء

---

(1) الجالد : قرية من عزلة الخميس ناحية أرحب قضاء صنعاء ؛ الحجـري : مجموع بلدان اليمن ، جـ 1 ص 66 ، ص 172 ؛ التقسيمات الإدارية لعام 1985 ؛ التعداد السكاني التعاوني لمحافظة صنعاء ، جـ 1 ص 65 .

(2) ذمرمر : ذمرمر أو ذي مرمر ، حصن في أعلى قرية شبام الغراس على بعد 18 كم شمال شرق صنعاء وتقـع ما بين : 05 31 °15 شمـالاً ، و14 19 44 شرقـاً : قارن : الهمـداني : الإكليل ، جـ 8 ص 150 ـ 151 ؛ خريطة ج . ع . ي . 1 : 50000 ، صفحة 1544 A4 .

(3) ذكر لنا كل من الدكتور عبد الله الشيبة والدكتور إبراهيم الصلوي الأستاذين بجامعة صنعاء أن : شيط بمعنى باع وبمعنى اشترى ، جاء ذلك في نقش قتباني دوّن فيه قانون عرف باسم : « قانون سوق تمنع » ، وقد استمر استخدام هذه الكلمة حتى اليـوم في العاميـة اليمنية ؛ يقـول المثل اليمني : « الحب الغابش يدي الله له مشتط أعمى » .
Ricks , David ; Lexicon of the Epigrafic Qatabanian (1982) , مـادة شيـط S.D.F. Goitein ; JEMENICA Sprichwörter und Redensarten aus Zentral-Jemen , Leiden (1940) , P. 58 . A.F.L. Beeston , « Notes on old South Arabian Lexicography » , Le Musèon , 67 , PP. 311 - 322 .

(*) كذا في الأصل . وربما كانت : فاره .

والصفراء وتعرضت له الدنيا من حِلِّها فما راقه ذلك ولا شاقه بل انزوى عنه انزواء الشويّة عن النار . ولقد أملاني إلى شيعته بشهارة كتاباً وسمعْتُهُ منه إليهم خطاباً يأمر أهل الصناعات بالأكل من غلل أموالهم وإن لم يكن غلّة أمرهم بالبيع للمصون من رحالهم ويقول من ذخر من ماله قليلاً أو كثيراً أو أكل من هذه الجبايات كثيراً أو يسيراً فهو كمن أكل ميتةً أو دماً أو خنزيراً .

ولا تَحِلُّ إلا لمن أُلْجِىءَ إليها واضطر عليها فإذا لم يجد غيرها مالاً ، ولم يُحْسِنْ عنها انعدالاً جاز له أن يأكل منها بالمعروف والإرشاد ، ويستعين بها على ما قد اشتغل به من أمور الجهاد .

وقد شرحْتُ من فضائله يسيراً وأغفلْت كثيراً . وروى غيرُ واحدٍ من أصحابه أنه قال : مَثَلُ مَن يتناول من هذه الأشياء شيئاً ومعه غيرها مثل رجلٍ مسافرٍ في طريق معه رغيفان في جيبه ثمَّ مرَّ بميتةٍ فقال : أتغذّى من هذه ، وأُخَبِّأُ هذين الرغيفين < للعشاء ثم يدركه الموت وقد أكل الميتة وترك الرغيفين >(*) دلالةً منه عليه السّلام أن لا يدخّر أحدٌ شيئاً من حلاله ويتناول شيئاً من هذه الجبايات وهو يعلم غيرها دقيقاً كان أو جليلاً . لا أقول ذلك إلاّ وقد علمه الداني والقاصي وشهد به المُطيعُ والعاصي . وروى لي الشيخ الفقيه علي بن محمد أنه كان له بُرٌّ فتُرك في بيتٍ في جانبه شيءٌ لبيت مال المسلمين فكره ذلك وصرفه إلى بيت مال المسلمين . وروى لي أيضاً أنه جمع إخوته محمداً وأحمد وعلياً أولاد جعفر في مرضٍ له مرضه بشهارة وأشفى فيه على التعب[1] ثم قال لهم : ما تعلمون لي من الطين ؟ قالوا : ما نعلم لك إلاّ يسيراً قد أخرجْتَهُ في حَقٍّ لزمك ! فقال : فما تعلمون لي من السلاح والدوابّ والآلة ؟ قالوا : لا نعلم . ثم قال : هذا الظاهر وأمّا الباطن فإنّي أُقسمُ لكم بالله اليمين البالغة ما أملك ديناراً ولا درهماً ولا عَرَضاً ولا منتقلاً إلاّ سبعين درهماً أرسل بها لي محمد في ميلاد ولدي جعفر وقد أنفقْتُ فيما يُصْلِحُهُ بعضها . ثُمّ قال :

(*) ما بين الحاصرتين عن الهامش الأيمن للصفحة .

(1) كذا في الأصل ، وربما كانت : التلف .

النسيب من المنظور الفقهي فإن الشعر السياسي في تلك الفترة أكثر تأثراً بالبيئة الفقهية كما نجد في قصيدة (يحيى الإرياني) التي تحدّى بها الغارات الجوية الإنجليزية على شمال الوطن عام ١٩٢٨م :

يـا بـريطـانيـا رويـداً رويـداً إنّ بطش الإلـه كـان شـديدا
إن بطش الإله أهلك فرعون وعـاداً مـن قبلـه وثمـودا

فهذه القصيدة أصدق تعبير عن البيئة الفقهية السياسية : ولكن هل هذا أول تقيد بالفقه أو أثره الديني ؟ .

إن الحسّ الديني ليس عائقاً للخيال إذا قام على تفلسف لأن الحسّ الديني المتفلسف يجتاز عالم المنظورات إلى ملكوت السموات والفراديس ، وهذا يمد آفاق التخيل الشعري ، لأن الإيماء إلى عوالم غير مشهودة يجنِّح رهافة الرؤية .

فلماذا يشكّل الحسّ الفقهي عائقاً للتخيل ؟ .

السبب غياب التفلسف المثالي ، لأن الرؤية المثالية تشاهد الواقع من نقطة عالية فتشمل كل أغواره وأبعاده بمثالية النظرة ، وهذا ماجعل النظرية المثالية مواكبة للنظرية المادية على امتداد التأريخ الفلسفي إلى اليوم ، فالنظرة المثالية ترهف رؤية الخيال إذا حدقت من قاعدة فلسفية : إما صوفية مثالية تجريبية أو مادية ، أما الرنو من خلال الحسّ الفقهي فهو أهم أسباب كبوات التخيل الشعري في كل العهود الشعرية حتى عند كبار المبدعين كما نجد في أشهر قصائد (أبي تمام) « رقّت حواشي الأرض » ، في هذه القصيدة حلّق (أبو تمام) في التصوير إلى أبعد الآماد ، حتى تصوَّر للصحو مطراً كالمطر في صفائه ، وحتى تجلَّى للأرض شهوة الأنوثة وعرامة الذكورة ثم انتقل إلى جماليات الربيع كزاد للروح وأعراس للرؤية :

دنيـا معـاشٌ للـورى حتـى إذا حـلَّ الربيـع فـإنمـا هـي منظـر

أضحت تصوغ بطونها لظهورها ... نوراً تكاد له القلوب تنورُ
من كل زاهرة ترقرقُ بالندى ... فكأنها عين إليك تحدرُ
تبدو ويحجبها الجميم كأنها ... عذراء تبدو تارة وتخفرُ
حتى غدت وهداتها ونجادها ... فئتين في حلل الربيع تبختر
مصفرة محمرة فكأنها ... عِصب تَيمنُ في الوغى وتمضرُ
من فاقع غضّ النبات كأنهُ ... درر تشقق قبل ثم تزعفرُ
أو ساطع في حمرة فكأنما ... يدنو إليه من الهواء معصفرُ
صنُع الذي لولا بدائع لطفه ... ماعاد أصفر بعد إذ هو أخضرُ

فالشاعر هنا مستسلم لجموح الخيال التصويري ولتراسل الحواس حتى اصطدم بالبرودة الفقهية في البيت الأخير ، فتبدّى كمقرر مسألة فقهية لأنه لم يعزّز الحسّ الفقهي بتأمل فلسفي إلى آخر الصُوَر الوصفية كمعاصره (ابن الرومي) المعتزليّ المثقف أو (كالمعرّي) من بعده الذي اعتمد على التفلسف الشعري ، فلا يرتطم الخيال بالحسّ الفقهي إلا في غياب التفلسف المثالي ، أما الحسّ الديني فهو نوع من الغوص في تصوّر المغيَّبات حتى أن (البوصيري) أبدع في نبوياته أجود صور التخيل والخيال بالقياس إلى شعر عصره ، لأنه كان يتمتع بتأمل صوفي يسبر به وقائع التأريخ وظواهر المرئيات :

كيف ترقى رقيك الأنبياءُ ... ياسماءً ماطاولتها سماءُ
إنما مثّلوا صفاتك للناس ... كما مثّل النجوم الماءُ

فلم يَمْنَع الحسُّ الديني بُعْدَ التصور وإنما تطاوع معه وأمدّه بملكوت الرؤية وسَبْر بواطن المرئيات ، فهناك فرق بين بيئة فقهية وبين حسّ ديني معزّز بالتفلسف والنظر المثالي ، ولعل بيئة العشرينات في بلادنا كانت خالصة الفقهيّة حتى ساد شعرها طبيعة نظم البديهيات كما سبق التمثيل وكما تدل بصورة أوضح ، الأشعار الرسمية عن انتفاضة (المقاطرة) التي سادتها روح (القنوت

الفجري) كما تبرهن المقتبسات التي أوردها الشاعر المؤرخ (عبد الكريم مطهر) في كتابه (رأس الحكمة) ، وإن كان قليل الاقتباس حتى أنه اقتصر على الاستشهاد بالبيت الواحد حيناً وببعض الأبيات من بعض القصائد حيناً آخر ، كهذا البيت الذي اقتطفه من شعر عبد الوهاب بن أحمد بن علي :

تهني جمال الدين بالفتح إنهُ   لفتح عظيم موجبٌ أعظم الشكرِ

يقول (عبد الكريم مطهر) إنّه قدّم هذا الشاعر وهذا البيت من قصيدته لمكانة الرجل في العلم والفضل ، وهذه العبارة تدلّ على هبوط مكانته في الشعر ، ومع هذا يمكن أن يشكّل هذا البيت واحداً من المفاتيح لتلك البيئة ، لأن الشاعر اعتبر إخضاع (المقاطرة) فتحاً متأثراً بالدعاية الرّسمية ومعززاً لها ، مع أن تلك الحرب لاتسمّى فتحاً لأنها وقعت على قطعة من الوطن ولم يكن تمرّدها إلا الدليل الصارخ على سوء النظام وعجزه السياسي ، لأن أسباب التفجّر الوطني تكمن في طبيعة النظام ، وهذا مالم يفطن إليه (عبد الوهاب بن أحمد) ، لأنه قاس إخضاع (المقاطرة) الثائرة على فتح خُراسان ، ومعرفة القياس وجهل الفرق من أسوأ انحراف الفهم ، ومع هذا فلا تنسَمُ على هذا البيت رائحة شعر وإن كان الحكم على قصيدة ببيت مطعون فيه ، لأننا لانعرف مكانة القصيدة فنيّاً إلا بنصها كلّه أو معظمه على الأقل ، غير أن هذا البيت هنا يدل على دعاية تلك الفترة وعلى تأريخيّة شعر ذلك الحين ، إذ كان يؤرخ الأحداث كالمدوِّنين بأقل تصور شعري ، ومثل بيت (عبد الوهاب بن أحمد) هذا البيت من قصيدة (إسماعيل عبد الرحمن الأكوع) :

إلهي لك الحمد الذي أنت أهلهُ   بمنّك والإحسان جدت بأفضالي

إنَّ هذا البيت لايدلّ على نسمة شعر : فهل كل القصيدة من هذا النوع ؟

ربما اختار (مطهر) وهو أحد الشعراء مايناسب دعاية تلك الفترة ، وربما

كانت كل القصيدة من نوع هذا البيت لدلالة الجزء على الكل أحياناً وقد يمتاز (الأكوع) على (عبد الوهاب بن أحمد) بعدم تسميته إخضاع (المقاطرة) فتحاً وإن كان يشارك صاحبه في الابتهال على هذا النصر الذي حققه (الإمام) على يد علي عبد الله الوزير الذي اتجهت إليه التهاني الشعرية ، إذن فما قيمة هذين البيتين في تأريخية الحدث ؟.

إن هذا الطراز من الشعر لايؤرخ التأريخ من الداخل ولكنه يجاري دعاية تلك الفترة بل يكاد يؤرّخها من السطح أو يشارك التأريخ الرّسمي في الدعاية ، فكلا الشاعرين يرفع آية الشكر على ذلك النصر برغم أن إخضاع منطقة من الوطن لا يسمى نصراً عسكرياً وإنما يسمى هزيمة سياسيّة للنظام ، لأن الإخضاع قد يخمد الظاهرة ويقوي أسبابها ، فذلك النوع من الشعر لاينطوي على دلالة سوى تجريم الخارجين على السلطة كما أشاعت السلطة نفسها ، وربما كان هذا الشعر من صميم الدعاية لا انعكاساً لها ، فليس من المعقول أن يصدّق أي جيل دعاية أي سلطة ، ولو كانت كل دعاية مقبولةً لما تلاحقت الانتفاضات واضطرت السلطات إلى ارتكاب الدمويات في كل فترة ، إذن فالشاعر (الأكوع) وصاحبه من السلطة أو من المنتفعين بها ، لذلك ردّدا في شعرهما ما أشاعت لكي يصدِّق الشعب تلك الدعاية ، وهذه من أشق المهمات على كل سلطة ، لأن الدعاية التي يتقبلها الشعب هي القائمة على حقائق يعرفها كما يعرف أشجار موطنه .

هنا تصبح الدعاية مجرد تجسيم للحقائق أو تفسير لغوامض السياسة ، أما الدعاية التي تحاول أن تخلق حقائق معدومةً فهي التي لايصدِّقها أحد وما أكثر الأمثال على هذا ، ولعل أقربها هذه الدعاية : أشاع الإنجليز أنَّ (غاندي) يقصد بالعصيان المدني ضد الإنجليز تعطيل الكفاح المسلح ضد الاستعمار ، فاعتمدت هذه الدعاية على حقيقة دعوة (غاندي) الذي اعتبر المقاطعة التجارية والعصيان المدني أجدى من قتال الإنجليز الأقوى جيشاً وسلاحاً وعلى ذكاء الدعاية

الإنجليزية لم تنطل هذه التهمة على (غاندي) ولاصدَّقها مواطن هندي ، لأن (غاندي) كان يتمتع بحصانة وطنية تفشّل أذكى الدعايات ، لأن الشعوب لاتقبل إلا ماتعرف أو على هدى ماتعرف من الحقائق . إذن فأهم وسائل تَقَبّل الدعاية هي واقعيتها وانطباقها على مطلقها كما أشار إلى هذا الشاعر السياسي أبو تمام :

ما أدّعي لك جانباً من سؤددٍ | إلا وكنت عليه أعدلَ شاهدِ

فإذا ادعتِ الدعاية مالا يملك النظام فقد حققت إخفاقها سلفاً ، قد يقول البعض إن الشعب كان مغفلاً ، ولو كان على مايظنون من غفلة لما احتاجت تلك السلطة البائدة إلى وفرة الدعاة والدعايات لمحاولة التقبل لتجريم (المقاطرة) ، ومن المعروف أن العهد البائد كان يعتمد على الدعاة أكثر مما يعتمد على الدعاية الشعرية أو الكتابية ، وكان الدعاة ينبثون بين الناس ويهمسون بما تريد السلطة ، ومع هذا كانت الحملات العسكرية هي الوسيلة المفاسة للإخضاع في (حاشد والمقاطرة والبيضاء وتهامة) ولو نجح الدعاة والدعاية لما احتاج (الإمام) إلى تحريك جندي واحد ، إذن فلم يكن الشعب مغفلاً ولايحتاج فهم سوء الأوضاع السياسية إلى تعليم عالٍ وتثقيف واسع ، لأن هذه الأمور ملموسة يعرفها الشعب كما يعرف الليل النهار ، ولعل الشعر الرسمي الذي عكس دعاية القصر على مراياه كان أضعف من أن يؤدي دعاية ناجحة ، وإنما كان روائح مُناسَباتٍ تسترضي الحاكم أو تحاول كسب رضاه ، كما دلّ النصان السابقان ، ولعل بقية النصوص من منظورها وإن اختلفت إلى حدّ طرازها ، وربما كانت قصيدة (علي عبد الله الشامي) رغم تقليديتها عروس قصائد تلك المناسبة . .

يا مربع الحيّ إن الورق والبانا | زهت قدوداً وألحاناً وألوانا
ما للمقاطرة الفيحاء هاج بها | هوج الضلال فأبدت منك عصيانا
وأوثقت أهلها في عز منعتها | ولايعز رداء الكبر شيطانا

حتى دعتك بجيش ما قصدت بهِ ... إلا تشيد للإسلام أركانا
إن المقاطرة الفيحاء مالثمست ... كفاً سواك ولا أولته إمكانا
نثرت في القبض هام المارقين لها ... دراً ومن علق الأوداج مرجانا

في هذه القصيدة أنفاس شعرية تدل على أصالة ، ويمكن أن تكون هذه القصيدة من الشعر الذي يؤرخ التأريخ من الداخل لاعتمادها على الوصف الحربي بدون تبرير أو تشنيع ، لأن (الشامي) أتى من مناخ شعري ، فصوَّرَهُ إستعادةً ذاكرتيةً للشعر الرسمي القتالي ، حتى أن الأستاذ (سلطان ناجي) في كتابه تأريخ اليمن العسكري اعتبر الشاعر (الشامي) متلذّذاً بصورة القتلى ونثار الأشلاء وصحيح أن عبارته دالة على هذا ولكن ليس هذا من التفسير النفسي للأدب ، فلم يخرج (الشامي) عن التقاليد الموروثة للشعر الرسمي أو القبائلي ، فهذه الصور كثيرة الترداد في شعرنا العربي كله ، ويكفي الاستشهاد بأقل النصوص على هذا المنحى الشعري الموروث من أمثال قول جرير :

كأن رؤوس القوم فوق رماحنا ... غداة الوغى تيجان كسرى وقيصرا

أو قول مسلم بن الوليد :

موف على مهج في ذي رهجٍ ... كأنه أجل يسعى إلى أملِ

أما المتنبي فيذهب إلى أبعد في تجميل صورة الشناعة الحربية :

ومن طلب الفتح الجليل فإنما ... مفاتيحه البيض الخفاف الصوارمُ
نثرتهم فوق الأحيدب كلهِ ... كما نُثرت فوق العروس الدراهمُ

فالشامي يأتي امتداداً لهذا التقليد في تجميل صورة النصر الناشئ عن شناعة الأشلاء والدماء ، فقد رأى (جرير) الأشلاء على رؤوس الرماح كتيجان كبراء الملوك ، كما تصور ابن الوليد إغارة ممدوحه في صورة مفاجأة الآجال ، كما رأى (المتنبي) الأشلاء في صورة نثار العروس ، وحاكى (الشامي) هذه

الصور وأشباهها فرأى الأشلاء والدماء على قلعة (المقاطرة) زينة كالدرّ والمرجان .

نثرت في القبض هام المارقين لها   دُرّاً ومن علق الأوداج مرجانا

فصورة (الشامي) أقل من صورة (المتنبي) جمالاً ، صحيح أنه تناول نفس العناصر ولكنه لم يحقق بناء الصورة الشعرية (كالمتنبي أو جرير) ، غير أن (الشامي) لم يقصد التلذذ كما رأى الأستاذ (سلطان ناجي) وإنما أراد تقليد السابقين الذين كانت أشعارهم قدوة في عشرينات هذا القرن باعتبارها كانت عهد إحياء القديم واستيحائه في كل الأقطار العربية . (فالشامي) يحاول إبداع صورة ولايبدي شماتة بمنهزم وإن كان يشيد بالمنتصر ، ولعل هذا التصوير للحرب يختلف باختلاف المنتصر والمنهزم ورؤيتهما إلى شناعة الحرب أو جمالها ، قال (تشرشل) : (آه ما أبشع رؤية الخرائب والدماء والأشلاء ولكن آه ما أجمل النصر) . فالمسألة حالة نفسية ناشئة من غايات الحرب لامن ظواهرها ، وبالأخص إذا كانت على غزو أجنبي أو لتحقيق غايات وطنية ، وقبل تشرشل بألف عام تصور (أبو تمام) نفس الصورة النفسية لقلعة (عمُّورية) عندما فتحها (المعتصم) إذ رأى خرائبها أجمل من دار (ميّة) عند حبيبها (غيلان) وتصور الدماء عليها أنضرَ من خجل خدود العذارى .

ما ربع ميَّة معموراً يطيف بهِ   غيلان أبهى ربى من ربعها الخربِ
ولا الخدود وقد أدمين من خجلٍ   أشهى إلى ناظري من خدها التربِ

صحيح أن (علي عبد الله الشامي) لم يبلغ مبلغ أحد من قدوته وإنما يقلّد في إبداع تلك الصورة شعراء تأدبت على شعرهم الأجيال ، ولعل الأستاذ (سلطان ناجي) على حق في اتهامه ، ولو رجع إلى التأريخ الشعري لعذر أولئك الشعراء لأنهم يحاولون التقليد الشعري لا التنديد ، وربما كان (الشامي) أكثر تحايلاً بهذا التصوير فبرأت قصيدته من التهم الرسمية كخروج (المقاطرة)

عن الدين وتبعيتهم للاستعمار ، لقد كانت قصيدة (الشامي) أقرب إلى الفن الشعري الذي يؤرّخ التأريخ من خلال انعكاس أحداثه أو يعيد صور مدوّناته إلى نسق النظام الشعري ، تقرب من قصيدة الشامي قصيدة (إسماعيل بن أحمد بن قاسم) :

لله درّ أميـــر الجيـــش إنســـانـــاً	ولايـزال لعيـن الـدهـر إنسـانـا
ومـا المقـاطـرة القصـوى بقـاصيـةٍ	عن بأسه بل كساها الدرّ قمصانا
وهـاهـي اليـوم فـي أبـواب دولتـهِ	تعلـي الأذان لشكـوى مـر مـاكـانـا
من بعـد مـاكـانـت الأتـراك تـاركـةً	لهـا وإخـلاصهـا صيـداً وفـرسـانـا

لعل هذه القصيدة معارضة مقصودة لقصيدة (الشامي) أو العكس بحكم التوافق في الوزن والقافية والتشابه في الصورة الفنية ، إلا أن (ابن القاسم) لم يفتتح قصيدته بالتغزل (كالشامي) وإنما دخل موضوعه بدون تقديم ، مبتدئاً بالجناس بين الإنسان الذات وبين الإنسان بؤبؤ العين ، ثم منطقة (المقاطرة) وعراقتها في الصراع الوطني كما يعبر الشاعر حرفياً :

من بعـد مـاكـانـت الأتـراك تـاركـةً	لهـا وإخـلاصهـا صيـداً وفـرسـانـا

فميزة هذه القصيدة أنها تؤرخ الحدث وتمدّ الإشارات إلى تأريخية المنطقة وشجاعة رجالها ، وإن كانت هذه الإشارات تنطوي على الإشادة بشجاعة المنتصر ، لأن البطولة لاتتحقق إلا بصراع الأبطال ، يمكن أن تكون قصيدة (ابن قاسم) أكثر تأثراً بفن أدب البديع لكثرة ماتوخّى الجناس إذ جانس بين إنسان وإنسان والترك وتاركه قصوى وقاصية ، فهذه القصيدة تعطي دلالة على تأثر أدب العشرينات في بلادنا بتيارين : تيار الفحولة عند (علي الشامي) وتيار الاجترار البديعي عند (ابن قاسم) ، وهاتان القصيدتان على رسميتهما أقلّ تأثراً بالطابع الفقهي وأقرب إلى الطبيعة الأدبية التقليدية ، فلا تتردد في أبياتهما أنفاس

الابتهال ، وإنما تلوح في كل أبياتهما الصورةُ الفنيةُ والتصوير الأدبي للحرب والإشادة بالبطولة ، ولعلهما أصدق دليل على انقسام البيئة الثقافية في ذلك الحين ، أما (علي بن قاسم) في شعر مناسبة (المقاطرة) ولعله أبعد نظراً سياسياً لأنه لايقف عند تمرّد (المقاطرة) وإخضاعها وإنما تمتد رؤيته إلى تحرير الشطر الجنوبي :

تقدم فقد ثلت عروش المقاطره ودكّت رواسي بغيهم فهي صاغره

ومن الملحوظ أن الشاعر تصوَّر (المقاطرة) كما تصور الشعراء الأقدمون عرش (كسرى وقيصر) ، فلم تكن (للمقاطرة) عروش ولا رواسي بغي لافي الواقع ولافي التصور ، لأن التصور استبطان مافي قرارة الواقع لكن الشاعر يهتدي بمادحين رأوا واقعاً فَعَوَّض بالتوهم وهو ضرب من الخيال الزائف ، وعلى رغم تأثره بشعراء العصر الأموي فإنه يختتم قصيدته على طريقة شعراء عهد الانحطاط الّذين كانوا ينظمون التواريخ الأبجدية ويخطون النصوص طرداً وعكساً فتؤدي القراءة إلى معنيين ، صحيح أن (علي بن أحمد) لم يشذّ عن بيئته . فقد كان نظم التأريخ الأبجدي سائداً في العشرينات حتى أن (اسماعيل صبري) كان يختتم أغلب أماديحه للخديوي بتأريخ الانتهاء من نظم القصيدة . فهل كان (علي بن أحمد) مقلِّداً ؟ أم أن حادثة (المقاطرة) كانت تستدعي التأريخ الأبجدي لأن ذلك الحدث تحول تأريخي !

المهم أن (علي بن أحمد) سجل تأريخ الحادثة وجعله ختاماً لقصيدته :

وتـاريخهـا حَـم أن إمـامنـا سيملكُ جبل شمسان بعد المقاطره

وهذا التأريخ التفاؤلي كان على حساب اللغة الشعرية . فما معنى حَم هنا ؟

إن المراد وضع حروف تحقق العدد الأبجدي حتى أن الشاعر جزم الفعل

المضارع يملك بدون حرف جزم سوى الحروف الأبجدية ، وبهذا البيت تأرخ الانتصار على (المقاطرة) (١٣٤٠) هجري أو ١٩٢١ ميلادي إلا أن التأريخ الأبجدي كان ينظم الأبيات على التأريخ الهجري ، وهذا تقليد شعري من بداية العصر الأيوبي إلى عشرينات هذا القرن . بل إن بعض التقاليد امتدت إلى الخمسينات وأول الستينات حين كانت جريدة سبأ وإذاعة صنعاء تعنيان بشعر الألغاز وحلّها نظماً ، حتى شكّل هذا مباراة شعرية وإن لم تثر اهتماماً أدبياً لغياب شروطها الموضوعية وتوق الشباب إلى أدب الشعب وأدب الإبداع الثوري ، إن الأشعار التي صدرت عن انتفاضة (المقاطرة) تشير إلى بيئة فقهية وبيئة أدبية ، ولعل ارتجاج هذه البيئة وانشقاقها من الأسباب الإخصابية لاختلاف الأدب من مطلع الأربعينات وإن كان للبيئتين امتدادان في شعر الأربعينات ، إلا أن الأدب الثوري التحرري تفرّد بفروسية الميدان على يد (الزبيري) و(الموشكي) و(العزب) الذين جاؤوا من الجانب المشرق في أدب العشرينات مضيفين إليه الحرارة الوطنية والروائح العصرية ، هذه النصوص الشعرية الرسمية عن انتفاضة (المقاطرة) تعرفنا بثقافة العشرينات وسياستها وأحداثها وأساليب دعاياتها ، فهذا الشعر يستغور تلك الدعاية فنعرف ماامتدّ منها وما انقرض ، كما يعرفنا ببداية التحول الاجتماعي وبقيمة الانتفاضات الشعبية ، ولعل انتفاضة (المقاطرة) كانت أروع الانتفاضات بدليل هذا الصدى من الدعاية وبدليل هذه الوفرة من الأشعار والمدوّنات التأريخية ، فلم تحظ انتفاضة بهذه الوفرة من المدونات والقصائد برغم كثرة الأحداث المشابهة والمتتابعة ، وبهذا الاهتمام الأدبي تميزت انتفاضة (المقاطرة) على نظائرها من التفجرات الوطنية .

* * *

الامتداد والعكس لأحداث المقاطرة

قد تتغلب السلطة على التجمع المناوئ لها أو المنطقة الخارجة على سلطتها ، وقد تعجز عن استئصال أسباب المناوأة ، فيمتد من التفجر السابق شبيهه أو يستجد عكسه لغايات أعلى تتجاوز المنطقة المناوئة أو التجمع الثائر ، ولقد امتدّ من إخضاع (المقاطرة) شبيه له ومعاكس لشبيهه . . دلت أحداث (المقاطرة) على تجمع أتباع السلطة من (زيود وشافعية) لإطفاء أوار الثورة فيها ، فاشترك في قيادة الهجوم كبار (آل نعمان) وأمير تَعِزّ (علي الوزير) الذي وجّه الحملة من (تَعِزّ) ثم باشر قيادتها في آخر الشوط ، وبعد انتصار السلطة وبعد ضجيج التهاني الشعرية بذلك النصر ، تناسج من ذلك الحدث امتداد تقليدي في تواريخ السلطات ، فمن المعهود أن تتوجس القيادة السياسية من قادتها الحربيين المنتصرين ، فتعمل على تنحيتهم أو قتلهم في غمرة سكرة النصر قبل أن تتحول السكرة إلى فكرة طموح أعلى .

لهذا تضحي القيادة السياسية بقادتها العسكريين بعد الفراغ من مهمتهم ، حدث هذا في أكثر من مكان وفي أكثر من فترة ، من أمثال عزل عمر بن الخطاب لخالد بن الوليد وعزل مسيلمة للحجاج وقتل أبي جعفر المنصور أبا مسلم الخراساني ، حتى تبدى هذا الإقصاء والقتل للقادة كتقليد سياسي ولاسيما في عهود الحكم الوراثي كالحكم الذي أخضع منطقة (المقاطرة) ، فلم يمر عامان حتى أثار (الإمام يحيى) المشاكل بين (علي الوزير) أمير (تَعِزّ) وبين شيوخ (آل نعمان) لكي يكسر شوكة الزعامة النعمانية ويضعف شعبية (علي الوزير) بتَعِزّ ، صحيح أن المحاربين المنتصرين يطمحون إلى ذروة السلطة ،

وصحيح أن بعض الحكام يتوهمون إمكان هذا الطموح : إما من خلال الخوف ، وإما من خلال تصرف المحاربين بعد الحرب ، والمسألة مشروعية الطموح وشعبيته أو عدمها . فهل كان المقام (اليحيوي) يخشى الطموح الوزيري (النعماني) أم أنه أحس بوادر دالة على ذلك ؟؟ .

قيل : إن المقام (اليحيوي) تلقّى أخباراً عن تحرك (لعبد الوهاب نعمان) يشي بأنه يعقد صلات مع سلاطين المحميات في الشطر الجنوبي ، وأنه يريد أن ينفرد بسلطنة (الحجرية) كلها مستغلاً تذمر (المقاطرة) بعد إخمادها عسكرياً ، بل إن (نعمان) تجاوز (الحجرية) وأرسل إلى شيوخ (إب) لفصل ماكان يسمى (اليمن الأسفل) عن ماكان يسمى (اليمن الأعلى) كانت هذه مجرد دعاية لتبرير تنحية المحاربين المنتصرين على (المقاطرة) وربما كان هناك استياء من قبل النعمانيين ، لأنهم عانوا بعد إخضاع (المقاطرة) تغاضي (الإمام) عن مكافأتهم ، كما عانوا غضبة الشعب في منطقتهم على شدة العنف التي واجهوا بها (المقطريين) . . مهما كانت حقيقة الأسباب أو افتعالها رسمياً ، فإن (الإمام) أراد ضرب النعمانيين بالوزير فكلف (علي الوزير) بقيادة حملة عسكرية على (الحجرية) وإلقاء القبض على (عبد الوهاب نعمان) وإيصاله إلى (صنعاء) مخفوراً ، فنفذ (الوزير المهمة) ، وكالعادة أحدثت الحملة نهباً وتكسيراً في دار (النعمان) وقيل في ذلك الحين بحر الثلاثينات : إن مواطنين من (الحجرية) هم الذين أبلغوا (الإمام) عن استهانة (نعمان) بأوامرِهِ واتصالاته بسلاطين المحميات وشيوخ (بعدان) فاشتم (الإمام يحيى) تهاون (علي الوزير) بأمور لوائه وربما اتّهمه بالتواطؤ مع (نعمان) بدليل أنه بعد سجن (نعمان) استدعى (الوزير) من تَعِزّ ناوياً عزله ، وعند وصول (علي الوزير) مقام (الإمام) شاهد (نعمان) سجيناً هناك ، فأحسّ خجل الورطة التي أنتجت له الجزاء العكسي ، بهذا تحول قادة حملة (المقاطرة) إلى خصوم فيما

بينهم وإلى مناوئين للإمام الذي حققوا له النصر أو انتصروا بروائحه ، واتضحت الغاية الإمامية من إشعال تلك الخصومة الوزيرية النعمانية إذ عزل الإمام (علي الوزير) من إمارة (تَعِزّ) بدعوى أنه أعطاه إجازة (حج) ، ثم أحل محله ابنه (الأمير أحمد) ، ففطن (الوزير) للأمر كما فطن (النعمانيون) ، لهذا ترك (علي الوزير) ابنه (عبد الله) بمكة لكي يسافر منها إلى (مصر) كبداية لعمل سياسي ضد (الإمام) ، بعد رجوع (علي الوزير) من الحج عُيِّن مديراً لناحية (المحويت) وتقبل ظاهرياً ذلك العمل التنازلي ، وربما سرّ عزل (الوزير) كثيراً من (التعزيين) نتيجة قضية (المقاطرة) وما تلاها من حساسيات ومكائد قصورية تستغل الحساسيات ، وبالأخص الغزوة الثانية للحجرية ، أما (النعمانيون) فقد أخذت مصالحهم تنهار في آخر إمارة (الوزير) على (تَعِزّ) وفي بداية إمارة (أحمد) ، فأراد (الإمام يحيى) إستبقاء خيط مع (آل النعمان) ،فعين (عبد الوهاب نعمان) مديراً لمنطقة (بني مطر) وأعطاه بيتاً بصنعاء لكي يمارس مهمته تحت نظر (الإمام) مباشرة . . وفي آخر الثلاثينات بدأ (النعمانيون) يشكّلون المعارضة ضد (الإمام يحيى) وتجاوب معهم أفراد من تجار (تَعِزّ) ومن نابهي شيوخ (إب) : كالشيخ (حسين الدعيس) من بعدان ، و(عبد اللطيف بن راجح) ، بعد تشكيل هذه الوجوه كمعارضة كوّن (الدعيس) جسر اتصال بين أعضاء المعارضة في سائر المناطق وأيد (علي الوزير) تلك المعارضة بل شارك فيها عن طريق عدة سعاة بينه وبين (عبد الوهاب نعمان) ، بعد خروجه من سجن المقام .

وفي عام ٤٠م امتدت المعارضة إلى (صنعاء) ثم انتقلت عام ٤٤م إلى (عَدَن) وكان الأستاذ (أحمد نعمان) والأستاذ (الزبيري) أهم أقطابها ، وبعد أن حققت المعارضة مقتل (الإمام يحيى) في شباط عام ٤٨ التقى (علي الوزير) و(عبد الوهاب نعمان) في دار (علي الوزير) بـ(الصياد) في

(صنعاء) ، وكان في نظرات الزعيمين عتاب على ماجرى حتى قيل إن (عبد الوهاب نعمان) كان يحدق إلى أثاث ديوان (علي الوزير) مشيراً إلى أن بعض تلك التحف كانت من تحف داره بالحجرية وانتقلت إبان القبض عليه ، إلى قصر قائد الحملة الذي أصبح كـ(نعمان) من قادة الانقلاب ضد الإمام (يحيى) .

بعد أيام من لقاء التصافي سقطت سلطة الانقلاب والتقى (النعمانيون) و(الوزيريون) في سجن (نافع) (بحجة) وتحت حد السيف (الأحمدي) فاستشهد (علي الوزير) و(عبد الوهاب نعمان) في وقتين متقاربين إلى جانب سائر زعماء الانقلاب ، وبعد أربع سنوات تم الإفراج عن الأستاذ (أحمد محمد نعمان) واستمر التحفظ على الشيخ (محمد نعمان) بصنعاء كسجن واسع لايغادره إلا بإذن الإمام أحمد (بتَعِزّ) وكان الشيخ نعمان وجيهاً عند الصنعانيين حتى أصبح دارُهُ بشارع حنظل مزاراً . من ذلك الحين انقطعت صلة النعمانيين بالحجرية ومافيها من تطورات إذ استجدت فيها كسائر المناطق ناشئة جديدة من الشباب وأفكار سياسية جديدة من لون أحداث الخمسينات وتطوراتها ، ولم يعد هناك من يمدّ المعارضة الأربعينية غير (عبد الله عبد الوهاب نعمان) بعدن و(عبد الله الحكيمي) في (كارديف) فقد شكّلا امتداداً لدعوة الأحرار وجددوا عهد صحيفة (صوت اليمن) بإصدارهما صحيفتي (الفضول) و(السلام) كانت الفضول تصدُر (بعَدَن) وكانت السلام تنتشر من (كارديف) في بريطانيا إلى الديار العربية، وكان عبد الوهاب مثقفاً سياسياً على حين كان الحكيمي داعيةً دينياً . وكانت صحيفتاها المنبر الوحيد لدعوة الأحرار من ٤٩ إلى ٥٤م ثم استأنفت صحيفة (صوت اليمن) صدورها من (القاهرة) حيث انبعث فيها (الاتحاد اليمني) من جديد ، وفي الوقت الذي تجنح فيه الاتحاد آخر الخمسينات سقط (الحكيمي) شهيداً برصاصة عميلة فشكل هذا ضعفاً للاتحاد إلى ضعفه ، هذا في الخارج . أما في الداخل فقد حدثت تطورات نوعية

وتنويعية إذ تجاوزت أطروحات التنظيمات السريّة كل أطروحات الاتحاديين ، ودعاها البعض بالإصلاحية واتهمها البعض بالرجعية ، وتراءى الاتحاد بلا قواعد في الداخل حتى تبدى ما يخالف هذا الزعم وذلك عندما نشطت حركة (سعيد ذبحان) في آخر الخمسينات وإن ظهرت كحركة فردية إلا أن حركته دلّت على أن وراءها تنظيماً ، لأنه فتح مكتبة في (تَعِزّ) لبيع الصحف والكتب والمنشورات المهربة ، وكان القصر (الإمامي) في حالة تداع بعد انقلاب عام ٥٥م والقضاء على ذلك الانقلاب ، من ذلك الحين تصارع القصر مع نفسه وبالأخص على ولاية العهد بين البدر ابن الإمام أحمد القائم وبين عمه الحسن ابن الإمام (يحيى شهيد شباط ٤٨م) ، فكان ذلك الظرف مناسباً لافتتاح المكتبات في شبه حرية أو في غياب رقابة صارمة ، بهذا استغل (سعيد ذبحان) الظرف لنشاطه المكتباتي ظاهرياً والسياسي باطنياً ، فعندما لاحظ (ذبحان) كثرة إقامة (الإمام أحمد) في (الحديدة) و(السخنة) نقل موقعه فافتتح مكتبة في (الحديدة) وتردد بينها وبين السخنة وفي عام ٩٦٠م حاول قتل (الإمام أحمد) في قصره ، ولما أخفق واستضافه السجن كان الحادث على ضخامة محاولته ضعيف الصدى ولم ينبه إليه إلا سجن بعض رجال (حاشد) الوافدين على (السخنة) ، فتوالى التساؤل عن حركة (سعيد ذبحان) هل تنتسب إلى حركة شيوخ (حاشد وذو محمد خولان) عام ٥٩م أو أنها تنتسب إلى تنظيم الاتحاد اليمني بالقاهرة ؟ سوّغ البعض نسبة هذه الحركة إلى شيوخ العشائر لحدوثها بعدة استشهاد (حميد بن حسين الأحمر) ووالده وعزاها البعض إلى تنظيم الاتحاد اليمني الذي كان يحاول سبق الأحداث العسكرية بثورة اتحادية عشائرية ، وسوّغ الّذين نموها إلى الاتحاد ذلك الانتماء إلى حركة (سعيد ذبحان) وتوزيعه منشورات الاتحاد التي كانت تصدر (بالقاهرة) ، ورأى البعض أن حركة الشيوخ ذات صلة بهدف الاتحاد اليمني عن صلة أو عن غير صلة ، لكن هناك من رأى حركة (سعيد ذبحان) غير منتمية إلى الاتحاد وغير منتمية

إلى الشيوخ وإنما هي من إفراز الواقع الجديد ومن عمل التنظيمات التي نشأت في الخمسينات واستعرت بأحداثها وتغييراتها ، مهما يكن انتماء (سعيد ذبحان) فإن حركته أقرب إلى الفردية وأبعد عن أفكار شباب الخمسينات بدليل طي هذه الحادثة وبطلها رغم استشهاده حتى بعد ثورة السادس والعشرين من سبتمبر ، فلم تشر إليه أدبيات تنظيم من التنظيمات التي أعلنت هويتها في ضحى اليمن الجمهوري وبدأت تحتفي بشهدائها .

فهل حركة (سعيد ذبحان) امتداد للمعارضة (النعمانية) التي أصبحت الاتحاد اليمني في الخمسينات ؟ . .

ربما لأن أفكار الاتحاد في الستينات كانت لاحقة بالدعوات الإصلاحية ، وكان الشعب يفجر ثورة شعبية ، ربما أدى هذا التباين إلى طي حركة (سعيد ذبحان) في النسيان ، لأن (الحجرية) بما فيها من خلاياها تنظيمية كانت تتوخى تفجير ثورة شعبية ، وعندما تحققت هذه الآمال اتّقد شباب (الحجرية) حماساً وعملاً للذود عن الثورة في عدة جبهات : في مواقع القتال ، في تأسيس الاقتصاد اليمني ، في بناء المؤسسات في صنعاء وتَعِزّ ، وكانت هذه الحركة المعمارية لاتقلّ عن الاستبسال في مواقع القتال ، لأن ذلك الاتساع العمراني والتجاري كسر حاجز الخوف في نفوس الصنعانيين الّذين كانوا يتوقعون رجعة الملكية قياساً على الأحداث الماضية ، لهذا امتد من أحداث (المقاطرة) مدّ عكسي على تلك الظروف فتصاعد التخمر الثوري في شكل معارضة ثم في شكل تنظيمات تتوخى الثورة ثم في صور بطولية في مواقع القتال وصور عمرانية تبرهن على ابتداء عهد وعلى نهاية الذي كان وشروق الذي سوف يكون .

* * *

حركة الزرانيق تحت مفهومين من التأريخ

لايقضي على سلطة الماضي شيء كما تقضي عليه كثرة الكتابة عنه ، لأن الماضي الذي يعتصم بجلال القِدَم والصمت ، تنتسب إليه من الرهبة والخرافات مايجعله شديد السيطرة ، وبالكتابة عن هذا الماضي تتجلى حقائقه كتأريخ كان حياة ، أو حياة آلت إلى تأريخ .

من هنا أصبح تأريخ الماضي علاقة صلة بين العصور ، لاعلاقة جلال تحجب الرؤية عن دقائق التشابه وغوامض الفروق ، لأن كل عظيم مهما جسمته الكتابة ، تخفف من جسامته كتابات أخرى ، بانتقال التأريخ من التسجيل إلى التحليل ومن التحليل إلى نظر عقلي ، ولعل العقود الثلاثة الأولى من عصرنا كانت أحفل اهتماماً بالحركات التأريخية ، أو بتأريخية الحركات سواء كانت حركات فكرية أو حركات دموية ، لأن فترة الحركات أدعى إلى تقصّي الخلفيات ، لاكتناه الثوابت الفكرية ، والتيارات التحولية ، ولقد أدى الاعتناء بحركات الماضي إلى اقتتال جدلي عن كيفية الكتابة عن هذه الحركات ، إذ لا خلاف في الكتابة عن كل الحركات ، ولكن الاختلاف المشتجر عن كيفية الكتابة .

هل يمكن أدلجة الحركات القديمة ولا وشيجة لها إلى الإيديولوجيات ؟

هل الحركة التقدمية في الماضي تلحق بالحركات التقدمية في العصر عن طريق الصيرورة ؟

هل نحلل التأريخ لاكتشاف المحجوب من أغواره وآفاقه ، أو لكي نخلع

عليه رداءً معاصراً ؟

إن الجدلية القائمة حول كيفية الكتابة عن حركات الماضي من أنضج ثمرات ثقافاتنا المعاصرة ، لأن الذين كتبوا عن الماضي من مطلع النهضة إلى بدء الثمانينات نَحَوا منحيين : الأول تقديس الماضي كما لو كان ملكوت ملائكة ، أو كما لو كان أقصى غايات الكمال ، ومن يلاحظُ الكتابات عن أعلام الماضي يجدها نوعاً من أحرّ الدعايات للعلَم الذي هو محور الكتابة ، كما عبّر عن هذا الدكتور (زكي مبارك) في كتابه (عبقرية الشريف الرضيّ) : « لقد اخترت التحليق في أجواء هذا الفارس المجلّي ، لأنه فارس في الشعر وعَلَم في الأخلاق والنَّسب العريق ، فالتحليق في أجوائه أرقى غاية من البحث عن نفسية (ابن الرومي) في هجاء الناس ، أو البحث في (المتنبي) وأماديحه الطنَّانة ، إنّ (الشريف الرضيّ) تحت هذا القلم أشعر من (المتنبي) حتى يتصدى هذا القلم لشعر (المتنبي) » .

ومن منحى (زكي مبارك) منحى (العقاد) الذي رأى (ابن الرومي) أشعر شعراء العالم في الوصف .. فهذا المنحى من الكتابات على جودة أدبياته ، وإبداع تقصّيه تجميل للمكتوب عنه كبرهان على حسن اختيار موضوع الكتابة عن الماضي .. أما المنحى الثاني من مناحي الكتابة عن الماضي فقد اهتم بالحركات الفكرية والدموية وأعلامها : كالحركات (السبرتاكوسية) في روما ، والحركات (المرزُبانية) في فارس ، والحركات (الراوندية والزطيّة والزنجية والبابكية والقرمطية) في الشرق الإسلامي .. وكل الحركات تستحق التسجيل والتحليل إلى أقصى الآماد كطموح بشري إلى معرفة التحرك الإنساني على تتابع الأحقاب ، غير أن بعض محللي هذه الحركات يخلعون عليها الهوية التقدمية المعاصرة ، متجاوزين بها مناخاتها الفكرية وإطاراتها الزمنية .

إن حركة (سبرتاكوس) استهدفت تحرير العبيد من ظلم أسيادهم في

الإمبراطورية الرومانية . لكن هل هناك مايدلّ على نية اختلاف النظام الإقطاعي ؟

ليس من الممكن أن يتجاوز (سبروتاكوس) عصره قبل الميلاد إلى الواقعية الاشتراكية ناشئة القرن العشرين ميلادي ، وعلى هذا فحركته غضبة عبودية ، لاستبدال العهد العبودي الإقطاعي بعهد لم تتألف مكوناته ، مثل حركة (سبرتاكوس) الحركة (البابكية) فلم تكن تستهدف غير إعادة العهد (الساساني) المنحل وإنهاء غلبة الفاتحين ، يمكن أن تتصف هذه الحركة بالوطنية ، ولكن بمفهوم وطنية يومذاك ، وليس بمفهوم وطنية اليوم التي نقلت الخصوصيات العائلية إلى المشاعية الجماهيرية ، إن وطنية (بابك الخرمي) أبعد ماتكون عن الهوية التقدمية المعاصرة ، التي يفرضها عليه بعض كتّاب اليوم ، وإذا كانت (البابكية) و(السبرتاكوسية) من الطراز التقدمي في تأريخ الحركات :

فما نوع تقدميّتها ؟ وما مقدار اختلافها عن تقدميّة اليوم ؟

وإذا افترضنا تقدميتها ، فهل تشكّل حتى عنصراً واحداً في تقدميّة اليوم ؟

هل ماكان متقدماً قبل الميلاد أو بعده إلى القرن الثامن عشر نعدّه اليوم تقدمياً ؟

إذا اعتبرنا كل التقدميات مضموناً واحداً ، وإذا اعتبرنا التأريخ يوماً واحداً ، فسوف ينمحي الفرق بين الثورة (البابكية) والثورة (الكوبية) وبين الثورة (الجزائرية) والثورة (الزنجية) ، إن الذين ينحون منحى صنع الهويات المعاصرة لحركات الماضي ، كالّذين ينحون تفصيل أعلامهم الأدبية على كل الأعلام بدون مقارنة مستوعبة ، وبلا تحسس لبواطن الفوارق وتأثير البعض في البعض ، إن (الشريف الرضيّ) عَلم مجلٍ في كتابة (زكي مبارك) وفي واقعه الفني ، ولكن هل يستدعي رفعه على قرنائه الموازنة بالقرناء وبدائعهم ؟

هل (ابن الرومي) أوصف شعراء العالم ؟.

وهل نقبل هذه الدعوى من (العقّاد) دون أن يعززها بمئات النصوص من الشعر العالمي الوصفي ؟

من السهل أن تقول فلان عظيم ، ومن الأسهل أن نقول الحركة الفلانية تقدميّة ، لكن من ذا الذي يقبل هذا بدون استخلاص العظمة من حياة العظيم ومكوِّناته الزمنية ومقارنته بأسلافه ومعاصريه ، حتى يتبين هل هذه العظمة ظاهرة تأريخيةِ أم فرادة شخصية ؟

لأن الفرادة غير الظاهرة ، الفرادة تفوّق شخصي ، والظاهرة اجتماع تفوّق إلى تفوق كتناغم بين تفوق الفرد ومحيط عصره كنسيج واحد من مئات العناصر ، مثل ذلك الحركات ، ولعل مقياس الحركات يُنتزع من نظريتها ومقدار صلاحها في الممارسة ، ولعل الحركات الماضية التي نخلع عليها سمات التقدم لاتشكّل ظواهر مجذّرة بمقدار تشكيلها صيحة آنية ، بدليل انتكاس تلك الحركات في مهد ميلادها أو في تفتّح صباها .

صحيح أن هناك حركات تقدميّة تنتكس ، ولكنها تخلف خمائر قابلة للترعرع من خلال المراحل ، أو من خلال القفز على المراحل ، (كالثورة الفرنسية والثورة التشيلية) ، إن العراك الجدلي عن كيفية الكتابة عن الماضي ، ثورة في الثورة المعاصرة ، أو ثورة على الثورة والتراث الثوري .

من الجميل الغوص في الماضي لمعرفة صيرورته ولعصرنته ، ولكن ليس لجعله عصراً راهناً أو مستقبلاً ، وإنما نظرية معرفة للمستقبل .

إذن فما سبب تمجيد أحداث الماضي وأعلامه ؟

لقد كان في القرن الماضي ومطلع هذا القرن سلاحاً في وجه الغالبين من

مستعمرين وأشباه مستعمرين ، لأن حسّ الأمة بعراقتها يعصمها من التلاشي تحت أقدام الغزاة ، غير أن هؤلاء الغزاة بعد أن رحلوا ظاهرياً امتشقوا علينا أسلحتنا ، لكي يجعلوا من عراقة ماضينا شمس يومنا وفجر غدنا ، فتشكّلت في أوربا المعاهد والمدارس لدراسة المسائل الشرقية والتراث الحضاري الشرقي ، فإذا بالغازي أكثر اهتماماً بماضينا لكي يصيغه من شكلين : من بُعْد نظره وقُصْرِ نظرنا ، ولكي يصيغنا نحن ثانياً .

صحيح أن الاستشراق أجاد تصنيف ثقافة ماضينا ومذهبتها ، ولكن لكي يشدنا إلى الماضي بصناعته الخاصة ، ونتيجته لهذا تصدّى كبار المثقفين من ثلاثينات هذا القرن للتغلغل في الماضي بعيون العصر ، ثم لاتساق الثورة المعاصرة بالتراث الثوري الإنساني ، بيد أن محاولة الاتساق بين الحركات البعيدة أخفق في مزج كل الحركات كحركة متصاعدة ، وذلك بفعل النكسات بين الحركة وتالياتها ، فبعد تدفق الحركات على أي شكل وعن أي هوية ، وقعت البلاد تحت حوافر الغزوات المتلاحقة ، وبهذا انقطع النسق بين الحركة (القرمطية) في القرن التاسع ، وحركة (أحمد عرابي) في القرن التاسع عشر ، وبين حركة (المُطَرَّفية) وحركة (الزرانيق) في اليمن .

صحيح أن هناك وشائج دقيقة بين الحركات ، ولكنها نفسية أكثر منها صيرورة تأريخية ، لأن كل حركة موسومة بأنامل عصرها وألوان مناخها الفكري والزمني ، فلا يقلل من هذه الحركات تزامنها بأوانها ، ولايزيدها مانخلع عليها من الرؤية المعاصرة أو الموضوعات الجديدة .

صحيح أن كل حركة تستدعي مزيداً من السبر لتبين أغوارها ولمس أسبابها واستغوار الأراء فيها ، لأن كل حركة وقعت تحت مفهومين ، مفهوم التأريخ الرسمي ، ومفهوم التأريخ الشعبي بعد انفجار الشعوب . . . ولعل الحركات اليمنية كانت لاحقة بالحركات تحت المفهوم الرسمي والشعبي ، حتى أن أغلب

مؤرخي العصر العباسي تجاهلوا حركة (الهادي) واستقلاله بحكم اليمن ، نتيجة استئثار الأمراء بمناطق أقرب من دار الخلافة ، فقد كان (الموصل) شبه دويلة مستقلة في ظل (الحمدانيين) ، كما كان (آل طولون) مستأثرين بحكم (مصر) بل كانت (الكوفة والبصرة) كمستقلتين . . فلم يكن لخليفة بغداد في ذلك الحين إلا الدعاء في خطبة الجمعة والاسم على وجه العملة .

من هنا لم يشكّل استقلال اليمن النصفي حدثاً خطيراً ، وبالأخص أن أتباع خليفة بغداد من الزياديين كانوا يشاطرون (الهادي وعلي بن الفضل) حكم البلاد ، ويصارعون لديمومة هذا الوجود ، حتى حلّت محله صراعات أخرى لاتتصف بالتقدمية ولا بالشعبية ، لأنها كانت حركات سلطات من القرن التاسع الميلادي إلى عشرينات هذا القرن .

من هنا ابتدأت الحركات الشعبية تشق مكامنها ، وذلك لتوفر عاملين : الأول النضال الشعبي ضد الأتراك ، الثاني الحسّ بوجود الشعب كمصدر للسلطة وحياة للأرض وقيمة لإنسانية الإنسان ، الذي يتغلب على الأجنبي ليفتتح وطناً أفضل غير أن الاستعمار يبقي جذوراً وبذوراً وهذا ما يسمى مشاكل الاستقلال ، لأن الشعوب التي تحقق السيادة تخوض أمواج التضحيات النارية ، وبهذا يتقوى حسّ العراك بعد حلاوة النصر وحلاوة الأمل في نصر أحلى ، ولقد عارك الشعب اليمني الحكم التركي في فترتيه ، إلا أن الفترة الأولى كانت تحت قيادة إمامةٍ قائمة ، لأن الغزو لم يطمئن إلى القرار في ظل (الإمام شرف الدين) ثم (القاسم بن محمد) في منتصف القرن السادس عشر ، حتى اضطر إلى استمالة أولياء عهد (شرف الدين) ، فكان الصراع رسمياً بين خلافة (إسلامية) وبين إمامة (يمنية هدوية) .

أما الغزوة الثانية فقد اصطرعت مع الشعب وجهاً لوجه ، وكانت قبيلة (الزرانيق) محور هذا البحث أشرس مناضلي اليمن عامة ، لأنها كانت تقف في

طريق القوافل التركية الوافدة من (الحديدة) أو السارية من (الحجاز) ، وكان (الزرانيق) بالمرصاد لهذه القوافل وتعزيزها بالرجال ومدّها بالأسلحة ، فمن عام ١٨٨٧م كانت المعارك بين (الزرانيق) و(الأتراك) شبه يوميّة ، وكان (للزرانيق) اليد العليا في كل معركة ، لإدمانهم القتال ولنشأتهم على الرمال وبين أدغال وكثبان يصعب على الغريب التوغل فيها مهما كانت قواه ، لأن (الزرانيق) كانوا يحتمون بالكثبان العريضة من قذائف المدافع ، ثم يشنون هجمات ليلية يجهل الأتراك مساربها وطريقة تتبعها ، وكانت تتساقط الأشلاء من (الزرانيق) و(الأتراك) ، دون أن يعرف اليمنيون في سائر المناطق سير تلك المعارك ، لنأي منطقة (الزرانيق) وتكتمهم على الأحداث وغنائمها ، ولعلهم أرادوا الانفراد بهذا الاقتتال حتى لاينتمون إلى سلطة مناوئة للأتراك أو موالية ، وإنما أرادوا عملاً مستقلاً بهم ومنفصلاً عن النضال العام ضد الغزاة ، بعد جلاء (الأتراك) آخر العقد الثاني من هذا القرن هدأ (الزرانيق) غير مبدين ولاء للإمام (يحيى) أو تمرداً عليه ، وإنما ظلوا في منطقتهم غير قابلين وغير رافضين ، واشتغل (العهد اليحيوي) بتمكين سلطته في الجبال ، ولما أراد بسط سلطته على (تهامة) ، انتفض (الزرانيق) من هدوئهم وقاوموا نفوذ (الإمام) بكل شكل ، ولما لاحظوا اندحار الحملات (الإمامية) الأولى ، أرادوا توسيع رقعتهم فشنوا الهجمات على حامية (الحديدة) ، ولما تمادت هذه الهجمات إلى قتل بعض جنود إمامية في (الحديدة) ذُعرت سلطة (صنعاء) من انتشار الفوضى إلى الشريان الحيوي لليمن وهو (الحديدة) ، فقد كانت تصل عن طريقها الأسلحة الإيطالية إلى (صنعاء) ، فتوقعت سلطة صنعاء الاختناق في أحرج الظروف لانقطاع صادراتها واستيراداتها من الخارج وإليه ، لأن الانتفاضات في سائر المناطق كانت أحوج إلى الأسلحة ، وبالأخص المدافع التي أخمد دويها كل انتفاضات المناطق الوسطى من أول العشرينات إلى عام ١٩٢٦م .

ومن هنا أصبحت (الزرانيق) محور الاهتمام الفكري والسياسي والتأريخي . فلماذا تمردوا عام ١٩٢٦م ؟

وما غاية هذا التمرد وهم ألدّ محاربي الأتراك ؟

هل هناك سلطة خارجية كانت تمدّهم ؟

هل في مقدورهم تكوين سلطنة على شحة أرضهم وانتشار الأميّة فيهم ؟

كان هذا التفكير يتموضع حركة الزرانيق من بدء نشوبها ، ويتوجس من انفصاليتها ، فينسد المجال الحيوي لليمن وهو البحر الأحمر ، وكما اهتم التفكير بحركة الزرانيق وسببيتها وغايتها ، عُنيَ المؤرخون بتقصّي أنسابها وحركتها في التأريخ ، فتبدت عريقة في التأريخ التمردي وفي التكاتف على التمرد وراء قياداتها المشيخية .

كانت تسمى هذه القبيلة في الجاهلية (بأزد شنوءة) تمييزاً لها من (أزد عمان) ، وكانت اليمن القديمة تسمى (ذات الأزدين) ، أزدشنوءة ، أزد عمان .. وكانت (أزد شنوءة) تسمى عمالقة الصحراء ، وظل اسم (أزد شنوءة) النسب الغالب على هذه القبيلة ، توارثته كاسم عام لجميع فروع القبيلة إلى القرن الثامن الهجري تقديراً ، ثم حل محل (أزد شنوءة) (الزرانيق) أو الزرانقة نسبة إلى (زرنق بن وليد بن زكريا بن محمد بن عابد بن مضرب) بطن من المعازبة وهو الزرانقة ، وعلى رغم تغيير اسم القبيلة من (أزد شنوءة) إلى (الزرانيق) فإن صفات هذه القبيلة لم تتغير عن عهود بداوتها ، فأغلبهم من العدّائين الّذين اتصفوا بالنحول وسرعة الحركة ، حتى عُرفوا بصيد الضباء والغزلان قبضاً باليد ، دون استعمال وسائل القنص والصيد كالقِسي والرماح القصيرة أو اتخاذ الكلاب السلوقية ، لأن (الزرنقي) يواصل عدو أربع ساعات متصلة ، وهي مدة طاقة عدو الغزال كما جربوها ، فالعدو من أهم صفات هذه

القبيلة ، على قلّة العدّائين في مجموع القبائل العربية ، فقد كان (الصعاليك) ينقسمون إلى تائهين ، وعدائين وأغربة ، وطرداء ، والذين اشتهروا ، بالعدو لايبلغون خمسين رجلاً وأغلبهم ينتسبون إلى قبيلة (أزد شنوءة) من أمثال :

(الشنفرى الأزدي) و(تأبّط شرّاً) و(أبو الطمحان القيني) و(السليك بن السلكة السعدي) ، وكان (الشنفرى) طريد قبيلته (الزرانيق) فكان يشن غزواته على ديار اليمنيين انتقاماً من طارديه على عادة الصعاليك الطرداء ، وكان من الذين يصدون على ديار ربيعة كتآزر مع طردائها ، ولعل مهنة العدو نشأت في هذه القبيلة وامتدت منها في (نجد والحجاز) ، والعجيب أن (الزرانيق) احتفظوا بطاقة العدو إلى ستينات هذا القرن ، وكما توارثوا العدوَ توارثوا التقاليد المعيشية التي تغذيه ، فعند خروجهم إلى العدو وراء الضبيات لايأكلون حتى لاتثقلهم البطون ولايشربون لكي يعتادوا العطش ، ولكي لايستدعي الماء خروج الماء ، ولكي لايشعروا بالعطش يضعون تحت ألسنتهم حبات من الحصى تنسيهم الظمأ ، وتسرب إلى حلاقيمهم مقداراً من الهواء ، وأغلب مايستمر العدو في شوط الخروج إلى الصيد ، وفي الرجوع به ، ومن أهم المزايا أنهم يعودون بالضبيات حية إلى مضاربهم ، ولعل العدو في الرجوع سبب في وصول الصيد حياً قبل أن تتلفه حرارة العطش والجهد .

إذن فهذه القبيلة من أكثر القبائل شراسة ونشاطاً وخبرة بحيوان الضباء الشوارد والغزلان النوافر وأشباهها التي لاتنجوا من قبضتهم أخفها وأسرعها ، فلا غرابة أن تتميز هذه القبيلة بالشجاعة النادرة وبطفور التحرر من كل سلطة ، لاختلاف العادات التي كوَّنتها عن العادات التي تكّون سكان الهضاب والأودية ، إذ أن كل مجتمع يخرج إلى عادات ونيم يرضعها مع لبن الأم ، ثم تكوّن سلوكه كما يكّون منها ضميره الأخلاقي وتقاليد عيشه وأسلوب تفكيره وتعبيره ، ولقد توارثت أجيال (الزرانيق) عادات العدو والقتال والتمرد على كل نظام ، غير أن

القبيلة مهما ترسخت عاداتها التمردية لاتمنعها من أن تنكسر وتستسلم أما العنف المنظم المكّلل بالسياسة ، فقد دلّ التأريخ القبائلي على أن العشيرة الأشدّ تمرداً هي الأطول خضوعاً إذا غلبتها سلطة سياسية مسلحة ، فقد تميزت قبيلة (بني أسد) بقتل ملوكها ورؤسائها ، حتى أرعاهم لها من أمثال (الملك حجر) والد (امرئ القيس) الشاعر ، ثم خضعت هذه القبيلة أذل خضوع للملك (عمرو بن هند) ، فلعلمه بشراستهم ألحّ عليهم بالقتل والقبض والسجن ، بل نقلهم من مرابعهم إلى (نجد) ، ثم أمر بنزولهم (تهامة) ، حتى أصبحوا مثلاً في الذلة كما أفصح شاعرهم عبيد بن الأبرص :

أحللتهـــم نجـــداً وقـــد نـزلـوا علـى وجـل تهـامـة
أنـــت المليـــك عليهـــمُ وهـم العبيـد إلـى القيـامـة

فالقبائل الأشرس هي الأطول خضوعاً لغلبة الجبار السياسي ، ولعل (الزرانيق) لايخرجون عن هذا المفهوم القبلي ، فهم أشرس من تمرد وأطوع من خضع للغالب ، كما تبرهن أحداثهم في التأريخ الحديث ، فقد صاولوا (مطهر شرف الدين) في القرن السادس عشر مقدار أربع سنوات ، ثم استكانوا لغلبته ، ولم تَرِد عنهم أخبار تمرد ثلاثة أجيال ، ثم استعر نشاطهم أواخر القرن التاسع عشر ، حتى أخمدهم الشريف (حمود بن محمد الحسني) أو التهامي كما ينسبه المؤرخون . كالشوكاني ، وجحاف ، وزبارة ، وعبد الرحمن بن أحمد في كتابه الخاص به بعنوان (نفح العود بسيرة الشريف حمود) فبعد أن سرد (القاضي عبد الرحمن بن أحمد) معارك (الشريف حمود) مع جيوشه الدرعية ومزاياه الدينية والعلمية وتحصينه لعاصمته (أبي عريش) وبناء مدينة (الزهرة) رتب معاركه مع الزرانيق ورأى غلبته عليهم أعلى ضروب الشجاعة وأعطر الأخبار في حنكة القيادة ، وبعد موت (الشريف حمود) سادت (تهامة) الفـوضـى ولـم يستطـع (المنصـور علـي) أن يمـدّ إليهـا أي نفـوذ ، فـاستعـاد

(الزرانيق) عاداتهم التي لم يتخلوا عنها إلا مرغمين ، وأبدوا أشرف ضروب الشجاعة على قوافل الأتراك ، حتى جلا ذلك الغزو وعاشوا على تقاليدهم ، حتى باغتتهم حملة (الإمام يحيى) عام ٢٧م لقتلهم بعض جنوده في (الحديدة) ، ولكنهم أبادوا الحملة عن آخرها لجهلها أسلوب (الزرانيق) في الحروب ولانعدام خبرتها بكثبانهم وأدغالهم ، فقد أبدى (أحمد الفتيني) زعيم (الزرانيق) ترحيبه بالحملة (الإمامية) مبطناً المكيدة الحربية ، حتى ورط قائد الحملة ورجاله إلى الأدغال ، ثم فاجأتهم الطلقات النارية من حيث لايرون ، هنا أحست سلطة (صنعاء) حقيقة الخطر الداهم ، فأمر (الإمام يحيى) نجله (أحمد أمير حجة) بغزو (الزرانيق) وإخضاعهم ، بعد أن أخفقت كل الحملات والمناوشات ، فاستغلّ (أحمد) هذه الفرصة ليؤسس عليها سمعته البطولية ، فجيَّش الألوف من (حاشد وبكيل) ، وابتدأ مع (الزرانيق) معركة مجهولة البداية والنهاية ، فقد استمرت من أول سنة ٢٨ إلى آخر ٢٩م سقط فيها مئات القتلى من الجانبين ، وكان (أحمد) أمهر من القادة السابقين حيلة كما كان أكثرهم صلاحية في صرف الأموال ، وكانت تجربة الحملة الأولى قد أعطته فكرة عن هذه القبيلة وخشونتها وحرارة قيظها ومجاهل أدغالها ، فاستعمل معهم المناوشة من بعيد ، لكي يرهبهم نفسياً ، أو لكي يجترهم إلى متناول المدافع والبنادق ، وكان يستعمل الدّهاء والبذل للعلم بأهل المنطقة ولاشتمام أخبارهم وتأثير الطلقات فيهم ، فتمكن من اكتساب أنصار من المنطقة ساعدوه على دخول عاصمة (الزرانيق) (بيت الفقيه) وكانت هذه أهم خطوة في مسيرة تلك الحرب لأن بيت الفقيه عاصمة الزرانيق وقلب المنطقة ، لأنها تقسمها إلى قسمين : القسم الشمالي أو الشامي كما يسمونه يمتدّ من شمال (بيت الفقيه) إلى (المنصورية) إلى (تخوم ريمه) ، ويتَّسم هذا الصقع بكثافة الكثبان وجمرية الرمال ، أما الشق الجنوبي فيمتد من جنوب بيت الفقيه إلى (البدوة) منطقة القصرة ، وهو متشابك الأدغال متعرج المسالك ، غير أن احتلال (بيت

الفقيه) قد حقق أكثر المهمة كما استكثر من عدد الموالين خوفاً أو طمعاً من أمثال : بيت البحر وآل منصر ، وكانت (لآل منصر) الزعامة المشيخية على الطرف الشامي ، وبهذا أصبح دنو النصر ممكناً كما تبدى خضوع القبيلة أكثر إمكاناً ، نتيجة تناقضها من الداخل ، فمن (بيت الفقيه) توالت الحملات والإرجافات الدعائية ، حتى شاعت دعاية تصريف (أحمد) ضد الرصاص وأنها لاتؤثر فيه ، لأن فيه صوارفها كما روجت الإشاعة ، وكان نجاحها لحسن تقبلها عند أولئك الناس الأكثر تصديقاً للكرامات والمعجزات ، حتى تميزت المنطقة بكثرة الأولياء وأصحاب الطرق والريادة ، ففي إمكان الدجَّالين أن يخلعوا على أنفسهم أغرب الكرامات بأقل قدر من الأتباع والاحتيال .

لهذا سبقت الدعاية للقائد أغلب هجماته ، إلى جانب هذا وهو الأهم مادياً أمكن (أحمد) أن يستولي على (ميناء غليفقة) ويبني عليه المخافر الحصينة ، فوقعت المنطقة في حصار محكم من تسرب الأسلحة التي كانت تحملها السفن الشراعية ، فكان الاستيلاء على (ميناء غليفقة) الخطوة الحاسمة في إخضاع (الزرانيق) بغلبة (أحمد حميد الدين) الشهير بالمنعة ضد الرصاص وبقطع الرؤوس وعسكرة الجن ، حتى سمَّاه أهل المنطقة (أحمد ياجنَّاه) فلجأ الفتيني إلى المعسكر البريطاني في (كمران) مُنيباً عنه (محمد حسن الفاشق) ، وأدى هذا الالتجاء إلى تفنن المؤرخين الرسميين في عمالة (الزرانيق) للإنجليز دون أن يميزوا بين الجماهير وبين الزعامة ، فلم يلجأ أي مواطن من الزرانيق إلى (كمران) تابعاً لأحمد الفتيني ، فمن الجائز أن يكون (الفتيني) متآمراً ، أو مستعيناً (بالإنجليز) لغياب أي نصير ، أما الزرانيق كجماهير فلم يمارسوا غير موروثهم من كراهية تحكّم أي نظام ومن شدة ولوعهم بالحرية المطلقة ، ومع هذا فإن المؤرخين الرسميين يربطون بين حركة (الزرانيق) ، وبين استيلاء الجيش (البريطاني) على قعطبة والضالع لِتَزامن الحادثين ، بل إن بعضهم يرى

يد الإنجليز هي المحرك الوحيد (لأحمد الفتيني) ، لكي يشتغل الإمام بقتال (الزرانيق) عن الإنجليز في قعطبة والضالع ، يقول (عبد الواسع الواسعي) في كتابه (تأريخ اليمن) : « كيف يمكن (الفتيني) أن يشكو إلى عصبة الأمم المتحدة بأن (الإمام) يريد أن يغتصب بلاده إلى (الحديدة) ، بدون استشارة من الإنجليز مع أن (الفتيني) أمي لايعرف يمينه من شماله » . وهذا نفس ماردد (الأب الكرملي) في ملحقه لكتاب (مسك الختام) . . للعرشي .

إذن فالتأريخ الرسمي يسجل على (الزرانيق) تهمة العمالة قيادة وقاعدة ، على حين التأريخ الشعبي يرى حركة الزرانيق ثورة وطنية ضد الإقطاع وضد الإمامة وكلا المفهومين يستدعي المناقشة ، فلم تكن تلك الثورة بكل فصائلها عميلة كما يرى الرسميون ، وإنما كانت تريد تحررها التقليدي كعادتها إزاء كل سلطة ، ولم تكن تلك الثورة وطنية بالمفهوم السياسي ، لأن الثورة الوطنية تتبنى بديلاً أفضل من القائم ، وتتوخى شمول العناصر الوطنية في عمل موحد ضد القائم لصالح المستقبل ولكل الناس في سائر المناطق ، لكي يتجلى الأفضل من خلال عراك الواقع السيئ .

إن حركة (الزرانيق) كأي حركة قبلية أشد من يَغلِب وأضعف الذين تكسرهم الغلبة ، فقد أذعن الزرانيق أيّما إذعان بعد أن أطبق عليهم الحصار ، وتغلغلت في كل نواحي منطقتهم الجيوش التي داهمتهم من ثلاث جهات فقتلت وأسرت واحتلت كل المراكز الحربية ، واستقبل سجن (حجة) (١١٠) من الأسرى ، غير سجناء (بيت الفقيه وزبيد والحديدة) ، ومهما انتهت الحملة بالنصر فلم يكن ذلك الشوط سهلاً ، وإنما كان أعتى معركة خاضها الحكم (الإمامي) بعد معركة (المقاطرة) حتى أن (أحمد) الذي أراد أن يرتكز سياسياً على غلبة أشرس المحاربين (الزرانيق) نفث أمر شكوى من مرارة هذه المعركة ، وبالأخص معركة (الجاح) كما تفصح قصيدته التي مطلعها :

صاح إنّ « الجاح » قد أضنى فؤادي وابتلى جفني بألوان السهادِ

فهل كان هذا التمرّد وطنياً ثورياً ؟

قد تشكّل الحركات الفوضوية أرومة الثورة الوطنية ، لأنها تصاعد حرارة الحيوية في الشعب ، حتى ينتقل من التحرك الآني العشائري ، إلى الاندفاع الشعبي لتحقيق الغايات العليا للوطن ، باعتبار الفوضى الدموية تؤدي إلى العكس وهو الانسجام عن طريق إبداع واقع يمكن التصالح معه .. أما حركة (الزرانيق) بآنيتها يتّصف اخضاعها بالوطنية أيضاً ، لأن ذلك الإخضاع كان لطاعة فرد لايمثل مصلحة الغالبية .. لهذا أدى اندلاع الحركة (الزرانيقية) وإخمادها إلى نتائج عكسيّة برغم أن قمع الزرانيق أثر على القطاعات الشعبية في أكثر من منطقة ، لكن إخضاع الزرانيق بالقوى (الإمامية) التقليدية من مناطقها المعينة ، قد أثار ماتسمى بالحس (التهامي) الجبلي الذي لاقى تغذية داخلية وخارجية ، وظل يتهامس من مطلع الثلاثينات إلى ثورة سبتمبر عام ٦٢م ، وهذا يتنمي إلى أصل الحركة وفعل قمعها ، فلأن التمرد غير وطني والقمع غير وطني ، تمخضا عن نتائج طائفية هي أبعد عن مصالح الوطن وعن إرادة جموع الموطن اليمني .

* * *

النتائج العكسية والامتدادية لحرب الزرانيق

إذا اتسمت وقائع هذه الحرب بالعنف مقاومة وهجوماً فإن مبرراتها كافية ، لأن تلك الأحداث نجمت في مطلع عهد الاستقلال في مستهل تأسيس دولته ، لهذا اشتدت الضراروة من النظام ومن المتمردين ، لأن النظام كان يتوخّى التأسيس الذي يستدعي العنف في النظام الوراثي وكان التمرد (الزرانيقي) يحاول إيقاف هذا التأسيس على حساب حريته القبلية الوراثية ، وتلك أشرس فترات القتال في كل مسيرة التأريخ ، ولقد انتهت الجولة بغلبة النظام وبخضوع (الزرانيق) للأمير (أحمد) ، غير أن الانتصار كان عائلياً كما كان التمرد عشائرياً ، ومن هذين السببين تمخضت النتائج المعاكسة وشبه الامتدادية ، فلم يطمئن النظام إلى حقيقة غلبته ، وإن ظهرت على (الزرانيق) آثار الرهبة وإظهار ولاء المغلوب للغالب ، فقد ظهر عليهم إكبار البطولة في عدوهم لمكانتها في نفوسهم ، بمقدار ماوقر في نفس (الأمير أحمد) من إعظام بطولة (الزراتيق) كما سوف تدل أشعاره في البحث التالي ، حتى أن الزارنيق اعتبروا (الإمام أحمد) نموذج الشجاعة الحربية ، كما اعترف لهم بالبسالة الحربية ، وإن كان هذا الاعتراف برهنة على أن الغالب أشجع ، لأن أمامه مزيداً من أمثال تلك الأحداث كحروب (صَعْدة) وحروب (حرض) . . غير أن (الأمير أحمد) عن إيحاء من والده لم يطمئن إلى عسكره (الزرانيق) في حروب (حرض وصَعْدة) ، ونشب الجدل بين الأمير وأبيه حول صحة ولاء (الزرانيق) مما أدى إلى إبعاده عن قيادة (حرب تهامة) عام ٩٣٤م - خوفاً من تهوره - إلى قيادة حرب (صَعْدة) ، وإن كان فيها أشد تهوراً وأشد سخطاً على قيادة (تهامة)

لأنها قادت إلى الضَيْم ، كما يقول في إحدى هجائياته لمستشاري أبيه :

هم الألى حمَّلونا الضيم في حرضٍ . . . .

وعلى رغم ضيم (حرض) فإن (الزرانيق) لم يستغِّلوا ذلك الانكسار (التهامي) الذي لحق بعسكر (الإمام) تحت قيادة الأمير (عبد الله يحيى) عام ٣٤م ، ولم يؤيدوا الغازي لأنهم يرفضون الخضوع لأي نظام ، كانوا للغزو الآتي من شمال الجزيرة أشد رفضاً بدليل تعاطفهم مع مدينة (زَبيد) التي وقفت وحدها في وجه الزحف (النجدي) حتى بددت جموعه بما في يدها من البنادق القليلة والضعيفة أمام المصفحات والسيارات الكثيرة ، لقد ظلت (زبيد) موقعاً حصيناً في وجه الغزو ، فكانت كجزيرة معزولة في اكتساح التيار ، ومع انعزالها ظلت صامدة حتى التصالح عام ٣٦م وذلك بفضل مديرها المحنَّك عبد الله بن حسن الديلمي الشهير بلقبه (المعاون) ، ومن ذلك الحين انتقل التذمر إلى (صنعاء) عاصمة الحكم على قبول التصالح وعلى قلة مصلحة (اليمن) فيه ، مع أن زحوف (صَعْدة) كانت قادرة على تشكيل ضغط يوازن بين المصلحتين ، ويؤدي إلى تصالح لشرف الطرفين ، واستغل (الأمير أحمد) قائد (صَعْدة) سقوط (تهامة) ناسباً إياه إلى سوء اختيار القيادة ، مقارناً انتصاره على (الفتيني) حليف (الإنجليز) بانهزام أخيه (عبد الله) أمام الغازي الأضعف في رأيه .

من هنا تعاطف (الأمير أحمد) مع ناقدي أبيه منددا بمستشاري مقامه ، ولعله أراد بهذا إعلان ولاية عهده رسمياً أو اكتساب العهد الجديد بكسب المتذمرين وتهديد المتنمرين ، لقد امتد هذا الجدل والتنافس إلى آخر الثلاثينات وحقق (أحمد) النتيجة العكسية لغلبته في (تهامة) ضد (الزرانيق) ، إذ من المعهود أن يحكم الغالب المنطقة التي سكَّن تمردها أو أخضعها ، غير أن (الإمام يحيى) خالف هذا المعهود فولى (عبد الله الوزير) محافظة (الحديدة)

لكي يطوي الصفحة الدموية التي كتبها (أحمد) على رمال (بيت الفقيه) ، ولكي لايشعر (أحمد) بنشوة الانتصار ، كما هي عادة قادة الحروب المنتصرة هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن إخوته كانوا يتسابقون على وراثة العرش عن طريق اختبارهم الحكم في ظل الأب ، وعن طريق التفوق العلمي واكتساب الأتباع ، كانت هذه أول نتيجة معاكسة لمشروع (أحمد) ، لأنه كان يرى حكمه للواء (الحديدة) أقصر طريق إلى إعلان ولاية عهده وأقرب مكان من (حجة) التي كانت أهم دعائمه ، غير أن الريح طاوعت سفينته بكثرة المنشقين عن أبيه والمتوددين إليه كخليفة مغاير لأبيه في نظرهم وذلك من مطلع الأربعينات ، وبالأخص عندما أصبح أميراً (لتَعِزّ) لمواجهة توسع (الإنجليز) ، هناك أصبحت (تَعِزّ) مأوى المتذمرين من العهد (اليحيوي) ، ولكن مؤقتاً ، لأن مغايرة (أحمد) لأبيه لم تثبت لامتحان المعارضين وأسفرت كخدعة كبرى ، فأصبحت (تَعِزّ) مجرد طريق إلى (عَدَن) ، ولما باتت (عَدَن) ملجأ المعارضين تزايدت أهمية أمير (تَعِزّ) كبطل حربي أمام الأطماع الإنجليزية ، وفي العقد الرابع أطلق الأمير (أحمد) عدة تهديدات شعرية إلى الإنجليز من طراز هذا :

أيهـــا الغـــربـــي تـــورع   إنَّ سيـــف الحـــق أقطـــع

وكانت هناك فكرة لشكيل مقاومة ضد الإنجليز ، ولكنها كانت تتلاشى مع نفث قات المقيل ، وكان (أحمد) يعوّل على شجعان (الزرانيق) ، وكان أبوه لايرى صلاحية (الزرانيق) لحروب الهضاب والأودية ، بل يراهم لايصلحون لغير كثبانهم وأدغالهم ، وأنهم في غيرها كسمك في غير ماء ، وانتهت كل هذه المخططات المقايلية إلى جدوى المهادنة والانسلال من وراء الظهور إلى جماعة الملتجئين (بعَدَن) ، حتى تفاقمت الاختلافات بينهم عام ٤٦م نتيجة انسلال أتباع (أحمد) المبدين سخطهم عليه وولاءهم الظاهري للأحرار .

إذا كانت الثلاثينات قد طوت صفحة (الزرانيق) ، فإنها قد قلبت أوراقاً أخرى لتسجيل أحداث أطرى ، حتى بداية الأربعينات هناك نجمت المعارضة علنياً وامتدت إلى الشمال ، حتى أثمرت مقتل الإمام (يحيى) عام ٤٨م ، ومن الغريب أن الدستوريين لم يستغلّوا سخط (الزرانيق) ضد (أحمد) عند فراره من (تعِزّ) إلى (حجة) عن طريق (تهامة) . فهل مردّ هذا إلى خوف (الزرانيق) من سطوة (أحمد) أو إلى سبب طائفي ؟ أو إلى معرفة (عبد الله الوزير) بكسر شوكة (الزرانيق) وتغيّر أحوالهم ؟ إن تغيب (الزرانيق) في حركة شباط ٩٤٨م مدعاة للتساؤل ، ومن ذلك العام تبدت مخاوف (الزرانيق) ، لأن الذي كان محارباً عن إمرة أبيه قد اقتعد مكان أبيه وكان انتصاره بروائح أبيه ، وشتان بين أمير حرب وأمير وطن لأن (أحمد) أيام حربه مع (الزرانيق) كان مؤزراً بمهابة أبيه في مفهوم جيشه الذي كان يردد هذه الأغاريد :

« ياعباد الله قوموا للجهادِ ، واضربوا من كان مفسد في البلادِ وانصروا ابن الإمام » .

فعبارة ابن الإمام في الأغاريد لاتدل على استقلال شخصية (أحمد) بمعزل عن أبيه ، والآن أصبح خليفته ، فعزز (أحمد) الذي أصبح (إماماً) مخاوف (الزرانيق) لأنه لم يلتفت إلى شيوخهم رغم حيادهم عن معارضة أبيه والاشتراك في قتله .

فهل توجّس (الزرانيق) مزيداً من اقتطاع أراضيهم إضافة إلى الإقطاعيات السابقة ؟

لقد دلّت حركة التنقل في الوظائف عل تولية وجوه جديدة لها ماض حربي وانتماء قَبَلي شبه اقطاعي ، فقد أخذ الإمام (أحمد) يختار محافظين من

الشيوخ الصغار الذين اصطنعهم بديلاً عن حملة العمائم المدنيين ، وكان اختيار هذه الوجوه كتشكيل قوة مشايخية معاكسة لشيوخ مؤيدي حركة شباط أو مهادنيها ، فشهدت الخمسينات مديري مناطق ومحافظي ألوية لاعهد لهم بمثل هذه الأعمال في العقود السابقة ، غير أن هذا الاختيار لهذه الوجوه كان يستهدف عدة أمور :

أولاً - كسب مشايخ في وجه مشايخ .

ثانياً - تقديم التبرئة من كراهية شيوخ البلاد

ثالثاً - تنصيب الأقارب المسالمين للشيوخ المناوئين في الأربعينات .

رابعاً - تكوين مشيخة حديثة على أنقاض القديمة بدون قواعد قبلية وإنما بوجاهة رسمية ، لأن قوة كل مشيخة كانت تعتمد على مكانتها عند الحكم المركزي ، ولعل الأسماء تشير إلى الغاية من هذا التعيين ، فلأن كبار النعمانيين دستوريون تعين (عبد الله عثمان) محافظاً (لصنعاء) بعد سقوط الدستوريين ، ولأن بعض الشيوخ (المطريين) تعاطفوا مع الفترة (الوزيرية) أو جاروا التيار الدستوري تعين (الشيخ شايف زهرة) محافظاً (لضوارن آنس) لتغاضيه عن الانقلابيين بل والتحريض عليهم ولأن (الصوفي) هادن الدستوريين تعين (الرويشان) محافظاً (للبيضاء) ، ولأن (سعيد أبو بكر) أحد مشايخ عتمه ، لم يشايع (آل الوزير) رغم المصاهرة إليهم تعين محافظاً (ليريم) ثم (ذمار) ، وهكذا تولى أكثر محافظات المناطق وإداراتها شيوخ من عدة مستويات على امتداد الخمسينات ، وكان هؤلاء الشيوخ عل قرابة من الدستوريين في الغالب وكان غيظ الدستوريين من الشيوخ يكمن في مؤاثرة أقاربهم ، ففي منتصف الخمسينات أصبح المناضل (مطيع دماج) محافظاً لأكثر من منطقة رغم دستوريته الفكرية لأنها دون دستورية (آل أبي راس) المباشرة ، ووصل إلى

(تهامة) هذا المدّ الشيوخي فتعين (يحيى منصور) مديراً (لحيس) .

نتيجة لتعيين هؤلاء في أكثر المناطق نشأت النتيجة المعاكسة متناسجة من ذلك العهد ومن فترة انتكاس (الزرانيق) ، فانتقل الهمس (التهامي) الجبلي إلى النقاش العام ، بل إلى الشعر في مقائل (الحديدة وزَبيد) ، غير أن هذه الطائفية الجغرافية كانت مفقودة الجذور . . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الّذين كانوا يكتبون قصائد التنديد بالجبليين كانوا يملؤون الصحف التعزيّة بتبجيل (الإمام) لالتماس وظيفة أو لمزيد مرتب أو لنيل وظيفة أعلى ، إذن فثوريتهم على مواطنين من الهضاب وليس على السلطة الفاسدة (بتَعِزّ) ، ولعل هذه الطائفية الجغرافية من أحلام شبه المثقفين أو أنصاف المتعلمين ، لأن هذا النزوع (التهامي أو الحديدي) خاصة كان شاذاً عن تيار العصر وعلى واحدية النضال اليمني ضد التخلف في الشمال والاستعمار في الجنوب ، فتلك الطائفية مفقودة الأساس واهية الارتباط بالنزوع (الزرانيقي) ، لأن كل شعوب العالم مُكوَّنةٌ من جبال وأغوار ونجود وتهائم ، ولم يؤلف هذا الاختلاف الجغرافي حسّاً طائفياً ، لأن عوامل الصراع تتناسج من الاستغلال وتوق التحرر ، وكان هذا نزوع الشعب بجملته ، وليس لنزوع بعض المقائل الدينية الأدبية في بعض مقائل الحديدة أي أساس ، غير أن تلك المقائل أخذت تبحث عن أساسيات ، فاتخذت من بعض أهازيج الجبليين في حرب (الزرانيق) إثارة تحريضية من أمثال هذا الهزْج :

جاك سيل الله ياصاحب تهامة مقدم السيف المظلل بالغمامه
نضرب الزرنوق في داخل خيامه راعد القبله ورَدْ (شرفا) و(جرمل)

قد تكون حرفية هذه الأغرودة تعميمية تشمل كل (تهامي) ، لكن الحادثة تخصص معناه وتقصره على التمرديين في ذلك الآن ، وبالأخص إذا لاحظنا أن بعض الأغاريد كانت تعيد أهازيج حروب قديمة ، وتمزج بينها وبين حرب (بيت الفقيه) ، مثل هذا الهزج :

يوم على بيت الفقيه والدم سائل   والله السيف الذي شل الجماله

ماتحجّى واختفى

بندق النبُّوت في يَدِّ اليماني   مـــن ثعـــابـــه لاعَـــدَن

فهذه الأهزوجة تتناول حرب (بيت الفقيه) في ثلاثة أشْطُر ، ثم تشير في الشطرين الأخيرين إلى حرب آتية ضد الإنجليز تمتد رصاصاتها من (ثعبات) إلى (عَدَن) ، وهذا رجز حماسي لحرب قائمة من أجل حرب سوف تقوم ضد المستعمر من أجل تحرير كل الوطن ببنادق كل المواطنين لافرق بين تهامي وجبلي ، فإثارة هذه الأهازيج كتحريض للمواطن التهامي على المواطن الجبلي أبأس الوسائل لأن تلك الأهازيج رسمية الوجهة وإن كانت شعبية الصوت ثم إنها آتية لتحميس العساكر أو لقتل السأم والتعب . إذن فليست مجدية دعائياً . فهل وراء تلك الطائفية أطماع لتجزئة اليمن لصالح زعامة دينية في (تهامة) هي بدورها تابعة لعدو ؟ ، لهذا تجلى الغرض من تلك الإثارة ، فقاومها وطنيون من نفس (تهامة) من أمثال : (يوسف الشحاري ، وعبد الله الصيقل) ، وغيرهما .. لأن هؤلاء الشرفاء وأمثالهم حرصوا عل واحدية النضال اليمني ، ووحدة وجهته الثورية التي كانت تتبرعم في كل مناطق اليمن ، وبالأخص في (تَعِزّ وصنعاء) ، أما (الإمام أحمد) فلم يفطن لوجهة دعاة وحدة النضال ، وإنما تنبّه إلى تجزئة الرقعة التي يحكمها ، فتنقل مابين (تَعِزّ والحديدة والسخنة) ، وكان موالوه من رجال (الزرانيق) يشكّلون حراسته في (الحديدة والسخنة) وبالأخص (آل منصر) ، وكان يبتغي (الإمام) بهذا التنقل وبهذه الثقة في بعض (الزرانيق) طمس ماضيه الحربي وتأصيل أبوته الحانية على كل المناطق ، حتى صارت (السخنة) على شدة حرارتها أحب المستقرات إليه ، إلى أن اكتشف مؤامرة (سعيد ذبحان) على حياته عام ١٩٦٠م مستعيناً بأحد أبناء (منصر) في بعض الروايات ، ومستعيناً ببعض (الحاشدين) في

رواية أخرى ، أما الرواية الثالثة فتؤكد أن (آل منصر) هم الذين ورطوا (سعيد ذبحان) ثم كشفوا غرضه وألقو عليه القبض لمزيد من التقرب إلى (الإمام) ، ولم يكن لأثر حرب (الزرانيق) أي دور في مغامرة (سعيد ذبحان) ، وكان (الإمام) قد جافى (صنعاء) لأنها مكان مقتل أبيه واطمأن إلى (تَعِزّ) حتى حدثت فيها حركة عام ٩٥٥م . هناك أقلقته النباهة السياسية للتعزيين والنفثات الطائفية من بعض الحديديين ، فكان التنقل من (تَعِزّ) إلى (الحديدة فالسخنة) والعكس ، مجرد تهدئة قلق أو محاولة إثبات وجود مباشر ، لأن (تَعِزّ) التي اطمأن إليها في آخر الأربعينات قد حملت الراية عن (صنعاء) التي قتلت أباه ، ولكن اختلف أسلوب النضال ونوع المناضلين ، باختلاف تيار الخمسينات عن موجة الأربعينات .

فهل (الحديدة) مأمن أحصن ؟ وهل (السخنة) أبعد عن مؤثرات الفترة ؟ لقد انحسر تيار (الزرانيق) ولم يشكّل أي امتداد لنزوع طائفي ، وإن ارتكزت طائفية الخمسينات الحديدية عليه ، أو على محاولة إحيائه ، لكنها في حقيقتها مبتورة عنه بمقدار انبتارها عن جملة ثورية الخمسينات التي تجاوزت الطائفية إلى الوطنية والقومية الإنسانية ، ولعل (الزرانيق) كانوا أبعد نظراً لابتعادهم أو لغيابهم عن تلك الطائفية الجغرافية ، لأنهم رأوا الساحة تغلي بالتمخضات المغايرة ، فلم يعد (الإمام أحمد) غريمهم وإنما أصبح عدو الشعب عن نظرية سياسية وعن نزوع وطني شمولي ، وكانت فدائية (سعيد ذبحان) عام ١٩٦٠م وهو (حجري) الدليل على طول قائمة المناضلين في المدائن والريف .

إذن فلم تعد (السخنة) أمنع من (دار السعادة) ، أو أحصن من (صالة) . فهل قصر (البوني) في (الحديدة) أكثر مناعة من قصري (صنعاء وتَعِزّ) ؟ .

ربما أوصل الحسّ الطائفي الحديدي إلى العكس ، فأنضج الظروف الثورية

أو هكذا تراءى وجه المرحلة ، فقد أدت طائفية بعض الحديديين إلى المفهوم الأصح ، لأن التذمر الطائفي ناتج عن سوء الأوضاع العامة ، ولايقضي على سوئه إلا بالقضاء على السلطة الأسوأ ، لأنها سبب الطائفية وسبب الاقتتال باسمها ، على أن الطائفية في اليمن أضعف أساساً من طائفية لبنان أو أفغانستان أو الهند ، لأنها غير تاريخية وغير طبقية وغير تركيبية ، لهذا اشتم ثوار الخمسينات طائفية بعض الحديديين تنفساً عكسياً أو تذمراً عاماً ولكنه منحرف القصد ، ولعل عملية (اللقية) ورفيقيه كانت تتوخى استئصال الانشقاقات بكل أشكالها ، لأن الوضع المتخلّف يفرز المفاهيم المتخلفة ، وبالأخص في وجود من يمول العاملين على التجرئة طمعاً في التوسع على حساب واحدية الوطن ، بعد جرأة (اللقية) ورفيقيه في محاولة اغتيال (الإمام أحمد) في مستشفى (الحديدة) عام ١٩٦١م سكتت تلك الطائفية الجانبية ولم يسكت (الإمام) الجريح عن محاولة تلمس الخيوط لوقوع ذلك الحدث في (الحديدة) بالذات على أيد صنعانية .

فهل ينتمي إلى نتيجة معاكسة لغلبته على (الزرانيق) ؟

أم لطائفية لجديدة تفرعت من أحداث (الجاح) وبيت الفقيه ؟

لقد ربط بين القديم وبين ماستجد وتجلى الوجه الأجنبي المستخفي خلف حكاية التهامية والجبلية ، وكان رأس الحركة كثير الأسفار كثير الأتباع لوجاهة علمية دينية ، فشاهدت عشية الستينات وضحوتها إلتفاتاً إمامياً إلى أقطاب المناطق مراعياً الولاء ، وغير مراع التعبير عن المناطق ، ونتيجة لهذ حدثت تنقلات تمويهية تحاول حجب الغرض وتؤكد غرضيته ، فتعين (عبد العزيز عقلان) رئيساً لمحاسبة (صنعاء) وهو يساوي منصب وزير مالية اليوم ، كما تعين (محمد علي عثمان) وزيراً للصحة ، وبعد فترة كافية لحجب القصد الأساسي تعين (محمد عبد الله عاموه) وزيراً للمعارف ، التربية اليوم ، كإشارة

لغياب التحيز الإمامي إلى منطقة ، ولعل تعيين (عاموه) من جهة إطفاء تلك النزعة التهامية عن تفاهم مع الذين وراءها ، كما دلت مواقف (عاموه) الذي أراد تقريب المذاهب الدينية أو تأسيس تعليم إسلامي بلا مذاهب ، وذلك لمقاومة التيار القومي الثوري ، وكان الإمام يومذاك قد تراجع عن بداوته الوحدوية مع الثوار وعن خطراته في تبني تحرر الشطر الجنوبي ، وعلى أن قمع (الزرانيق) لم يشكّل امتداداً في الخمسينات لطائفية تهامية ، وإنما جاءت من خارج (تهامة) وصادفت مناخاً يغذي كل نزوع وطني وكل نزوع ضد الوطن ، لأن المرحلة الموبوءة تنتج مثيلها من النوازع ، ولكنها في نفس الوقت تعد التربة لتفجر عكسها لمحوها ومحو نظائرها ولو بعد أمد ، لأن السيئ سريع الإثمار والامتداد ، على حين النقي بطيء التفتح لاحتياجه إلى طول التخمر والتفاعل بالمناخ والمواسم .

إذن فلكل مرحلة امتداد منها وانعكاس عليها ، وكلها في غير صالحها ، وكلّ ما ينعكس عليها ويمتد منها يقصّر الطريق إلى حدوث المغاير للمنتج والناتج عنه ، فقد تمخض عن كل النوازع من وطنية عامة ومن نزق طائفي فجر سبتمبر العظيم ، لكي يقضي على قاهر (الزرانيق) وعلى إقطاع أراضيهم ، ولكي يوحد جموع الشعب الموحد ، فقد التقى تحت راية سبتمبر جمهور الوطن من كل أصقاعه ، وأعطت (الحديدة) وسائر (تهامة) زنوداً قوية للثورة بشكليها العسكري والثقافي ، فإذا كان (يوسف الشحاري ومحمد الأهنومي) من أعملة فجر سبتمبر ، فإنّ (يحيى عوض وإبراهيم صادق وعلي عبد العزيز نصر وإبراهيم طاهر) من أعلام البشائر الشعرية والغنائية ، وكلما مرت أيام طالت القائمة واتسعت ، فإذا بمناضلي (تهامة) من أروع النماذج الوطنية ، لانقطاعهم عن عشائرية الزرانيق وطائفية تلك المقائل الحديدية ، لكن تلك الماضويات في كل الأماكن تؤثر حتى على المنقطع عنها ، كما نلاحظ مشاكل الاستقلال والأزمات الثورية ، ذلك لأن هذين الوليدين يدرجان في آثار خبرة السيئين

وطفولة الطامحين ، لكي تتغلب أزمات الثورة على الثورة ، ولكي يظل العهد الاستعماري في بقايا مخلفاته الوفيرة الجيوب ، ولقد جاءت ثورة سبتمبر من نفس النبع المتخلف إلى نفس المعترك الإشكالي ، وغطى توردُ الوجوه الحماسية والألقُ الثوري كلَّ ذوائب الدخان وأنامل المخلفات ، حتى إذا طرحت الزنود أسلحتها أخذت الطائفيات تذر قرونها الهشة ، غير أنها لاتملك المكونات ولاتضرب جذورها إلى خصوبة تأريخية ، وتربة اجتماعية ، فقد تلاقى اليمنيون تحت كل راية وطنية .

فهل يمد العهد التجاري طفيليات العهد الإمامي ؟

من بداية السبعينات إلى الآن تبازغت عدة جانبيات كامتداد لسيئ وكبداية لمثيله ، فأغلب النفثات الطائفية : تقوم على القروية ، على المجالسية ، على المكتبية . . ورغم هذا التآزر الواهن ظلَّت الوطنية متألقة الجبين ، ووقف الجيش الثقافي إلى جانب الجيش القتالي ، وظلت القائمة التهامية ضوئية الصدور نارية الحروف ، إذ انضاف إلى الطليعة السبتمبرية صف طويل من المؤمنين بوحدة الوطن بشطريه ، ومن ملتزمي هذه القضية موقفاً وتعبيراً من أمثال : (عبد الله الرديني ، محمد الزحيري ، عبد الله عطية ، أحمد البطاح ، طيبة بركات ، عمر الضرير ، عبد الآله القدسي ، أحمد رسام . .) وتلك هي النتيجة العكسية للطائفية الجغرافية الغريبة على تواريخ كل الأوطان .

إذن فقد كانت نتيجة كسر (الزرانيق) نزوعاً طائفياً قصير العمر قصير النظر ، وعاكسته ثورة شعبية ، نتج عن أضوائها وظلالها وحربها وتصالحها ، فيالق الغد الثوري على كل شبر من أرض (بلقيس) . وهذا الانقطاع عن الانتفاضة الزرانيقية وآثارها الممتدة والمعاكسة لايمنع من تلمس خطوط صورة حرب الزرانيق في شعر (الإمام أحمد) لكون ذلك الشعر الأميري الطبقة الغائرة من تأريخ تلك الحرب .

صورة حرب الزرانيق في شعر الإمام أحمد

على كثرة الشعراء من الملوك والأمراء ، فإن حقيقة نسبة هذا الشعر إليهم أو إلى بعضهم موضع تساؤل ، وقد فطن إلى هذا المؤرخون القدماء فكانوا يحتاطون لرواية ذلك الشعر الملوكي بقولهم : ومما نسب إلى الخليفة فلان أو فلان . ثم يدوّنون الشعر المروي بعد إشارة التشكيك .

فهل كان يطمح الخلفاء إلى مشاركة الشعراء مهنة الشعر ؟ لقد كانت ثقافة الشاعر والخليفة واحدة ، كما كانت البلاغة آية الرجولة عند الخليفة والشاعر ، إلا أن بعضهم فضّل سماع الشعر فيه على استماعه منه أو روايته عنه ، لكي يتأكد الفارق بين الخليفة الذي يدوّخ الدنيا ، وبين نجاري الحروف من الشعراء ، غير أن شعبية الشعراء عند النحويين والبلاغيين والرواة أطمعت الملوك والأمراء في ممارسة الشعر وروايته وتذوقه أو اصطناع شعراء من الخاصة ينوبون عنهم ، وكان أغلب شعر الملوك والقادة في خصوصيات نفوسهم ، أو في تسجيل بطولاتهم كالإمام (أحمد) ، وعلى كثرة المروي من شعر الملوك والأمراء والقادة والوزراء ، فإنهم لم يبلغوا مكانة مادحيهم في تجويد الشعر ، لأن شعرهم كان مجرد خطرات عجلى ينمّ عن النوبات الآنية أكثر مما ينمّ عن الأصالة الأدبية كالذي رُوي عن (هارون الرشيد) في حبه لثلاث من وصائفه ملكن عليه كل قلبه ، رغم امتلاكه كل أمرهن ، كما تقول الأبيات :

ملك الثلاث الآنسات عناني ... وحللن من قلبي بكل مكانِ
عجباً تطاوعني البرية كلها ... وأطيعهن وهن في عصياني

مــا ذاك إلا أن سلطــان الهــوى -وبه قوين- أعز من سلطاني

فعلى رغم تشكك الرواة في صحة نسبة هذه المقطوعة إلى (الرشيد) ، فإنها دالة عليه وعلى النزوات القصورية ، لأن جواري ذلك الحين كن يتمتعن بقدرة على تعليق مالكيهن وعلى تلويعهم كتعويض عن الحرية ، وإذا كان بعض الملوك يستكتبون شعراء خصوصيين يقولون عنهم ، فلغير الأغراض العاطفية لأن هذا النوع من الغزل ، لايعطي الخليفة مظهراً اجتماعياً أو مكانة سياسية أو حربية .

إذن فشعر النَوبات من شعر الملوك والأمراء ، باستثناء أفراد من الخلفاء والأمراء تألقوا من فترة إلى فترة على منابر الأدب : (كالوليد بن يزيد) في العهد الأموي ، و(عبد الله بن المعتز) العباسي في القرن التاسع الميلادي ، و(المعتمد بن عبّاد) الأندلسي في القرن الحادي عشر الميلادي و(عبد الله بن حمزة) العلوي في القرن الثاني عشر الميلادي . . فكل هؤلاء من الشعراء المعدودين ، ومن أصحاب الرأي المشروع في الأدب ، وبالأخص (عبد الله بن المعتز) فإنه في جملة شعره ومؤلفاته في الشعر وعلومه لايقلّ عن معاصريه من أمثال : أبي تمام ، البحتري ، ابن الرومي ، بل إنه فاق هؤلاء بكتابيه : (البديع) ، (طبقات الشعراء) . . وقد كان (ابن المعتز) منقطعاً للشعر والتأليف فيه أكثر من انقطاعه للسياسة والخوض في غمارها كما عبَّر عن هذا :

ولستَ تراني سائلاً عن خليفةٍ ولا قائلاً من يعزلون ومن يلي
ولا صائحاً كالعِير في يوم لذةٍ أُجادل في تفضيل عثمان أو علي

فهو من جملة الشعراء المنقطعين ، بل كان أمرَّ معاناة ، لأنه على ملوكيته كان يعاني أحياناً بؤس ابن الشعب إلى جانب خوف ابن الملوك ، حتى أن مدة خلافته لم تتجاوز ليلة واحدة ، لأن حرفة الأدب أدركته كما قال أحد راثيه :

مـافيـه لـولا ولا لكـن فتنقصـةُ　　　لكنمـا أدركتـه حـرفـة الأدبِ

وعلى شقاوة حرفة الأدب فلم يقلع أكثر الملوك والأمراء عن التحلّي بالأدب أو مكابدة مضائقه ، فإذا كان (ابن المعتز) شاعراً مجيداً في كل الأبواب المعروفة للشعر ، فإن (عبد الله بن حمزة) من الذين خصصوا نفوسهم للشعر السياسي والحماسي ، لأن العلويين في (اليمن) كانوا يعلنون مغايرتهم لبني العباس سلوكاً وسياسة ، لهذا كانت أشعار (ابن حمزة) صوت الأغراض العليا كما يقول :

لا نعرف الخمر إلا حين نهرقها　　　ولا الفواحش إلا حين ننفيها

ألا يدل هذا على أن (ابن حمزة) يريد مغايرة (ابن المعتز) الذي أجاد الغزل الغلماني والأنوثي والكؤوسي ، لأن الشاعر فيه أغلب من الأمير ، على حين كان الإمام في (ابن حمزة) أغلب من الشاعر رغم تشابه الظروف السياسية التي أحاطت (بابن المعتز) في بغداد ، والتي أحاطت (بابن حمزة) في (اليمن) فكما كان يعاني خلفاء (بغداد) انقلابات القادة والموالي ، كان يعاني (أئمة اليمن) تمرد الأتباع وخروج رؤساء الطوائف والعشائر كما يشير (ابن حمزة) إلى (المطارفة) :

ولقد حلفت وعادتي أني أفي　　　لايدخلنك ماحييت (مطرِّفي)

فقد كان يعاني من الثورات نفس ماعانت قصور (بغداد) من قتال (الزنج) و(البابكيين) و(القرامطة) ، إلى جانب مكائد غلمانهم واضطراراهم إلى أولئك الغلمان الخلعاء ، ولعل هذه الظواهر في قصور العباسيين هي التي أغرت (أئمة اليمن) بالاستيلاء على العرش العباسي من (الهادي) في القرن التاسع الميلادي إلى (عبد الله بن حمزة) في القرن الثاني عشر الميلادي ، فعلى رغم القلاقل في اليمن فإن طموح (ابن حمزة) وأجداده كان يمتد إلى

(بغداد) ، رغم قصوره عن الامتداد في كل أرض (اليمن) لوجود سلطة الرسوليين الطامعين في امتداد ملكهم من (تَعِزّ) إلى تخوم الشمال وعلى هذا قول (ابن حمزة) :

ولاتحسبنَّ أن صنعاء جلّ مأربتي ولا ذمارِ فَتُشمتني لحسادي
واذكر إذا شئت تشجيني وتطربني كرّ الخيول على أطراف بغدادِ

فهذا شعر (ابن حمزة) لم يشكّ فيه مؤرّخ ، كما شكك الكثير من المؤرخين في أشعار بعض الخلفاء ، وكما يشكك بعض المعاصرين في أشعار بعض الملوك والأمراء المعاصرين أيضاً .

فهل الإمام (أحمد) - في إمارته وملكه - كان شاعراً بالأصالة أو بالنيابة ؟

إلى الآن لم يشكك ناقد في صحة أشعار (الإمام أحمد) وفي حقيقة نسبتها إليه ، باستثناء أرجوزته (إلى العرب) ومطلعها :

نصيحة تهدى إلى كل العرب ذوي البطولات العظام والحسب

لأنه تهجم فيها على الاشتراكية في مطلع الستينات ، فأغضب المثقفين الذين يرون الاشتراكية ديمقراطية الاقتصاد كما يرون الديمقراطية اشتراكية السياسة والثقافة . لهذا ردّ المثقفون على هذه القصيدة ونسبوها إلى المكتب الخاص للإمام للنيل من شاعريته التي كان يعتدّ بها كاعتداده بالشجاعة ، أما سائر قصائده وهو أمير وملك فلم تستثر نقداً ولا نفياً ، ولعل السبب يرجع إلى عادية هذا الشعر أو قلة تفرّده بخصائص مثيرة ، لأن أشعار (الإمام) كلها من الشعر المألوف في الثلاثينات والأربعينات رغم جزالته اللغوية الخطابية ، فقد كان يكتب هذا النوع من الشعر أكثر الأئمة من (الهادي) إلى (يحيى) والد (أحمد) وكانت أغلب أشعار الأئمة حربية أو سياسية أو دينية ، كما تدل قصائد

(الهادي) و(عبد الله بن حمزة) و(الإمام يحيى) ووالده ، ولعل (الإمام أحمد) لم يخرج عن هذا النهج ، فإن أغلب قصائده صحافة منظومة بلغة القواميس ، وقد ألحقه المؤرخون المعاصرون بالشعراء ، وأثبتوا نصوصاً مطوّلة من قصائده ، وكانوا يوردون عدداً من أبيات قصائده كإعجاب بشاعريته وانطلاق أنفاسه ، لأن أغلب أشعار أمثاله من قصار القصائد أو من المقطوعات ، غير أن معظم إنتاجه الشعري من تأثير القلق والغضب والحماس الحربي ، وربما كانت مواقيت الغضب والهيجان أسخى لحظاته الإيحائية ، لأن أشهر قصائده ارتبطت بالأحداث المقلقة والأحداث الدموية ، ولعل أشهر الأحمديات في الثلاثينات تلك الرائيّة العاصفة ، لأنها من إلحاح ظرف عاصف ، فعلى إثر هزيمة جيوشنا في حرض سنة ١٩٣٤م ردّ (أحمد) انكسار الجيوش اليمانية إلى تخاذل والده أو إلى إنصاته إلى استشارة السوء من بطانته وحاشيته ، وعلى هؤلاء صرخ قائلاً :

الله أكبر قم يانافخ الصورِ　　على الخنازير أبناء الخنازيرِ

فهذه غضبة من أشرف الغضبات ، لأنها صيحة الوطن وصدى جراحه ، وإن كان تنديد (أحمد) بالمنهزمين مطوياً على إشادة بانتصار في المناطق الشمالية في حرب الثلاثينات ، فالغضب والقلق أقوى مهيجات شاعرية (الإمام أحمد) ، فقد طارت رائيته في عموم مناطق اليمن وأصبحت عطر الأسمار والمقائل ، لأنها إفصاح عن كل مواطن .

أما تلك قضية الشعب ؟

ألم تضحي كل بيوت اليمن في حروب (تهامة) ؟

وما أمرّ ثمرة التضحية حين تكون هي الهزيمة أو تقبُّلها كواقع ، هذا هو سبب انتشار الرائية الأحمدية التي ظلّت أصداؤها تتردد ، حتى أطلت أحمدية ثانية في عام ١٩٤٨م لكي يستنفر الشعب لثأر والده (يحيى) :

نفس جودي بعبرة وعويلِ . .   واشرحي كيف كان حال القتيلِ

إذن فالإمام (أحمد) شاعر غضب وحرب ، مهما كان مستواه الفني عادياً ، لهذا كانت أشعاره صورة الأحداث التي خاضها وخاضته ، ولعل أشعاره في حرب (بيت الفقيه) أبلغ أداء من التحقيق الصحفي والتسجيل التأريخي ، وربما كانت واقعيته الحرفية هي السبب في تصوير حرب (الزرانيق) وتجلية بطولاتهم من خلال تسجيل بطولته ، إذا تبينّا أن عنف الغضب والقلق أقوى محركات شاعرية (الإمام أحمد) ، فسوف نلاحظ تمرّد (الزرانيق) وقوة اقتحامهم أعنف ماعرف من الوقائع ، وأشد ما أفصح عنه من المرارات الحربية ، فإذا كان في رائيته (الحرضية) هاجياً للانهزاميين ، وإذا كان في رثائه لوالده مستنفراً الشعب ، فإن قصائده (الزرانيقية) أشف دلالة على مخاوفه وعلى مغالبة تلك المخاوف بمعاركة الشعر واستنفار الأبطال ، لأن حرب (الزرانيق) حدثت بعد إخضاع (حاشد) وقبل دحر (الإدريسي) .

فيكف يواجه حرباً شرسة قبل أن يستجمع قواه هذا من جهة ! ومن جهة ثانية فهو مسؤول مباشرة عن (تهامة) لقربها من (حجة) التي كان أميرها .

وهؤلاء (الزرانيق) ذوو صيتٍ ذائع في المهارة الحربية ، وبالأخص في منطقتهم ، كما دلت التجارب (الأحمدية) عندما وجه إليهم حملة من (خولان) بقيادة (حسين بن عبد الرحمن عامر) فأبادوا الحملة وقتلوا القائد ، ومن العجيب أن المؤرخين الرسميين لم يذكروا اسم القائد باسمه بل بوصفه (السيد الفاضل) على حد تعبير (الواسعي) في كتابه (تأريخ اليمن) .

فهل هذا التكتم سرّ حربي أو مغزى سياسي ؟ .

ربما خافت السلطة يومذاك من تجسيم خطورة (الزرانيق) فأغفلت المدوّنات الرسمية اسم القائد ، حتى لايشيع قتل القادة (المتوكليين) ، لأن هذا

يؤثر مباشرة على من والاهم ويبث الخوف في القيادات الجديدة ، لهذا رثى (الإمام أحمد) هذا القائد ، وطغى على رثائه تجسيم الحدث التمردي وتحريض الناس عليه ، لأنه من تدبير (الإنجليز) دون أن يشيد بالقائد أو حتى يسميه ، وإنما ركز على الحدث وسرعة انتشاره كغزوة للبلاد ، كما تقول القصيدة من مطلعها :

الله أكبــر هــذا فــادح جلــلُ	أصاب أهل الهدى من جوره الخطلُ
الله أكبر هـذا الفرق قـد جمعت	أحـزابـه وأتـت كـالنـار تشتعـلُ

تكرار عبارة (الله أكبر) مرتين في المطلع تدلّ على عظمة الهول وخطورته ومواجهته ، وعلى الدعوة إلى الاحتشاد لإطفائه قبل أن يتجاوز مداه ، إذ لم ير (أحمد) هذا الحدث تمرداً قبلياً كسائر الانتفاضات المعهودة ، وإنما تصوره هولاً كالنار قد اجتمعت أحزابه وتألّبت عناصر ناره ، فهو يسميه تجمعاً حزبياً تشبيهاً له بغزوة المدينة ، فصورة الحدث في تصور (أحمد) فوق كل الأحداث التي أَلِفها ، وهذا مااضطره إلى الغضب على قبيلة (حجور) لعصيانها طلبه إلى حرب (تهامة) كما يقول من قصيدة طويلة أثبت (زبارة) في كتابه (نزهة النظر) منها أَحَدَ عَشر بيتاً ، وأضاف أنها تربو على الخمسين :

كلما رمت أن تجود « حجورُ »	بــان خســرانهــا وآل الــدَّبــورُ
قــدِمــوا أولا بجحفــل جيــشٍ	ليــس يــأتــي بــوصفــه التعبيــرُ
ثــم فــرُّوا فــرار قــل وذلٍ	وتنــاهــوا عــن الجميـل فغـوروا
فــأردنــا تعــديــل ذلكــم الميــل	عســى يستــوي لهــم تــدبيــرُ
وأعــدنــا طِــلابهــم وغفلنــا	عــن ذنـوب منهـا الصغيـر كبيـرُ
فتــولّــوا عــن الجهــاد وصــدوا	عـن سبيـل عنـد الملا مشكـورُ

فهذه القصيدة رغم اختلاف موضوعها عن الأول ، تدل على صيت

(الزرانيق) وإفزاعه لمحترفي الحرب ، وربما كان هناك سبب آخر لتخلف (حجور) عن الدعوة (الأحمدية) .

فهل يرجع هذا التخلُّف إلى امتناع المواطنين عن ضرب بعضهم ببعض بقصد الإخضاع لعائلة الحكم ؟

لعل هذا هو السبب الأهم في امتناع (حجور) ، ولاشك أنه نزوع وطني شريف ، وأن هجو (الإمام) لهذه القبيلة امتداح وأعلى قدراً من الامتداح ، ومهما تكن من أسباب هذه القصيدة فإنها تشي بصورة هول (الزرانيق) في نفس (أحمد) ، فقد استفظع خطرهم في القصيدة الأولى ، واشتد في التحريض عليهم في هجو (حجور) لتقاعسهم عن الجهاد .

ألا يدل هذا على عنف الصورة للحرب الزرانيقية ؟

لأن أخبارها التي حملها المنهزمون قد كوّنت صورة متداخلة العناصر مخيفة الملامح ، وبالأخص بعد مقتل أشهر المحاربين (حسين أحمد عامر) .

لهذا كان الإعداد لحرب (الزرانيق) مصحوباً بالرعب ، وكانت صورة ذلك الرعب تتكون من الأخبار المجسمة ، ومن التصور الناشئ عن الأخبار المتزايدة ، وقد دلت أبيات (أحمد) قبل قيادته لحرب (الزرانيق) على استهواله لتلك الحرب لاستقرار صورتها في نفسه وامتداد تصورها من تلك الصورة النفسية ، وعندما دخل غمار المعركة مع (الزرانيق) صور المعارك من الصورة الكامنة فيه ، ومن الصور المتلاحقة على ناظره ، فسجل حربيته وحربية مقاتليه من خلال شكواه واقتحامه لتلك الحرب .

لقد سبقت الإشارة في غير هذا المكان إلى قصيدة (الجاح) التي مطلعها :

صاح إنّ « الجاح » قد أضنى فؤادي   وابتلى جفني بألوان السهادِ

فهذه القصيدة تحمل أمرّ شكوى من خطورة (الزرانيق) والخوف من انتصارهم ، لهذا لم يدوّن أحد هذه القصيدة بعد حرب (الزرانيق) ، وإنما تداولتها الروايات الشفهية حتى طوى النسيان أكثرها أو كلها ، ولعل شهرة هذه القصيدة هي التي جعلت الإمام (أحمد) يسمح بنشر قصيدة لامية وقصيدة ميمية ، كلتاهما تبث بطولته الأسطورية وقياديته الحربية ، وعلى رغم مايقتضي شعر الفخر من تجسيم الدعوى ، فإن صورة بطولة (الزرانيق) تلامحت وتوهجت في الأشعار (الأحمدية) أكثر مما تألق النصر (الأحمدي) ، كما نرى في هذه الأبيات من (اللامية) التي أرادت أن تنسج شكوى (الدالية) الشهيرة وكانت معارضتها مقصودة ، كما كان اختلاف قافيتها مقصوداً لمحو القصيدة الدالية ، لهذا جاء مطلعها مشابهاً لمطلع الأولى مع تعديل بسيط كما نرى :

صاح إن (الجاح) مصداق الفعالِ ... يعرف الأشوس منا في القتالِ
تعلـم الأيـام مَـن أشجعنـا ... وترى الأمضى سرىً تلك الليالي

إلى هنا يفضل (أحمد) شجاعته على شجاعة (الزرانيق) فهو أشرس قتالاً وأشجع وأمضى سرىً كما تعلم تلك الأيام وترى الليالي تلك .

فهل تغيبت صورة (الزرانيق) ؟

إن اسم التفضيل في البيتين يقتضي المشاركة ، فإذا كان المحارب أشجع فإن عدوّه شجاع بالضرورة ، لأن المفاضلة في اللغة هي مشاركة المفضّل على المفضّل عليه ، وإن كان أكثر منه فضلاً ، فإذا كان (أحمد) يرى أنه أشجع فقد شرك خصومه في شجاعته ، وإن زاد في عبارة اسم التفضيل : من أشجعنا ، من أمضى سرىً . . ومع هذا التفضيل وحضور المفضّل عليه ، فإن هذا التفضيل انعكس بعد أبيات من نفس القصيدة :

كلما أعملت في القوم الرَّدى ... طلعوا كالجن من تحت الرمالِ

إذن فلم يمتد التفضيل الحماسي وإنما انعكس على الجانب الآخر ، لأنهم يقهرون الموت أو يولدون من خلال الموت ، وهذا أعلى ضروب الشجاعة لأن الموت الذي يغلب كل أحد ينثني هنا مغلوباً .

ألا تتلألأ صورة البطولة الزرانيقية أبهى وأنضر في الفخر الأحمدي ؟

إذا كانت هذه القصيدة تؤرخ (حرب الزرانيق) من داخل المعركة بطرفيها الأحمدي ، والزرانيقي . . فإن القصيدة (الميمية) سجَّلت كيفية الحرب ، فصوَّرت الكرّ والفرّ والرمي المدفعي والاقتحام الزرانقي على المدفع ، وكان يسمى (السريع) لتلاحق طلقاته ، فلم يسجل المؤرخون عن هذه الحرب كيفية هجوم (الزرانيق) على المدفع وانهزام جيش (أحمد) من حوله ، ومحاولة (أحمد) استرجاع ذلك السلاح لأن هذا التسجيل سيشكل خروجاً عن الترجمة الرسمية أو عن الدعاية المحددة للتأريخ الرسمي فاكتفى المؤرخون بالإشارات إلى محاولة (الزرانيق) لأخذ المدافع ، فكانت قصيدة (الإمام) أصدق من ذلك التأريخ ، لأن تقاليد الشعر الحربي لاتتجاوز شجاعة العدوّ المحارب ، لأن إثباتها يثبت في نفس الوقت شجاعة من يحارب ، فلا قيمة للشجاعة مالم تكن مع شجاع ، لأن الانتصار على الجبان كالجبن ، وقد صدر (أحمد) عن التقاليد الشعرية ، فسجل بطولته وبطولة محاربيه ، لكي يدلل على فروسيته الحربية ، وبهذا تألّقت شجاعة (الزرانيق) على لسان عدوهم في ذلك الحين ، كما تقصّ القصيدة :

ولما رأيت الجيش قد فلّ حدهُ	وقد رجع الأعقاب بعد التقدمِ
ونادى باسمي المستجير من الردى	لإدراكه والشرّ في الناس ينتمي
وقد تركوا ذاك (السريع) بمهمةٍ	وحيداً عن الجيش الخميس العرمرمِ
كررت بطِرف يسبق الطير إن عدا	جواد كريم الأصل غير منعمِ

فجالدت أعداء الإله بجمعهم وكانوا أحاطوا كالسوار بمعصمي
ودافعت عن ذاك السريع فحزته وقد كان للأعداء أكبر مغنمِ
فكم أسد شاكي السلاح مجربٍ ؟ يصول بسيف صارم لم يثلَّمِ
ينازعني، أخذ السريع ومادرى بأن السريع الطول في كف ضيغمِ
وكم بطل يومي إليَّ بكفه أن أقدم إلى نحوي لموت محتَّمِ
فصدرت في صدري القناة فأمطرتْ عليه رصاصاً في البنان المنعَّمِ
وولى وقد قطَّعت كل بنانه وألبسته بالقطع تاجاً من الدمِ
وكم أحمق في الناس لايعرف الهدى ولا الدين إلا بالفناء المحتَّمِ
فلم يبلغ الأعداء بعض مرادهم وقد صلت فيهم بالجسام المخرَّمِ
ولما رأوا بأسي ترامَوا إلى الورى وفرّوا حيارى من سناني وأسهمي

هذه قصيدة تفصيلية لدوران الحرب وكيفية هذا الدوران ، كما أنها صورة الاقتتال على المدفع السريع ، لأنه حقق الغلبة لأحمد فأراد (الزرانيق) الاستيلاء عليه لكي يتمكنوا من النصر ، وكان (أحمد) يعرف قيمة المدفع كالزرانيق ، لأنه أهم أداة وبالأخص في حرب على بساط رملي .

فهل تلامعت صورة الزرانيق ؟

لقد أبدعوا أقصى درجات الشجاعة لاستلابهم المدفع من أيدي رماته ، كما كان استرجاعه أقل مغامرة ، لأنه في أيدي محاربين لايحسنون استعماله .

فهل قصيدة (أحمد) تجلو حربيته أم حربية الزرانيق ؟

رغم الادّعاء فإن القصيدة تجلو الصورتين ، لأنها رددت الاعتراف الحرفي بالبسالة الزرانيقية : أولاً بانهزام الجيش الأحمدي بعد التقدم ، ثانياً لإحاطتهم بأحمد وهو يركب أطيش مغامرة :

ولما رأيت الجيش قد فلّ حدهُ وقد رجع الأعقاب بعد التقدمِ

هذا تسجيل حرفي للانكسار (الأحمدي) والاقتحام الزرانيقي وهو في نفس الوقت تفصيل مستقص لما أوجز المؤرّخون ، أو لما اكتفوا عن تفصيله بالإلماح . .

وهناك تسجيل مماثل للالتحام :

فجالدت أعداء الإله بجمعهم ‏ ‏ وكانوا أحاطوا كالسوار بمعصمي

لولا هذا الهجاء مثل عبارة (أعداء الله ، والشرّ في الناس ينتمي ، وكم من أحمق في الناس لايعرف الهدى) ، لولا هذه العبارات الدّالة على التعالي لكانت القصيدة كلها من جملة أدب الحرب الذي يتقصّى موقف الخصم وموقف خصمه ، لأن مجد الشجاعة يتكوّن من شجاعة الطرفين ، كما دلّت كل قصائد الحرب ، ولعل قصيدة (أحمد) أقرب إلى (ميمية عنترة) في الأغراض العامة الحربية ، وإن كان بحرها الطويل ينميها إلى (معلقة زهير) السَلمية ، غير أن (العنترية) أغلب على معجمها ، من مثل : وكم من أسد شاكي السلاح ، وكم بطلٍ : أما ردد أمثال هذا « عنترة » كما يقول ؟

ومدجج كَرِه الكماة نِزَالَهُ ‏ ‏ لاممعن هرباً ولامستسلمِ
جادتْ له كفي بعاجل طعنةٍ ‏ ‏ بمثقف صدق الكعوب مقومِ
فشككت بالرمح الأصمّ ثيابهُ ‏ ‏ ليس الكريم على القنا بمحرمِ

فكما يصف (عنترة) بالكرم ، فإن (أحمد) يصف (الزرانيق) بأنهم أسود وأبطال ، لأن هذه تقاليد شعر الحرب ، حتى أن الشاعر الجاهلي (عبد الشارق بن عبد العزى الجهني) وضع قومه في كفة وأعداءهم في كفة ، بلا تبجح وبلا ادّعاء كما تقول هذه الأبيات :

تنادوا يالبهثة إذ رأونا ‏ ‏ فقلنا أحسني ضرباً جُهينا
سمعنا دعوة عن ظهر غيبٍ ‏ ‏ فجلنا جولة ثم ارعوينا

فلمــا أن تــواقفنــا قليــلاً	أنخنـا للكـلاكـل فـارتمينـا
فلمـا لـم نـدع قـوسـاً وسهمـاً	مشينـا نحـوهـم ومشـوا إلينـا
فـآبـوا بـالـرمـاح مكسـراتٍ	وأبنـا بـالسيـوف قـد انحنينـا

ولعل عبارة تكسير الرماح وانحناء السيوف أبدع تلميح إلى كثرة القتلى والجرحى من الجانبين ، فهذه شهادة عادلة لقوم الشاعر وأعدائهم : في حركة القتال وفي تساوي الوثبات وفي تعب المقاتلين والأسلحة ، ومثل هذا جملة أشعار (الإمام أحمد) في (حرب الزرانيق) ، فإن قصائده الثلاث صورة للمعركة على امتدادها الزمني ، وتأريخ من داخل الميدان ورجاله . في القصيدة (الدالية) تشكّى الضنى والسّهاد من شراسة المعركة وعنف المقاومين .

في القصيدة اللاميّة توزع (أحمد) بين ادّعاء النصر وبسالة أعدائه (الزرانيق) .

وفي القصيدة (الميمية) طغى عليه الحسّ (الإمامي) ، فمزج وصف بطولة أعدائه بالهجاء الديني : « فجالدت أعداء الإله بجمعهم » ، وإن كان هذا الهجاء لايخرج القصيدة كلياً من تقاليد أدب الحرب بدلالته على شرف العداوة وتكريم العدو المحارب ، والغائب في كل هذه الأشعار هو حسّ الحاكم بمسؤوليته نحو المحكومين ، والتساؤل عن أسباب التمرد باعتباره أصدق الصور على سوء أوضاع الحكم ، إذ لايشتعل التمرد إلا على أوضاع فقدت صلاحية البقاء أو قدرة التسيير ، ومهما تغيبت هذه العناصر الهامة في أشعاره عن حرب (الزرانيق) ، فإنها الوثيقة التصويرية الوحيدة لمسيرة تلك الحرب مدة عام ولكيفية دورانها واستماته رجالها من الجانبين ، فقد شكّلت هذه الأشعار لوحة ميدانية ، تناسجت من التصوّر (الأحمدي) ، ومن الصور (الزرانيقية) ، فكانت هذه الأشعار (الأحمدية) على عاديتها كالتقارير العسكرية عن تلك المعارك الضارية .

وبهذا أرّخ تلك الحرب عن وعي شعري وعن حسّ (إمامي) فعرفنا اليوم عرضاً تفصيلياً عن حرب (بيت الفقيه) ، والذي عزّ على التسجيل هو الصوت (الزرانيقي) إلى جانب الصورة فكيف سجّل الزرانيق تلك الأحداث صوتياً ؟

لاشك أنّ لهم أراجيزهم القتالية ، وصيحاتهم التقليدية للهجوم والانسحاب والتجمّع والإغارة والمباغتة ، وهذه إلى الآن تنتظر التدوين فتعزز الشعر (الأحمدي) كتأريخ مكتوب أو مصدرٍ لمؤرخي هذا العصر ، لكي يتابعوا تطور الحركات واختلافها النسبي عن حركة تنصيب (إمام) في وجه (إمام) حتى تطور هذا التحرك إلى خلق مناخ لنشوء التنظيمات السياسية المعارضة في أول الأربعينات ، كما سوف يتقصّى هذا فصل خاص بحركات الفصائل الثورية .

* * *

الفصل الثالث

التفجرات في الشطر الجنوبي

١ـ معركة (عَدَن) ضد اليهود .
٢ـ التحولات في الشطر الجنوبي . . وأشباهها في الشطر الشمالي .

معركة (عَدَن) ضد اليهود

في شهر يناير من عام ١٩٤٨م ردّدت الأنباء في شمال الوطن أصداء معركة (عدَن) بين المواطنين واليهود ، وكانت الأخبار ترحل مع المسافرين الذين كان يستغرق رحيلهم من عَدَن إلى صنعاء أياماً خمسة بسيارات النقل ، فكان للحادثة عدة تجسيمات وأكثر من وجه وشكل ، كعادة الأخبار التي يحملها الراحلون عن مشاهدة أو سماع فإنهم يجسمونها ويضيفون إليها لكي يعقدوا الأسماع إلى شفاههم . لأن تكرار الرواية يحلّي طولها لجمهرة السامعين من مكان إلى آخر ، وبالأخص في ذلك الوقت لأن أناسه كانوا شديدي التعطش إلى التغيرات والأخبار عنها نتيجة استماعهم إلى المذياع المحدود الانتشار ، روى بعض المسافرين أن القتال امتدّ أسبوعاً كاملاً ، وروى البعض أن المعركة لم تتجاوز يوماً وليلة ، وروى البعض الآخر أنها امتدت ست ساعات ثم تلتها مناوشات ليلية ، ويؤكد البعض أنها امتدت ثلاثة أيام ، أما صحيفة (فتاة الجزيرة) فكتبت عن الحدث تحت عنوان (معركة القوارير الفارغة) ، لأن المقاتلين استعملوا الحجارة والعصي ، وكان أفتك سلاح هو القوارير الفارغة ، وهذا ماأشار إليه المسافرون ، إلا أنهم أضافوا إلى الخبر تعبئة القوارير بالحصى والمسامير والنفط ، ولاشكّ أنّ مسافري الشمال وأغلبهم من التجار جسّموا أخبار المعركة إلى أقصى حدّ لكي يثيروا القلق والخوف بتعطيل التجارة ، وبهذا ترتفع الأسعار لكون (عدَن) المصدر الرئيسي للبضائع في ذلك الحين هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن ذلك الحدث كان مفاجئاً أو غير معهود ، لأن الناس ألفوا اليهود في الشمال موادعين مسالمين يتقبلون الإهانة من بعض المتعصبين ولا يردون

على الشتيمة بمثلها أو دونها ، لكونهم (ذميين) لهم حق الرعاية وليس لهم حق الندية وإن كان لهم حق الإنصاف قضائياً وجنائياً كسائر المواطنين ، وهذا ما أظهر الفرق بين اليهود تحت حكم الإمام وتحت حكم الاستعمار ، فقد كانوا تحت حكم الإمام مميزين بفتل شعر جانبي الرأس المسمى (بالزنانير) ، كما كانوا مميزين بلباس خاص بهم ، كما كانوا يسكنون أحياء بعيدة عن المدائن وبيوتاً منفصلة عن القرى ، وهذا التمييز يرجع إلى بداية القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي حين سنّ (المتوكّل العباسي) لليهود لباساً خاصاً وشارات معينة تمنع تشابههم بغيرهم وتبدو لهم سمة إذلال ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صٰغِرُونَ ﴾ بحكم الآية من سورة (براءة) . . وفي آخر هذه الحقبة التي سنّ فيها (الخليفة المتوكل) أزياء اليهود ، قامت الدولة الزيدية في اليمن بزعامة (الهادي يحيى بن الحسين) ، فمدت تلك التقاليد وأضافت إليها من منظورها المذهبي : فاعتبر المذهب الهدوي اليهود مُصاني الدماء والأعراض والبيوت والكنائس والمقابر كسائر المواطنين مالم يحاربوا ، كما رأى المذهب الهدوي (الجزية) التي يدفعها (اليهود) من الحقوق الخاصة بالإمام الذي لايجوز له الأكل من الزكاة ولاتضاف الجزية إلى المال العام باعتبارهم تحت ذمته وباعتبار جزية اليهود غنائم للإمام أو لاحقة بالغنائم ، وكان (اليهود) يشغلون أكثر الحرف الحيوية ، وكان مايدفعون أقل مما يدفع المواطن من زكوات وضرائب مواشي وإبل ، فكان (اليهود) أقل دفعاً وأكثر نفعاً لنشاطهم واقتدارهم على مختلف المهن بما فيها المهن الوضيعة ، إذ كان تنظيف المراحيض لكل بيوت المدائن مفروضاً عليهم مقابل أجر عال من أصحاب الحمّامات العامة الذين يستهلكون تلك المادة للتسخين . أما الّذين كانوا يدخلون في الإسلام فيحصلون على مرتب بدون عمل ويتميزون بألقاب إيمانية كالمهتدي والموفق والمسلماني وذلك على طريقة تغيير أسماء المواليد في الجاهلية من الصحابة ، هكذا كان (اليهود) في شمال الوطن ، وهذا ما أثار استغراب الشماليين من رفع اليهود

السلاح على العدنيين فيُ آخر الأربعينات ، لأنهم قاسوهم على يهود الشمال رغم اختلاف وضعهم في (عَدَن) وفي كل الأقطار المستعمَرة ، إذ كانوا فيها كالمواطنين يدرسون في نفس المدارس ويتجاورون بيوتاً ومتاجراً ، ولعل اليهود في (عدَن) كانوا أكثر سلطة في ظل الاحتلال ، بل إنهم شكّلوا طابوراً خامساً من أول حملة بقيادة (هينس) عام ١٨٣٩م ، وعلى امتداد عهد الاحتلال للشطر الجنوبي كان (اليهود) أهم القوى بيد الاستعمار البريطاني لدرايتهم بالمواطنين وبأمكنة تحركهم ضد الاحتلال . . صحيح أن الشرطة كانوا من الهنود وكانوا أكثر الجاليات عدداً ، وتليهم الجالية (الصومالية) ، ثم جماعة اليهود وهي أكثر من غيرها تنظيماً وكانوا يحترفون الجاسوسية ضد المواطنين من أيام معركة (صيرة) حتى سفرهم إلى (فلسطين) ، ولم يكونوا يوماً مواطنين يحسّون الوطن ومصالح كل فئاته ، فقد كانوا يعرفون كم في (صيرة) مدافع تقاوم السفن الحربية الانجليزية يعرفون أيضاً أن مدافع اليمنيين غير متحركة فيمكن إسكاتها أو تفويت طلقاتها باقتراب السفن من قلعة (صيرة) أو ابتعادها عن مرمى المدفع ، لأن المدافع اليمنية كانت من النوع الثابت وذات المدى المعروف عند المحاربين ومع هذا قاتل أهلها ودفعوا أبهظ الأثمان من الأرواح . لما احتلّ الانجليز (عدَن) وقعت تحت السيطرة ، وكانت المقاومة تتأجج خارج (عدَن) وتتجمع من مناطق الشمال والجنوب ، لكي تطهر (عدَن) وكانت هجمات المقاومة ترتد منكسرة لقوة حصانة عدَن وحداثة السلاح الذي يستخدمه جيش الاحتلال ، ونتيجة للمقاومة اليمنية مدّ (يهود عدَن) جسور الصلات بينهم وبين يهود الشمال أو زادوا من تقوية تلك الصلة ، وحاولت غرفتهم التجارية أن تحوِّل التجارة من (المخاء) إلى (ميناء عدَن) .

ألا يختلف يهود عدَن عن يهود الشمال ؟ حتى ولو كانت لهم نفس النوايا والأهداف الصهيونية التي بلغت ذروتها يومذاك ، فإن يهود الشمال كانوا أكثر

احتياطاً وتستراً بحكم ذميتهم ووجوب قتالهم إذا أشهروا السلاح ، فهم تحت الذمّة مالم يحاربوا ، ولعل هذا الإخضاع وصورة الخضوع له قد مكّن يهود الشمال من التواصل السري بينهم وبين يهود (عَدَن) ، فكانوا يتحرون أخبار الشمال ويثيرون القلاقل في (إمارة المخا) . . وقد لاحظ المواطنون في الشمال احتجاب اليهود في بيوتهم أيام (معركة عدَن) ، وهذا يدلّ على درايتهم بالحادث قبل أن يسمع أحد في الشمال عنه ، ولم تصل الأخبار إلى (صنعاء) إلا بعد خمسة أيام من احتدام المعركة ، ولم يكن في (صنعاء) أو (عدَن) مذياع في ذلك الحين ، والذين سمعوا عن إذاعة لندن كانوا من الخاصة لم يهتموا بالخبر كثيراً لأن الشطر الجنوبي عندهم كأي بلد مجاور ، وربما كان الخبر سريعاً في النشرة أو جانبياً ، لأنهم لم يجعلوا منه مادة حديث المجالس إلا بعد أن هوّل الخبر المسافرون وأكدوا سقوط قتلى من العدنيين .

فما دلالة معركة عدَن ؟

لقد كانت خلفية لمعركة التحرير التي نجمت في الخمسينات وتوالت انفجاراتها في الستينات حتى التحرير في عام ١٩٦٧م ، فالمعركة مع اليهود أول معركة في قلب عدَن ، لأن كل الهجمات المقاومة كانت تنكسر حول عدَن ، فكان القتال مع اليهود أول انفجار من صميم عدَن .

فهل هذه معركة وطنية تحررية ؟ ما في ذلك شك ، غير أن اقتصارها على اليهود وعدم امتدادها إلى حماتهم من المحتلين الإنجليز في ذلك الحين ، روّج لتلك الإشاعة التي وصلت إلى مركز البحوث الفلسطينية ومؤدى تلك الإشاعة أن مهاجمي اليهود في عدَن صدروا في عملهم عن تحريك من الإنجليز ، لكي يعجّلوا سفر اليهود إلى فلسطين ، ولايشابه هذه الإشاعة إلا إشاعة مماثلة ردّدت : أن (الإمام يحيى) جمع اليهود وخطب فيهم معلناً حريتهم في السفر وحقهم في بيع بيوتهم وأثاثهم ، وهذه الإشاعة أكثر بطلاناً من سابقتها ، لأن

(الإمام يحيى) لم يكن من الخطباء ، ولا عهد معاصروه هذا عنه ، بل الذي عهدوه عنه أمر بإرسال جيش إلى فلسطين قبل اغتياله في شباط عام ١٩٤٨ هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فإنه كان (هدوياً) متشدداً ، والمذهب (الهدوي) - منذ أسسه الإمام الهادي - يرى بيوت اليهود وأموالهم مردودة إلى (الإمام) إذا نزحوا عن البلد وقد كاد (الإمام أحمد) في الخمسينات يصدر أمراً بتسليم إيجار بيوت اليهود من الذين اشتروها باعتبارها من الغنائم الإمامية ، ولم يسكت عن هذا الحق المذهبي إلا خوفاً من مشاكل الصنعانيين ، لأنه لم يثر قضية بيوت اليهود إلا بعد أن سكنها نحو عشرة آلاف عائلة ، بعضها من ذات الخطر ومن ذوات القرابة إلى الإمام .؟

فما مصدر الإشاعتين ؟

لعل إشاعة معركة (عَدَن) بأنها من تدبير الإنجليز مأخوذة بالقياس على أحداث العراق ضد اليهود ، أيام كان العراق رازحاً تحت الوطأة الإنجليزية ، ولكن ما أعظم الفرق بين قتال العدنيين لليهود ، وبين أحداث العراق ضد يهوده ، لأن (معركة عَدَن) نشبت جهاراً ودارت من بيت إلى بيت أياماً أو يوماً وليلة على اختلاف الروايات ، وكان اليهود هم الذين بدأوا العدوان بضربهم المواطن (إبراهيم مقبل) حتى الموت في قلب (كريتر) . أما أحداث العراق فكانت مقصورة على تفجير ألغام في بعض بيوت اليهود وربما استهدف التفجير بيوت المتمردين على السفر إلى فلسطين ، وقيل إن تلك التفجيرات من عمل الإنجليز أو من إيحائهم . لأن يهود العراق كانوا يتعلمون كالعراقيين زيادة على تعلم اللغة العربية بكل فروعها .

فهل ينطبق هذا القياس على معركة عدَن ؟

لقد أشارت السطور السابقة إلى دور اليهود في خدمة الاحتلال وانتفاعهم

في ظلِّه ، لهذا تخمَّر حقد المواطنين ضدهم على طول فترة الاحتلال كعملاء وأصحاب امتياز تجاري ، وكانت معركة ١٩٤٨م بين العدنيين واليهود ذروة الانفجار الوطني ضد مخالب المحتلين وجواسيسهم ، لكي ينفسح الميدان للنضال الشعبي ، لأن زوال الجواسيس أو إرهابهم أهم عوامل التخطيط السرِّي ضد المحتلين .

ألا يمكن تفنيد تلك الإشاعة التي نسبت معركة (عدَن) إلى التدبير الإنجليزي ؟

لقد اعتبرها العدنيون ضد الانجليز مباشرة ، وكان يهود عدَن عازمين على السفر إلى فلسطين بدون ذلك الحادث ، لأنهم شكَّلوا لجنة منهم لجمع اليهود من أنحاء جنوب الوطن وافتتحوا في (عَدَن ولحج والظالع) ثلاثة مخيمات لاستقبال يهود الشمال ، وكان هذا الإعداد قائماً من منتصف عام ١٩٤٧ م أي قبل معركة عَدَن بشهور ، أما الإشاعة عن خطبة (الإمام يحيى) إلى اليهود ، فلعل أسباب ترويجها آتية من موافقته لليهود ببيع بيوتهم وسائر ممتلكاتهم شرط أن يعلِّموا الحرفيين من (صنعاء) أهم مايحترفون ، وبالأخص صياغة الذهب والفضة والنحاس وصناعة الصابون والمفروشات وإصلاح الساعات ، وكانت هذه الموافقة المشروطة خاصة بيهود (صنعاء) لكونها العاصمة الأكثر استهلاكاً .

إذا كان لإشاعة خطبة الإمام مبرر آت من موافقته لليهود ببيع أموالهم ، فلا مبرر لإشاعة ثورة العدنيين بأنها من تدبير الإنجليز ، لأن تلك الانتفاضة ضد اليهود كانت ذروة تمخضات فترة الاحتلال ، فكانت خاتمة تمخضات وبداية تمخضات أعنف ، فمن بداية الخمسينات إلى مطلع الستينات تلاحقت الانتفاضات ضد الإنجليز في عدة أشكال ، بعضها مسلّح وبعضها غير مسلّح ، فقد كانت الاضرابات والإحتجاجات والمظاهرات تجتاح (عدَن) آناً بعد آخر ، كما كانت الأعمال المسلحة تشب وتخبو ، وكانت الصحافة الوطنية – وبالأخص

صحيفتي (العمّال) و(اليقظة) - تتبع أخبار الإضرابات والمظاهرات وتنشرها في أبرز صفحاتها . فكما كانت المعركة ضد اليهود خلفية لأحداث الخمسينات ، تحولّت أحداث الخمسينات بأشكالها المتعددة إلى خميرة محلية لأحداث الستينات ، وعززت هذه الخلفية خلفية أهم : هي قيام ثورة الـ ٢٦ من سبتمبر عام ١٩٦٢ م في صنعاء .

من هنا اختلف الدور ، فأصبحت (صنعاء) و(تَعِزّ) منجم ثورة الشطر الجنوبي ، بعد أن كانت (عَدَن) في الأربعينات والخمسينات ملجأ أحرار الشمال . . بعد ثورة ٢٦ من سبتمبر تأكّد شروق تحرير الجنوب ، فلم تمرّ سنة على ثورة سبتمبر حتى اتّقدت ثورة (ردفان) في أكتوبر عام ١٩٦٣ م وواصلت الثورة زحفها إلى (عدَن) حتى دخلتها عام ١٩٦٤ م ، وكان الاحتلال البريطاني لايرى في ذلك خطراً على (عدَن) عاصمة الاتحاد السلاطيني ولاخطراً عليه مادامت الثورة بعيدة عن (عدَن) ، وكان يرى اقتداره على صد الهجمات عن عدَن وعلى منع الانتفاضة من داخلها ، لأنها عنق الزجاجة على أي تحرك وطني ، فلم ينجم فيها أي حادث دموي غير معركة العدنيين ضد اليهود ، وبعد أيام أثبتت الأحداث سوء تقدير الإنجليز إذ تضافرت القوى المحاربة في الريف والقوى السياسية في (عدَن) فتأججت المظاهرات الطلابية والعمالية وقاومت الأحزاب على اختلافها فكرة الاتحاد السلاطيني ، وكانت (عدَن) تستغل الديمقراطية الشكلية إلى أقصى مدى ، فتعدّدت فيها النقابات والاتحادات والتنظيمات ، ومن بداية ١٩٦٢ م انصهرت كل هذه الاتحادات والنقابات والتنظيمات بالثورة ، وتوثّق التعاون بينها وبين المحاربين ، فقام كل فصيل بدوره النضالي : الاتحاد النسائي إلى جانب الاتحاد الطلابي ، والاتحاد العمالي إلى جانب نقابتي الصحفيين والأطباء ، وعلى قلة عدد هذه النقابات والاتحادات فإنها كانت تتكاثر بانصبابها معاً في المجرى العام للثورة ، حتى انتقلت هذه

الفصائل من شوط المظاهرات والمقاومة السلمية إلى حرارة الإيجابية المسلحة ، فتمكن الثوار المحاربون من دخول (عدَن) عام ١٩٦٤م ، وكان دخولهم من (كريتر) حيث اشتعلت معركة آخر الأربعينات ضد اليهود .

من ذلك الحين : أي ١٩٦٤م اتّقدت شوارع (عدَن) بالقتال لأن عنق الزجاجة تحطم بفوران دخائلها ، حتى ركب الإنجليز رؤوسهم ، فاستعجلوا التعزيزات وظنّوا أنهم بحصارهم (لكريتر) قادرين على إخماد الثورة التي تجمعت من شتى أنحاء الجنوب ، ولكنهم أخفقوا بعد أيام من الحصار ، إذ امتدّ القتال إلى (خور مكسر) و(المعلاّ) واشتجرت الشوارع والمحتلين من ٦٤ إلى ١٩٦٧م .

هناك ارتفعت راية الحرية ، وانجلى الاستعمار ، ولعل معركة (كريتر) في آخر الأربعينات كانت أول خيوط التجربة لدخول الفصائل الثورية إلى (كريتر) بعد ١٦ عاماً من اندلاع الانتفاضة على اليهود .

فهل تتجزأ المعركة التحررية ؟ وهل تنفصم حلقاتها ؟ . . .

إن مقاومة جواسيس المحتل كمقاومة الاحتلال نفسه ، ولم تكن تلك المعركة بمعزل عن تيار الثورة التي اشتعلت من أول الخمسينات ، ورفعت أعلى شعلاتها عام ١٩٦٧م .

إذن فمعركة آخر الأربعينات كانت خاتمة شوط وبداية أشواط ، وكانت ذروة تمخض قرن كامل وكانت بداية للمعركة الفاصلة بين الوطن ومحتلّيه ، حتى تحقق الجلاء وجنت الثورة أحلى ثمارها عام ١٩٦٧م بعد مرارة ١٢٩ سنة من الاحتلال ، وكانت كل هذه الفترة على تطاولها مليئة بالمقاومة الدائمة والتضحية المستمرة ، وكل هذه الانتفاضات في وجه الاحتلال من يوم غزوه ، أو إبان إقامته ، خيوط ضوئية متواشجة الحلقات متلاحقة الأقباس ، وكانت معركة ٤٨

أعلى نقطة بين فترة الجهاد الديني ضد (الكفار) ، وبين القتال الوطني ضد الاستعمار وعملائه ، ومن العجيب أن مؤرخي الأحداث لم يحلّلوا معركة ٤٨ كبداية ثورية وكحدث تأريخي ، وإنما يشير إليها البعض ويتجاوزها البعض ، مع أن تأريخ الوطن يتكوّن من جملة الأحداث ، ومع أن الأحداث الكبيرة تصعد من جمرات الأحداث الصغيرة وتتعملق من نثار خيوطها ، مهما اختلفت هويات الأحداث الصغيرة ، فإنها أخصب الأرومات لعظائم الأحداث الوطنية ، باعتبار الوطن كلاً يتألف من كل بنيه ، كذلك الأحداث الخلاّقة تتألف من : الأعمال الفجة ، من الانتفاضات الآنية ، لأن هذه التحركات تخصّب المناخ ويؤدّي كل عمل إلى عمل أكبر بفعل التطور الاجتماعي والنضج الثوري .

إنّ حركة (عدَن) ضد اليهود أروع ختام لفترة ، وأخصب ابتداء لفترة أحفل بالتغيرات ، وبالأخص إذا لاحظنا زمنها ، وما كان ينطوي عليه من تغيّرات وكوارث ، ففي ذلك العام انتفضت (صنعاء) وأعلنت حكم الدستور وسقوط ذلك الحكم ، وكان هذا الحدث بعد شهر من الانتفاضة العدنية ، كما كان ذلك العام عام احتلال فلسطين . .

فإذا كان عالم مابعد الحرب العالمية الثانية بداية عصر التغيّرات ، وبداية تعدد العوالم ومعسكراتها ، فإن عام ٤٨ أهم صفحة في سجل هذا العصر بالنسبة إلى حركات بلادنا ، ولاشك أن كل حدث مهما كان جزئياً أو آنياً ينتزع أهميته من آنه ، ومما يترتب عليه من مغايرات لما قبله ، لكي يخلق مستقبلاً .

فمعركة (عَدَن) ذات أهمية خاصة ، ومن حيث هي نقطة تحوّل ومن وقوعها في ذلك المتغير والمؤذن بالتغير الأشمل ، وبما أغصن عنها من أحداث توالى اتّقادها حتى تحرر اليمن بشطريه ، وكانت ثورة الشمال والجنوب ثورة الشطرين ، فكما قاوم الشطران الاحتلال والاستبداد ، قاوما أعداء الثورة وأصدقاء التجزئة وكان لهذا الصراع انتماء إلى توق الأربعينات ، فليس من

المصادفة أن تتفجر ثورة (صنعاء) وانتفاضة (عَدَن) في مستهل عام ٤٨ ، وإنما كان ذلك الانفجار وتلك الانتفاضة من صنع التوق الاجتماعي ، ومن فعل التمخّض الأحداثي لكي يصل التطور التأريخي إلى عهد الجماهير وعصر سلطة الجماهير في شمال اليمن وجنوبه ، كما دلّت التغييرات المتلاحقة بعد انبلاج الثورتين وإن اختلف نوع التغييرات وتنويعها وأسبابها ومعاكسات سببيّاتها .

* * *

التحولات في الشطر الجنوبي وأشباهها في الشطر الشمالي

لاتمنع واحدية (اليمن) من وجود ملامح اختلاف في صور الأحداث وفي منابعها ومصباتها ، وذلك لاختلاف الوضعين سياسياً ، ولبعض الاختلاف في أنماط الثقافة ، إذ كانت الثقافة المعاصرة أوفر في عاصمة الشطر الجنوبي من مطلع الثلاثينات إلى بدء الستينات ، على حين كانت الثقافة التراثية بجوانبها الفقهية والفكرية والأدبية أغلب على الساحة في مدائن الشطر الشمالي من مطلع العشرينات إلى منتصف الخمسينات ، فما تبدى من تشابه في أحداث الشطرين فمردّه إلى طبيعة الفترة ، وماتبدّى من اختلاف فمرجعه إلى اختلاف الوسائل والأغراض ، فالتشابه لايعدم الفروق كما أن الفروق لاتعدم وجوه شبه كما تدل ظواهر الأحداث وغاياتها من الحدوث .

تشكّل في الشمال تنظيم (هيئة الأمر بالمعروف) وكان يبتغي إصلاح السلطة وتنظيم أعمالها ونهي المنكرات أيّاً كانت أسبابها ، ثم تحول إلى حزب سياسي من مطلع الأربعينات إلى قبل غروبها ، وكان يتوخّى انعدام الفردية : إما بتنازل (الإمام يحيى) عند رأي الشعب ، أو مقتله وإقامة نظام دستوري . . تشكّل هذا التنظيم في الشمال في مطلع الأربعينات ، ثم نقل مواقعه إلى (عَدَن) عام ١٩٤٤م ، ومن هناك دعا إلى الإصلاح السياسي ، ولم تنته العلّة إلا بموت العليل ، فلم يتنازل (الإمام يحيى) لدعوة الإصلاح السياسي ، وإنما تنازل عن كل سلطاته قتيلاً بنار البنادق عام ١٩٤٨م وقام حكم الدستور . . ولعدة أسباب

وردت في غير هذا المكان سقط حكم الدستور الذي قام في أول شباط وسقط في أول مارس واستضاف القتل والسجن قادته ، واستأنفت (الإمامة) الوراثية سيرتها في شخص (الإمام أحمد) وابنه البدر إلى ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م وفي هذه الفترة أي من آخر الأربعينات إلى أول الستينات كان الشطر الجنوبي يتطور نسبياً فيفتح النوادي الأدبية ويصدر الصحف الأكثر انتظاماً من صحف الشمال لأن أغلبها نقابية ، ومن الملحوظ أن التنظيم الذي أخفق في (صنعاء) بسقوط الدستور أثَّر في الشطر الجنوبي ، فتشكل في مطلع الخمسينات تنظيم (رابطة أبناء الجنوب) ، وكان هذا التنظيم يشبه الدستوريين بصنعاء ، كلا التنظيمين ركَّز نشاطه في شطر واحد : (الدستوريين) ركَّزوا على الشمال وسمَّوه اليمن كما يشير عنوان صحيفته (صوت اليمن) ، (والرابطيون) ركزوا على الجنوب كما دلّت تسميتهم وبرهنت أطروحاتهم رابطة أبناء الجنوب .. وكان هناك تشابه ذهني بين التنظيمين : أراد (الدستوريون) شوروية الحكم ودستورية النظام ، وأراد (الرابطيون) تحقيق الحكم الذاتي للجنوب لكي يكونوا حاكميه تحت إشراف الاستعمار .. ولم يركّز أحد التنظيمين أو كلاهما على الاستعمار الاقتصادي أو على الاقتصاد الوطني أو على الديمقراطية السياسية ، كان الرابطيون يحاولون تخفيف وطأة الاستعمار لاكتساب شعبيتهم ، وكان الدستوريون يرون غياب الاستعمار عن الشمال سبباً في تخلّفه ، أما من وجهة السياسة المحليّة فكلا التنظيمين إصلاحي وكلاهما غير وحدوي وغير كفاحي : قصر الدستوريون اسم اليمن على الرقعة الممتدة من (صَعْدة) إلى (قعطبة) كما برهن محتوى صحيفتهم (صوت اليمن) وسمى الرابطيون الشطر الجنوبي (الجنوب العربي) تناسياً ليمنيته هذا وجه التشابه ، أما وجوه الاختلاف في الوسائل والغايات فمردُّه إلى اختلاف المستهدف .. كان يستهدف (الدستوريون) حكماً محلياً على رأسه (إمام) توّجته البيعة الشرعية ورشّحه نضاله ضد (الأتراك) لحمل ذلك التاج واستحقاق البيعة من أهل العلم والرأي ،

على حين أراد (الرابطيون) مجرد الحكم الذاتي في إبان التفجّر على الاستعمار مستعينين بالإمام (أحمد) الذي أراد - بعد محاولة انقلاب ١٩٥٥ ضده - أن يتبنى نضال الاستعمار متَّهماً محاولة الانقلاب بصلة أمريكيّة . . فمهمة (الرابطيين) في الخمسينات أسهل من مهمة (الدستوريين) في الأربعينات لأن الشعب كان معهم لو كانوا معه ، أما (الدستوريون) فكانوا ضد (الإمام) وكانت ضدهم غالبية الشعب ، بدليل تجمهره لإسقاطهم في مارس ١٩٤٨ .

في الخمسينات تشابه التنظيمان واختلفا ، إذ تطور الدستوريون من (الجمعية اليمينية الكبرى) إلى (الاتحاد اليمني) ، وأصبحت (القاهرة) مقرّ قيادتهم ، على حين أصبحت (صنعاء) و(تعِزّ) و(الرياض) موئل قادة الرابطيين . . وفي آخر الخمسينات تجنح (الاتحاد اليمني) وانحلّت (رابطة أبناء الجنوب) أو كادت ، وظلّت (المملكة المتوكلية) مصرّة إعلامياً على تحرير الجنوب بدون تعاطف مع أي تنظيم ، كما دلّ برنامج (ركن الجنوب) الذي كانت تبثه إذاعة (صنعاء) في نهاية الخمسينات ، وبإشراف (محمد عبده نعمان) و(عبد الله حمران) ، وكان هذا التجنح وهذا الانحلال في التنظيمين : (الاتحاد اليمني) ، (رابطة أبناء الجنوب) بتأثير قوى جديدة أنبتها واقع الخمسينات ، إذ تعددت خلايا التنظيمات السرّية في الشمال ، وقامت التنظيمات العلنية والسرّية في الجنوب ، وكان أبرزها تنظيم (المؤتمر العمالي) الذي كان أوفر جماهيراً وأرحب ساحة وأطول تأريخاً في النضال ، فقبل أن تتشكل نقاباته الأولى في مطلع الخمسينات أشعل العمال أعنف مظاهرة عام ٤٨ احتجاجاً على الاحتلال الصهيوني لأرض فلسطين ، قبل أن يتشكّلوا كتنظيم وإنما سبقت نواة تنظيم بتشكيل جمعية (مالكي وسائقي السيارات) عام ٤٧ ، وكانت مظاهرة العمال عام ٤٨ عن شعور بالحاجة إلى ازدياد النقابات وتحالفها . . فتشكّلت (رابطة عمال الصناعات المتنوعة) عام ٥١ ، ثم تشكّل (اتحاد عمال وموظفي

شركة عدَن للطيران) عام ٥٢ م ، إذ بلغ في عام ١٩٥٥ عدد النقابات الكبيرة في (عدَن) اثنتي عشرة نقابة . . على حين كان الشطر الشمالي خلواً من أي نقابة علنية في ذلك الحين . . فتعدد النقابات في الشطر الجنوبي ، وانعدام علنيتها في الشطر الشمالي يدلّ على وفرة الثقافة السلفية والمعارف الأدبية التحديثية ، وربما لم تكن هناك حاجة لوجود النقابات في الشطر الشمالي يومذاك لانعدام أسبابها : كشركة طيران ، كوجود ميناء حديث يستدعي عمالاً ، كمصانع تتطلب تجمعاً عمالياً . . فقد كانت الطائرات في الشمال لاتزيد على ثلاث ، وكانت إدارتها تحت نظر الإمام (أحمد) مباشرة ، كذلك لم يكن في الشمال أي مصنع بعد أن غزت البضائع الأجنبية الشمال من مطلع الثلاثينات فعطّلت الصناعات المحلية في (صنعاء) و(زبيد) و(بيت الفقيه) ، ولم يبدأ عمله إلا في عام ١٩٦٤ أما الشركات فلم تنشأ في الشمال إلا في آخر الخمسينات وأول الستينات مثل : شركة الكهرباء ، شركة الخطوط البرية .

لهذا لم تنشأ حركة عمالية في الشمال إلا في عام ٦٣ ، وكانت نواتها (جمعية الصيادين) (بالحديدة) ، وهذه الفروق بين الشطرين لاتمنع وجوه التقاء ، فقد كان الفقر يسود الغالبية في الشطرين وإن اختلفت درجات الوعي الطبقي ودرجات الحسّ بوطأة الفقر وأسبابه .

إذن فقد تطور (المؤتمر العمالي) في الشطر الجنوبي ، وتعددت نقاباته في الخمسينات حتى أصبح تنظيماً له قياداته وصحفه ، وربما دلّت صحافته على قلة الوعي العمالي ، لأنها كانت على غرار التنظيمات القومية : فتارة (ناصرية) وتارة (بعثية) . . وكانت سياسة (المؤتمر العمالي) تحاكي سياسة حزب العمال البريطاني ، كما تبرهن تصريحات (عبد الله الأصنج) الأمين العام وبعض مقالات جريدة (العمال) ، غير أن تنظيم (المؤتمر العمالي) كان أكبر قوة تنظيمية في الشطر الجنوبي ، إذ كانت كل التنظيمات تخطب ودّه ، فلا تخلو

صحيفة من صفحة خاصة بالعمال كفصيل من أفقر الطبقات ، على أن تنظيم (المؤتمر العمالي) لم يكن فارس الميدان الوحيد ، وإنما واكبته تنظيمات سريّة وعلنية مثل : حركة (القوميين العرب) التي نشأت عام ٥٧ واتخذت طابع السرّية ، ومثل (الاتحاد الوطني) و(المؤتمر الدستوري) الّذين أعلنا قيامهما عام ٥٨ ، ومثل حزب (الاتحاد الشعبي الديمقراطي) الّذي أعلن قيامه عام ٦١ ، وكانت كل هذه التنظيمات - باستثناء الاتحاد الشعبي الديمقراطي - تتصارع حول انضمام (عدَن) إلى المحميات أو رفض انضمامها إليها ، وكان (الاتحاد الوطني) و(المؤتمر الدستوري) يؤيدان ضم (عدَن) إلى المحميات ، ويؤيدان ضمنياً قيام الاتحاد السلاطيني الذي أُعلن عام ٥٩ تحت اسم (اتحاد الجنوب العربي) ، وكان هناك تنظيم (جماعة عَدَن للعدنيين) تتبنى اقتصار مصالح (عدَن) لأهلها ، وكان يشاركها (المؤتمر الدستوري) هذا الرأي ويتبناه الاتحاد الذي أصبح أمينه (البيومي) زعيماً بارزاً في حكومة الاتحاد المزيّف .

كان هذا مجال صراع التنظيمات في آخر الخمسينات وأول الستينات ، ولاتبدو لكل التنظيمات فلسفة وطنية واضحة ، ولا برامج قائمة على نظر فلسفي ، وإنما كانت هذه التنظيمات - باستثناء (الاتحاد الشعبي الديمقراطي) - أقرب إلى رابطة أبناء الجنوب ، والفرق أن الرابطة تتبنى الحكم الذاتي والتنظيمات الأخرى تنشد الاستقلال عن طريق التفاوض لاالثورة المسلّحة .

فهل هذه التنظيمات امتداد متطور من الرابطة ؟ إن بعض التنظيمات أرادت أن ترث الرابطة بمفهوم أضيق ، فإذا كانت تتبنى الحكم الذاتي للشطر الجنوبي ككل ، فإن وريثتها تبنت تجزئة أسوأ (عَدَن للعدنيين) ، وكأن الجنوب بمعزل عن عاصمته ، كانت جماعة (عَدَن للعدنيين) تردّد هذا المبدأ :

(إن موطن الإنسان مسقط رأسه) متجاوزة الحكمة العربية (المرء حيث يوجد لاحيث يولد) ، وكانت هذه الجماعة أقلّ عدداً من (الرابطة) ، ولكنها

كانت أقوى سيطرة على الإعلام المسموع والمقروء في (عَدَن) ، ولم يكن لتنظيم (المؤتمر العمالي) إلا صحيفة واحدة : (صوت المؤتمر العمالي) أو صوت العمال أخيراً ، على حين كانت لجماعة (عَدَن للعدنيين) صحيفتان : (فتاة الجزيرة) ، (القلم العَدَني) التي كانت تصدر بالعربية والإنجليزية . . وكانت صحيفة (الأيام) تبدو متراوحة بين التنظيمين وعلى حسب صحو الطقس لأي تنظيم لأنها كانت تجارية ، وإن كان رئيسها من ذهنية أصحاب عَدَن للعدنيين .

كانت هذه الظاهرة آخر الخمسينات وأول الستينات في (عَدَن) ، وهي فترة اتّقاد العالم الثالث وموسم الثورات العربية .

لهذا انقطعت الصلة بين فروع الاتحاد (بعَدَن) وزعامته الفكرية (بالقاهرة) ، لأن التحرك الذي تجاوز أطروحات (الرابطيين) ، تجاوز في نفس الوقت أطروحات (الاتحاديين) ، لأن تطور الدّاخل كان أسبق من الذين انقطعوا عنه باضطرارهم إلى الهجرة . . فكما انحلّ (الرابطيون) وقام (المؤتمر العمالي) ترجبت ميادين النضال ، وبحث (المؤتمر العمالي) عن صحيفة جديدة ومفهوم شمولي ، فتغيرت تسميته إلى (حزب الشعب الاشتراكي) عام ٦٢م وكان أميل إلى الأطروحات البعثيّة ، ومن هذا التنظيم ومن الّذين احتفظوا بالصفة العمالية تكونت (جبهة التحرير الوطني) من عدة اتجاهات تنظيمية : بعضها حركي ، بعضها بعثي ، بعضها أممي ، . . نظمت الكل راية النضال ضدّ الاستعمار البريطاني ، وتبدّت مخايل الانقسام من بداية ٦٣م : حين كان البعض يعتمد في نضاله على توزيع المنشورات أو تحريك المظاهرات والاضطرابات ، وكان البعض يستثير الريف ويستنفره إلى القتال ضد المحتلين .

وفي عام ٦٤م استجدت كالعادة دعوة التفاوض مع المحتل ، وكان عنوان (جبهة التحرير) ينطوي على كل المناضلين ، رغم الشقوق الصغيرة في صف

(الجبهة) ، وفي عام ٦٥م انقسمت (الجبهة) إلى جبهتين : جبهة التحرير ، الجبهة القومية . . واتّهمت كل جبهة الأخرى بالمزايدة على الشعب وبالتفاوض مع المحتل لاستلام السلطة تحت شروط المحتل فكانت ترى جبهة التحرير انقياد الجيش للجبهة القومية دليل عمالتها ، لأن الجيش مؤسسة إنجليزية عربية اللسان ، وكانت الجبهة القومية تجد في تهافت التحريريين على التفاوض والإسراع بالحسم قبل أن يقوى الجانب الآخر غميزة تَصِمها بالعمالة ، وتبعاً لهذا الانقسام حدث انقسام في جيش الثورة بصنعاء ، لأنهم كانوا يناضلون مع ثوار الشطر الجنوبي (بردفان) ، كما كانت تشارك أقسام من ثوار الشطر الجنوبي في قتال الرجعية في شمال الشمال ، وزاد الأمر تفاقماً أن الجمهورية العربية المتحدة المناصرة ثورة الشمال كانت معترفة بجبهة التحرير بكل فصائلها ، ولاعترافها بجبهة التحرير تحتّم أن تقاوم (الجبهة القومية) برغم ناصريتها أو ناصرية أكثر أعضائها .

عندما أصبحت الجبهة جبهتين أراد الاستعمار استغلال التناقض ، لأن (جبهة التحرير) كانت أشبه بثوار (صنعاء) في تفجير ثورة المدينة ، على حين اعتمدت (الجبهة القومية) على الريف : كالثورة (الصينيّة) في الأربعينات ، أو الثورة (الكوبيّة) في آخر الخمسينات .

بانطلاق الجبهة القومية من (ردفان) وتواصل الزحف إلى (عَدَن) خاضت معركتين : في الريف ضد الإنجليز ، وفي عَدَن ضد جبهة التحرير وضد الإنجليز . . كذلك (جبهة التحرير) كانت تقتتل مع (الجبهة القومية) ومع المحتل .

من هنا تبدو الفروق والتشابه بين ثورتي الشطرين : انطلقت ثورة سبتمبر من (صنعاء) وأعلنت النظام الجمهوري ، وبعد أيام من قيام الثورة خاضت معارك الريف ضد الفلول (الملكية) والّذين غرروا بهم ، فامتدت ثورة

(صنعاء) إلى الريف .. على حين زحفت ثورة الجنوب من (ردفان) إلى (عدَن) ، فانتصرت ثورة الشطر الجنوبي بالزحف الريفي ، على حين انتصرت ثورة الشطر الشمالي بالزحف من (صنعاء) في مواكب ريفيّة إلى الأرياف ، ولعل هذا الاختلاف يشير إلى المفارقات بين جوانب الثقافة اليمنية .. إذ كانت الثقافة (الإمامية) ذات سيطرة أكثر على مناطق شمال الشمال لكثرة الجوامع التي تدرس فيها كتب الهداية الإمامية مثل : صَعْدة وشهارة وحُوث ، على حين لم يكن لسلاطين الشطر الجنوبي مذهب ثقافي ودعاة سياسيون يصدرون عن ذلك المذهب ، فلم تتكون بين السلاطين والمواطنين علاقات كعلاقات الإمامة والمواطنين في الشمال .

بهذا كانت حروب ثورة الشمال مع بعض المناطق الريفيّة ، على حين انتصرت ثورة (أكتوبر) بالريف لتدفقّها من قممه وأغواره .. ولكن لهذا الاختلاف معادل من التشابه : إذا اصطرعت جبهة النضال إلى أن استحالت جبهتين ، كاصطراع ثورة سبتمبر مع بعض الريفيين .. يعزز هذا المعادل من التشابه معادل آخر : فكما اصطرعت الجبهتان في عَدَن عام ٦٦م ، اصطرع جيش ثورة سبتمبر مع نفسه إذ انقسم إلى فريقين أقلّهما وأفتكهما يدافع عن النظام وأكثرهما ثائر على النظام متهماً إياه بالتواطؤ مع الأعداء على الثورة في أغسطس ٦٨ .. وإن كان هناك اختلاف بين أسباب الاصطراعين ، فإن تشابه الظواهر دلالة على المؤامرة وتقبّلها .. فبعد استقلال الشطر الجنوبي توالت فيه شبه الأحداث التي توالت في الشطر الشمالي ، ولكن مع اختلاف الغايتين في الشطرين .. ولايهم تشابه وجوه الأحداث ، وإنما الأهم هو اختلاف مراميها إلى غاياتها المختلفة أيضاً ، ولاشك أن تشابه وجوه الأحداث قد يجانب أسبابها وغاياتها .

في عام ١٩٦٧ قامت حركة خمسة نوفمبر ضد الجمهورية الأولى التي

قامت عام ٦٢م في صنعاء ، وكان سبب قيام هذه الحركة يرجع إلى تطرّف الجمهورية الأولى في آخر أيامها ، وبرّر القائمون حركتهم بالحاجة إلى الإصلاح المعتدل .

في عام ٦٩م قامت حركة تصحيح في (عَدَن) ضد الجمهورية الأولى ولكن لسبب مختلف ، فسبب حركة (عَدَن) يرجع إلى اعتدال تلك الجمهورية ، على عكس حركة (صنعاء) ، وبرّر القائمون حركتهم : بأن التحرير يحتاج إلى تحرير .

من هنا انشقت (الجبهة القومية) إلى جناحين ، بعد انشقاق (جبهة التحرير) إلى جبهتين ، وذلك بفعل تغلّب الجناح اليساري في (الجبهة القومية) ، ومع هذا احتفظت (الجبهة القومية) باسمها معلنة يسارها الأممي بعد أن تخلّصت من بعض الزوائد ، وكالعادة بعد كل حركة تآلفت بعض النقائض في (عدَن) كما تآلفت في (صنعاء) في ظلّ الجمهورية الثانية هنا وهناك . . فقد تبدّى (المجلس الجمهوري) هنا كأمراء ولايات ، وكان مجلس الوزراء يعلو ويهبط على مقتضى اتفاق واختلاف المجلس الجمهوري .

كذلك في (عدَن) كانت (رئاسة الجمهورية) على وفاق نسبي مع الأمين العام ، وكانت رئاسة الوزراء واهية الارتباط بالأمانة العامة والرئاسة ، فشكّلت أجهزتها الخاصة معتبرة بالجمهورية الأولى ، وعندما حاول الاعتدال أن يستعيد سيرته في (عدَن) قام التصحيح السلمي الثاني ، فنحيّ رئيس الوزراء (محمد علي هيثم) في مطلع السبعينات ، وبعد فترة من تنحية (هيثم) من (عَدَن) سقط (النوفمبريون) في (صنعاء) سلمياً عام ٧٤ كسقوط قحطان الشعبي وهيثم في عدَن ، فتبدت الانقلابات السلمية إحدى ظواهر السبعينات في العالم الثالث بما فيه (اليمن) ، وكان المناخ يتيح للثورة في (عَدَن) ، بمقدار تزايده في (صنعاء) ، فتوالت التساؤلات الشعبية عن الثورية ، وعن الثورة ، وعن

التغييرات الجذرية ، وعن سلطة الشعب .. ففي صنعاء تعالت الاتهامات بعمالة السلطة ، وبتحالفها مع الملكيين وسمتها (جمروكية) أي خليط من جمهورية ملكية . كما ارتفعت في (عَدَن) أصوات الاعتراض والاتهام ، فردّدت الاتهام ضد الجناح اليساري في الجبهة القومية : بأنه مجرد حركي ناضج ، وبأنه معجب بالأممية لا أممي .. وكانت تكثف هذا الاعتراض والاتهام تنظيمات (ماركسية) كانت مندغمة في المدّ الوطني على اختلاف وجهاته ، ولما وصل الجناح اليساري إلى الحكم تعالى الجدل عن حقيقة الثوري :

هل هو المجرب النظري ؟

أم النظري بلا تجربة ؟؟ .

وصل هذا الجدل مداه في (عَدَن) عام ٧٥ فحقق تغيير اسم النظام من (الجبهة القومية) إلى (الجبهة القومية الموحدة) ، واستعر الجدل حول دخول (الماركسيين) في الجبهة الموحّدة أم دخولها فيهم .. وبعد مؤتمر حزبي انضم (الماركسيون والبعثيون) إلى (الجبهة القومية الموحدة) ، وكان (سالم رُبيِّع) رئيس الجمهورية ضد هذا التوحيد ، لأنه سوف يؤثر على السلطات العليا بالتصويت ، نتيجة دخول عناصر مقلقة .. وكانت حركة ١٣ يونيو بصنعاء عام ١٩٧٤ في أوج مدّها ، وفي ذلك الحين حدث ما يشبه التحالف بين (إبراهيم الحمدي) و(سالم ربيّع) ، وكان (الحمدي) يركز على الوحدة الوطنية في الشمال ، بمقدار ما كان (سالم ربيّع) يركز على الوحدة الوطنية في الجنوب .. وكانت الغاية من هذا شحذ الحساسية الجنوبية ضد الشماليين ، لكي يدخل (عبد الفتاح إسماعيل) الأمين العام في جملة الشماليين ، وكادت (القروية) أن تخلخل الجبهة الموحّدة ، وكادت نزعة الاستعمار ضد الشماليين في الجنوب أن تدير نفس الأسطوانة في السبعينات ، ومع كل هذا كان (الحمدي) و(ربيّع) يظهران العمل لوحدة الشطرين ، وكان هذا العمل مجرد مظلة يحتمي بها

(الحمدي) من بعض الشيوخ ، ويحتمي بها (سالم ربيّع) من التصاعد الشبابي في الميليشيات الشعبية وفي الحزب الذي يقوده (عبد الفتاح إسماعيل) ، وتشابهت لغة التذمر في (صنعاء) و(عَدَن) في المنطلق القروي ، حتى تبدَّى (ربيّع) جنوبياً مستقل الرأي عن الحزب ، وربما كان (الحمدي) يستغل هذا الخلاف أو يغذّيه ، وربما كان مطوياً عنه وإنما يدله عليه (عبد الله الأصنج) وزير الخارجية في ذلك الحين والتحريري القيادي في الستينات .

في آخر ٧٧ سقط (الحمدي قتيلاً) على أيد هي ضد (ربيّع) و(عبد الفتاح) معاً ، بهذا تركزت النظرات إلى (سالم ربيّع) الذي جدّد الصلة مع (الغشمي) بعد (الحمدي) ، وفي أسبوع واحد سقط (الغشمي) و(ربيّع) معاً في يونيو ٧٨ .

بهذا اتّسمت آخر السبعينات بالانقلابات الدموية في صنعاء وعدَن كنقيض للانقلابات البيض .

هنا أفرزت الظروف مفاهيم جديدة لغايات مختلفة ، فعقدت (الجبهة القومية الموحدة) مؤتمراً قررت فيه عدة قرارات منها تغيير اسم الحزب إلى (الحزب اليمني الاشتراكي) ، وعلى رغم تقدميّة التسمية فإن مقتل (ربيّع) عام ٧٨ غذى بذور (القروية) حتى أجنت ثمارها المرَّة عام ٨٠ ، كما غذى مقتل (الحمدي) الصراع المسلّح ، حتى تبدّت القروية مادة الأحاديث العادية اليومية .

صحيح أن للقرية ذكرياتها الطفولية الحلوة ، ولكن لسنا أبناء أمسنا وإن جئنا منه ، فإننا جئنا لندخل غيره .

فلماذا علَت (القروية) على (الرفاقية) وبالأخص في إبريل عام ٨٠ ؟ أليس هذا العام أوج التحول وعهد الحزب اليمني الاشتراكي ؟؟ . . .

إن توالي سقوط رئاسات وصعود رئاسات من صميم مجرى التحول إلى الأسوأ وإلى الأفضل معاً ، قد يرى البعض أن النظام غير محصور في شخص الرئيس ، وأن زواله أو بقاءه غير مؤثر على النظام والتنظيم ، ولكن :

أليس الحكم رئاسياً وعلى تعاقب الرؤوس العليا يترتب التغيير إلى الأفضل أو عكسه ؟؟ .

وقد درس هذه الظاهرة الكاتب السياسي (جون راك) في كتابه (فرنسا في الثمانينات) وفي هذا الكتاب خصص فصلاً استكنه فيه الثقافة الفرنسية في سنوات رئاسة (ديستان) وقال مامضمونه : « في هذه الفترة تداعى الفن الروائي والفن الشعري ، بل فقدت الثقافة الفرنسية لموعها الذي اتسمت به من بداية الأربعينات إلى منتصف السبعينات ، وبالأخص الإنتاج الأدبي (الوجودي) الذي أبدعه (سارتر) و(البيركامو) ، و(سيمون دي بيفوار) ، وجاءت جمهورية (ديستان) فزادت الفنون كلها انحطاطاً » ، وتفاءل المؤلف بعهد (ميتران) لأنه واسع الثقافة على عكس (ديستان) السياسي غير المثقف الموسوعيّ .

فهل ينسحب هذا على بلادنا ؟ .

نستشهد التأريخ ، ولعل أقرب مثل : رئاسة ثلاثة مثقفين برغم التباين بينهم سياسياً ونوع ثقافة ، الأول : (الإمام يحيى) فبفضل موسوعيته الثقافية على مقياس عهده انتعشت الثقافة القديمة وتفتحت بالثقافة المستحدثة ، فنبغ في ظلّه رعيل مثقف من نماذج : (أحمد عبد الوهاب الوريث) مؤسس (مجلة الحكمة) ، و(محمد محمود الزبيري) الشاعر الوطني والمؤلف السياسي ، (عبد الكريم مطهر) المؤرخ الشاعر و(محمد علي الأكوع) المؤرخ المحقق ، و(زيد الموشكي) الشاعر البركاني ، و(عبد الكريم الأمير) الشاعر الصحفي ، و(علي عقبات) الخطيب الشيعيّ ، و(إبراهيم الحضراني) الشاعر اللماح

والعلاّمة (عبد الله الشماحي) المؤرخ الخطيب الشاعر ، و(أحمد المروني) شاعر الجيش ، و(أحمد عبد الله السالمي) الشاعر العواد و(يحيى محمد الإرياني) القاضي العلاّمة والشاعر المرهف ، و(عبد الرحمن الشامي) العالم المحدث ، و(زيد علي الديلمي) العالم المجتهد ، و(محمد الحجري) المؤرخ الشعبي . . إلى جانب العشرات في كل ميادين الثقافة الأدبية واللغوية والدينية .

قد يكون (الإمام يحيى) مستبداً ولكن مثقفاً محب تثقّف غيره ، فكان لثقافته أثر عظيم في الرّخاء الثقافي ووفرة الأعلاَم المتفوقين ، وعلى عكسه ابنه (أحمد) ، فلم يزدن في عهده إلا بفضل الذين نبغوا في ظل والده وتفتحت براعمهم في ذلك الظل ، لأنه غير واسع الثقافة .

المثل الثاني : (عبد الرحمن بن يحيى الإرياني) الذي امتدت رئاسته من ٦٧ إلى ١٩٧٤ وكانت هذه الفترة أغنى الفترات بالثقافة المعاصرة ، والحرية الفكرية والنقد السياسي ، قد تكون التركيبة السياسية لتلك الفترة من خليط النقائض ، ولكن هذا الخليط في التركيبة لم يمنع تصاعد الرّخاء الثقافي ، بفضل الرئاسة الموسوعيّة ، ذلك لأن الرئيس المثقف يثير العدوى ويؤثر بحبه للثقافة .

المثل الثالث : (عبد الفتاح إسماعيل) الذي كان عهد أمانته العامة ورئاسته أحفل بالتفجر الثقافي والمواسم الأدبية الفنية والإبداع الشعري والكتابي ، حتى تسمّت تلك الفترة (سنوات العطاء) ، لغزارة الإنتاج الشعري والقصصي والصحفي والتأريخي والبحوث السياسية والندوات الإيديولوجية . إذن فلم يكن (جون راك) مجازفاً حين قرنَ تردي الثقافة أو رقيها بشخص الرئيس في كتابه (فرنسا في الثمانينات) .

هل هذا الاستطراد خروج عن التحولات السياسية في اليمن الجمهوري ؟ .

إن الثقافة العامة أهم عوامل النضج السياسي ، لأننا دخلنا العصر مزوّدين بالكثير من تراث الماضي ، وبالقليل من قطوف العصر ، فتعاقبت الأمواج السياسية بلا إطار ثقافي وفي غياب التنظير الثقافي ، لأن الثقافة التي تنشأ عنها السياسة منتخلة من أنقى عناصر الثقافات ، وقد لاحظنا أن الفترات الغنية بالثقافة كانت تقع في نكسة قبل إيناع ثمراتها ، ولو تواصلت العهود الثقافية لكانت التحولات السياسية أهدى إلى غاياتها التقدمية .

فهل هذا يرجع إلى ذكاء المؤامرات ؟ .

أم إلى ضعف حصانتنا ؟

أم إلى تركيبنا الحضاري المؤصّل على الفخامة والهدير بدلاً عن التحليل والاستغوار لكي تعرف كل خطوة موضعها وموضع تاليتها !! .

فالتحولات التي تعاقبت في بلادنا فأسقطت رؤساء وأطلعت رؤساء ، أثّرت على المجرى السياسي والمناخ الثقافي .

فمن آخر السبعينات إلى الآن انكمشت الثقافة في الشطرين وهي في باكورة تفتّحها . .

فلماذا ترمّلت قبل العرس ؟ .

بسبب التحولات المسدودة الطريق إلى الأرغد والأجمل .

صحيح أن أسباب تلك الأحداث التحوّلية كانت مختلفة ، وأن غاياتها على طرفي نقيض في الشطرين ، ولكن هناك فرق بين التغيي وبلوغ الغايات العليا ، ليست هذه المقارنة بين الأحداث تغضّ من مردودها ، ولكنها تتبعها لكي تلمح أين وصلت وإلى أين سوف تصل ، لأن مدة عشرين عاماً من الاصطراع والاشتباك ، تحمل المرء على افتراض النتائج الأحسن .

صحيح أن هناك تطورات إيجابية ، ولكن ليست في وزن الأحداث أو في الكفة الثانية من ميزان الدعاية لها ، فكل مواطن يرجو أن يرى (اليمن الجمهوري) غير (اليمن المتوكلي) وغير (اليمن السلاطيني) من كل الوجوه .

* * *

الفصل الرابع

تنظيم الاتحاد اليمني من ٤٢ إلى ٧٤

١ـ من الدعوة إلى إخفاق التجربة .

٢ـ الاتحاد اليمني . . بين الاجترار والتحول .

من الدعوة إلى إخفاق التجربة

لقد اتّقدت بلادنا بالصراع السياسي على امتداد تاريخها ، ولم يصل تيار الصراع إلى غاية اجتماعية ، لأنه لم يتَنَظَّرْ بإيديولوجية اجتماعية ، ولم ينطلق من قاعدة تنظيمية ، وإنما كان صراعاً قبلياً يتأجج لكي يخمد ، ويحمد لكي يتأجج وأعنف ، حتى أن هذا الصراع لم يتَّسم ببعض الإيديولوجيات القديمة : كالخوارج أو الشيعة مثلاً . . لكن هذا الصراع القبلي عل غياب فكريته التنظيمية قد شكّل مناخاً صراعياً امتد من السلاح القبلي إلى أقلام الفقهاء والمفكرين ، فاحتدم الجدل من القرن التاسع عشر إلى منتصف خمسينات هذا القرن حول (الفاضل والمفضول) وحول (المذهبية الهدوية والسنية) وكان القرن التاسع عشر أعنف العصور جدلاً ، حتى أنه كان يؤدي إلى التهديد بالقتل لاتهام أهل السنّة بالتواطؤ مع الأتراك ، وكانت السلطات من القرن التاسع إلى مطلع الستينات تغذّي هذا الصراع لكي تشغل المفكرين عنها بجدلياتهم حول (السنيّة والزيدية) ، وكانت السلطات توازن بين محاور الجدل كلها ، فكانت الإمامة تستوزر الفقهاء القحطانيين لانعدام طموحهم إلى الإمامة من أمثال : (الحيمي) و(الشوكاني) و(العمري) ، حتى أن بعض الأسر من الفقهاء توارثت الوزارات كما توارث الأئمة العروش واقتتلت على المنصب الوزاري كاقتتال الأئمة على منصب الإمامة كاصطراع الحيمي وجغمان وبيت أبي السرجال وآل الغرسي إلى أن وصل هذا الخط إلى التهاجي الشعري بين يحيى محمد الإرياني وزيد بن علي الديلمي على رئاسة الاستئناف وكان الإرياني ومن حوله أشعر ، والديلمي أكثر شعبية وهذا ضربٌ من ذلك الهجاء من وُجهةٍ إريانيّة .

مولاي هذا زيدٌ الديلمي يبيع شرع الله بالدرهمِ
أضلّه الله على علمِهِ وليته إذ ضلَّ لم يعلمِ

وكان الفقهاء المستوزرون أو أغلبهم يلتزمون التشيّع لأنه مذهب السلطة ، حتى الذين خرجوا عن (الهدوية) إلى الاجتهاد كالشوكاني فإنه كان شيعي العمل سنّي الاعتقاد (كعمارة اليمني) في القرن السادس الهجري عند (الفاطميين) بمصر على بعض الروايات ، وكان هذا الامتزاج من طبيعة المذهب السنّي الذي يوالي كل سلطة مالم تكن كافرة ، ويرفض الخروج على أي سلطة لأن هذا إيقاظ للفتنة كما يرى السنيّون . .

لهذا لم ير (المهدي عبد الله) خطراً في اجتهاد وزيره (الشوكاني) ، وفي دعوته إلى الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله لاستنباط الأحكام منهما ، غير أن أئمة العلم من الشيعة نصبوا للشوكاني أمرَّ العداوات ووصموه بالناصبية لخروجه عن مذهب الأئمة ، لأنهم اعتبروا مذهب الأئمة أصح المنابع لتسلسله عن النبي حسباً ونسباً ، ولم يكن هذا الصراع على امتداده يؤدي إلى رفض الإمامة ، وإنما كان يؤدّي إلى الاختلاف الديني دون أي لمحة إلى تغيير الحكم أو نوع الحاكم ، فقد كانت أهم نقاط الاختلاف حول وصية (علي) وأحقيّته بالإمامة بعد النبي ، باعتبار هذا أصل الإمامة بالوراثة ، وقد كان رجال السنّة من (محمد إبراهيم الوزير) في القرن الثامن الهجري إلى (الشوكاني) في القرن الثالث عشر الهجري يرون صحة بيعة (أبي بكر) و(عمر) و(عثمان) وصحابيّة (معاوية) على حين كان الشيعة يرفضون هذا ويُفَسِّقون الخلفاء الثلاثة ، بل كانت (الجارودية) تكفّرهم لاغتصابهم حق (علي) في الولاية بعد النبي ، لأن هذا يؤسس خلافتهم فتمتد في ذريات (علي وفاطمة) وأعقابهما إلى يوم الدين .

لهذا سكت رجال السنّة عن إثارة هذه النقطة في مؤلفاتهم ، فاقتصر تأليفهم على مسائل العبادة والتشريع من وجهة سنية ، كلَّ ما تهدف إليه مؤلفاتهم

هو تجاوز التقليد لأي إمام مذهب سواء كان من العلويين أو من غير العلويين ، ولعل عناوين كتبهم تعطي دليلاً كافياً على نهجهم : من أشهر مؤلفات (محمد إبراهيم الوزير) (الروض الباسم في الذب عن سنّة أبي القاسم) ، (إيثار الحق على الخلق) ، وعنوانا الكتابين يشيران إلى تجاوز التقليد (للحنفية أو الزيدية) وغيرهما من المذاهب لأن عبارة : إيثار الحق على الخلق تنفي عصمة الأئمة واحتمال وقوعهم في الخطأ ، على حين استنباط الأحكام من النص القرآني والأثر النبوي يعصم من الخطأ ، لأنه التزام بمصدر العصمة . . مثل الوزير كتب المقبلي (العلَم الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشايخ) ، (الإتحاف في الردّ على الكشاف) لأن (الزمخشري) مؤلف الكشاف كان يصدر من منظور معتزليّ ، مثل كتب (المقبلي) كتب الأمير (سبل السلام) وهو يشير إلى أن اتّباع السنة أهدى طرق السلامة ، أما (الشوكاني) فقد غزرت مؤلفاته في السنّة وأصول الفقه والتأريخ ، ومن أهم كتبه (نيل الأوطار) كأشمل موسوعة نبوية ، ومن أهم كتبه السنّية جدلياً (السيل الجرّار) لأنه يركز فيه على الفقه الشيعي ويفنده مسألة مسألة ، ولعله قصد بالعنوان الردّ على كتاب (البحر الزخّار) للإمام (أحمد بن يحيى المرتضى) المتوفى عام ٨٠٠هـ ، ولكي يسهل (الشوكاني) الوصول إلى استنباط الأحكام من الآيات والأحاديث ألّف كتاب (إرشاد الفحول في علم الأصول) كنظرية معرفة لاستنباط الأحكام من الكتاب والسنّة مباشرة بدلاً من وساطة المذاهب . . هذا جانب من الحركة الجدلية القلمية . .

فهل كان الجانب الشيعي يرفض الاجتهاد ويتبنّى التقليد كمانع للتجاوز إلى الخلف ؟

إن علماء الشيعة دعوا إلى الاجتهاد واستصعبوا الوصول إليه على الغالبية ، لأن أسرار القرآن والسنة لايعرفها إلا الراسخون في العلم وما أقلّهم ، وأغلب

الناس لايبلغون التحقيق العلمي فكان التقليد لهم أيسر تحت مفهوم « أهل بيتي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » ، ومع هذا ألّفوا في أصول الفقه لإمكان الوصول إلى الاجتهاد ، فألّف الطبري كتاب (الكافل) كما وضع الحسين بن القاسم كتاب (الغاية) وكل هذه الكتب تبصر بطرق الاجتهاد ولكن عن فلسفة شيعيّة ، غير أن هذه الكتب الأصولية عسيرة الفهم على الطالب المبتدئ ، فلا يمكن تدريسها إلا بعد قراءة القرآن وكتب النحو والفقه والأحاديث ، وهذه قاعدة للوصول إلى أصول الفقه ، كما أن أصول قاعدة لاستخلاص الأحكام من فحوى الآيات ومدلول الأحاديث .

كل هذه الجدليات أبدعت المناخ الفكري وبتكوين المناخ يمكن تطوّر أفكار من أفكار واختلاف بعضها عن بعض نوعاً أو تنويعاً ، ولقد امتدّ الجدل الفكري على أساس ديني حتى مطلع الأربعينات وإن خفت ضجيجه بعض الشيء ببواكر الفكر الوطني ، غير أن التفكير الوطني كان يرنو من قاعدة دينية خالصة من طفولته أول الثلاثينات حتى آخر الأربعينات . . ومن بداية الخمسينات تعددت المنطلقات الفكرية وتحوّل بعضها أساساً وظلّ بعضها مشدوداً إلى ماضيه وإن تحوّلت بعض مجاريه نسبياً . . ولعل أول تنظيم هو (جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) التي تألّفت في مطلع الأربعينات على يد (الزبيري) وزملائه من رجال الدين المستنيرين ، هذه الجمعية موصولة بجدلية الماضي مختلفة عنها من حيث الأهداف ، فقد أرادت من الإيقاظ الديني الإيقاظ السياسي ضمنياً ، على حين كانت جدلية السنّة والشيعة تتبنّى الدين ومفهوم الخلافة والبيعة .

فإلى أي المنابع تنتمي هذه الجمعية ؟

تنتمي من جانب إلى الخوارج من ناحية إجماع الأمة على الحكم ، لكنها لم تتبنَّ الخروج القتالي كالخوارج ، ومن جانب آخر تنتمي إلى المعتزلة في أحد

أساسها وهو دعوة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، غير أن المعتزلة تحدده في دعوة غير المسلمين إلى الإسلام كما يقول (العلاّف) : (لاأمر ولانهي على مسلم فإن الله قد أمره ونهاه) فدعوة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند جماعة الهيئة تختلف في غايتها وفكريتها عن دعوة المعتزلة . .

فهل تنتمي هذه الجماعة إلى الينبوع السنّي الاجتهادي ؟

إنها تنتمي إليه من جانب وتختلف عنه في جوانب وربما انتمت سنيّتها إلى (الرسوليين) مناهضي الأئمة في القرن الـ ١٣الميلادي ، لقد كانت الجمعية تتمذهب السنّة وتختلف عن السنيين بدعوة الإصلاح الوطني مقاومة الظلم السياسي وهذا أجدّ تطور في الفكر السنّي ، فقد كان أعلام الصراع الدموي من الشيعة إما اقتحاماً وإما دفاعاً ، أما رجال السنّة فقد كانوا يفتون بطاعة الإمام وعدم الخروج عليه مادام يقيم الشعائر ولو ظاهرياً ولا يجيزون الخروج – مالم ير الناس كفراً بواحاً – أي علنياً .

رغم انتماء الجمعية إلى المذهب السنّي فإنها تختلف عنه ، وبالأخص في آخر الأربعينات من هذا القرن ، ومن يرجع إلى المنهاج الذي كتبته جمعية (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) كما أورده الأستاذ علي محمد عبده في كتابه (مسار الحركة الوطنية اليمنية) من يرجع إلى هذا المنهاج يلاحظ الصراع الخفي بين هذه الجمعية وبين الإمام ، لأنها تبنت إرشاد الناس إلى الدين وتعاليمه برعاية الإمام ، كما يلاحظ أي قارئ أدبيات الإخوان المسلمين في أكثر ملامح المنهج كما تدلّ الفقرات الأولى من هذا المنهاج : « يريد شباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن ينشئ جيلاً جديداً ليبعث فيه روح الإسلام الصحيحة ويوقظه من الغفلة التي رانت على النفوس بإعراضها عن التدبر لكتاب الله وسنّة رسول الله وسيرة الأئمة الراشدين ، مما جعل الناس يقرؤون القرآن ولا يتدبرونه مع أنه قد أجمع علماء الإسلام في القديم والحديث على أن

الفتوحات الإسلامية الهائلة والروح العربية المتوثّبة كانت صدى لذلك القبس الإلهي الوهّاج المملوء حكمة ونوراً والذي فيه شفاء للناس وهدى ورحمة للمؤمنين » .

ويمضي المنهاج على هذا النحو من التذمر من جهل الناس بالدّين ويلحّ بالدعوة على مناصرة هذا المنهاج ومقاومة الهازئين به ، كما يؤكّد على غاية الداعين بأنها لوجه الله لاتبتغي منصباً ولاجزاءً كما تشير الاتهامات ، ومن الملحوظ أن هذا المنهاج كان يضع سِيَرَ الأئمة الراشدين بعد كتاب الله وسنّة رسوله كتقية من غضب الحكم وكمجاراة لآراء الغالبية ، لكن عبارة الراشدين تتضمن إيماءً إلى العكس ، لأن عبارة راشدين تخرج غير الراشدين ، فإضافة سيرة الأئمة الراشدين في المنهاج تحمل مدلولين : أولاً الوقاية . ثانياً اتهام الإمام القائم بغير الرشد ، ومن المفيد تصويب الضوء على الفترة التي أعلن فيها المنهاج . .

لقد مضى اثنان وعشرون عاماً على تحرير الوطن من الاستعمار التركي وأخمد الإمام (يحيى) كل المقاومات التي تفجرت بعد الجلاء واستتبت له السيطرة على بعض (تهامة) بعد قتال عام ٣٤م وأصبح اليمن شطرين منقوص أحدهما ويعاني أحدهما كابوس الاحتلال البريطاني في ذلك الحين .

في هذه الفترة انتظر المستنيرون من الحكم الوطني عهداً مختلفاً عن العهد التركي ، لأن الاستقلال أفسح مجال المراقبة على تصرف الحكم وأحوال المواطنين ، فإلى جانب قمع المتمردين انتشرت المجاعة من عام ٢٠ إلى ٢٢م وتوالى تجددها من فترة إلى فترة حيناً عامة لكل البلاد وحيناً خاصة بمنطقة كما صاحب هذا انتشار الأوبئة بدون أدنى مقاومة طبيّة ، وفي هذه الأثناء استجدّت في العالم أحداث أثارت الاهتمام ، وتزايدت أعداء المثقفين المستنيرين حتى كان ميلاد جمعية (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) عام ١٩٤٠م كذروة

للتذمرات الفرديّة في عدة أماكن ، غير أن هذه الجمعية ركزت على الدعوة الدينية دون إشارة إلى قمع المتمردين وإلى ضحايا الجوع والأوبئة ، إلا في مناسبات كموت أحد الأعلام بتلك الأوبئة : كرثاء (محمد محمود الزبيري ، يحيى الإرياني) .

فلاقت تلك الجمعية معارضة شعبية ورسمية ، فقد كان خطباء الجُمَع عام ٤٠ يشيرون إلى هذه الجمعية بمثل هذا القول : (ولقد ظهر في زماننا طائفة تدعو إلى الدين كأن الناس لم يدخلوا في الإسلام إلى الآن إن هؤلاء المخذولين يدعون إلى قيام ماهو قائم وإلى تحصيل ماهو فينا دائم) .

في نفس العام شمَّ (الإمام يحيى) فكرة هذا المنهاج قبل كتابته أو قبل نشره ، فبعث أعداداً من طلّاب (دار العلوم) بصنعاء و(جامع صَعْدة) ومن أئمة المساجد وأشباههم إلى جميع المناطق ليعلّموا الناس الصلاة ولتزويج العزب بالمهر الشرعي سبعة ريالات وشاتين وكسوة على العرف ، في ذلك العام انبث الدعاة عن تعاليم رسمية كإسكات لدعوة الأمر بالمعروف قبل انتشارها . عندما أعلن المنهاج كلّف (الإمام يحيى) أربعة من القضاة برئاسة (زيد الديلمي) لمناقشته ورفع تقرير عنه باعتباره مرفوعاً إليه ، وربما كانت أهم النقاط التي أشارت إلى سياسة الإمام هي التي انتقدت علاقاته بإيطاليا الفاشية وروسيا الماركسية ، وإن كان المنهاج اكتفى بالتلميح :

« يناشد شباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حكومته المتوكليّة وعلى رأسها مولانا أمير المؤمنين أن توثق العلاقات الأخوية بين الأمة اليمنية والأمم الإسلامية ، أليس من المؤلم أن تُعقد المعاهدات التجارية وغيرها مع سائر الدول الغربية ولاتوجد معاهدات أخوية بيننا وبين الأمم الإسلامية الناشئة التي تربطنا بهم وشائج الدين والأماني والأهداف » .

هـذه الفقـرة من المنهـاج تشير إلى اختلاف الرؤيتين بين الإمام وبين الجمعية ، فقد كانت أشدّ مخاوف الحكم في الشطر الشمالي من الاستعمار البريطاني ، لهذا رفض الإمام كلّ تفاوض معه وكوّن العلاقات مع القوى المناوئة له : كإيطاليا والاتحاد السوفيتي ، وتبعاً لهذا كان توجّس الإمام من مناطق نفوذ الانجليز كتوجّسه من الانجليز ، من أمثال (مصر) فاروق و(عراق) فيصل بن الحسين ودولة الباكستان الإسلامية المسيرة بخبرة إنجليزية ، بالإضافة إلى هذا فإن العالم الإسلامي كان مختلفاً أشد الاختلاف على الزعامة وعلى الرجل الأليق بها وعن المكان الصالح لقيامها ، فقد امتد الصراع بين الخديويين وبين الوهابيين منذ قيام (محمد علي) إلى قيام (توفيق) ، وكان الإنجليز يرشحون للزعامة الإسلامية عدة رجال على حسب تقلب الرياح ، فقد أطمعوا الشريف حسين أمير مكة رشحوا بعده الملك عبد العزيز ، كما رشحوا في مطلع الأربعينات الملك فاروق وأعطوه نسباً علوياً فاطمياً عن فتوى أزهرية ، وكان الإمام (يحيى) يرى نفسه بحق أشرف هؤلاء نسباً وأكثر علماً ، وفي هذا الخصوص نشر قصيدته المعروفة داعية للوحدة الإسلامية :

مغلغـةٌ منشـورةٌ فـي المحـافـل تنادي بني الإسلام في كل حافلِ

وكانت هذه الدعوة الشعرية ردّاً صريحاً على منهج جمعية الأمر بالمعروف وبالأخص الإشارة إلى الوحدة الإسلامية ، وبهذا فوّت الإمام الفرصة على الجمعية لأنه يتبنى رسمياً نفس مادعت إليه ، وإن كان في تحدّثه يتهم زعماء الدول الإسلامية بالعمالة للأجنبي وإباحة المحرّمات : كالمشارب والسفور والمباغي . لكن جماعة الأمر بالمعروف كانت تستدرك كل إشارة بالرجوع إلى الإمام : « جدير بالشباب أن يستمد من حكومته الهاشمية المتوكلية النصح والتوجيه وأن يصغي لما يبديه أمير المؤمنين نصره الله وما يراه جلالته من الطرق الناجعة فإمامنا المعظّم قد خبر الأمور وعرك الدّهر ؛ كما يجب على الشباب أن

يستعينوا برجال حكومتنا الأفذاذ فهم الآباء ونحن الأبناء » .

ومع كلّ هذا الولاء الذي أبداه المنهاج فقد لمح الإمام طوايا هذه الدعوة لأن هذه الجماعة تريد الاتصال بالشعب من وراء ظهر الإمام فتوجهه كما تريد وتقاوم ما رسب في نفوس المواطنين من قداسة الإمام ومن الأفكار الشيعية ، ولأن هذه الجماعة كانت ترى نفسها غير قادرة على المزاولة السرّية استجدت موافقة الإمام على نشر دعاتها وخطبائها ، غير أن الإمام سبقهم ببث الدعاة في الأرياف كما سبقت الإشارة واعتبر هذا المنهاج شقاً لعصا الطاعة ، فأمر بسجن (الزبيري) باعتباره منظّر المنهاج وأهم أفراد الجمعية ، غير أن الزبيري كان يوقّع في مقدمة المنهاج كنائب عن رئيس : (القائم بالأعمال محمد محمود الزبيري) ، وهذا التوقيع يشير إلى رئيس غير معروف أو يشير إلى كاتب بأمر الجماعة عن أفكارها ، ومن المعروف أن مثقفي تلك الفترة كانوا دون مستوى الزبيري الكتابي والشعري ، فلا يمكن أن يصيغ هذه الوثيقة سواه ، لكثرة قراءاته المعاصرة ولمعرفته بالبرامج السياسية كما تكتبها التنظيمات ، فقد كان أنبَه الكتّاب في تلك الفترة كإنشائيين ، على حين تميّز الزبيري بتنظيم الكتابة وترتيب أغراضها ، وإن كان المنهاج لم يقسم إلى بنود كالمناشير السياسية ، إلا أنه كان يحدد الأغراض بعبارة (يريد شباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ، فهذا المنهاج أول وثيقة حزبية بقلم الزبيري ولم يكن معبراً عن حزبيته بمجرد الكتابة وإنما كان عضواً تحركيّاً دائب النشاط ، فعلى الرغم من أنه شاعر فإن أغلب أشعاره من مستوى تنظيره الحزبي في كل عمره الفني ، ولعل هذه الفترة من الأربعينات أول خطواته الحزبية .

تكوّنت جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عام ٤٠م في شكل خلايا من خمسة أشخاص على رأس كل خلية رجل دين أو صاحب وجاهة على أي مفهوم : كحسين الدعيس في (لواء إب) ، وأحمد عبد الله الكبسي وحسين

عبد القادر في (صنعاء) ، وعبد الله العيزري في (ذمار) ، وعلي بن حمود شرف الدين في (الطويلة) ، وعباس بن علي في (تعِزّ) . . . وقد كان هؤلاء من رجال السنة المستنيرين ، وقد اعتبروا الدعوة (بنت زمانها وملبيّة أوانها) كما ردّدت مجالسهم ، لأنهم شعروا بجهل الناس في الدين وعداوة الغالبية لرجال السنّة ، ولعل الزبيري أول من فطن إلى مكافحة الجماعات بالتجمّع ، فقد كان أتباع السلطة الشيعية يؤلبون الجماهير على رجال السنة من جهة ويتغاضون عن تصرفاتهم من جهة أخرى ، أما الإمام فكان لايبدي ميلاً إلى مذهب معين في ظاهر الأمر وإن كان لايقمع جماهير الشيعة بكل ثقافتها ومدارسها مالم يؤدّ إلى الاعتداء ولو فردياً ، هناك يقمع كل الجهات بدون تحيّز ، بل كان يحاول إيجاد توازن في الشعائر والطقوس ، فيتغاضى عن شعائر (جمعة رجب) كمعادل نفسي باحتفال (يوم الغدير) . . إلى جانب هذا كان يتغاضى عن قراءة كتب (البخاري ومسلم) وأشباهها في البيوت وفي الزوايا غير الرئيسية في الجوامع وبالأخص في شهور رمضان ، وعندما تشكلت جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اتّضح أول تحدّ سنّي للحكومة الشيعية بكل ثقافتها ومدارسها .

ولكن هل كانت هذه من مفاجآت الأربعينات ؟

ربما ترجع أولياتها إلى آخر العشرينات ، وأول من شم روائحها (محمد البدر) نجل الإمام (يحيى) الذي كان ينازع أخاه (أحمد) ولاية العهد ، فلئن ركّز والده على المذهب الشيعي كسلاح وطني في وجه الأتراك شعر بسخط رجال السنّة ، فقام في آخر العشرينات بنشر المؤلفات السنية اليمنية : كبعض كتب الشوكاني والجلال والمقبلي والوزير والأمير ، فاعتبر رجال السنة (البدر محمد) نصيرهم وزاد في إجلاله في النفوس أنه مات غرقاً بعد رجوعه من سفره لهذه المهمة العلمية .

ولعل هذه الحادثة أول مؤشر إلى الاهتمام برجال السنّة التي تنامت حتى

تشكّلت منها جمعية عام ٤٠م وأصدرت أول منهاج ديني يتبنى التوجيه والتعليم وتصحيح المفاهيم وتقوية الأجساد بالرياضة ، فلم تقف الوثيقة عند الإرشاد وإنما دعت القادرين إلى إرسال أبنائهم للتعليم في الخارج كما دعت إلى أسباب القوة البدنية بالرياضة وأسباب القوة النفسية بمغالبة الجبن :

« هل تعلمون ما الذي يهدم السعادة ويمحي الشخصية ويفني الأمم ، ياقوم هل تعرفون ذلك إنه أمر يسير لو تمعنتم وتأملتم لوجدتموه واضحاً جلياً هو الذي جعلكم في اضطراب وانزعاج ، هو الذي أضاع ماضيكم وحيركم في حاضركم وسيقضي على مستقبلكم إن لم تتنبهوا له وتقتلوه في مهده ، إنه ياقوم الجبن اقهروه قاوموه حاربوه في أبنائكم » .

هذه دعوة صريحة بمغالبة القهر السياسي ، لأنها ليست دعوة حزبية آنية ، وإنما دعوة إلى نضال مستمر ينازل الطغيان وإن كانت الوثيقة لاتفصح فإن ظروفها تفسّر هذه الغاية ، فقد كان الخوف من الإمام يرجف في كل نفس وكان استحضار مهابته يمنع كل يد عن الحركة ويعقد كل لسان عن التعبير ، وكان الآباء يزرعون في نفوس الأبناء قداسة الإمام وقوة بطشه رؤيته للغيب ، وبهذا اتصلت بالإمام كل المشاكل الشجارية والمعيشية ، فكان في كل قرية مأمون محل يبلغ بكل حادث حتى اشتجار امرأتين أو خصام على مرعى ، وقد أحسَّ الداعون إلى التحرر من الجبن ، مدى مهابة الإمام فأرادوا أن يحولوا هذا الخوف من إنسان إلى خوف من (الله) ربّ الناس كما يلمح المنهاج في مضمون دعوته .

لقد فطن الزّبيري وجماعته إلى متطلبات المرحلة فأعلن ميثاق جمعية تجمع مهماتها بين الإيقاظ الديني والإيقاظ السياسي على أساس ديني ، وكان الزبيري لايخرج عن هذا المنحى لافي كتاباته ولافي أشعاره ، ففي قصائده في الأربعينات كان يركّز على الإيقاظ حتى في الأماديح والمراثي ، ففي تقريضه

لكتاب (التاج المُذهب) لأحمد قاسم العنسي يقول :

والعلم إن لم ينشر بين الورى فـذهـابـه وبقـاؤه سيـانِ
إنَّ التأني في الشيوخ فضيلةٌ لكنـه عـار علـى الشبـانِ

فهذا التعبير على قاعدة منهج الجمعية ، دعوة إلى العلم واستنفار للعمل على غرار نظام الإخوان المسلمين بمصر (الاتحاد والنظام والعمل) ، إن حزبية الزبيري في أغوار نفسه وعلى طرف لسانه . فلا نجد له في تلك الفترة قصيدة ذاتية تامة ، وإنما كان حزبياً في ذاتيّاته وموضوعاته وبالتعبير الحرفي عن روح الجمعية :

خرجنا من السجن شُمَّ الأنوف كما تخرج الأسد من غابها
نمـر علـى شفـرات السيـوف ونـأتـي المنيـة مـن بـابهـا

وكل القصيدة تعبّر بضمير نحن ويختفي فيها صوت الأنا .

صحيح أن الشعر العربي كان لسان القبيلة أو لسان الجماعة أو صوت الأمة ولكن لايخلو شاعر من تجارب ذاتية كتجارب عاطفية أو معضلات عائلية ، أو نزاع فردي . . لكن هناك فرق بين التعبير عن القبيلة والتعبير عن تنظيم مهما كان سلفيّ الرؤية .

لقد كان الزبيري حزبياً من أعلى طراز ، كتابته حزبية وسجنه حزبي وتحركه حزبي وحتى صلواته الجهرية كانت لاتخلو من لمح تبشيري وتحذيري ، روي أنه كان في صلواته يؤم الناس ويختار قراءة الآيات الداعية إلى الاعتصام بحبل الله جميعاً ، والداعية إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وماأكثر الآيات في هذه الوجوه الاجتماعية والخلقية .

لقد نشأت حزبية الزبيري وجماعته على أساس سنّي يقاوم سلطة شيعية ، ودلّت على سنيته وسنية جماعته تجاوزهم المذاهب بدون اجتهاد فقهي ، فقد

سمّت الأمة الإسلامية - الكتيبة المحمدية - كما تنص الوثيقة حرفياً :

« لقد أراد ذوو الأغراض المجهولة أن يعطوك أيها الشعب اليمني فكرة شنيعة عن الأمم الإسلامية لكي يفصلوك عن الكتيبة المحمدية » .

وكان الزبيري إذا سئل : هل أنت زيدي أو شافعي ؟

أجاب أنا محمدي .

أليس هذا مبدأ سنّي ؟ ولكن بدون اجتهاد فقهي وإنما عن اجتهاد سياسي يحاول تثبيت إسلام بدون مذاهب وبدون طائفية .

لكن السؤال هل كانت المذاهب غير محمدية ؟ إن مالك والشافعي وأبا حنيفة وزيد بن علي وأحمد بن حنبل والهادي يحيى بن الحسين شكّلوا المذاهب عن صحة استدلال وعن ارتباط بالأصول ، فأضافوا الفكر الديني إلى الدين الفكري ، وتكوّن ما تسمّى الفكر الإسلامي فتلاقى الأصل الإلهي بالنظر البشري لأن الدين جاء إلى بشر لكي يفكروا ، فكانت المذاهب على مختلف نظرياتها فكرياً وفقهياً أكثر تقدماً وأغنى نظرياً من السنيين الحرفيين ، لأن التيارات الثقافية رفدت الأصول الإسلامية بثقافات الحضارات باعتبار الإسلام أهم حدث غيّر العالم القديم وامتدّت منه التغيرات والتحولات النظرية والمذهبّية ، فلا يمكن المجتهد في القرن العشرين أن يتجاوز هذه المذاهب إلى استخلاص الأحكام إلا بنفس الطريقة التي سلكها الشوكاني كأحد الراسخين في العلم ، لعل جماعة الزبيري نظرت إلى مافي اليمن من طوائف مذهبية فتبنت إسلاماً بلا مذاهب لكي لاتتنازع الوطن الأغراض البالية .

ولكن هل هذه الإيديولوجية معاصرة ؟

لقد تحولت جماعة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) عدة تحولات ولكن مع التمسك بالأصول ، ففي عام ٤٤م انتقلت إلى (عَدَن) وأسست

(حزب الأحرار) ، غير أن ظروف الحرب العالمية وامتداد آثارها إلى عَدَن ألغت التسمية الحزبية فتسمت (الجمعية اليمنية الكبرى) كامتداد متطور لجمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأصَّلت نضالها على هذا المفهوم حتى أسقطت الإمام (يحيى) قتيلاً في شباط ١٩٤٨م .

من ذلك الحين تشتت (الجمعية اليمنية الكبرى) كنيجة لسقوط حكومة الدستور ، فأصبحت الجمعية جماعات ، وفي مطلع الخمسينات أصبح الاتحاد اليمني الاسم الرابع لجمعية الأمر بالمعروف : فهل تطور هذا التنظيم بتطور أسمائه ؟

نرجع إلى أول أعماله السياسية نجاحاً وإخفاقاً ، لأن الفشل والنجاح يثيران التساؤل عن أسبابهما .. هل تحققا عن مصادفة ؟ عن أسباب عيانية ؟ عن أسباب غير منظورة ؟

لقد نجحت الجمعية اليمنية وأخفقت في وقت واحد ، نجحت في مقتل الإمام (يحيى) وفشلت في إقامة سلطة بديلة قادرة على البقاء فبعد عشرين يوماً من مقتل الإمام (يحيى) سقطت حكومة الدستور بعد أن تراءى لها إمكان البقاء .

فكيف نجحت ؟

لقد اعتمدت على كبار الموظفين وأبناء كبار الموظفين من طلّاب دار العلوم إلى جانب مجموعة من الضباط بدون جنود ، وكانت هذه الطبقة متعاطفة مع الجمعية اليمنية عن بعد وعن قرب وملتقية معها في الشعور بضرورة التغيير وإن كانت غير محدودة نوع التغيير ، وبهذا التجمع حقَّقت الجمعية مصرع الإمام (يحيى) وفشلت في قتل الإمام (أحمد) ولي عهده رغم الكمائن التي أعدت له في طريقي (صنعاء – تَعِزّ ، تَعِزّ – حجة) كما قيل في ذلك الحين .. فهل

فشلها في تحقيق قتل (أحمد) يرجع إلى قلة خبرة أو إلى استهانة به ؟ أو لعدم اعتمادها على الشعب ؟

لقد كان المتذمرون يعرفون خطورة (الإمام يحيى) ولايتبينون شيئاً هاماً من ترصّد (أحمد) وارتباطه بعدة شخصيات وجماعات ، لقد أدى فشل الكمائن في قتل (أحمد) إلى إحباط الانقلاب كليّاً ، لكن لو نجحت الجمعية في قتل (أحمد) . . هل سينتهي كل شيء ؟

ربما كانت هناك صعوبات أخرى لم يكن (أحمد) إلا مجرد إثارة لها ، فقد كانت السلطة الدستورية مسيطرة على (صنعاء) العاصمة ومرافقها القريبة ، وبهذا كان يمكنها البقاء حتى مدة أطول ، غير أن الجمعية وأتباعها في صنعاء لم تعط الاحتمالات اهتماماً كافياً ، وإنما كان يهمها قبل كل شيء التخلص من (يحيى) أولاً ثم من ولي عهده ثانياً ، وعندما حدث الإخفاق في المهمة الثانية لم تتماسك حكومة الدستور أمام هجمات (أحمد) بل سقطت في أول هجمة بعد حصار أيام عن حركة داخل العاصمة من قبل الجنود المتمركزين داخل صنعاء وعلى جبل (نقم) المطل على مقرّ الإمام الجديد ، إن النقص في التخطيط ملحوظ إلى حد عدم السيطرة على المرافق الهامة كاللاسلكي الذي أبلغ أحمد مقتل والده في حينه ، وكانت ظروف العاصمة غير قادرة على سدّ هذا النقص . . فكيف كانت صنعاء الأربعينات ؟ لقد تعرضت صنعاء للهجمات والسقوط عدة مرات من القرن التاسع إلى الأربعينات وقلّما ثبتت فيها سلطة في وجه الزحف والحصار ، وقد ظلت صنعاء الأربعينات نفس صنعاء القرون الخالية . . فماذا كانت تملك من إمكانيات الثبات ومصارعة الحصار ؟

لم يكن في مقدور صنعاء الأربعينات أن تواجه الحصار أكثر مما واجهته فقد كانت المواد الاستهلاكية غير كافية لمدة طويلة ، كان في صنعاء مخازن حبوب ومخازن أسلحة وكانت فيها آبار مياه لكنها كانت لاتملك الوقود الذي

تسوقه الأرياف يومياً ، فبمجرد انقطاع الوقود بفعل الحصار أحسّت العاصمة بالاختناق وكان الوقود في ذلك الحين الحطب المجلوب من الأرياف والقطع المعجونة من فضلات الحيوانات ، وهذا من بضائع الريف تستورده العاصمة كل يوم وقلّ من يدخر من هذه المادة مايكفي شهوراً . . لهذا كانت مادة الوقود أول ضغط تجويعي لسكان العاصمة ، حتى اقتطع مالكو البساتين الأشجار الخضر غير أنها لم تكن كافية ولاتملك الغالبية بساتين ولم تكن مواد الغاز موجودة في ذلك الحين ولا الطرق المؤدية إلى الميناء مرصوفة كاليوم ، وإنما كانت جبالاً شاهقة تشكّل مسافة عشرة أيام بين (صنعاء والحديدة) في أفضل الأحوال . . إذن فأول ما نقص العاصمة هو الوقود اليومي لإنضاج خبز الجنود والمواطنين ، أما الحبوب فقد كان في مقدورها أن تكفي لمدة عام كذلك المياه وإن كانت أغلب البيوت لاتملك آباراً إلا أن نقله من حي إلى حي ممكن بفضل الجبال المنتشرة جوار كل جامع ، غير أن الماء والحبوب يفتقدان عنصر الوقود ، لهذا أحسّت العاصمة خنق الحصار في بضعة أيام ، بالإضافة إلى هذا فإن سكان العاصمة لم يعتادوا القتال وإنما اعتادوا التسليم في أول هجمة ، بل إن إطلاق بندقية إلى العاصمة أو منها كان يؤرّق لياليها لانطباعها على الهدوء كعاصمة تحتمي بالسلطة ولاتحميها .

لهذا بدا لبعض الانقلابيين نقل حكومة الدستور إلى البيضاء ليمكن حمايتها بقوة المناطق المجاورة مهما كانت غريبة ، غير أن إمام الانقلاب رفض نقل الحكومة من العاصمة لمفاجأة هذا الرأي . . أو لانطوائه على خدعة ضده ، لأنه كان بمنأى عن أطروحاتهم ، وربما كان التقارب بينه وبينهم آنياً لمواجهة الضغط .

فهل كان يؤدي نقل الحكومة إلى سلامتها ؟

بمجرد سيطرة (أحمد) على العاصمة ستسقط حكومة الانقلاب أينما كانت

لأنه تمكن من (حجة) أن يسقط السلطة بصنعاء . . فهل يصعب عليه إسقاطها في (البيضاء) من صنعاء ؟

لقد كان (الوزير) أبعد نظراً من (جمال جميل) الذي رأى نقل السلطة إلى مدينة (البيضاء) لأن الطريق إلى البيضاء غير مأمونة في ذلك الحين ولأن البقاء غير مضمون لو أمنت الطريق . . لقد كان في مقدور الجمعية أن تفكر في جملة الاحتمالات قبل الانقلاب ، أما والحصار يقترب من العاصمة فإن الخوف قد سيطر ، إلى جانب سيادة سوء الظن بين الانقلابيين ، فقد اعتبر إمام الانقلاب الانتقال إلى البيضاء من تدبير الجمعية لإقصائه أو اعتبر هذا هروباً من المواجهة ، كل هذا ممكن وتأتي إمكانيته من ضعف التنظيم أو من تباين آرائه ، فقد اختلفت بعد تشكيل الوزراء على رئاسة الوزراء ، وأصبح أهم رجال الجمعية اليمنية الكبرى ثانويين في السلطة لأنهم غير مباشرين في الانقلاب ، ولعل هذا الاختلاف كان امتداداً للانقسام الذي انفجر في (عَدَن) بين الجمعية حتى انقسموا إلى ثلاثة أقسام : (مطيع دماج) على رأس قسم ، (النعمان والزبيري) على رأس فئة ، على حين ترك البعض عَدَن عائداً إلى تَعِزّ من أمثال (أحمد الشامي وزيد الموشكي) . كما كانت ظروف صنعاء لاتقبل الصمود أما الحصار فقد كانت ظروف الجمعية لاتعطي مدد الثبات على الوقوف في وجه العاصفة ، إذا كانت ظروف العاصمة على هذه الدرجة من الضعف فلا يمكن أن تفرز تنظيماً يمتلك القدرة على الحاضر وعلى الرؤية إلى الممكنات والمغيّبات . . لقد نجحت الجمعية بقتل الإمام (يحيى . .) فلماذا أخفقت في تكوين سلطة قابلة للبقاء ؟ مع أن الاستيلاء على العاصمة أهم عوامل البقاء والامتداد إلى المناطق ، فأوّل ما يمكّن كل انقلاب من الصمود هو السيطرة على العاصمة ، وقلّما عاد إليها حاكم طرد منها على يد ثورة أو انقلاب كما رأى (ابن خلدون) .

لقد كان التنظيم يعتبر الشعب مُمَثلاً في كبار الموظفين وفي مئة طالب من

دار العلوم وفي نحو أربعين ضابطاً من خريجي الكلية الحربية بلا جنود ، وبهذا أنقصته النظرية الأبعد إلى الاحتمالات وإلى مواد النظرية من القوى البشرية ، وكانت الجماهير غير مشاركة في الانقلاب كما كان الجيش على غير علم إلا بعد حدوث الانقلاب ، وهذا التكتم على الجيش ينم على فكرة أساسية عند الجمعية ، فقد كانت تصر على عدم اشراك الجيش كما كانت أميل إلى القوى القبلية ، لهذا نفذ قتل الإمام (يحيى) خمسة من الشيوخ في غياب قبائلهم ، وكان الاعتماد على جماعة من الضباط بقيادة (جمال جميل) كمنظّر عسكري إلى جانب (الفضيل الورتلاني) كمنظّر سياسي ، لأن الحزب كان يخاف فاعلية الجماهير بل كان يسميهم بالغوغاء . . فهل كانت النظرية فوقية ؟ إنها تختلف عن الفوقيات المعروفة : كالانقلاب العباسي ضد بني أمية ، وصراع الأئمة اليمنيين ضد بعضهم . . إن نظرية الجمعية فوقية من نوع آخر ، تعتمد على المستنيرين من كبار البيوتات وليس على واقع الغالبية كمصدر الأفكار والسلطات . . لقد كانت تخطط الجمعية اليمنية الكبرى تخطيطاً إصلاحياً : بدأ بالدعوة والنصح للإمام لكي تنفذ عن مشيئته الإصلاح الديني والسياسي ، ولكنه نفذ مايريد متجاوزاً الدعوة والنصح أو متجاوباً معهما بطريقة أخرى .

لهذا لاحظنا منهاج جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يفكر نفس تفكير الإمام في التوجيه الديني وبث الدعاة . .

لكن هل كان الشعب مفتقراً إلى الصلاة أو مفتقراً إلى ضروريات الحياة ؟

إن الدعوة الدينية ممتدة منذ إشراق النبوة والوعظ والإرشاد مستمران ، لهذا لم يكن في دعوة الجمعية جديد ولا وعد بتجديد وإنما هي تقول نفس ماقال الأئمة ودعاتهم من الترغيب في (الله) والترهيب به ، والإضافات الصغيرة التي أضافتها الدعوة من رياضة جسدية ووحدة إسلامية لم تكن صدى لأهواء النفوس ولامعبرة عن تجاوز الضروريات إلى العيش الأفضل .

مثل هذا نوع التنظيم فقد كان من صنف رجال الحكومة وأتباعهم من مخمنين وجباة ضرائب ، ورغم هذا لم يكونوا على دراية كافية أنهم يدعون إلى ماهو قائم إمامياً وتاريخياً . . لهذا انتقلت الجمعية إلى ماظنته طوراً آخر قريباً من الأول وهو التنديد بالرشوة واسترهان أبناء الشيوخ ، غير أن التنديد بالرشوة كان قائماً في خطب المساجد كما كان العقاب على ظهورها بالمرصاد هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، أن الذين كانوا يدفعون الرشوة أقلية من القادرين على الاكتساب الباطل كما أن الذين كانوا يرهنون أبناءهم من الشيوخ كانوا يحققون مكانة عند الدولة ومكاسباً من المواطنين ، فكانوا ينالون من الدولة أرباع أعشار الضرائب كل شيخ على منطقته ، وكانوا يقبضون من المواطنين ضريبة سنوية باسم (مصروف الرهينة) ، وكان الشيوخ يتنازعون في المحاكم على مشيخة الضمان ومَن الأولى بها عندما بزغت مشيخات تنازع المشيخات الكبرى ، فقد كان تقديم الرهينة على شكلين : للطاعة من شيوخ البدو ، وللمكانة والكسب من شيوخ الأرياف ، ولم يكن تقديم الرهائن مدعاة تذمر عند الشيوخ ولاعند الفلاحين لاعتياده . . من هنا يتبين المرء أن أفكار الجمعية الكبرى لم تصعد من الشعب عن استقصاء لرغباته وإنما عن وعي ثقافي غير واضح للتغيير . . ولهذا نجح الانقلاب وأخفق في مدة شهر ، وكان نجاحه بفعل الفترة التي ألحت على تغيّر لم تتبين القصد إليه أو نوعه ، وكان الفشل لنفس الأسباب ، هذا دليل على أن الجمعية كانت تجمعاً لاتنظيماً أو تنظيماً أفرزته نفس الظروف المتخلّفة ، وكل تنظيم من نوع الظروف التي تفرزه . . لقد تحولت الجمعية من جمعية أمر بمعروف إلى حزب الأحرار الذي لم يعلن إلى الجمعية الكبرى التي أعلنت وانتكست كتنظيم عام ٤٨ من هذا القرن ، لأن بعضها استضافه السجن وبعضها حصده السيف وبعضها أنجاه الفرار ، والملحوظ أن السجناء من أعضاء الجمعية في شطري اليمن الوافدين من عَدَن وذوي الحماس الآني بصنعاء كانوا في

الدرجة الثانية من الخطورة عند الإمام (أحمد) ، لأنه ركّز على الفاعلين وأخطر النظريين ، فقد أعدم من آل الوزير خمسة كما أعدم الشيوخ الخمسة المباشرين لقتل أبيه إلى جانب عدد من المثقفين المتحمسين للدستور : كأحمد الحورش والمسمري والبراق ومحيي الدين العنسي عبد الوهاب نعمان ، ولم يعدم من أعضاء الجمعية إلا زيداً الموشكي لاتهامه بنقل الأسرار الأميرية من تَعِزّ إلى صنعاء . أما زميله أحمد الشامي فلم يسجن غير نحو أربع سنوات ، أما الزبيري فقد كان غائباً عند سقوط العاصمة ويوم إيابه كان الحصار قد أطبق عليها فعادت طائرته إلى مطار عَدَن ومن هناك تقاذفته الملاجئ حتى استقر على مضض في الباكستان ولعل التجاءه تسبب في نجاة الأستاذ نعمان أهم المنظّرين سياسياً للجمعية ، وقد أطلق الأستاذ نعمان بعد أحمد الشامي وأصبح من حاشية الإمام (أحمد) ومن أنصاره في انقلاب ٥٥ حتى اعتبره الإمام (أحمد) ثاني نجله البدر .

إذن فقد تشظّى هذا التنظيم داخلياً ودلّ اختلاف العقوبات وفترات الإطلاق على درجات الخطورات بين أعضاء الجمعية وهذا يستدعي التساؤل : هل كان الانقلاب من تخطيطهم أو أنه معتمد عليهم كمنفذ لرغباتهم ؟

لقد نجح الانقلاب وفشل ، وكان سبب نجاحه نفس عوامل فشله ، إنها الظروف المعقّدة وغياب الاستبصار عن تعقدها وإقصاء الشعب عن ساحة الفعل ، حتى أدى قيام السلطة الدستورية وسقوطها إلى إرهاصات جديدة كانعكاس للحدث ، لأن هذا الحدث رغم إخفاقه قد دلّ على إمكانية بزوغ بديله ، وهذا البديل الواعد ممكن التأصل لأن نفسية الشعب أخذت تتفتح لتقبل التغيير الصاعد منها والمعبّر عن نوازعها .

انتهت الأربعينات وفي أعينها مئات الأسئلة :

ماذا حدث ؟ ولماذا حدث ؟

فقد كانت سنة ٤٩ سنة الغضب على الدستوريين عن سخط عليهم وعن مجاراة للسلطة وعن مجاراة للساخطين ، ذلك لأن مثقفي تلك الفترة من صنفين : صنف دستوري ، وصنف إمامي ، وهناك صنف ثالث كان يريد أكثر مما حدث ويرى الانقلاب إجهاضاً لإمكانيات أحداث خلاقة . . إذا كان الدستوريون من المثقفين والشيوخ ، فإن الذين أسقطوه من المثقفين والشيوخ والجماهير ، كان الزبيري ونعمان ألمع الأدباء الساسة ، وكان عبد الله الوزير أشهر الإماميين بالتدين والورع وإدارة الحروب ، وكان من مستوى هؤلاء ديناً وأدباً إلى جانب الإمام (أحمد) جماعة مقابلة : كالشاعر (عبد الكريم الأمير) رئيس تحرير صحيفة (الإيمان) والشاعر (محمد موسى) رئيس تحرير جريدة (النصر) ، ومن رجال الدين (قاسم العزي) (بصنعاء) و(مجد الدين)(بصَعْدة) و(حمود الدولة) (بذمار) وقد كان هؤلاء الثلاثة من مدرسة عبد الله الوزير ، كما كان عبد الكريم الأمير موسى من صنف الزبيري ونعمان .

لهذا لم تستوعب الجمعية أغلب المثقفين ، وإنما كان هناك مثقفون من نفس المستوى ضد سياسة الجمعية اليمنية الكبرى وضد إمامة الوزير ، ولعل المضادّين كانوا أقرب إلى اليمنية والنزوع اليمني ، على حين كانت الجمعية تعتمد على برامج التنظيمات دون أن تيمنها أو تستهدي بها إلى طوايا اليمنيين ، كما كان الانقلاب قابلاً للسقوط فقد كان تشظّي الجمعية قابلاً للالتئام ، فبعد أن خَبَت جذوتها من ٤٨ إلى ٥٢ بدأت تستجمع عوامل اشتعالها بفعل تغيرات الظروف العربية ، فبعد قيام ثورة مصر ٥٢ انفتح قلب القاهرة لسائر المناضلين ضد الاستعمار والاستبداد ، وفي عام ٥٣ تحولت الجمعية اليمنية الكبرى إلى القاهرة وامتدت الحياة إلى أفرادها (بعدَن) وتغيرت التسمية إلى الاتحاد اليمني وواصلت جريدة صوت اليمن إصدارها من القاهرة بعد عَدَن .

لقد قام الاتحاد اليمني عام ٥٣ عن مفهوم جديد لأنه انبعث تحت ضوء جديد وإن كان ممتداً من أصول قابلة للتحول والثبوت ، لأن الاتحاد تفاعل باتّقاد الفترة كما تدل كلمة الافتتاح التي ألقيت يوم افتتاح دار الاتحاد اليمني وهي أشبه بمنهاج نظري للتنظيم .

« في فجر اليوم الذي صنعناه من أنفاسنا وعرقنا ، ومن ذروة الشوامخ التي شيدناها بكفاحنا وسواعدنا ، وعلى مقربة من حرم الغاية المقدسة التي أنفقنا في طريقها العمر واستهلكنا في سبيلها الحياة ، نزفّ إلى الملايين من أبناء اليمن السائرين في بواديه الكادحين في سهوله ووديانه القابعين في كهوفه وأكواخه المبعثرين الحائرين المتطلعين إلى السّماء ينشدونها ضوء الفجر ويستجدونها المعجزة وإلى مئات الألوف من اليمانيين المنتشرين في مشارق الأرض ومغاربها ، الباحثين عن الحياة المكافحين في سبيل البقاء المجاهدين في سبيل العزة والكرامة والطمأنينة إلى الذين عاهدوا الله أن يعيشوا كراماً أحراراً وأن يظلّوا أوفياء لمبادئهم يتمسكون بها إلى آخر رمق في الحياة ، إلى هؤلاء جميعاً نزفّ بشرى نجاحهم ، انبلاج صباحهم وظهور الفجر الصادق الذي نسجوا أشعته من أطياف أرواحهم . هذا هو اليوم الذي آن فيه لمبادئنا أن تظهر ولجراحنا أن تجبر ولأمانينا أن تنتصر ، هذا هو اليوم وهذه هي المبادئ والأهداف التي سعينا لأجلها طويلاً وحملنا ثقيلاً وجوزينا عليها اليوم جزاء جميلاً ، فقد تمّ التفاهم والاتفاق بين أبناء اليمن على تجديد أهدافهم بحيث يكون أبناء اليمن على قلب رجل واحد تحكمهم المثل الوطنية العليا على اختلاف طبقاتهم وقبائلهم ومشاربهم ، وقد كان لابدّ من هذا الاتجاه فإن اليمن اليوم تكتنفها الأخطار والمؤامرات ، فلو لم يجتمع رجال اليمن حول مبادئ شورية تضمن سعادة الشعب واستقلاله فإن الله وحده الذي يعلم ماكان يمكن أن تتعرض له اليمن من أحداث جسام ، وإننا إذ ندعو الناس إلى الإخاء والتضامن على أساس هذه

المبادئ الشورية فإنما نحاول إنقاذ اليمن من التيارات الشخصية الخطرة التي بدأت تعصف بأبنائها ذات اليمين وذات الشمال ، فهذا يعطي اليمن لزيد وذاك يهبها لعمرو وهذا يحاول أن يضعها في المزاد بسوق الطامعين لكأنما الشعب اليمني بوطنه العظيم وكنوزه الغالية وعروبته العريقة سلعة تباع وتشترى ، لذلك فإن الاتحاد اليمني وكل من ينتمي إليه أو يؤمن معه بهذه الفكرة وبهذه المبادئ الشورية الخالدة يعلن أن هذه المبادئ الوطنية هي المحور الذي تتجه إليه قلوبنا وترتبط به مصائرنا ، وإن الشعب ليعلم أنّا لسنا طلاّب ملك ولاجاه ولامال ، لذلك فإننا ندعوا الشعب حكاماً ومحكومين أن يبدؤوا عهداً جديداً على أساس هذه المبادئ التي هي جديرة أن تعطي كل ذي حق حقه ، فإلى صاحب الجلالة الإمام (أحمد) المعظّم نقدم هذا المنهج الذي انتهجناه في دعوتنا وجعلناه ذروة النظام الذي ننشده هي حقوق الإمام على الشعب إيماناً بأن هذا الحق في مصلحة العرش ومصلحة الشعب معاً واعتراف منا بأن الإمام هو رمز البلاد واجبه المقدس أن يحمي حقوقها ، وإننا نعتقد أن كل من يوهم الناس أن مصلحة العرش وحقوقه تناهض مصلحة الشعب فهو عدو للشعب وللعرش . » .

محمد محمود الزبيري

رئيس الاتحاد اليمني بمصر

أعلن الاتحاد اليمني هذا المنهاج عام ٥٣ وبثّته إذاعة صوت العرب وردّد الاتحاديون القسم الوطني على الالتزام بهذا المنهاج والعمل بمقتضى نصه وروحه ورحّب المنهاج بكل الاقتراحات لتعديل المنهاج بعد مضي عام كامل بعد أن تدرس الاقتراحات وتبين إيجابياتها وتتجلى قيمة الإضافة والحذف .

إذا نظرنا إلى هذا المنهاج المنشور في كتاب (مسار الحركة الوطنية اليمنية) لعلي محمد عبده فسوف نلاحظ الفروق العظيمة بين هذا المنهاج وبين مناهج الأربعينات من دعوة الأمر بالمعروف إلى الميثاق المقدس مروراً بأدبيات

صحيفة (صوت اليمن) ولعل أهم الفروق هو الاعتماد على الشعب في موطنه وفي مهاجره وعلى القبائل في كل مكان وعلى الحاكمين والمحكومين معاً والوشيجة التي تجمع بين هذا المنهاج وبين منهاج عام ٤٠م هي تقديم المنهاج الأول إلى الإمام (يحيى) وتقديم المنهاج الثاني إلى (الإمام أحمد) ، غير أن المنهاج الأول يستجدي الإمام رخصة الإرشاد الديني .

أما المنهاج الثاني فهو كبرنامج سياسي يرى الإمام مجرد رمز للبلاد ترتبط مصلحة حكمه بمصلحة محكوميه وثقابة النظر في المنهاج هي التنبيه إلى الخطر المتعدّد الأيدي الذي يتنازع اليمن من الخارج ويلقى قابلية في الداخل كما يقول المنهاج حرفياً ، فهذا يعطي اليمن لزيد وهذا يهبها لعمرو وهذا يطرحها بالمزاد كسلعة .

لقد صدر المنهاج في القاهرة بعد غياب الزبيري عن اليمن خمسة أعوام . . فماذا استجدّ في الساحة من أخطار تهدد استقلال اليمن واستلاب سيادة بنيه ؟

بعد انتصار الإمام (أحمد) على الدستوريين عام ٤٨م أسكت الأطماع في نفوس إخوته لأنه انتزع الملك بحدّ السيف لا بالوراثة وحدها ، إلا أن إخوته لم يقتنعوا بهذا الحق ولم يقبلوا وضعهم كموظفين بدرجة وزراء أو نواب لأخيهم ، فتفاقم النزاع العائلي سرّياً وكان الإمام (أحمد) على أقرب ذكرى من انتماء أخيه (إبراهيم) إلى الجمعية اليمنية بعدَن ، فعمل في سرية على قتل أكثر إخوته طموحاً وهو الأمير (يحيى) الذي رأى نفسه شريك (أحمد) في النصر ، لأن المدفعيين بقصر غمدان أطلقوا القذائف على مقر (إمام شباط) عن تدبيره وعن أمره فأسقط الوضع الدستوري من الداخل ، وبهذا سهّل على المحاصرين اقتحام صنعاء ، وكان لكل أمير حاشية تثير فيه الطموح وتدنيه من غايته ، وعلى صغر سن الأمير (يحيى) فقد لحظ (أحمد) توقه إلى الملك أو احتمال توقه إليه بما

كان يبدي من التبجح وبما كانت تنشر حاشيته من الدعاية ، لهذا مات الأمير يحيى مسموماً كما قيل ، وكان هذا أول حادث روّجته الإشاعات عام ٥١م ولاشك أن دسائس القصور التي تعددت تزايدت بعد قتل أبي السيوف وبعد انتصارهم على قتلته .

وقد أشار إلى هذا الأمير (علي بن يحيى) في عرس ابنه الأمير (الحسن) عام ٥٣م :

ونحـــن بنـــو أســـرة كلنـــا   خيـولهـم للمعــالــي جمــاح

وقد كان هذا البيت من قصيدة الأمير علي محور نقاش المحتفلين بالزفاف وكلهم من كبار الموظفين وأتباع الإمام والسيوف ، وكان الأمير علي معروفاً بطموحه من أيام أبيه ولو لم يستلب وعيه السكر لكان خطره أكثر فقد هاجم أباه في زحمة التذمر عند مثقفي الأربعينات ورددت له الروايات قوله :

بني وطني إلى كم نحن نشقى   وأنتم في المضـاجع راقدونا
وهــذا المستبــد الغـرّ يحيــى   عــدوّ الله يظلمكــم سنينــا

ودعاية الأمير علي ضد أبيه دعوة لنفسه كما هي عادة الحكم الوراثي ، وعندما أعلن طموحه وطموح أخوته في الخمسينات في قصيدة تهنئة بزفاف ابنه كان في هذا إشارة إلى نزاع عائلي ، دلّت عليه زيارة (الملك سعود) لصنعاء عام ١٩٥٤ لقصد إصلاح ذات البين ولتصافي الإخوة في ظاهر الأمر ، ونتيجة هذا النزاع السرّي تلمست الآراء الرسمية حلاً لحماية حكم العائلة قبل أن يتداعى : فرأى البعض أن توثيق العلاقات مع بريطانيا مستعمرة الجنوب أجدى للحكم ، لأن عدائية الإمام (يحيى) للإنجليز جرّت عليه مؤامرة المناوئين في الأربعينات ولابد للإمام (أحمد) من إغلاق هذا الطريق في وجه من يحاول الحماية بمستعمرة عدَن كما حدث في الأربعينات ، وهناك من رأى أن حسن

العلاقة مع الجيران تمنع إمداد أي خارج على السلطة ، غير أن ثورة مصر القومية أخذت تزلزل الأرض تحت أقدام الاستعمار بما في ذلك الاستعمار البريطاني ، وكان الاستعمار الجديد بزعامة الولايات المتحدة يحتلّ مواقع الاستعمار القديم أو يعدّ نفسه للاحتلال بعد جلائه . لقد شمّ الزبيري رائحة الصراع العائلي ولمح عبارة المنهاج : « هذا يعطي اليمن لزيد وذاك لعمرو وهذا يتاجر بها » ، لعل في هذا أهم الإشارات إلى مؤامرة السيف (عبد الله) على أخيه (أحمد) وتأييد إخوته لهذا التآمر ، وقد دلّت على صحة هذه الإشارة حركة مارس ١٩٥٥ حين قام عبد الله بانقلاب على أخيه (أحمد) بدفع من الولايات المتحدة الأمريكية ، كما دلّت إشارة الزبيري إلى هذا الحادث قبل وقوعه دلّت على أمريكية الانقلاب غضبة الإمام (أحمد) على الإمبريالية كصانعة انقلاب ، لهذا قوّى الإمام (أحمد) علاقاته مع الاتحاد السوفيتي والصين وتبنّى فكرة اتحاد مع مصر وسورية عام ١٩٥٨ كردّ فعل على المؤامرة الأمريكية ، وقد اتضح موقف الاتحاد اليمني من ذلك الانقلاب الأمريكي فشنّ الزبيري من إذاعة صوت العرب هجوماً عنيفاً على الانقلاب والانقلابيين كمؤامرة ذات شقين ، تنتزع سيادة اليمن وتعيد الدورة الدموية إلى الإمامة المتداعية ، وقبل هجوم الزبيري وقف الأستاذ (نعمان) إلى جانب (البدر) في وجه الانقلاب وافتتح إذاعة لاسلكيّة (بحجة) تتوعّد الانقلابيين (بتَعِزّ) كما قام برحلة إلى المملكة العربية السعودية يطلب تأييدها للبدر ، غير أن الإمام (أحمد) سبق كل تدبير فقضى على الانقلاب في يومه الخامس بتدبيره الخاص .

فمن هم الذين يريدون توزيع اليمن للطامعين ؟ .

إنهم حاكموها وليس الشعب لأن الطموح إلى السلطة والتشبث بها أثار الخوف على وحدة الوطن وعلى سيادة بنيه ، وقد كان منهاج الاتحاد بتأييده للإمام أحمد كرمز للوحدة الوطنية يشمّ المؤامرة الإمبريالية التي ألقت أقنعتها في

مارس عام ١٩٥٥ غير أن المنهاج دعا الإمام أحمد إلى تنظيم حكمه وصلته بالشعب كخادم للأمة التي سوّدته عليها .

ألا يتجلّى الفرق بين نهج الاتحاد اليمني ونهج جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي نشأ الاتحاد منها وتطور عبر تجاربها تحت شعارات وتسميات حتى نضجت كل التسميات ، فوصلت إلى صيغة تنظيمية تنتمي إلى الأصالة وتتجذر في المعاصرة ، غير أن الاتحاد راقب التحولات والتغيرات ، من أين وإلى أين ؟؟ .

لعل مقاومته لانقلاب ٥٥م ينتمي إلى نزعتين :

الأولى معارضته الإمامية كحكم ، الثانية رفض الانقلاب العسكري توجّساً من العسكريين كسلطة ، وقد دلّت على النزعتين مواقف لاحقة للانقلاب الأمريكي ، فعندما عقد الإمام صفقة الأسلحة مع السوفيت عام ١٩٥٦م أصدر الاتحاد منهاجاً ثانياً بعنوان (مطالب الشعب) والفرق بين العنوان وموضوع المنهاج السابق يدل على رصد التحولات ونوعيتها في تلك الفترة المتفجرة ، وقد كان عنوان منهاج الاتحاد الذي صدر عام ٥٣م (آمالنا وأمانينا) وكان مرفوعاً إلى الإمام أحمد كرمز للوحدة الوطنية وكحاكم يجب أن يعرف واجبه الشعبي لصالح الشعب كقاعدة وللحكم كقمة تبقى بوجود القاعدة ، وقد كان هذا المنهاج يشير إلى المخاوف المنتظرة ويرى بقاء الإمام ضماناً لوحدة الوطن . أما منهاج (مطالب الشعب) فهو دستور للحكم الشعبي . يرئ الملك يسود ولايحكم ، ويحكم الشعب نفسه من خلال ممثليه ، إنَّ (مطالب الشعب) برنامج ثوري ولكن بدون سلاح لتخوف الاتحاد من الثورة المسلحة كما يشير المنهاج (مطالب الشعب) ويمكن مناقشته على ضوء نصوصه والانطلاق منه على هدى التحولات الشعبية والتغيرات العالمية وتطور حزب الاتحاد من خلال التغيرات العامة والخاصة .

الاتحاد اليمني بين الاجترار والتحول

أول ما يتعين على دارس الحركات اجتناب التعميم حتى لايسود الخلط : بين ماهو شعبي وغير شعبي ، فليست كل حركة شعبية ، لأن اصطراع البنى الفوقية والتي تليها طبقياً تعبّر عنها أكثر مما تعبّر عن الشعب ، فمجرد إبدال ملك بملك أو سيئ بمثله لايدخل في حساب الشعب وإن كان محسوباً عليه كتضحية ومضحّي ، ولعل أغلب الحركات اليمنية إلى سبتمبر ١٩٦٢ تتّسم بالصراع الفوقي بين أنداد من طبقة عليا أو مايتصل بها ، غير أن هذه الحركات قد خلقت جواً قابلاً لإبدال لون بلون ووجوه بوجوه حتى أدّت التحولات إلى اصطراع الشعب مع سلطات القهر ومع نفسه التي قبلت القهر . . ولقد أحسّ الاتحاد اليمني عام ١٩٥٦ مقدار بعده عن الشعب فأخذ يقوّم صلاته ويغير علاقاته بالقطاعات الشعبية التي نعتها في الأربعينات (بالغوغاء) وبالرعاع وبالجهلة . . غير أن هذا الالتفات إلى الشعب كان بعد حينه ، لأن الشعب كان قد تجاوز مرئيات (الاتحاد) وأصبح يفكر في إحلال حكم الشعب محل الإمامة بدلاً من دعوة الإمامية إلى تحسين علاقتها بالشعب كما تدل أدبيات الاتحاد ، ولعل نقطة البداية في التحول الشعبي تنتمي إلى مطلع الخمسينات بفعل الهزات العالمية والعربية وفاعلية تأثيرها في الجماهير اليمنية كعضو في الكيان البشري يتأثر ويؤثر ، ولكن لم يحدث هذا فجأة وإنما جاء من تفاعل حي له عراقة في تربة التحرك السفلي ، ويمكن الالتفات إلى بداية الينبوع في التطور المعاصر .

كان القرن الثامن عشر في أوربا عصر الاقتتال بين البرجوازية والإقطاعية ، حتى سقطت الاقطاعية الأوربية ، ملكت السلطة القوى البرجوازية فأرادت أن

تستفيد بتجاربها وبالخيوط الحية من موروث الإقطاع ، فبزغت في منتصف القرن التاسع عشر قوة العمال كمناهضة للبرجوازية وريثة الإقطاع ، وكان الاقتتال سجالاً بين الرأسمالية و (البروليتاريا) حتى نهاية الحرب الأولى ، هناك انقسم العالم إلى ثلاثة عوالم : العالم الرأسمالي ، العالم الاشتراكي ، والعالم الثالث الخاضع للاستعمار . . ونتيجة وجود معسكرين تنامى العالم الثالث وتصاعد تناميه حتى نهاية الحرب الثانية ١٩٤٥ . . من ذلك الحين بدأت المستعمرات تتفجر ويتلاحق انفجارها من قارة إلى قارة ، واهتدت الشعوب إلى أنجح وسائل النضال ، فشكّلت التنظيمات وراقبت تحركها على مقتضى برامجها ، وفي هذه الفترة تشكّل الاتحاد اليمني تحت اسم (الجمعية اليمنية الكبرى) وعلى إثره تشكّلت (رابطة أبناء الجنوب) . . فهل يشبه هذان التنظيمان سائر التنظيمات المعاصرة كالوفد في مصر أو كالحزب الديمقراطي في غانا أو كالبعث العربي الاشتراكي أو كجبهة التحرير الجزائرية ؟

إن كل تنظيم إفراز واقعه ، كما أن العالم الثالث ينطوي على عوالم متباينة . . يمكن أن نعتبر (اليمن) أغنى بالثقافة التراثية ولكن على حساب المعاصرة ، على حين اصطرعت المعاصرة والتراثية في سائر أقطار العالم الثالث من منظور إيديولوجي بعضه سلفيّ محافظ وبعضه سلفيّ مستنير وبعضه معاصر استعماري وبعضه معاصر تقدمي ، وكان الاستعمار يشجع هذا الخلط في المنظور لكي يكون هو الخصم والحكَم ، غير أن وجود معسكر اشتراكي بنفس القوة المتصاعدة قد برّر تنامي مجتمع ثوري في العالم الثالث ، وكان لابد أن تتفجر الثورات على الاستعمار وأن تقوم أنظمة ثورية تختلف عن رأسمالية الاستعمار وعن إشتراكية المنظومة الاشتراكية ، فنشأت الاشتراكية الثالثة المختلفة عن الفابية وعن الماركسية وذلك لاختلاف تجربة العالم الثالث واختلاف إقطاعيته وبرجوازيته عن إقطاعية أوربا وبرجوازيتها ، وكانت (اليمن) أكثر اختلافاً ،

كان الشطر الجنوبي مستعمراً وكان الشطر الشمالي مستقلاً سياسياً مستعمراً اقتصادياً كسوق لمحتل أحد شطريه ، وكان التفكير في وحدة الشطرين غائباً عن بال أول تنظيمين : الجمعية والرابطة ، فكانت الجمعية اليمنية الكبرى تعتبر اليمن من قعطبة إلى صَعْدة ، وكانت رابطة أبناء الجنوب تعتبر الجنوب عربياً غير يمني كما سبقت الإشارة ، وكان هذا يساعد الاستعمار على امتداد بقائه سياسياً واقتصادياً في الشطرين ، غير أن انقلاب ١٩٥٥ على (الإمام أحمد) بقيادة أخيه عبد الله في شمال الوطن أثار الانتباه إلى وجه الاستعمار الامبريالي بزعامة (واشنطن) كبديل للاستعمار القديم وكبديل للاستقلال التام اقتصادياً وسياسياً ، وكان الاتحاد اليمني يراقب التغيرات في الداخل والخارج ، فقد أخذ (الإمام أحمد) يتبنّى تحرير الجنوب لكي يكسب رضاء التقدميين في الوطن العربي وفي غيره ، وكانت صفقة الأسلحة السوفييتية عام ١٩٥٦ البرهان الرسمي على تبنّي (أحمد) نضال الشطر الجنوبي وتحريره ، غير أن وجود الاتحاديين بالقاهرة والرابطيين بالجنوب وفي السعودية لم يكن كافياً لخوض الميدان المشتعل ، فاستدعت الظروف إفراز تنظيمات جديدة ، فتشابه تشكيل التنظيمات في الشطرين ، فكما تحوّلت الجمعية اليمنية إلى الاتحاد اليمني بالقاهرة بعد ثورة يوليو ، تحولت النوادي العَدَنية إلى تنظيم المؤتمر العمالي وانضم إليه كل اليمنيين ، وباختلاف التنظيمات اختلفت الإيديولوجيات ففي الوقت الذي كان يتبنّى فيه الاتحاد (إمامة دستورية) ، كانت التنظيمات في الداخل على امتداد الشطرين تستعجل ميلاد جمهورية متحررة ، وكاد الاتحاد (بعَدَن) أن يصبح نقيضاً للاتحاد بالقاهرة رغم تبنّي الأحزاب التقليدية فكرة العروبة بديلاً عن التحرر اليمني ثورياً ، غير أن الاتحاد كان متوجّساً من تطرّف الداخل كشعب ومن عداوة السلطة كقوة لاتقبل تغيير بعض أشكالها كاستجابة إصلاحية ، وفي نفس العام ٥٦ أصدر الاتحاد اليمني بالقاهرة (مطالب الشعب) مصحوبة بميثاق يدعو فيه إلى قيام جمعية تأسيسية وحكومة تنفيذية وسلطة قضائية مستقلة في ظل

ملكية رمزية تسود ولا تحكم ويحكم الشعب في ظل سيادتها ، وهذا الميثاق يختلف عن المواثيق التي أصدرها الاتحاد من مطلع الأربعينات حتى ٥٦ فهو يتجه إلى الشعب لا إلى الإمام كسوابقه وهو يعبّر عن شعب جديد وإن لم يَلمح نوع الجِدّة التي يناضل الشعب لها ، ولعل اللغة هنا تبرهن على تطور الاتحاد ثقافياً وسياسياً وإن لم ينقطع عن الإصلاحية ، كما تُنْبي هذه السطور من المطالب :

« باسم الشعب اليمني الجديد يعلن الأحرار الدستوريون المطالب القومية :

١ - الملك يملك ولايحكم .

٢ - تأليف حكومة انتقالية من أبناء الشعب تقوم بإجراء انتخابات لجمعية تأسيسية .

٣ - تلتزم الحكومة الانتقالية بالميثاق الوطني المرفق بهذا كدستور مؤقت أمام الشعب الممثل في الجمعية التأسيسية » .

والملحوظ أن المطالب والميثاق لاتشير إلى تحرير الجنوب ثم إنها تؤكد على قومية اليمن واستقلاله وتشي الروائح أن (الاتحاد) يعني باليمن الشطر الشمالي ولايلمّح إلى الشطر الجنوبي أو يدعو إلى تحرره ، بعد صدور هذا الميثاق ألقى (الإمام أحمد) خطابه المشهور :

« يقولون إننا لانحب أن نستعين بأهل الرأي والمشورة ويشهد الله أننا نستعين بكل أهل الفضل وعندما نريد لاستعانتنا مزيداً من أصحاب الرشاد والقصد الحسن لانجد أحداً :

إني لأغمض عيني ثم أفتحها   على كثير ولكن لا أرى أحداً »

بعد هذا الخطاب بأيام تحدّث الأستاذ (أحمد محمد نعمان) من إذاعة

صوت العرب مفنّداً دعاية (الإمام) في انعدام الرجال ومندداً بمن كتب للإمام هذا البيت الشعري :

(لارحم الله من كتب له هذا البيت أو من رواه له أو من أراه كتاباً هو مدوَّن فيه) .

وهذا البيت مع سابق له لدعبل الخزاعي من شعراء القرن التاسع الميلادي :

ما أكثر الناس لا بل ما أقلهمُ — والله يعلم أني لم أقل فندا
إني لأغمض عيني ثم أفتحها — على كثير ولكن لا أرى أحداً

وقد أثار البيت الثاني ثائرة النعمان وكان رده تجهيلاً للإمام بالأدب أكثر من تفنيده لسياسته ، وردّ (النعمان) ينطوي على إشارة إلى زعماء الاتحاد بأنهم أصحاب الرأي وبأن تعاونهم مع (الإمام) ممكن ، لأن هناك خطاً مشتركاً بين الإماميّن والمعارضة من مطلع الأربعينات حتى آخر الخمسينات ، فكما بث (الإمام يحيى) الدعاة إلى مزيد من التدين وكما تبنّى الوحدة الإسلامية لكي يغلق أفواه المعترضين من جمعية الأمر بالمعروف ، تبنَّى (الإمام أحمد) في أول الخمسينات تشكيلاً حكومياً يختلف عن عهد أبيه ، فقد عيّن رجالاً من غير إخوته كوزراء وأعطى نوابه صلاحيات محدودة على حين لم يكن لأبيه نواب ، بل زاد (أحمد) على تشكيل الوزارات توسيع العلاقات الدبلوماسية مع دول العالم والمشاركة في المنظمات العالمية والمؤتمرات الدولية ، فأوهم أنه قد استوعب كلّ ما تبنّى الدستوريون من أوضاع ، وتوالت تشكيلاته على مقدار ارتفاع المعارضة أو خفوتها ، فبعد أن أصدر الاتحاد (آمالنا وأمانينا) افتتح (الإمام أحمد) مكتب شكاوى سمَّاه (الديوان الملكي) ، ثم شكَّل هيئة شرعية كقضاء مستقل ، وعندما أصدر الاتحاد عام ٥٦ (الميثاق) حدث تقارب بين

اليمن وبين السعودية ومصر ، وكانت دوافع ذلك التقارب خوف السعودية من العرشين الهاشميين في بغداد وعمان ، وخوف الإمام أحمد من اكتساح المدّ الناصري وفضّل (جمال) التقارب على التخاصم . ثم عقد (الإمام) صفقة الأسلحة مع الاتحاد السوفيتي وعقد اتفاقية بناء ميناء (الحديدة) مع السوفييت وعقد اتفاقية تعبيد طريق (الحديدة صنعاء) مع الصين ، وكان هذا الإصلاح الرسمي مقابلاً للدعوة الإصلاحية عند (الاتحاد) ونفياً لدعواهم عزلة (اليمن) عن العالم ، من هنا دخل (الاتحاد) أحرج ميدان لأن (الإمام) بدأ يحتمي بموضة العصر وينهي ماكان يسمى بعزلة (اليمن) والخوف من الإصلاح ، ولأن الجماهير دخلت مواقع نضالية أكثر تقدماً من مواقع (الاتحاد) ، وثّق (الإمام) علاقاته (بالكرملن) وهذه التنظيمات البازغة تخلّف (الاتحاد) وراءها متجاهلة سبقه رافضة أطروحاته ، وهذه الثورات تجتاح العالم الثالث وتستقبل اعترافات (الإمام) ووفوده ، بل حدث ما هو أدهى : فعندما أراد (أحمد) سحب البساط من تحت (الاتحاد) أعلن انضمامه إلى الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٨ عقب قمّة (جدّة) الثلاثية بعامين ، وبهذا أسكت (الاتحاد) مؤقتاً ، أو حال بينه وبين أجهزة الإعلام المصري ، فلم يبق إلا الشعر بطاقته الطيّارة ، وقد نفث الأستاذ الزبيري كل مرارات (الاتحاد) في قصيدته : (من أحرار اليمن إلى أحرار العراق) وهي دعوة تآخ بين الثوار كما أنها تحذير لثوّار العراق من الانخداع برجعية حكام اليمن :

صيحة الشعب في بلاد الرشيدِ ... أشعليها ناراً وثوري وزيدي
إزحفي كالطوفان ياثورة الشعب ... إلينا ودمدمي كالرعودِ
طهّري جوّنا من الموت والصمت ... وهزي لنا بقايا لحودِ
إخوة نحن في القيود فهيا . . ... لنكن إخوة بخلع القيودِ
فالطغاة الأولى أغصوكم الريق ... بقاياهمُ لنا في الوريدِ

هم حبال للشنق ترعب بغداد وتبدو عريانة للشهودِ

وهمُ عندنا أراقم تخفي السم في لونها الجميل الودودِ

تتشكى العدا وتبني لهم طرقاً إلينا مفروشة بالورودِ

دمرتنا لهم كآلات حربٍ أطلقتها يدا عدو لدودِ

حققت للغزاة أكثر مما يتمنون من خراب مبيدِ

نصف قرن عشنا ينام بها المحتل في أرضنا كنوم الوليدِ

هجَّعاً كالفراغ لايزعج المحتل منا غير السراب البعيدِ

أو شكاوى كشهقة الطفل يبكي من دلال لأمه يوم عيدِ

شطرنا يستغيث من غاصب فظٍ وشطر من مستبد عنيدِ

وكلا القاتليَن ينهش في جثة شعب نهش النهوم الحقودِ

فإذا ماتصايحنا فكقطين . . إستباحا أشلاء جسم بديدِ

وتمضي القصيدة مندّدة بالإمامة محذِّرة ثوار العراق ، مذكِّرة إياهم بإخفاق مهمة البعثة العسكرية العراقية برئاسة (إسماعيل صفوت) في ضحوة الأربعينات ، وهذا الالتفات إلى الماضي القريب والبعيد يبرهن على انجرار (الاتحاد) وراء ثورة العصر ، وعلى الالتفات إلى الماضي النائي والداني . . فمستهل القصيدة يسترجع بلاط (الرشيد) مقروناً بصيحة الشعب الثائر ، مع أن الثورة كانت إنهاء لزمن البلاطات : من هارون الرشيد إلى فيصل الثاني ، فالوعي السياسي بالثورة واختلاف الزمن غائب عن القصيدة ، أما الالتفات إلى الماضي القريب فالتنويه (بإسماعيل صفوت) وبالفترة التي كان الدستوريون يعلقون أملاً على حكومة العراق في آخر الأربعينات ، كما تدل رسالة الرئيس (جمال جميل) إلى حكومته مطالباً فيها مؤازرة حكومة العراق لحكم الدستور المنتظر يومذاك ، فقد تجدّد أمل الاتحاديين في العراق آخر الخمسينات دون أن يتفهموا اختلاف الوضعين الملكي والثوري ، فالماضوية والإصلاحية النهضوية

فكرة أساسية في أطروحات الاتحاديين شعراً وكتابة، حتى وحدة اليمن التي عبّرت عنها القصيدة بوصف مأسوية الشطرين - على حداثتها بالقياس إلى أطروحات الاتحاد - فإن واحدية اليمن في رؤية الشعر ممتدة على امتداد مسيرة الشعر العربي، كما قال الشاعر الأموي:

تقـول عيسـي وقـد أمَّـت نـواظـرهـا
(لحجاً) ولاحت ذرى الأعلام مِن (عَدَنِ)
أمنتهـى الأرض يـاهـذا تـريـد بنـا
فقلـت كـلا ولكـن منتهـى (اليمـنِ)

وقد لمح شوقي واحدية اليمن قبل الزبيري بثمانية وعشرين عاماً وذلك عندما رثى (محمد ابن الإمام يحيى) في أول الثلاثينات:

مضى الدهر بابن إمام اليمنْ   وأودى بـزيـن شبـاب الـزمـنْ
وباتت بصنعاء تبكي السيوف   عليه وتبكي القنا في عَدَنْ

غير أن نظرة (الزبيري) أكثر توهجاً بالثورة، لأنه يستمد اتّقاده من ثورة تموز في (بغداد) كما استمدّ التحول النسبي من اتّقاد الداخل ضد الاستعمار وضد (الإمام)، فلم تكن تجدي (الإمام) العلاقة بالثوار في الخارج لأن ثورة الشعب كانت أذكى من أنت تنخدع بدعوى الإصلاحيين الثورة ولا بتمويه (الإمامة)، كان الشعب أكثر وعياً بما يريد وماذا يريد، لأن الحركات السابقة كانت على بعد منه وعليه أن يكشف البداية من أين، فتجلى أن إنهاء (الإمامة) وقيام (جمهورية الشعب) أصبح البدايات لطرق التحرر من الاستبداد والاستعمار معاً، وكان الشعب في الشطر الجنوبي ملتقياً مع الشعب في الشطر الشمالي في الإرادة والعمل لتحقيق الإرادة، فقد ركّز الاستعمار على تكريس الانفصال بطرد الشماليين من وطنهم في الشطر الجنوبي، وكانت الجماهير تقاوم هذا الطرد بالمظاهرات العمّالية والطلّابية وبالعمل المسلّح، لأن واحدية (اليمن) أصبحت

أهم عناصر الثورة الشاملة وبالأخص عندما أصبح مؤتمر العمال تنظيماً نشيطاً يمتلك الميدان في الشطرين وكلّ ما نشأ من تنظيمات كان امتداداً منه ، فعندما تشكّل حزب الشعب الاشتراكي انتقل العمال إلى خطوة ثانية ، غير أن (الإمام) رفع شعار الاتحاد مع الدول المتحررة كمظلّة من الشعب ، وكان (الاتحاد اليمني) رغم تحوّله الجديد متمسكاً بأصوله الدستورية والثورية ، فكوّن علاقات مع (البدر) ومع (الحسن بن علي) وذلك لنشوء تنظيمات جديدة رفعت شعار القومية وشعار العالمية ، وصاحب هذا تجنّح (الاتحاد) فكما تشظى آخر الأربعينات وأول الخمسينات أخذ في التشظي آخر الخمسينات ، فخرج عنه بعض مؤسسيه (كعلي الجناتي) وآخرين فاصطرع (الاتحاد) مع نفسه ومع القوى الجديدة ، كما تدل قصائد الزبيري من ٥٧ إلى ٦٠ ففي قصيدة (إلى الغاضبين علينا) يدعو (الزبيري) إلى الوئام والاعتناق في النضال ولكن من منظوره الاتحادي :

أيها الغاضبون من ثقة الشعب … بنا والمؤلِّبون علينا
أيها المرهَقون يأساً وغماً .. … وانهما كافي هدم ماقد بيننا
لو حملتم من أمره ماحملنا .. … لاشتكيتم من الأسى مااشتكينا
أيها الزاعمون أنّا احتكرنا … دعوة الحق وحدنا وانزوينا
مااحتكرنا نضالنا بل دعونا … فرفضتم أن تفهموا ماعنينا
هالكم صبرنا على كل خطبٍ … فوقفتم من ذعركم ومضينا
ساءكم أننا انفردنا بعزمٍ … وصمود وأننا ماانثنينا
أنتم ليس نحن غبتم ليبقى … شرف الحق كله في يدينا
يعلم الله أننا نتمنى … لو رجعتم بعد العقوق إلينا
بل وندعو أن تسبقونا وتجنوا … ثمرات الختام مما ابتدينا

كان انقسام اليمنيين في الخارج انعكاساً للانقسام في الداخل ، فقد كانت

الخلايا والتجمعات متعددة الرؤية إلى الغد واحدية النظرة إلى التغيير ولكن بأي وسيلة ، كان البعض يرى فشل أي حركة مسلحة قياساً على فشل ٤٨ و٥٥ يعتبر التطور الهادئ أضمن لتطور مسيرة الشعب وكان البعض يرى إنضاج المراحل أجدى من حرقها وكان البعض يعتبر الثورة المسلّحة السبيل الوحيد ، وكان البعض يرى حتمية الثورة ويخاف حدوث ماحدث على امتداد الستينات ، وكانت التنظيمات والطلاب والعمال في الخارج انعكاساً لجماعات الداخل ، وكان اليمنيون في المهاجر يشكّلون تجمعاً كثير العدد ، فمن مطلع الخمسينات إلى الستينات أصبح الطلاب اليمنيون بالقاهرة يعدّون بالمئات وكانوا يخرجون بعدة صفات : بعضهم مبعوثون من قبل الحكومة ، وبعضهم كانوا يصلون القاهرة فارّين من عَدَن ، وكان البعض يتنقلون من السعودية والخليج إلى الثانويات والجامعة المصرية ، وكان بعض الأمراء الصغار مبعوثين للدراسة فشكّلوا مع السفارة اليمنية جبهة (إمامية حسنية) ، وكان الفارّون شعبيين طبقياً وهدفاً ، لهذا وقع (الاتحاد) بين جبهتين : جبهة أكثر رجعية منه وجبهة أكثر تقدماً ، وكان (الاتحاد) بين اليمن والجمهورية العربية المتحدة أكثر مجاملة للرسميين . . وفي عام ١٩٦١ شمّ الإمام روائح الناصرية في الكلية الحربية وفوج (البدر) بصنعاء ومعسكر (العرضي) بتَعِزّ ، وكان الضباط المصريون يتغاضون عن المضايقة من الإماميين ، غير أن (الإمام) تردّد بين طرد المصريين وبين الميل إلى أشباه نظامه فاستبدل الضباط المصريين بضباط أردنيين لتهدئة الحماس العسكري ، غير أن الغضب الشعبي تجاوز مجالس القات إلى الثكنات والمدارس فأصبحت المواجهة بين حقيقة (الإمام) ومداجاته علنية في قصيدة إمامية تندّد بالاشتراكية العربية وتدعو إلى الوحدة بلا ثورية ، وكانت قصيدة (أحمد) مادة اخبارية هامة لأنها ذات طابع فقهي سياسي ولأنها بيان شعري

ولا يجوز أخذ مال الغير   إلا بأن يرضى بدون ظير

بحجـة التـأميـم والمعـادلَـهْ   بين ذوي المال ومن لا مال لَهْ

وكانت الدوائر الاستعمارية ترى خطر (الناصرية) يتفاقم فتجسم كل الدعايات كعادتها في استغلال الحقائق لصالحها ، وبهذا تجمّد (الاتحاد) بين المملكة المتوكلية والجمهورية العربية المتحدة وإن بقيت اسميته إذاعياً في صنعاء : (إذاعة المملكة المتوكلية اليمنية للدول العربية المتحدة) بقي الشعار الإذاعي إلى عشية ثورة سبتمبر ١٩٦٢ كما بقيت اسمية الجمهورية العربية المتحدة إلى بعد الانفصال بثمان سنوات ، ولعل هذا امتداد لتسمية ملك بريطانيا ملك فرنسا حتى بعد أن أصبحت فرنسا جمهورية .

لقد كان الاتحاد بين المملكة المتوكلية والجمهورية العربية المتحدة غير منطقي كما كان تجميده غير منطقي أيضاً ، لقد أتى بلا سبب وانتهى بلا سبب كاف ، ولعل حزب الاتحاد اليمني بالقاهرة قد شعر بالتنفس بعد توتر العلاقات بين القاهرة وتَعِزّ ، غير أن الفترة قد أفرزت قوى جديدة مختلفة عن (الاتحاد) ولعل هذا منسجم مع المنطق الزمني ، ففي مقدور عشرين عاماً أن تفرز قوى جديدة مختلفة التفكير ومختلفة القواعد ، فإذا كان همّ الأربعينيين منصبّاً على قيام سلطة دستورية ، فإنَّ طموح الستينيين قد تجاوز القصوريات إلى الشعب وتخطّى دعوة الإصلاح إلى الثورة . لهذا انكمش الاتحاد اليمني من ٦١ إلى ٦٩ بل لم يعد يبدو كتنظيم في القاهرة ، لأن الدور استدعى وجوهاً جديدة وكان التيار القومي وحيد الميدان .

فماذا يعمل الاتحاد ؟

كما فشل في تحقيق انقلاب ٤٨ فشل في استمالة (البدر) إلى أهدافه أو عجز (البدر) عن التجاوب مع تلك الأهداف لتضامن العائلات التقليدية ضده .

نتيجة لهذا عبّر (الاتحاد) عن إرادته في قيام جمهورية ديمقراطية ولكن

في غير بيان سياسي أو بيان شعري وإنما في بيان شبه روائي كما في (مأساة واق الواق) التي عبرت الأجواء في رحلة حلمية رأت علم الجمهورية أحد خيوط ذلك الحلم ، غير أن صاحب (واق الواق) كان يعاني توجّساً من تحريك مصر لثورة يمنية لأن هذا يَصِم اليمن بالعجز عن صنع مصيره كما تدل مقدمة ثورة الشعر لشاعر الثورة (الزبيري) ، ومن الملحوظ أنَّ (الاتحاد) أصبح مقطوع الصلة بالداخل في ظاهر الأمر إما لسرّية واقعه أو لقلة مواقعه ، فلم يصدر أي بيان عن مظاهرة الطلاب في يونيه ٦٢ أو عن استشهاد (اللقيه) وزميله عام ٦١ أو عن فدائية (سعيد ذبحان) في عام ٦٠ الذي اقتحم القصر وأراد اغتيال (الإمام) ومغامرة هذا البطل مدعاة للتساؤل إلى الآن ، فبعض المتتبعين يرون فدائية (سعيد ذبحان) من تدبير (الاتحاد اليمني) كسبق ثوري يقطع الطريق على الثورة العسكرية ، ولعل هذا منسجم مع تفكير (الاتحاد) من بداية تكوينه ، فقد أسقط (الإمام يحيى) بقوة قبلية وقاوم انقلاب عام ٥٥ لمجيئه على أكتاف عسكرية وتحت عمامة (إمام) ، فمن الجائز أن يكون (سعيد ذبحان) معبراً عن (الاتحاد) ومرتبطاً ببعض القوى القبلية ، وبالأخص قبائل خولان ، فقد أشاد (الاتحاد) بانتفاضة قبيلة خولان دون أن يصدر أي إشارة إلى حادثة (اللقية) أو مظاهرة الطلاب سنة ٦١ ، وفي انتفاضة خولان يقول الزبيري مقطوعة ثائرة :

المـلايين العطـاش المشـرئبـة　　　بدأت تكتسح الطاغي وصحبه
.. الخ

وقد انفجرت غضبة (خولان) على أثر فشل (سعيد ذبحان) واستشهاده عام ٦١ وقيل : إن (سلطان بيجان) كان يمدّ قبيلة خولان بالأسلحة على أمل سلاطيني في الشمال ، غير أن الأحداث كانت تتجمع كالسحب الحبالى حتى انفجرت كلها ليلة السادس والعشرين من سبتمبر عام ١٩٦٢ وجاءت هذه الثورة

العسكرية كصدئ شعبي لكل القطاعات اليمنية وعن تحالف بين المثقفين الثوار وبين أقسام من العسكريين ، لأن الثورة قد عمت كل الطبقات وكان الضباط من مختلف الطبقاب ، فأغلبهم من طبقات الفقراء وأقلهم من أبناء الطبقات الوسطى وأقل القليل تناسى عرقيته وارتبط بعمومية الشعب ، كان هذا الحدث التأريخي تتويجاً لكل الحركات لنقاوة شعبيته ولانفجاره من واقع الشعب بكل طبقاته وفئاته ، ولعل الأهداف كما أعلنت :

« ١ - التحرر من الاستبداد والاستعمار ومخلفاتهما وإقامة حكم جمهوري عادل وإزالة الفوارق بين الطبقات .

٢ - بناء جيش وطني قوي لحماية البلاد وحراسة الثورة ومكاسبها .

٣ - رفع مستوى الشعب اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وثقافياً .

٤ - إنشاء مجتمع ديمقراطي تعاوني عادل يستمدّ أنظمته من روح الإسلام الحنيف .

٥ - العمل على تحقيق الوحدة الوطنية في نطاق الوحدة العربية الشاملة .

٦ - احترام مواثيق الأمم المتحدة والمنظمات الدولية والعمل على إقرار السلام العالمي والتمسك بمبدأ الحياد الإيجابي وتدعيم مبدأ التعايش السلمي بين الأمم . » .

انتزعت هذه المبادئ شكليتها وروحها من خبرة الثورات ومن إرادة الواقع الجديد ، واستجاب الشعب للثورة كمعبرة عنه فماجت المظاهرات وقدّمت التنظيمات تأييدها المطلق إلى قيادة الثورة ، وكانت هذه التنظيمات من يسارين عربيين ومن يسار أممي ، وجرف الحماس جماهير الشعب من الشطرين إلى التطوع بالنفس ، فتشكّل الحرس الوطني من العمال والطلاب والمغتربين وكل قادر على القتال ، وأصبحت الثورة الراية المنسوخة من عروق القلوب ودم

البطولة ، وشارك (الاتحاد اليمني) في هذا التأييد بل شارك في مسؤولية القيادة ، فأصبح الأستاذ الزبيري وزيراً للتربية والتعليم ، وتقلد الأستاذ نعمان وزارة الحكم المحلي وشغل عبد السلام صبرة عدة مناصب وزارية كما شغل حسن العمري وزارة المواصلات عقب الثورة وعندما أعادت بوارق الحرب ذكريات العهود القديمة انبعث ماكان ميتاً فتساجل النار معسكران : الجمهوري والملكي ، وكالعادة لعبت بعض القوى القبلية على الحبلين وتمسك بعضها بالجمهورية عن اقتناع وبعضها بالملكية عن اقتناع ، وكما هو ملحوظ كان (الاتحاد اليمني) أميل إلى القوى القبلية من الأربعينات إلى الستينات ، ولعلّه كان يراها أقرب إلى أهدافه وأطوع لقيادته رغم ماأدّت التجارب من تناقض ، من منتصف عام ٦٣ تأكدت الصلة بين القبائل الجمهورية ورجال (الاتحاد) كردّ على طائفية (البيضاني) وكتقليم لأظفار العسكريين ، وسائر التنظيمات ، وكان لابد من شعار يتحرك في ظلّه (الاتحاد) فنادى إلى تشكيل مجلس للشورى على تخطيط الأربعينات متناسياً التغيرات ، وفي عام ٦٤ مثّل شيوخ القبائل ثلث عضوية (المكتب السياسي) الذي صار (الزبيري) من أعضائه وكان الشعار (جمهورية عادلة) ، وعندما تزايدت أعداد القوى المصرية رأت وجوب إشرافها على الكوادر الوظيفية ، لأن الحرب سياسة يجب أن يكون للمحارب فيها أهم الآراء في نوع رجال الحكم ، وأدى هذا إلى صراع طائفي خفي لأن أغلب مناوئي الوضع من مناطق شمال الشمال ، غير أن هذه المناطق كانت تمتاز بكثرة المحاربين بمقدار ماكانت تمتاز مناطق (تَعِزّ) و(تهامة) بكثرة القياديين الحزبيين ، وكانت القيادة المصرية تتوجّس من القوتين : من شراسة القبلية ومن طموح الحزبية ، وكانت الثورة المصرية قد حظرت الأحزاب القديمة وشكّلت أحزاباً جديدة وانتقلت من تشكيل إلى تشكيل : جعلت هيئة التحرير بديلاً عن كل التنظيمات وتطورت هيئة التحرير إلى الاتحاد القومي لكي يصبح في الستينات الاتحاد الاشتراكي ، وأرادت نقل هذا الواقع حرفياً من القاهرة إلى صنعاء فتشكّل

(الاتحاد الشعبي الثوري) بصنعاء عام ٦٦ ودل هذا التشكيل على حذر القيادة المصرية من الحزبيين والمحاربين القبليين ، فاعتمدت في تشكيل (الاتحاد الشعبي) على المناطق الوسطى وبالأخص منطقة (رداع) كبديل غير كامل لأبناء (الحجرية) ، فأفرز هذا الواقع الذي تنامى من عام ٦٣ إلى خروج بعض الجمهوريين عن الجمهورية ، فدعا (الأستاذ الزبيري) إلى مؤتمر عمران ولم أخفقت قرارات مؤتمر عمران ترأس الزبيري المعارضة الصريحة في (برط) من نهاية ٦٤ إلى استشهاده في أبريل ٦٥ وظل الأستاذ نعمان (بصنعاء) كجسر اتصال بين كل المواقع ، ولعل فكرة الاتحاد اليمني قد انبعثت بكل تقاليدها ، غير أنها لم تتحقق في لجة الحرب ، فارتفعت دعوة السلام من قبل (الاتحاد اليمني) لكي يحلّ الحوار العقلي محل هدير السلاح ، وظلّت الدعوة تتردد بدون تمييز بين حرب وطنية وحرب استعمارية وبدون تمييز بين الوجوه الدفاعية والوجوه العدوانية ، فتألبت الريبة حول دعوة (الاتحاد) إلى حدّ اتهامه بإلغاء النظام الجمهوري وإبداله بنظام (دولة إسلامية) ، فكان الاتحاد قوة ثالثة من ٦٤ إلى ٦٥ حين قطعت رصاصة خائنة حبل الجدلية بإسكات قلب (الزبيري) في منطقة (برط) أبريل ٦٥ . . من هنا رفع (الاتحاد) دم الزبيري كقميص عثمان ولكن بدون معاوية وظل مرفوعاً حتى انقلاب نوفمبر ٦٧ وكان هذا آخر انبعاث لمبادئ الاتحاد اليمني فتشكّل المجلس الوطني عام ٦٨ كتمهيد لمجلس الشورى ثم تشكّل مجلس الشورى عن انتخاب إرهابي يكاد يتفرد بالهزلية في كل تواريخ الانتخابات وكان المعينون في هذا المجلس كأعداد المنتخبين على اختلافها تزييفاً ونقاوة ، وفي ذلك العام انبعثت فكرة إحياء (الاتحاد اليمني) وظلت تبدو وتختفي حتى غيَّر الشطر الجنوبي اسم النظام من جمهورية يمنية شعبية إلى يمنية ديمقراطية ، وهناك أعلن (الاتحاد اليمني) قيامه كردّ على تسمية اليمن الديمقراطية ، وكان الاتحاد الجديد خليطاً من حزب الشعب الاشتراكي والاتحاد اليمني ومن بعض كبار الضباط وبعض كبار الموظفين ، غير أنه ظلّ ساكناً لغيمية

المناخ وتخثر الفكرة واختلاط الوجوه وخوف ردود الأفعال ، وفي عام ٧٢ وصلت العضوية فيه حد الإجبار على صغار الموظفين والعمال والطلاب ، ورغم التركيز على دفع الحياة إلى (الاتحاد) فإنه لم ينبض له عرق ، لأن أكثريته متعددة الانتماءات والمصالح ، ولأن التشكيلات الأخرى كمجلس الشورى والمجلس الجمهوري اشتغلت بصراعاتها الخاصة ، فظلّ (الاتحاد اليمني) كهيكل من القش المنخور ، حتى أعلنت حلّه حركة ١٣ يونيو عام ٧٤ وكان هذا الحل كدفن أخير لهذا التنظيم الذي انطوت آخر صفحاته في سبتمبر ٦٢ ولم تكن صحواته المتعددة إلا كتحرك المخدَّر .

لهذا انتهى عام ٧٤ عن أربع وثلاثين سنة بذل فيها محاولات جادة وإذا كان لم يوفق في محاولاته فقد حقق أول هزة في صميم المياه الراكدة ، حتى تواثب الموج أصبحت تلك الحجر الهزازة مجرد ذكرى تستحق الدراسة والتقدير كأول تنظيم في تأريخ الحركات الوطنية ، مهما كان موقعه في الساحة اليمنية .

* * *

الفصل الخامس

حركات الفصائل

١ـ حركات الجنود .
٢ـ التيار الطلابي .
٣ـ موقع المرأة . . في واقع التطور الاجتماعي .

حركات الجنود

كما أن الزروع تينع بتأثير بعضها في بعض وبتفاعلها مع الطبيعة .. وكما أن البراعم والسنابل لاتبزغ دفعة واحدة ولاتبلغ الإيناع دفعة واحدة .. فكذلك الشعوب لاتنضج دفعة واحدة ، وإنما يسبق أفراد أو جماعات يؤثّرون على أفراد وجماعات ، لأن إمكانيات الإيناع والإنضاج متفاوتة بتفاوت المناخات العامة ، والمحصولات الثقافية ، والاستفادة من تأمل الظواهر ..

لهذا يبدو من المفيد دراسة كل فصائل الحركات الوطنية ، كيف بدأت ، وكيف اختلفت مجاريها ، ومن أين جاءت ، وأين التقت ؟؟

ولعل الجنديّة في بلادنا تختلف عن غيرها من بعض الوجوه : من حيث نشأتها الطبقية ، ومن ناحية انضباطها للقيادة ، وتأثيرها على القيادة .. فالمعروف أن الجندية طاعة عمياء ، تنفّذ بلا سؤال وتتحرك بإرادة الانضباط .. على حين للجندية في بلادنا رأي ومواقف : قد تتّفق مع الفوْقيات ، وقد تختلف ، وقد تكون الطاعة عن اختيار ، أو عن اتفاق في الاختيار ، لأن الجندي - في هذه المرحلة التي تناولها هذا البحث - لم يكن من صنع التدريب ولا من صنع القسَم العسكري ولا من إعداد أي مرحلة من مراحل التعليم ، وإنما كان عسكرياً بالفطرة ، ثم عسكرياً بالنظامية .. فقد تكون له أوامره على آمره كما أشار (محمد الزبيري) عندما قاد عمه حملة عسكرية لاقتحام بيته عن أمر الإمام (يحيى) في مستهل الأربعينات :

غفرت لك الحيف الذي سمتني بهِ　　فما أنت جانيه ولا أنت كاسبه

لقد كنت فيما جئت قائد عسكرٍ　　تصـرّفُـه فيمـا تـريـد كتـائبـه

إن أغلب الجنود : من أبناء الفلاحين الفقراء أو من أبناء العاملين ، أو من أبناء العاطلين . . أمّا أبناء المزارعين الكبار والمتوسطين فقد كانوا يفرُّون من الجندية ويرونها استراقاً للإنسان من ملكية نفسه ويوميات عمله الاعتيادي . .

لأنهم يملكون مزارع واسعة ، وأعداداً من الأغنام والمواشي متفاوتة الأرقام . . فخافوا من العسكرية ، لأنها تنتزع أيدياً من العمل ، ولأنها تجرّئ الدولة على امتلاك النفوس ، إلى جانب ابتزازها الحق والباطل من الضرائب والزكوات ، وعندما تشكَّل الجيش النظامي في بلادنا عام ٢٣ من هذا القرن انسلك فيه أبناء الفقراء فترة بعد فترة . . وكان دافع هذا الانخراط : إما البحث عن القوت ، وإما الفرار من اضطهاد الشيوخ وسادة الأودية .

هذا بالنسبة إلى الجيش النظامي ، أما ماكان يسمى بجيش الدفاع : فقد كان تجنيداً إجبارياً على حسب عدد النفوس في كل بيت باستثناء المدائن ، وكان البعض يتجند لمدة ستة أشهر ، وكان البعض يؤجِّرون عن أولادهم إذا تم قبول التأجير . . ولكن هذا لايعدّ جندية ملتزمة ، وإنما هو من قبيل الاحتياط أو خدمة العلَم على التسمية الجديدة أو من قبيل حضور (الإمام) في النفوس وكانت المدارس معفية من التجنيد إلا بعد افتتاح الكلية الحربية عام ٤٠ لأنها لاتقبل إلا متعلمين لتخريج ضباط لأن الشعب كله كان يجيب داعي الحرب عند رفع كل نداء . . أما الجندية الباحثة عن ارتزاق عند ولاة المناطق والبلديات في كل مدينة فتمثل في (البرانية) وأمراءهم ، أما أمراء العكفة والقوة الخاصة بالإمام فقد كان هؤلاء الأمراء من أصحاب المكانة في مناطقهم يعززونها بالقرب من (مقام الإمام) . . وكان أغلب أمراء العكفة وحراس المقام من أبناء مشايخ الضمان ، يرهنون صغار أولادهم في سجون (الإمام) وقصوره ويقدمون كبارهم كعرائف في العكفة ونقباء برانية . . وكانت مهمة العكفة : حماية القصور ورئاسة

حماتها ، ورئاسة حماية السجون ، على أن هذه الفصائل لم تكن كالجندية التقليدية ، كالجنود النظاميين فقد كان النظامي ، يطلب الالتحاق بالجيش ، ويقدم ضماناً على سلوكه وسلاحه وملابسه ، ثم ينضم في أحد (البلوكات) (الكتيبة) ولايقبل بديل عنه ، وعلى الضمين إرجاعه إذا فرّ ، أو إبداله بسواه إن تعذر الرد أو تسليم ثمَنْ سلاحه إذا لم تتمكن الدولة أو الضمين من العثور على الهارب . . وكان سبب الضمان يرجع إلى فقر الجندي ، لأن جنود النظام في الأغلب من الفقراء الذين احترفوا الجندية لالتماس العيش وشغل الوقت وللاحتماء من سادة المناطق . . وكان المعروف أن الجندية تُعِزّ الذليل وترفع قدر الخامل ، بفضل المظهر من حمل سلاح وامتلاك لباس مميز على ملابس الفلاحين والرعاة .

لهذا توالت الأعداد الطالبة الانتماء إلى الجيش النظامي ، فقد كان الجندي يحمل بندقية وعدداً محدوداً من الذخيرة لايستعملها إلا في أقصى الضرورات ، أو في أوقات الحرب . . ومع هذا تبدّت للعسكري امتيازات على أمثاله في القرية ، لأنه يملك ثياباً أنظف وسلاحاً نارياً ، ويضمن دخلاً مرتباً من النقود والحبوب في كل شهر وكسوة وفراش في كل عام . . غير أن الجندي ظلّ على حاله الفلاحية . . فلم يستزد معرفة لانعدام الثقافة العسكرية ، ولم يتخل عن تقاليد قريته ، إلا لأنها تخلّت عنه .

لهذا ساد النظام العسكري لضعف التقاليد القبلية في معسكر النظام ، فقد كانوا في قراهم من الكادحين ، ولكن من الشجعان ، وقد أعدّتهم قسوة المعيشة ، وجبروت الكبار من قراهم للجندية ، فضربوا المثل في طاعة (الإمام) وقلة الانقياد للأمراء المباشرين ، فكانت تصدر الأوامر إليهم مصحوبة بأمر (الإمام) وعبّروا عن مرارتهم بقهر مناوئي (الإمام) وانتزاف المواطنين ، لكي تنتفخ بطون الخزينة . . وكان يجد الجنود في (التنافيذ) على المزارعين

وعلى العصاة فرصة لإضافة دخل قليل إلى دخل أقل . .

وكان غياب السلاح عن غالبية الفلاحين ، يمكّن الجنود من تحقيق استغلال (الإمام) . وترسيخ مهابته وبالأخص في العشرينات فترة تأسيس الحكم الوطني ، حتى تميز الجندي برواية (الإمام) فاكتسب محبة الخوف من المزارعين ، وكان كل الجنود من أبناء المزارعين الصغار ومن البائسين ، أو من الرعاة الأُجراء وكانوا يتعرضون للقبض عليهم إذا تفشّت السرقات وقطع الطرق لأن (المقام) كان يطلب حصر من يسمونهم الأشرار عند كل حادث مجهول الفاعل . . فعرفوا مداخل التهديد ، ومواطن المهابة . . غير أن الجنود كانوا مضطرين لاثبات الولاء للإمام على الطريقة التي يعرفونها : أن يكونوا قساة أو منفِّذي قسوة ، وبالأخص في عهد التأسيس بعد الاحتلال العثماني ، فأخمدوا التمردات في المناطق حيناً معزَّزين بقوى قبلية وحيناً بقواهم الخاصة .

هكذا ظلّ الجندي يمارس هذا (الروتين) : من بداية العشرينات ، إلى أول الأربعينات . . وفي ذلك الحين استجدَّت دعوة إلى تطوير العسكرية تتجاوز الوظيفة الجندية للجيش التي كانت تتكوَّن من : الانتظام في الثكنات ، التجمع عند إعلان الأبواق كل يوم ، أداء التناوب في الحراسة ، الانتقال إلى المراكز ، الاستعراض الأسبوعي .

أصبح هذا الانتظام الوظيفي تقليداً ، وعندما أرادت دعوة تحديث الجيش أن تتجاوز المألوف لم تجد حماساً في الثكنات لمجيء هذه الدعوة من البعثة العسكرية العراقية : التي أرادت خضوع الجندي لقيادته المباشرة ، وتغيير ثياب الجندي إلى ملابس موحّدة أصلح للتحرك ، وتحسين وجباته اليومية ، وزيادة كفاءته العسكرية .

هنا أحس الجندي إمكانية التغيير ، أو اهتز اعتقاده فيما كان ، دون السؤال عن ماذا يريد ، لأن المعتاد قد سيطر عليه . . إلا أنه لم يغلقه عن تقبل

الأفضل ، وبالأخص الإنسان الفطري لأنه أسرع تقبلاً لبريق الجديد ، مهما كان تقبله فجاً ، وعن غير تصور مسبق ، لأول مرة يسمع الجندي بالتدريب ولأول مرة يسمع بالمطبخ العسكري وبطاعة الضابط ، فقد كانوا يحسنون الرماية بالبنادق بدون تدريب ، وكانوا يطبخون وجباتهم بالتناوب ويمضغون القات في ثكناتهم ، عندما يملكون ثمنه الزهيد يومذاك .

لهذا كانت دعوة مطبخ عسكري وتدريب أعلى من الطوارئ المعاصرة ، ولأن هذا كان طارئاً عليهم ، استطاع (الإمام يحيى) أن يجاريهم بتمادي المعتاد باعتباره الأفضل لأن الجديد جاء من خبراء عراقيين وأمثالهم وكان الإمام يحيى يحتاط من الخبرة الخارجية . . وبهذا شكّل حاجزاً بين الجنود وبين ضباطهم ، خريجي الكلية الحربية ، والعائدين من البعثة العسكرية ببغداد . . غير أن الجنود كانوا يشاهدون بعض تمردات قبلية ، وبرغم أنهم كانوا يخضعونها ، فقد كانت تؤثر عليهم تأثيراً يسيراً . . ولعل ضعف هذا التأثير يرجع - إلى نوعية المتردين - ، فقد كانوا في ذلك الحين من الشيوخ وأتباعهم ، وكان أغلب الجنود من الموتورين على تسلّط هؤلاء لمرارة ما كابدوا منهم قبل جنديتهم .

لقد ظل الجنود في معسكري (صنعاء) و(تَعِزّ) وسائر المراكز ، مجرد أدوات قمع وكانوا في كل هذه المراكز كقبيلة واحدة ، من شتى العادات ، ولكن من طبقة واحدة ، أو من طبقات شديدة التقارب . . وقد كانت النظامية مصدر اعتزازهم ورزقهم ، ومصدر حمايتهم من سادة الأودية والمواشي .

صحيح أن بعض الأفراد من طبقة وسطى عرقياً ولكنهم اقتصادياً من طبقة الكادحين المسخَّرين .

لهذا ظلوا أمناء على معتادهم ، وظلّ الطامحون في الإصلاح على خوف منهم ، أو على غير أمل في جدواهم لأن الاصلاحيين يومذاك من الطبقات العليا .

فعندما قام انقلاب عام ٤٨م لم تُسند إليهم القيادات أية مهمة مباشرة ، حتى عند الاضطرار إليهم لضبط الأمور في العاصمة يوم الانقلاب ، مارسوا دورهم عن أمر منتحل باسم (أمير الجيش النظامي) الذي التزم بيته ، حتى يرى كفة من أرجح ، كما هي عادته وأمثاله عند الأحداث .

لقد لحظ الجنود بأن شيئاً ماقد حدث وعزز هذا الحسّ قرار زيادة مرتباتهم من ستة ريالات إلى خمسة وعشرين ريالاً للفرد ، ولعل هذه الزيادة المفاجئة ، وزّعت نفوسهم بين الفرحة والشك ، ككل مفاجئ لم يسبقه احتمال . . وحتى عندما أبدوا تأييدهم للحركة لم يطمئنوا إليها كلياً لثلاثة أسباب :

لتمادي الاعتياد ، لقتل الإمام (يحيى) على يد جماعة من الشيوخ ، لغرابة بعض الوجوه في الحركة من أمثال : الفضيل الورتلاني الجزائري ، عبد الحكيم عابدين المصري ، الجماعة الفدائية الوافدة من مستعمرة عدن .

هنا أحسّ الجنود نفوسهم بدون فاعلية في وقت الانفعال والفعل ، وكانت هذه الهزّة الثانية في نفوسهم ، إلا أنها كانت أقوى من هزة تغيير الملْبَس والمأكل والتدريب ، لأنهم رأوا قائماً يسقط وكانوا حماته ، وقاعداً يقوم كانوا أولى بتنصيبه ، أو بالرأي في تنصيبه ، وبالأخص أن أكثر أتباع (الإمام الجديد) من رجال (الإمام القديم) ، فهم يعرفون الآتي كمعرفتهم الذاهب ، فقد كانوا حماة البعض من القائمين قبل قيامهم ، فهاج في نفوسهم نزوع التحرك مع أي أحد ضدّ أي أحد . . غير أن هذا النزوع انكبت مؤقتاً ، ولكن في ترصّد سانحة ، لأن (الإمام الذاهب) قد أقام حاجزاً نفسياً بينهم وبين ضباط الكلية والبعثة العراقية التي وفدت في مطلع الأربعينات برئاسة العقيد (إسماعيل صفوت) ، فلم تكن بينهم أية علاقة عملية عند الإعداد للانقلاب ، وأوان تنفيذه فأحسّوا غربتهم بين المتحركين ، واستعادوا صورة دعوة التغيير ، التي ترددت في مطلع الأربعينات ،

وتوجّسوا من تطبيقها على أيدي أناس غير معروفين طرؤوا على السلطة الجديدة كما شكوا في استيعاب الطوارئ المنتظرة ، لأنهم وإن نبوا عن قراهم لم يتخلصوا من تقاليدها ، لأنهم انتقلوا من روتين تركي ، له جمود التقاليد القبلية ، وإن اختلف عنها . . فتلك التجمعات في الصباح والمساء والاستعراض في كل جمعة ، وتناوب الحراسات . . كل هذه الأعمال يعتادونها بشكل آخر : كرعي المواشي ، وبذر الحقول ، وحصد الزروع وحراسة الأجران وحقول القات ، لأن تلك كانت أعمالهم بالأصالة أو بالنيابة عن سادة الأرض . . وعندما انتظموا في الجيش ، انتقلوا إلى شبه المعتاد لاإلى نقيضه ، ولا إلى الأفضل منه ، إلا بالعيش المرتب وأبّهة الدولة . . وعندما حدث الانقلاب تجددت المخاوف عندهم من بديل عنهم لأن سلطة الدستور بدأت تسلّح طلاب المدارس وأغلبهم من طبقات وسطى وعليا وتسلّح وتموّل بعض الشيوخ ، فبدؤوا يشعرون أنهم قوة يمكنها الإسقاط والتتويج ، إلا أن هذا الشعور لم يتبلور ، فأدّى غموضه في الباطن إلى قيامهم بأي تحرك .

لهذا استجابوا للإشاعات عن الانقلاب ، وعن الزاحف لإسقاطه ، فتسقّطوا الأخبار عن الأمراء السجناء بصنعاء والسيوف الزاحفين من (حجّة) ، حتى أن حراس الأمراء في سجنهم أطاعوا أوامر سجنائهم فشكلوا جسراً من التفاهم بينهم وبين مدفعية قصر السلاح وبمقتضى هذا قصفوا مقرّ (الإمام الجديد) بالقصر ، وأشعلوا النيران إيذاناً بانتصار (أحمد) وأسقطوا الانقلاب ، قبل دخول القوى القبلية التي عسكرها السيوف من إخوة الإمام الجديد .

وبهذا اتّقدت حركة الجنود مع الجماهير فقبضوا على الكثير واستعدوا لتنفيذ الأوامر الجديدة ، وامتدت هذه الاستجابة إلى كل المراكز ، بل إن بعض المراكز ناوأت الانقلاب من بدايته كمعسكر (صَعْدة) و(حجّة) إلى جانب أفراد من معسكرات متعددة .

لقد كانت هذه الانتفاضة ضد الدستوريين ، أول حركات الجنود .. فهل كانت بمعزل عن نظاميتهم وفلاّحيتهم ؟

لقد كانوا معبِّرين عن الجندية والقرية معاً لأن القرى التي جاؤوا منها ، أنكرت الحادث ، والجندية التي انطبعوا عليها ، أنكرت الحادث أو رأت غيابها عنه ، ولم تحقّق زيادة المرتبات ولاءهم ولا وقوفهم إلى جانب الانقلابيين ، لأن الشك النفسي أجج فيهم نزوع التحرك وتوقع انقطاع تلك الزيادات في ذلك الهيجان الذي أوحى بعدم ثبوت تلك السلطة الانقلابية ، ووجَّهت العوامل الخارجية هذا النزوع ، لأن ضجيج الخارج وبريقه ، يخرجان الإنسان عن طواياه ويربطانه بالإيقاع والهدير .

لقد كانت حركة الجنود ضد الانقلاب ، أول تحرك مهما كان عكسياً ، فإنه يؤدي إلى غيره ..

كانت الأخبار تتردد من منتصف العشرينات إلى آخر الأربعينات ، عن التمردات القبلية برئاسة شيوخ أو أشباههم : (كالرصّاص) في البيضاء و(الدباغ) في دمت ، و(القردعي) في حريب وشبوه ، وعن إخضاعها عسكرياً ، ولم يتردّد خبر تمرد معسكر أو مغامرة جندي ضد النظام .. وفي مارس عام ٤٨ سجل الجنود حركة ضد الانقلاب الذي أغدق عليهم من أول أيامه ، وجاروه في حذر وانتظار .. وربما كان ذلك الإغداق سبب الشك لأنهم ظنّوه ثمناً لولائهم أو مغالطة لغايات تعاكس مصالحهم مستقبلياً ، لهذا عاكسوا حركة الدستور وشعروا بعدها بقدرتهم على التحرك العسكري ولو في شكل تمردات تجريبية .. وعند أول الحركة استجابت نوازعهم الدفينة إلى التحرك ...

من هُنا دخلت الجندية خطّاً جديداً ، تواصل فيه حوار الداخل بنفسه ، وحوار الداخل بالخارج .. فبدأت التمردات الصغيرة في بعض المعسكرات ،

وأخذت بعض الأفواج العسكرية ترهب الفلاحين لمصلحتها ، لا لمهابة (قصر تَعِزّ) . . وأدّى هذا التنار من الأحداث إلى حادثة قرية (الحوبان) بلواء تَعِزّ عام ١٩٥٥ فقد اقتحمها الجنود وأعملوا في أهلها الضرب وفي بيوتها النهب ، وفي مواشيها الذبح لأن أحد الجنود تعرض للإهانة في تلك القرية لاحتطابه من حمىً ممنوع ، فانتقم الجنود لنفوسهم من تلقاء أنفسهم ، ويقال أن وراء هذا العمل تفكير سياسي ، لاستفزاز الشعب ، أو لتحريك المياه الراكدة . . وربما كان (الإمام أحمد) على علم بما وراء الحركة ، فأراد تأديب الجنود ، فأشعل النار في الفتيل ، وكان أول المتحركين والمفجِّرين (بلوك القناصة) ثم تضامن معه جيش - تَعِزّ - وأراد (المقدم أحمد الثلايا) استغلال تلك الغضبة لهدف أعلى ، وأراد (عبد الله) شقيق الإمام أن يمتطي الحدث إلى العرش .

فهل كانت غضبة الجنود حركة أو متحركة ؟

لقد كانت أول حركة هادفة مهما كانت مسبباتها ، لكنها تنتمي إلى التحرك العكسي في مارس ٤٨ ، فقد أحسّ الجنود قدرتهم على إقعاد القائم وإنهاض القاعد بدليل قدرتهم على إسقاط (إمام) شباط ٤٨ بعد أقل من شهر من تأريخ تولّيه .

فهل كانت حركة الجنود بمعزل عَن تيار الحركات الوطنية ؟

لقد كانت وثيقة الصلة بكل التدفقات الأحداثية ، فقد أسقطت وضع شباط بصنعاء ، فأثار هذا فيها إلحاح الشك عن صحة مافعلت ، وأثار إلحاح التساؤل عما تفعل ، فكانت تلك التمردات الصغيرة تعبيراً عن الإرادة وعن غموض المراد ، حتى تفجرت كل المكبوتات في غضبة مارس عام ٥٥م بتَعِزّ .

لقد كانت تلك الحادثة حركة جنود ، ولقد كان إسقاطها على أيدي جنود ، فكان الجنود التحريك والتسكين ، أو الاشتعال والإطفاء . . فقد أسقط

معسكر (القاهرة التعزية) بقذائف المدفعية حركة جنود (العرضي) عن أوامر (الإمام) ، الذي أعلن تنازله عن السلطة كتابياً تحت ضغط النار ودبّر عملياً إطفاء النار بالنار .

فهل كان معسكر المدفعية كالجنود في شباط على غير علم بما حدث أو سوف يحدث ، فوقف إلى جانب الذي أراد الجنود خلعه ، وما في أيديهم أسلحة ثقيلة ؟

كان هناك عدة مؤثرات خارجية وداخلية ، فقد تفجرت انقلابات عسكرية في بعض الأقطار ، وأثارت الاهتمام والتنبيه في الداخل ، وأنهت أكثر المسلّمات في نفس الشعب ، وفي نفوس الجنود كجزء من الشعب .

بعد فشل ٥٥م بتَعِزّ أطبق الذهول ، ولكن مدة أقصر ، كالعادة بعد كل إخفاق . . فلم يكد يمر عام واحد حتى هاجت النوازع القديمة مبطَّنة بدواع جديدة ، فقد امتلأت المعسكرات بالتساؤلات والجدال عن سبب ضرب بعضهم ببعض ، بعد أن كانوا أداة واحدة . .

ولماذا لايصبحون قوة واحدة كما سمعوا عن الجيوش ؟ وبالأخص بعد قيام ثورة مصر العسكرية .

وتنامى هذا الحسّ حتى انفتحت الكلية الحربية مرة ثانية عام ١٩٥٨ وجاءت أسلحة جديدة أكثر تعقيداً .

هنا فطن الجنود بحاجتهم إلى الضابط والمدرّب والنظام المطاع ، ولم يستقبلوا هذا التغيير كمحاولة تغيير أول الأربعينات بالشك ، بل تأكدوا من الضرورة إليه ، بفعل تغيرات الخارج واستقبال الداخل . . فبعد سنة من التدريب على الأسلحة الجديدة ، شعر الجنود بالتهاب نوازع التحرك وباتّقاد الشعور بالكرامة ، فتلاوموا فيما بينهم على الهوان الذي يعانون ، وبالأخص الجنود

المسخرين لحراسة القصور ، وشدّ البغال ، وخدمة الدُّور المنعمة على شقائهم وهوانهم ، وكان هذا امتداداً متطوراً لتذمرهم من اضطهاد كبراء عشائرهم قبل التجنيد .

لقد اشتدّ الشعور بالجندية وكرامتها ، وأصبح قبول الاشتعال أشد وأقوى ، وبمجرد رحيل (الإمام أحمد) للاستشفاء في (روما آخر الخمسينات) تفاقم التذمر والحسّ بالتحرك في الثكنات إلاَّ أن فترة العلاقة بين الجنود والضباط ، كانت قصيرة المدة لاتلغي التعقدات القديمة ، فتحرك الجنود بلا قيادة انضباطية ، فأشعلوا بعض دور المسؤولين في صنعاء وتَعِزّ ، لكي يواجه الضباط الواقع ، فيتحملوا واجبهم القيادي ، مستغلين غياب (الإمام) مستضعفين ولي عهده محمد البدر . . إلا أن تلك الغضبة على حدَّتها وتوحّد الجنود فيها ، لم تجد تقبل الضباط لمهمة قيادة الثورة . . ولقد كان الجنود يطالبون الضباط بإلحاح أن يقودوهم لإنهاء الوضع الإمامي ، ولكن لم تستجب لهم جماعات الضباط العاملين أو الذين تعدّهم الكلية للعمل . . وكانت الشكوك من الجيش ضباطاً وجنوداً تتطور في نفس الحاكمين ، قياساً على ماحدث في الخارج ، واعتباراً لتغير الداخل .

هنا لجأ (البدر) في غياب أبيه لاستدعاء الشيوخ المحاربين لإخماد حركة الجنود متجاوزاً ضباط الجيش ، لتوجّسه منهم ، ولقد لاقت هذه الدعوة رغبة عنيفة في نفوس الشيوخ ، لخوفهم من استيلاء الجنود على السلطة ، فاعتبروا حماية الإمامة ، حماية لمكانتهم من تحركيين يرونهم دونهم مكانة ومالاً ، حتى أن جلسات الشيوخ كانت تؤكد على ضرورة هزيمة هؤلاء : (الذين كانوا رعاتنا وأجراءنا) على حدّ تعبيرهم .

هنا تبدّى وجه من وجوه الصراع الطبقي يعتمد على العرقية ، والقواعد الوراثية والمكانة الاقتصادية . . وإلى جانب هذا تبدى طمع الشيوخ في السلطة ،

استناحاً للفرصة وسبقاً لمن سموهم رعاتهم .

لقد أخفقت الحركة الثانية للجنود ، وكانت حركة ٥٩ مختلفة عن حركة ٥٥ لم تسبب الحركة الأخيرة (حوبان ثانية) ولم يرتكب الجنود أي دموية ضد المواطن ، ولم ينهبوا من تلك القصور أي شيء ، وإنما اندفعوا عن وطنية أجَّجتها عوامل ثورة فقدت القيادة . . ومجرّد الشعور بضرورة القيادة ، يدل على اختلاف النفسية ، لأن مغايرة الأسلوب ، دليل تغيير الباطن .

لم يتّقد الهياج في معسكرات الجنود ، كما اهتاج آخر الخمسينات ، فقد تأهبوا جماعياً للثورة واستعدوا حتى لمقاتلة قباتلهم إذا استدعى الأمر ، ويؤكّد البعض أن ضياع تلك الفرصة من أيدي الضباط ، تسبب في بعض مشاكل سبتمبر ٦٢ وليس معروفاً إلى الآن : لماذا لم يستغل الضباط الذين ثاروا في سبتمبر تلك الغضبة الجماعية ؟ مع أن استغلال حماس الجماهير أهم عوامل الحسم ، ومع أن الحسَّ بالثورة كان قوياً عند الضباط !

لقد أدّى إخفاق هذه الحركة إلى إسكات وساوس الطموح في نفوس الجنود ، كما ساءت ثقتهم بالضباط بعد الشيوخ . . وعاد الإمام من (روما) فاستغل تمزقات الجنود ، وأكد السوء القديم في العلاقة . . ومضت الدعاية الإمامية تسفّه حركة الجنود . عن طريق بعضهم ، وعن طريق أشباههم من الفلاحين ، باعتبار هذه الدعاية أنجح .

بعد فشل الحركة بدأت حركة الضباط . ولكن على حذر من الجنود أو من أكثرهم ، حتى أن - (عبد الله اللقية) وزميليه - وهم ضباط في الجيش باشروا إطلاق النار على (الإمام أحمد) عام ٦١ ، دون أن يستعينوا بأي جندي ، حتى للحماية أو الاستطلاع بل كانت خطتهم في منتهى السرّية ، حتى تبدى التنفيذ كمفاجأة . . وكما أخفقت حركة الجنود عام ٥٥ و٥٩ . . أخفقت حركة ضباط

مستشفى (الحديدة) عام ٦١م . لأن الجنود في الحركة الأخيرة بلا ضباط ، ولأن حركة الضباط بمستشفى الحديدة بلا جنود ، غير أن الجنود لم يعودوا كما كانوا من الطاعة للإمام (أحمد) فعندما تفجرت مظاهرة الطلاب والجماهير عام ٥٦ تأييداً لمصر ضد العدوان الثلاثي لم يعنفوا عليهم بل كانوا متجاوبين إلى حدّ ما ، وعندما تدفقت مظاهرة الطلاب عام ٦٢ كان العساكر كمتفرجين فلم يطلقوا النار إلا على الذين أرادوا اقتحام الإذاعة .

وعندما انفجرت ثورة السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢ كانت نفسية الجنود شبه مشتتة لكثرة ماتنازعتها الرياح ، فقد حاولت وأخفقت مرتين وجربت سادة الأودية وسادة النجمات مرتين . . ولكن هذه الرياح على تعاقبها لم تخمد كل شيء في نفسية الجندي ، فقد ظلّت الجمرات تتقد وتنطفئ لكي تتقد وترفع لهيبها في صبيحة السادس والعشرين من سبتمبر .

من ذلك اليوم تعددت خنادق الجنود ، ورفدتهم أمواج الثورة بأفواج تلو أفواج ، فتجند إلى جانب الجيش آلاف المتحمسين من شباب المدارس . وعمال المقاهي والمطاعم . . فاعتنق الحماس بالحماس ، وتفجرت الثورة من الثورة . . . فبعد أن كانت غالبية الجنود من مناطق معينة . أصبحت كل المناطق جنود الثورة .

جاءت الافواج المعبأة بالنار : من عَدَن ، وحجة ، من تعز وآنس ، من لحج وخولان ، من إب وعتمة ، ولم يشعر الجنود النظاميون بأن هذه القوى بديلة عنهم كما أحسّوا في ٤٨ وإنما أحسّ أغلبهم بأن هذه القوى مدد لهم .

أصبح كل شارع مسلّح ، وأصبحت كل ربوة شلالات قذائف . . ولأن الثورة كحدث من أعظم الأعمال لابد أن تؤلّب عليها الأخطار لكي تتجاوز خطورتها ، لأن عنف الموج يخلق أمهر السبّاحين .

لقد شكلت المؤامرات على الثورة أشق امتحان فميزت الثوري الأصيل من الثائر بالعدوى ، والثائر على نظرية من الثائر على منفعة . . . فرأت عيون الشمس الفاضحة : من باع نفسه كالنعاج ، ومن اشترى سيادة الوطن بالدم . . فسجّل أغلب جنود الحرس الوطني لكل ذرة ملحمة حمراء ، وسجّل أغلب جنود النظام لكل حصاة ملحمة وردية ، لأن الثورة قد أشعرت كل الجنود بالثقة فانضبطوا عن ولاء للوطن ، وعن إرادة للثورة وبالأخص أنهم شاهدوا أكثر مستغليهم من الشيوخ في المعسكر الملكي .

لقد شعروا بالانتصار ، بعد محاولات وإخفاق فتعددت مواقعهم وتوحّد الهدف ، تنوعت الأسلحة والاختصاصات . . فبعد الجيش (الدفاعي والاسكي) وبعد (السوارية والنقلية والبرانية) تشكّلت قواتنا بعد الثورة : من مشاة ، وبحرية ، وطيران ، ومدرعات ومدفعية ، وإشارة ومظلات ، فكونت الثورة جيشاً متكامل الجندية . . . متكامل الأسلحة وقيادة الأسلحة .

وهذا بفضل الثورة التي عبّدت طريقها حركات الجنود على طول الخمسينات ، إلى جانب حركات الطلاب ، وحركة المثقفين . . إلا أن حركة الجنود كانت مباشرة دموية ، ترتب عليها دماء وضحايا .

صحيح أن كثيراً من المثقفين كتبوا بدمائهم ، إلا أن ضحايا الجنود في حركات الإرهاص ، وفي حروب الثورة : كانت أكثر عدداً ، وأغزر دماءً . . فلشهداء كل الفصائل من كل الحركات أعطر الذكر وللإحياء أمل النصر ، وهناءة الغد .

* * *

التيار الطلابي

لقد اهتمت كتاباتنا بتأريخ حركاتنا الوطنية ، وكان بعضها دعائي وبعضها إحيائي ، كما كان بعضها تسجيلي وبعضها تفسيري ، وجمع بعضها بين التسجيلي والتحليلي في كتابات السبعينات ، بيد أن هناك تياراً حار الاتصال من حركة إلى أخرى لم تلمسه كتاباتنا بالتخصيص : كتأريخ متَسم بالطرافة بالقياس إلى ثورية الشباب العالمي التي تبدت من أول السبعينات إلى منتصفها معضلة اجتماعية وإنسانية استدعت الدراسات المتعددة بتعدد خيوط المعضلة ، أما التيار الطلابي اليمني ، من مطلع الأربعينات إلى السبعينات ، فقد كان أقوى توهج الحركات وأحرّ نبضاتها في تلك الفترة المطبوعة بالتفجر الشعبي ، واليوم في أول الثمانينات التي صدر فيها هذا الكتاب ونحن نسمع الكثير عن ثورات الطلاب وتمرد الشباب بصفة عامة . . يحلو الالتفات إلى الحركات الطلابية في بلادنا كأعمدة ضوئية لِعَلَمِ الثورة . . وكأنهار نارية على طول الخط التحركي . . وقد تكون الكتابة حول هذا الجانب الطلابي أوفر دواعي اليوم ، بفضل الدراسات العديدة حول ثورات الشباب في العالم ، وحول أسباب التمرد الشبابي كظاهرة من صراع الأجيال ، وكميزة من ميزات الشباب ، لأن الإنسان الشاب أقوى صلة بالإنسان الطفل ، ومن المعروف علمياً أن الطفل شديد العداء لرتابة الأوقات والأشياء . وهو يعبِّر عن هذا العداء بكسر الأواني ورفع الصراخ وتحطيم الأشكال المنسجمة ، وهذا تعبير ثوري بدائي لتمزيق الرتابة وتفجير الهدوء ، لأن الطفل يشعر بثقل وطأة السَكيْنة الرتيبة فيحاول أن يهدم جدرانها بأي وسيلة في متناوله ، وإذا لم يجد ماهو قابل للكسر والنقش والتمزيق عوَّض

النقص بالعدوانية على الأنداد أو الحيوانات أو الكبار ، وإذا لم يتوفّر فيه النزوع العدواني كان الصراخ والبكاء أقرب الأسلحة إليه ، وهذا هو السرّ الثوري كالنبات المخلوط بتربة الأرض ، أو كماء السحاب الممزوج بالألوان الترابية .

إذن فالإنسان ثائر بطبعه ، وإنما تتنامى ثوريته مع نمو غصنه وترقّي ذهنيته ، فعندما يصل الإنسان الطفل إلى العشرين يتحول عناده الطفولي إلى التوتر والقلق ، فيطمح إلى تغيير كل قائم ، لأن ثوريته قد تهذبت وتفكّرت ولمحت أول طريقها وأول إيماءات غاياتها . . وهنا تتحول طبيعة تحطيم الآنية إلى فكرة تحطيم القيود وخلع النير وتجاوز الواقع السيئ ، لأن الشباب قد انتقل من أنايية الطفل إلى جماعية الشباب بفضل تفاعله مع رفاق الملاعب وزملاء المدارس وعطايا الدروس .

لهذا تتسم ثورة الشباب بالتواصل الحار وبالنشاط الذي لايهدأ ، لأنه عجول الغاية وقوي على التحمل . . وقد كان شبابنا الطلابي من مطلع الأربعينات مختلفاً عن شباب العشرينات والثلاثينات التي كانت أهم صفاته عدم التدخل فيما لايعنيه على حد تعبير الآباء وأساتذة ، لأنه أحسّ نفسه معنياً بالوطن بتأثير بواكير الثقافة المعاصرة ، فبدأ يخوض عدة ميادين نضالية ، كان يوزع المنشورات الوافدة من (عَدَن) ويواصل الدراسة ، ويتلمس آثار دعوة الثورة الدستورية في مجاميع القات والأسواق ، وكان أشق عمل يمارسه هو حمل الرسائل الداعية إلى الحركة الدستورية من (صنعاء إلى تعز إلى مراد إلى إب إلى بعدان إلى زَبيد) ، وكانت الحمير والأقدام هي وسائل المواصلات في ذلك الحين ، وربما كان يؤدي توصيل الرسائل إلى عَدَن إلى أشق الخطورات ، لأن الداخل إليها من الشمال مرقوب إذ ذاك ، وكانت هذه المناشير وهذه الرسائل تحتاج إلى تستّر شديد ، لهذا شاركت المرأة في هذا المجهود في المسافات القريبة وفي المدن بصفة خاصة كما سيأتي تفصيل هذا في بحث التيار النسائي ،

إلى جانب هذا فقد كان طلاب دار العلوم ينشرون التوعية الهامسة في بيوتهم وفي عواصم الأقاليم حين تتاح لهم فرصة الخروج لامتحان المدارس في سائر المناطق الريفية ، وكان الذين يقومون بمهمة الامتحانات آخر كل عام هم طلاب (الشُعَبْ العليا) من دار العلوم من الشعبة السابعة إلى الثانية عشرة ، وكان هؤلاء أكثر وعياً وحماساً للثورة الدستورية باستثناء أفراد قلائل وصل إليهم التيار المتعالي إذ كانت تؤثر عليهم العدوى من جهة المتحمّسين عن أصالة ، لأن السنوات الأخيرة من الأربعينات بلغت ذروة الغضب الطلابي . . وعندما وقع انقلاب شباط ٤٨ زاول هؤلاء الطلاب أدوارهم بكل استبسال فثوّروا الجموع بالخطابات الحماسية والقصائد الإيقاظية التي كانت تُنشَر خارج اليمن ، ثم انتقلوا إلى ميدان الفعل فحملوا البنادق وتعسكروا حول أسوار صنعاء ، فأصبح طلاب الثانوية وطلاب دار العلوم وطلاب الصحة وطلاب الإشارة أصبح كل هؤلاء معسكراً واحداً مختلف المواقع والقيادات لكي يكسروا الحصار عن العاصمة ، إلا أن خبرتهم في استعمال السلاح كانت غير كافية أمام قوة الحصار المدربة ، وأمام الخيانة من الداخل . . لهذا سقطت العاصمة في شهر مارس فدفع زعماء الطلاب ضريبة الحماس ، فمنهم من استشهد كعبد الله محمد الوزير ، ومنهم من كابد السجن كعبد الملك الطيب وعلي البوني وعلي الواسعي ، ومنهم من لاذ بالفرار كأحمد الخزّان وحسين عثمان الوزير وحسين المقبلي ، وكانت حركة ٤٨ قوية الاعتماد على الطلاب وبالأخص طلاب دار العلوم والكلية الحربية لكون الأولين من أبناء الطبقات العليا والوسطى ، ولكون الآخرين القوة العسكرية الواعية ، وذلك منذ نشأت فكرة الحركة الدستورية من أول الأربعينات إلى قيام الدستور ١٨ شباط ٤٨م إلى سقوطه في ضحوة آذار .

لقد كان طلاب دار العلوم والثانوية أصدق جنود ثورة ٤٨ وأحسّهم تقبلاً لها وتوعية عنها إلا أن طلاب تلك الفترة لم يشكّلوا جمهوراً عريضاً ، فلا

يتجاوز طلاب الثانوية مئتي طالب ولايتجاوز طلاب دار العلوم ثلاث مئة طالب ، إضافة إلى هذا أن طلاب دار العلوم كانوا ينظرون إلى غمار الجماهير نظرة دونيَّة ، فهم في مفهومهم : قبائل جَهَلة أو أولاد سوق ، ولابد أن أربعين في المئة من مجموع الطلاب غير متحمّس عن أصالة ، لأن التيار لم يهزّ الوسط الاجتماعي كلياً ، ولأن زعماء الحركة اعتمدوا على البيوت العالية وعلى قلة من الأفراد النابهين ، مهما كانت النظرة قصيرة في ذلك الحين عند القيادة والقواعد . . فإن الحركة الطلابية كانت أروع ظواهر ثورة الشباطيين التي كانت هدف سخط جماهير العاصمة مهد الحدث ، وهذا يستدعي قراءة الخلفية الثقافية والذهنية لطلاب الأربعينات . . لقد كان منهج الثانوية لايصل إلى مستوى إعدادي اليوم ، إلا أنه كان لايخلو من معاصرة بفضل استنارة الأساتذة من أمثال (أحمد الحورش وأحمد البراق) وبعض أفراد البعثات التعليمية من مصر وسوريا وفلسطين ، وقد كانت الثانوية تتأجج بالحماس الأناشيدي على انخفاض مستواها الدراسي ، وكانت الأناشيد القومية أبهى جمرات حسّها الثوري من أمثال (بلاد العُرب أوطاني) (أيها الخفّاق) (شمائل الهدى تنير حكمة الوطن) وكانت هذه الأناشيد وبعض المحفوظات الشعرية هي الزّاد الثقافي المختلف لطلاب الثانوية والمتوسطة ، أما طلاب دار العلوم فقد كانت دراستهم تتنفس برد القبور ورتابة القواعد والأمثال ، فلا يمكن أن يتمخض عنها حسّ مستقبلي لأنها كانت معلَّبة من مئات السنين بدون تأليف جديد يضيف إليها ويمدّ تطورها ، لأن منهج دار العلوم كان مجرّد حفظ مسائل جاهزة في العبادات والمعاملات ، في النحو الصرف والبلاغة ، في أصول الدين وفي أصول الفقه ، إلا أن هذا التراث وقع في مناخ قابل للتأجج ، فكَّون أساسيات لتقبل الحديث وإمكانيات التحديث وبالأخص عند النابهين ، لهذا أمكن الانتفاع بأوائل الكتب والدواوين الجديدة بفضل الأصل اللغوي والبلاغي ، غير أن الّذين تفاعلوا مع جِدّة هذه الكتب هم المتفوقون وذوو الاستعداد ، فإذا كان (الوريث) وزملاؤه في آخر الثلاثينات

وهم قدوة طلاب الأربعينات - قد تفاعلوا بمؤلفات العشرينات والثلاثينات لكثرة القراءة والتفهم ، فإن طلاب الأربعينات لم يستفيدوا جيداً من أوائل مؤلفات طه حسين والعقاد والرافعي وشوقي وحافظ والشبيبي والكاظمي ، ومن تمرديات (جبران) وقوميات (الريحاني) لاختلافها عن فهمهم ولبعدها عن مستوى طلاب الثانوية والمتوسطة ، وإذا تذكّرنا الشرارات التي اتّقدت في وجدان طلاب الأربعينات فسوف نجدها في عدد محصور من القصائد وأبرزها ثلاث : قصيدة العلى والمعالي . . للشريف الرضي ، قصيدة الديمقراطية لمحمد الأسمر ، قصيدة آلة السلاطين للرّصافي . . كانت هذه القصائد الثلاث تجري مجرى أنفاس طلاب دار العلوم ، إذ كان حفظهن وترديدهن علامة النجابة ودليل الثورية وآية المعاصرة .

لهذا كانت هذه القصائد أقباس الحسّ وشعلة الحماس ، وكانت الخلفية البهيّة لثورة طلاب ذلك الحين ، وفي الإمكان تلمّس السبب من نصوص القصائد وملاءمتها لذلك الظرف على تباعد أمكنتها وأزمانها ، وكانت قصيدة الشريف الرضي - من شعراء القرن الرابع هجري - جذوة من الحماس الطموحي إلى الخلافة ، وكانت بركاناً ثورياً على الحكم العباسي ، وكانت تتّقد بالشجاعة والمغامرة لأنها نشيد حربي علوي :

نبهتم مثل عوالي الرماحْ	إلى الوغى قبل نموم الصباحْ
فوارسٌ نالوا المنى بالقنا	وصافحوا أغراضهم بالصفاحْ
لغارة ، سامع أنبائها	يُغض منها بالزلال القراحْ
ليس على مضروبها سبةٌ	ولا على المجلب منها جُناحْ
دونكُمُ فابتدروا غنمها	دُميً مباحات ومال مباحْ
فإننا في أرض أعدائنا	لانطأ العذراء إلاّ سِفَاحْ
لابد أن أركبها صعبةً	وقاحة تحت غلام وقاحْ

يجهــدهــا أو ينثنــي بــالــرَّدى   دون الذي قُدّر ، أو بالنجاحْ
إمـا فتـى نـال العُـلا فـاشتفـى   أو بطلاً ذاق الرَّدى فـاستراحْ

وكـانت هـذه القصيدة أنجح التعاويـذ مـن الجبـن وأسرع الأجنحة إلى المغامرة ، وقد استظهرها كل أديب وكل متأدّب ، لأن طلاب دار العلوم كانوا ينشدونها في كل مناسبة وبلا مناسبة ، وكانت تحمل تصريحاً من اسم شاعرها (الشريف الرضي) أشعر العلويين أو القرشيين قاطبة ، لأنه نقيب الأشراف وجامع نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب ، فرواية أعماله الأدبية منسجمة مع رغبة السلطة يومذاك ، لأن التشيّع كما نعرف أساس الحكم الإمامي ، لهذا كانت القصيدة عند الرسميين كـالـدروس المقررة يتّصف راويها بـالنجابة ولايتَّسم بالثورية ، دون أن يعرفوا أنها كانت خميرة ثورية ، لكن قِدمها وعلَوية شاعرها أجاز لها حرية الإنشاد والذيوع بغض النظر عن مكوّناتها ، لأنها لاقت صدى عند كل الطامحين على مختلف أهداف الطموحات ، هذه هي القصيدة الأولى .

أما الثانية فقد كانت معاصرة بالنسبة لذلك الحين وكانت من الثقافات المحظورة ، ولكن الخطر يولع بالاقتحام ، لأن تلك القصيدة كانت جواب التساؤل النفسي في (اليمن) على عراقيتها وعراقية شاعرها ، إلاّ أنّ الأمور تتشابه ويجرّ بعضها بعضاً ، وهذا ماجعل قصيدة (آل السلاطين) للرّصافي أغنية ثورية بين طلاب الأربعينات ، والقصيدة توضح الفروق بين ترف الحاكمين وشقاوة الشعب ، وبين إرهاق الجنود بالدفاع وراحة القادة في أفخم المكاتب وأبهج الغرف ، وهذه أبيات من القصيدة :

هـم يُعـدون بـالمئـات ذكـوراً   وإنـاثـاً لهـم قصـور مشـالَـهْ
ولهــم أعبــد بهــا وإمــاءٌ   ونعيــم ورفعــة وجــلالَــهْ
فكـأن الإلـه قـد خلـق النـاس   لمحيـا آل السـلاطيـن آلَـهْ
ذاك منهــم حمــاقــة وشنــارُ   وهــي مِنـا دنـاءة وضـلالَـهْ

تلك والله حالة يقشعرّ الحق منها وتشمئزّ العدالَةْ

القصيدة تضمر إلماحاً إلى قصور (الإمام يحيى) وأبنائه السيوف . بفضل الطلاب وتغنيهم بهذه القصيدة ، تعممت على كل الأدباء والمتأدبين بل الطامحين إلى التأدب والأدب ، لأن هذه الرّصافية أفصحت عن أحوال اليمنيين بمقدار إفصاحها عن عراق الأربعينات ، لأن الكلمة المستمدة من تجربة جماعة تنطبق على كل المجاميع ، وهذا ماجعل الأدب أشواق النفوس الإنسانية وصوت الضمير البشري ، تلك الرّصافية كانت الخلفية الثانية لطلاب (صنعاء) في منتصف الأربعينات ، وفي تلك الفترة استجدّت قصيدة ثالثة ألمح إشارة وأجمل موضوعية وشكلاً ، وهي بعنوان (الديمقراطية) للشاعر محمد الأسمر :

إنما الناس من تراب وماءِ ليس منهم من ينتمي للسماءِ
آدم والد الجميع فحمقٌ وضلال تفاخر الأبناءِ
ماعلى الأرض فهو كاف بنيها لو أقاموه بينهم بالسواءِ
من بنى ملكه على الظلم والجور بنى مابناه فوق الهواءِ

هل كان البيت الأول والثاني من هذه القصيدة غير تقرير المقرّر ؟ نعم إنها عرَّفت ماهو معروف ، ولكن بعض المعروف يضيع في الجهل أو يغيَّب في التجاهل ، فكل الناس من نبت الأرض وليس منهم من ينتمي إلى السماء ، وكلهم أبناء آدم ومن الحماقة أن يتفاخروا بالتمايز على واحدية المأتى الأصيل ، ولعل الإشارة واضحة إلى دعوى الحاكمين بالامتياز على الناس ، أما البيتان الآخران فقد حملا أول صيحة بتساوي الناس في المعايش ، لأن كل أرض تكفي شعبها لو سادت المساواة وسيطر العدل ، لأن القصور القائمة على الظلم قائمة على الهواء الذي لايثبت على حال . . . فما أساس تقبّل هذه القصيدة عند طلاب الأربعينات حتى أصبحت على الشفاه أسير من التحيّة وردّها ؟

السبب أنه كان هناك تمايز بين الطبقة ونفسها وبين الطبقة والأخرى ، وكان (الإمام) وآله يرون أنفسهم أكثر من بشر وأعلى من الناس ، فكأن الطالب يتحدى هذا التعالي بهذه القصيدة ويتوق إلى المساواة من خلال هذا الإنشاد . . . ولعل للنفسية التي عبّرت عنها هذه الأبيات خلفية قريبة العهد ، فقد كان (أحمد عبد الوهاب الوريث) و(أحمد المطاع) على هاشميتهما يستفزّان الحسّ القحطاني ، كما في قصيدة الوريث (حيّ تلك الربوع) المنشورة في الحكمة ، وكما في كتابات (المطاع) المنشورة في نفس المجلة عن العمران السبئي والمجد المعيني ، وقد سئل أحمد عبد الوهاب الوريث عن سرّ هذه الإثارة العرقية فأجاب : (إن هذا أجدى سلاح لمواجهة الطاغية ، لأنه قد سخّر دعاية الدين لصالحه فلم يبق إلا الوطنية ولو جرّدناها من أصولها التأريخية لاعتبرها دعاية أجنبية ضد الشعب) .

إذن فقد كانت إثارة القحطانية في آخر الثلاثينات وبداية الأربعينات منطلقاً وطنياً دون أن يثير حسّاً طائفياً أو عرقياً في ذلك الحين ، لأن الحاكم المتعالي على كل الفئات كان هو المستهدف ، لهذا كانت قصيدة (الأسمر) برؤيتها إلى تساوي الناس امتداداً لدعوة الوريث ورفاقه ، وإذا تساوى الناس في الحقوق والواجبات أصبح الشعب هو المنطلق ، وغاياته ملتقى كلّ الأهواء .

إذن فقد انتمت حركة الطلاب إلى خلفية ثقافية أحرّ عناصرها الشعر الاجتماعي والسياسي فبلورت رؤيتها وكهربت عقائدها ، وامتدّ التوهج بالتوهج حتى سقوط الدستور ، وأطلّت الخمسينات بقسماتها وسمات ينابيعها المختلفة عن عالَم ماقبل الحرب الثانية ، فكانت الانتفاضات الطلابية البشير بالوعد المنشود والدليل إلى المنتظر ، وقد زاد عدد المدارس في الخمسينات لكي تزداد أعداد القوة الثالثة كما يسميها السياسيون ، فبعد أن كانت تنطلق الشرارات من (دار العلوم) (الثانوية) بصنعاء ، أصبحت مدارس (تعز) و(الحديدة)

و(حجة) و(كلية بلقيس) بعَدَن مواقعاً جديدة تضاف إلى المواقع القديمة وتطيل ألسنة اللّهب ، فبعد استشهاد (الثلايا) وزملائه عام ١٩٥٥ خمد الشعب كخموده بعد سقوط الدستور ، فدلّت (المدرسة الأحمدية) بتعز على أن في العرين أسوداً ، ففجّرت أول تظاهرة على قطع الرؤوس الكثيرة في تلك الحادثة وعلى هذا العنف برغم أن انقلاب (الثلايا) لم يستند إلى جبهات جماهيرية ، وإنما كانت التظاهرة العنيفة أول احتجاج شعبي على قطع الرؤوس الوطنية الذي كان من يوميات الحكم الأحمدي ، وكان هتاف المظاهرات يتّقد بالغضب : (لا إعدام لا إعدام يحيا الشعب يحيا الشعب) ، وكانت هذه أنصع صفحة في التأريخ الطلابي لأنها انتقلت من الهمس والإنشاد إلى التفجُّر الشامل بين غمار الملايين وتحت الشمس لكي تشهد تيار التحوّل يمتدّ ويتّسع ، لقد كانت هذه المظاهرة أول نقاط التحول في التأريخ الطلابي بل وفي التأريخ الشعبي إذ لم يعتد شعبنا قبل هذه التظاهرة الطلابية ما يسمى بالمظاهرات الجماهيرية ، فكانت تلك المظاهرة أول تنبيه إلى قيمة تحريك الشارع الشعبي تلتها مظاهرة ٥٦ ضد العدوان الثلاثي على مصر وطالبت الجماهير بالتسليح والتطوع وعندما تزايد أعداد الخريجين من دار العلوم عام ٥٩ ألحّ الطلاب على فتح مجالات العمل ، فأراد (الإمام أحمد) أن يسكت هذا الطلب فأمر بفصل مئتي طالب من جميع المدارس حتى لاتتفجر المظاهرات ويتمادى تيار الشباب في الاكتساح ، غير أن أوامر (الإمام) لم تعد مقدّسة بل مرفوضة بطريقة أو بأخرى ، لهذا تجمّع طلاب (دار العلوم) وقرروا أن يجتمعوا في جامع (قبة المتوكل) كل ليلة ويطلقوا احتجاجهم من هناك على مقربة من القصر (بصنعاء) في مأمن من القبض عليهم ، إلا أن هذه الظاهرة السطحية تطورت بما حولها من الاشتعال الاجتماعي ، والعامل الأكثر أهمية تضامن طلاب (التحضيرية) و(الثانوية) مع طلاب (دار العلوم) فقد تبلورت فكرة مظاهرة عامة ضد الأوضاع بجملتها ، غير أن طلاب (دار العلوم) أحجموا لأن وقار العمائم يجانب طفور المظاهرة

وتدفّق أمواجها ، وحسم (الإمام) الأمر بإلغاء فصل الطلاب ، وهذه الفترة تتطلب التقصّي في ثقافة طلاب الخمسينات واختلاف المستويات إلى حد التباين رغم الهدف الجامع وهو التغيير السياسي ، فقد كان طلاب (دار العلوم) متباينين منهم الثائر بلا حدود ، ومنهم المستنير ، ومنهم منتظر الوظيفة والخائف على أن تعوّقها التطورات . أما طلاب الثانوية والتحضيرية والمركز الصحي ودار المعلمين ، فقد كانوا أكثر صلة بتغيرات العصر نفسياً وقراءة بفضل مايصلهم من الصحف وما يسمعون من إذاعات الأنظمة الثورية . . أما (طلاب دار العلوم) فكانوا يمّدون زمن طلاب الأزبعينات إلى حدّ ، لأن الأسلوب النضالي قد اختلف باختلاف المجابهة ، فلم تعد الثورية تكمن في إلقاء قصيدة أو في خطبة مناسبة أو في تلميحات غيمية ، لأن الشعب أصبح أمام المصير وجهاً لوجه ، لهذا تبدّى الاعتصام بالمسجد ظاهرة سلبية في نظر طلاب المدارس الأخرى ، وكانت الكلية الحربية في شهور ميلادها ، كما كان طلابها خليطاً من كل المدارس الدرعمي إلى جانب الثانوي ، والثانوي إلى جانب التحضيري ، وعلى هذا التباين النسبي صهرت الكلية الحربية جميع العناصر لكي تتقد بروق الثورة في غمام واحد ، فاختلفت المهيئات فكأنما انقطعت أواصر الطلاّب عن خلفياتهم التقليدية بفعل التعليم الجديد الشاق والثقافة المستبصرة ، وقبل أن يصبح طلاب (الحربية) ثوار سبتمبر . . تفرض الخلفيات الثقافية نفسها ، كان طلاب (دار العلوم) بحكم وقار المكان وتزمّت الرسمية ورتابة المنهج أقرب إلى التقليدية ، ولاتفجّر ركودهم إلا توهّجات الشعر الثوري مهما كان تقليدياً كشواهد البلاغة التي يدرسونها ، ولم يخرجهم عن تقليدهم إلاّ حداثة الدروس العسكرية وجديد الكتب والوجوه الموعّية ، أما طلاب الثانوية والصحية فقد كان يسمح لهم وضعهم وتطلعهم تتبع الصحافة على قلتها وممارسة الألعاب الرياضية بدلاً من جلسات القات ، فكانوا أكثر تعبيراً عن طبقتهم لأنهم ينتمون إلى البيوت المتوسطة والفقيرة ، فكانوا بمجموعهم من أبناء المحكومين ، على حين كان

طلاب (دار العلوم) وأغلبهم من القضاة والمحافظين والكتبة ومديري المال والحسابات ، ورغم اختلاف الطبقتين فقد كانت النوازع الوطنية ممتزجة أو متقاربة ، فإذا كان طلاب (الثانوية) وأمثالها ينتمون إلى الطبقات الوسطى والدنيا كالضباط والجنود ، فإن طلاب (دار العلوم) قد اختلفوا عن آبائهم قليلاً أو كثيراً وأصبحوا من صميم الشعب أو قريباً منه بفعل التيّار الزاحف من هدير العصر ورياحه ، غير أن ثقافة الخمسينات وقعت في منعطفات تكاد تبعد عن واقعية النفوس ولكن مؤقتاً ، فقد وفدت في تلك الفترة بعض الكتب المترجمة عن الفلسفة (البرجماتية) من طراز : (دع القلق وابدأ الحياة ، والثقة بالنفس ، واعرف نفسك) . . فخلّف هذا النوع قدراً من التراخي وضرباً من الغرور ، حتى أن بعض العناصر من طلاب الثانوية ودار المعلمين استهترت بأصالة الرأي وخبرة المجربين وبالثقافة الشعرية بدعوى الثقة بالنفس ، كأن الثقة بالنفس تكون بإغلاق منافذها عن التفهّم والفهم ، والحقيقة أن الثقة بالنفس غير الغرور ، كما أن الاستهانة بطاقة النفس يرادف الضعف والتبعية ، فقد كاد هذا الجنس من الثقافة النفسية يحوّل الثقة إلى غرور مغلق ، ويحوّل النزوع إلى التغيير ملجأ من القلق الخلّاق إذ اتخذ البعض من عبارات تلك الثقافة شعاراً : (عِشْ في حدود يومك ، ولاتبك على اللبن المراق) ، وهذا إلهاءٌ عن الأساسياتْ لأن تلك المرحلة كانت أدعى إلى القلق لأن الشعب كان بين خيارين : إما الانقراض ، أو الثورة .

لهذا تجاوبت النوازع الثورية في النفوس وأصبح الواقع الشعبي أقوى من ثقافة الكتب والصحافة الإلهائية ، لكي تتّقد الثورة في العروق ، حتى تنفجر يوم ٢٦ سبتمبر ، وقد كانت الحركات الطلابية بمجموعها عناصر وقودها وعوامل انبلاجها كما دلّت تلك المظاهرة الطلابية الكبرى في منتصف عام ٦٢ كعلامة على اقتراب الثورة ، لأن الطلاب في آخر الشوط اقتبسوا من نار الشعب أكثر مما

اقتبسوا من الكتب وأوراق الجرائد ، فإذا كان لهم فضل الاستجابة النارية فللشعب فضل الإلحاح والاستثارة ، لأنهم تعلّموا منه أكثر مما تعلموا من المدارس والقصائد والصحافة ، وإن كانتْ هذه على اختلافها قد وسَّعت مناطق الحسّ الثوري .

لقد انتهت الحركات الطلابية إلى ثورة تحولية أخرجت الشعب من قيوده إلى رحاب وجوده تحت أسطع الأضواء ، وكانت مظاهرة أفواج الطلاب التي سبقت الثورة بشهور أصدق الإرهاصات ، لأنها قادت أفواج الجماهير فامتدت من طلابية إلى شعبية وإذا كان الطلاب قد أصبحوا ثواراً فإن الذين مازالوا طلاباً قد أصبحوا زنود الثورة وسرّ خصوبة امتدادها ، فعندما أعلنت الثورة (الجمهورية) تدفق طلاب المدارس إلى المعسكرات للانصهار بالثورة والاندفاع في موجها العارم مردّدين الهتاف بحياة الثورة وموت خصومها ، فتشكّل الحرس الوطني منهم ومن مجمل القطاعات الشعبية ، فمنهم من قاتل ومنهم من انتشر في المناطق يقاتل الخوف والجهل بسلاح التوعية ، ولما انتهت مهمة الارشاد الذي لاضرورة له عرف الطلاب أن الشعب قد بلغ الرشد وعليهم أن يلتحقوا كلياً بمواقع قتال المؤامرات ، وسجّلوا على كل ذرة تراب أشعَّة من شروق المستقبل ، وعندما كانت الأسلحة تدفن المؤامرة وتمد ضحوات النصر كانت المهود والملاعب والمدارس الابتدائية تزخر بمئات التلاميذ المنتظرين ، فعندما أصبح طلاب آخر الخمسينات قادةً وجنوداً أصبح أطفال ذلك الحين طلاب مدارس لكي يلتحقوا بالموكب المضيء ، وشهدت لهم منتصف الستينات عدداً من الانتفاضات كمظاهرة ٦٥ على انتهاك مقررات مؤتمر عمران ومظاهرة ٣ اكتوبر عام ٦٧م على لجنة التصالح التي أرادت أن تجعل ثمار الدماء رماداً وتضحيات البطولة استسلاماً .

لهذا أحبطت مظاهرات الطلاب الأكتوبرية خطة الوساطة المشبوهة ، ولكي

تشرق الأفكار أعمالاً ميدانية تجنّد كل الطلاب في المقاومة الشعبية عام ٦٧ كما تجنّد زملاء لهم في الحرس الوطني من قبل ، وكانت المشاهد تثير الروعة والإعجاب ، فابن الثالثة عشرة كان يقاتل إلى جانب ابن الأربعين بنفس المستوى حتى قال بعض معمرينا وهو يرى مظاهرة طلابنا عام ٦٢م :

« من يدري أن شعب المستقبل هو هؤلاء التلاميذ الصغار » وقال بعض المجربين في حرب السبعين :

« إن هؤلاء الأطفال يغرون المرتزقة بما في أيديهم من سلاح فلا يحصلون إلا على مصارعهم السريعة » .

ذلك أن المظاهرة الطلابية العارمة قبل الثورة بشهور كانت إنذار الطغاة باليوم الأخير ، لأن تلك الآلاف الهادرة المشبوبة أروع الحلقات في مسلسل النضال الطلابي ، لأنه كان عن وعي بالثورة وعن استعداد لمواجهة الاحتمالات ، فلم تكن حركة طلابنا موقوفة على الهتاف التظاهري وإنما هي على أتم استعداد للثورة العملية وللذّود عنها كما دلت مظاهرة أكتوبر ٦٧م ومقاومة السبعين يوماً من نفس العام حتى كسروا الحصار إلى جانب الجيش والشعب . . وبعد سكوت الحرب امتدّ التحرك الطلابي في أكثر من مجال : قاموا بمهمة التعداد لأول مرة في مطلع السبعينات ، كما قاموا بمهمة الإشراف على انتخابات التعاونيات كما تجندوا للتصحيح . . فحركة طلابنا متصلة الحلقات متواصلة التيار من وقت لآخر ومن ميدان إلى ثان ، وهذا ليس بالغريب لأن القراءة تغيير ، وتجدّد الأجيال حتمي حتمية طلوع شمس كل يوم ، وليس القادة الأنجح إلاّ الّذين كانوا التلاميذ الأنجب ، باعتبار الطلاب الثروة الأبقى والثورة الدائمة ، وإذا كانت بعض القيادات الشبابية تقع في أخطاء فذلك طبيعة العمل الأول أو تغرير المنظّرين ، لأن الشباب يمتلك قوة الدفع ويمكنه أن يكتسب أبعاد التجربة في ظل فهم أكثر خبرة أو أطول مدة في المراس ، ومن

مزايا طلابنا الكثيرة أن طموحهم لايتجاوز مصالح الشعب ولاينطلق من غير مشروعية ، فكما أنهم الربيع الدائم للامة ، فهم التجدّد المستمر في جذور الحياة وفي دفع الإرادة من تحقيق إلى تحقيق ، وأمام طلاب اليوم مهمات قد تختلف عن مهمات سابقيهم ، وقد تكون مشاكلهم أعقد ، إلا أن كفاءتهم على المجابهة والتجاوز سوف تكون أقدر مواقعاً وإعداداً ، والغد على ذلك من الشاهدين .

* * *

موقع المرأة في واقع التطور الاجتماعي

عندما يهلّ شهر مارس ، تهلّ معه الأمطار والخضرة ، وتنثال أبهج الذكريات . . لأن هذا الشهر يزدان بأخصب مناسبة طبيعية وإنسانية ، فاختيار (عيد الأم) في هذا الشهر ينبي عن توفيق الاختيار ، لأنه شهر تفجّر الخصوبة من أرحام الأرض ومن نهود السحائب وملكات الإنسان ، فما أجدره بذكرى الأمومة التي هي أصل الإنسان ، وأجمل مانقدم للأم اليمنية في عيدها ، هو تأريخ حركة المرأة مهما كانت متواضعة ومهما كانت الكتابة عنها أكثر تواضعاً ، لأن المرأة في المجتمع المتخلّف أكثر تخلّفاً لأنها الأضعف ، باعتبار المجتمع الذكري أو الرجالي يرى المرأة نصف مواطن عليها كل شيء وليس لها شيء من أعالي الأمور إلا في النادر وفي نطاق محدود من وراثات السيادة عن الآباء ، وعلى رغم السيطرة الرجالية فإن المرأة قد شاركت الرَّجل في أكثر المجالات الممكنة لها وللرجل على السواء . . وعندما يتناول الباحث المرأة اليمنية وتحركاتها التأريخية تتداعى في ذهنه صور مئات البطلات من التأريخ ومن العالَم لواحدية الجنس في أكثر من منبت . . تتجلى له (أسماء بنت أبي بكر) بشجاعتها النادرة في عالم الأمومة ، وتهزّه صورة (الخنساء) بشعرها المأسوي وتضحيتها الصابرة ، وتروعه من صور نساء العالم صورة (جاندارك) وهي تحترق فداء للوطن وصورة (الأم شُجاعة) التي كانت تغامر ببضائعها إلى المعسكرات الحاشدة فاغتنت من التجارة في الحرب وخسرت أولادها الثلاثة في الحرب حين انفجرت على بيتهم قنبلة وأمهم تحت القذائف تكتسب قوتهم كما في مسرحية (برخت) التسجيلية ، إلى جانب عشرات الصور في التأريخ الفكري

والدموي .. فبمقدار تفجّر المجتمع بالأعمال الخلاّقة ، تتألق حركة المرأة كنجمة بين نجوم ، باعتبار المجتمع كياناً واحداً لايؤدي كل مهماته إلا بحيوية كل أعراقه وأعضائه وكل طاقاته .

كانت (أسماء بنت أبي بكر) نبتة المجتمع الجديد الذي تصدى للجبروت الاحتكاري والعصبي ، فلأن المجتمع كان يتبازغ تحت شمس جديدة كانت (أسماء) إحدى نبتات ذلك المناخ ، جاءت من ميراث شجاع .. فقد كانت المرأة العربية في الجاهلية كأحد مقاتلي القبيلة وإن وضعها الرجل في دور ثانوي كقيادة الخيول وعَلْفها وتضميد الجرحى ، غير أن هذا الدور كان يوازي دوراً أمامياً للمرأة ، فقد كان هناك من يُسَمَّين (بالنافضات) ، وكانت مهماتهن الاستطلاع قبل الهجوم أو قبل ذود المهاجمين ، وكُنَّ يقدرن عدد جيوش الأعداء جملة ويفصِّلن بالتقدير أعداد الفرسان والرجَّالة ونوع السلاح : هل الأكثر السيوف أو الرماح أو السهام ! وكان يقوم تقديرهن على كثافة الغبار وحركات وبريق اللمعان .

فقد كان دور (النافضات) يسبق الرجال كأسطورة (زرقاء اليمامة) ، كما كان دور (الضامدات) و(الساقيات) يؤازر خلفيات الرجال ويشكل حامية للمباغتة من الخلف ، وقد أشار إلى هذا عمرو بن كلثوم في معلقته :

على آثارنا بيض حسانٌ — نحاذر أن تُقسَّم أو تهونا
يقتن جيادنا ويقلن لستم — بعولتنا إذا لم تمنعونا

فقد كانت المرأة في الجاهلية نفير غارات وطليعة وخلفية ، فهي في الاصطلاح العسكري اليوم : عصب الحرب كسلاح الإشارة .. وكانت بطولة الرجل تُحببه إلى المرأة ، لأنها شجاعة تحب الشجاع في سواها بمقدار إعظامها في نفسها .. فقد كانت (أسماء بنت أبي بكر) امتداداً لشجاعة الأمهات ،

خاضت مغامرة الهجرة وهي ثالثة اثنين يتعقبهم مجتمع (مكة) ، فتسمَّت (ذات النطاقين) لأنها شقَّت نطاقها إلى نصفين لكي يتوازن حمل الراحلة .

أليس التفكير في ساعات الخوف أبهى الدلائل على قهر الخوف ! وقد كانت (أسماء) تفكر في عملها وإنجاحه وهي في مرصد الموت ، فكرت كيف توازن الحمل كما لو كانت تشد أحمالاً في غير خوف ، فدلّ حضور بديهتها على امتلاكها نفسها وتجاوزها أخطار الخوف ، كان هذا أبرز مواقف (أسماء) في الحياة النبوية . . وعندما أصبح أبوها خليفة الرسول كانت كإحدى النساء بلا مميزات معيشية أو عائلية ، وإنما تبدّت آثار شخصيتها البطلة في ولدها (عبد الله ابن الزبير) الذي اتّسم بالجرأة إلى حد الحماقة .

قال (الدينوري) : « عندما أشرف (مسلم بن عقبة) قائد جيش (يزيد) على جبل (قُبيس) أصابته الذبحة الصدرية ، فقال : مَنْ يصلح بعدي لحرب (ابن الزبير) ؟

ليس في رجالي غير (الحُصين بن نُمير) ولاعيب فيه إلا أنه (يمني) رقيق القلب كأهله .

ولمّا مات (مسلم) خلفه (الحُصين بن نُمير) وعند اشتداد الحرب بينه وبين (ابن الزبير) بمكة فاجأه خبر موت (يزيد بن معاوية) فطرح السلاح ونادى بلقاء (ابن الزبير) على انفراد فهمس إليه : لقد مات (يزيد) ولا أرى أصلح منك للخلافة ، فتعال معنا إلى (الشام) لبيعتك .

فردّ (ابن الزبير) بأعلى صوته : والله لا أدخل الشام حتى أقتل بالرجل الحجازي عشرة من أهل الشام .

فقال (الحُصين بن نُمير) : والله ما رأيت أحمق منك ، أكلّمك سرّاً وتكلمني جهراً ، أدعوك إلى الخلافة وتدعوني إلى الخلاف » .

ألم يرث (ابن الزبير) عن أمه الشجاعة مضيفاً إليها الحماقة كتطرف بطولي أو كتهوّر قتالي ، لأن التهوّر يتجاوز الشجاعة إلى الحماقة ، ولكنه آت منها كإتيان (عبد الله بن الزبير) من أمّه (أسماء) ؟!

وبعد أعوام من هذا الحادث هاجم (الحجاج بن يوسف) (عبد الله بن الزبير) عن أمر (عبد الملك بن مروان) و(الحجّاج) يختلف عن (ابن النُمير) بمقدار اختلاف (ابن الزبير) في موقفه مع (الحجّاج) ، إذ فرّ ابن الزبير من الحرم طلباً للسلامة فاستحضرت أمه كل شجاعتها المعهودة وقالت له : « عد إلى أصحابك تموت معهم أو تنتصر معهم » . وعاد إلى الأسر ثم إلى الصلب ، وبعد أيام مرَّت أمه بجذعه ، ولما رأته مصلوباً منذ أيام قالت كلمتها الشهيرة : « أما آن لهذا الفارس أن يترجّل ؟ » .

بدون أن تنتحب كأم ودون أن تصعق كامرأة ، لأن المعروف رجالياً إلى اليوم أن البكاء مهنة نسائية .

لهذا أدهشت (إنديرا غاندي) جميع الصحفيين عندما كانت تخرج من المحكمة وهي تغنّي هازئة بصدور أي حكم ضدها ، لأنها كانت تعرف أن تهمتها ملفَّقة .

ألا تشبه (أسماء بنت أبي بكر) التي شبَّهت جذع الصلب الذي عليه ابنها بفرس والمصلوب بفارس ؟

إنها روح الفروسية لم تتخل عن (أسماء) ولاتخلَّت عن (إنديرا غاندي) .

فلماذا حققت (أسماء) هذا التفوّق البطولي ؟

لأنها ورثت البطولة ومارستها في ضحوة العمر الباكر في مجتمع تقديس

الأبطال والبطولات .

تشبه (أسماء بنت أبي بكر) من وجه مختلف (هند بنت عتبة) على اختلاف موقفها وموقف معسكرها . . كانت (هند) تتلقى أخبار مصارع أبنائها وإخوتها وهي تحث الزحف بهذا الحداء :

إن تقبلـــوا نعـــانـــقْ ونفـــــرش النمـــــارق
أو تـــدبـــروا نفـــارِقْ فـــراق غيـــر وامِـــقْ

لقد كابدت (هند) أفجع المآتم وهي تستثير نار القتال ، وكانت تعجب لاشتهار (الخنساء) وخمولها هي ، لأنها شاعرة كالخنساء ، ومرزوءة في أقاربها كالخنساء أو كالشاعرة الجاهلية (جليلة بنت مُرَّة) .

لقد لمحت (هند) القياس وأغضت عن الفروق . . فالخنساء من بنات الشعب ، و(هند) من طبقة الاحتكار والتسلّط .

أجابت (الخنساء) الدعوة المحمدية الجديدة ، ووقفت (هند) مع الرجعية المحتكرة ، فقدت (الخنساء) أولادها الأربعة راضية بما عند الله بديلاً ، وفقدت (هند) إخوتها وبعض أولادها بدون مقابل ولا انتظار مقابل غيبي ، لكنها لم تفقد الأمل كلياً ، لأنها زوجة (أبي سفيان) ذلك الرجل الذي حقق بالحيلة ماعجز عنه السيف وبالدهاء ماعجزت عنه مجابهة (بدر) و(أُحد) ، حتى أصبح بيت (أبي سفيان) يوم الفتح ثاني الحرم بمعادلة محمديَّة ، وقد استنكرت هذا الموقف (أسماء بنت أبي بكر) حتى أسكتها أبوها بصرامة الرجال .

إن هذه النماذج النسائية من أمثال : (أسماء) و(الخنساء) ، و(هند) . . تشبه بطلات بلادنا في خط الحركات الوطنية ، في مستهل خطواتها

والتشابه ينعقد بعدة خيوط :

أولاً : تماثل مجتمعنا بمجتمع العصور الإسلامية الأولى من ناحية الثقافة الدينية والتقاليد العائلية والمجتمع الرجالي .

ثانياً : بيئة الفروسية ، فقد كانت الفارسات اليمنيات من بيئة الفروسية ومن بيوت السيادة : (كأروى بنت أحمد الصليحية ، وتحفة الصليحية ، وأسماء بنت ذي الجيش ، وريًا بنت الحارث) .

ثالثاً : نوع الأحداث الحربية وأسلوب الصراع .

بمقدار ما يشبهن هؤلاء : (أسماء وهند والخنساء وخولة) ، فإن (سعود المرهبية) اليمنية تشبه (أم حكيم) فكما كانت المرهبية إلى جانب الثوار اليمنيين على تعسّف باذان الفارسي كانت (أم حكيم) أشجع فارسات الخوارج ، وكانت تعلن فدائيتها في كل معترك كما في قولها :

من لي برأس قد سئمت حملَهْ وقد مللت دهنه وغسلَهْ
ألا فتى يحمل عني ثقله

في المجالات الثقافية يمكن التشابه :

كانت (الشريفة دهماء) من مؤلفات القرن الثامن الهجري تعقد حلقات دراسية للرجال ، كما كانت (سُكينة بنت الحسين) - في العصر الأموي - تستحضر شعراء عصرها وتستنشدهم وتنتقدهم عاطفياً وفنياً . . وكانت كلتا المرأتين تفهم مغازي أحاديث الرجال وتردّ على السخرية بأمر منها .

استنكرت (سُكينة) على (جرير) .

ختام هذا البيت :

طرقتك زائرة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلامِ

فقالت : هلا قلت لها مايقال لمثلها فادخلي بسلامٍ ، إنك عفيف وفيك

ضعف .

عقب (ابن أبي عتيق) على رأي (سُكينة) بقوله : لو كانت الطارقة كمولاتي .

فقالت (سُكينة) : حتى وصيفات مولاتك لسن من الطارقات .

مثل هذا الموقف : موقف (الشريفة دهماء) عندما وصلت في كتاب (الحج) إلى الإحرام (وفي تحريك الساكن شاه) أراد أحد الطلاب أن يمزح بتخابث .

فقال : وماذا يجب في تحريك الساكنة ؟

فأجابت : شاه أيضاً .

فتمادى وسأل : وكيف تتحرك الساكنة ؟

فأجابت : كشفتيك .

على مرارة الردّ ، فإنها لم تتجاوز الحقيقة العلمية لتحريك الفمين الأعلى والأوسط ، وكان هذا الحوار ملائماً المبدأ الفقهي (لا حياء في الدين) . مثله موقف (سُكينة) في ردها على الذي سألها : لم لا تكوني كأختك (زينب) ؟

فقالت (سُكينة) : ليس الناس من صنع حدّاد .

مثل ردّ سُكينة ردّ (الشريفة دهماء) على الذي قال معرّضاً بها : النساء للفراش والرجال للعلم ، فقالت (الشريفة) : العلم للناس جميعاً .

فقد كانت المرأة فقيهة في ازدهار الفقه ، شاعرة في انتعاش مواسم الشعر ، فارسة في أزمان عبادة الأبطال والبطولة .

ولأن ظروف اليمن تشبه ظروف العواصم العربية قبل الإسلام وإبان الفتوح والحضارة ، فإن المرأة اليمنية – من عهد استقلال اليمن عن الخلافة العباسيّة

آخر القرن الثالث الهجري - مدَّت أفضل موروثات البطلة والفقيهة والناقدة والشاعرة ، عن اقتداء وعن استجابة لطوائف المؤثرات المحلية .

كانت السيدة (أروى بنت أحمد الصليحي) في القرن الحادي عشر الميلادي فارسة (كأم حكيم) الخارجيّة ، ومتذوقة للأدب ، كإحدى العقائل القرشيات ، وفقيهة في المذهب الإسماعيلي (كرابعة العدوية) في الزهد الصوفي ، بالإضافة إلى الممارسة السياسية المباشرة كأحد خلفاء (بغداد أو دمشق) . . وقد كانت شهيرة بمكائدها الحربية ، ومن أشهر هذه المكائد في أيام حكمها ورطة (سعيد الأحول) التي دبَّرتها حتى قضت بقتله على ألدّ الأعداء الفاتكين . . وقد كانت الأنثى أقل ما في (أروى) . .

روي عنها أنها لم تذق الحياة الزوجية إطلاقاً ، وكانت تقول لزوجها : (التي تُدبِّر الملك لاتصلح للفراش) .

هل كانت فاقدة الأنوثة كما يقول الأدباء المعاصرون عن الأديبة (مي زيادة) ؟

هناك فرق بين الأنوثة ، وبين الاشتغال عنها بما هو أعلى من السرة وأطول من ثواني السرير .

لقد كانت السيدة (أروى بنت أحمد) ألمع امرأة :

فهل أنتجها محيط رجالي أو محيط نسائي ؟

لابد أن لها مثيلات في عصرها - القرن الخامس كـ(شجرة الدر) آخر حكم الأيوبيين ، ولابد أن هناك بطلات توارين في الظل ، لأن محيط الفروسية لاينتج فارسة وحيدة أو فارساً وحيداً .

لكن هل كانت السيدة (أروى بنت أحمد) من عائلة مميزة ؟ لقد كان

(الصليحيون) من صفوة المثقفين وليس من أعلى الطبقات الاجتماعية اقتصادياً ، وكان المثقفون ينتمون إلى الطبقتين العليا والوسطى ، وكانت الطبقة العليا تتثقف بالوراثة ، على حين كانت تتثقف الطبقة الوسطى بدافع الطموح إلى الأعالي ، أو بحافز الحظوة عند أصحاب الأعالي .

ولقد وصل (الصليحيون) إلى الحكم عن جهود (علي محمد الصليحي) الذي تتلمذ على يد (عامر الزواحي) الحرازي الإسماعيلي المذهب ، وتفوق في ثقافته حتى أوصلته إلى الحكم ، ثم توارثهُ عَقِبُه من بعده نحو مائتي عام كما توارث الصراع مع العلويين والنجاحيين .

فهل (أروى) الصليحية تعبير عن الشعب أو عن السلطة ؟ .

عندما تُعبّر السلطة عن الشعب تنتمي إلى أصالته ، لأنها ارتقت منه لتحقيق أغراضه . . ولقد كانت (أروى) رغم وراثتها للملك شعبية الانتماء ، لم تتميز بالمكاسب والإقطاعيات ، وإنما بعبء المسؤولية ، وكانت بالقياس إلى الملكات والملوك شعبية العيش ملكية القلب ، ولاشك أن الدعاية العلوية قد وجدت في تأمير امرأة مغمزاً جيداً لو لم تتحصّن بفروسية الرجال ونقاوة السيدة .

ولابد أن (لأروى) خصوصيات شخصية ميزتها عن الرجال فضلاً عن النساء ، لكن النادر لايشكّل قاعدة ، كما لايشكّل الوصول إلى الحكم ميزة ثقافية ، لأن تحقيق هذا الغرض يرجع إلى استناح الفُرَص أكثر مما يرجع إلى التفوق الثقافي .

ولابد أن السيدة (أروى) قد أثارت في النساء كوامن الطموح . فكانت (الشريفة دهماء) في القرن الثامن الهجري من أبرع المحققات في الفقه ، حتى أنها كانت صاحبة حلقة دراسية كأئمة العلم من الفقهاء ، وكانت صاحبة رأي في التأريخ الصوفي ، وكانت في كتابها (الزنين) تترجم لأصحاب المذاهب قبل

طرح آرائهم المذهبية . . فالحس التأريخي يغلب على فقهيتها كامتداد لمسألة (الجَرْح والتعديل) عن معرفة سِيَر الرواة عند المحدّثين ، أما كتابها (الأنوار) فهو شرح لكتاب (الأزهار) تأليف أخيها (أحمد بن يحيى المرتضى) اعتمدت فيه على مفهوم المنطوق لكتاب (الأزهار) ، ولم ينل شرحها للأزهار اهتمام المحققين بل اعتمدوا على شرح (ابن مفتاح) مولى (أحمد المرتضى) باعتباره أكثر تفصيلاً لمسائل (الأزهار) وأوسع استيعاباً لسائر المذاهب غير الزيدية ، وأول من تبنّى شرح (ابن مفتاح) مقرر المذهب (القاضي حسن الشبيبي) ، لكن لشرح (الدهماء) قيمة أخرى من حيث الإضاءة على النص المشروح بدون إضافة المذاهب الأخرى ، وقد كانت في كل شروحها تعتمد على الدلالة الحرفية للنص المشروح ، كما فعلت في (شرح منظومة الكوفي في المواريث) إلا أن (القاسم بن محمد) قرر على المدارس (شرح الفرائض) (للناظري) ، أما شرحها (لمتن ابن الحاجب) في الأصول ، فقد نال مكانه وأصبح مقرراً في المناهج المدرسية ، على حين شرحها لكتاب (الجواهري) في علم الكلام برهان معرفتها بعلم الكلام ، غير أنها لم تكتشف التجلي الفلسفي الذي تفرّع عن علم الكلام وانقطع عنه لكي يشكل الفلسفة الخالصة : من (الكندي) إلى (ابن خلدون) .

لقد كان (للدهماء) في حركة التأليف نشاط خصب فاقت به معاصراتها من أمثال : (صفية بنت المرتضى) إحدى فقيهات القرن الثامن الهجري . ومن الملحوظ أنها لم تضع كتاباً في الفقه غير (الزنين) وكراسة تراجم لشعراء أهل الفضل لم يتّسمْ بعنوان ، وربما حالت دون إكماله مشاغل دنيوية أو موتها ، فأغلب مؤلفاتها شروح لمتون ، وهذا يدل على التحقيق ولاينم عن إبداع ، كأغلب مؤلفات عصور الانحطاط التي اهتمت بشروح الكتب القديمة وتلخيص مطولاتها ، ذلك لأن فترات الاجترار تعجز عن الابتكار ، فَتُغطِّي هذا العجز

بإحياء التراث أو تطويله أو تشذيب زوائده ، حتى أن بعض هذا التشذيب والتلخيص أخلّ بالأصول ، إذ تصوَّر تبسيط الأصيل زائداً على الحاجة كما في تلخيص الأغاني لابن منظور مثلاً . . غير أن نهج (الدهماء) يختلف لأنها كانت تشرح كتباً لم يسبق شرحها ، وأغلبها من مؤلفات عصرها .

من معاصرات (الدهماء) (فاطمة بنت علي) اشتهرت بالإصلاح الاجتماعي وهو على مفهوم القدماء : الإحسان إلى الفقراء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكانت تتصف هذه السيدة ببعد النظر السياسي ، حتى أن أخاها (الإمام الناصر) من زعماء القرن الثامن كان يرجع إليها في أهم المعضلات . . ويجد لديها أنجع الحلول ، إلى حدّ أن جلساء (الناصر) كانوا يتفكهون عليه حين يستبصر القضايا ويقولون : هذا رأي أميرة المؤمنين ، وقد انطبق عليها هذا الإصطلاح حتى قال أحدهم فيها :

أميـر المـؤمنيـن أخـوك فينـا   وأنـت أميـرة للمـؤمنينـا

ألا تشبه (فاطمة بنت علي) الملكة (زُبيدة) التي كانت تدير سياسة الخلافة من وراء الستار ؟

ألا تشبه (خَولة) أخت سيف الدولة في إشارات (المتنبي) ؟ كما أشبهت (فاطمة) بعض جداتها النابهات ، أشبهتها (فاطمة بنت أحمد بن يحيى) في حل المشاكل العلمية ، وكانت من نابهات القرن التاسع الهجري ، وقد عرف معاصروها سَداد رأيها فكانوا يرجعون إليها فيما يتجادلون فيه من مسائل الفقه واللغة ، ولم ينسُب إليها مترجمو حياتها أي عمل تأليفي ، ولعلها كانت تقرأ للتمتع بالمعرفة أو لعل الأمومة أعاقتها عن التأليف .

ومن النابهات التي شغلت مؤرّخي عصرها (زينب الشهارية) فقد كانت ذات رأي في مسائل الفقه واللغة ، وكانت حسنة المحضر والحديث ، ولعلها

كانت تخالط الرجال وتناقش المسائل الثقافية السائدة في عصرها القرن الحادي عشر الهجري وكانت هذه الحقبة من أزهى مواسم الشعر في اليمن .

كان من أبرز شعرائها (حسن بن جابرْ الهَبَل) و(المخلافي) ، وكان من أبرز شاعراتها (زينب بنت محمد الشهارية) ، وقد تناولها أغلب مؤرخي عصرها بالوصف التعميمي وإن لم يخل وصفهم من حسّ تغزلي لأنهم كانوا يبدؤون الحديث عنها : بحلاوة حديثها وإثارة وجهها ، من أمثلة هذا وصف المؤرخ (يوسف بن يحيى) في كتابه (نسمة السَحَر فيمن تشيَّع وشَعَر) : « كانت فاضلة تحلَّت بالأدب في عصابتها ونظمت مااشتبه حسناً بقلادتها ولم يُدر أشعرُها أم وجهها أم حليها أجمل ؟ » .

فإذا كان (يوسف بن يحيى) قد جمع بين الإعجاب بحسن وجهها وبديع شعرها ولمعان عقودها . . فإن (أحمد الحيمي) في كتابه (طيب السمَر) يفضّل (الشهارية) على المليحات النابهات في التأريخ من أمثال (سُكينة بنت الحسين) ومن أمثال (الخنساء) ، ويقرنها بـ(ولّادة بنت المستكفي) مليحة الأندلس وعشيقة (ابن زيدون) وإحدى شواعر تلك الحقبة من عهد ملوك الطوائف . وهذا يدلّ على سعة ثقافة مؤرخي تلك الفترة ، كما يدل على مباهاتهم بفاتنات عصرهم . . فإن استحضار (الحيمي) للشواعر المليحات يوحي بأن اليمنيين كانوا يحاولون التفوّق على الأوائل رغم انتهاجهم لآثارهم . . . ولعل هذه القطعة من وصف (الحيمي) للشهارية يكشف لنا أسلوب النثر الفني في تلك الحقبة ، فقد كانوا يُغرقون في السجع حتى في الكتابة التأريخية ، قال الحيمي عن الشهارية : « صدفة مصورة ودّرة فخار مكنونة ، أقرّ الله بها من الأدب عينه ورزقها من الظرف بألا تذكر معه (سكينة) ، ولها كلم يتيه على يواقيت الأحجار بالفخر ، ولآلئ ألفاظ تعد عندها كلمات (الخنساء) منحوتة من صخر ، فهي (ولّادة) الزمان إلا أنها لم

تستغل حجارها تلك » .

يدل تعبير (يوسف) و(الحيمي) على أنهما أقرب إلى المؤرخين التسجيليين وإن غلب عليهما الحسّ الوصفي وتصور ظواهر الصورة الأنثوية .

أما (محسن أبو طالب) فقد عني بغير ماهو تأريخي : كزواج الشهارية وطلاقها ، وهذان لايتصلان بالتأريخ إلا بمقدار ما يترتب عليهما من أحداث تأريخية ومن تأثير أدبي ، أما الزواج والطلاق لذاتيتهما فهما من يوميات الناس والحيوان ، والأمر الاعتيادي غير العمل التأريخي ، يقول (أبو طالب) عن الشهارية في كتابه (ذوب الذهب بمحاسن من شاهدت بعصري من أهل الأدب) : « كانت أعجوبة الدّهر في الفضل والعفاف وبدائع الأوصاف ، تزوجها علي بن إسماعيل ففارقها ، ثم تزوجها بعده علي بن أحمد ففارقها أيضاً » .

وهذا الوصف التعميمي لايحدد مزية ، إلا أن تعدد زواجها وطلاقها قد يشير إلى تعقد شخصيتها ، لأن الاستقرار الزوجي كان يعدّ من ألمع فضائل المرأة ، وبالأخص الفقيهة التي من ثقافتها حسن عشرة الزوج .

فهل كانت (الشهارية) تعاني شذوذ الحسن كالأديبة الفرنسية (جورج صاند) مثلاً ؟ ربما !!

ولعل لثروتها الموروثة إلى جانب حسنها الموصوف دخل في شغبها الزوجي ، غير أن أشعارها تناقض هذا الزعم ، لأنها تحمِّل أحد أزواجها مسؤولية الملل الزوجي كما تقول :

أهكذا كل من قد مل يعتذرُ ... ويعقب المدح ذم منه يبتكرُ
أما أنا فلقد حمَّلتني شططاً ... بالأمر والنهي فيمن ليس يأتمرُ
ما كان قصدي لكم إلا مؤازرةً ... والسعي في الخير جُهدي لست أعتذرُ

فالشهارية ترى نفسها أميرة لاتقبل الأمر الزوجي ، أو ترى نفسها زوجة

تعرف واجبها بلا أوامر ، ولعل تفردها يكمن في الإلماح إلى دخائل النفس الرجالية من حيث إشارتها إلى الملل الزوجي ، ولعلها من القليلات اللواتي يفطن لهذه الطبيعة في الرجال ، فما أكثر اللواتي يزعمن العمر الزوجي عشقاً متصلاً ، غير أن الملل الزوجي يعوَّض بعواطف أخرى : نقاوة الحياة العائلية ، وطول العشرة ، أمومة الأولاد . فهل كانت الشهارية غير منجبة ؟

لم يُنوِّه مؤرخوها إلى إنجابها على كثرة مانوَّهوا بفضلها ، وتعدد أزواجها ، وتفننوا في وصف حسنها وإطراب حديثها وتفوّق شعرها ، وحوادث زواجها وطلاقها ، وإذا نظرنا إلى القيمة الأدبية لشعرها ، لانجدها تجاوزت النظم المألوف في أدب تلك الحقبة ، وقد استطرف لها معاصروها هذا الجناس في رسالة شعرية تستمنح فيها إعارة كتاب (القاموس) من العلاّمة موسى ، وقد استغلت الجناس الاعتيادي كما تقول :

مولاي (موسى) بالذي سمك السما وبحق من في اليم ألقى موسى
أمنن علي بعارة مردودةٍ واسمح بفضلك وابعث القاموسا

ولعل التجانس بين ألقى موسى النبي والقاموس الكتاب قد فتن معاصريها لحسن الجناس بين الجملة الفعلية وبين الاسم ، ولأن في البيت الأول اقتباس من القرآن ، وفي الثاني مراعاة النظير ، فاجتمع في البيتين فنّان من فنون البديع : الاقتباس والجناس التام ، وقد كانت هذه المشاكلة التجنيسية دليل الذكاء الاجتماعي عند الوسط الأدبي . . كما كانت المفاضلة بين الأمكنة من علامة الحصافة ، وقد فضّلت (زينب الشهارية) شهارة على صنعاء بنفس أسلوبها البديعي رغم قلة الإبداع :

يا من يفضّل (صنعا) غير محتشم على (شهارة) ذاك الفضل عن كمَلِ
شهارة الرأس لا شيء يماثلها في الارتفاع وصنعا الرِجْل في السَّفلِ

أليس (صنعا) تحت الظهَر مع ظلعٍ　　أمَّا (شهارة) فوق (النَّحر) و(المُقَلِ)

ينطوي هذا المقطع على عدة وجوه ومرام ، فالتعبير الحرفي يصور مقارنة حرفية : « شهارة » الفضل الكامل ، أو عن كُمَل على حد تعبيرها ، لأن شهارة الرأس وهو موطن التفكير والسمع والبصر ، وصنعاء هي الرِّجل لالتصاقها بالتراب ، ثم تنتقل الشاعرة إلى التورية : أليس صنعا تحت الظهر مع ظلعٍ !

عبارة تحت الظهر تحتمل الإشارة إلى وادي ظهر ، وتحتمل الإشارة إلى ظهر الإنسان وما تحته من المناطق المستورة ، ولعل التورية إلى الإنسان أقرب ، بدليل الشطر الأخير الذي جعل شهارة فوق النحر والمقل .

وهذا التصنيع الأدبي يحتمل دلالات سياسية أهم ، فقد كانت (شهارة) مركز المقاومة ضد الأتراك ، على حين كانت (صنعاء) سهلة الاستسلام ، وقد عاصرت الشاعرة أواخر الاحتلال العثماني الأول ورضعت ذكرياته مع لبن الأمومة .

فتفضيلها (شهارة) ينتمي إلى منزع وطني بطولي ، وقد كانت البطلات في القرن العاشر الهجري عطر الأحاديث الرجالية ، كما روي عن (نخلة الحياسية) التي عوَّقت القوافل التركية عن التقدم إلى (صنعاء) عشرين يوماً ، وكانت (نخلة) على رأس مجموعة من بنات (صعفان) وكان سلاحهن الأحجار لاغير ، وكن يمطرن جيش الاحتلال بالحجارة من حيث لايدرون مصدرها ، ولم يوقفهن إلا إطلاق المدافع عدة ساعات .

وقد كانت بطولة (نخلة الحياسية) مضرب المثل ، لثباتها في وجه سلاح ناري ، لأن البطولة اليمنية كانت تتألق في معارك السيوف والرماح ، أما الصمود في وجه القذائف فقد كانت الفلاَّحة (نخلة الحياسية) أول الفدائيات أو أبرع نماذج البطولة .

ولعل أبيات (الشهارية) في مناعة (شهارة) تنتظم كل الربوات البطولية ، فتنطبق على جبال (حراز) كانطباقها على (شهارة) المنيعة ، فمقطوعة (الشهارية) تدخل في البديع من حيث المفاضلة واستعمال التورية ، وتنتسب إلى النضال السياسي لانتمائها إلى زمن المقاومة أو ذكراها . .

إذا كانت (زينب الشهارية) ومثيلاتها قد لفتن المؤرخين ، فإن (نخلة الحياسية) وأندادها لم يدخلن دائرة الكتابة إلى الآن ، لأن تأريخنا إلى قبل عشرين عاماً كان رسمياً ، ولم ينوّه المؤرخون بأمثال (زينب الشهارية وصفية المرتضى) ، إلا لأنهن بنات أئمة أو زوجات أئمة ، وإن كن قد أصبحن الآن من تراثنا الثقافي ، والمرأة الوحيدة من غير الإماميات التي حظيت بلفتة تأريخية هي (الميّاسة بنت عرفجة) في أول القرن السادس الهجري .

قال عنها (عمارة) اليماني : « المياسة بنت عرفجة اليمنية أدركتُها ولايحسن الوصف أن يأتي على بعض محاسنها ، ولقد تزوجها رجل دميم الخلقة من قومها ، وكانوا يعجبون من دمامته وجمالها ، وأذكر أنهما اختصما ذات ليلة إلى والدي ، فقال زوجها : إني قد عجزت عن الاحتمال والصبر على ما أسمعه من كثرة الإعجاب بجمالها وقولها إنها ليست من نسائي فإن أجَّرتني منها أحببتها . قال الشيخ والدي : لست أجيراً عليها إلا بأمرها . قالت : أجَّرتني قبل ما أراد . قال زوجها : فإني خير منك لأنني صاحب . . فلما انتهى قال الشيخ : لا والله ماانقطعت (ميّاسة) ولاخجلت من ذكره عضو تناسله ، بل قالت : ردوا عليه فوراً من غير رؤية إنك لم تأت بشيء ولا أفلحت وإنما افتخرت بالذكورة » .

وهذا الموقف على قلة أهميته تأريخياً ، يدل على أن (ميّاسة) من طبقة الفلاحين ، لأن الفلاحات يتحدثن عنما تحت مآزرهن ، كما يتحدثن عن سائر الأعضاء كاليد والوجه ، واللواتي يتحرَّجن ويستعملن التورية للمناطق المستورة

هن بنات الخاصة في المدائن .

من هنا نتبين أن تأريخنا من القرن السادس إلى الثالث عشر الهجري ، أو من القرن الثاني عشر إلى التاسع عشر الميلادي ، قد تقصّى عدداً من نوابغ النساء وحركتهن في التأليف والسجال الأدبي والإبداع الشعري ، ومن الملحوظ أن المؤلفات اليمنيات في تلك العصور أكثر من المؤلفات في بغداد ومصر والشام والأندلس ، بغض النظر عن نوع التأليف ودرجة الإبداع فيه . . وإذا لاحظنا أن الفقه والفلسفة الهدوية الزيدية إلى جانب الحروب قد أجَّجت الجدلية العقلية ، حتى أنجبت مفكرين وإصلاحيين دينيين ، فإنها فقد أنجبت مؤلفات متفلسفات وإن كانت فلسفتهن من طراز (علم الكلام) أو القريب منه . . ولقد امتدت الجدلية الدينية حتى نشأت من أرومتها الجدلية الوطنية ، فكما كوّنت الخلفية الفقهية والسنّية : الرعيل الأول من مناضلي النصف الأول من القرن العشرين ، فإن فقهية المرأة وفلسفيتها وأدبها قد كوّنت أعداداً من المناضلات على مختلف المستويات ، وعلى مختلف نوعية النضال . . وربما تواكبت الثقافة السلفية والحماس الوطني عند الرجال وعند النساء على السواء ، حتى أخفَت حماس الوطنية سائر المزاياالفقهية ، فلم تعد تتردد في النصف الأول من هذا القرن أسماء الفقيهات إلا في لمحات ممزوجة من الإعجاب والتفكّه ، من أمثال هذه الحكاية :

تزوج أحد أدباء (صنعاء) امرأة كوكبانية ، وفي السَمَر لم يجدا مفتحاً للحديث كعادة أزواج تلك الفترة ، فخطر للزوج سؤال وجيه :

هل كان السفر من كوكبان شاقاً ؟

فأجابته بنصف شطر لابن النحاس :

(لا أذم العيس للعيس يدٌ) في تلاقينا وللأسفار نُجحُ

فاكتشف لطف عروسه وروايتها للشعر الغَزَلي ، وشاعت هذه الأحدوثة

على سرِّيتها يومذاك .

ويروي ظرفاء صنعاء : أن الشاعر عبد الكريم مطهر مر من جانب بيت فوقع عليه ماء ، فصاح : نجستينا يابنت الخير . فردّت على الفور : كل مغيَّب طاهر .

فقال في تفكه : فيهن من هي أبو حنيفة .

فهاتان الحكايتان من المسموعات عن أديبة وعن فقيهة .

ولعل العشرينات من هذا القرن كانت تعاني قحطاً أدبياً في عالَم المرأة وعالَم الرجل ، ولو كانت الحياة الثقافية رخيّة عند الرجال ، لكان للمرأة فيها نصيب كالعهود السابقة ، غير أن المرأة لم تتوقف كما لم يتوقف الرجل فقد برزت في الثلاثينات بطلات شعبيات : (كأم أولاد أبو دنيا) ، و(فندة الدرويشة) . . فقد روي عنهما : أنهما كانت تصدان زحوف العساكر الإمامية وإن انتهت هذه المقاومة بالاستسلام . . وفي مطلع الأربعينات لم يفح ذكر بطلة أو أديبة أو متأدبة ، بيد أن هناك إشارة شعرية إلى مقاومة المرأة للعسف من قبل الجنود ، وألمح الإشارات إلى هذا قول (زيد الموشكي) :

تُخاصمنا بالدين والدين موجعٌ	لأنك قد أدميت مهجته عدّا
وإلا فهل هتك النساء وضربها	حلال ولو في دين من يعبد الصلدا

فهذه دلالة على مجابهة المرأة ، وعلى تعرّضها للضرب كنتيجة لتلك المجابهة ، وقد بَسّطت مقاومة المرأة أكثر ، مقطوعة (محمد محمود الزبيري) بعنوان (العجوز وعسكري الإمام) وإن كانت لاتدل على إنطاق الشعب من الداخل ، لأنها حوار بين كادحة من الفلاحات وبين من هو أكثر كدحاً ، لأن الجندي من أكثر الطبقات بؤساً . . لكن المقطوعة تشير إلى وجود العنصر النسائي في الأربعينات كجزء من الحركة الوطنية .

إشارة الموشكي ومقطوعة الزبيري ، إلماح جيد يدل على أن هناك بطلات في أكثر من موقع ، لأن الهياج الاجتماعي يتصاعد بالعدوى ، وقل مَن يتفرد بالحسّ الخاص وينتفع به بدون روح جماعية تتفاعل به وتمد تيار التفاعل .

لهذا تزايدت أعداد البطلات المجهولات في آخر الأربعينات ، فقد كن يحملن الرسائل بين المناضلين من بيت في المدينة ، ومن (صنعاء) إلى بعض المناطق ، ومن بعض المناطق إلى (صنعاء) .

لكن هل كانت تلك النساء يعرفن خطورة تلك الرسائل ؟

وبأنها تتضمن معارضة لحكم الإمام يحيى ؟ وتحمل دعوة إلى حكم الدستور ؟

إن بعضهن من عائلات المناضلين ، وبعضهن من العاملات في دُورهم ، وبعضهن من عائلات أجراء مزارعهم ، فكان تحركهن بتكليف رجالي : إما أبوي ، أو زوجي . . وقد دفعت هؤلاء النساء أفدح الضرائب لوجه ذلك التحرك ، فبعد سقوط الدستور كابدن الإرهاب والتأيّم وأبوة الصغار نيابة عن الأب القتيل أو السجين .

صحيح أن الأم اليمنية تنوب عن الأب في غيابه ، لكنها في الريف أسهل حملاً منها في المدينة ، لأن الريفية تعوّدت حمل العبء في حضور الزوج وغيابه ، أما بنت المدينة فقد فاجأتها المسؤولية الثقيلة ، فأخرجتها من نعمى الدلال إلى مواجهة الريح والهجير وزحام الأسواق .

لقد أدى مصرع بطل الاستبداد (الإمام يحيى) ومصرع الدستور إلى إرهاصات مختلفة في صميم الحياة الاجتماعية بجنسيها ، فبدأت المعاصرة تلوح على استحياء وابتدأ تقبلها يلوّن أكثر من بقعة ، فتزايد عدد القارئات في البيوت بصنعاء وتَعِزّ وذمار ، وأقل الصغيرات انتظمن بين الصغار في الابتدائية غير

الرسمية ، من أمثال : معلامة طلحة والنهرين بصنعاء ، ومعلامة دادية بذمار . . وكان أغلب هذه الابتدائيات غير الرسمية من فصل واحد ، فكوّنت هذه البداية إلى جانب المعلمات في البيوت أول المجتمع القارئ من النساء .

وفي عام ٥٧ افتتحت مدرستان للتمريض بصنعاء وتَعِزّ فالتحقت بهما جموع من القارئات : من زوجات وأبكار وأرامل ومطلقات ، وقد واجهن معارضة قاسية ، لم يخفف من قسوتها إلا أنها عن أمر (الإمام) . . وهذا أول خروج نسائي من سجون الجدران إلى الحياة العملية المباشرة ، وكما كانت هذه أول خروج فقد شكّلت النقطة الأولى من التحوّل . . ففي عام ٦١م قامت الممرضات بأول إضراب في تأريخ بلادنا احتجاجاً على إهمالهن من المرتب الشهري ، ونجحت تلك المغامرة الناعمة كباكورة التحديات . . تلت هذه الباكورة المظاهرة الطلابية في المدائن الرئيسية عام ٦٢ ، وبعد شهور أشرقت الثورة في أرديتها العسكرية والثقافية .

واستقبلت هذا الحادث العظيم مظاهرة الجماهير ، فتظاهرت النساء بتَعِزّ إلى جانب الرجال صبيحة السادس والعشرين من سبتمبر ٦٢م .

ومن عام ٦٣ اتسع تعليم المرأة نسبياً وافتتحت عدة مدارس ابتدائية وإعدادية ، وقامت الممرضات في حروب الثورة بمواصلة السهر بالسهر لمساعدة الممرضين والأطباء ، مهما حصرت المجافظة عمل المرأة في الأقسام النسائية بجميع المستشفيات ، فقد تجاوزت بهن الضرورة هذا الحصر إلى المشاركة الخلفية في إسعاف مصابي الحرب .

وفي ٣ اكتوبر عام ٦٧ أشعلت أفواج من النساء المظاهرة إلى جانب مواكب الشباب ، وكانت أعداد النساء تقرب من أربعين في المئة وأغلبهن من طالبات المدارس والمدرسات وعاملات المصنع على حداثة عهدهن بالعمل

الوظيفي والعمّالي .

في تلك الفترة أصبحت المرأة عاملة في مصنع الغزل والنسيج وفي مجال التدريس وفي الحقل الإذاعي ، وكان التمريض النواة الخصبة لهذا التيار المتسارع نسبياً .

ومن بداية ديسمبر ٦٧ إلى فبراير ٦٨ اشتركت المرأة في الدفاع عن العاصمة ، وحملت عاملات المصنع السلاح عن اندفاع ثوري ، وعن اختيار لذلك الموقف .

وفي عام ٦٩ تزايدت أعداد الخريجات والمثقفات ، فأصبحت المديرات لمدارس البنات من اليمنيات بدلاً عن الرجال وعن المعارات من الخارج .. في ذلك العام بدأ نضج تفكير المرأة ، وحاولت طلائعهن قيام اتحاد نسائي ، فشكلت (حورية المؤيد) و(فتحية الجرافي) و(فتحية النظاري) أول اتحاد ، ولأن تلك الفترة كانت عهد التراوح بين الثورة واللاثورة ، وعهد التصالح بين المنقرض والقابل للانقراض ، ارتطمت فكرة الاتحاد النسائي بنقيض نسائي ، فكانت (عاتكة الشامي) تمثل الموقف المعارض للاتحاد الجديد ، أو موقف الداعي إلى اتحاد من لون الفترة- التراجعية كانعكاس طبيعي ليمينية السلطة ويسارية الشعب ، أفرزت هذه التداخلات مايمكن أن يصنف : يميناً ويساراً في عالم المرأة .. برغم أن القياديات الثلاث ينتسبن إلى الطبقات الوسطى القريبة من العليا .

إلا أن التخلخل مدة عشرة أعوام قطع أكثر الجذور الطبقية وعلق أعلاها بذيول الريح .

مهما تصارعت تلك القيادات النسائية فإنها لم تخمد فكرة قيام اتحاد نسائي ، بل أدت إلى قيام اتحادات سرية وشبه علنية ، رغم المضايقة المصوَّبة

على الجناح الشعبي .

وفي منتصف السبعينات دعت (ليلى الوادعي) إلى اتحاد تحت اسم (جمعية نهضة المرأة) لتقلل الخوف من اسم الاتحاد ، فتشكّلت من ذلك الحين جمعية المرأة بدون عبارة نهضة أو اتحاد ، ولعل في إزالة الصفة مايعطي الجمعية هوية أكثر قبولاً ، وهذا التطور المتسارع في حركة المرأة يمتّ إلى الفقيهات الشاعرات وإلى بريديات الأربعينات التي أشار إليهن الموشكي والزبيري ، واللواتي فصّل بطولتهن الشاعر محمد سعيد جرادة والشاعر لطفي جعفر امان .

كما ألمح الموشكي والزبيري إلى نماذج البطلات ، أفصح محمد سعيد جرادة عن بطولة المرأة كأصل لفدائية الرجل ، كما يقول عن مناضلات (ردفان) :

ورب فقير عرسه قد تمنَّعَتْ	عليه ، وهزت فيه نخوة جبّارِ
وقالت له : فيما وقوفك والحمى	محاط بشر مستطير وأشرارِ
فقال لها : قد تعلمين بأنني	أخو فتكات في الوغى غير خوّارِ
ولكنني من عدة الحرب أعزلٌ	وذلك ظرف لايضير بمقدارِ
فأهدت إليه قرطها وسوارها	وما تذخر الأنثى لحالات أطوارِ
وقالت له : بِعْها لتشري كرامةً	وحرية لايشتري مثلها الشاري

إذا كان (جرادة) في هذه القصيدة صوَّر المرأة حافز قتال ، فإنه في قصيدته (فتاة ردفان) سنة ٦٣ قد صوّر المرأة مقاتلة كأشجع الرجال مضحيَّة عن الوطن كعاشقة للموت العظيم .

إذا كانت الستينات والسبعينات قد سجلت تضحيات البطلات ومغامراتهن الإنسانية . . فإن الفضل في هذا الاقتحام يرجع إلى تربية الأمهات العظيمات

اللواتي أرضعن أولادهن وبناتهن قداسة الوطن وعشق التضحية لوجهه ،. كما يقول (لطفي جعفر امان) في الأم الثائرة والدافعة إلى الثورة :

أمي
أجل هذي التي انحدرت من الشرق القديم
اليوم تصرخ في الشبيبة حين جار على الديار
المجرمون اللاحقون بأرضنا الموت ، الدمار
أمي تزمزم كالرياح :
العار لو وطني يباح
وتهيب بي قتلوا أباك
أسروا أخاك
الثأر يابني أفق ، الثأر ليس له سواك .

فقد تغيَّرت صورة الأم من خائفة إلى محرضة على قهر الخوف ، وتغيُّر صورتها في الواقع غيَّر صورتها في رؤية (لطفي) .

إن اليمنية المعاصرة ، قد تجاوزت الحريمية من مطلع الستينات ، فأعلنت أول إضراب ، واتقدت في المظاهرات الجماهيرية ، وقاتلت إلى جانب المقاومة والجيش ، واندغمت في المليشيا الشعبية ، وكوّنت جمعية المرأة في الشمال ، والاتحاد النسائي آخر الستينات في الشطر الجنوبي من الوطن ، ودخلت لجان التصحيح عام ٧٤ بشمال الوطن واللجان الشعبية من نفس العام في الشطر الجنوبي .

فهل هذا كثير على حفيدات (بلقيس) وبنات (أروى) و(الشريفة دهماء) ؟

إن المنتظر أكثر مما تحقق ، وإن المرأة كالرجل في حاجة إلى التجاوز

الدائم لحجاب النفس وحجاب الوجه ، فعلى الرغم من أن أعداد الجامعيات يشكل الآن ٢٠٪ تقريباً فإن الشعور الحريمي مايزال يرسب داخل النفوس ، وليس الاحتفاظ بالأنوثة هو الاحتفاظ بالضعف والنزوع البكائي .

إن الإناث أقوى من الذكور في الحيوانات والبشر ، ولكي تحقق المرأة قوتها ، لابد أن تجمع بين الصون الأنوثي ، والاقتحام المشروع إلى ذروة الغايات الاجتماعية ، لكي تتواصل الحركات النسائية عن اختبار أكثر .

والحقيقة أن المرأة ليست ضعيفة بالطبع ، ولا مجتمعاً خلفياً بقانون قاهر ، وإنما الطينية الرجالية تصيب المرأة بالضعف بفعل نزعة الامتلاك الحيوانية .

إن الحقوق الغريزية مشروعة ، ولكنها ثمرة لحظات عجلى ، أما إتصال الاقتحام بالاقتحام إلى الغايات الاجتماعية المنشودة فلا حدود له ، لأن حدود الشعب أن لا حدود .

* * *

الفصل السادس

حركة ٤٨

١ـ أثر الحركة وتأثيرها .
٢ـ ثقافة الانقلابيين .
٣ـ حركة ٤٨ بين واقعها . . وواقع الكتابات عنها .

أثر الحركة وتأثيرها

لايمكن أن تتحرك موجة في البحر بدون قوىً تحرِّك كل مياهه ودون أن تتحرك بتحركها كل الأمواج إما بالعامل الذي حرّك الموجة الأولى أو بتعدد عوامل التحريك ، مثل كثافة الرياح مثل الهيجان غير المعهود ، لأن البحر كل يهيج بعضه ببعض ، أو يسكن كله لكي يهيج . . كذلك الشعوب ، فإن تحرك فئة - أياً كان موقعها - يسبب تحرك الفئة الأخرى ، سواءً كانت منسجمة معها ، أو معاكسة لها ، لأن تحرك جانب يستلزم تحرك مثيله أو جَيشان عكسه كعواصف الغابات ،وقد لاحظنا توالي الحركات في مناطقنا ، وتعاقب حركات الفصائل على امتداد (العهد المتوكلي) إلى (اليمن الجمهوري) . كما لاحظنا إخماد هذه الحركات ، واستعصاء التحركين على الفناء ، وربما كانت شدة القمع سبباً في توالي اتقاد الحركات ، لأن انتكاس الشعلة يزيدها اشتعالاً .

لهذا عجز القمع عن إيقاف حركة الشعب أو حركة جماعات منه ، فعندما تبدَّى الهدوء سائداً على أرجاء شمال الوطن ، من منتصف الثلاثينات إلى شباط ٤٨ ، ظن القامعون أنهم قد استأصلوا كل نبض ، مخدوعين بظواهر الهدوء الآني ، فإذا بالتحرك ينجم من وراء حسبان سلطة ذلك الحين ، فقد نجم في مطلع الأربعينات من قصور أتباع السلطة الذين كانوا أدوات قمعها ومن بيوت الذين كانوا (خُدَّاماً) للمقام (اليحيوي) فحمل هذا التحرك راية الإصلاح ، ودعوة الحكم القائم إلى تبنّي أطروحاته الإصلاحية ، وإن كانت تلك الأطروحات لاتغاير ماهو قائم من كل الوجوه .

من هنا وجد (الإمام يحيى) من يقارعه بسلاحه وهو الدين الذي قام باسمه ، وأخضع بدعواه ، ويزعم الخروج عليه . . وكانت الوجوه التي تحركت غير مشبوهة – عند مجتمعات المدائن – : في دينها ، أو في مكانتها الحسَبية ، أو في ولائها للإمام ، فقد كانت ترى تلك الوجوه : من رواد بيوت الله ، ومن أعمدة (المقام الشريف) ، ومن موضع ثقته .

ألم يكن (عبد الله الوزير) من قادة إخضاع المناطق ثم محافظاً لذمار ، ثم الحديدة ، ثم ليزم (الإمام يحيى) في مقامه كمستشار ؟ .

ألم يكن (محمد محمود الزبيري) من أبناء الفقهاء الذين شربوا حب الأئمة مع لبن الأمهات ، ثم رسَّخوا هذا الحب بتعلّم كتب الأئمة وأشياعهم ، فأفتوا بها وحكموا بمقتضى نصوصها ؟.

بالإضافة إلى الثقافات الأدبية والتأريخية والدينية من منظور تشيعي .

أليس (علي عبد الله الوزير) قائد حملة المناطق الوسطى ، وأمير الجيش في قعطبة ، ثم أمير تَعِزّ ، ثم مدير منطقة المحويت ؟؟

أليس تقلبه في هذه المناصب برهان الولاء للإمام (يحيى) من قِبَل (الوزير) ، وشاهداً على الثقة من (الإمام يحيى) في (الوزير) ، بل هناك ماهو آكد صلة بين (علي الوزير) و(الإمام يحيى) ، ذلك هو تزوج (عبد الله الوزير بن علي الوزير) بالأميرة (تقية ابنة الإمام يحيى) . . وهؤلاء الثلاثة : عبد الله أحمد الوزير ، علي عبد الله الوزير ، محمد محمود الزبيري . . أبرز الوجوه (الصنعانية) في الانقلاب التي بدأت معارضتها من منتصف الأربعينات ، وهؤلاء الثلاثة من طبقات السيادة والفقه ، ومن أعمدة ذلك العهد ، باستثناء (الزبيري) الذي لم يصل إلى منصب وظيفي مرموق .

ألم ينجم التحرك المناوئ من مأمن السلطة اليحيوية ، ومن نفس المدرسة

التي أعدّت الأئمة ؟ .

لأن كبار هؤلاء من أعمدة العهد ؟؟ .

فإذا كان (الوزيران) من قمة السلطة أو عنقها ، فإن زملاءهما كانوا من خُدّام السلطة على مختلف المستويات : كحسين عبد القادر الذي كان مدير مدينة صنعاء ، وعبد السلام صبرة الذي كان رئيساً للبلدية . وحسين الكبسي الذي كان (ممثل الإمام) في الجامعة العربية وفي أكثر المؤتمرات .

فهل كان الأستاذ (أحمد نعمان) خارجاً عن دائرة هؤلاء ؟؟ .

صحيح أنه كان يغاير (الزبيري) في بعض نواحي تعليمه ، لأن (الزبيري) كان تلميذاً بصنعاء ، وكانت مناهج تعليمها (هدوية) ، على حين كان (نعمان) تلميذاً في جامع (زبيد) ، وكان يتعلم (الزُبَد) بدلاً من (شرح الأزهار) ، وحيناً إلى جانبه .

فهل انضمام (نعمان) إلى المعارضة كان غريباً ؟ .

إنه بالقياس إلى تعليمه يبدو غريباً ، لأن (الشافعية) أصولية الرأي لاترى إلا عن أصل من صميم الكتاب والسنّة ، فأتباعها كأهل (السنّة) : يرون وجوب طاعة الحاكم وعدم جواز الخروج عليه ، لأن ذلك (شق لعصا الطاعة وفرط لعقد الجماعة) فتعليم (النعمان) يحول بينه وبين معارضة الحاكم ، كما أن تعليم (الزبيري) يعلّم حب (الإمام) ووجوب الخروج على الظالم ولو من الأئمة .

ألم ينفجر التحرك من مأمن السلطة ، أو من حيث لاتحتسب ؟

هذا هو الذي جعل حركة رجال ٤٨ مغايرة لحركة (المقاطرة) أو (الزرانيق) ، لأن تلك الحركة لم تفجر سلاحاً على الحاكم في بدء تنظيمها ،

وإنما لجأت إلى تشكيل تنظيم تسمَّى في مطلع الأربعينات (هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ولقي بعض أعضاء ذلك التنظيم عقوبات بالسجن ، لأنهم أعلنوا مايريدون ، على حين لم يمس (الوزيريِّين) والذين في طبقتهم أي عقاب ، سوى التنقل من منصب إلى آخر ، وإن تفاوتت مناصبهم ، فإن هذا التفاوت لايخرجهم من دائرة أعمدة السلطة ، إذ لم يكن يتولى إدارة أي منطقة كبيرة أو صغيرة ، إلا الموثوق به من (الإمام) وصاحب الحظوة عند مقامه .

فهل نشأت (هيئة الأمر بالمعروف) فجأة في صبيحة الأربعينات ؟

لاشك أن نواتها تكوَّنت في منتصف الثلاثينات تقريباً ، ثم تنامت حتى أصبحت تنظيماً في صبيحة الأربعينات ، عندما توافرت أعدادها من موظفين كباراً أو صغاراً .

هناك تبدَّى تنظيم حقيقي يعارض السلطة في عقر دارها ومن نفس طبقتها ومن الطبقات القريبة منها ، وصادف ذلك التنظيم مناخاً قابلاً لتصاعده ، نتيجة زيادة طلاب (دار العلوم) وزيادة (أولاد الإمام) ، وهذه الزيادة في الفريقين ، كانت أهم أسباب اتساع التنظيم ، لأن أصحاب الوظائف العليا والطامحين إلى وظائف ، خافوا أن يستأثر (أولاد الإمام) بالمناصب العليا ، كما استبد أبوهم بقمة الحكم وأجهزته .

كان هذا من أسباب تنامي المعارضة ، وكان تناميها أسباب خوفها والخوف منها ، فلجأ الجناح الأدبي من التنظيم إلى (عَدَن) ، عام ٤٤م .

ولاشك أنهم شكَّلوا من هناك تحالفاً مع بعض التجار ، وأكدوا صلاتهم بآل الوزير وآل عبد القادر وببعض أساتذة ثانوية صنعاء ، وكان (علي الوزير) أهم عون للاجئين في عَدَن ، وأقوى التحركيين في داخل الشمال ، أما (عبد الله الوزير) فقد استطاع أن يتستَّر على معارضته مدة سبع سنوات . فهل كان خارج

ذلك التحرك ؟

يبدو أنه كان قريباً بعيداً ، بدليل أن (الإمام يحيى) عزله من محافظة (الحديدة) وأدناه من مجلسه في المقام ، وهذا يدل على استخطار (الإمام) إياه ، وعلى محاولته لاستبقائه بجانبه .. فهذا يدل على شبهة في (الوزير) ولايبرهن على تأكيد تنظيميته ، لأن (عبد الله الوزير) أبدى للإمام نفس ماكان يبديه له من الولاء أيام قيادته للحملات العسكرية على المناطق ، وأيام ولايته على الحديدة وذمار ، فظل يتردّد على (المقام اليحيوي) بانتظام كأكثر الموظفين التزاماً وطاعة حتى عام ٤٧ ، هناك بدأت إيماءات إلى (عبد الله الوزير) كخليفة للإمام يحيى ، عزز هذا التوقع مجيء (الفضيل الورتلاني) الجزائري ، الذي جدّد برنامج (الزبيري) بشكل آخر ، إذ قدّم للإمام يحيى رسالة مطوّلة مفعمة بالولاء لشخصه ، والاقتراحات لنظامه .. فدعا في رسالته (الإمام) : أن يستعين بالمخلصين من المؤمنين ، وأن يستوفد خبراء من الأقطار الإسلامية لإنعاش الزراعة وتطوير أدواتها ، ولإخراج مكنونات الأرض من ذهب وفضة ونفط ونحاس ، وكان (الفُضيل) يتملق (الإمام) في أكثر جمل رسالته ، حتى يبدو ناصحاً لامقترحاً .. وفي الوقت الذي كان (الورتلاني) ينصح فيه (الإمام) ، كان ستعجل الانقلاب ضده ، ويتردّد على العائلات العريقة والشخصيات النابهة ، مقنعاً إياها بضرورة القيام بانقلاب ، وبسرعة العمل في تنفيذه قبل أن تنقلب عليهم السلطة فتنعكس الأمور إلى الخلف .. حتى قال جمال جميل العراقي : (إن هذا الرجل يسوقنا إلى الميدان بعصاة) .

مع أن (جمال) من أهم التحركيين عسكرياً ، ولكنه كان يستأني إلى الوقت الأنسب أو لم تكن عنده مفكرة معارضة وانقلاب في بدء التحرك ، على حين حثّ (الفُضيل) على السرعة ، وكان قوي التأثير على الأسر العريقة وعلى شبابها بصفة خاصة . كان عام ٤٧ ذروة التمخض التحركي الذي ظهر (آل

الوزير) فيه كقياديين ، على حين أصيب (الإمام) في صحته ورأيه إزاء هذا التحرك ، فلا يدري ماذا يفعل ، لأن الحركة نجمت من حوله ولم تتفجر من أي منطقة كالعادة وكان أهم رجالها من أهل ثقته ، إلى حد أن المنشورات والرصاص وصلت إلى غرفة نومه ذات ليلة وباتت تحت وساده ، وهذا أشد نذير بنهايته ، لأنه لايملك أجهزة مخابرات على كل مستوى .

لكن كيف ينتهي ؟

هل يمكن إرغامه على التنازل كـ(عبد الحميد) عام ١٩٠٩ ؟ . .

إن التنظيم لم يبلغ درجة القدرة على إنزال الحاكم ديمقراطياً وابداله بغيره ديمقراطياً أيضاً ، لأن خلفاءه في داخل الشمال كانوا يتحركون سرّاً ، لايعلنون طلباً تغييرياً ولايبدون معارضة للإمام القائم .

بهذا استحال تنازل (الإمام) عن سلطته بالأسلوب الديمقراطي .

فهل مقتله يؤدّي نفس الغرض ؟ إن كل أدبيات التنظيم ، كلٌ ما نشرته صحيفة (صوت اليمن) لم تطالب (الإمام) بالتنازل ولم تحرّض على قتله ، وإنما ظلّت تردّد دعوته إلى تنفيذ المشاريع الإصلاحية : كتشكيل حكومة ، واستشارة أهل الرأي واستخراج كنوز الأرض ، لقوة صلته بالعالم الإسلامي . فلماذا لم يطالب التنظيم (الإمام) بالتنازل بعد أن رأى عدم صلاحيته ؟؟

هل مردّ هذا إلى يأس التنظيم من استجابته ، أم أنه كان يعلن الإصلاح ويبطن الاغتيال ؟

لقد دلّت تمخضات عام ٤٧ على إمكان حدوث أي شيء ، وفي ١٧ فبراير سنة ٤٨ حدث انقلاب شباط ضد (الإمام يحيى) ، وأُعلن : (عبد الله بن أحمد الوزير) إماماً بالبيعة الشرعية بعد أن أجاب الإمام يحيى نداء ربه بدون إشارة إلى مقتله ، إلا أن الإشاعة الاخبارية كانت أقوى من الإعلان ، فتلقى الشعب مقتل

(الإمام يحيى) كأعنف مفاجأة ، فأطبق الذهول على الشعب ، نتيجة عنف المفاجأة ، لأن الذين كانوا يعرفون تنامي الحركة قلة من الناس ، وكان أكثر هذا القليل لايتوقع مقتل (الإمام) ، لأن تقاليد تلك الفترة كانت تقضي بتنازل الملوك لاقتلهم ، كما برهنت الثورة المصرية بنفي الملك فاروق عام ١٩٥٢ ، وأقامت ولي عهده مقامه تحت الوصاية حتى يبلغ الرشد ، أما الغالبية العظمى من الشعب اليمني فقد أذهلتها مباغتة قتل (الإمام يحيى) .

فهل كان قتل (الإمام) أنجح الوسائل ؟؟

لقد عرف التأريخ اليمني مصرع (أئمة) قبل (الإمام يحيى) ، ولكن بطريقة مغايرة ، إذ كان يخرج على (الإمام) القائم (إمام) قاعد ، فيتقاتل الإمامان ومن معهما ، حتى يُقتل أحدهما في المعركة تتم الغلبة للقاتل . . أما الاغتيال السياسي فلم يعهده اليمن ، لهذا تعاطف الشعب مع (الإمام) القتيل ، ورأى قتله غيلةً أفظع النكرات ، لأنه في غير حرب ، ففرَّق الشعب بين القتال والقتل الاغتيالي ، وبين المقاتلين والقَتَلة .

بهذا سقط الانقلاب بعد عشرين يوماً بيد الشعب وبزعامة (أحمد حميد الدين) (أمير تَعِزّ) وأكبر أولاد (الإمام يحيى) . . فأثار قيام الانقلاب وسقوطه بتلك السرعة اهتمام الباحثين ، وبالأخص في السبعينات ، حتى أصبح ذلك الانقلاب من محاور الكتابة والجدل : فهل ينتسب ذلك الانقلاب إلى حركات العصور الوسطى ، أم أنه أقرب إلى طبيعة الأربعينات ؟؟.

إنه ينتسب إلى العصور الوسطى من حيث قيام (إمام) على أشلاء (إمام) ، وينتمي إلى فترته لكونه من عمل تنظيم أراد ديمقراطية الحكم ، ولكنه دخل من غير باب الديمقراطية وإنما من باب الاغتيال : كغلمان (الناصر) الذين قتلوا (المتوكل) العباسي في القرن الثالث الهجري . . فكان الانقلاب خليطاً من

شعائر الفترة ومن طابع الماضوية ، لأن الفترة كانت خليطاً من المؤثرات العامة : كانت شعوب العالم الثالث في بدء يقظتها ، أو في طفولة حركتها . . ففي تلك الفترة سمع اليمنيون بتحرر (الهند) من الاستعمار وقيام حكم وطني من (حزب المؤتمر) ، كما سمعوا بمظاهرة (مصر) المطالبة بحكم دستور عام ١٩ ، ثم سمعوا بيوم (الجلاء) عن مصر عام ٣٦ ، كما سمعوا عن الانتخابات والمجالس النيابية في أكثر من قطر ، فتأثروا بحركة الشعوب في ذلك الحين ، وأرادوا أن يعملوا كما عمل الآخرون ، فيتخلَّصون من الاستبداد .

إن تأثر الشعوب بالشعوب سُنَّة نضالية ، شريطة أن تعرف الجماعة المناضلة حاجة شعبها إلى التغيير وإلى نوع التغيير الذي يَنشده ، وربما لم يكن (اليمن) في حاجة إلى شكليات الحكم ، بمقدار احتياجه إلى الحكم الذي يتجاوز به الضرورات مهما كان شكله ، ولو كان بدون أشكال مُسمَّاة ، فقد اشمأز الشعب من اسم (الدستور) ، ونجح أولياء (الإمام يحيى) في تفسير اسم الدستور ، وفي تصويره في أشنع المخلوقات ، وتقبَّل الشعب هذا التشويه للدستور ، لعدم معرفته إياه أو لغياب تصور صورته .

فلماذا لم يعلن العدل بديلاً عن الدستور ؟ . لأن شعبنا كان أحوج مايكون إلى العدل الحقيقي ، لأن العدل في الثلاث سنوات الأخيرة من الأربعينات كان شبه غائب بمقدار ماكانت الحاجة إليه شديدة الحضور .

لكن : هل كانت فترة الانقلاب كافية لإبدال شعار بشعار عن دراية بحاجة الشعب ؟؟.

لقد كان ينبغي أن تسبق حملة التوعية مقتل (الإمام يحيى) ، ولأن سبق التوعية كان غير ممكن ، سبَّب مقتل (الإمام يحيى) في الشعب ردود أفعال عنيفة : أولها البكاء ، وآخرها الانقضاض على حكم الدستور . . حتى أثَّر

الانقلاب الدستوري على سرعة التحرك الشعبي ، لأن الناس رأوا (الدستورية) مرادفة للقتل ، وللخروج عن موروثات الشعب ، ولكن لم يكن هذا التأثير الوحيد في النفوس ، فبعد سقوط حكم الدستور وانقشاع الذهول ، أحسّ المواطنون إمكان انتقال السلطة من يد إلى يد حتى تملكتها قبضة الشعب . . فكما أثَّر الانقلاب في الشعب كراهية الانقلابيين ، فإنه أثَّر الحسّ التحركي وإمكان زوال أي سلطة سوى سلطة الشعب . . فإذا كان الانقلاب خليطاً من الإرادات ومن الوجوه المريدة ، فإن آثاره كانت خليطاً من حسّ التحرك ومن خوف عواقب الحركة ، لأن الذين قتلوا (الإمام يحيى) لاقوا مقتلهم على يد ابنه ، وكانوا معروفين بقوة النفوذ .

لهذا سبَّب سقوط الانقلاب أثرين متناقضين : الحسّ الحركي ، والخوف من الحركة . . فكما أصبح الانقلابيون محور الحديث والنقاش من آخر الأربعينات إلى منتصف الخمسينات ، كان حضور المحور الثاني وهو المنتصر على الانقلابيين إلى جانب الانقلابيين ، لأن الشعب بدأ يحس نهاية (العهد الحميدي) بنهاية (الإمام أحمد) .

فلماذا عجز (الإمام يحيى) عن تأسيس عهد أطول ، ولماذا عجز (أحمد) من بعده عن مدّ عهده إلى أعقابه ؟؟

هل قيام الانقلاب في شباط ٤٨ أوهن التأسيس المتوكلي ؟ .

إن هذا التساؤل لايفرّق بين العهود الملكية والعهود الإمامية ، فليست (الإمامة) وراثية وإنما لكل (إمام) شروطه الخاصة كما ينص (المذهب الهدوي) وإن كان كل وريث يدَّعي اكتمال الشروط تسويغاً لتوارث السلطة هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن قوة الشخصية الفردية لا تؤسّس عهداً طويلاً ، إلاّ إذا كوّنت نظاماً سياسياً لا يؤثر موت الفرد على امتداده ، وقد كان عهد (الإمام

يحيى) فردياً غير قابل للامتداد إلا بصفة فردية كعهد (الإمام أحمد) ، إلى جانب الظروف الهائجة في العهدين ، فمن يرجع إلى سنوات (الإمام يحيى) لا يجدها عهد تأسيس حكم وراثي طويل العمر ، لأنها كانت مشحونة بالاضطرابات والانتفاضات ، ولم يستتب الاستقرار على رقعة الشطر الشمالي إلا من منتصف الثلاثينات إلى انقلاب شباط ٤٨ ، وكان استقرار تلك السنوات سبب تحرك المدينة التي أنجبت قادة إخضاع المناطق المنتفضة من أمثال : عبد الله الوزير الذي أخمد أكثر من حركة ، لكي تؤثر فيه قوة الإخماد قدرة التحرك ، فقد كان يقول الصنعانيون عندما تهيج أية منطقة يُنتدب (الوزير) لإطفائها : (لقد رماهم الإمام بعبد الله الوزير) .

لأنهم عهدوا عنه إخماد كل تمرد مهما كان عنفه .

ألا يؤدي إخماد المتحركين إلى تحريك الذي أخمد التحركات ؟

إنه يؤدي إلى هذا ولكن بشكل آخر : فهل تلك السوابق الوزيرية أساسيات هامة لبناء العهد الوزيري أو الدستوري ؟؟ لقد اطمأنت صنعاء إلى قيام (عبد الله الوزير) إماماً لانقلاب شباط : فوالاه غير الموالي ، ودستر غير الدستوريين ، كمجاراة للعهد الجديد الذي على رأسه (عبد الله الوزير) المعروف بصيت الغلَبَة وقوّة التديّن ، فلم يتوقع الموظفون من مختلف الدرجات سقوط (الوزير) ، لما عهدوا عنه من المهابة ، حتى أن إرسال خطاب منه يؤدي إلى طاعة جميع القبائل لحكمه ، فمعرفة صنعاء للوزير ، كانت على حساب معرفتها لأحمد ، فعندما سقط الدستور ، تحولت مزايا (الوزير) عند الصنعانيين إلى شكوك في قدراته وأخبار انتصاراته ، ونسبوا صفاته إلى من أولاه الأمر (الإمام يحيى) ، لأنه لم يثبت وحده . . وكان تركيز الصنعانيين على (الوزير) ، نتيجة استقالة (علي الوزير) من رئاسة الوزراء للسيف إبراهيم الذي كان رئيس مجلس الشورى ، لم تهتم صنعاء بذلك الاختلاف ، وإنما بدأت تتساءل : كيف سيواجه (إمام)

الانقلاب زحوف (أحمد) التي تقترب من (صنعاء) ، ولاسيما بعد هزيمة (محمَّد بن علي الوزير) في (ضروان) وهو الذي أعلن نفسه (إماماً) في منطقة بني حشيش قبل سنوات من الانقلاب وأخفق في خلال أيام !.

لقد كانت (صنعاء) قوية الثقة بعبد الله الوزير ، ولكنها على علم بتواتر سقوط (صنعاء) وانتهابها بأيدي المحاصِرين في عدة فترات . فهل ستقع هذه المرّة في قبضة المحاصِرين ؟.

بدأت الثقة تتراجع في نفوس العاصمة بمقدار تقدم الزحوف الأحمدية .

وبسقوط صنعاء ونظامها الدستوري ، همد الفضول الصنعاني وخبا ذلك المرح المعهود عن (صنعاء) ، وحلّت الكآبة وسوء الثقة بكل حركة ، محل التطلع والفضول والمرح ، لأن (إمام) الانقلاب المعروف بتدويخ الشجعان وقع في الأسر ، كما وقعت عاصمة حكمه فريسة للنهب .

من ذلك الحين عادت الأسطوانة القديمة تردّد لغتها في مجالس صنعاء : (لاتتدخل فيما لايعنيك ، اطلب عُمُر تنظر عجب ، خلّ السياسة لأهلها) .

فقد أثّر سقوط الحركة على (صنعاء) التي كان يَعِدها الدستوريون بالرخاء التجاري ، حتى كادت لاتشعر بدوران الزمان ، كما تمادت في نفسها كراهية (القبيلي) الفلاح ، لأنها رأت تحوله من كادح إلى فاتح في ذلك الحين .

لهذا تأججت حركة الخمسينات وأول فجر الستينات : في (تَعِزّ) و(الحديدة) و(حاشد) و(خولان) و(ذو محمد) .. ولم تنفث (صنعاء) غضبتها إلا في عام ٦٢ بالمظاهرة الطلابية ، وبانفجار ثورة السادس والعشرين من سبتمبر ، وذلك بفضل ما استجد في (صنعاء) من طلاب عسكريين ومدنيين أتوا من الأرياف ، فشكّلوا جيلاً مختلفاً عن جيل شباط ، لإتيانهم من مناطق مختلفة إلى مدارس صنعاء المدنية والعسكرية ، ورغم القوة الثورية ظلت

(صنعاء) إلى عهد التصالح عام ٧٠ تتوجس من عودة الملكيين وزحف القوى القَبَلية ، لأنها لم تنس مرارة سقوط انقلاب شباط ، لقرب عهده من انطلاق الثورة ، ولوقوع السقوط بدون توقّع ومن عادة المرارة ألاّ تنقشع إلا بأمرّ . . فكما كانت حركة شباط متأثرة بصراع الأئمة في الماضي ، وبالاغتيال الصبياني في العهد العباسي ، كانت متأثرة بانتفاضات الشعوب وبالشعارات الدستورية والنيابية في بعض أقطار العالم الثالث ، فبمقدار تعدد طوائف المؤثرات في نفوس الشباطيين ، كان أثر الحركة في الشعب اليمني من لونين : حسّ التحرك إلى الأفضل ، والتوجّس من عواقب أي تحرك . . وظل ذلك الأثران يتنازعان نفوس المواطنين حتى انفجار ثورة سبتمبر عام ١٩٦٢ .

* * *

ثقافة الانقلابيِّين

من عام ٧٨ تزايد الاهتمام - في مركز الدراسات والبحوث اليمنية وفي جامعة صنعاء - بانقلاب ٤٨ ، وربما كتب فيه من الأماديح الإنشائية ، وذلك بقصد تفنيد الآراء والدراسات ، التي سَبَرَتْ أغوار ذلك الانقلاب ، وأسبابه العامة ، فقد حقَّقت بعض الدراسات ارتباط الانقلاب بعجلة الاستعمار البريطاني ، الذي كان يحتل الشطر الجنوبي من الوطن يومذاك ، كما عثرت بعض الدراسات على وثائق من أمثال : رسالة جمال جميل العراقي إلى حكومته في بغداد مطالباً مؤازرة الانقلابيين اليمنيين ، من جهة حكومة العراق التي كانت تدور في فلك الاستعمار البريطاني أيضاً ومن أمثال رسائل السيف إبراهيم ابن الإمام إلى أخيه أحمد التي كشفت ظلوع الاستعمار في الانقلاب ، كما كشفت صدمة نعمان والزبيري بمقتل الإمام يحيى ، ولعل أول الإشارات التي ألمحت إلى تبعية الانقلاب الشباطي للاستعمار : هي تلك اللمحات الأدبية في كتاب (رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه) وذلك من خلال دراسة نتاج شعراء انقلابيين أو تابعين لقادة الانقلاب من أمثال علي عبد العزيز نصر وقاسم غالب أحمد ، نتيجة لهذه الإشارات وتلك الدراسات ، سخَّر مركز الدراسات والبحوث اليمنية ، إمكانيته الرسمية والاقتصادية لتمجيد انقلاب ٤٨ ، وهجاء الذي يسبرون أغواره ، أو يتكشَّفون دوافعه وارتباطاته ، وبالأخص من عام ٧٨ إلى الآن ، حتى لاح المركز منقطعاً لانقلاب ٤٨ ، جاعلاً من ذكراه السنوية موسماً هجائياً ضد الباحثين والمؤرخين العلميين من أمثال الدكتور محمد الشهاري والدكتور البرّاو ، فسنة يحيي ذكرى الانقلابيين ، وسنة يحاول أن يخلق لهم من

الأفكار الوطنية ، مالا تدل عليه حياتهم وأطروحاتهم ، وسنة يضيف إليهم من النظريات الثورية ، مالا يخطر على بال الأربعينات والأربعينيين ، غير أن الجمهور المثقف أخذ يقاوم أطروحات مركز الدراسات بأطروحات معززة بالوثائق وصحة الاستنتاج الموضوعي .

لهذا حاول المركز أن يدنو من الموضوعية قليلاً ، فخصص احتفاله بالانقلابيين عام ٨١ بثقافتهم فركّز ندواته في هذا العام على ثقافة ثوار شباط ٤٨م ولعل هذه من أهم اللفتات إلى ذلك الحدث وصانعيه ، فقد كان التقريض والتنديد أكثر الموضوعات حول أولئك الرجال ، وحول الحدث من إبان قيامه في شباط عام ٤٨ . في ذلك الحين ولدت عدة قصائد مبشّرة ومندِّدة بذلك الحدث ومفجريه . فكما سمعنا صوت (محمد محمود الزبيري) و(أحمد الخزّان) يبشر بالثورة ومستقبلها . سمعنا (عبد الكريم الأمير) يندّد بالانقلابيين من نفس بحر (الزبيري) ، ألم يقل الزبيري :

سجل مكانك في التأريخ ياقلمُ فهـا هنـا تبعـث الأجيـال والأمـم

ومن نفس البحر البسيط واختلاف القافية رد (عبد الكريم الأمير) مخاطباً (الإمام يحيى) بعد مصرعه :

الأرض بعدك قفر . . والدُنى طللُ ياشمس يابحر يافردوس ياجبلُ

ولعل هاتين القصيدتين أحد الشواهد على اختلاف المثقفين حول قيام الدستور وعدم قيامه ، فقد كان (الأمير والزبيري) من مستوى ثقافي واحد وعلى طرفي نقيض في الفكر السياسي وعلى قدر من المنافسة الأدبية رغم انتسابهما إلى التعليم الديني وأوائل المعاصرة الثقافية .

من هنا كانت دراسة ثقافة تلك الفترة من أهم الالتفاتات التقويمية ، فقد كان (الزبيري) و(الأمير) من أكثر مثقفي ذلك الحين معاصرة وصلة

بالمعاصرين ، لأن (الزبيري) تعلَّم بدار العلوم في (القاهرة) سنتين ، كما كان للأمير صلة وثيقة بالثقافة المعاصرة وبالأخص الثقافة الصحفية بحكم أنه كان رئيس تحرير جريدة (الإيمان) من ٤٧ إلى ١٩٥٩ وعن طريق التبادل الصحفي المعروف اتصل (الأمير) بالصحافة العربية على اختلاف اتجاهها ونوعها من : سياسية وأدبية ، واجتماعية ، ومع هذا كان (الزبيري والأمير) على طرفي نقيض على واحدية الثقافة والفترة والهواية الأدبية ، أما غير هؤلاء الشعراء فلم ترتفع أصواتهم إلا بعد سقوط الانقلاب ، وربما كانت بعض تهنيآتهم (الشعرية) للإمام أحمد أقرب إلى تملق المنتصر منها إلى التهجم على الانقلابيين ، فقد توالت القصائد المندِّدة بالدستوريين من أيام سقوطه إلى منتصف الخمسينات وحملت تلك القصائد الصحف الرسمية (النصر وسبأ والإيمان) ولعل أبرز الشعراء الذين تهجموا على الانقلاب هم : (صالح الحامد) من حضرموت (حمود دولة) من ذمار (محمد موسى) رئيس تحرير النصر تَعِزّ ، (علي حمود الكوكباني) من الطويلة محمد حسن الوريث ، وعلي بن علي صبرة ، (أحمد الخزان) من دار العلوم بصنعاء ، والأخير من الذين أشادوا بالانقلاب عند قيامه وندّدوا به بعد سقوطه ، غير أن هذه القصائد وأمثالها لا تكوّن رأياً تقويمياً للحدث الدستوري وإنما هي وسائل تقرب إلى (الإمام) المنتصر ومنبراً ثقافياً ، كما أنها محاولة تبرئة من التهمة بالدستور لكثرة الأدباء في رجاله من أمثال : زيد الموشكي ، إبراهيم الحضراني ، أحمد محمد نعمان ، المؤرخ محمد الأكوع ، أحمد الشامي ، محمد صبرة ، أحمد المعلمي ، أحمد المروني ، محمد عبد الله الفسيل ، عبد الرحمن الإرياني ، فبعد انتصار (أحمد) استضافت السجون في (صنعاء) و(حجة) المئات من المتهمين بالمشاركة والمتهمين بالسكوت على اغتيال (الإمام) والمتهمين بمجاراة الدستوريين ، فقد سجن الكثير من أعمدة العهد اليحيوي من أمثال : (حسن مظهر) و(على لطفي) من كتاب مقام (يحيى) ومن أمثال : (الصفي الجرافي) و(قاسم إبراهيم) و(عبد

القادر بن عبد الله) و(زيد عقبات) ، إلاّ أن سجن هؤلاء كان قصير المدة لايتجاوز شهوراً أو عاماً ذلك لأن (أحمد) أراد أن يقمع رجال صنعاء حتى الذين لم يستنكروا الحادث أو الذين لجؤوا إلى الصمت ، من هنا لم يكن السجن دليلاً على المشاركة في الدستور ، وإنما (الإعدام) وطول مدة الاعتقال هو الذي دل على خطورة الرجال لعلمهم المباشر في الانقلاب أو لتخطيهم لذلك الحدث من بداية الأربعينات .

إذا لاحظنا جميع الذين سجنوا من انقلابيين ومجارين ومتفرّجين على الدّور ، فسوف نلاحظ أنهم كانوا أبناء مدرسة ثقافية واحدة ، لكن متى كوّنت تلك الثقافة نظرية معرفة سياسية ثم تحوّلت إلى منهج نظري في السياسة ؟ إنَّ الثقافة وحدها لاتشكل حسّاً ثورياً ولا وعياً ثورياً مالم يكن المثقف ثائراً عن حسّ اجتماعي تزيد الثقافة من بُعد رؤيته وشمسية استبصاره ، من هنا يبرر البحث الرجوع إلى أول الخط الثقافي من بداية القرن العشرين ، لأن أغلب رجال الدستور من مواليد آخر القرن التاسع عشر والعقد الأول والثاني من القرن العشرين ، ولاشك أن هؤلاء ولدوا في ظل عهد كانت كل دراسته : الفقه وأصوله القرآن وتفسيره واللغة العربية بنحوها وصرفها وبلاغتها ، كانت هذه هي الدراسة السائدة من بداية القرن التاسع ميلادي في كل منطقة يحكمها (إمام) أو (سلطان) أو (ملك) ، وتداخلت هذه المعارف الهدوية بالمذهبية الشافعية كجبهة واحدة ضد (الإسماعيلية) و(القرمطية) ، ولم تكن سنّية (الرسوليين) و(الطاهريين) في القرن الرابع عشر والخامس عشر على طرفي نقيض مع (الزيدية الأصلية) ، وإنما كان صراعهم مع (العلويين بصَعْدة) سياسياً خالصاً ، ومن مطلع القرن السادس عشر تنامت الثقافة (الهدوية) في ظل (القاسميين) كامتداد لفلسفة (الهادي) المتفرعة عن (الزيدية) وكفقهية ابن المرتضى وتفلسفه ومعتزلية نشوان بن سعيد الحميري وحماسية الهمداني للسلف

اليمني الحضاري وكانت الفترة التركية الأولى أعجز من أن تسيطر على المدارس الزيدية الهدوية في (صَعْدة) و(شهارة) بل كان الوجود العسكري التركي أدعى إلى التشبث بالثقافة (الهدوية) في الاحتلال الأول وفي الاحتلال الثاني ، ومن بداية القرن العشرين لم تعد الثقافة (الزيدية الهدوية) مجرد تراث ، وإنما أصبحت سلاحاً في وجه الاحتلال التركي باعتبار أنها عقيدة الشعب ودستوره خصوصية ثقافته المحلية ، وعزز هذا تولية (المنصور محمد بن يحيى) كإمام محلي على الزكوات والأوقاف والقضاء الشرعي كما سبق التنويه ، ولما مات (المنصور) انعقدت البيعة على يد أربعة وعشرين من فقهاء البلاد للإمام (يحيى) وهذا تقليد هدوي مارسه الإمامان في ظل الطربوش التركي ، وإذا كان (المنصور) يكتفي بمطالبة الاستقلال عن طريق الرسائل إلى (الآستانة) ، فإن (يحيى) استخدم الوسيلتين المراسلة والقتال ، وكان العرش العثماني يتداعى من جراء الانتفاضات العربية والمؤامرات الأوربية ، فزادت قبضته على (اليمن) تراخياً فأصبحت الكتب الهدوية مقروءة علناً حتى في (صنعاء) ، وكلما زادت سلطة (الإمام يحيى) عن طريق القتال والمعاهدات زاد إنتشار الثقافة الهدوية لكي يحلّ الفقهاء والفقه محل الأتراك ومحل القانون التركي ، وعندما حققت اليمن استقلالها عام ١٩١٨م كان رجال الدولة مرشحين للحكم لأنهم من رجال الفقه وأصول الدين وأعلام اللغة أو أبناء مدرسة شهارة كما كان يقال ، في ذلك الحين نشأ الجيل الجديد الذي بلغ الرشد في الأربعينات ، من عام عشرين اتجه مقام (الإمام يحيى) إلى طبع المخطوطات من الكتب الهدوية ، وبالأخص (أحكام الهادي) واختياراته وكتب (القاسم بن محمد) وأصوليات (الحسين بن القاسم) وكتب (أحمد بن المرتضى) ولاسيما (فقه الأزهار) و(البحر الزخّار) وكان هذان الكتابان مقررين في (دار العلوم) التي افتتحها (الإمام) في أول العشرينات فكانت أول دار علوم تعد القضاة الشرعيين وحافظي المناطق ، بل كان تعلم تلك الكتب مفروضاً على كل الموظفين وعلى سائر

التجار ، لأن الفقه كان مرشحاً لكل وظيفة حتى الوظائف الحسابية والوظائف المدنية في الجيش : كالإدارات والمكتبيات كما كان مبصراً للتجار بشروط البيع وتحريم الربا لأن(دار العلوم) كانت امتداداً متطوراً لجوامع (شهارة) و(صَعْدة) ومواكبة لها إلا أنها تميزت بالرسمية ، تحتم على (الإمام) توظيف خريجيها بحكم دراستهم على نفقة الدولة لخدمتها وقبض نقودها ، وفي هذه المدرسة (دار العلوم) وأمثالها من الجوامع تتلمذ رجال الدستور من منتصف العشرينات إلى منتصف الأربعينات لأن دراسة الفقه كانت تمكنهم من نيل الوظيفة حتى تخمين المزارع وقبض الزكوات ، فقد كان من مهنة الفقهاء إلى قيام ثورة سبتمبر ١٩٦٢م التخمين وقبض الزكوات ومقدمية الجيوش ، وكانت العاملَ الترشيحي للوظائف الكبرى ، مثال على ذلك (عبد الله الوزير) (إمام شباط) فقد كانت أول أعماله قبض الواجبات في لواء (ذمار) مدة ثلاثة أعوام ثم تعين محافظاً على (ذمار) وكان في أثناء هذا العمل يتعين (مقدمي) أي قائد جيش عندما يحدث أي تمرد حتى أنه قاد عدة حملات - حملة (صعفان) حملة (حاشد) وحملة (براع) ضد الإدريسيين - ثم تَعيّن بعد تصالح (الطائف) محافظاً للواء (الحديدة) آخر الثلاثينات ، ومثله (الموشكي) فلم يصل إلى محكمة (شرعب) إلا بعد أن خمّن مزارع (عتمة) و(وصاب) وقدر كمية الزكاة ثم ارتقى من التخمين إلى قبض الزكوات ثم إلى (حاكم شرعب) . والوحيد الذي لم يترق من قبض الواجبات إلى المحكمة هو (الأستاذ الزبيري) الذي مارس قبض زكاة (ماوية) عاماً وقبض زكاة (ذي السفال) عاماً آخر ثم فرّ إلى (عَدَن) عن طريق (جدة) . وكل هذه الأعمال من تخمين وقبض زكوات و(مقدمية جيوش) كانت تستدعي وفرة المحصول الفقهي والأصول الدينية واللغوية وكل الثقافات السائدة من منظور هدوي ومعتزلي ، وكانت هذه ثقافة العشرينات الرسمية ولاتختلف عنها كثيراً الدراسات الخاصة في الجوامع : كجامع (المدرسة الشمسية) بذمار أو جوامع (ضوارن) و(صَعْدة) و(شهارة)

و(حوث) ، وإنما كانت تختلف مدارس (زبيد) و(المراوعة) و(تَعِزّ) و(لحج) و(جبلة) و(عدَن) ، فقد كان الفقه الشافعي يدرس في (جبلة) و(زبيد) غير أن القضاء الشرعي والجنائي كان في كل المناطق على (المذهب الهدوي) حتى الذين تولوا القضاء من المناطق الشافعية كانوا من المحققين في الفقه (الهدوي) كآل الحداد وآل المفتي في (إب) وآل باشا في (العدين) وآل السماوي في (عتمة) بل إن أغلب القضاة في تلك المناطق من (صنعاء) و(شهارة) من أمثال : عبد الله علي الوزير في (ذي السفال) وأحمد الآنسي في (مقبنة) وعلي صبرة في (ماوية) والجنداري والحلالي في (الحجرية) ، ولم يكن لكل منطقة قضاء بمقتضى مذهبها كما كان الحال في (مصر الأيوبية والمملوكية) إذا كان تعلّم الفقه سبب التوظيف الرسمي فإن تعلّم اللغة وفلسفاتها كان السبب المؤدي إلى الثقافة المعاصرة ، وكانت الهدوية الزيدية أميل إلى تحصيل الأفكار وصنعتها فكانت ثقافة جميع أتباع المذاهب . لقد كان الأئمة يؤاخون الشافعية دينياً ويفرضون على كل المناطق مذهبهم سياسياً ومدنياً وجنائياً ، لهذا كانت دراسة الفقه (الهدوي) مدعاة النباهة الاجتماعية ووسيلة العمل الوظيفي ، فهي أهم مكونات (الشباطيين) ، وقد تتلمذ رجال ١٩٤٨م في العقد الثاني من القرن العشرين وفي العشرينات على الكتب الهدوية وشيوخها من أمثال : (علي المغربي) و(عبد الله اليدومي) و(قاسم العزي) و(سيدنا حسين العمري) و(زيد الديلمي) على سنّيته و(يحيى الإرياني) الذي كان يرأس الاستئناف في مطلع الأربعينات .

إذن فقد كان التعليم الفقهي واللغوي أول دراسة رجال شباط . صحيح أنهم مزجوا دراسة الفقه بالقراءات الخاصة في كتب التأريخ ودواوين الشعر القديم ، وكان الفقه (الزيدي الهدوي) يرى الشعر أهم وسائل الدعاية وأوعى معاجم اللغة ، فأغلب الأئمة كانوا شعراء أو من محبي الشعر ، وكان (الإمام يحيى) أثقف الأئمة بالشعر والتأريخ ، حتى أنه كان يجالس جملة من النابهين

في الحياة القلمية (كعبد الكريم مطهر) و(يحيى الذاري) و(راغب بيه) المعني بالسياسة الخارجية ، إذن كانت فقهيات العشرينات الأساس الأصيل الذي كوّن رجال شباط ورجال النظام . فمن (دار العلوم) تخرج (زيد الموشكي) كما تخرج (الحورش) من (دار المعلمين) ببغداد وهي يومذاك نسخة منقحة من (دار العلوم بصنعاء) .

من مطلع الثلاثينات بدأت المطابع المصرية تخرج كتب السنّة كبعض مؤلفات (الشوكاني) و(المقبلي) و(الأمير) و(الوزير) و(الجلال) ، وكانت هذه الكتب تعنى بالسنّة وتتجاوز المذاهب إلى الخلف لكي تستخلص أحكامها من آيات القرآن والمأثورات النبوية ، وهذا وماتسمى بالاجتهاد لتجنبه تقليد أي مذهب من المذاهب الخمسة ، وقد شجعت السلطة الإمامية في مطلع الثلاثينات نشر كتب السنّة لأنها ترفض الخروج على الظالم وتسمي أي تحرك اجتماعي ضد السلطة فتنة مستدلة على هذا بقول النبي عليه السلام (الظالم سيف الله في أرضه ينتقم به ثم ينتقم منه) ، وإلى جانب هذا عشرات الأحاديث في النهي عن الخروج وشق العصا وإيقاظ الفتنة ، فلماذا شجعت السلطة الإمامية نشر تلك الكتب ؟ لأنها لم تعد مضطرة إلى التشيع المتحمّس بعد خروج الأتراك ، وإنما رأت الكتب السنية أجدى دعوة إلى الجمود السياسي . ومع هذا لم تعلن قصدها وإنما استمرت في منع هذه الكتب بدار العلوم وتغاضت عن دراستها في البيوت والمساجد ، حتى أن بعض رجال السنّة كانوا في موضع ثقة (الإمام يحيى) (كزيد الديلمي) و(عبد الرحمن الشامي) ، وكان يعادلهما في مجلسه باثنين من الشيعة (عبد الله الوزير) و(قاسم العزي) ، لأنه كان يرى جدوى الإمساك بوسط العصا .

المهم أن الثلاثينات أتاحت المجال لكتب السنّة لما فيها من ترغيب عن الخروج الثوري وترهيب من عواقب الفتنة هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن

(محمد البدر الأول) أراد استرضاء رجال السنّة بنشر مؤلفات أعلامهم ، عندما تبرجت هذه الكتب للعيون رأى فيها الساخطون على (الإمام) مصدر معارضة للحكم الشيعي فمال الكثير إليها لأنها اجتهاد يخالف مذهب الحكم المنتمي إلى (الهدوي الزيدية) .

من آخر الثلاثينات تسللت أوائل كتب النهضة إلى جانب التواريخ القديمة والشعر القديم ، فاتسعت دوائر الثقافة وتمازجت الأشعار بالفقه واللغة بالفلسفات والسنّة بأولى الجرائد والمجلات ، ولعل أول الكتب التي دخلت البلاد تسللت عن طريق (عَدَن) وعلى أيدي البعثات الوافدة من مصر والعراق والسودان ، وربما كان كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) للكواكبي و(أم القرى) له أيضاً من أوائل الكتب التي وقعت في أيدي رجال شباط وأمثالهم ، وربما كان هذا الكتاب عن الاستبداد وأشباهه أصعب هضماً على المعدات الفقهية ، حتى أن بعض رجال تلك الفترة لم يفهموا أسلوب (طَه حسين) و(العقاد) في دراستيهما الماضي الأدبي والديني لمغايرتهما بعض الشيء لأساليب (أحمد بن يحيى المرتضى) و(المسعودي) و(الجاحظ) ، بل إن بعض نابهي تلك الفترة استغربوا (شوقي) ، حتى أن (علي عقبات) كان يسخر بأشعار شوقي ويفضل عليه أي شعر قديم أو نثر قديم كمقامات الحريري ، وأشعار (البهاء زهير) مع أن شعر (شوقي) كان قليل الاختلاف عن شعر القرن الرابع هجري .

غير أن الكتب الجديدة والقديمة تمادت في التيسلل إلى بلادنا لكنها كانت نزّاعة إلى القديم وليس فيها من المعاصرة إلا العناوين والأسلوب التحليلي ، من أمثال : (حياة محمد) لهيكل الذي كان يوزعه (الحورش) كما يروي البعض وكتاب (حياة محمد) رغم اختلافه عن (سيرة ابن هشام) لايكوّن وعياً ثورياً وإنما أهم ما فيه تحليل إنسانية النبي ، وفضله بين ما هو عن وحي وما هو بشري

ومثل حياة محمد كتاب (وحي القلم) للرافعي وهو لايحمل أي نفحة معاصرة بل إنه دعوة عنيفة إلى التقدم إلى إبعادّ الماضي ، لأنه على غرار أسلوب الجاحظ بلا ثقافة الجاحظ ، ولعل أهم كتاب في ذلك الحين هو رواية (الانقلاب العثماني) لجرجي زيدان لأنه تمحور موضوع الانقلاب وأدار الأحداث حول مايطلبه (أنور ونيازي) ، فهذه الكتب كلها تنتمي إلى الماضي البعيد وإلى الماضي القريب ، لأن كتاب (الانقلاب العثماني) يؤرّخ الحركة التركية ضد (عبد الحميد) عام ألفٍ وتسع مئةٍ وتسعة ، أي قبل ثورة الدستور بتسعة وثلاثين عاماً بعد أن أصبحت تركيا جمهورية .

إذن فما هي ثقافة رجال ثمانية وأربعين ؟ إن معرفة ثقافتهم من أهم الوسائل لتفكيرهم ، ولكن هل تلك الكتب هي التي كونت ثوريتهم ، كما ترى ندوات المركز الدراسي ؟ ليس فيها كتاب واحد يتّسم بالمعاصرة السياسية أو يركز على موضوع أحداث العصر ، ومثلها المجلات التي منها : الرسالة والمقتطف فإنها خالصة الأدبية ، وأغلب أدبياتها رومانتيكي غير ثوري وكتابات بلاغية ، لأن الفترة إلى آخر الأربعينات كان يغلب على ثقافتها إحياء ثقافة الماضي ومحاكاتها ومحاولة عصرنتها ، وإذا افترض البعض أن تلك المقروءات تشكّل أسياسيات ثورية ، فإن تحوّل الثقافة إلى وعي ثوري يحتاج إلى مدة أطول وإلى أصالة ثورية ، فقد قامت (الثورة الفرنسية) بعد ثقافة ثلاثة قرون ، من أول القرن الرابع عشر إلى آخر القرن السابع عشر ومع هذا لم تنجح الثورة وإن أثّرت على نجاح الثورة البرجوازية في كل أوروبا وكان كبار الروائيين ملكيين . فإذا اعتبرنا بعض رجال ثمانية وأربعين متأثرين بالثورة الفرنسية التي وصلت بعض الكتابات عنها عام ٤٥م ، فهل يمكن أن يتحول التأثر الثقافي إلى وعي ثوري في خلال ثلاث سنوات ؟ إن أوروبا القرن العشرين وصلت إلى الثورة الصناعية والثورة التقدمية بعد خمسة قرون من الثقافة التغييرية والأعمال الثقافية

السياسية ، فهل نهضم في سنوات ثقافة خمسة قرون ؟ إن الثقافة مجرد بذر يتحول إلى نظرية معرفة ثم إلى منهاج عمل ، فهل بمقدور تلك الكتب التي وصلت إلى بلادنا في الأربعينات أن تحوّل المرء إلى ثوري ثم إلى نظري ثم إلى منهجي ؟ إن تلك الكتب التي تسلّلت إلى بلادنا كانت أقرب إلى فهم الماضي أكثر مما هي إضاءة على العصر . تدل كتابة (عبد الله العزب) المتوفى عام ٤٦م عن الأدب ونصيب اليمن منه في (مجلة الحكمة) على أنه يرد على الدكتور طَه حسين (في الشعر الجاهلي) .

وهذا يدل على وصول كتاب (طَه حسين) إلى بلادنا في آخر الثلاثينات مع أنه نشر عام ١٩٢٥م يمكن أن نأخذ في الشعر (الجاهلي) لطه حسين و(حياة محمد) لهيكل و(طبائع الاستبداد) للكواكبي و(الانقلاب العثماني) لجورجي زيدان وسوف نلاحظ أن هذه الكتب ماضوية رغم كتابتها في العشرينات والثلاثينات وأنها إضاءة للماضي وليست توعية ثورية ولانظرية سياسية مستقبلية . إذا كان لابد أن نعرف ثقافة (الشباطيين) فسوف نتأكد أن الثقافة السلفية هي التي كوّنتهم لأنهم هضموها وهضموا مايمتد منها ، وإذا كانوا على إطّلاع ببعض كتب فترتهم فإنهم لم يستوعبوها جيداً ، وإذا استوعبوها فلم تكن سبب تثويرهم لخلوّها من الثورية المعاصرة ونظرية الحكم .

إذن فهل ثاروا بلا ثقافة ؟

إن الثورات سبقت الثقافات الكبرى : كانت حركة (سبرتاكوس) على إمبراطورية (روما) قبل المطابع لأن الناس لايحتاجون إلى كتب تعرّفهم عبوديتهم .

إن العبودية والقهر والاستبداد معروفة بلا قراءة وبلا جرائد ، لأن كل إنسان وكل حيوان يحسّ بوقع السوط عل جلده ويحز السكين في عروقه ،

لاشك أن الثورة عن ثقافة خصبة أصح منطلقاً وأبعد رؤية واستبصاراً . إذا كانت ثقافة الشباطيين أبعد عن أن توعّي ثورياً ، فما هي المؤثرات العامة فيهم ؟ لعلهم قد عرفوا - بأي مقدار - أنظمة الحكم في غير (اليمن) لهذا حاولوا نقل الحكم من الاستبداد الفردي إلى النظام الدستوري على غرار ماكان قائماً في مصر والعراق والشام . لكن هل كانت تلك الشعوب في ذلك الحين راضية عن أنظمتها الدستورية والنيابية ؟ لقد كانت مصر في عام ١٩٤٨م تخطط لقيام الجمهورية التي أطلعتها ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ وكانت سوريا في ذلك الحين تسقط رؤساء الجمهوريات في كل عام وربما في كل عام مرتين وكذلك العراق فإنه استهل الانقلابات من منتصف الثلاثينات ، فمجرد الانتقال من الاستبداد إلى الدستور خطوة هامة بالنسبة لبلادنا ، ولكن ما كيفيّة تطبيق الدستور ؟ مامدى تعبيره عن الواقع العام ؟ إنَّ دستور (تركيا) لم يحمها من الانهزام أمام الحلفاء ، كما لم تخرجها الأوربة الكمالية إلى أوربا ولم تبقها تركيا ، الحركات مجرد وسيلة والدستور مجرد ضوابط لسير الأعمال وشرعية القرار وترتيب المنجزات والخدمات العامة .

من هنا نتبين أن ثقافة (الشباطيين) لم تكن من السلفية والمعاصرة كما يرى البعض ، وإنما كانت سلفية خالصة ، فعلى اختلاف مستويات الانقلابيين ثقافياً واقتصادياً فقد كان يجمعهم أساس واحد هو شدة التدين ومحاولة إقامة الحدود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . حتى أن الشيخ (أحمد محبوب) - وهو من كبار المقرئين - تعيّن وزيراً للإرشاد ، لأن الإرشاد في مفهومهم توجيه ديني يقوده أحد رجال القرآن وعلم القرآن ، مع أن مفهوم هذه الوزارة يختلف عن رأي الأربعينيين في بلادنا . فهل كان ينقص (الإمام) ورجاله التدين المتشدّد ؟ .

لقد كانت الصفات الدينية أعظم المرشحات للتوظيف ، وكانت الحدود

منفذة ، فكم شاهد الناس في صنعاء وسواها طيلة الثلاثينات والأربعينات تنفيذ حدّ القصاص ، وقطع الأيدي على السرقات ، والجلد على السكر والزنا ، وإجراء حد الخلف على قطاع الطرق . . فالتشدد الديني أصل جامع للسلطة اليحيوية والانقلابيين ، إلا أن الانقلابيين أخذوا على الإمام يحيى بعض التهاون في الحدود وعدم تقصّي بيوت باعة الخمر ، لأنه كان يرى الشريعة على الظاهر ووجوب درء الحدود بالشبهات كما في الأثر .

فهل كانت ثقافة (الشباطيين) أكثر استنارة من رجال الحكم ؟ إن (الإمام) و(الأمراء) كانوا أقدر على امتلاك الكتب الحديثة فقد كانت المطابع المصرية والسورية والعراقية واللبنانية تهدي إلى الإمام و(الأمراء) كل كتاب جديد تصدره ، كما لاحظ الناس يوم الثورة عندما خرجت كتب القصور إلى مكتبة الجامع الكبير ، صحيح أن الأمراء أقل قراءة كما أن الأحرار كانوا أقل كتابة تدل على معاصرتهم ، ومع هذا يمكن تقسيم تنظيم الأحرار إلى ثلاثة أصناف .

١ - سلفيّ خالص السلفية .

٢ - معاصر قديم .

٣ - أقرب إلى المعاصرة في ذلك الحين .

وعبارة المعاصرة هنا مجرد تجوّز بالقياس إلى السائد ، لأن التأريخ العلمي يعتبر عهد الحداثة من أول القرن السادس عشر إلى مابعد الحرب العالمية الثانية ، ويعتبر العصر الجديد من نهاية الحرب العالمية الثانية حتى الآن . وهذا يشكل فرقاً بين الحداثة والمعاصرة ، ولعل المعاصرة بمفهومها التأريخي تسللت إلى بلادنا من بداية السبعينات ثقافياً وإلى الآن لم تسد المعاصرة كل حياتنا ، لأن معاصرة الخارج تنبجس من معاصرة الداخل ، فيمكن أن نقول إن ثقافة

(الشباطيين) سلفية ومزيج من السلفية والحداثة إذا ابتغينا الدقة ، ومهما يكن فإن رجال ١٩٤٨م لم تخلقهم الثقافة وحدها ، وإنما الضرورة هي التي أنتجتهم ، لأن المثقفين الحقيقيين هم الذين تغيرهم الثقافة لكي يغيروا بها ، ولعل تلك الفترة القصيرة من تشكيل التنظيم عام ١٩٤٤م إلى الانقلاب عام ١٩٤٨م لم تكن في ذلك الحين كافية للتغيير بالثقافة والتغيير من خلالها .

* * *

حركة ٤٨ بين واقعها
وواقع الكتابات عنها

ليس تفجر الحركات بدعة ابتدعها عصر ، وإنما كل التأريخ الإنساني مليء بالحركات منذ شعر الإنسان بالخطر ودرء هذا الخطر ، بل إن الحركات مدد التأريخ وسببية كتابته ، سواء كان تسجيلياً أو تحليلياً ، ولعل تأريخ بلادنا أحفل بالحركات الدموية من أول صفحاته ، غير أن حركات الماضي كانت موسومة بالعشائرية ، وإن كانت أهم دوافعها اقتصادية ، ومهما كانت عشائرية تلك الأحداث ، فإن تواصلها يؤدي إلى الحركات الهادفة ، لأن الوجه الثوري الوطني يتجلى من غبار الأحداث المتلاحقة . . ولعل حركة شباط ٤٨ أعلى ذروة الأحداث المتواصلة على امتداد التأريخ الإمامي والسلاطيني والعشائري ، لأن الأحداث التي سبقت شباط كانت معارك الرؤوس العالية من أئمة وملوك وشيوخ إقطاع ، وإن كان الشعب أدواتها وضحاياها وميدان ركضها ، ومع هذا كانت كل هذه الأحداث الينبوع التي تفجرت منه ، وبالأخص معارك التحرير ضد الأتراك ، لأنها عن نزوع وطني توخّى التحرير من الأجنبي ، وكان الصراع أبرز عمل وطني نقل الشعب من الحروب العشائرية إلى قتال محتل الوطن .

فهذا النضال أول تفجر وطني ، لأنه اتّقد في الوطن من أجل الوطن ، وهذا هو الفرق بين الأحداث التي تشتعل في الوطن ، وبين الأحداث التي تتوهج للوطن ، ولامراء أنّ حركة ٤٨ عريقة الانتماء إلى معارك التحرير ، لأنها جاءت منها وامتدت بشكل مختلف عنها ، لأن قتال المحتل يؤدي إلى الاختلاف على

كيفية النظام الذي يليه ، كما يثير الصراع بين المنتصرين على نوع الوضع بعد رحيل العدو المنهزم ، وهذا ماحدث في تأريخنا المعاصر في أكثر من موطن ، ولعل أسبابه تنتسب إلى ماقبل الاستقلال ، إذ كان (المنصور محمد بن يحيى) إماماً دينياً قضائياً في ظل الاستعمار التركي ، بمقتضى اتفاقات بين (شهارة) و(الآستانة) ، وبعد وفاة (المنصور) انعقدت البيعة لابنه (يحيى بن محمد) ، فمدّ عهد أبيه في التفاوض مع الأتراك وفي ممارسة الإمامة الدينية في ظلّهم ، وكانت سلطاته تتسع بمقدار زيادة قوّته وبمقدار ضعف الأتراك ، ولما انتقل التفاوض إلى العمل المسلح أصبح (الإمام) الديني قائد الصراع العسكري حتى تحقق الجلاء عام ١٩١٨ ، فلم يأت (الإمام) إلى قيادة التحرير من غمار الشعب ، وإنما من الإمامة الدينية والقضائية ، إلى الإمامة السياسية .

بهذا تعددت الجبهات ضدّه لكونها شريكته في الحروب وتريد مشاركته في غنائم الحروب ، غير أنه كان أقدر بطول تجاربه على امتلاك السلطة وإخضاع الطامحين من أبناء الأئمة ورؤساء العشائر ، فأصبح بعد سنوات من قمع القلاقل (الإمام) الذي لايُنازَع ، لأنه احتاج إلى كفاءة رجال لحرب (الأدارسة) في (تهامة) وإخضاع المناطق الوسطى والشرقية ، أصبح هؤلاء الرجال شركاءه في ترسيخ الحكم ، كما كان الذين قبلهم شركاؤه في ملاحم التحرير ، وقد تمكن من إخضاع زملاء السلاح بأيدي الّذين آزروه في تأسيس العهد من أمثال (محمد ابن عبد الله الشامي) ، (عبد الله أحمد الوزير) ، (علي عبد الله الوزير) (يحيى محمد عباس) . . وكان يختار هؤلاء عن معرفته بولائهم وعن معرفتهم بتميزه ، ولم يختر لقيادة إخضاع المتردين ولقتال (الأدارسة) ضباطاً عسكريين من بقية الأتراك وأوائل الضباط اليمنيين ، لأنه كان يريد انقياد العسكريين للسياسة لاالعكس ، ولايخلو هذا من بعد نظر ، لأن الحرب سياسة أو أدوات تنفيذ الأغراض السياسية .

لهذا كان الفقهاء في تلك الأحداث بمثابة الضباط السياسيين من تنظيم السلطة ، لكي يملك القياد السياسي للحرب وكان يسمى هؤلاء الفقهاء الساسة (بالمقادمة) ، لهم حق إصدار الأوامر إلى الجيش بالهجوم أو الانسحاب ، كما كانوا مخوّلين بالتفاوض مع المتمردين إذا دخلوا في الطاعة أو جنحوا إلى السلم ، وكان أشهر هؤلاء (المقادمة) أو الضباط السياسيين (عبد الله بن أحمد الوزير) (إمام شباط ٤٨) ، فقد جاء (الإمام يحيى) إلى السلطة من منبعين : المبايعة ، وقيادة النضال . .

كما جاءت معارضته من بناة عهده أو أعمدة نظامه ، وكان اختلاف المعارضة بمقدار اختلاف الوضع الذي تعارضه ، فلأن (الإمام يحيى) أسّس نظاماً مختلفاً عن نظام آبائه ، غاير رجال المعارضة له خروج آبائهم الذي كان يتوخّى إسقاط (إمام) بقيام (إمام) ، وهذا بفضل الحداثة النسبية الذي تمتع بها نظام (الإمام يحيى) ، فقد شكّل جيشاً نظامياً وجيشاً دفاعياً وجيشاً برانياً ، وقوة أمن كان يسمى أفرادها بالقوانين .

وفرض تجنيداً إجبارياً على سكان الريف ، وهذه نقلة نوعية بالقياس إلى حكم الأئمة السابقين ، إذ كان كل (إمام) يستعين بالأنصار من القبائل ، وكان يسقط بغضبة هؤلاء الأنصار أو بغلبة أنصار (إمام) منافس من قبيلة أخرى ، ولم يتمكن أي (إمام) أو (ملك) من تشكيل جيش محترف تضبطه سياسة (الإمام) وتسيره أنظمة عسكرية .

أما (الإمام يحيى) فقد استفاد من النظام التركي لتكوين الجيش ونظام انضباطه ودرجات رتبه ، كما استفاد الروتين الإداري وبالأخص الحسابي والجمركي ، فانتزع الضرائب الزكوية والتجارية من كل المناطق ، حتى امتدّ نفوذه إلى شعاب البدو رغم عصيانها في أول الأمر ، بالإضافة إلى هذا افتتح

مدارس فقهية ومهنية مثل : دار العلوم ، مكتب الكتَّاب ، المدرسة الصناعية بصنعاء .. فاقتدر في خلال عشر سنين تكوين نظام وظيفي ، وكانت هذه حداثة بالقياس إلى العهود المنصرمة .

لهذا نشأت المعارضة في ظلّ سلطة منظّمة ، فانتهجت تشكيل التنظيم بدلاً من القتال العشائري ، لأن السلطة القائمة كانت ذات نظام استبدادي ، ومهما كانت فرديته واستبداده فإنه نظام متعدد الأجهزة وإن خضعت لرأس واحد هو (الإمام) .. كانت هذه الحداثة في النظام سبب الحداثة في التنظيم المعارض فيما بعد ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الثقافة الفقهية كوّنت أصولاً لنظرية الحكم وشروط صلاحية الزعيم وعظمة مسؤوليته على الناس ، وكانت هذه الثقافة قادرة على تقبل ثقافة جديدة ولو بعد حين ، لأن الفقه وما يتطلب من حصيلة لغوية ، يصلح أساساً لثقافة معاصرة سياسية .

لهذا لاحظنا جيل الثلاثينات والأربعينات ينقسم إلى صنفين : فقهاء توقفوا عند الفقه ، فقهاء تجاوزوا به إلى غيره وواصلوا به سواه .. باعتبار المعارف تعزز بعضها وتهدي إلى غيرها ..

كان النظام والتنظيم المعارض في هذه الفترة ناشئة ثقافة واحدة ، البعض تطور منها والبعض تطور بها على مفهومه .. فكما انتهج (الإمام) الحكم الديني ، انتهجت المعارضة الدعوة الدينية الإصلاحية في مطلع الأربعينات ، وسمّت نفسها (هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) كمرادف لجماعة (الإخوان المسلمين) أو (شباب محمد) بمصر يومذاك ، أو كامتداد لأحد مبادئ المعتزلة : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ألا يدل هذا التشابه في النظام وفي التنظيم المعارض على واحدية الثقافة ، وعلى الحداثة النسبية في المفهوم السياسي ؟؟

ومع هذا التشابه تفاقم الصراع بين (الإمام يحيى) وتنظيم هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فزج ببعضهم في السجون مثل : حسين الدعيس وعبد الرحمن الإرياني ومحمد المطاع ومحمد علي الأكوع الحوالي وتغاضى عن البعض ، على أساس أنهم يعانون طفرة شباب أو يتقبلون تحريض المغرِّرين ، تمادت هذه الحال من آخر الثلاثينات إلى عام ١٩٤٤ ثم أخذت منحى جديداً بفرار الجناح الأدبي للمعارضة من تَعِزّ إلى عَدَن .

هناك دعت إلى الإصلاح السياسي ، وكانت صحيفة فتاة الجزيرة التي ولدت عام ٤٠ منبر المعارضين والمدافعين عن النظام إلى أن تمكن المعارضون من إصدار صحيفة ناطقة باسمهم إذ أصدر الأستاذ (نعمان) والأستاذ (الزبيري) صحيفة (صوت اليمن) فأثار هذا التطور في المعارضة (الأمير أحمد) (حاكم تَعِزّ) فاحتجّ إلى (المندوب البريطاني) ، وأدى هذا إلى التقليل من حرية الأستاذين ومن انضم إليهما إذ اشترط المندوب السامي على (تنظيم الأحرار) الشماليين ترك العمل السياسي ، فأخذوا ينشرون ضد (الإمام يحيى) في (فتاة الجزيرة) ومجلة الصداقة بمصر وتبنت نفس الصحيفة حرية الردّ على الأحرار من وجهة إمامية ، فكانت صحيفة (فتاة الجزيرة) منبر النظام والمعارضة كما سبقت الإشارة ، حتى تغلب النظام بإقناع (محمد علي لقمان) بأن الأحرار خارجون على الشعب ، وبعد أن زار (الأمير أحمد) (عَدَن) عام ٤٦م استقبلته جموع الشماليين هناك ، فشكّل هذا برهاناً على شعبية (الإمام) وانعدام شعبية الأحرار ، حتى كتب (محمد علي لقمان) عن مكانة (الإمام يحيى) وإجماع الشعب على إجلاله ، كتب لقمان مامعناه : إن الشعب اليمني مطبوع على حب (الإمام) واستدل على هذا بالأسلوب الرسائلي في ذلك الحين إذ كان يستهل المواطن اليمني خطابه إلى أهله بالدعاء للإمام وأنجاله السيوف الكرام ، فردّ على (لقمان) الأستاذ (أحمد البراق) ناقضاً هذا الاستدلال على شعبية الحكم بأنه

ضرب من التقاليد عند بعض القبائل وبأنه قد أخذ يتلاشى ، وفي عام ٤٧ استهلّت صحيفة صوت اليمن صدورها غير المنتظم حتى يناير عام ٤٨ ، فقابلتها السلطة الإمامية باصدار صحيفة معاكسة (الشباب) في (عَدَن) .

وسبب وجود (تنظيم الأحرار) في (عَدَن) مزيداً من الشكوك في دعوتهم ورفضها عند غالبية الشماليين ، باعتبار صحيفتهم تصدر من تحت ظل الاستعمار في الجنوب وتحت توجيهه ، وتندد بالإمام شخصياً ، وكان هذا مستنكراً عند المواطنين ، ولعل هذا تسبّب في تعدّد وجهات دعاة الحركة ، حيث بدأت محاولة الانقلاب في (صنعاء) تتزايد من عام ٤٧ ، وبدأت الإشارات تتوالى إلى (عبد الله أحمد الوزير) الذي لم ترد إليه إشارة من التنظيم في (عَدَن) ، وكان يكابد حرجاً شديداً ، لأنه كان واقعاً بين تأثير الانقلابيين بصنعاء وبين مكانته عند (الإمام يحيى) ، لأنه أكبر مستشاريه يومذاك .

فكيف يحقق غاية الانقلابيين وغايته وأداء الوظيفة الاستشارية ؟ .

وهذه المهمة تتطلب غاية السرّية ، ولعل (الفضيل الورتلاني) الجزائري الأصل الوافد إلى صنعاء من مصر كان أشدّ المحرضين على تعجيل الانقلاب ، وكان قوي الحجة عند العائلات الكبرى ، لما أثار من مطامعها إلى السلطة ومخاوفها من سلطة (الإمام) القائم وتسلّط بنيه ، فاتّسع تأثير (الورتلاني) في كبار الموظفين وأعلى البيوت من أمثال : (حسين عبد القادر) عامل صنعاء ، (عبد السلام صبرة) رئيس البلدية ، (علي محمد السنيدار) سكرتير الشركة التجارية . . وامتدّ هذا التأثير إلى عدة بيوت عريقة وشخصيات مشيخية ودينية وأدبية من أمثال : الصفّي محبوب ، إسماعيل الأكوع ، حسين الكبسي مندوب اليمن بالجامعة العربية ، علي حمود كوكبان عامل الطويلة أحمد الشامي ، محمد الشامي . . رأت هذه الجموع جدارة (عبد الله الوزير) بالإمامة إذ لاندّ له في التجارب الحربية ، فاتصل بأتباعه من (شيوخ بني حشيش) و(بني الحارث) ،

كما استعان (علي الوزير) بأصهاره من بيت (أبي رأس) وصديقيه علي ناصر القردعي وأحمد ناصر القردعي ، واكتملت حلقة صنعاء فنفذت قتل (الإمام يحيى) في ١٧ شباط عام ٤٨م بأيدي القردعيين والحسيني وهارون وولدي أبي رأس إلى جانب المواطنَين علي العتمي ومحمد ريحان سائق سيارة (علي الوزير) التي حملت المنفذين إلى (سواد حزيز) إحدى ضواحي صنعاء ، وفي يوم ١٩ من شباط ٤٨ انعقدت بيعة الإمامة (لعبد الله أحمد الوزير) ، وبعد ثلاثة أيام من قيامه ردّد خطباء الجمعة في صنعاء وذمار الدعاء للإمام الجديد باسم : الإمام الشهير عبد الله بن أحمد الوزير ، وهذا اللقب منبري لا رسمي ، لأن (الوزير) لقب نفسه بالإمام الهادي ، غير مصحوب بأية شعائر ، وبعد أسبوع من قيامه نشرت الطائرات الإنجليزية حزماً من المناشير كلها تدعو إلى عهد الشورى والحرية والديمقراطية والدستور ، هنا تجلّى الفرق بين صناع الحدث في صنعاء وبين أهداف حزب الأحرار ، لأنهم شركاء (الوزير) في العمل ضد (الإمام يحيى) ودعوته إلى الإصلاح ، وفي الوقت الذي كان يتجادل فيه الأحرار والإمام الجديد على صيغة العهد الجديد وتشكيل الدولة ، كان (الأمير أحمد) يزحف من (حجة) على (صنعاء) حتى انفجرت من داخلها ، وانثغرت لأفواج محاصريها من كل جهة .

وفي مارس سقط حكم الشورى وقام (الإمام أحمد) مقام أبيه . . هذا مجمل واقع الحركة كما هي ، أما واقعها في الكتابات التأريخية والتحليلية فقد تعدّدت صوره وتغايرت الأنظار إليه ، باختلاف الثقافات والأنظار التأريخية ، وهذا الاختلاف صحي من ناحية الكُتّاب وواقعي من ناحية الحركة ، لأن الّذين كتبوا عنها كانوا من المحايدين أو من المتعصبين لها ، أو من المحللين لأسرارها أو لموقعها في مسلسل الحركات الوطنية ، ولعل الأنموذج المحايد يتبدّى في كتابة المؤرخ التراجيمي محمد محمد زبارة في كتابه (نزهة النظر) في رجال

القرن الرابع عشر الهجري الذي ترجم فيه لعبد الله أحمد الوزير الإمام الدستوري من ميلاده إلى استشهاده : « السيد العلامة الذكي الحلاحل عبد الله بن أحمد بن محمد بن محسن بن الهادي بن صلاح الوزير مولده في ذي الحجة سنة ١٣٠٧هـ في وادي السرّ ، ونشأ في حجر والده وأخذ عنه ، ثم هاجر إلى صنعاء لطلب العلم وأخذ عن القاضي علي بن حسين المغربي والعلاّمة محمد بن حسن دلال والقاضي إسحاق بن عبد الله المجاهد والحاج علي بن حسن سنهوب وعن السيد العلاّمة قاسم بن حسين العزي والحاج محمد بن يحيى مداعس وحقق في العربية والفقه ، ولمّا توفي والده في سنة ١٣٣٣هـ نصب (الإمام يحيى) صاحب الترجمة للقضاء في مدينة (ذمار) وجعل بنظره تقرير الواجبات فظهر كماله وحسنت سيرته في البلاد التي بنظره وامتدت يده إلى بلاد عتمه ، ثم في سنة ١٣٣٧هـ أناط (الإمام يحيى) بنظر صاحب الترجمة (بلاد يريم) وجهّزه لفتح (وصابين وجبل رأس) فأصلحها وتوجه إلى (المخا) ، وفي سنة ١٣٣٨هـ جهّزه الإمام إلى (صعفان) من بلاد (حراز) لإخماد ثورة عبد الله بن بشر ، وفي سنة ١٣٣٩هـ أرسله (الإمام) إلى (حاشد) و(أرحب) لإنهاء الحرب في حاشد ، وفي سنة ١٣٤٥هـ أرسله (الإمام) إلى بلاد (الجوف) فأصلحها ، وكان محمود السيرة كاملاً فيما تولاّه مع ذكاء ونشاط ، وفي سنة ١٣٥٠هـ أمره (الإمام) بفتح بلاد (مأرب) و(عبيدة) وأخيراً قام بأعمال لواء (الحديدة) ، ولما كانت الحرب الضروس بين أصحاب (الإمام يحيى) والسعوديين ، وخرجت هيئة للإصلاح إلى اليمن مؤلفة من الأمير شكيب أرسلان والسيد محمد أمين الحسيني والرئيس هاشم الأتاسي أرسل (الإمام يحيى) صاحب الترجمة للخوض مع المصلحين ، وكان عقد معاهدة الطائف في صفر ١٣٥٣هـ وبعد أن رُفع عن العمل في لواء الحديدة وقام مقامه سيف الإسلام عبد الله ابن الإمام لازم صاحب الترجمة مقام (الإمام يحيى) كمستشار في كثير من المهمات ، واستمرّ على ذلك إلى أن دعته نفسه إلى الخلافة فتطلع إليها وكان مالم يحمد عقباه ولما

قضى (الإمام أحمد) على الثورة وقبض على (السيد عبد الله الوزير) ومن شاركه في الانقلاب كان إعدامه في ذي الحجة سنة ١٣٦٧هـ » .

وهذه الترجمة لاتشير إلى هوية الحركة ولا إلى دستوريتها وشوريتها ولا إلى التنظيم الذي كان على رأسه (الوزير) لأن (زبارة) تناول سيرة (الوزير) كأحد الأئمة السابقين دون أن يصفه بالدستوري أو يشير إلى غاية مغايرة في حكمه ، ومن المعروف أن (زبارة) المتوفى في مطلع الستينات من هذا القرن يبدو محايداً بين الوزيريين وبين آل حميد الدين ، إذ لم يندد بالانقلابيين ولم يُشِدْ بالمنتصر عليهم ، وإنما يسرد الانتفاضات التي أخمدها (الوزير) من خلال ترجمة حياته ، وقد كان (زبارة) شبه معارض للإمام يحيى ولكن بدون انتماء إلى المعارضين ، وقد رويت له قصيدة في الثلاثينات بعثها إلى (الإمام يحيى) من (خولان) وكان فيها منتقداً ناصحاً على طريقة محمد بن إسماعيل الأمير من علماء القرن الثاني عشر الهجري وكلّ ما أشار إليه (زبارة) بشيء من المرارة في ترجمة الوزير : هي الأحداث التي أفزعت صنعاء إبان إسقاط الإنقلاب والتي عناها زبارة بقوله : (فكان مالم يحمد عقباه) ، أما لغة ترجمته للوزير فهي لغة المؤرخ التقليدي المحايد ، إذ لم ينسب للوزير وجماعته الصفات الرسمية ، كالبغاة ، المارقين ، المفسدين ، الدستوريين .

فقد كانت هذه لغة التشنيع على الانقلابيين من جهة القصر ثم تقبّلها الشعب وردّدها ، فترجمة (زبارة) على معايشته للحدث خالية من ذكر الحزب وكيفية التنظيم وصفة العهد الدستوري ، ومن آخر الستينات تعددت الكتابات عن حركة ٤٨ ، فاعتبرها بعض الكتّاب حركة سلفيّة إصلاحية كما في كتاب ثريّا منقوش (قضايا من اليمن) ، ولقّبها البعض بحركة الإقطاع المتنوّر على حدّ تعبير ثريا منقوش في مجلة الثقافة الجديدة وأدانها البعض بالعمالة للاستعمار الانجليزي مستدلاً على ماذهب إليه : بالتجاء الأحرار إلى عَدَن المحتلة وبإطلاق

مدافع البواخر الإنجليزية في ميناء الحديدة إحدى وعشرين طلقة تبشيراً بالانقلاب ، وبتجهيز مجموعة من الفدائيين من عَدَن إلى صنعاء ، وفي آخر السبعينات تصدّى بعض أبناء الانقلابيين ومن يشاركهم الرؤية الأربعينية لتفنيد هذه التهم حيناً وتبريرها حيناً آخر ، فرأى البعض منهم : أنّ التجاء الأحرار إلى (عَدَن) المستعمرة في الأربعينات كان إلى مواطني (عَدَن) وليس إلى النظام الاستعماري وهذا لايبدو مقبولاً عند أحد ، لأن المواطنين لايقدرون على استضافة تنظيم ولايقتدرون على حمايته ، فهذا من عمل الأنظمة لامن عمل المواطنين ، وبالأخص إذا أصدر التنظيم صحيفة وتنقل من مكان إلى مكان لِبَثِّ دعوته .. هذه مسألة أما المسألة الأخرى : فإن بعض الأربعينيين يبرئون الأحرار بحكم الضرورة لعدم وجود ملجأ غير (عَدَن) ، وهذا يستدعي المناقشة لأن صاحب هذا الرأي محمد عبد الله الغسيّل من المفكرين المخضرمين .

فهل الالتجاء ضروري لكل حركة والسبيل الوحيد لاقتلاع السلطة المرفوضة ؟

لم يلجأ ثوار مصر إلى السودان مثلاً ، ولاثوار العراق إلى إيران مثلاً ، لأن العمل الناجح يتحقق من داخل الشعب وبالشعب ، وقد ثبت من تجارب شعبنا عدم جدوى الالتجاء ، فلم يفجّر انقلاب الـ٤٨ اللاجئون إلى (عَدَن) وإنما القوة الداخلية على يد القردعي ورفاقه ، عن أمر عبد الله الوزير ولم يحقق الالتجاء إلى (عَدَن) قدرة التنفيذ إلا بأيدي الصامدين في عقر دار الحكم .

فهل كان ذلك الالتجاء ضرورياً ؟؟ .

إذا كان التنظيم غير قادر على اكتساب الشعبية في الشمال فإنَّ الملجأ المحتل لم يعطه إلا تهمة التبعية عن قصد أو غير قصد ، أما إذا كانت شعبية الحاكم أغلب فإن هذا يسلب الحركة مشروعية التحرّك ، وهذا ماحدث بدليل أن

الحركة سقطت في أقل من شهر ، وهذا يقودنا إلى غلطة فادحة يتبنّاها بعض المتعصبين ويرددونها أحاديثاً وكتابة ، ومؤدى تلك الغلطة ، أن حركة صنعاء الدستورية أول حركة في الساحة العربية وفي القرن العشرين .

هل يصدق هذا طلّاب الثانوية وهم يقرؤون التأريخ العربي المعاصر في منهج دراستهم ؟

نرجع إلى الأحداث العربية قبل ٤٨ وسوف نجد أنها كلها سبقت حركة ٤٨ مثلاً مصر الذي قام جيشها بحركة على الخديويين بقيادة أحمد عرابي ١٨٨٢م أي قبل حركة ٤٨ بـ٦٧ سنة ، ثم حركة الدستور عام ١٩١٩ بقيادة حزب الوفد وزعامة سعد زغلول ، ويمكن أن نجد في العراق أمثالاً من الأحداث سبقت حركة صنعاء كحركة جعفر العسكري عام ٣٦ التي كان النقيب جمال جميل متهماً بقتله ، وهذا ماسبب التجاءه من العراق إلى صنعاء بعد إنهاء مدة البعثة العسكرية عام ٤٤ ، فكان قائد الجناح العسكري في انقلاب شباط ٤٨ بصنعاء ، تلت حركة جعفر العسكري ، حركة رشيد عالي الكيلاني عام ٤١م ، ولاينقص من حركة صنعاء تأخّرها عن هذه الأحداث زمنياً ، وإنما يعيبها دعوى المدعين بأنها بكر الأحداث ، ولو فرضنا أنها سبقت هذه الأحداث فهل يعطيها السبق فرادة ، وقد دلّ إخفاقها على خطأ نظريتها أو سوء تطبيقها ؟؟.

هذه أهم الأخطاء في الكتابات عن ٤٨ ، لأنها تدل على الجهل أو التجاهل لتأريخ الوطن العربي هذه مسألة . تليها مسألة فكرية ، يرى بعض الأربعينيين استحالة أي ملجأ للأحرار غير (عَدَن) ويتساءلون هكذا :

هل يلجؤون إلى مصر وهي ملكية آنذاك ؟

أو إلى العراق وهو ملكي في ذلك الحين ؟

وهذا التساؤل يؤدي إلى تساؤل :

وهل كان يتوخّى الأحرار غير قيام ملكية دستورية كملكية مصر والعراق يومذاك ، بل إن تلك الملكيتين كانتا أكثر تطوراً من طموح الأحرار اليمنيين ، لتعدد الأحزاب فيهما ، لحرية التعبير والتفكير ، لقيام المظاهرات والاحتجاجات .

فهل تمانع هذه الأنظمة قيام نظام في اليمن على غرارها ؟

ثم : هل مقياس التصارع بين الدول على شكل النظام أو على المصالح ؟

قد تتصارع ملكية وملكية ، كما حدث بين القيصرية الروسية والإمبراطورية العثمانية ، وكما كان يحدث بين المملكة السعودية والمملكة الهاشمية في العراق والأردن ، حتى أن رشيد عالي الكيلاني لجأ بعد إخفاق حركته ضد ملكية العراق إلى (الرياض) وقيل إنها التي حركته ضد ملكية العراق ، وكان عبد الله أمير شرق الأردن يؤوي الفارين من خائل ويخرج أكثر أيامه إلى (تبوك) يخطط لاستعادة مملكة أبيه من آل سعود ، فلا يمنع أن تتبنى ملكية مناوئين لملكية أخرى ، ولايمنع أن تهيئ جمهورية الجوّ للثائرين على جمهورية أخرى كما هو الحال بين الجمهورية الليبية والجمهورية المصرية ، بل إن هناك حرباً قائمة بين الجمهورية العراقية والإيرانية . . فادّعاء الأربعينيين بأن الملكيات العربية كانت ضد حركة شباط بصنعاء مجرد تبرير للالتجاء إلى (عَدَنْ) المستعمرة .

وهل كانت مستعمرة للملكية البريطانية أو للجمهورية الفرنسية ؟؟ .

إن هذا التبرير مفقود الموضوعية ، وهناك نقطة سببت اختلاف الآراء الكتابية ، بعد خروج كتاب (اليمن والغرب) ترجمة حسين عبد الله العمري عام ٧٩ ، إذ ورد في ذلك الكتاب مامعناه : « إن (عبد الله الوزير) طلب من المندوب السامي البريطاني بعَدَن إرسال طائرة لنقله هناك ، فلم يردّ المندوب على (الوزير) ، فاستدلّ الدكتور عبد العزيز المقالح بعدم ردّ المندوب السامي

على غياب العلاقة بين الانقلاب وبين الاستعمار البريطاني ، إذ لو كان ثمة علاقة لاستجاب المندوب السامي لطلب (الوزير) واستدلّ الدكتور محمد الشهاري بطلب الوزير نجدة المندوب السامي على تبعية الانقلاب للاستعمار ، لأن الطلب دليل على الاتفاق بين الانقلابيين والمندوب البريطاني ، وأن الذي منع المندوب البريطاني من نجدة (الوزير) هو إحداق المحاصرين بمدينة صنعاء ، حتى تعذر إرسال طائرة » .

بقيت مسألة ماتزال تردّد لغة واحدة إلى اليوم : (استعن على عدوك ولو بالشيطان والشيطان رمز للأقوى والأغلب) : فهل ستكون غاية حركة المستعين إلا للذي يعينه ؟

لأن الأنظمة لاتموّل أحداً لوجه قضية غير قضية مصلحتها ، فتصبح الاستعانة بالشيطان خدمة له لاخدمة منه ، إنَّ حركة ٤٨ في واقعها غيرها في الكتابة عنها من كل وجهة ، فالذين برؤوها وانتحلوا لها من المزايا مالم تفكر فيه تجاوزوا بها واقعها الزمني نتيجة معارفهم بثورات الخمسينات والستينات ، بمقدار ما تجاوز بها واقعها الذين استعاروا لها مصطلحات الخمسينات والستينات مثل (الكمبرادورية) عند الدكتور الشهاري والإقطاع المتنوّر عند ثريا منقوش ، فلم يكن لانقلابيي ٤٨ دراية بالكمبرادورية ولا كانوا كلهم من الإقطاعيين ، بل كان بعضهم أقرب إلى الفقراء من أمثال أحمد الحورش وأحمد البراق وعبد الله السلال وكان بعضهم من الأثرياء مثل : آل الوزير وآل عبد القادر والخادم وجيه ، ولم يكن بيت من هذه البيوت إقطاعياً : كهادي هيج في تهامة ، وآل الباشا في العدين . . صحيح أن آل الوزير وآل عبد القادر كانوا يملكون مزارع في عدة مناطق وكان يستثمرها فلاحون بالشراكة : للفلاح ثلاثة أرباع وللمالك الربع إذا كانت الأرض تسقى بالمطر ، وللمالك الثلث إذا كانت المزارع نهرية ، وهذا غير الإقطاع لأنهم لم يكونوا يملكون قرى بسكانها ومواشيها ومزارعها ،

وإنما كانت لهم مزارع شتى : في ذي السفال ، في السر ، في شبام ، في قاع صنعاء ، في كوكبان ، في لاعة .. وبهذا شكلوا طبقة من أغنياء لايدانيهم كبار الفلاحين وإن كانوا يدانون (طبقة الإمام) ، لأنهم من أعمدة وضعه وإن أرادوا أن يحتلوا موضعه .

إذن فأكثر الكتابات عن ٤٨ تتجاوز بها طبيعتها :

إما للتعصب لها ، أو خلع المصطلحات عليها .. ولعل التحليل الذي يزمن هذا الحدث بزمنه وعلى حجم رجاله ومقدار ثقافتهم أهدى كتابة التأريخ ، لأن التحليل الواقعي للحركات أقوى تعزيز للحاضر ولرؤية الآتي ، ولعل التعصب يخلق التعصب فتضيع الحقيقة بين الخصومات ، ولاجدوى من الخصومة على الفائت لأنه قد فات ، وإنما الموضوعية هي الغاية المنشودة ، لأن ذلك الحدث ملك كل الناس ومسؤولية الرأي فيه على صاحبه وما أعظم أمانة الرأي !.

صحيح أن حركة ٤٨ بطبيعتها أكثر إثارة للاختلاف وتعدد الآراء ، لأنها قامت وسقطت ، وهذا يقود إلى التساؤل عن فشل تلك التجربة ؟

هل يرجع إلى خطأ التنظير ، أم إلى قصور النظر ، أم إلى صعوبة المشكلة ، أم إلى خطأ الممارسة ؟؟؟.

فيرى البعض مردّ فشل الممارسة إلى سقم النظرية ، ويرى البعض أن التجارب الأولى ممكنة الإخفاق ، فأحياناً يمكن البناء عليها وأحياناً تختلف الظروف فتؤدي إلى عكسها ، ولعل حركة ٤٨ لم تتجاوز بتجربتها أسابيعها الثلاثة كما يرى البعض ، على حين يرى البعض الآخر أساسية تلك الحركة حتى كانت الثورة السبتمبرية ٦٢ امتداداً متجدداً لها ، وهنا ينشب خلاف آخر عن أثر تلك التجربة الأربعينية ، فيرى البعض أن ثورة سبتمبر منقطعة عن الثورة

الدستورية ، لأن الأحياء من رجالها ظلّوا إصلاحيين إلى بعد ثورة سبتمبر ، ويرى البعض أن ثور سبتمبر ذروة التمخض من حركة ٤٨ بدليل أن رئيس أول جمهورية كان من الأربعينيين غير أن الآخرين لايرون أن هذا دليلاً كافياً لأن الشروط الموضوعية لثورة سبتمبر تامة المغايرة للحركة الدستورية ، ورئيس الجمهورية كان من صنع الشروط الجديدة وإن كان من رجال الدستور .

فهل كانت ثورة سبتمبر ستحدث لو لم يسبقها حدوث ثورة شباط ٤٨ ؟ .

لاشك أن ثورة سبتمبر مغايرة للحركة الدستورية ، ولكن هذا لايمنع من أن تكون حلقة ممهدة في مسلسل الحركات الوطنية ، ولابد أن يختلف الحدث الجديد عن القديم باختلاف الشروط الموضوعية لكل فترة .

كل هذا الجدل يبدو صحياً لأنه ليس ماضوياً وإنما يتوخّى المستقبل ، إذ لاجدوى من الاصطراع حول أحداث الأربعينات والستينات لذاتها ، وإنما في سبيل التبصر لاكتناه أحداث الثمانينات والتسعينات ، لأن قيمة التأريخ تكمن في معرفة ما سيحدث على ضوء ماحدث ، مهما تغيرت المقاييس فإنها لا تفقد الدلالة والتشابه ، لأن الحدث يتكرر كما يتكرر عكسه وبالمقياس التأريخي تتجلى أطراف النقائض ووجوه الأشباه .

* * *

الفصل السابع

حركة ذمار

حركة ذمار

من مطلع السبعينات إلى بدء الثمانينات نشطت دراسات الحركات الوطنية أكثر من أي وقت ، فتقصّت البحوث والدراسات والندوات خطوط الحركات الوطنية في بلادنا بتواريخها وفصائلها ، ولاتكاد تخلو ندوة من التنويه إلى حركة (ذمار) بدون تفصيل لزمانها ونوع حدثها ، لأنها احتدمت في وقت خلو من التأريخ ، وهذا سرّ الجهل بتفاصيلها وسبب خطورتها معاً .

في ديسمبر ١٩٤٨ تجمع أفراد من مثقفي (ذمار) وناقشوا (مذبحة مارس) التي ارتكبها (الإمام أحمد) في (حجة) ، كما ناقشوا أوضاع السجناء وطريقة سجنهم وتطرقوا إلى عواقب تلك المجزرة ونتائجها على السلطة وآثارها على الشعب ، فقد روجت الأخبار أن السجناء لايأكلون إلا وجبة في اليوم من أخشن الطعام ، وأن السلطة حظرت عليهم النور والكتب والأقلام والأوراق وحتى المصاحف ، وبهذا شعر مثقفو (ذمار) أنهم على باب عهد أسود ، وحاسبوا أنفسهم على حماسهم ضد الدستوريين ، وتوقعوا أن يعم العنف كل المثقفين وكل أصحاب الرأي ، لأن (الإمام الجديد) جاهل ولايعرف قدر العلم كمعرفة أبيه ، وعنيف لايصغي إلى نصح ، وكان هذا النقاش يجري في همس وفي احتياط شديد ، لاشتداد الرعب في النفوس بعد استباحة (صنعاء) وسجن العشرات من أبنائها ومن يماثلهم من المدائن الأخرى وبالأخص كوكبان التي ينتشر فيها أولاد شرف الدين ، وقد كان من المنتظر أن تكون (ذمار) آخر من يتكلم لميلها إلى السلامة ، ولقوة الرعب الدموية التي أصبحت حديث كل الناس .

فهل كانت (ذمار) أول من ناقش نكبة (صنعاء) ومأسوية الدستوريين ؟ .

إن بعض الظواهر تدل على أخواتها ، فمن الجائز أن مدائن أخرى ناقشت نفس الموضوع وذلك بعد مقتل عبد الله بن محمد الوزير في تفتح ربيعه فإن هذا الحدث خفف من استنكار قتل الإمام يحيى لأن ذلك الشاب عطف عليه شتى القلوب فكان بداية تحول في مجرى التثاقف ، غير أن الصوت الذي ارتفع حينذاك هو صوت (ذمار) ، وذلك بفضل الشاب النابه (عبد الله محمد الديلمي المعاون) فقد ظل من بداية مذبحة (حجة) يهمس ويجهر بالتذمر والسخط ، لا لأنه مؤيد للدستوريين ، ولكنه كان مندّداً بالعنف الدموي الذي ارتكبه (الإمام أحمد) في مطلع عهده بدون أية محاكمة ، وبدون نص على جريمة وبلا تفريق بين صاحب الرأي السياسي وبين المجرم ، وكانت هذه الآراء على جدتها تَلْقى قبولاً ، كان (الديلمي) يثير هذه المسائل و(السيف الأحمدي) ينهمر دماءً ، والأصداء الدموية تجوب الوطن طولاً وعرضاً لقصد ترسيخ مهابة العهد الجديد ، ولتحذير البطولة الخرافية للإمام أحمد ، وفي منتصف عام المذبحة عيَّن (الإمام) على (ذمار) عاملاً غريباً عن عادات الوطن هو (الشيخ علي يحيى الهَمْداني) الذي كان تاجراً متنقلاً بين السودان وإثيوبيا وعِدَن ، وكانت هذه العُمالة تعويضاً له على خسارته في مقاولة ميناء (الحديدة)[٢] وقد قيل عن هذه المقاولة عدة حكايات . كانت ثروة (الهمداني) ضحيتها ، قيل : إنه عجز عن تأليب المغتربين جميعاً ضد الدستوريين ، وقيل : إن مقاولته على ميناء الحديدة كانت مكافأة على نشاطه ضد الأحرار بعدَن ، أما حكاية (صنعاء) فترى أن الإمام يحيى طمع في قصر الهمداني وبستانه فورّطه بمقاولة بناء ميناء (الحديدة) أو دكة الحديدة كما كانت تسمَّى ، فأنفق الهمداني كل ثروته أملاً في الربح من هذا المشروع الذي أخفق ، وأدى إخفاقه إلى بيع البستان الذي يقع مقابلاً لدار السعادة ، والذي يسمى بستان اليهودي نسبة إلى مالكه ؛ فحقق

الإمام بشراء ذلك البستان أمنيةً ، وعندما تولّى (الإمام أحمد) الحكم أراد أن يرمي عصفورين بحجر ، فيجبر كسر الهمداني ويكسر عنفوان (ذمار) فاختاره لها عاملاً (مديراً) ، مع أنها كانت تحظى بالرعاية من (الإمام يحيى) لمكانتها العلمية ولولائها للإمام ، فلا يولي عليها الاّ من يرعى أهلها ويضاهي علماءها ، فكان (الهمداني) بقلة درايته بالعوائد المرعية فرصة (عبد الله محمد الديلمي) للتشنيع بالوضع مبرهناً عليه بتولية (الهمداني) النصف أميّ والنصف أعجمي على حد دعاية الديلمي ، وكانت تلك الفترة عهد التأسيس الأحمدي ، وكان على حذر من العُمَّال التقليديين ، لأن بعضهم والى الدستوريين وبعضهم تغاضى ، وأقلهم انتظر ماتبدي الأيام ، فكان لابد من اختيار محافظين للمناطق أو (عمالاً) يختلفون عن النوعية السابقة ، وكان من نصيب (ذمار) الشيخ علي يحيى الهمداني الذي لاتربطه معرفة بهذه المدينة ولابطبيعة أهلها ولا بشؤون عمله الجديد ، حتى أنه لم يستقبل الذين جاؤوا لتحيته من العلماء على المعتاد يومذاك ، بل استنكر ذلك الصف من المعممين وقال : (عايزين إيه) ، وفي يوم الجمعة اتجه إلى الجامع الكبير على سيارة بلا عساكر ولاطبول ولا أبواق ، فاعتبر أهل (ذمار) هذا إسقاطاً لشعائر الجمعة ولشارة المدينة ، بل وصلوا إلى حد الاحتقار للعامل لأنه يسوق سيارة ، وكان السائق في ذلك الحين من أقل الناس اعتباراً ، وكان يسمى (بالعربجي) ، وهذه المهنة ترادف التخلي عن الأخلاقيات ، فشعر أهل (ذمار) بإهانتهم من جهة الإمام ، وبهذا انتشر التذمر وأصبح مسموع الصوت بل أغلب مواد الحديث وبالأخص أن العامل منع مهنة التخمين وقبض الواجبات ، وكان يعيش على هذه المهنة مامعدله عشرون بالمئة من أهل (ذمار) ولايحترفون سواها ، فزاد السخط تأججاً لأن المضايقة وصلت إلى لقمة العيش عند بعض البيوت ، على أن (الهمداني) لم يكن هو الذي منع ، وإنما أراد الإمام أن يعبر للفلاحين أنه أحنى عليهم من الدستوريين الذين أعفوهم من بواقي الزكوات ، فأوكل الإمام أحمد في سنة تَوَلِّيه شيوخاً وعقالاً

جدداً في كل منطقة لقبض الزكوات ، وأراد بقطع إرسال المخمنين والقباضين إيهام الزرّاع بقطع سلطة المدينة عن الأرياف ، لأنها كانت تمتصهم في زمن شيخوخة أبيه عن طريق رشوة كتاب المقام اليحيوي ، وكان بعض متعلمي مدينة (ذمار) ينتظرون من الموسم إلى الموسم لتحصيل الضروريات اليومية عن طريق عائداتهم من قبض الضرائب من الأرياف .

فماذا يفعلون بعد إغلاق الباب الوحيد للرزق ؟

لقد لاحظوا أن بعض الخطيرين على السلطة حققوا الوصول إلى مناصب لإسكاتهم أو لإلهائهم ، لهذا انضمّ محترفوا تخمين الزكوات وقبضها في (ذمار) إلى (عبد الله الديلمي) فشكّلوا شبه تنظيم ضد (الهمداني) في الظاهر وضد رأس السلطة في حقيقة الأمر ، لأن (الديلمي) أشعرهم بأن العهد الجديد لايملك غير قطع الرؤوس ، فلا وسيلة غير التحدي لإشعار الطاغية بأن جموع الشعب لاتُقهر ، وكان ذلك التحدي في أحَدّ الظروف حساسية ، فلم يكن الإمام يتوقع أن يعلو في ذلك العام صوت أو يرتفع رأس ، وبالأخص من مدينة (ذمار) ذات النزوع الشيعيّ وذات السوابق الإمامية ، حتى أنها قتلت القائد التركي (سليم القانون) وهو في طريقه إلى صنعاء ، فتسمّت في آخر القرن التاسع عشر (بكرسي الزيدية) ، وكان يلاقي رجال السنّة فيها أعنف المضايقات ، كما كانت المعارك بين الشيعة والسنّة تتمخض بانتصار الشيعة لكثرتهم ، وكانت السلطات المتعاقبة تحاول أن تحجِّم ذلك الاعتراك في نطاق الجدل وإن أوصل إلى السِّباب والتقاطع ، لكن ذلك أهون من نيابة الجماهير عن السلطة في عقاب أعدائها ، لأن ذلك يؤدي إلى انتشار الفوضى وضياع مهابة السلطة ، وكان هذا الجدل ألصق بطبيعة الذماريين لقلة أشغالهم في مدينة محدودة ، وعند قيام حكم الدستور عام ٤٨ هدأت (ذمار) مدة أسبوع لذهول المفاجأة ، ثم ابتدأ التساؤل يبحث عن شفتيه ، فكان يرى البعض في العهد

الجديد انتقالاً إلى الأفضل وكان البعض ينتظر الأسوأ ، وكان البعض يُؤثر سلامة الصمت أو الاحتياط في الحديث ، ولمّا أطبق الحصار على (صنعاء) تأكد الكل من سقوطها ، إما على هدى تجارب التأريخ أو على تجسيم الأخبار لزحف (الإمام أحمد) أو على عقوبة الانتقام للإمام القتيل ، وبعد سقوط (صنعاء) بيومين جاءت أخبار (صنعاء) إلى (ذمار) وإلى كل المناطق ولها تهاويل الخرافات ، فقد قيل : إنه لم يبق في صنعاء بيت قائم ، وأن الآلاف قد سقطوا قتلى ، وأن (الإمام أحمد) أقسم على دكها حتى يساويها بالقاع الصفصف ، أدى هذا الرعب إلى الإشادة بالمنتصر والتنديد بالمنهزم كالعادة ، بل إن المتَّهمين وأشباه المتهمين بمشايعة الدستوريين كانوا أكثر حماسة للمنتصر ولكن في غمار حماس مرعوب ، وعبَّرت (ذمار) عن ولائها باستقبالها الأستاذ نعمان والأستاذ إبراهيم الحضراني ، والأستاذ محمد إسماعيل الربيع أشنع استقبال ، إذ تجمهرت حولهم منددة بالدستور ومؤيدة للإمام ، وزفت أولئك الرجال إلى السجن بأعلى زفة عُرِفت بها ذمار مدينة الهتاف التأريخي ، لأن هذه المدينة سريعة الاستجابة لكل نداء ، سريعة التجمهر لكل حادث ، حتى أنهم في ساعات التعزير بأحد الناس يخرجون إلى التجمهر من الدكاكين والبيوت والمساجد ، حتى تصبح المدينة قفراً إلا من المقعدين ، فهذه مدينة جماهيرية حساسة الوجدان نزَّاعة إلى التنفس لأدنى مناسبة .

فكيف إذا كانت المناسبة القبض على مناوئين للإمام ؟ بمقدار الاستجابة للتشنيع بالدستور كانت استجابة المدينة للتشنيع بالمحافظ الجديد أو العامل كما كان يسمى ، فقد كانوا يلتفون حول سيارته كمتحمسين ضد منكَر ، إذ لاعهد لهم بمحافظ يقود سيارة لأن الخيول والطبول والأغاريد العسكرية كانت أبهة العامل يوم الجمعة وأيام الأعياد وفي الجولات خارج المدينة ، بالإضافة إلى هذا أن العامل كان قريباً من كل مواطن ، أما هذا فيخرج في سيارة مسرعة ويحتجب

عن الناس ولايصدر عنه إلا أوامر قطع الأرزاق ولغة غير مفهومة ، وبهذا تزايد السخط وتعاون المثقفون بريادة (عبد الله الديلمي) ومجاراة للتيار تركز التذمر على العامل ، وقيلت في هذا مجموعة قصائد تشخص لغة العامل وطريقة تعامله مستفيدة من أحاديثه القليلة إلى المتظلمين ، ومن أشهر القصائد قصيدة نونية منها :

اسْتَنْ عاوز ، أنا باشوف لابعدين
والمسألة حقتك ، باندبرها على ساني
ماعشكنوا دوْلْ ، عَسيرْ ، بعدما وصلوا
نرسم لهم ، باللَّخَنْ بائي على شاني
تسمع لغة شنج ، لاتلقى لها مثلاً
لاالصوت تركي ، ولا الحلقوم سوداني
قل للإمام ولاتخشى مهابته
ما القرد والأسدُ الضرغام سيان

ربما كانت بعض هذه المفردات من لهجات جنوب السودان وقد ثبتت في لسان العامل فاستغلتها القصيدة للسخرية ، ففي يوم واحد انتشرت القصيدة وعكف البعض على نسخها ونشرها في الشوارع ، وأخذ طعم المغامرة يحلو أكثر ، فكتبت منشورات تتجاوز العامل إلى الوضع ، وهنا بدأ المحذرون يرفعون أصواتهم ، فكان الردّ عليهم ، نريد عاملاً ثانياً ، وكان المحذرون ينكرون طريقة المطالبة بعامل آخر ويقولون . . إن الإمام سيغضب لعامله ويمثلون هكذا . . (من بصق في الدهليز بال في المفرج) ، أي أن العامل جزء من الإمام كالدهليز من الدار ، وتحقق تنبؤ المحذرين إذ أصدر (الإمام) أوامر صارمة لكبح جماح (ذمار) والقبض على الأشرار فوراً ، وفي نفس اليوم استضاف السجن ثلاثين ضيفاً من أمثال : علي العفاري ، محمد اليوسفي ، أحمد عبد الله العنسي ،

محمد المجاهد ، واجتمع أهل المدينة لتحديد الأشرار والمحرضين والفاعلين ، فتجمهروا إلى العامل بنفس الحماس بقيادة رئيس البلدية متبرئين من كل تهمة محملين بعض الأشخاص المقبوض عليهم كل تهمة ، وتهيبوا اسم (عبد الله محمد الديلمي) لأن جده كان عامل المدينة ، وقد يكون عاملها مرة أخرى ، ثم إنَّ للديلمي علاقات وأواصر قربى بعدد من البيوت فسكتوا عنه وأدى سكوتهم عنه إلى اتهامهم بالتواطؤ مع رأس المتهمين ، فأنذرهم (الإمام) ببرقية أخرى : بأنه سيدك (ذمار) إذا تستروا على الشياطين ، في اليوم التالي تجمهروا معلنين تهمة (الديلمي) ورجل آخر لاأسميه ، وكان هذا الآخر أطول مشجب لتعليق مئات السوابق والاتهامات ، وكان (عبد الله الديلمي) يشمّ التخاذل من أول تهديد إمامي ، فلاذ بالفرار تاركاً على ظهر صاحبه الريفي كل التهم وكل التلفيقات وكل الصحيحات المجسمات ، وكما فرّ (عبد الله الديلمي) لاذ (علي الدرويش) و(علي حمود الديلمي) بمقام تعز ، فأوصلهم الالتجاء إلى المناصب المنشودة إذ أصبح أحدهما عاملاً ، والآخر حاكماً بدون أن يقدما أي تقرير عن (ذمار) أو عن الشياطين .

إذن فقد أصبح هذا الحدث الصغير حركة وطنية ، ولعل أهميته تتألف من عنصري الزمان والمكان ، لأنه تفجر في الهدوء الزمني بعد المذبحة في حجة عام ٤٨م ومن الهدوء المكاني مدينة ذمار (كرسي الزيدية) فأهمية هذا الحدث تكمن في كونه صيحة تحدٍّ في زمن الصمت المذعور وأعنف ضجة في أشمل سكون ، فلو نجم ذلك الحادث في الخمسينات لما شكّل خطورة فريدة لعمومية التذمر حينذاك ، ولو صعد من غير (ذمار) لما كانت له تلك الأهمية ، لأن (ذمار) لم تعرف بالعنف السياسي ضد الإمامة حتى إن الإصلاحيين منها كالوريث والموشكي لم يمارسا نشاطهما إلا في صنعاء ، ثم إن مكانها في ذلك الحين كان في القلب من الشطر الشمالي لأنها بين (صنعاء) و(تَعِزّ) وملتقى

أربع مناطق ، فما يحدث فيها ينتقل إلى أوسع مساحة ، ويصل إلى صنعاء وتَعِزّ في مدة يوم وليلة ، ولقد وصلت أنباء حركة (ذمار) إلى سجن (حجة) في أسابيع احتدامها ، فعلموا في أول عام من سجنهم أن الشعب بخير ، ولابد أن الأخبار التي وصلتهم كانت مهوَّلة كما هو شأن الأخبار الشفوية عن الأحداث ، وكان بعض الذين سجنوا على صلة بالدستوريين قبل نكستهم :

كعبد الله بن يحيى الديلمي الذي استضافة سجن صنعاء مرتين لاتصاله بالإصلاحيين ، وكان يخرج من السجن في أقصر مدة بشفاعة عمه (زيد الديلمي) رئيس الاستئناف ، أما بقية السجناء فلم تكن لهم سوابق نضالية ، وإنما مسّتهم التهمة لاحترافهم تخمين الواجبات وتحصيلها ولغضبهم لتنحيتهم عن تلك المهنة حتى ولو مؤقتاً ، صحيح أنهم كلهم على درجات متفاوتة من التعليم والخبرة ، وقد كانوا يُعرفون (بالمشاغلين) فلا يستقر في المدينة عامل إلا بضمان مصالحهم الاعتيادية ، وإلا فسوف يواصلون ضده (الاحتساب) إلى (الإمام) ، وكان هذا أهم الأسباب في عزل الولاة ، لأنه كان يقوم على الترصد لهفوات (العامل) أو (الحاكم) كأخذ قدر من الزكاة ، كالتهاون عن حسم الشجار في منطقة ، كقلة واجبات العام كانتشار سرقات أو قطع طريق ، وهذا ما يهمّ (الإمام) معرفته وعليه كان يرتكز (المحتسبون) باسم الإخلاص للإمام والتنبيه على واجبات ولاته غير أن احتساب عام ٤٨ غاير الاحتسابات السابقة ، فلم يتجه إلى (الإمام) عن تقصير (العامل) وإنما اتجه إلى العامل مباشرة ، وهذا يشكّل قدحاً فيمن ولاّه ، فهي حركة ضد (وجه الإمام) كما كان يقال ، لأن هؤلاء المحتسبين تحولوا إلى مناوئين من وراء ظهر (الإمام) . لكن هل كان السبب قطع الانتفاع من التخمين والتحصيل ؟ .

لو لم تكن الثورة كامنة في النفوس لكانوا التجؤوا إلى الإمام كالعادة ، بدلاً من إعلان السخط المنطوي على رفض للعهد كله ، على أن أغلب هؤلاء

كانوا قادرين على الكسب الضروري من مصادر أخرى ، بل إن بعضهم من ميسوري الحال من أمثال : (محمد عبد الله اليوسفي) ، (وأحمد عبد الله العنسي) (علي العفاري) ، (محمد العرشي) . . وهؤلاء أكثر ميلاً إلى العافية ولايشاغبون أو يشاغلون إلا باسم الغيرة على حقوق الدولة أو أمن الدولة أو أمن الناس من الناس . حتى الشاعر (عبد الله يحيى الديلمي) فإنه دخل إلى التذمر في عهد الإمام يحيى من باب الاحتساب على (زيد زبارة) مأمور الأنبار ، وفي هذا قال أحد قصائده :

طعن الأنبار في أحشائه   طعنة نجلا أودته الحماما
قسماً بالله لولا ذاك ما   شربوا خمراً ولا ربوا غلاما

فكانت هذه قصيدة احتسابية على مأمور أنبار (ذمار) (زيد زبارة) صهر (الإمام) ، من هنا تجاوزت الاحتساب إلى مس العائلة المالكة ، ولو كان هذا الاحتساب على غير صهر (الإمام) لكان قربة إلى (الإمام) ، لكنه دلّ على ثورة ضد القصر وأقاربه ، وبرغم أن الاحتساب أدى إلى عزل (زبارة) كما أدى الاحتجاب إلى عزل (الهمداني) فيما بعد ، فإن المحتسبين والغاضبين لم يسلموا من العقوبة لدخولهم من الباب الخلفي ، أو لامتشاقهم خنجر التحدي ، فبعد سجن هؤلاء في ذمار انتقلوا إلى سجن (صنعاء) كتأكيد لإجرامهم وطول مدة سجنهم ، بيد أنها حدثت تدخلات تبرئ هؤلاء ، وربما كان أهمها عدم صلاحية (عامل ذمار) وبداية ارتفاع التذمر بصنعاء ، ثم إن (الإمام) حاول أن يتحامى زيادة الأعداء وتعدد المدائن المناوئة ، فقد أخذ استنكار نهب صنعاء يتعالى بعد حدوثه بشهور ، ولعل هذا أحد الأسباب التي جعلت الإمام أحمد يترك العاصمة (صنعاء) ويستعصم مدينة (تَعِزّ) ، لأن ولاء العاصمة أهم الشروط لاستقرار الحكم ، ولم يكن بينه وبين (تَعِزّ) أية مناوأة ظاهرة ، على حين أعلنت (صنعاء) العصيان وأقامت الدستور ، ولم تكن (ذمار) أقل شأناً

من (تَعِزّ) بل إنها تعدّ امتداداً لصنعاء من حيث منهج التعليم وأسلوب العيش وفن العمارة ، لأنها كانت تحاكي كل الأنماط الصنعانية ، ويسوءها امتياز (صنعاء) عليها بلطف أهلها وأرباح تجارتها وكثرة المتنفعين من السلطة فيها ، ولعل المنافسة بين (صنعاء) و(ذمار) متوالية على توالي العصور ، وأكثر ماتعتز به (ذمار) هو التهجير إذ أجمعوا على كونها هجرة أي محمية من جميع القبائل من أهل منطقتها ، فمهما كان انفلات السلطة ، فإن مدينة ذمار (مهجَّرة) أي مرعية الحرمة من الأرياف المجاورة لأهلها ، فلا تتعرض لنهب ولايحدث في أسواقها والطرق إليها قتال ، لأنها (هجرة عنس) . أو موضع توقيرها لكونها مدينة العلم والحلم ، ولوثاقة العلاقة بينها وبين الأرياف من تجارية وحل مشكلات ، لهذا عُرفت (ذمار) بالأمان كما عانت (صنعاء) الاضطرابات المتلاحقة لمركزيتها كعاصمة أولى ولاتخاذ مناوئي سلطتها قواعد في القرى المجاورة لها كهمدان وبني حشيش وبني مطر والحيمتين ، أما من الناحية التعليمية فإن (المدرسة الشمسية) بذمار تضاهي (الجامع الكبير) بصنعاء أو (دار العلوم) ، وإن كانت تساوي في دراسة كتب الشيعة مدينتي (صَعْدة) و(شهارة) و(المكلاّ) ، بل كانت (ذمار) أكثر تعصباً للتشيع : إما لوجود سنيين متكاتفين ، أو لقلة المشاغل .

لهذا كانت حركتها آخر عام ٤٨ شديدة الغرابة ، شديدة الوقع لأنها جاءت للسلطة من مأمنها وفي وقت اطمئنانها من كل طارئ ، لظنها أنها قد أسكتت كل نبض بمعرة (صنعاء) ودموية (حجة) ، على أن هذا توهمٌ لايبرره الواقع التأريخي لهذا الوطن ، إذ كل حدث يولِّد من نفسه نقيضه ، فتجر الدموية إلى الأكثر دموية ، ولعل لاستغراب (حركة ذمار) عامل آخر ، لأنها مدينة مفتوحة لاتحيط بها أسوار ، ولا تقف بالقرب منها جبال . فكيف تقاوم وجغرافيتها لاتملك المواقع الدفاعية ؟ لهذا ارتأى الديلمي المعاون في حركة ٤٨م أن يوزع

مجموعة من العساكر في رؤوس المآذن .

إذن فقد كانت (حركة ذمار) الدليل على إمكانية تلاحق الأحداث ، وعلى عجز دموية ٤٨ عن تسمير الفلك وإيقاف النهر الزمني ، فبعد حركة (ذمار) انطلقت الكوامن النفسية وأدانت نهب (صنعاء) ، حتى أن (الإمام أحمد) في منتصف الخمسينات ألغى اسم (عيد النصر) وسماه (عيد الجلوس) ، لأن استعادة ذكرى انتصاره ، استنفار لمرارة الشعب الذي ناصره ثم لم يكن نصيراً له ، وكانت (حركة ذمار) الصيحة الأولى في زمن الصمت الدامي .

* * *

الفصل الثامن

الازدواجية . . والثنائية
في انقلاب مارس ٥٥

الازدواجية . . والثنائية في انقلاب مارس ٥٥

ليس الرجوع إلى الماضي من أجل التبجح به . . ولا من أجل تعييبه . . إذ لاجدوى من التبجح به . . ولا قيمة من التشنيع عليه . . لأنه أصبح فانياً ، وإنما الرجوع إليه لاستخلاص ماهو تأريخي فيه وما هو آني لايتجاوز يومه وماهو غير معدود في الأحداث المؤثرة . . لأن بعض الأحداث قد استأثرت بالاهتمام . . واستغرقت أطناناً من الأوراق حتى لايكاد المرء يميّز بين الوثائق التي هي مرجع التأريخ . . وبين التأريخ الوثائقي . . مع أن ضخامة الوثائق أعجز من أن تخلق حدثاً مزمّناً بحينه كما يحاول البعض اليوم نفي حرب الجمَل بين علي وعائشة ، كما أن الوثائق أعجز من أن تجعل الحدث أكبر مما هو . . كما أن قلتها . . أعجز من أن يقلل من الحدث العظيم . . وبالأخص اليوم زمن امتحان الوثائق حتى وقع أكثرها في تهمة التلفيق أو التزوير ، أو المبالغة على أحسن الأحوال مع أن الحدث التأريخي يخلق تأريخيته ووثائق وجوده من نفسه بأقل المدونات ، وربما كانت المبالغات أو التزيدات سبب ضآلة الحدث - كوفرة الإعلانات عن البضائع الكاسدة - ولعل انقلاب مارس ١٩٥٥م من الأحداث اليمنية التي ظفرت في الأيام الأخيرة بالعناية التي لاتستحقها . . لأن ذلك الحدث من مئات الأحداث العائلية التي استفاضت بها تواريخ القصور ومكائدها . . فلم يكن قيام عبد الله بن يحيى حميد الدين على أخيه أحمد بن يحيى في مارس عام ١٩٥٥ غريباً على صراع العهود الوراثية . . فكم قام أخ على أخيه . . وكم خرج ابن أخ على عمه في التأريخ الإمامي باليمن .

وفي تواريخ الخلفاء في أكثر من عاصمة . . وفي أكثر من عهد من عهود

الهرقلية والكسروية والقيصرية والخلفائية . . حتى أن بعضهم لم يتول سوى ليلة - كعبد الله بن المعتز - وبعضهم لاقى الخلع على يد من ولاّه قبل شهور . . وهذه السمة منطبقة على انقلاب عبد الله بن يحيى . . على أخيه أحمد في مارس عام ٥٥ بتَعِزّ .

فهل تكوّنت عوامل هذا الانقلاب عائلياً أم شعبياً ؟

إنه عائلي مزدوج من عائلات وضباط على رأسها البيت الإمامي . . وعلى عائلية هذا الانقلاب المزدوج فإن له ثنائية شعبية . . .

إذ شاركت في صنعه عناصر وطنية نقية القصد . . وطنية الغاية . . ولكي نستغور هذا الحدث ، تتحتم لفتة إلى ينابيعه . . وأصول نظائره . . عندما تكاثر أولاد الإمام يحيى - الذي كان وحيد أبويه - طمح كل بنيه إلى ولاية عهده . . كما أشار إلى هذا علي ابن الامام :

ونحـــن بنـــو أســـرة كلنـــا . خيـــولهـــمُ للمعـــالـــي جمـــاحْ

وهذا الازدياد في عدد الطامحين من أبناء الخليفة أو (الإمام) يشكّل أهم أسباب الصراع داخل القصر لتعدد البنين من أمهات متعددات أو تعدّد منازع البنين من أمّ واحدة . . وقد أدّى اختلاف الأمهات إلى أول دموية عباسية . . بين الأمين بن زبيدة ابنة جعفر . . وبين المأمون ابن الجارية . . حتى تناسى الأمين والمأمون أبوّة (هارون الرشيد) . . أمام اختلاف الأمَّيْن . لأن (زُبيدة) كانت مشاركة في الحكم ، ولأن الفرس أرادوا الانتقام للبرامكة الذين أطاح بهم (الرشيد) فوجدوا في اختلاف الأخوين ستاراً كافياً للنوايا وللهجوم على العاصمة بغداد بقيادة عربي هو طاهر بن حسين الخزاعي .

فسقط الأمين واحترقت بغداد . . ومات مئات الأبرياء من جرّاء قتال الأخوين مدة عام وشهرين . . وأراد المتوكل العباسي بعد سنوات أن يتفادى

وقوع ماحدث بين الأمين والمأمون ، بين أولاده الثلاثة . . فعقد ولاية العهد لهم جميعاً وتسمّى (أبا أولياء العهود) على حدّ تعبير البحتري ، ومع هذا لم يحلّ مشكلة الصراع العائلي ، وإنما زادها تعقيداً ، فسقط صريعاً على يد ابنه المنتصر . . لأن الاشتراك في ولاية العهد سبَّب السباق على وراثتها وأراد كل واحد أن يتفرّد بوراثة أبيه ولو بمقتله . . ومن المعروف أن حياة العهود الوراثية تتشابه بكل مكائدها وبكل أدوات التنافس على الحكم . . وإن كانت (الإمامة) في اليمن تتميز - أو حاولت أن تتميز - على الخلفاء والملوك بتحديد اربعة عشر شرطاً لصلاحية الخليفة أهمها أن يكون الخليفة علوِياً فاطمياً ، وأن يكون عالماً مجتهداً شجاعاً سخياً أكثر رأيه الإصابة سليم الحواس والأطراف حراً ولو بالعتق من عبودية سابقة ، وهذه الشروط اكتسابية ، لاوراثية . . وعلى صراحة هذه الشروط فإنها لم تمنع التوارث إلا في النادر . . إذ تلا (الهادي) ابنه (المرتضى) ، ثم ابنه (الناصر) القرن التاسع الميلادي ثم صار الالتزام بالشروط تقليداً . . كما صار التوارث شبه سُنّة لأن كل (إمام) كان يدّعي - حقاً أو باطلاً - استيفاءه الشروط ، وكان أكبر أولاده يبذل جهده لتحقيق هذه الشروط ، باستثناء النسَبَ الذي يملكه بالوراثة .

امتد هذا التوارث واكتساب الشروط أو دعوى اكتسابها إلى عهد (الإمام يحيى) في القرن العشرين . . إذ رأى كل أمير نفسه مكتمل الشروط . . فلم يكد (يحيى) يدخل سن الشيخوخة حتى طمح كل بنيه إلى استخلافه بعد أبيه على نفس المفهوم القديم . . حتى إن بعضهم مال إلى المعارضة من بعيد (كعلي بن يحيى) وبعضهم انتمى إليها فعلاً (كإبراهيم بن يحيى) وكانا أقل أنجال (الإمام) خطراً لاشتهارهما بالمجون . . وربما كان سبب تعاطفهما وانضمامهما إلى المعارضة شعورهما بجدارة أخويهما (أحمد) و(عبد الله) لميراث الخلافة . . إذ كان (أحمد) شهيراً بالبطولة الحربية خاض عدّة معارك انتصر

فيها . . كما كان (عبد الله) شهيراً بالمعارف السياسية والذكاء السياسي ، تعلّم (أحمد) في (شهارة) على يد الشيوخ الحفاظ التقليديين . . . وانتظم (عبد الله) بدار العلوم بصنعاء . . . فنشأت بينه وبين نابهي الثلاثينات علاقة الزمالة ، أو بداية قاعدة سياسية ، فعندما تولى عبد الله (وزارة المعارف) في آخر الثلاثينات أدنى منه مجموعة من زملاء الدراسة النابهين ، من أمثال : عبد الله العزب ، وعبد الرحمن عبد الصمد وعبد الكريم الأمير وعبد الرحمن السياغي وعبد الكريم السياغي وعلي الشماحي وأحمد المطاع وأحمد عبد الوهاب الوريث . . . وعندما أراد (الإمام يحيى) تنحية (علي الوزير) عن إمارة لواء تعِزّ . . وتنحية (عبد الله الوزير) عن لواء الحديدة . . أمَّر ابنه (أحمد) على لواء تَعِزّ كما أمَّر ابنه (عبد الله) على لواء الحديدة ، فلاحظ الناس النِّدية بين (أحمد) الرجل الحربي وبين (عبد الله) الرجل السياسي وأراد (يحيى) أن يخفف تيار الصراع بين الأخوين فكلف (عبد الله) بعدة مهمات خارج القطر فأقام بمصر فترة . . وأطال التنقل بين أوربا وأمريكا بعض سنوات . . وبهذا ابتعد عن عنف أحداث الداخل بين المعارضة ، وبين أبيه ، وبين أخيه والاتحاد اليمني في (عَدَن) ولم يكن عند الاتحاديين أمل في انضمام (عبد الله) إليهم كإبراهيم . .ولا كان مبدياً نحوهم تعاطفاً ولا عداءً .

وحين بلغت الأحداث ذروتها بمقتل (الإمام يحيى) في شباط عام ١٩٤٨م كان (عبد الله) بمعزل عن جملة الأحداث . . ولعل هذه الأحداث هي التي رشحت (أحمد) للحكم بسبب إخماده للانقلاب ، وامتلاكه السلطة بحد السيف ، بدون نظر إلى الشروط الهدوية للخليفة . . وبرغم كل الإخوة الطامحين .

بعد انقلاب عام ١٩٤٨ ساد الركود مؤقتاً . . ثم أخذ الناس يتساءلون عما جرى . . وكيف جرى ، وهل يمكن حدوث ماحدث ، أم حدوث غيره ؟

من مطلع الخمسينات قلَّل (عبد الله) من رحلاته الخارجية ، وظل يتنقل

في الداخل بين تَعِزّ ، وصنعاء ، والروضة والوادي مبدياً اقتناعه بأشغاله التجارية . . لأنه اشتمّ خطورة مجازفة عائلية . . وبالأخص عندما شاع أنَّ (أحمد) دسّ لأخيه (يحيى) السم . . . لأنه جعل من توزّره على الصحة في الخمسينات سلطة وقاعدة من موظفيها ومن البيوت التي أمر بحمايتها من نهب مارس ٤٨ . . وكان ليحيى ثلة من الأصدقاء ، كما كانت له شعبية عند البيوت التي حماها من نهب ٤٨ ومن سائر الصنعانيين لهذه اللفتة إلى الناس وقت الشدّة .

كان موت (يحيى) الغامض سبباً في انطواء (السيوف) ولم يكن لأحد أي نفوذ غير (الحسن) الذي كان كرئيس وزراء في صورة نائب (الإمام) على (صنعاء) . . أو نائبه على كل الألوية ، لأنه كان قوة تنفيذية في سائر المراكز . . ولما كاد يطغى على (الإمام) في تسيير الأمور . . أدى هذا إلى افتعال مهمات له بالخارج ولعل هذا أفسح المجال لعبد الله . . لأن (العباس) أخاه أصبح كنائب للإمام بعد (الحسين) ، وكانا يشتركان في كراهية سيطرة (الحسن) الذي توارى أيام الزحف على صنعاء على حين كان (العباس) يقود جيشاً كبيراً كان له أول اكتساح (صنعاء) ، وكان أحق في منظوره وأخيه (عبد الله) بمكانة (الحسن) .

من هنا أكّد (عبد الله) صلاته القديمة . . واستقطب جماعات أخرى . . وكان في اختياره الرجال يعتمد على الشخصيات العملية والدينية ، والأدبية ، وكان أضخم إخوته ثروة لتعدد مناصبه وكثرة رحلاته الدبلوماسية وتوظيف أمواله في المصارف الخارجية وتشغيلها في التجارة الداخلية حتى كانت حوالاته المالية للأتباع من كبار التجّار أعلى (رقماً) من حوالات (الإمام) و(الحسن) إلى صناديق الحكومة . . وكان مجلسه عامراً بالوجوه المتنافرة ، والمتشابهة . . كما كان مايدور فيها مختلفاً عن مجالس (الإمام) و(الحسن) وسائر المجالس

القاتية . . لأنه كان يقص على جلسائه أخبار العالم الخارجي . . وأساليب العيش فيه . . وتطور الصناعات ، وحركات الناس ، حتى أصبحت الروايات عن مجالسه من أشهى المرويات ، والمسموعات ، ومن أكثر الرواة عنه أبناء إخوته وبالأخص المبعدين والمقتولين ولعلهم كانوا يروّجون له الدعايات عن قصد ، وعن منفعة لأنه لم ينجب . . فتوسَّم كل (أمير) أنه سيكون ولي عهده إذا وصل إلى الحكم .

أما المجتمع الشعبي فقد كان غامض الأحلام في تلك الفترة . . وإن كان شديد التطلع إلى مجريات العالم . . وبالأخص عندما توفَّر (الراديو) ، والصحيفة . . وتأرَّجت روائح الثورات والانتفاضات . . ولاسيما الثورة المصرية عام ١٩٥٢ ، لعراقة العلاقة الثقافية بين (اليمن) و(مصر) من منتصف العشرينات حتى وصلت إلى اختلاف الأحزاب المصرية حول الحرب اليمنية السعودية في منتصف الثلاثينات إذ كانت جماعة الإخوان المسلمين . . أميل إلى عبد العزيز آل سعود ، أو أقرب إلى دعوة حقن الدماء بدون تمييز للأسباب . . على حين كان حزب الوفد أحرّ حماساً لحكومة (اليمن) ، كما دلّت صحافة تلك الفترة المختلفة الاتجاهات .

لهذا لم يكن غريباً تقضي اليمنيين أطوار ثورة مصر ، وإناطة الأمل بها ، وإن كانت الإرادة المحلية تتعثر بين الحلم ، والخوف من الأحلام بعد نكسة ٤٨ . . إلا أن تسلل التيارات الجديدة ظل يتردّد ، وكانت فترة (أحمد) أقلّ تجمداً من عهد أبيه . . إذ انفتحت المكتبات ، وتعددت المدارس ، وانفتح المجال نسبياً للتوظيف ، وارتفعت المرتبات أضعاف مرتبات العهد اليحيوي . . فأمكن شراء الكتاب ، والمذياع ، والجريدة وبهذا تخفف أثر القمع الدخيل في النفوس . . لكن لم ينتظر المجتمع الشعبي حدوث مفاجأة سياسية لغياب الإمكانيات المادية والقيادات السياسية في السنين الأولى من الخمسينات ، ولم

يكن الشعب محباً لأحمد كأبيه ولا آملاً في (عبد الله) كمخلّص من أخيه . .

وفي هذه الظروف الحالمة العاجزة ، أخذ (عبد الله) يُعدّ نفسه بديلاً عن أخيه . . فأقنع ذويه بضرورة انقلاب عائلي . . بحجة أن (أحمد) زرع الأحقاد في نفوس الشعب على العائلة بشدة عنفه عام ٤٨ على (صنعاء) وبتقطيعه رؤوس رجال لهم خطر في عشائرهم .

بهذا التقت عائلة (حميد الدين) بكل فروعها ولم تقتصر على البيت المتوكلي . . من هنا كادت العائلة (القاسمية) أن تجمع سرّاً على صلاحية (عبد الله) بديلاً عن (أحمد) الذي أدمى وأغضب . . ورسّخ كراهية الشعب للأسرة ، بل لجموع الهاشميين .

وبرّرت العائلة صواب اختيارها لعبد الله بثلاثة أسباب هي :

١ - غيابه عن أحداث عام ٤٨ .

٢ - توسطه بين قسوة (أحمد) ، وبخل (الحسن) ، أيام نيابته لأخيه وأيام إمارته على (لواء إب) في حياة أبيه .

٣ - معرفته بالسياسات الكبرى في العالم المعاصر ، في وقت تقاربت فيه السياسات وتصارعت فيه القوى الكبرى .

وكانت جمهرة الشعب تسمع هذه الأخبار بدون اكتراث . . وبدون رجاء في القائم أو الذي سوف يقوم ، ولم يكن أحد يتنبأ بنتيجة هذا التدبير العائلي . . إلا أن البعض أشار إلى أن (عبد الله) قد أوكل بالمهمة خمسة من أولاد أخوته لكتف (الإمام أحمد) في حالة صعفه ، وإرغامه على التنازل سلمياً . . ولعل (أحمد) كان غير غافل عن هذا التدبير . . لأنه عامل أولاد إخوته من وراء حجاب ، ولم يستقبلهم مجتمعين بل بعث بعضهم إلى كليات مصر للدارسة . . ثم إنه لم يستخطر (عبد الله) لقلة خبرته بالسواد الأعظم من

الشعب ، ولأن أغلب رفاق (عبد الله) الذين كانوا زملائه في (دار العلوم) قد تفرقت بهم الطرق . . فمنهم سفراء في الخارج كعبد الرحمن عبد الصمد أبو طالب وعلي المؤيد . . ومنهم من هو أبعد عن المجازفة او أقرب إلى حب السلامة ، معتبراً بما حدث قبل سنوات .

لهذا كان انقلاب (عبد الله) حبيس جلساته الخاصة ولم تشكّل تلك الإشارات الخافتة إرهاصاً بحدث قريب الوقوع . . وفي هذه الأثناء حدثت مشكلة قرية الحوبان . . إذ اعتدى بعض الجنود على مواشي تلك القرية وبعض أهلها لمنعهم بعض العساكر من الاحتطاب من أشجارهم . . فرفعت شكواها إلى (الإمام) فاشتد غضبه لانتهاك جنوده قرية بمقربة من عاصمته . . فأمر بسجن بعض الجنود . وسلب بعضهم السلاح . . فثارت ثائرة جيش تعِزّ . . وامتدت عدوى الهيجان إلى جميع أفراد الجيش هناك . . فانقضوا على قصر (الإمام) بالعرضي وأمطروه برصاص البنادق . . ولعل بعض الضباط كانوا وراء دفع الجنود مستغلّين ذلك الهياج . . ولما عرفوا تصميمهم قادوا حركتهم . . وكان (أحمد يحيى الثلايا) من الضباط المحنّكين والقادرين على الانضباط فأصبحت الحركة حركة الجيش بتعز برئاسة (الثلايا) وقيادة مجموعة من الضباط من أمثال :

أحمد الدفعي ، عبد الرحمن باكر ، والصعر وآزرهم نقباء قبليون كالمطري والغولي وكان هؤلاء من ذوي النزوع الوطني والرؤية التغييرية ومن المتابعين للثورات العسكرية في الخارج ، وربما تعاون في نفوسهم تأثير العدوى وحسّ الطموح إلى السلطة فتبدى الانقلاب كثورة عسكرية في بادئ الأمر . . وفي اليوم الثاني من بدء الحركة صدر عن تَعِزّ منشور . . موقع بخط الإمام أحمد . . يعلن تِنازله عن (العمل) لأخيه (عبد الله) . . واتّسع توزيع ذلك المنشور في سائر المدائن اليمنية وكان يقرؤه على الناس مديرو المراكز أما في (صنعاء) فقد

لصق ذلك المنشور على واجهة إدارة مأمور الضبط - بباب السبج - وعلى مداخل المدارس والمساجد والدوائر الحكومية ولم يثر هذا أي حماس للحادث أو ضده لعدم اكتراث الناس بذلك الحدث .. وإنما تبدى نشاط المقام بصنعاء الذي كان يدير الأمور فيه (العباس بن يحيى) أخو (عبد الله) ... فاستضاف السجن أفراداً ليس لهم سوابق سياسية وإنما أصابتهم تهمة مناوءة العهد الجديد .. ولعل برودة ذلك الحدث تنتسب إلى غياب الإرهاصات له والتبشير بحدوثه وغياب الأمل الشعبي عنه إذ لم يكن لذلك الحدث أي روائح .. فلم يسبق ذلك الانقلاب من البوادر التحركية كالذي سبق انقلاب عام ٤٨ لهذا تبدى انقلاب مارس ٥٥ على غير انتظار وبلا دهشة مفاجئة .. لأن ذلك الحدث كان يعاني ازدواجية .. إذ أيده بعض رجال ٤٨ من أمثال عبد الرحمن الإرياني ، ومحمد حسين عبد القادر .. إثر خروجهما من سجن (حجة) وشجبه بعضهم من أمثال الأستاذ أحمد محمد نعمان والأستاذ أحمد محمد الشامي والأستاذ محمد الزبيري الذي ندد بالحادث وحذر منه في أحاديثه من صوت العرب بالقاهرة .

أما الأستاذ (نعمان) فقد انضم إلى (البدر ابن الإمام أحمد) الذي أراد أن يقضي على الانقلاب عسكرياً من مركزه (بحجة) مهتدياً بتجربة أبيه عام ٤٨ ، حتى الأسَر المعروفة بالتماسك انقسمت في موالاة الانقلاب والتراخي عنه .. فبينما أيد (يحيى السياغي) حاكم المقام بتَعِزّ قيام (عبد الله) وعدم صلاحية أخيه (أحمد) لعجزه بسبب انهيار صحته مُصدراً في ذلك حكماً شرعياً ... تردد بقية آل السياغي في إظهار نواياهم .. رغم وثاقة علاقاتهم بعبد الله .

فهل كان ظهور (عبد الله) بتجمعه العائلي والإخواني دخيلاً على الحركة العسكرية ؟ أم أنه استغل غضب الجيش فامتطى الموجة إلى الحكم سلمياً ؟ ..

يرى البعض أن (عبد الله) و(الثلائي) وجّها الحركة العسكرية كوسيلة ضغط على (أحمد) ليتنازل . . ويرى البعض أن (عبد الله) استنح فرصة غضب الجيش ولكن عن تدبير مسبق مع (الثلائي) لتلمس الفرص أو إنضاج الظروف وكان ذلك الحين موسم التحرك العسكري في أكثر من مكان فعوَّل (عبد الله) على (الثلائي) لعسكريته غير الطامحة إلى السلطة .

لعل الالتفات إلى خليفة (الثلائي) تعطي رؤية للحركة من داخلها .

تعلم (أحمد الثلائي) بمدرسة الإشارة العسكرية بصنعاء بعد أن تخرج من الابتدائية . . وفي عام ٣٦ كان أحد أفراد البعثة العسكرية إلى (بغداد) وبعد رجوعه من بغداد غاير زملاءه ، فانطوى على نفسه ولم يشاركهم الرأي في القيام بانقلاب عام ٤٨ رغم علاقته العملية بجمال جميل الذي كان دولاب الحركة الانقلابية ، وربما كان (الثلائي) موضع شك عند (جمال جميل) فتعين قائد مفرزة بصَعْدة عام ٤٧ . . وبعد مقتل (الإمام يحيى) التزم الحياد حتى ظهور (أحمد) في حجة فالتحق به (الثلائي) مع مفرزته . . وكان هذا الولاء لأحمد سبب حظوته لديه . . فعيّنه معلماً لجيش تَعِزّ . . وكان (الثلائي) أميل إلى التدين رغم صرامته العسكرية . . وكان محدود الثقافة فلم يعرف عنه ميول إلى التطلع السياسي والثقافي كزملائه من أمثال الشاعر أحمد المروني وعبد الله السلال . . والمؤرخ زيد عنان . .

وحينما أصبح معلماً لجيش تَعِزّ كان معروفاً بالانقطاع لعمله الوظيفي . . وواجبه المنزلي . . ولم يشارك في أية مهمة من المهمات اللواتي كان يتطوّع الخيّرون بها للإفراج عن سجناء حجة .

إن نفسية (الثلائي) تقترب من نفسية إمام انقلاب مارس . . كلاهما أميَل إلى الحذر وإلى الانطواء . . وكان كل منهما يعاني عقدة الإنجاب . . (عبد الله)

لم ينجب ذكوراً ولا إناثاً . . على حين أنجب (الثلائي) بنتاً وحيدة ظل يحلم لها بإخوة وأخوات . . كان (عبد الله) محصوراً بثقافة الأخبار السياسية . . وكان (الثلائي) محصوراً بصرامته العسكرية .

كان (الثلائي) بمنأى عن غبار ٤٨ وإن انضم إلى المنتصر . . وكان (عبد الله) خارج القطر يومذاك . . كان (الثلائي) أقرب إلى الروتين العسكري التركي وألصق بالعائلات الشبيهة بالتركية كآل الجرموزي الذي تزوج إحدى بناتهم الشهيرات بجودة الطبخ وإرضاء الضجيع . . وكان (عبد الله) أقرب إلى الخليط من متوسطي الثقافة ومن متدنيها . . وقبل أن يقوم بالانقلاب أراد أن يدلل على اهتمامه بالثقافة الوطنية فطبع الجزء العاشر من الإكليل (لأبي محمد الهمداني) من مؤرخي القرن العاشر الميلادي وأعاد طبع كتاب (البحر الزخّار) لأحمد بن يحيى المرتضى - من أئمة العلم في القرن الرابع عشر ميلادي - وكان طبع المخطوطات اليمنية من علامات الاهتمام . . ومن دلائل الشعبية أو أسباب البحث عنها . . لهذا أراد (أحمد) أن يزيد على مافعل (عبد الله) في نفس الفترة فطبع ديواني الأنسي ، والعنسي ، وديوان شرف الدين ، وشمس العلوم ، والحور العين ، والمنظومة التأريخية لنشوان بن سعيد الحميري . . ولعل مبادرة (عبد الله) إلى طبع ذينِك الكتابين أولى لفتاته إلى الثقافة الشعبية الذي اتهمه البعض بجهلها لطول أسفاره في الخارج .

فبين الثلايا وعبد الله أكثر من وجه شبه والتشابه بين الرجال يؤدي إلى أصدق مودة ، أو أشد كراهية . . ذلك لأن (الثلايا) الرجل الهادئ قبل المخاطرة في ظل (عبد الله) وتريث في انقلاب ٤٨ عن التورط قبل استبانة الغالب . . فهل هذا يرجع إلى الالتقاء في النقاط النفسية بينه وبين (عبد الله) وبالأخص بعد أن ترفه (الثلائي) وأصبح من ميسوري العيش ؟ .

أما الضباط والجنود الذين استشهدوا مع (الثلائي) فهم من فقراء

(صنعاء) وبؤساء الفلاحين باستثناء الشيخ المطري . وكانوا يطمحون إلى الثورة كجيش مصر ، لهذا تبدّت مشاركتهم في انقلاب يستبدل إماماً بإمام غريبة أو ثنائية .

إن انقلاب مارس ٥٥ كان مزدوجاً عائلياً ، وكان الضباط والجنود هم الاستثناء من ذلك الازدواج .. وربما لم يكونوا على علم بإمامة (عبد الله) للانقلاب وإنما نفذّوا أوامر المعلّم أحمد الثلائي .. وكانوا رافضين للعهد الأحمدي وعلى غير دراية باقتحام أخيه .. حتى تبدى ذلك الحدث بفجائيته ووجوهه العليا كجملة معترضة في مسلسل الأحداث اليمنية المعاصرة .. صحيح أن (عبد الله) اتخذ الجيش أداة .. وربما تمظهر به قادته وهذا لايجعل الانقلاب مغايراً لخروج أخ طامح على أخيه الإمام المريض ، فما أكثر ماحدث مثل هذا بين (مهدي المواهب) وبين (مهدي القفلة) .. وبين (المنصور علي) .. و(المنصور أحمد) وبين المتوكل أحمد بن الحسن والمتوكل إسماعيل وكان كل إمام يقوم بقاعدة من الأنصار كما قام عبد الله بن يحيى في منتصف الخمسينات على قاعدة من معسكر تعز ومن التدبير العائلي وتأييد الصحبة .. ولأن هذا الانقلاب غير مسبوق بإرهاصات جماهيرية .. وغير قائم على إرادة شعبية .. سقط بعد خمسة أيام من قيامه واستعاد (أحمد) تأريخه الأسطوري إبّان اليأس من قدرته لأنه خرج وحده متّشحاً سيفه فأرعب حراس قصره . . .

ولكن خروجه كان مسبوقاً بإعداد محكم .. لأن الازدواجية في الحركة أعطته مدخلاً لإفشالها من صميمها .. فعلى الرغم من أنها حركة عسكرية فقد اقتصرت على معسكر العرضي بتعز .. ولم تعقد صلة الجيش بصنعاء أو سائر المراكز بل لم تكوّن صلة مع معسكر القاهرة بتَعِزّ .. وكان مدججاً بالمدافع التي لايملكها معسكر العرضي .. لهذا مدّ (الإمام) اتصالاته بمعسكر القاهرة فأمطر معسكر العرضي بقذائف المدافع وقطع عليه الماء ، وفي عنفوان هذا الحصار

خرج (أحمد) على حصانه متَّشحاً سيفه فوأد الانقلاب في مهده واحتز رؤوس قادته وإمامه وقيل إن أحسن علاج للإمام أحمد هو حدوث انقلاب ضده لأنه يتجاوز بذلك التوقد تداعيه ، ولو طالت مدة هذا الانقلاب لأمكن تقويمه من خلال تحركه . . ففي عمره المؤلف من خمسة أيام لم يصدر أي بيان عن نواياه أو عن مشاريعه . . بل لم يغير مسؤولاً عن مكانه سوى تعيين (عبد الله الشامي) مديراً لأمن صنعاء الذي كانت بينه وبين (العباس) صلة صهارة . . مهما تكن اعتراضية هذا الحدث فقد أفضى إلى تحولات سياسية واجتماعية . . لأن (أحمد) اشتم روائح المؤامرة الأمريكية من قيام أخيه (عبد الله) ، فتحداها عملياً إذ قوى من علاقاته مع المعسكر الشرقي فاستورد السلاح التشيكي والسوفييتي . . وتنفذت اتفاقية بناء ميناء الحديدة بالخبرة السوفييتية . . ورصف طريق الحديدة صنعاء بأيدي الخبرة الصينية . . وكانت هذه الفترة أخصب المناخات لنشوء التنظيمات السياسية والرخاء الثقافي النسبي ، ولهذا تغير مجرى الأحداث من ٥٦ برد الفعل على انقلاب مارس . . لامن التأثير المباشر لذلك الانقلاب . . فرغم ازدواجية ذلك الانقلاب . . وانتسابه إلى الأحداث القصورية ممتزجاً بالطابع العسكري . . فإن ردّ الفعل عليه افتتح آفاقاً جديدة للتحولات المتلاحقة ، لأن ذلك الحدث مهما كان اعتراضياً أحدث شقوقاً في العائلة الحاكمة ، كما أسرع في إخفات بريق (الإمامة) وبلور إرادة الشعب . . ولكن ليس بتأثير الحدث وإنما بتأثير معاكساته ومصاحبتها لمواسم المتغيرات المتتابعة .

إذ عقد القصر الأحمدي عدة اتفاقيات : ثقافية وفنية واقتصادية وعسكرية مع الاتحاد السوفيتي ويوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا ، فاستورد صفقات الأسلحة بزعم تحرير الشطر الجنوبي من الاستعمار وشارك في القمة الثلاثية بجدّة بينه وبين جمال عبد الناصر والملك سعود عام ٥٦ . . وفي عام ٥٨ طلب انضمام

حكومته المتوكلية إلى الجمهورية العربية المتحدة مصر وسوريا ، كما والى إرسال الوفود إلى موسكو لعقد الاتفاقيات الاقتصادية والثقافية والفنية ، وكان المواطنون يسخرون من هذا التحرك ويتساءلون عن هذا التوفيق أو التلفيق بين رجعية (الإمام) وبين الثوار على اختلافهم ، وبالأخص عندما أوفد ابنه (البدر) على رأس مسؤولين إلى بغداد عقب ثورة تموز ٥٨ ، فما كان أحد يتوقع أن يؤيد (أحمد) ثورة العراق على العرش الهاشمي .

أما القوى الرجعية والاستعمار فرأت في هذا التقارب خطراً ، بغض النظر عن هوية (الإمام) ، وعن الأسباب الداخلية التي أراد تهدئتها بالتقرب إلى الثوار مجاهرة إلى حدّ أن (الإمام أحمد) رحب بالطلاب اليمنيين الذين أبعدتهم جامعة القاهرة بتهمة الشيوعية وأمر ببعث أولئك لإتمام دراستهم بألمانيا الديمقراطية ، وعلى العكس كان موقف المعارضين للإمام من أولئك الطلاب ، فقد نشرت جريدة العمال بعَدَن برقية إلى الرئيس جمال عبد الناصر تطالبه فيها بعدم إبعاد الطلاب إلى اليمن لأنهم سيعملون على نشر الشيوعية ، وكانت هذه البرقية مذيلة بتوقيع (عبد الله الأصنج) رئيس تحرير الجريدة (أحمد محمد نعمان) و(محمد محمود الزبيري) زعيمي الاتحاد اليمني في القاهرة ، بهذا تبدت مخاوف الرجعية والاستعمار أكثر في عامي ٥٩ و٦٠ فتحركت بعض القوى القبلية ضد (الإمام أحمد) ، فقد قيل في ذلك الحين : أن (الغادر) أحد شيوخ (خولان) كان يجلب الأسلحة من (سلطان بيحان) ، وأن (أمير بيحان) أراد تشكيل سلطنات في الشمال على شاكلة سلطنات الشطر الجنوبي في أواخر أيام الاستعمار البريطاني ، وكانت بعض الدول المجاورة تؤيد (سلطان بيحان) في هذا المسعى أو تشاركه في مدّ تلك القوى ، لكي يقضي على العلاقة بين (الإمام أحمد) وبين المنظومة الاشتراكية والثورات العربية ، وشكل هذا ضغطاً أدى بالإمام أحمد إلى معارضة الاشتراكية شعرياً ، وكان شعره في هذا

الخصوص بمثابة بيان سياسي ضد الاشتراكية ، وبالأخص هذا المقطع :

ولا يجـوز أخـذ مـال الغيـرِ إلا بـأن يـرضـى بـدون ضيـرِ
والـديـن قـد سـن الـزكـاة فينا . . . . الـــخ . . . .

كانت مناوأة (الإمام) الشعرية للاشتراكية لاتقل غرابة عن محاولة انسجامه مع الاشتراكيين كما لاتقل غرابة عن جهله بالفقه الإسلامي حيث رأى الزكاة سنة وهي فقهياً واجبة كالصلاة والصوم بل هي أحد أركان الإسلام الخمسة ، وإن كان كل هذا من صنع تسارع التغيرات في الداخل وتوقه إلى تحقيق ماحقق الآخرون واجتنابه انتفاض الشعب .

أراد (الإمام) بعد انقلاب مارس ٥٥ أن يتمظهر بالثورية ضد الاستعمار ، وأراد في ٦١ أن يحتمي من الرجعية بالتقرب إليها ، وكل هذا هروب من واقع الثورة الذي أفرزته الظروف المتغيرة ، دون أن يفطن (الإمام) إلى استيراد الأسلحة بمثابة إعداد إمكانيات الثورة .

فعلى رغم تبديل الضباط المعلمين لطلاب الكلية الحربية ، وعلى رغم تغيير إدارة الكلية الحربية من فترة إلى فترة ، فإن الثورة كانت تتزايد في نفوس المجتمع الذي طلاب الحربية من أبنائه ، والذي يتكون الجيش من شتى شرائحه وطبقاته ، والذي تعددت تجاربه ونكساته .

لهذا تجاوز الجيش تفكير الأربعينات والخمسينات مستفيداً من كل النكسات ، فتبين أن نكسة جيش تعز في عام ٥٥ تكمن في ثلاث نقاط :

١ - الارتجالية كاستجابة للحدث الطارئ .

٢ - انفراده بالحركة عن جملة الجيش في كل المراكز .

٣ - تحركه لصالح (إمام جديد) .

وتابع ضباط الجيش خط الحركة مستغورين أسباب كل نكسة عسكرية لكي يتجاوزوها ، فكما تبينوا نكسة جيشْ تعز تعرفوا على سبب نكسة حركة (اللقية والعلفي والهندوانة) ورأوا أسباب تلك النكسة في انفراد أولئك الضباط بالحديدة بمحاولة اغتيال (الإمام أحمد) سنة ٦١ ، دون أن يرتبوا صلات مع كل ضباط الجيش وقطاعات المثقفين ، ودون أن يستكنهوا وجه البديل ، وإنما ركزوا على اغتيال (الإمام أحمد) لاستحالة عمل أي شيء في وجوده ، كما قال (اللقية) في إحدى محاكماته : (كنا نريد أن نزيح هذه الصخرة عن الطريق ثمن نعمل أي شيء) . فقد رأى هؤلاء الضباط الثلاثة إمكان التغيير الثوري في غياب (الإمام أحمد) ، دون أن يفطنوا للواقع العام الذي كان (الإمام) أهم ثمراته ، ودون أن يفطنوا لبقية القوى بما فيها ولي عهد الإمام بصنعاء .

فهل كانوا يثقون بالجيش وباستعداده على مواجهة الواقع بعد قتل الإمام ؟؟ .

ربما قام الجيش في صنعاء وسائر المراكز بواجبه لو تم قتل (الإمام) ، وربما انقسم إلى جيشين كما حدث في عام ٥٥ .

لهذا لجأ ضباط الجيش في مستهل ٦٢ إلى تشكيل لجنة الضباط الأحرار في كل المعسكرات ، ساعد على هذا التنظيم والتحرك له في سائر المدائن اشتغال (الإمام) بمرضه من جراء محاولة قتله ، واشتغال أعمدة العهد بحياة (الإمام) المشرفة على الزوال ، وفي يوم ١٩ سبتمبر ٦٢ مات (الإمام أحمد) فتهيأت فرصة الضباط الأحرار أكثر ، لأن ولي عهده كان قد أعطى بعض الضباط الموثوقين مهمة تدريب الجيش على الأسلحة الثقيلة عندما نشب التمرد القبلي في حاشد وخولان وذو محمد عام ٦٠ وزادت الحاجة إلى استحضار السلاح عند دفن (الإمام أحمد) خوفاً من الفوضى . .

بهذا وصلت بعض الدبابات إلى أيدي الثوار للتعليم ولإجابة أي خطر أمني ، وكان (الإمام البدر) قد استوثق إلى حدّ ما من تأييد الجيش له ، لأنه أبدى حماساً في غياب والده أيام استشفائه بروما عام ٥٩ ، وربما كانت ربكة موت (الإمام) مطبقة على كل أعمدة عهده ، فلم يستفيقوا من تلك الصدمة إلا على قصف الدبابات ليلة ٢٦ من سبتمبر ٦٢ ، وكانت الثورة منتظرة يوم دفن (الإمام) قبل أسبوع واحد من انفجارها ، إلا أن بعض الضباط ذوو التأثير لم يستجيبوا لتلك الدعوة احتراماً للموت وخوفاً من كثرة الضحايا البريئة ومن فقد الانضباط ، نتيجة تجمع الناس بمناسبة دفن (الإمام) ، فالتزم بحماية الأمن المشير عبد الله السلال رئيس الحرس الإمامي وعبد الله الضبي مدير الأمن يومذاك وحمود الجايفي مدير الحربية السابق وحسن العمري على المواصلات إبان الطوارئ عقب موت الإمام أحمد .

بهذا ترجح إرجاء ساعة الصفر ، فانفجرت الثورة يوم ٢٦ من سبتمبر ٦٢ بعد تخطيط وتنظيم وإجماع ، حتى لاتتكرر ازدواجية (٥٥) وثنائيته ، ولكي لاتعود مجازفة (اللقية) ورفيقيه .

لهذا كان نجاح الثورة يكمن في التنظيم العسكري واستجابة الجماهير ، حتى أن لجنة الضباط لم تعلن عن اسمها صبيحة الثورة ولا عن رئيس لها ، وإنما اتضح التنظيم في كتاب : (أسرار ووثائق الثورة) الصادر عام ٧٩ ، فقد كانت تصدر بيانات الثورة وبلاغاتها إبان انفجارها عن القيادة العليا للجيش .

كل هذه التحولات التي أوصلت إلى الثورة كانت من ردّ فعل انقلاب (٥٥) وما استجد بعده من تحولات – وبالخصوص حركة الجنود عام ٥٩ ، فلم تتطور القطاعات العسكرية وحدها ، وإنما تفجرت التغيرات فتعددت التنظيمات السياسية وأعلنت عن نفسها إلى القيادة العليا للجيش بعد قيام ثورة

الـ ٢٦ من سبتمبر ، كذلك الجماهير تنظمت تلقائياً ، فقبضت على أعمدة الحكم وأوصلتهم إلى (صنعاء) من جميع المراكز . وسوف يحاول البحث التالي أن يستقصي أهم الإرهاصات الشعبية .

* * *

الفصل التاسع

ثورة سبتمبر ٦٢

١ـ الخطوط التي تدفق منها سبتمبر .
٢ـ من اليمن المنشود ، إلى الجمهورية الرابعة .
٣ـ اليمن الجمهوري إلى أين ؟ .
٤ـ التساؤل الثوري . . واستمرار الثورة .

الخطوط التي تدفَّق منها سبتمبر

قبل ازدحام الاحتفال والاحتفاء بذكرى سبتمبر ، نتقصّى آثار خطاه الاحتمالية على رمال ستين عاماً ، لكي نتبين من أين جاء . . ؟؟

وبمعرفة المسارب التي تدفق منها كمغاير لمأتاه ، نتجلى المسارب التي ستمتد منها فروعه المنتمية إليه أو المنشقّة عنه ، ذلك لأننا نفرش اليوم العيون لسبتمبر الثمانينات ، بمقدار ما فرشنا العيون لسبتمبر الستينات الراحل من الخمسينات ، فهل سبتمبر الذي يهلّ اليوم ، هو نفس سبتمبر الذي أهلّ ذلك اليوم ؟ إنه غيره لكي يغايره البديل عنه المنبجس منه والخارج عليه ، ذلك لأن أحداث الناس كالناس ، يشيخ جيل من البشر ، لكي يربو آخر من منهى ربواته ، ويأتي شباب هذا من تداعي ذاك . هكذا الأجيال البشرية ومثلها أجيال الأحداث ، لأنها صنيعة الناس كما أن الناس صنيعة أزمنة انفجارها ، فكما أن لكل عصر عملته النقدية ومصطلحاته الفكرية والفنية ، فإن لكل عصر عملته الثقافية ، وعملته الأحداثية المطبوعة بلمسات وهج الثقافة ، ونبض السياسة .

فأجيال الأحداث تشيخ كأحداث الآدميين لكي تشب أجيال على أثر مامضى ، لأن تأريخ الذي كان ينسج تأريخ الذي سوف يكون ، سواء كان متفرعاً منه أو ثائراً عليه .

ومهما كان الامتداد للذي يكون من الذي كان ، فلا بد أن يغايره لاختلاف مناخ الآتي عن مناخ الذي ذهب ، ولا تربط بين المولِّي والصاعد إلا خيوط الصيرورة ، باعتبار كل ناشئ يقوم على أنقى عناصر المنقرض . وهذا مانسميه

(الصيرورة التأريخية) . أو مانسميه فلسفياً (بروحية الديمومة الدائمة التحول) .

وإذا التفتنا إلى مستهل الطريق ، فسوف نجده موصولاً بآخر طريق أوصل إليه ولاتخرجه نقطة التحول عن السياق التأريخي العام . ذلك لأن الانقطاع الكلي غير وارد في المسلسل الأحداثي والمسلسل الفكري ، رغم تغاير الوجوه بين حدث وآخر بفعل التأثير التطوري .

فهل هناك بداية معروفة لأول الأوليات ؟.

وهل هناك نهاية يقينية لغاية الغايات ؟. .

إن الذي كان متصلاً بالذي يكون كأبوة زمنية أحداثية مختلفة الذريّات عن أبوتها ، إذا أمكن تحديد البداية أو الدنو منها فمن المستحيل معرفة نهاية النهايات يقينياً . فهل نلمح أوائل خطوط سبتمبر تحت ذرور شمس القرن العشرين ؟.

هذا ممكن ! ولكن للتقريب ، لأن القرن العشرين جاء من مئات القرون . غير أن اختلاف فلسفة أحداث هذا القرن تطبعه بسمات مختلفة عن العصور السوالف ، وإن كانت من عصير تمخضاتها ، فلم تكن حربنا ضد الاحتلال العثماني ، كحروب (يام) و(مراد) ومع هذا فإن حروبنا التحريرية متصلة قتالياً بطابعها القبلي والاقتصادي . بنزاعاتنا العشائرية لأن العراك العشائري على تتابع الزمن ، استبقى في أجيالنا روحية الجرأة ، وسرّ التحفّز للقتال عند صيحة كل طارئ . لهذا لم تختلف إلا وجهة القتال ، لاروحيته الوراثية . وهذا مايسِم اليمن بالفرادة في نضاله الوطني .

فقد لاقت الشعوب الأخرى الحملات التركية بكثير من الاستسلام وبالقليل من المقاومات السلبية ولاسيما في أول عهدها كالمظاهرات ورفع عرائض

الاحتجاج إلى الوالي . على حين تلقى شعبنا الاحتلال العثماني الثاني بقذف الحجارة وطعن الرماح وضرب السيوف ثم بإطلاق النار غير معتمد على المدد الانجليزي والتخطيط (اللورنسي) كما كان في الأقطار الأدنى من تركيا مكانياً ألا تتضح الفروق بين قتال اليمنيين للعثمانيين ، وبين مظاهرة (عُمَر مكرم) في أول القرن التاسع عشر بمصر ؟. فلماذا اختلفت مقاومة شعبنا عن مقاومة سواه ؟.

السبب أن هذه الأرض الجبلية البركانية والوديانية والتهامية ركّبت هذا المجتمع على النزوع الدموي لخشونتها وأثرها فيه ، وعلى العراك مع الطبيعة ومع الناس لأن أرضه مختلفة المناخ والتربة فتكونت العشائر المحاربة كطبيعة ومهنة ، فليس له سهولة عيش وادي النيل وأودية الرافدين ، فعندما جاء المحتل مرّتين تغيّرت وجهة الشجاعة من عشيرة إلى أختها ، إلى وطنية ضد المحتل . إذن فحرب التحرير التي فجّرها شعبنا ضد العثمانيين تنتسب إلى الحروب العشائرية وتختلف عنها أهدافياً واجتماعياً . . بعد جلاء العثمانيين أواخر العقد الثاني من هذا القرن ، ظلّت نزعات القتال مشبوبة الأوار ، ولكن مختلفة الغاية ، فلم تعد عشائرية خالصة وإنما وطنية ذات عصبيّة ، لإقامة الحكم الوطني الأفضل ، كبديل عن المحتل . فلم يكن خروج الأتراك نهاية المعركة ، وإنما بداية ميدان جديد من نفس المعترك مع الأدارسة بصبيا : (تهامة) ومع الانجليز بالجنوب ومايغذّي الخصمان من المناطق القبلية . من بداية العشرينات شبّت الأحداث ، من منطقة إلى أخرى من (البيضاء) إلى (حاشد) إلى (الحداء) إلى (المقاطرة) كما فصلت الفصول السابقة ، وتتابعت هذه الأحداث اتقاداً وانطفاءً حتى مطلع الثلاثينات ، من هناك التهب ميدان آخر من (باجل) إلى (أبها) . وكان ميدان حروب الثلاثينات رمال تهامة بأرضيتها الجمرية وجوها الجحيمي . تواصلت هذه الحروب إلى آخر الثلاثينات ، ثم

هدأت العاصفة لكي تتفجّر ، ودل على انفجارها المرتقب عدة تمردات في (مراد) و(البيضاء) إلى جانب مناوشات مع الإنجليز وعملائهم من السلاطين ، وكانت تلك التمردات كغطاء للانفجار الكبير في (سواد جزيز) إحدى ضواحي (صنعاء) حيث سقط (الإمام يحيى حميد الدين) في شباط عام ١٩٤٨م لأن (يحيى) الذي تزعّم ثورة التحرير ، تنكّر لأبسط الحريات ، بعد أن استتب له الأمر ، برغم أنه تزيّا في مطلع هذا القرن بزي الثوّار المعاصرين ، فحول القصور التركية إلى مدارس ومياتم ودور ضيافة ودوائر حكومية : مثلاً تحولت دار الوالي (بشرارة) إلى المدرسة العلمية (الوحدة وجمال جميل) اليوم وذلك بديلاً عن دار المعلمين التركية التي كانت شمال (البكيرية) وعن المدرسة الرشدية التركية التي كانت خاصة بأبناء الأتراك ومن يعدونهم منم أتباعهم للتوظيف ، كما تحول قصر القائمقام إلى دار ضيافة (داخلية الآن) كما أصبحت دار الحكم مصنعاً لنسيج الثياب (وزارة الشؤون الاجتماعية الآن) ، كما بات منتدى الضباط الأتراك ميتماً ، يتعلم فيه أيتام الشهداء وسائر الأيتام الفقراء ومايزال مقراً لإدارة تربية اللواء .

غير أن هذه الثورة الظاهرية بتقشفها المعيشي – على (الإمام) وبنيه وسائر موظفيه – لم تتحول إلى ممارسة خلّاقة وإلى صنع وضع (ديمقراطي) على أي شكل ، وإنما استبد (الإمام) بكل شيء حتى إدارة المناطق والسجون والمدارس والشؤون المالية والعسكرية ، فقد كانت كل الأمور تحت إشرافه المباشر ، رغم إخلاص موظفيه . وعزّز هذا الاستئثار بحمل بعض بنيه على رقاب الناس في الأربعينات ، فقلّدهم الوزارات بدون كفاءة . فأصبح زعيم الثورة التحريرية أحق بالثورة الشعبية عليه ، فسقط آخر الأربعينات كما سبقت الإشارة ونشأت من هذا الحادث عدة أحداث : قد تكون غير هادفة ، قد تكون ملتوية القصد ، قد تكون ذاتية الغرض ولكنها إحياءٌ للجرأة الموروثة ، وإخصاب

للطبيعة القتالية ، فكانت حروب (صنعاء) ضد الدستوريين عام ٤٨ بمثابة تدريب للانفجارات الوطنية لأن تلك حرب سياسية بين جبهتين قياديتين . من مطلع الخمسينات إلى الثورة ١٩٦٢ انتقل التمرد من الجبال إلى ثكنات الجيش ، فتوالت الأخبار عن تمرد (بلك القناصة) في (إب) ، عن تمرد (بلك داحش) في (ريمة) وكانت هذه الجمرات الصغيرة أول الحريق الكبير الذي تنامت عوامل اتقاده حتى أوصلت إلى حركة الجيش بتعز عام ١٩٥٥م . وكان الجيش هو أدوات القمع (الإمامي) ضد الانفاضات القبلية . هنا نلاحظ ثلاثة تحولات :

١ - تحول القتال العشائري إلى نضال وطني تحرري ضد العثمانيين .

٢ - تحول الغضب القبلي إلى عمل ثوري على مفهوم الأربعينات ، ضد (الإمام يحيى) ثم ضد الثائرين عليه .

٣ - تحول الجيش من آلة سلطة إلى بداية ثورة ضد السلطة ، كما تجلى ذلك في أحداث ١٩٥٥م . هنا أرادت السلطة (الإمامية) أن تعكس الآية ، وتجعل من الشجاعة العشائرية أداة فتك ضد الجيش بعد أن كان الجيش أدوات قمع المواطن ، لهذا كان معسكر (قاهرة تَعِزّ) المكوّن من نقباء غير نظاميين ، العامل الحاسم لإخماد ثورة الجيش بتعز عام ١٩٥٥م . من ذلك الحين بدا اعتماد السلطة على القوى القبلية التي أخمدت انتفاضاتها ببقية الأتراك (وبجنود النظام المستحدثين) كجيش متوكلي في العشرينات والثلاثينات .

من عام ٥٥م اجتاحت اليقظة الوطنية كل قطاعات الشعب ، وبالأخص في المدائن التي تزايدت إليها هجرة الفلاّحين ، وكان الجيش أقرب إلى التأثر بالمدينة ، فبعد أربع سنوات من إخماد الجيش ، حاول أن يقتلع السلطة التي قمعت به ثم قمعته بمثله ، فكانت انتفاضة الجنود عام ١٩٥٩ ثورة نقصتها القيادة

العليا و(المرشات) والبيانات الإذاعية ، هنا استعادت السلطة نفس أسلوبها في منتصف الخمسينات ، ولكن بشكل أوسع ، فاستدعى (البدر) رؤساء العشائر لإخماد ثورة الجنود ، وكان (الإمام أحمد) يستشفي في (روما) ، وعند رجوعه اشتمّ مؤامرة قبلية نسجها التجمع ضد الجيش ، وكانت تريد أن تحوّل (الإمامة) إلى (سلطنات) على غرار وضع جنوب الوطن في ذلك الحين . . فاستغلّ بقية مهابته ، وهدّد ففرّ رؤساء العشائر من (صنعاء) لتأجيج مناطقهم . فاندلعت الانتفاضات في المناطق التي كانت من دعائم (الإمامة) مثل : (حاشد) و(خولان) و(ذو محمد) و(ذو حسين) وكادت هذه الانتفاضات أن تطيح بالعرش ، فاستعاد (الإمام) أسلوب الأربعينات في استعمال الجيش مستغلاً السلاح الحديث والضباط الذين لم يوافقوا الجنود على الثورة عام ٥٩ ، فأخمد التمرد العشائري في بحر تسعة أشهر بالسلاح الحديث وبالقبائل التي لازالت على ولائها إلى حدّ أن كل قبيلة قاتلت شيخها المتمرد أو أعانت عليه . غير أن الإخماد يستولد الاتقاد الأعنف ، فقد استدعى هذا ، عقد تحالف غير مكتوب بين القوى العشائرية وقوى الجيش ضد الحكم (الإمامي) وذلك لخيبة الشيوخ في إقامة سلطنات بلا شعبية في كل منطقة ، ولأن الجيش هو الأقدر على اقتلاع السلطة وإبدالها ، وسيكون أكثر حاجة إلى ولاء الشيوخ .

ومن هذا المنسرب المتعرّج ، تدفق سبتمبر السلاح وفي يمينه مدفع وفي يساره بندقية ، فسبتمبر القتال ينتسب إلى هذه التحولات الاعتراكية على مدة ستين عاماً وأسلافها من التأريخ ، وهذا هو الخط الأول لسبتمبر ٦٢ . وهو لم ينفصل عن غيره من الخطوط ، فلم يكن استعمال السلاح مجرد ألعاب بالنار ، وإنما هو تفاعل تثقيفي بين البندقية الحديثة والإنسان الحديث ، وبين الدبّابة كصنيعة عِلم وبين الإنسان كمتعلم من كل جديد وبين الحس الوطني والعمل الثوري . إذا كان القتال بالرماح والسيوف ، قليل الجدوى الثقافية التقليدية ،

فإن السلاح المعاصر يستدعي ثقافة المحارب ويزيد منها بفعل العدوى بين حداثة السلاح واستعداد الإنسان للتحديث . من هنا يمكن الالتفاف إلى الخط الثقافي الذي كوّن الثائر نفسياً لكي يجيد زمالة السلاح فيتثقف منه ويثقّف به ، فإلى بداية الخط الثقافي لكي نتقصى خطوات سبتمبر الثقافة ، كما تقصينا مسيرة سبتمبر السلاح .

حاول الاحتلال العثماني في غزوته الأولى في القرن الـ ١٦ الميلادي وفي غزوته الثانية في آخر القرن الـ ١٩ وأول القرن العشرين حاول في الغزوتين محو الثقافة اليمنية كما حاول محو الثقافة الشامية والإفريقية ، بيد أن العسكرية التركية ، كانت أجهل من أن تعطي بديلاً لأن عجمتها عاجزة عن إعطاء جديد كبديل عن القديم ، والقديم الأصيل لايمحى إلا باستبداله بأصيل جديد أنضر وأنفع . وكانت العسكرية التركية لاتعرف معاصرة ولاتملك قديماً أصيلاً . لأنها ثمرة طبيعية لانحطاط العصور الوسطى ، فلا تبذر غير الانحطاط ولايحتاج الإنسان إلى مزيد من العلم لكي يميز بين وجه الوطن ووجه المستعمِر ، لهذا ازدهرت الثقافة اليمنية في ظل (الطربوش التركي) كأنجح وسائل المقاومة ، لأن هذه الثقافة كانت خصبة الجذور ، قريبة العهد بالينبوع الحضاري الإبداعي . . وبرغم أنها كانت (ثقافة إمامية) سلاطينية فقد كانت الإمامة في عهد الاحتلالين الوجه القيادي ضد المحتل ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فإن (العلوية) من ثورة (كربلاء) ظلت الزعامة الشعبية والثقافية النضالية . . لأن ذرية شهداء (كربلاء) كوّنت حزب الشعب في وجه السلطات المتعاقبة من (معاوية بن أبي سفيان) إلى السلطان (عبد الحميد) وإن تحوّل بعض أئمتهم إلى سفاحين في (القيروان) و(القاهرة) و(صنعاء) . فإن أكثرهم اتقدوا كالمصابيح في ليالي الكادحين وبالأخص أئمة العلم الذين لم يحكموا : كيحيى ابن حمزة في القرن السابع عشر الهجري وأحمد بن يحيى المرتضى في القرن

الثامن عشر الهجري الذي انكسر سياسياً لينتصر فقهياً ومنطقياً . وكانت (الثقافة الشعبية) رغم لاهوتية إماميتها موسوعية مستوعية كل الفلسفات وكل علوم الثورات ، وكانت (اليمن) تمد الجانب (الجارودي) من مذاهب التشيع رسمياً كما كانت ضد الجانب (الإسماعيلي) و(القرمطي) شعبياً . وعندما أرادت الزعامة الارتكاز على قاعدة ثقافية تبنّت (الزيدية الهدوية) وجارت بقية المذاهب الفكرية والفقهية في ظل الاحتلال حتى جلاء المحتل . من ذلك الحين أخذت تضطهد أتباع المذاهب الشيعية الأخرى ، وتقرّب الموالين من أهل (السُنّة) . كما أخذ رجال السنّة يتعلمون الفقه (الزيدي الهدوي) ويعلّمونه ويحكمون بمقتضاه في المحاكم الرسمية ، وفي الإصلاحات الخصومية فانتعشت (الثقافة الزيدية الهدوية) من منظور رسمي . فأمر (الإمام يحيى) بنشر الكتب الفقهية وأخرجتها آخر دور الطباعة ، وتقررت في المدارس الرسمية وفي المساجد وكان كتابا (البحر الزخّار) لأحمد بن يحيى المرتضى ، و(الأزهار) له أيضاً ، دستور الحكومة وعمدة (القاضي) في كل مناطق (اليمن) وليس في المناطق الجبلية كما رأى الدكتور (العطّار) الذي اعتبر (المحاكم الشافعية) تختلف عن (المحاكم الزيدية) مذهباً .

فقد كان تعليم الفقه (الزيدي الهدوي) والحكم به المؤهل الوحيد للقاضي ، حتى القضاة من المناطق الشافعية كانوا من المثقفين (هدوياً) كآل الحداد وآل المفتي من (إب) وآل السماوي من (عتمة) فكل هؤلاء كانوا من خريجي (دار العلوم بصنعاء) أو من (المدرسة الشمسية بذمار) أو من تلاميذ (جامع رضوان) أو من تلاميذ آل الشبيبي (بذي حُود - آنس) أو (دفينه بعنس) أو قضاة (الغرس) و(الأعروش) بخولان . على أن الفقه (الزيدي الهدوي) لم يكن كله من تأليف (زيد) و(الهادي) وإنما ألف فيه وأضاف إليه علماء غير هاشميين (كحسن الشبيبي) صاحب (المعتمد) و(ابن حريوه)

مؤلف (العدة) و(علي خليل) (مقرر المذهب) و(زيد الغرسي) صاحب (آية التمام على أصول الاحكام) و(ابن بهران) (صاحب الدرر) و(أحمد العنسي) صاحب (التاج المُذهب) وكثيرون غير هؤلاء بالإضافة إلى جمهرة شعراء التشيع من أمثال (ابن القم) و(سلطان حجور) و(عمارة اليمني) و(ابن هتيمل) و(الهبل) و(أحمد الزنمة) . .

من هنا يتبين أن الفقه (الزيدي الهدوي) ثمرة أقلام يمنية وثقافة وطنية . وبالأخص إذا عرفنا أن كبار رجال الفكر كانوا ضد الحاكمين من الأئمة الطغاة .

لهذا أخذ (الإمام يحيى) من مطلع العشرينات يتبنّى نشر الفقه ويحاول طي كتب الفكر بما فيها فلسفة (الإمامة) . غير أن طلاب (دار العلوم) بصنعاء وجامع الهادي بصَعْدة كانوا يقرؤون الفلسفات في بيوت خاصة ، فَرُبِّيَ طالب العشرينات على الجدلية وعلى النقاش المذهبي وكان (الإمام) يتغاضى عن النقاش مالم يصل إلى الوضع القائم بالنقد والتجريح .

إذا كانت كتب الفقه أبرز ثقافة العشرينات ، فإنها قد استدعت وسائل فهمها من علوم اللغة والآداب العربية والتواريخ العامة والخاصة ، فاتسعت دائرة الثقافة واختلطت بالتعليم ، وأصبح الفقيه شاعراً ، كما كان الشاعر فقيهاً ، كيحيى الإرياني رئيس محكمة الاستئناف وعبد الكريم مطهر كاتب الشوؤن الخارجية ويحيى الذاري قاضي (يريم) وزيد الموشكي قاضي (شرعب) وعبد الله العزب قاضي (حيس) . وهؤلاء امتداد لأشباههم من العصور العباسية والهدوية .

وكانت الكتب القديمة الخاصة بالأدب وتأريخه إلى جانب الكتب الفقهية في المدارس والمجالس . فنشب الصراع الفكري بين أدب البديع وأدب الفطرة الجاهلية ، كما احتدم حول (علي) و(معاوية) . فكانت العشرينات زمن

(الجدل الماضوي) بشقّيه اليميني واليساري .

ومن مطلع الثلاثينات تبازغ جيل أكثر حداثة وأحدث أدباً يجمع الجدل السياسي بالجدل الفقهي ، فأرادت السلطة أن تقوي جانباً آخر فنشرت بعض كتب (السُنّة) التي كانت شبه محظورة من أمثال : (الدر المضيئة) و(نيل الأوطار) للشوكاني . ومن أمثال : (سبل السلام) للأمير ومن أمثال : (الروض الباسم) للوزير . ومن أمثال (البحوث المسددة) للمقبلي . إلى جانب بعض الكتب التأريخية (كالبدر الطالع) للشوكاني . فلماذا التفتت السلطة إلى كتب السُنّة في الثلاثينات . . ؟!

كان ذلك لسببين :

١ - مسالمة رجال السُنّة .

٢ - إضعاف الجدل الشيعي لامتزاجه بالمعاصرة السياسية ، ولخوف عدواه إلى جدل حياتي .

مهما كان الأمر فإن العشرينات أول حركة ثقافية تعليمية مهما كانت رسمية خالصة السلفيّة فقد أدى اتساعها في الثلاثينات إلى نشر كتب السنّة ، وقد انتفعت السلطة برجال السنّة كدعاة إلى الرضى بالمقسوم والصبر على الظالم (مالم تروا كفراً بواحاً) .

غير أن هذا الاتجاه أدى إلى العكس ، فقد كانت طليعة المناوئين من لامعي رجال السنّة (كأحمد عبد الوهاب الوريث) و(حسين الدعيس) و(علي ابن حمود كوكبان) و(حسين الكبسي) أليس هذا غريباً . . ؟!

قد لايكون غريباً إذا عرفنا أن المعرفة تهدي إلى المزيد منها ، فيتأسس الجديد على أنقى أصالة القديم ، فلم يكن هؤلاء السنّيون المتنورون مغلقين أمام العصر أو منقطعين عن أصولهم ، وإنما كانوا أكثر انفتاحاً على الجديد المتطور

عن قديم مثل : كتب الشيخ (محمد عبده) المنتمي إلى (المعتزلة) ومثل : كتب (شكيب إرسلان) المتطورة عن قديم والممزوجة من الأدب والدين ، فما سبب هذا ؟. لعل أهم الأسباب : كون الحكومة شيعية فشكّل النقيض نقيضه ، فتزعم بعض رجال السنّة الثورة على (الإمامة الشيعية) . لا لأنها شيعية ولكن لأنها جائرة ، إنما متى دعا السنّيون إلى صراع الجور ؟ . انهم يرونه خيراً من الفوضى ويوصون الناس بالدعاء للجائر بالهداية وعطف قلبه كما روى (الصحيحان) ، أو كما قال ابن كثير : « إن جور الحاكم مدة عام أهون من فوضى يوم » .

ألا تبدو سنيّة آخر الثلاثينات عند بعض الوجوه في بلادنا مختلفة عن سُنّة (ابن حنبل) و(ابن تيمية) ؟. نعم ، ولكن ما السبب ؟! .

السبب أنها سنّة على أصل شيعي ومن نبت مجتمع ينتمي إلى العراك التأريخي ، فكان الوسط والوراثة والاصطراع التشيعي وجدلية المجتمع أغلب من أوراق كتب (الأمهات الست) . فلم تكد الثلاثينات تطوي صفحاتها ، حتى أصدر (الوريث) مجلة (الحكمة) عام ٣٩م كأول منبر رسمي إصلاحي نضالي . فمزج ذلك الجيل الأصالة بالمعاصرة والسلفية بظروف الحرب العالمية الثانية .

انطوت (الحكمة) في مطلع الأربعينات ، لكي يستجد لون آخر من الثقافة . ذلك هو الفن التأريخي ، ورغم اقتصاره على سِيَر (الأئمة) ومن نبغ في عصورهم من المادحين والمؤلفين ، فإنه قد أرّخ للثوار على (الأئمة) عن طريق التنديد بهم لعصيانهم كالمطرّفية ، والشيخ المحطوري الذي نعته (مهدي المواهب) بالساحر .

شكلت هذه الإضافة التأريخية سبباً آخر للتساؤل عن الثورة وسبب خروج الخارجين ، بالإضافة إلى هذا ، دخلت الكتب الجديدة المتطورة عن قديم

كـ (نظرات المنفلوطي) و(طبائع الاستبداد للكواكبي) ، إلى جانب دواوين (شوقي) و(حافظ) و(الرّصافي) و(اليازجي) . تبدّت الأربعينات زاخرة بالثقافة وأخبار الحرب والتغيرات المنتظرة بفعل الحرب ، فاستجدت ملامح جديدة في التعابير الشعرية عند (الزبيري) وفي المضامين الحديثة عند (الموشكي) وفي الأساليب الخطابية المنبرية عند (علي عقبات) و(محمد أبي طالب) ، و(علي الحضرمي) خطيب الجامع الكبير أيام الإمام يحيى إلى نصف عهد الإمام أحمد ، فانتقل جدل المجالس والمساجد من مسائل (النحو) و(الفقه) إلى (هتلر) و(الحلفاء) . ولكن هذا الجدل المعاصر وليد الجدلية القديمة التي ركّبت في مثقفينا طرح كل فكرة (للنقاش) بلا تقبّل أبله ، وبلا عناد بليد . لأن مجتمع تلك الفترة كان آتياً من أرومات خصبة عودته على المطارحة والبحث عن جمال الحقيقة ، وأثمرت كل المحاولات والتحولات بنضجها وفجاجتها . وهناك انتكست كل تلك المحاولات لكي يرين الذهول على كل نأمة ونسمة مدة أربعة أعوام إلى أن قرعت الأسماع ثورة (٢٣ يوليو بمصر) . فانبعث كل دفين في النفوس اليمانية ، لأنها معبأة بشعور الثورة ، فلا تحتاج إلا إلى أقل القبسات لكي تحتدم بما فيها ، فانتقلت الجدلية في مجالسنا وأسواقنا من (الحلفاء) و(المحور) إلى (الجمهورية) و(الملكية) في اليمن ، لأن الجدلية من نسيج ثقافتنا ومن عروق وجودنا . هناك استجدت ثقافة أو بالأحرى انبعثت ، فإلى جانب تواريخ الأئمة خرجت كتب الحضارة القديمة وبعض الأشعار الشعبية من أقبية الصمت ، لأن (الإمام أحمد) أراد أن يواجه اكتساح التيار (الثوري الناصري) بالخصومات الإقليمية وباستثارة الحسّ المحلي ، فصدر الجزء العاشر من (الإكليل) وسمحت السلطة بدخول رواية (بلقيس ملكة اليمن) لأميل حبشي وأمثالها : من نوع (قصة وضّاح) و(ملوك حِميَر) كما أوعز (الإمام أحمد) إلى (عبد الرحمن الآنسي) وتحقيقه وشرحه . وكلّف (إسماعيل الجرافي) و(وعلي المؤيد) بنشر قصيدة (نشوان

ابن سعيد الحميري - في تأريخ ممالك اليمن القديم) .

وكانت هذه الثقافة توازي نشر تواريخ الأئمة من أمثال : (نشر العرف ونيل الوطر) لزبارة ، و(تأريخ اليمن) للواسعي و(المقتطف) للجرافي . فكادت ثقافة الثلاثينات والأربعينات أن تتعطل ، وقلّ الإقبال على كتب الفقه (الزيدي والهدوي) وسائر التراث غير اليمني لكساد سوقها ولقلة مذاكراتها في المجالس . فقد أخذت كتب (الإحياء) تستحوذ على الاهتمام وبالأخص ديوان (الآنسي) والجزء العاشر من الإكليل مجموعة (مبيتات وموشحات) للشاعر محمد عبد الله شرف الدين الذي طبع في القاهرة . إلى جانب هذا نشأت صحيفتان بتَعِزّ في عامي ٥٣ و٥٤ : (النصر) و(سبأ) .

ولعل نشر صحيفة بعنوان (سبأ) التي بدأ صدورها في (عَدَن) عام ٤٦ باسم (الشباب) ثم انتقلت إلى (تَعِزّ) أحر إثارة للحس اليمني ، فما كان يجرؤ أحد أن يتحدث عن (سبأ) و(معين) إلى جانب (المنصور) و(المتوكل) و(القاسم) . غير أن الزمن تغيّر ، وحاولت السلطة امتلاك قياده ، قبل أن تسبقها طلائع الشعب إليه إلى حدّ أن (الإمام أحمد) سمى الطائرات بأسامي يمنية : بلقيسْ ، شبام ، ظفار . . بالإضافة إلى الباخرة (معين) ، ولكن السلطة (الإمامية) نظرت إلى القشرة الخارجية للواقع ، دون أن تسبر أغوار الشعب وبواطن الواقع ، وهذا كل مقدورها على الحس التغيري في شطري اليمن .

ففي الوقت الذي كانت تنشر فيه السلطة أثر الأجداد لتهدئة الأحفاد ، كان الشطر الجنوبي يشكل التنظيمات وتصدر صحيفة لكل تنظيم كصحيفتي (العمال) و(الأمل) الأوسع اهتماماً من صحيفة (فتاة الجزيرة) و(القلم العَدَني) . إلى جانب هذا طرأت مفاجأة وهي : افتتاح (محطة عَدَن للإذاعة) عام ١٩٥٣م . فحاول (الإمام) اللحاق بالعصر ، فامر ببناء إذاعة عالمية (بصنعاء) لم يتمكن من افتتاحها إلا في مارس ١٩٥٦ ، فدلّت على معاصرة

السلطة وزادت من نشاط الثقافة لأن الإذاعة اللاسلكية بصنعاء التي كانت تذيع مرتين في الأسبوع مقدار ساعة توقفت نهائياً عام ٤٩ فكانت بديلتها أقوى لكي تقاوم أثر الإذاعات الناصرية . ففي هذا الوقت تجاوز (المدّ الناصري) تخوم (مصر) وبالأخص بعد العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ فتفجرت المظاهرات الناصرية في (سوريا) و(العراق) و(الكويت) و(عَدَن) . وتوالى انفجار الثورات فسقط عرش بغداد عام ٥٨ واستقلت الكويت عام ٦١م ، وارتعشت قوائم الاستعمار على أرض جنوب الوطن .

وفي عام ٥٨م ، أراد (الإمام) أن يؤكد تحرره فبعد أن استورد الأسلحة السوفييتية عام ٥٧م وتبنّى تحرير الجنوب ، انضم إلى اتحاد الجمهورية العربية المتحدة عام ٥٨ من قبيل (قارب الخوف تأمن) ، فعلى رغم ذلك الإعلان الوحدوي ، ظل (الإمام) يواصل استنفار الحسّ المحلي عن طريق الإثارة الثقافية اليمنية كإذاعة الأغاني المحلية والأمة اليمنية في الكتابات الصحفية والكتابات عن شعراء اليمن خاصّة ، فانتقل الشوط من الإحياء إلىٰ التأليف . فأصدر (حسين الويسي) كتاب (اليمن الكبرى) عن إيعاز (أحمدي) لأن المؤلف من ثمرة العهد ، وكان كتابه يعنى بالمناطق ومزروعاتها ، فشكّل امتداداً لصفة الجزيرة العربية للهَمْداني من مؤرّخي القرن العاشر ميلادي كما أصدر (أحمد حسين شرف الدين) كتاب (اليمن عبر التأريخ) ونشره عام ٦١ باللغة الإنجليزية ، ثم بالعربية في أواخر عام ١٩٦٢م . وكان هذا الكتاب عرضاً تأريخياً لممالك اليمن وحضارته وللأئمة وتوالي عهودهم ، كما نُشِرَ في نفس الفترة الجزء الأول (من تأريخ اليمن السياسي) لمحمد يحيى الحداد .

ألا تتبدى القسمات المختلفة للخط الثقافي من كتب الهداية في العشرينات والثلاثينات . . . إلى تواريخ الأئمة في الأربعينات وبداية الخمسينات ، إلى التأريخ اليمني الخالص من منتصف الخمسينات إلى صبيحة الستينات . إلى

جانب ديوان الآنسي وديوان شرف الدين ونشر صحيفتي (سبأ) و(النصر) إلى جانب (الإيمان) التي تأرجحت بين الاحتجاب والسفور حتى احتجبت نهائياً عام ١٩٥٩ .

تألّق الشعر الوطني يواكب التيار الزمني والثقافي من مطلع الأربعينات إلى مطلع الستينات ، ثم عززته الكتب السياسية المباشرة ليمنيين وأجانب من أمثال (معارك ومؤامرات ضد قضية اليمن) لمحسن العيني . و(كنت طبيبة في اليمن) للدكتورة كلودين فاين ترجمة محسن العيني أيضاً و(رسالة من الجحيم) لقاسم غالب و(الجزيرة العربية تتهم حكامها) لجانك بيري و(القضاء في اليمن) لأحمد المعلمي . وتوالى صدور صحيفة (صوت اليمن) من القاهرة حتى حجبتها الوحدة بين مصر وسوريا عام ٥٩ وانضمام اليمن الملكي إليها عام ٥٨ .

إن هذا الخط الثقافي بماضويته ومعاصرته ، وخليطه المنسجم والمتنافر لم يشكّل من الثقافة دليلاً نظرياً لثورة ولانظرية حكم من أي شكل وإن كوّن عن وعي أو غير وعي التيار السبتمبري الوطني ، فكان المنسرب الثاني الذي تتدفق منه سبتمبر الثورة .

إلى جانب خط السلاح وخط الثقافة ، كان هناك الخط السياسي الذي تمخض عن الثقافة ، فعبر بها وعنها ، على إمكانية التغيير .

وبالرجوع إلى بداية هذا الخط ، يمكن تحديده بعام ١٩٨٩م . فقد لاحظ (الإمام أحمد) أن سقوط والده كان لتجاهله العصر نتيجة حذره الشديد من التوغل الأجنبي تحت أي اسم ، فاستوعب (أحمد) مطالب الدستوريين ، وكان أهمها الاتصال بالعالم ، الحرية التجارية ، المزيد من التعليم ، تنظيم حكومة . من هنا اختلف (الإمام أحمد) عن والده بمقدار اختلافه عن زمانه ، ففتح

سفارات يمنية في عواصم العالم ، واستقبل سفراء من عواصم العالم ، بعد الانغلاق الذي كرّس له والده ، الذي لم يفتح سفارات ولم يبعث سفراء وإنما اكتفى بالاتفاقيات التجارية مع الاتحاد السوفيتي وإيطاليا الفاشية كعدوين لبريطانيا الجاثمة على جنوب الوطن ، إلى جانب علاقة عادية مع فرنسا ، وعلى العكس فعل (الإمام أحمد) : استقبل السفير السوفييتي كما استقبل السفير الأمريكي والإنجليزي وكانت أولى السفارات سفارة مصر الملكية بصنعاء عام ٤٩م .

ثم توالى افتتاح السفارات كبرهان على الانفتاح وتوديع الانعزال الذي كان أهم مغامز (الإمام يحيى) عند الأحرار ، وعبارة (الانعزال) تثير التداعيات .

فماذا استفاد الجيران من الانفتاح ؟!

لقد اكتسحتهم شركات فاستخرجت ثرواتهم نيابة عنهم وأثرت بالنيابة عن الشعب ، وإن أتخمت الأقلية العليا على حساب الشعب الذي مايزال إلى اليوم يسكن الخيام وبيوت الصفيح والبراميل .

فلم تكن العزلة إحدى عيوب العهد (اليحيوي) بل كانت أعظم الحصانات لشعبنا من شركات الاحتكار ومن أسواق بيع الإنسان .

ومع هذا نجح (أحمد) في تفنيد دعاية الانعزال فاتصل بالعالم حتى تجاوز وقار (الإمامة) ومحاذر الجيران ، فاستقدم الخبراء السوفييت لبناء ميناء (الحديدة) والفنّيين الصينيين لشَقّ طريق الحديدة صنعاء واستقدم صفقات الأسلحة عام ٥٦ و٥٧ ، بل واتحد مع (الأنظمة الثورية) عام ٥٨ . هذا من الناحية الدبلوماسية مع الخارج . ومن ناحية السياسة الداخلية عيّن وزراء ونواب ألوية من الطبقة الوسطى باستثناء وزارة المواصلات التي ظل فيها القاسم ابن الإمام إلى موته عام ٥٦ ، كما أتاح حرية التجارة إلى حد التغاضي عن المحظورات (إمامياً) بما في ذلك الكتب الثورية ، كما افتتح المدارس

الأحمدية (بتعز) و(حجة) و(الحديدة) . فتزايدت أعداد الثانويات والمتوسطات إلى جانب دار العلوم .. وكان طلاب هذه المدارس ، البراعم الواعدة بالثورة .

فقد كانوا صوت الوطن وصيحة ضميره كما شكّلوا نواة التنظيمات السياسية من مستهل الستينات إلى الآن ، لأنهم نشؤوا تحت ضوء جديد ، فأشعلوا المظاهرات الحاشدة عند نداء وطني : تظاهر طلاب تَعِزّ احتجاجاً على إعدام (الثلايا) ورفاقه ، كما تظاهروا على العنف الذي عاناه (عبد الله اللقية عام ١٩٦١) .

وفي مايو عام ٦٢ . اصطخبت مدائننا بأعنف مظاهرة ثورية قاد طلائعها الطلاب والخريجون محلياً وخارجياً ، وكانت تلك المظاهرة الزحف إلى أبواب ثورة سبتمبر ، فبعدها بثلاثة أشهر ، لبّت مدافع الثوار صيحة ملايين الشعب اليمني ، وهذا هو الخط الثالث الذي تدفقت منه سيول سبتمبر العظيم .

إن شعبنا أعظم من كل المحن وأعنف من كل عنف ، لأنه تجاوز كل الكوارث إلى العافية الخضراء ، داس قوة القمع إلى استئصال القامعين ، وتجاوز الجهل كما تجاوز التجهيل باسم العلم ، وأعظم معارفه هو اكتشاف نفسه ودوس المغريات التي حاولت شراءه .

واليوم وذكرى سبتمبر تقترب من مهرجان الأضواء ، لاتدهشنا القناديل الملونة عن رحلة هذا القادم : وعن التساؤل من أي الينابيع تفجرت أمواجه النارية ؟

لقد حاولت هذه السطور أن ترافق سبتمبر الجنين إلى سبتمبر الوليد الثورة في رحيله الطويل على ثلاثة خطوط :

١ - الخط البطولي .

٢ - الخط الثقافي التنويري .

٣ - الخط السياسي المباشر .

ومن هذه الممرات الصعبة ، عبَرَ سبتمبر ستين عاماً إلى أن أهلّ وجهه الفجري ليلة الـ ٢٦ من سبتمبر عام ١٩٦٢م .

فهل هنا نهاية المطاف . . أم هنا بداية السير الأعنف . . والطريق الأخطر . . ؟

نقف هنا بين نهاية أصبحت بداية ، وبين بداية نرصد خطوها من سبتمبر ٦٢ إلى سبتمبر ١٩٨٠م .

ولعل هذا الرحيل مع الزمن وفيه ، يعرّفنا ماسوف يأتي من التسعينات على ضوء ماأتى إلى الثمانينات . وبمقتضى سُنّة الحياة فسوف نرى أن الآتي من آخر الثمانينات وأول التسعينات مغاير من كل وجوهه بمقدار ماغاير سبتمبر مأتاه الذي انصب منه ، ومجراه الذي تصاعد منه وتحدّر فيه .

وبمعرفة ماكان ، يمكن رؤية ماسوف يكون ، لأن كل بديل يخلق بديله بالضرورة ، وربما امتد منه ، عن مغايرة له ، وربما كان معاكساً لمقدمته لغياب الانسجام بين المقدمة والنتيجة . . ولايأتي من العكس إلا الأكثر عكسية .

هذه رحلة إلى سبتمبر الثورة ووقفة خاشعة أمام سبتمبر ذكرى الثورة .

* * *

من اليمن المنشود إلى الجمهورية الرابعة

حاول البحث السابق أن يتتبع خطوات سبتمبر الحلم إلى سبتمبر الإمكان ، ثم إلى سبتمبر الواقع . . إذا كان سبتمبر الحلم والإمكان وليد معاناة ستين عاماً ، فإن سبتمبر الواقع كان امتداداً لمعاناة ثمانية عشر عاماً ، اجتاز سبتمبر الإمكان ثلاثة خطوط :

الخط القتالي الوراثي المتطور ، الخط الثقافي المتنافر المنسجم ، الخط السياسي المباشر . . فهل اختلفت خطوط سبتمبر الواقع عن ممرات سبتمبر الحلم والإمكان ؟ .

لابد أن تختلف الجسور باختلاف العابرين ، لأن طريق الوليد تمتد من قدميه ، ومن آثار الطريق الأول على قدميه . لهذا اجتاز سبتمبر الواقع ثلاثة خطوط ، كسبتمبر الإمكان والحلم . . قاتل بالسلاح السلطة المسلّحة حتى اقتلعها ، ثم واصل نفس الخط مدة ثماني سنوات في قتال أشباح البائدين .

من هنا نواكب سبتمبر القتال ، أو نتقصى الخط الأول من خطوطه التي وصل إليها ، لكي نتلمس الفروق بين الطريق التي تدفّق منه ، وبين الطريق التي تدفق إليه ، ورغم انتماء الطريقين إلى الأصالة القتالية التي تحولت من عشائرية إلى وطنية ، فإن الخط السبتمبري على امتداده أكثر اختلافاً من حروب التحرير ضد العثمانيين ، ومن الحركات الدستورية والتمردات العسكرية والانتفاضات القبلية التي ملأت الخمسينات . . لأنه أتى حاملاً على كتفيه اليمن الجمهوري البديل عن اليمن الملكي ، وهذا الحدث يميز سبتمبر عن كل الحركات التي

تمخّض من خلالها ، وإن كان لم يتخلّص كلياً من آثارها ، لأن كل نقيض يحمل بعض سمات نقيضه بفعل المقاومة له ، والعدوى من آثاره ، فكل مقاوم يناقض قريعه ويحمل منه بعض العدوى ، لأن النقيض من فعل جدلية زمان واحد .

كان سبتمبر الخمسينات إمكانية تحاول تحقيق واقعيتها ، وكانت سلطة الخمسينات تحاول استحالة تحقيق الممكن . . كان السبتمبريون يحلمون بالستينات ويعاركون الخمسينات ، وكانت السلطة تحاول أن تتشكل بشكل الظروف ، لكي تبتلع الممكن قبل أن تحققه ، وكانت النزعة القتالية وراثية ممتدة في الحكم الذي ينبغي أن يسقط ، وفي الحكم الذي ينبغي أن يقوم ، فقد جاء (الإمام يحيى) إلى الحكم على أكتاف الثورة ضد الأتراك ، ثم سقط بثورة تحاول تحقيق الحكم الدستوري ، وجاء (الإمام أحمد) محمولاً على كتف الثأر لوالده (من البغاة) ، ثم سقط على يد ثورة إفرادية تحاول خلق البديل عن (الإمامة) . . فالطبيعة القتالية اليمنية متسلسلة التوارث في الحاكم والمحكوم ، فقلما وصل (إمام) إلى العرش على ظهر المبايعة وحدها ، وقلما نزل (إمام) غير قتيل في حرب ، وقد كان (الإمام أحمد) أشد ميولاً إلى القتالية لسببين :

السبب الأول أنه وصل إلى الحكم على حدّ السيف عام ٤٨ .

السبب الثاني أنه كان يريد أن يستوفي شروط إمامته بأساطير البطولة ، فلم يخض أي قتال من وراء المكتب كقادة الجيوش ، وإنما كانت القيادية عنده تقدم الصفوف في المعركة كتقليد يمني امتد إلى حروب الثورة ، طبق هذا عملياً في معركة (صَعْدة) و(حاشد) و(الزرانيق) ، حتى أصبحت أساطير بطولته حديث النصير والعدو ، وتوّج كل هذا بخروجه في مارس ٥٥ متحدياً جيشاً كاملاً حتى أسقط الانقلاب بأسرع مما أسقط الانقلاب الدستوري ٤٨ إذ لم يتجاوز انقلاب عام ٥٥ خمسة أيام مطوية على احتمالين ، كان أقربهما سقوطه ، وكان الثوار عليه على نفس المستوى من الشجاعة ، فما استسلم أحد إلا للاستشهاد ، غير

أن الظروف تغيّر البطولات بتغيّر علاقات المقاتل بالسلاح ، وهدف المقاتل من استعمال السلاح . . . والهدف الاجتماعي ينتزع بطولة الفرد إلى بطولة الشعب . . .

فلم يعد الثوار مجرد أبطال مقاتلين في الخمسينات وما تلاها ، وإنما تحولوا إلى شعب ثائر عن طريق التوعية السياسية ، لأن المغامرات البطولية لاتكفي من فرد إلا إذا كان معبراً عن شعب ، وإن امتد التقليد القتالي عند القائد والمقود .

لهذا تغاير تفكير الثوار وتفكير الحاكم ، أخذ الثوار يؤلفون الجماعات ويناقشون الوضع .. حتى أوصل هذا التفكير إلى نشوء التنظيمات في آخر الخمسينات ثم إلى تحالف بعض التنظيمات وبعض العسكرية في أول الستينات ، غير أن هذا غير كاف ليحل محل القتال ، لأن ذلك النظام قد جاء من القتال إليه فلا يمكن أن ينزل عند رأي شعب ، ولا أن يرى عنه كما يريد . . فكان استنفار النزوع القتالي هو العامل الحاسم لإسقاط السلطة القتالية ، أو إسقاط أعلاها رأساً .

لهذا تحتمت المغامرة الفردية عن حسّ جماعي فأراد (سعيد ذبحان) قتل (الإمام أحمد) كحل لقضية الشعب كلها عام ٦٠ فأخفق ولم ينم إصرار الشعب ، لأن اقتلاع رأس السلطة اقتلاع للحاجز الذي يحتجز سيول الجماهير . . .

فقام (اللقية) و(العلفي) و(الهنداونة) بالمحاولة الثانية بعد سنة من إخفاق (ذبحان) فأخفقوا وأنجحوا مهمة من بعدهم ، فبعد عام ونصف العام سقطت (الإمامية) بعنف السلاح الذي تفهم لغته ، ولم تدم إمامة (البدر) بعد أبيه (أحمد) إلا أسبوعاً واحداً كان آخر أيامه ليلة الثورة ، وانتهى جانب من

الخط القتالي السبتمبري ، لكي تستهل الدورة التأريخية مسيرتها على دوي القذائف .

هنا تبدو قسمات الفروق بين الثورة اليمنية وسواها ، كل الثورات العسكرية التي تفجرت في تلك الفترة أنهت مهمتها القتالية بإذاعة أول بيان من مذياع العاصمة ، أما ثورة سبتمبر اليمنية فإن إعلان أول بيان كان بداية حرب ثورية نتيجة فرار (البدر) وتبييت نية العدوان عند الجيران ومن وراءهم .

لقد قام اليمن الجمهوري وسقطت (الإمامة) كحكم وقامت كحرب ، وعادت الطبيعة القتالية إلى عنفوانها عند المعسكرين ، رغم تغاير المبادئ بين الوجه الثوري الدفاعي وبين الوجه العدواني الرجعي بيد أن كلا المعسكرين من سلالة القتالية اليمنية ، عززت هذه الوراثية سموّ المبادئ عند الثوار وطمع الارتزاقية عند أتباع البائدين ، فتواصل الخط القتالي بين المبادئ الوطنية المسلحة وبين الارتزاق المدجج والمسنود بثروات القصور وتخطيط الاستعمار ، وتبدى الانتصار الحاسم في استحالته كطائر (العنقاء) لشجاعة المعسكرين رغم اختلاف الثورية عن الارتزاقية ، لأن إرادة امتداد الحرب كانت أكثر إغراء لاعتمادها على مصلحة عند المرتزق ، ولاعتمادها على انتصار الشعب عند الثوار .

فكيف يرى المرء صورة حرب الستينات ؟ .

هل ينسبها إلى الحروب القبلية .؟ إنها تختلف عنها فقد كان ينقسم البيت الواحد إلى انتماءين :

ثوري ورجعي . . فلم يكن لها أي ملمح قبلي .

هل هي ملكية وجمهورية .؟

لم يعد للملكيين أمل في عودة الملكية ولكنهم يقاتلون ، ولم يكن هناك

خوف على الجمهورية ولكنها تقاتل وتخاف من نفسها عليها .

فهل لاح وجه الوطن المنشود من خلال الدخان .؟

لاشك أن هناك أصابع استعمارية كانت تستغل الجو الحربي لإضعاف اليمني كيمني مهما كان انتماؤه ، والغاية من هذا غياب اليمن المنشود ، وتجذير الواقع القائم تحت أي راية ، باعتبار أن الاستعمار سيتعامل مع أي نظام أقرب إلى الاعتدال أو أقل خطورة على المصالح الاستعمارية في المنطقة ، وقد تعرت هذه النوايا من خلال دعم البائدين من جهة ومن خلال المناورة في الاعتراف بالنظام الجمهوري .

اعترفت الولايات المتحدة الأمريكية بالنظام الجمهوري بعد شهرين من قيامه ، وكان الاعتراف كمظلة لاستغوار الداخل عن كثب ، ومن آخر ٦٤ أصبح السلاح الأمريكي في أيدي الملكيين أكثر من الحصى ، أما بريطانيا وفرنسا فلم تعترفا بالنظام الجمهوري إلا بعد التصالح في بداية السبعينات ، لكي تجدا موقع ترقب لثورة الشطر الجنوبي من الوطن .

إذن فلم تكن الحرب أهلية إلا سلمياً ، ومجرد التسمية سببت امتداد المدة القتالية كأصالة يمنية تمارس مهنتها ، ورغم استعمارية العدوان فإن تواصل الحروب زاد من قوة عضلات الثورة والثوار ، فتسلحت بالمبادئ الوطنية إلى جانب السلاح ، وعندما تأكدت خطورة هذه المبادئ تنوعت وجوه المحاربين ، فتزايدت أعداد المحاربين القدماء الأوربيين في مواقع البائدين ، وشكل الانتهازيون من الجمهوريين متاريس داخلية ضد الثوار الوطنيين ، والتقى الانتهازيون والبائدون في نقطة واحدة : القضاء على الثوار المبدئيين . .

وكان هذا التهادن بين الانتهازيين الجمهوريين ، وبين المتميلكين شبه تحالف ضد الثوريين لأنهم عقبة في وجه التصالح .

من عام ٦٤ إلى ٦٧ تشكّلت الحرب في ثلاث جبهات : ثوريون ، ملكيون ، متآمرون من الطرفين . . وقد أدى هذا التآمر إلى حصار صنعاء عام ٦٧/٦٨ بنية الضغط على المحاربين الثوريين لا على رؤوس النظام النوفمبري أو أعمدة الجمهورية الثانية باعتبارهم أربعينيين جاؤوا إلى سبتمبر على متن الدخان ، لكي يتآمروا في ظله فشكّلوا غياب الوطن المنشود ، وشكلوا امتداد الذي يكون من الذي كان . . ومع هذا لم تتخل الأصالة القتالية عن أي فريق ، إلا أن المبدئيين كانوا يعاركون عن دافعين : انتصار المبادئ وانبجاس الوطن المنشود من الوطن التطوري . . وعندما بدأت الحرب تخفت اشتبك الجيش الجمهوري بالجيش الجمهوري في أغسطس عام ٦٨ وكانت المدافع الملكية إلى جانب الدبابات الجمهورية تقصف مواقع الذين حاصروا الحصار الملكي ، وعلى عنف التحالف لم تخمد نزعات القتال وإنما انتقلت المواقع إلى مناطق أخرى ، فاستدعت عدة حملات على امتداد السبعينات ، ولم يتميز غالب ومنهزم ، بل ظلت المعارك تنشب وتخبو على مقتضى الدواعي .

إذن فسبتمبر القتال متعرج الخط ، مختلف الحرب مختلف المحاربين ، بفعل تغاير مبادئ وغياب مبادئ .

فهل الطريق التي تدفق إليها سبتمبر هي نفس الطريق التي تدفق منها ؟

إنَّ اختلاف العابرين غيّر لون الطريق بلون خطواته ، فكانت الخطوط التي ابتدأ منها سبتمبر تختلف عن القنوات التي تدفق عبرها - رغم الانتماء الجذري - فقد حقق قيام اليمن الجمهوري كبديل شرعي عن اليمن الملكي ، وأدت الظروف المتغيرة إلى حروب مغايرة لكنها تنتسب إلى القتالية اليمانية وإن اختلفت وجهة ووجوهاً . . المهم أن انفجار سبتمبر شكل نقطة تحول في المجرى العام ، لكنه لا ينفصم عن أصول تحوِلِه لتعرجه منه ، إن الخط القتالي

لسبتمبر مواكب لخطوات الثورة من ميلاد الجمهورية الأولى إلى ضفة الجمهورية الرابعة . . هذه هو الخط القتالي .

فهل هو بمعزل عن الخط الثقافي والخط السياسي المباشر ؟ .

إنه ثمرة لهما ، لأن الحرب الثورية تفجرت عن نظرية ثقافية وعن تطور الفكر السياسي .

فمن أين ابتدأ الخط الثقافي ؟

يصعب تحديد بدايته تأريخياً ، ويمكن على جهة التقريب أن نلاحظ تصاعده من آخر الخمسينات ، لأنها فترة تصاعد الشعب وتداعي السلطة الحاكمة ، ولم يكن انضمام (الإمام أحمد) إلى الجمهورية العربية المتحدة عام ٥٨ إلا محاولة احتواء ثورة الداخل ، أو محاولة احتماء بالثائرين من ثورة الداخل . . إن هذا برهان على تصاعد الثقافة الثورية وشبه انقطاع عن ثقافة الأربعينات ونصف الخمسينات . . لقد لاحظنا أن السلطة الإمامية الحاكمة حاولت إحياء الثقافة اليمنية بشقيها السبئي والإمامي ، لكي تستنفر الخصوصيات المحلية في وجه التيار الناصري ، غير أن إلحاح العصر كاد أن يقطع شباب الخمسينات عن ثقافة كل العصور . . فلم تعد أشعار (الآنسي) وسِيَر الأئمة وتواريخ الحميريين بقادرة على لفت الاهتمام إلى الخلف ، لأن التفجر العصري كان مادة الثقافة كتابياً ومحور اهتمام المثقفين ، كانت ثورة (الجزائر) تزلزل الأرض تحت أقدام الفرنسيين ، وكانت أصداء (جبال أوراس) مثار نقاش المثقفين في (اليمن) ، وكانت ثورة (العراق) عام ٥٨ أبعد أصداءً ، لأنها ثارت على عملاء الداخل ، فاقتلعتهم كما اقتلعت (حلف بغداد) الذي جاء على ظهورهم ، إلاّ أن ملكية العراق لم تقاتل الثورة أو لم تقتدر على القتال .

من هنا استجدَّت ثقافة ثورية تستقرئ تجارب الثُوَّار في العالَم ، فحاول

مثقفونا استيعابها لأنها فهمتهم وعبَّرت عنهم ، فأرادوا أن يفهموها ويعبروا بها ، ومجرد عناوين كتب تلك الفترة تضيء جوانب اهتمام قرائها وموزعيها ، كما تدل على تباين مشارب المثقفين واختلاف منازعهم ، فقد كانت تلك الكتب شديدة التباين شديدة التقارب ، كلها ثورية وكلها مختلفة النظر إلى الثورة ، وكان يهم اليمني أنها ثورية ، من كتب تلك الفترة : كتاب (اللامنتمي) لكولن ولسن ترجمة دار الآداب ، كتاب (تأريخ الثورات) لنهرو ترجمة أحمد بهاء الدين ، كتاب (في سبيل البعث) لميشيل عفلق ، كتاب (فلسفة الثورة) لجمال عبد الناصر ، (فاروق ملكاً) لأحمد بهاء الدين ، (معالم الحياة العربية) لمنيف الرزّاز ، (النكبة والبناء) لوليد قمحاوي .

كانت هذه الكتب تنتقل من بيروت والقاهرة إلى (تَعِزّ) في خلال أسابيع ، وكانت تنتقل من (تَعِزّ) إلى (صنعاء) وسائر المدائن بسرعة ملحوظة ، لأنها لم ترد على شكل تجاري وإنما كان يستعجل وصولها أفراد قياديون ، ثم يوزعونها عن قصد إلى كل مثقف ، وكان يشترط حملتها على من يعطونه سرعة قراءتها وإعطائها إلى آخرين دون أي دعوة إلى انتظام أحد من القُرّاء ، وإذا كان هناك تجمّع فإن نسختين تكفي مدرسة ، وكان التوزيع مركزاً على طلاب الثانويات وطلاب الكليات العسكرية الناشئة مثل : الكلية الحربية ، كلية الشرطة ، كلية الطيران ، ظلّت تلك الكتب تجوب اليمن من ٥٧ إلى ٦٠ ، ومن بداية الستينات اهتم التوزيع بكتب أجدّ من أمثال : (رأس المال) ، ومن أمثال (الميثاق الوطني المصري) ، (عاصفة على السكر) لسارتر عن ثورة كوبا ، (باسم الحرية) لنكروما ، (عارنا في الجزائر) لسارتر . . وتوزيع هذه الكتب عن قصد يدل على اختلاف جهات التوزيع وعلى حِدّة نشاطها كلها ، كما يشير إلى جانب أهم ذلك هو حسن التقبل لكل كتابة ثورية على أي مفهوم ، لوجود الفراغ الفكري من ناحية ، وللافتتان بالجديد من ناحية أخرى . . نأخذ مثلاً

الكتب الوجودية فقد استوعب غيرنا جانبها الغثياني والكينوني ، على حين نظر مثقفونا إلى جانبها الالتزامي والتحرر والاختيار .. فقد اهتم مثقفونا بثورية (سارتر) على استعمار سلطة بلاده للجزائر ..

أما كتب كولن ولسن و(رأس المال) و(الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية) فقد كانت معقدة الترجمة صعبة الفهم على قرائنا ومن العجب أنها من مكتبة الكلية الحربية خرجت تبحث عن قرائها الأفهم ، وبمقدار صعوبة هذه كانت سهولة الكتب القومية وبالأخص (النكبة والبناء) ، (والميثاق الوطني) المصري الذي صدر في مارس عام ٦٢ كردّ على حل الجمهورية العربية المتحدة بتحرك عسكري سوري .

كانت هذه الكتب على اختلاف وصولها وتوصيلها مادة التثقيف الثوري على مرحلتين : من ٥٧ إلى ٦٠ ثم من ٦٠ إلى نهاية سبتمبر ٦٢ .

فكيف كان انعكاس تلك الكتب الثقافية على تجربتنا الثورية ؟

لاشك أن هذا الخليط من الكتب أدى إلى خليط في التفكير ، لأن مدة القراءة كانت قصيرة ، لاتكفي لهضم القراءة وتكوين نظرية مستخلصة من صفحات الكتب وصفحات الواقع .

لهذا يمكن أن نستدل على أن جدوى تلك الكتب كانت إثارية أكثر منها عملية ، لأن الثقافة الجديدة تستدعي منهجة على ضوء الواقع ، كما تتطلب الاستفادة منها نظرياً قوالب محلية تملأ فراغها وتشع في داخلها .

من هنا حدث التباين بين الثقافة الثورية ، وبين الثورة المحلية ، لغياب قاسم مشترك أو مصطلح محلي من مجموع النظريات ، لانتفاء نظرية أو الاستفادة من المجموع ، فكان الانقطاع شبه قائم بين الثورة والثقافة الجديدة ، وكان النظر إلى الثقافة اليمنية القديمة يمثل الارتباط بالرجعية ، فقد اعتبر

الستينيون زمن الثورة منفصلاً عن كل الأزمان ، ورأوا أن كلّ ما كتبته عهود (الإمامة) أعجز من أن يشكل أساساً ثورياً أو دليلاً نظرياً ، إلى جانب أنه يكرس الإقليمية ضد القومية العربية أو ضد العلمانية الأممية ، مع أن الإمامة (الثقافة) شديدة البُعد عن الإمامة (الحكم) ، ولم يكتشف مثقفونا هذا الفارق إلا في آخر الستينات ، أما من قيام الثورة إلى نهاية الجمهورية الأولى ٦٧ فقد كادت تنعدم العلاقة بين المثقفين النظريين وبين الثُوّار الحاكمين ، كما سوف نرى عند استعراض المؤتمرات الشعبية .

فهل كانت الثقافة الثورية بدون جدوى عملية ؟

لقد كانت غنية الجدوى لو اتسقت النظريات بالواقع المنظور ، ومع هذا فقد أسست الحسّ الثوري ووسعت الاهتمام المحلي ، إلا أنها طرأت أحداث غير منتظرة في مطلع الستينات . . وعندما فاجأت هذه الأحداث كان الاستعداد لها أقل من هجمتها ، فلأن الحروب التي احتدمت استدعت إلى حكم غير المثقفين من رؤساء عشائر وضباط قدامى ، انبث المثقفون في العشائر والمعسكرات لنشر الثقافة الجديدة وماأضافتها إليها المطابع من جديد .

فكانت الجمهورية الأولى تعاني عسر التوازن بين المثقفين كقوة تغييرية ، وبين العشائريين كقوة حربية تجابه شبيهها . . إلى جانب هذا جاءت العسكرية المصرية كمسؤولة عن حماية النظام ، ولأنها عسكرية عرفت سياسة الحروب ولم تعرف اختلاف سياسة الحكم . باختلاف بلدين وواقعين ، غير أن العسكرية المصرية من ٦٢ إلى ٦٥ كانت تحاول الابتعاد عن سياسة الحكم ، وإن كانت تشجع من بُعد الثقافة الناصرية على أساس اعتقادها الفراغ من أي ثقافة محلية ، فأدى هذا إلى توحد المثقفين النظريين وبعض الثائرين المسلحين ضد العسكرية المصرية ، مع ارتباط بقمة النظام المرتبط بتلك العسكرية ، من هنا تهيأ المجال لإجابة دعوات المثقفين إلى عقد مؤتمر عمران ٦٣ ثم مؤتمر خمر ٦٥ ثم مؤتمر

الجند ٦٦ إلى جانب مؤتمرات في الخارج كان يحضرها عن الحكومة زعيم أول معارضة (الزبيري) وكلها أي : المؤتمرات الداخلية كانت تستهدف وضع صيغة مستقلة للنظام وتحديد العلاقة ، مثل مؤتمر (اركويت) الذي بحث عن التصالح بلا تفريط بالثورة ومؤتمر (الطائف) الذي أراد اليمنيون المعتدلون منه بديلاً عن المصريين مع العسكرية المصرية . وبهذا لحظ الأعداء هذا الاختلاف كثغرة يمكن التسلل منها ، فاشتدت هجمات الملكيين واشتدّ تحكم العسكرية المصرية على النظام باعتبار الحرب سياسة تستدعي فرض ثقافة حماة النظام أو المدافعين عنه . . فبمقدار ماكانت القيادة المصرية مطمع المناصب الوزارية ، كان المركز الثقافي المصري بصنعاء مصدر التثقيف الثوري وكانت بعض مواد ذلك المركز من مقروءات مثقفينا قبل الثورة ومصدر نفورهم بعد الثورة ، لأنها جاءت في ظل الرعب (الكاكي) .

ظل التعارك بين المثقفين والسلطة يتّقد ويخبو حتى أسكته عدوان حزيران ٦٧ .

هناك جدت سياسة ملء الفراغ بعد رحيل العسكرية المصرية ، فانتقل الدور العراكي إلى المثقفين نفوسهم ، وكان محور الجدل حول البديل ، وهل هناك احتياج إلى بديل ، وسيطرت فكرة الذات اليمنية ، فأثارت الانتباه إلى الثقافة اليمنية قديمها وجديدها في ظل الجمهورية الثانية التي صعدت على حركة نوفمبر ٦٧ ، فانصرف المثقفون إلى المؤلفات اليمنية المنسية في المكتبات مثل : (اليمن عبر التأريخ) لأحمد شرف الدين ، (هذه هي اليمن) لعبد الله الثور ، بل وانصرفوا إلى كتابات بعض الملكيين مثل كتاب (قصة الأدب في اليمن) و(أحمد حميد الدين) لأحمد الشامي . .

واتسع الاهتمام بكل المؤلفات اليمنية في كل مجال من أمثال : (أضواء على طريق اليمنيين) لمحمد أنعم ، و(التخلف الاقتصادي والاجتماعي)

للدكتور محمد سعيد العطار ، و(دراسة في الأدب اليمني) لزيد الوزير . . وكانت هذه الكتب ،وأمثالها من نتاج الستينات لم يستفد منها مثقفونا في ظل الجمهورية الأولى ، وإنما انتفع بها كتاب التقارير من الأجانب الذين اضطرتهم الثورة إلى البحث عن كل ورقة مكتوبة تكشف عن ماضي اليمن وحاضره عن ثقافته وسياسته واقتصاده .

وفي عهد الجمهورية الثانية ساد الاهتمام بهذه الكتب وحفزت على الاهتداء بها إلى غيرها من الجوانب الأكثر إضاءة ، وكان كتاب (الحركة الصليحية والفاطمية في اليمن) للدكتور حسن الهمداني الذي نشر في عام ٥٦ مثار البحث عن فلسفة الصليحيين وثورات القرامطة وتأريخ حكمهم في اليمن ، ومثله تواريخ (عمارة اليمني ، والديبع ، والخزرجي) .

ومن بداية السبعينات ولدت المجلات الثقافية في صنعاء وعدَن وتَعِزّ والحديدة . . فامتدت من حكمة الوريث (الحكمة) المعبرة عن اتحاد الأدباء اليمنيين ، كما تبنت (اليمن الجديد) جديد الكتابة والشعر ، أما مجلة (الكلمة) التي صدرت في الحديدة ، فتميزت بالفكرية التقدمية من منظور محلي وإنساني . . وكانت البحوث اليمنية أو عن اليمن أغلب مواد كل هذه المجلات إلى جانب عديد من الصحف غير الرسمية كالرسالة والوحدة والسلام وصنعاء والشعب . . وكانت الجمهورية الثانية على تبعيتها للإمبريالية أكثر ليبرالية ثقافياً ، وأوسع صدراً لنقد المثقفين ، فكانت العلاقة بين الجمهورية الثانية والمثقفين ، عدائية من ناحية ، جدلية من ناحية أخرى . لقد تأسست ثقافة يمنية على أرومات قديمة من آخر الستينات وتواصلت إلى الآن ، غير أن ذلك الصراع بشقيه الجدلي والناري أتاح الفرصة المعاكسة لإسقاط الجمهورية الثانية ، وقامت الجمهورية الثالثة عام ٧٤ فاشتغلت بصراع أقطابها عن صنع اليمن المنشود وعن تجديد ثقافة تؤدي إليه ، إلا أنها لم تقمع الثقافة المتصاعدة ولم تتغاضَ عن

خطرها ، فقد أصبحت غنية المواسم ، وبالأخص من بداية السبعينات حتى أنها أصبحت موضوع الأطروحات للأجانب واليمنيين ، فأصدر محمد عبده غانم (شعر الغناء الصنعاني) لنيل الدكتوراه في بريطانيا عام ٧٠ ، كما تناول الدكتور عبد العزيز المقالح (الأدب اليمني المعاصر) في رسالة (ماجستير) عام ٧٤ بعنوان : (الأبعاد والفنية في الأدب اليمني) ، وخصص أطروحة (الدكتوراه) عن شعر العامية في اليمن عام ٧٨ . . وبهذه الكتب وأمثالها تجلت الثقافة اليمنية القديمة تحت ضوء جديد ، ومن خلال نظرة معاصرة ، بالإضافة إلى هذه الكتب مجموعات ناضجة من الشعر والقصص والمسرحيات والأغنيات الثورية ، حتى الشعر الشعبي مد قديم الآنسي إلى المصهر الثوري ، فانتقل من تقليديته الهجائية والمدحية إلى الثورة والتثوير . . ففي ظل الجمهورية الثالثة توالى صدور المجموعات الشعرية من فصيح وعامي إلى عام ٧٧ أضافت الحركة الثقافية في ظل الجمهورية الرابعة تألق الفن التشكيلي كابداع لوني إلى جانب الإبداع التعبيري ، فتآزرت اللوحة والقصيدة والأغنية على الرنو إلى الوطن المنشود التي تشير إليه إيماءات الثمانينات ، على أن كل هذه الفنون الناطقة والمشكلة تبازغت تحت شمس الثورة وبلغت رشدها الخلاق عند الضفة الأخرى من السبعينات .

كان هذا الخط الثقافي الموازي للخط القتالي كفاعل فيه ومنفعل به ، بمقدار انفعال الخط السياسي المباشر بالخطين .

إن السياسة المباشرة أكثر تعرضاً للضوء والكتابة عنها من نوع مباشرتها .

فماذا يعني المرء بالسياسة المباشرة ؟

إنها الوجه الثاني لفكرية الرمز الشعري ، واستقتال البندقية الثائرة .

لهذا نشأ الخط السياسي المباشر من الخطين كتوازن بين الممكن والقابل للإمكانية . . وأول طرف لهذا الخط موصول بفجر سبتمبر مباشرة ، بمقدار

اتصال فجر سبتمبر بليلة ونهار أمسه ، لأن فجر سبتمبر نقطة تحول لانقطة انقطاع .. فكما امتد الخط الثقافي من منتصف الخمسينات تواصل الخط السياسي من نفس ذلك الظرف الزمني .. وقد لاحظنا عناوين تلك الكتب وأسماء مؤلفيها ، ومن خلالها نستجلي هوية الناشرين وانتماءهم التنظيمي ، فالذين كانوا يوزعون الكتب الوجودية كانوا ماركسيين يتبنون من الوجودية الالتزام والاشتراكية والرفض ، ويقتنعون بالحد الأدنى كطريق إلى الفكر الماركسي المباشر الذي ركزوا على توزيع كتبه من مطلع الستينات من أمثال (قصة الإنسان) ، (وأرض الثورات) لجورج حنّا ، لأن هذه الكتب بتأليفها عربياً أكثر توصيلاً من ترجمة (رأس المال) (والاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية) .

إذن فهذا النوع من الثقافة الماركسية ، يشي بتنظيم ماركسي في (تعز) ، وامتد منها إلى سواها .. وقد ظهرت هوية هذا التنظيم في صحيفة ناطقة عنه بالعنوان (الطليعة) التي رأس تحريرها (عبد الله باذيب) ، توالى صدورها من ٥٩ إلى منتصف عام ٦٠ بتعز ، وكان إلى جانب هذه الخلية أو هذا التنظيم عُدة تنظيمات تختلف بعض أسمائها عن هويتها ، فقد كانت الجبهة الشعبية تتبنى القومية المرحلية ، فتمد قنوات بينها وبين البعث العربي الاشتراكي وبين القوميين العرب وبين الماركسيين ، ومثل الجبهة الشعبية حزب الشعب الاشتراكي في الشطر الجنوبي فإنه كان ينتهج البعثية ويحاكي العمالية البريطانية ويرتدي المحلية كمنافسة لجماعة (عَدَن للعَدَنيين) وكمناقضة لتنظيم (اتحاد الشعب الاشتراكي) . وكان بين هذه الأنظمة شبه انسجام .. وبعد إعلان الجمهورية بساعات أعلنت كل التنظيمات هويتها في عرائض التأييد إلى قيادة الثورة بصنعاء ، وكانت الفترة مبعث أمل كل الطامحين ، فبدأ التناقض على الوسائل والغايات وكانت جماعة القوميين العرب أعنف نشاطاً وأكثر أعداداً لكثرة رفاقهم

في قيادة الثورة والمجلس التنفيذي .

فابتدأت مرحلة الصراع والتراشق بالتّهم بين التنظيمات ، وبهذا أمنت خطرها ذروة السلطة من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن رئاسة الجمهورية الأولى أرادت رعاية كل المواطنين وإطلاق كل الحريات ، حتى لايكون اليمن الجمهوري امتداداً لليمن المتوكلي ، غير أن العسكرية المصرية التي لبت ثوار سبتمبر بعد أسبوعين من قيامهم ، كانت أكثر ميلاً إلى حركة القوميين العرب ، لأنهم يرددون نفس الهتاف المصري ونفس شعار الناصرية ، إلا أنها لم تستعمل أي قمع للتنظيمات الأخرى إلا من عام ٦٥ حين احتدت التراشقات بين عبد الناصر وحزب البعث في بغداد ودمشق ، وحين تحولت التناقضات إلى صراع بين المثقفين والقيادة العسكرية في اليمن ، هناك تركزت الحملات القمعية ضد البعثيين بعد الشيوعيين ، لكي تنفرج الظروف أمام الماركسيين عند شدة الخلاف بين عبد الناصر وجونسن خليفة كيندي ضحية تعاطفه المزعوم مع الناصرية .

هذه التنظيمات التي جاءت من الخمسينات تحت التستر تعرضت لسفور سبتمبر فدخلت مرحلة النضال الحقيقي ، غير أن هذا لم يكن الصراع الوحيد بين السلطة وسائر الساسة المحترفين والتنظيميين ، لأن انتهاء الملكية كان بمثابة انفراج لكل طموح مشروع وغير مشروع ، فكان هناك صراع بين الضباط القدامى ، وبين الضباط الأحداث . . وبين زعماء الاتحاد اليمني وبين العسكريين . . وكان الإصلاحيون يحاولون علاج الموقف بتشكيل الحكومات من عدة اتجاهات : حيناً من منظور تنظيمي ، وحيناً من منظور طائفي . . وكان جمهور المثقفين يستغل هذا الصراع بين السلطة وأقطابها ، وبين الطامحين والمتشبثين . . وقد دلّ أول تشكيل حكومي على مراعاة الجانب البرجوازي عندما استوزر ثلاثة من التجار بإجماع قيادة الثورة . . وهذا مابرّر نضال التقدميين عربياً وأممياً ، فتظللوا بكل الأجنحة ذات الحصانة : كالأستاذ الزبيري

أحد زعماء الاتحاد اليمني ، وعبد الله بن حسين الأحمر كنجل شهيد وصنو شهيد وقائد جمهوري ، وأحمد عبد ربه العواضي كقائد شهير بتحقق الانتصارات ، أرادت سلطة الجمهورية الأولى أن تخفف هذا الغليان حتى لايستفيد منه العدو المحارب ، فوزّعت الاستيزار من كل الاتجاهات بطريقة غير جبهوية غير أن هذا لم يحقق الوطن المنشود الذي تطمح إليه الثقافة والسياسة الوطنية .

فظلت الجمهورية الأولى شبه مرفوضة ، فانتقل الجدل من ملكية وجمهورية إلى نوع الجمهورية وتشكيلها ، وإلى كيفيتها لا اسمها .. وكانت المعارك العسكرية في ظل الصراع السياسي تصل إلى ضواحي (صنعاء) أحياناً .. ونتيجة لهذا الضغط كان يتغيّب الرئيس ويترأس نائبه ، حتى أرادت كل القوى العسكرية أن تقيل الرئيس الأول وترئس النائب ، دون التفات إلى استفادة الرجعية عسكرياً من هذا التغيير الفوقي .

لهذا تدخل من يسمون بالعقلاء لإنهاء الأزمة ، وكانوا يبيّتون نية احتلال القمة بدلاً من الرئيس والنائب ، وهذا ماتحقق بانقلاب ٥ نوفمبر ٦٧ .

ومن هنا كاد الأحياء من رجال ٤٨ أن يتغلّبوا على كل محاور السلطة ، واختلفت معارك الاتهامات باختلاف رجال الفترتين ، فقد اتّصف رجال نوفمبر بالاعتدال .. كما اتصفت سائر القطاعات الثورية بالتطرف وعزت إليهم السلطة طلب المستحيل لتعويق الممكن ، فامتد القمع والتشريد والتسريح من عام ٦٧ وعلى امتداد السبعينات ، فشكّل ذلك القمع المتعدد الأطراف قوى سياسية مناوئة ، تعددت بالتالي مواقعها : كالمقاومين الثوريين والديمقراطيين الثوريين والقوميين المرحليين .

وفي حزيران ٧٤ قامت الجمهورية الثالثة رافعة شعار سبتمبر ، مقصية

السبتمبريين تحت شعار التصحيح ، وبحكم إفراز قوى جديدة ، ورغم الاصطراع القيادي داخل الحركة ظل البحث عن اليمن المنشود ، وعن ثورية الثورة شغل القوى الثائرة داخل السلطة وخارجها ، وفي مواقع المقاومة وفي السجون والمنافي ، غير أن الحركة الحزيرانية دخلت في عامها الثالث طوراً جديداً ، فتحت فيه الحوار بين كل القوى وحاولت تجاوز الماضي إلى رحابة العصر ، فأوصل هذا إلى أحداث أكتوبر ٧٧ ويونيو ٧٨ ، لأن الاصطراع الفوقي ألهى عن الحركة التأريخية الثورية .

من عام ٧٨ إلى الآن ترددت الشعارات الديمقراطية والإعلانات الإعلامية عن الوحدة والديمقراطية والانتخابات البرلمانية كشعور بحقيقة القوى الثائرة ، كوجود متصاعد يملأ الساحات ، رغم حشد المؤامرات وعسكرة المغريات ضد القوى الثورية التي تتبدى أقوى وأخفى عن كل الأساليب .

واليوم ونحن في عام ٨٠ تبدْو الثورة مشبوبة الأنفاس متوهجة الشباب .

لأن وراءها طريقاً طويلاً من التجارب ، وأمامها طريقاً أخطر ولكنه أقصر .

لقد تلاحقت مؤامرات وسقطت مؤامرات والثورة تزداد عنفواناً ، ورغم إخفاق مؤامرات ونجاح مؤامرات مؤقتاً ، فإن الأفظع لم يحدث بعد ، وإن الأخطر هو الذي سوف يأتي ، لأن ملامح هذا العام تشير إلى تغيرات أبعد من تصور السبعينات . . فإذا كان سبتمبر الواقع قد فرش بالدم خطوطه الثلاثة : القتالية والثقافية والسياسية ، فإن هذه الممرات قد أهّلته لمواجهة أخطر الأحداث وأعنف المواجهات ، ولعل الذي كان ، يبصر بالذي سوف يكون ، إلا أن إشارات اليوم تنبئ بخطورات لم تخضها تجربة ولم يتكهن بها حساب ، ومهما غايرت صور الأحداث ، فإن سبتمبر الشاب الذي نوقد اليوم شمعته الثامنة عشرة قد تجاوز خوف الخطر إلى صنع الأخطار .

اليمن الجمهوري إلى أين ؟

عندما ينفجر الحدث الشعبي يتساءل المهتمون في العالم عن المنبع الذي تدفق منه الحدث ، وعن المناخ الذي يحيط بالمنبع ، وعن الخلفيّة التأريخية للانفجار ، وعن نوعية مفجّريه وعن الحاجة الشعبية إليه . . . وتتفرع من هذه الأسئلة عدة تساؤلات ، لأن الحدث أصبح واقعاً متحركاً ، تتهامس الأسئلة الجديدة : إلى أين ؟

وما هي العوامل الموجهة للحدث إلى جانب أو آخر ؟

وعلى ضوء الحياة الاقتصادية والواقع المحلي ونوع قادة الحدث تتكاثر التنبؤات عن وجهة الحدث ، وعن الأحداث المضادة لاتجاهه والمؤازرة لاندفاعه ، تبدأ عوامل المعاكسة والاتجاه تشتبك في كل خطوة في طريق الحدث الثوري ، فبعضها يريد تحول مجراه أو توقفه حيث هو حتى لايمتد ، وبعضها يحاول أن يجتاز به كل الركام ، وإذا قاوم المعوّقات استجدت معوّقات أخرى مستمدة من خفايا واقع الحدث ومن خارجه ، وهذه العقبات تكشف أصالة الحدث فتضعفه أو تقويه على مقدار أصالته وانعدامها . . ويقيس المهتمون على الحدث أشباهه في أكثر من مكان وفي أكثر من فترة وربما تشابهت التيارات المعاكسة في أكثر من مكان وقع فيه حادث تأريخي ، ولاتخرج ثورة (اليمن) عن هذا المفهوم ، فمنذ قيام ثورة السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢ تزايدت التنبؤات عن مواقع شبيهة بمواقع تمخضت عنها أحداث تغييرية ، وموقع هذا البلد حادّ الحساسية ، لأن انفجار ثورة في الشمال تؤدي بالحتمية التأريخية إلى

تحرر الشطر الجنوبي من الاستعمار ، وبهذا يصبح (اليمن الواحد) محسوباً من التغيّرات الهامة في مجرى السياسة العالمية . لأن هذا المكان يطل على البحر الأحمر من بعض جهاته ويتاخم مناطق (الطاقة) من جهات أخرى فلا بد أن تتحير الأسئلة : من أين وإلى أين ؟ .

لقد جاء (اليمن الجمهوري) من (اليمن المتوكلي) و(اليمن المحتل) ، ومعرفة من أين تحير التساؤل : إلى أين ؟

لأن الشعب الذي يقهر القهر يختلف جذرياً عن الشعب الذي قَبِل القهر أو عجز عن تجاوزه لصعوبة الظروف أو لقلة الإمكانيات المادية ، وهذه هي خطورة (اليمن الجمهوري) واليمن الذي سيصبح جمهورياً بعد التحرير . . لهذا تآزر الاستعمار والرجعية والمرتزقة على مواجهة ثورة السادس والعشرين من سبتمبر لاطمعاً في عود الوليد إلى الأرحام وإنما أملاً في تقليم أظفاره حتى لايجترح مناطق المصالح المطمئنة على شماله ويمينه . . فإلى أين يتدفق هذا الحدث ؟

حاول السؤال أن يجيب على نفسه فيضيق حدود الثورة أو يثلّج أجواءها حتى لايدري إلى أين وإنما يمتلك الآخرون كل جهاته فيدور حيث هو حتى يتخلّع ، غير أن الحدث العظيم أقوى من كل المؤامرات فلا بد أن يشق مجراه ، ولابد أن تحاول القوى المعادية سدّ هذا المجرى ، أو تحجيم النهر الذي عرفت مأتاه .

وتساءلت : إلى أين ؟ .

في يوم السادس والعشرين من سبتمبر عام ٦٢ ضجّت الأنباء عن قيام ثورة في (اليمن) ، وألمحت أهم الأنباء عن احتمال معاكسات لهذا الحدث ، لأن وكالات الأنباء عرفت وقوع الحدث وعرفت من أين أتى ، قبل أن تتساءل إلى أين ، أَوْهَمت باحتمال سقوط الحادث ، مثلاً على هذا إذاعة (لندن) وصحفها

فقد حاولت أن تشكك في نجاح الثورة لتقليدية المجتمع الذي انفجرت فيه ولوجود أمراء كانوا خارج الوطن وفي إمكانهم قيادة ثورة مضادة على حد زعمها في ضوء معلوماتها القديمة عن (اليمن) ، هذا أول تلويح استعماري إلى إعداد المؤامرة ، وبعد أيام تناقلت الأنباء فرار (البدر) من (صنعاء) وخروجه من حدود الوطن سالماً ، وأشارت الأنباء الاستعمارية والرجعية إلى نشاطه وإلى استعداده لخوض الغمار ، لأن خروجه في رأي الاستعمار يدل على أمرين : أولاً ضعف الثوار ، ثانياً كثرة أنصاره .. فلو كانت الثورة ناجحة لما اجتاز (البدر) الحدود ، ولو كان بلا مؤيدين لما نجا من قبضة متتبعيه ، هذا خلاصة مانشرت الصحف البريطانية وتعاليق الإذاعة في الأسبوع الثاني لقيام الثورة .. وبعد أيام رأت هذه الأجهزة (البدر) ورقة رابحة لإسقاط الثورة ، لأن سائر الأمراء بلا صفة شرعية وبلا شعبية مجرّبة .. من هنا ابتدأت حروب الثورة ، وكانت الثورة قد انتقلت من ثوار معدودين إلى شعب ثائر يعدّ بالملايين ، فبمجرد احتمال التدخل تدافعت جموع الشعب تحمي الثورة بل وتهاجم مواقع المعتدين .

من هنا أصبح الشعب كله جيشاً (حرس وطني) ، وأصبح السؤال إلى أين يعيد نفسه ، لأن الحروب الأهلية تثور الثورة ، بل وتوصلها إلى الجانب المغاير الذي يجيب على : إلى أين ، لأن الثورة قد عرفت بداية الطريق ، وتحولت من مجموعة ثائرة إلى جموع ثورية .

بهذا سقطت الشرعية المزعومة عن الورقة المتسخة في يد الاستعمار ، فلم تعد الثورة عسكرية ، وإنما شعبية عسكرية ، لأن الشعب كله قد تحوّل إلى مقاتل ، وبالأخص المناطق الوسطى .

من هنا سكتت الأسئلة وتحوّلت إلى مؤامرة ضد (اليمن) الثائر وضد من يقفون إلى جانبه ، لأن الحدث الذي اتّقد في (صنعاء) قد مدَّ لهيبه إلى

(ردفان) في الشطر الجنوبي من الوطن بعد شهور من اشتعاله ، وأصبح الامتداد إلى الأمكنة الأخرى ممكن الحدوث ، لأن مايحدث في مكان يمتد إلى سواه بفعل العدوى وبفعل تقبلها .

من عام ٦٣ امتدت الثورة وتعددت مواقعها فقاتلت العدوان الرجعي والاستعمار المحتمي بالرجعية ، وكان الشعب اليمني بشطريه يدافع عن الجمهورية في الشطر الشمالي ويحفر قبر الاستعمار في الشطر الجنوبي ، وامتدت المعركة بكل جوانبها تحقق النصر تلو النصر على كل الأعداء من محتلين وأتباع محتلين .

من هنا شقّت المؤامرة ميادين مختلفة إلى جانب ميادين القتال ، فأثارت العصبيات الميتة : من قروية وطائفية رغم قلة عوامل انبعاثها في عهد المدّ الشيعبي ، وعزّزت هذا بالإغراء ، بالسلطة ، بالثروة ، بالتأييد . . غير أن كل هذا ظل في حدود ضيقة ، لأن حرارة الثورة والاستماتة دونها كانت أطغى في النفوس وأملك للإرادات الجماعية ، وبالأخص أن الشعب قد تذوق الحرية وتمتع ببواكير النصر على الاستعمار في الشطر الجنوبي وعلى الرجعية في شمال الشمال ، غير أن نقاوة المقاتلين كانت تبعدهم عن تصور انتهازية الوصوليين ، حتى لم يكن أحد يتوهم أن هناك من يخونهم من الداخل و يتستر بالثورية على رجعيته ، بيد أن امتداد مدة الحرب بدون أجهزة أمنية كافية أتاحت الفرص لتسلل المؤامرات إلى أكثر الأمكنة صميمية ، فانشق الصف الجمهوري في الشمال من عام ٦٤ إلى معسكرين : معتدل وثوري وسلمي وحربي ، وكانت المؤامرات والمؤتمرات تشكل من المعتدلين امتداداً للملكية وبديلاً عنها لفقدان الأولى شروط البقاء ، كما تشكل من المعتدلين جبهة داخلية ضد الثورة إلى جانب الجبهة الخارجية . . ولكن هل هذا من صنع ظروف الحرب الثورية ؟ .

إنه ينتسب إلى ماقبل الثورة ، فالذين تردّدوا قبل الثورة هم الذين شكلوا

قاعدة المعتدلين بعد الثورة . حتى أنهم رأوا في فرار (البدر) فشلاً حقيقياً للثورة ، وكانوا يقولون في مناقشاتهم :

أين كان الجيش يوم الثورة ؟

وكيف تركت أبواب العاصمة بدون حراسة ؟ وكيف أمكن هروب (البدر) في ظل حظر التجول ؟

صحيح أن نجاة (البدر) من القتل أو السجن دلّ على ثغرة كان يمكن سدّها بعدد من الجنود على الأبواب ، لكن هل كان قتل (البدر) أو سجنه سيمنع المؤامرات والتدخل ؟ لايمكن أن يتوقف التدخل والمؤامرات على أية حال ، غير أن فرار (الإمام المخلوع) أعطى مبرراً للمؤامرات وسبباً مشروعاً للتدخل ، ولو وقع (المخلوع) في الأسر أو القتل لكانت المؤامرات أهون وأقصر أنفاساً ، لأن سلامة (الإمام المخلوع) أصبحت تكذيباً لدعاية الثورة ، فقد أعلن مذياع صنعاء صبيحة يوم الخميس الـ ٢٦ من سبتمبر في الساعة التاسعة بأن (البدر) قد دُفن تحت الأنقاض ، وكان خروجه سليماً سبباً في التشكيك الدائم لأطروحات الثورة ودعايتها مدة سنوات الحرب ، لأنها ابتدت دعايتها بأكذوبة مكشوفة للجميع في وقت حاد الحساسية . . صحيح أن هذا الخطأ أعطى سلاحاً مضاداً ، ولا ندري هل كانت تلك الأكذوبة ضرورية أو غير ضرورية ؟ لقد كان ينبغي اجتنابها حتى لاتشكك في صدق الثورة وحقيقية دعايتها ، وكان مجرد إعلان قيام الجمهورية كافياً لاقناع الشعب بانتهاء الملكية ، وبالأخص في تلك الظروف المتفجرة بالاحتمالات .

المهم أن عوامل الثورة المضادة ولدت مع الثورة وفقدت أظفارها وأنيابها في هدير الحماس الشعبي ، غير أن الحروب وحدها لاتكفي لتمخض الثورة الحقيقية مالم يواكبها رصد واع للاستفادة من الانتصارات والنكسات ، فقد اعتبر

المحاربون من القوى القبلية والعمالية أنفسهم بديلاً عن الثوار ، أو أنهم الثوار لأن الثورة دخلت دائرة الخطر من أسبوعها الأول ، وهذا الاختلاف الطبيعي والصحي بين الثوار والذين استقتلوا تحت راية الثورة ، هيأ المجال للمعتدلين والمشككين لكي يحلوا محل الثورة عن امتداد للملكية البائدة ، ساعد على نمو هؤلاء ، التآمر الخارجي الذي خاف من طول الحرب وأراد أن يحسمها من الداخل لعجز العوامل الخارجية عن إخماد نار الثورة .

لهذا ارتفعت الدعوات إلى المسالمة وعقدت عدة مؤتمرات في الخارج والداخل تنادي بالتصالح بين المعتدين والمدافعين بلا تمييز لوجه عن وجه وبلا فرق بين قتال مشروع وعدوان لامبرر له ، وكل هذا بعامل الخوف من الحرب الثورية ، كان خير مافي الحرب هو الإصرار على انتصار الثورة ، وكان أبرز معايبها وجود العنصر الخارجي إلى جانب الثورة ، لأنه امتلاء سيتفرغ وسيبحث عن امتلائه ولو بالنقيض وهذ ماحدث آخر الستينات ، فعندما أحست المؤامرات خطورة الثورة لجأت إلى خصيها وتوالت العمليات الجراحية لكل ثورة ، وكان عدوان حزيران ٦٧ أقسى عمليات الخصي لأنه كان خصياً دماغياً أو مركزياً . . هنا نجحت مؤامرات الإجهاض والخصي وأصبح ملوك الثروات ملجأ الثورات ، بحجة محو آثار العدوان الصهيوني وبدعوى التضامن . . أدى هذا إلى انسحاب القوات المصرية من (اليمن) لكي يملأ النقيض مساحة المنسحب ، هنا تبدى المعتدلون فرسان الساحة الضيقة ، ولكي تتسع ساحتهم دفعت فلول البائدين إلى آخر أرماقها في حرب ثلاثة شهور من ديسمبر ٦٧ إلى فبراير ٦٨ .

بعد هذه الهجمة الفاشلة تنوعت المؤامرات وتشابكت مصالح المتآمرين فنشبت معركة أغسطس عام ٦٨ لضرب الثورة الحقيقية بالثورة الشكلية بنفس أسلحتها التي حاصرت الحصار وهزمت المعتدين ، لكي يتم التصالح بين الجمهوريين المعتدلين والملكيين المجمهرين ، واستجد التساؤل من جديد :

اليمن الجمهوري إلى أين ؟

واليمن بشطريه إلى أين ؟ .

فكما سقطت المملكة المتوكلية في الشمال سقط الجنوب العربي ، وبحث الاستعمار في قواميسه عن اصطلاحات لتكريس التشطير ، فأطلق المصطلحات على الشطرين كما يلي :

اليمن الجنوبي ، اليمن العربية ، الجنوبية الشعبية ، الجمهورية العربية ، ثم اليمن الديمقراطية واليمن الشعبية . . . كانت اللغة الاستعمارية تواكب التطورات الشكلية مستهدفة التشطير في آخر الأمر ، لأنها عجزت عن إخماد الثورة نهائياً في الشمال ، حاولت شطر اليمن بحثاً عن معرفة المسير إلى أين . . ومن آخر الستينات بدأت المصطلحات الاستعمارية تمذهب الشطرين فاعتبرت الشطر الشمالي موالياً للغرب واعتبرت الشطر الجنوبي موالياً للشرق ، غير أن (اليمن) بشطريه أصر على الولاء لليمن بشطريه بغض النظر عن الهويات والشكليات ، فكان إصرار (اليمن) على وحدته مثار مؤامرات جديدة ، فكما حاول الاستعمار ضرب الثورة بالثورة في الشمال في أغسطس ٧٨ ، وكما أشعل حروب الشوارع بعَدَن بين المقاتلين الثوار عام ٦٦ ، انتقل إلى مواقع أخرى فحاول ضرب شطر بشطر في مستهل السبعينات ، فأدت هذه المحاولات التشطيرية إلى تجلي أصالة وحدة اليمن ، فحاول الشمال أن يتجاوز وصمة التصالح المفروضة واستنهاض الوطنية الغافية التي قمعتها جبهة التصالح .

من هنا نشأت فكرة تصحيح المسيرة الثانية التي بدأت من نوفمبر ٦٧ ، ونجمت عدة أحداث دموية وقمع وحشي ، وأدى هذا القمع والصمود إلى محاولة ضرب شطر بشطر في سبتمبر عام ٧٢ وفشلت هذه المحاولة ببلورة إعلان الوحدة رسمياً لأنها ثابتة شعبياً ، وفي عام ٧٤ سقطت أعمدة حرب سبتمبر ٧٢

ودعاة التصالح وذلك بانفجار حركة التصحيح ٣١ يونيو عام ٧٤ ، وكان هذا الحدث مثار التساؤل إبان اندلاعه : هل كان ضرورياً ؟ وهل هو تطور ولائي للغرب ؟ أم أنه تجديد لثورة سبتمبر ؟

وظلت الأسئلة معلّقة حتى انكشفت الوجوه آخر عام ٧٧ فأبرزت تلك المؤامرة وطنية تلك الحركة وهويتها الثورية من خلال وجوه المتآمرين عليها ، لأن معرفة النقيض يجلّي وجه نقيضه .. بعد ذلك تبين أن حركة يونيو امتداد حقيقي لثورة سبتمبر بانفجارها والدفاع عن رايتها ، وكان من الطبيعي أن تفرز هذه الفترة قوى جديدة تمدّ الثورة وتختلف عنها وجوهاً وتجربة ، لأن السبعينات مختلفة المناخ عن الستينات فهي تستدعي عملاً وطنياً مختلفاً ، فكما كانت ثورة سبتمبر تجاوزاً للعهد الملكي ، كانت حركة يونيو تجاوزاً لامتداد الملكية في إطار الجمهورية ، لأن القوى التقليدية اتّصفت بالاعتدال في أول الستينات لكي تكون بديلاً للرجعية ومتعاونة معها في آخر الستينات وأول السبعينات ، فحاولت حركة يونيو أن تتجاوز امتداد الملكية إلى الثورة الحقيقية كتتمة لثورة سبتمبر أو كامتداد للنضال الثوري عن الثورة .

والآن وقد مضى على حركة يونيو ست سنوات عند كتابة هذه السطور يتساءل المتسائلون عن ثوريتها وعن امتدادها عن سبتمبر أو انفصالها عنه ؟؟؟.

تؤكد كل البراهين التأريخية أن حركة يونيو أعادت الدورة الدموية إلى عروق ثورة سبتمبر ، وأن الحماس الجماهيري الذي اتّقد صبيحة السادس والعشرين من سبتمبر تأجج أعنف صبيحة الثالث عشر من يونيو عام ٧٤ ، وبغض النظر عن الأفراد والصراع على السلطة ، فإن الشعب قد استجلى وطنية ثورية يونيو وهويتها اليمنية ، ولقد دلّت المؤامرة عليها على صدق وطنيتها وعلى يمنيتها العامة التي تتبنى (يمناً واحداً) وترفض وهمية الشطرين ، وكل الأحداث التي استجدت لضبابية وجه يونيو زادت من إشراق وجهه اليمني .

إن الوحدة التي تحبو إلى الميلاد اليوم وليدة شمس يونيو التي تجاوزت امتداد الملكية إلى عصر الشعب والنقابات والقوى الثورية المبدعة .

فهل حركة يونيو على حساب ثورة سبتمبر ؟

إنها إحياء لها ولحسابها ، وتدفق حي من موجها الذي انحسر ، إذا كانت ثورة سبتمبر قضت على الرأس المتوج ، فإن حركة يونيو حطمت قوائم التاج وتجاوزت ذرية الامتداد إلى غمار الشعب الثائر ، هذا هو يونيو الحدث التأريخي كما دلت سنواته الأخيرة ، بغض النظر عن الأفراد على أهميتهم وبغض النظر عن الرضى عن فلان أو السخط على فلان ، لأن موضوع التقويم هو الحدث الشعبي وتأريخيته وجماهيرية صنعه ، لأن الأحداث تبرهن على صحتها أو زيفها من وجهين : من شعبيتها ، ومن نوعية المتآمرين عليها .

إذن فتقويم الحدث من خلال خطوات مسيرته أهم من الرؤية الإفرادية أو الأحادية ، لأن الأهواء تختلف في الآحاد ومن خلال اختلافاتها تحاول خطأ تقويم الأحداث .

إن حركة يونيو بكل المقاييس أهم حركاتنا الوطنية ، لأننا من يوم انفجارها ملكنا قرارنا اليمني وامتلكنا مصيرنا عن موقف يمني وعن وطنية لاتساوم ولاتنحني لأي عاصفة ، وهذه الفترة أزهى عهودنا الوطنية اجتماعياً واقتصادياً ودولياً ، إذ تقدمت اليمن من خانة الأقل نمواً إلى الدول النامية ، فقبل ثورة سبتمبر كان المصير اليمني في قبضة (دار الشكر) أو (قصر صاله) وبعد قيام الثورة كانت كل القرارات في قبضة (قيادة الجيش المصري باليمن) وبعد نوفمبر كانت القرارات في قبضة من يعطي أكثر ، ومن بعد حركة يونيو امتلك اليمن اختيار مصيره وتجربة نظامه ، ولم يكن سقوط تلك المؤامرة إلى ذلك الدرك الأسفل إلا أنصع دليل على خطورة حركة يونيو وعلى شعبيتها

الكاسحة ، لأن المؤامرات تفقد كل اتزانها أمام الخطورات الشعبية التحولية ، فحركة يونيو إحياء لسبتمبر وامتداد من شروقه ، وتجاوز لرماده وركامه ، لأن الفترة من سبتمبر ٦٢ إلى يونيو ٧٤ قد أفرزت بالضرورة قوى جديدة وتجارب مختلفة ، وحركة مختلفة تشق السبعينات إلى الثمانينات عن رصيد من التجارب وعن رؤية ثاقبة إلى الغد بكل احتمالاته وتغيراته .

* * *

التساؤل الثوري واستمرار الثورة

اليوم وقد تغير العالم سياسياً واقتصادياً بل وجغرافياً ، يحتفل شعبنا بالذكرى التاسعة عشرة لثورة السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢ ، وفي مهرجان هذا الاحتفال وفي ظل زيناته وضوضائه يخطر للبعض أن يتساءل : ماذا حققت الثورة ؟ وهل اجتازت موروثات العهد البائد من الأوضاع السيئة بكل أشكالها من محسوبية ونفعية وانتهازية ؟

وهذا التساؤل مشروع كثورة دائمة ، كما أن معرفة أسباب هذا من الضروريات لمعرفة تأثير العهد البائد في العهد القائم . فهل كان العهد الملكي بلا أزمات وبلا خيانة للوطن ؟ لقد كانت الأوضاع الملكية أهم الأسباب في تأصيل أكثر المعوّقات إلى اليوم ، لأنه بكبته العنيف لم يتح للشعب أن يمارس أقل المسؤوليات لكي يملك الاختيار ، لهذا تركز النضال الشعبي على اقتلاع الملكية ، وصرفه التركيز على الفوقيات عن بناء قاعدة شعبية تجذر مكان (الإمامة) أوضاعاً شعبية تامة المغايرة ، لهذا جاءت الثورة إلى وسط خليط من بشائر الثورة ومن أوضاع الملكية لنشأة الثوار في ذلك الوضع .

فما هي أهم الامتدادات من ظل العهد الإمامي وأصوله ؟

لعل السنوات التي سبقت الثورة كانت أكثر امتلاءً بالنقائض ، كانت هناك الطموحات التغييرية عند المناضلين ، وكانت السلطة الإمامية تحاول أن تمتص رغبة التغيير بتغيير الأشكال الإيهامية ، فتبنت السلطة الإمامية في منتصف الخمسينات دعوى تحرر الشطر الجنوبي ، لكي ترتدي أزياء الثوار في العالم ،

وفي عام ٥٨ طلب (الإمام) الانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة ، لكي يتعضون في بنيان الثورة التحررية ، أضاف إلى هذا بل قبل هذا التسلح من المعسكر الاشتراكي عام ١٩٥٧ ، وكان بهذه الإيهامات يحاول إسكات الغضب الشعبي وإبطال دعواه عند الأنظمة المتحررة أو كان يوهم نفسه بسبق الثورة .

هذا بالنسبة إلى السياسة الخارجية ، أما بالنسبة إلى أوضاع الداخل فقد تراخت قبضة التشدد الإمامي على كبار الموظفين ، وأتاحت نسبياً فرصة التوظيف وفرص الالتحاق بالمدارس التي اتسعت في الخمسينات إلى جانب توسع إرسال البعثات الدراسية إلى الخارج وإن اقتصرت على أبناء البيوت العالية ، ورافق هذا بعض حرية الاستغلال لأموال الدولة ، فتزايد إثراء نواب الألوية ومديري المناطق وأمناء الصناديق ومديري الشؤون المالية في العاصمة وفي كل المحافظات ، بعد أن كان كل الاستغلال مصبوباً على المواطن ، ففي هذه الفترة احتلب كبار الموظفين عرق المواطن ودخل الدولة نتيجة تراخي قبضة العهد (الأحمدي) لاشتغاله بالمعارك السياسية الفوقية : كإخماد الدستوريين ، وصراع الطامعين من إخوته ، وتملق الأنظمة على اختلافها حتى لاتتعاطف مع الاتحاد اليمنيء بالقاهرة ، وكان النضال الشعبي يركز كل اهتمامه على الملكية كسلطة وليس على الإمامة كأوضاع من خلق السلطة ، صحيح أن جشع الموظفين الكبار أثار حسّ التذمر ، لكنه مجرد حسّ يتطلب الوعي الثوري إلى جانب الحسّ بالمرارة من تلك الأوضاع ، ولقد أراد (الإمام أحمد) أن يخفف حسّ التذمر من الاستغلال فاستدعى كبار الموظفين من كل المراكز لأداء القَسَم بأن يعفّوا عن الرشوة ، وهذا برهان تفاقمها يومذاك وقوة تأثيرها في الحس الشعبي إلاّ أن القَسم افتتح أبواب الحِيَل الفقهية ، إذ كان الذين يريدون الانتصار على الخصوم يقدّمون الرشوة في غير اسمها : كنذور وهدايا ، وشراء سلعة يمتلكها الحاكم بثمن باهظ ، حتى أن أحدهم اشترى فنجان القهوة من الحاكم بعشرة

ريالات وهو لايسوى ثُمن الريال وبالبيع والشراء والقبول استحل الرشوة في غير اسمها ، فقد كانت هذه الفترة تشكل قنوات التمخض الثوري ووجوه الثائرين ، وكان الثوار رغم مقاومتهم لتلك الأوضاع متأثرين بها تركيبياً وبيئياً .

فكيف يمكن أن يتخلصوا منها عائلياً إذا تخلصوا منها فكرياً ؟ إن الفكريات تزداد تألقاً بنقاوة المناخ الذي تنبت فيه وتترعرع في تربته .

فهل تنضج تلك الظروف بتفاعلها أم تلحّ الضرورة على إحراقها ؟ لقد تآزرت العوامل الثورية ونشأت التنظيمات من آخر الخمسينات ، واستهدفت كلها التغيير : إما عن متابعة سير النضج الظروفي ، أو إحراق المراحل . . رافقت هذا عدة انتفاضات قبلية لم يتساءل أحد عن هويتها ولا عمن وراءها ، لأن انفجار أي حدث من أي موقع كان في حد ذاته بشيراً بالخلاص ، لأن الوضع (الإمامي) كان مرتكزاً على القبلية شيوخاً وأفراداً ، فتفجر أي حدث قبلي يؤدي إلى سقوط ركيزة أو إلى ارتجاج مغرسها على الأقل ، لهذا تلاحقت انتفاضات الخمسينات كما تسارعت تداعيات القصور ، حتى أوصل ذلك التفاعلُ والتناضل إلى ثورة السادس والعشرين من سبتمبر . هناك سقطت الملكية كحاكمة وقامت كمحاربة . فكيف يحارب الثوار : هل يبدؤون بوضع (الإمامة) الذي أصبح وضعهم ؟ أم بمحاربة (الإمامة) التي تحولت إلى مواقع تحاول استعادة الأمس ؟ كان لابد للثورة أن تنتهج خطين : خط حرب الحرب ، وخط تأسيس الوضع الجديد . لكن من أين تتكون أحجار البناء الجديد وهي من ذلك المقلع ؟ إن الثورة طويلة الميلاد ، جاءت كحدث فكري عن عمل مسلح ، ولم تأت بكل كوادرها الإدارية ، فهي مضطرة إلى المسالمين من الكوادر القديمة ، وإلى اضافة عناصر جديدة ، وكانت الكوادر القديمة أقوى امتلاكاً لواقع التوظيف أو أقدر على ربكه أمام المخلصين غير المجربين ، ونتيجة اشتداد الحرب جعلت الضرورة المدفع أهم من الخبز ، وجعلت المحارب أهم من الكادر الإداري

برغم الترابط بين النجاح الإداري والنجاح العسكري ، لهذا تطور الاستغلال الوظيفي في مختلف المستويات في ظل الوضع الجديد ، وأدّى هذا إلى التساؤل : هل الثورة مجرد تغيير الراية والاسم ؟؟؟ هل الثورة مجرد اقتلاع فرد وزرع أفراد من نوعه ؟ ماذا أحدثت الثورة ؟.

هكذا كان يتساءل البعض ، وكان يرد البعض بأن إنهاء (الملكية) مجرد بداية ، ولكل بداية أخطاؤها لنقص تجاربها ، وبتحقيق النصر على الفلول البائدة تبدأ الثورة الإدارية وتنقرض الإمامة (الأوضاع) ، كما انتهت الإمامة (السياسة) ، وكان يتساءل البعض : هل الأولى الاختبار أم الإخلاص ؟ وكان البعض يرى أن الاختبار أنفع حتى يخلق بديله المعزز بالإخلاص ، وكان البعض يرى أن الإخلاص للثورة أولى بالمناصب الإدارية ، لأن الاختبار مكتَسَب من التجربة ، وظل التساؤل عن الكيفية يعلو ويتردّد ، كما كانت المدافع تعلو وتتردد ، حتى بدى للبعض أن يشيد بإدارة العهد البائد محتجاً بالقوة الشرائية للريال ورخص الأسعار وانضباط الناس للسلطة ، وكان يسكت هذا الزعم التأريخ الذي يقول بأن أكثر الناس إفساداً في عهد الثورة هم أكثر الناس انتفاعاً بالعهد البائد ، أما القوة الشرائية للريال فقد كان سببها ندرةُ الريال في العهد الإمامي حتى زادت السلعة عن الحاجة ، أما الانضباط فقد كان قمعاً لا انضباطاً ، لأن الانضباط يكون للأمر الواجب على حين القمع إخضاع للسلطة ، أدى هذا التحاور المتصل إلى عدة مؤتمرات : كمؤتمر عمران ٦٣ ، مؤتمر خمر ٩٦٥ ، مؤتمر الجند ١٩٦٦ مؤتمر الطائف نفس العام إلى جانب مؤتمري أركويت واليونان ، وصاحبت هذا عدة تشكيلات حكومية : تعدد محاور السلطة : كمكتب سياسي ، كمجلس تنفيذي ، كمجلس شؤون القبائل ، تعدّد نواب رئيس الجمهورية وإضافة مناصب وزارية ، ثم أدى هذا إلى قيام تنظيم الاتحاد الثوري كقاعدة تنظيمية عام ٦٦ ، أفضى هذا إلى قيام حركة باسم

التصحيح عام ٦٧ فتصالحت هذه الحركة مع المحاربين وأقامت تشكيلاتها من المعتدلين ، فكونت المجلس الجمهوري بدلاً عن الرئيس وشكّلت قواعدها من :

مجلس وطني ثم مجلس شوري ثم مجلس شعب ، وكان هذا المزيد يستدعي مزيداً من المال إلى جانب الانفاق العسكري ، ومع كل هذا كانت الثورة تحقق انتصارات عسكرية كاسحة ، ولم يكن التلويح بفلول العهد البائد إلا مجرد ضغط سياسي من جهة ، ومجرد سبب ارتزاقي للمحاربين المحترفين من جهة أخرى ، ومع هذا ظلت للأوضاع (الإمامية) بقية ، لأن ثوار الستينات من مواليد الثلاثينات والأربعينات فعليهم آثار تلك الظروف الكسيحة ولهم إرادة تجاوزها ، لكن الكيفية للتغيير هي التي استعصت على الإدارة لغياب تصورها مسبقاً ، لأن ظروف الثوار هي نفس ظروف الشعب ، إذن فالآمال معقودة على جيل الثورة أي مواليد آخر الأربعينات والخمسينات والنصف الأول من الستينات ، وهؤلاء الأخيرون مايزالون في الحقول والملاعب والمدارس ، وربما كان أهمهم مايزالون أجنّة في أحشاء الفلاحات والحاطبات .

فكيف يتصاعد هؤلاء ؟.

إن أول شرط تصاعدهم إبداع مناخ مختلف عن مناخ الثلاثينات والأربعينات .

وكيف يتسنّى إبداع هذا المناخ في ظل صراع النقائض وتطاحن الإرادات غير المريدة ؟

لقد كان الجمهوريون يتأرجحون بين الطفور والاعتدال ، وكانوا يطفرون لانتزاع تأييد الثوار ، ويعتدلون إرضاءً للمعتدين ، وكان أكبر مناصري الثورة أكثر تأرجحاً بين الشارعين ، ولمّا انتصفت الستينات تغير ملمح هام من ملامح

السياسة العالمية ، إذ جاهرت الإمبريالية تحت إدارة (جونسون) بوقوفها إلى جانب أعداء ثورة اليمن وبمعاكستها لمؤيديها ، فتألفت في الداخل قوة اتصفت بالاعتدال كما اتصف معاكسوها بالتطرف ، وهذا بفعل الإتجار بالحرب في الداخل واختلاف وجه السياسة العالمية ، وفي عام ٦٧ اضطرت القوات المصرية إلى الانسحاب من اليمن بفعل نكسة حزيران في نفس العام ، ولعل سبب تلك النكسة الوجود العسكري المصري في اليمن ، لأنه انتهج خطين :

مؤازرة ثورة الشمال ، وتسليح ثورة الجنوب عام ٦٢ ، ٦٣ وكانت هذه أثقب نظرية للقوات المصرية والثورة اليمنية ، إذ لايمكن انتصار ثورة الشمال إلا بتحرير الجنوب من الاستعمار ، لأن محتليه كانوا يشكّلون عدواناً على الشمال وتكريساً لطول مدة احتلالهم للجنوب ، ورغم انسحاب القواب المصرية ظلت الثورة شاهرة سلاحها رافعة رايتها ، كما ظل التساؤل الثوري مشبوب الأنفاس بفضل نمو العناصر التي صبّت في عهد الإرهاص الثوري وتفتحت طفولتها وشبابها تحت شمس سبتمبر ، فلم تكد الستينات تطوي صفحتها حتى بزغت قوة شابة من مواليد آخر الأربعينات وبدء الخمسينات ، فعززت هذه العناصر الجديدة مواقع القوى الثورية النقية ، وشهدت أيام السبعينات أبناء المدارس يحملون البندقيات بدلاً عن الأقلام ،.ويكتبون صفحة جديدة في كتاب التحولات ، في ذلك الحين تعززت القوى الثورية بقوة جديدة نشأت لكي تتنامى كيفاً وكمّاً ، إذ أصبح مواليد الخمسينات في العشرينات أو على أبوابها ، وكان هذا الرعيل أول رائد للمواكب الشابة والتي سوف تشب والوليدة والتي سوف تولد ، لهذا خاف تجار الحرب من تصاعد هذه القوى وتدفق أفواجها ، وأرادوا أن يحرموها فرصة التجربة الحارة ، فتعالت دعوة التصالح قبل أن تحقق الحرب أي هدف غير قيام الجمهورية واحتمال تغيير اسمها في دعوات كانت قيد الطبخ ، غير أن القوة الشابة واصلت تكاثرها ، فحاولت المؤامرات عدة طبخات :

التجهيل عن طريق التعليم ، الإلهاء بالمناصب ، حرية الاستيراد والتهريب ، الإتجار بالسلاح ، افتتاح الأوكار السرية ، فكانت لهذه الاستعدادات معاكساتها ، لأن ثورة سبتمبر قد أنجبت من نارها جبالاً من نار ، لهذا سكتت المؤامرات عن تغيير النظام الجمهوري وإن احتفظت بالعناصر الداعية إلى نظام معلب ، واهتمت بإفرازات الواقع الثوري وصحو مناخه وكثافة غاباته ، هنا تحالفت رؤوس القوى على الثورة لكي يبقى الحكم بلا ثورية ، غير أن الثورية كانت أصيلة في الشعب ، فتعالت قامتها رغم كثرة التشذيب ونارية العواصف ، وربما كان ذلك التشذيب والإعصاف أكثر عوامل التغذية لشجرة الثورة وأكثر أسباب نموها ، ظلت الثورة حاملة سلاحها رافعة رايتها مرددة أغنية انتصارها مهما انتقلت ميادينها .

المهم أن الثورة زادت اشتعالاً وامتداداً ، وكان في هذا الامتداد والاشتعال جواب التساؤل :

أين الثورة ، ماذا حققت ، لماذا لم تتجاوز الظروف الموروثة ؟

لقد تحول تساؤل الستينات إلى جواب من منتصف السبعينات إلى الآن ، فكان التساؤل الثوري ديمومة الثورة .

فهل يتساءل اليوم أحد :

ماذا حققت الثورة ؟ وهل جاءت بأفضل مما كان .؟؟

إن الثورة إلى الآن حققت الثورة كحدث تأريخي ، ثم واصلت ثوريتها وشعبية قواعدها وشرعية وجودها ، لأنها جاءت من منطلق ثوري بدأته ثورة سبتمبر ، لكي تأتي منه ثورات كما تتدفق من النهر العظيم جداول كثيرة ، فقد حققت الثورة ديمومة ثوريتها وإن كانت لم تبلغ الصيغة النهائية ، فإنها تصوغ قوالب ماهيتها من عنصر تجاربها ، وقد يقول البعض : ماذا حققت مدة تسعة

عشر عاماً ؟ إن أصح الأجوبة بأن هذه المدة قد خلقت ثورة سبتمبر وما تفرع منها كامتداد متجدد في زمن جديد وعالم متغير ، لأن فترة السبعينات غير فترة الستينات ، ولابد أن تكون الثمانينات أشد مغايرة ، وهذه الشواهد تشير من قريب ومن بعيد إلى عالم يكاد أن ينقطع عن أصوله ، وفي خضم هذه التغييرات اجتازت ثورة سبتمبر كل النقاط البركانية وجابهت الأخطار على عدة ميادين مدة الستينات ، وعلى امتداد السبعينات اختلفت ميادينها فصارعت التخلف والمؤامرات ، وظلت تواصل خطوها في الميادين الجديدة وتقاتل خيول الروم في كل ميدان .

إن الثورة إلى اليوم تبني قواعدها على أصح أساس وتعرف غايتها من أعلى القواعد ، لأنها تتحرك بالشعب وللشعب بحكمها ثورة من الثورة في الثورة ، فيكفي أن سبتمبر بثوريته الرائدة أنجب أجيالاً ثورية تتعاقب على الميادين تحت الظروف المتغيرة وأمام العالم الأكثر تغيراً .

إذن فلم يكن تصالح عام ٧٠ إنهاءً وإنما هو ابتداء ، لأن كل يوم يبدأ فجره وكل جيل يتجذر اليوم من خطاه ، لأنه يتقدم ووجهه إلى الأمام ، ولم يعد يلفته أي نداء .

فالتساؤل الثوري وديمومة الثورة أزهى أقباس الثورة السبتمبرية وأزهى عناصر خصبها ، لكي تبقى متدفقة المواكب مرفوعة الراية حاملة السلاح .

* * *

الفصل العاشر

مشاكل اليمن الجمهوري

١ـ الأخطاء الموروثة .

٢ـ موقف حسابي أمام الثمانينات .

٣ـ قضايا على بساط القلب .

٤ـ الديمقراطية . . بين الإعلان والممارسة .

٥ـ توحيد الواحد . . ووهمية الشطرين .

٦ـ الثائر من حقيقته إلى تحقيقه .

الأخطاء الموروثة

قد يمتد الزمان من الزمان ، ويؤدي هذا الامتداد إلى مقادير من الجدّة ، وإلى ملامح من الاختلاف . . أما التكرار الزمني فإنه يجعل الأزمان كلها زمناً واحداً ، وبهذا يفقد تأريخيته ، لأن التأريخ تحرك دائم يتكون من جملة التغييرات الإنسانية في الزمن وتغيير الزمن في رؤية مفجري تغييراته ، فليس التأريخ مجرد اختلاف الليل والنهار . . فالتحرك التغييري وتكرار المتشابه يشكلان : الفرق بين التأريخ كصيرورة ، وبين الزمن كتعاقب أوقات .

وماالذي يجعل الزمن يوماً واحداً ؟

إنه توارث الأخطاء : كالوراثة العضوية ، أو كتوارث المقتنيات .

لابد لكل إنسان أن يخطئ مرات كثيرة أو قليلة ، ولكن الذي يفقده إنسانيته : هو أن يكون عمره مسلسل أخطاء امتد من مسلسل سابق ، لأن الأخطاء قابلة التوارث إذا عززتها أعراف وجمود عليها ، على حين المزايا كسب شخصي أو كسب اجتماعي على أياد قيادية مبدعة تفجر التحرك من دخائل المزايا ومن بواطن الركود .

وفي حياة الناس ركام من العادات والتقاليد الموروثة ، لكنها تتغير بمجرد هزات اجتماعية ، أو بمجرد تعطّل العادات من طاقاتها ، على أن أفدح الأخطاء الوراثية : هي التي تتطور شكلياً دون أن يحدث تجديد في مضمونها ، أو محاولة تجاوز من آثارها ، لأن هذا يوهم بتجاوزها .

مجتمعنا توارث الكثير من العادات التي أصبحت مسلّمات أو شبه مسلّمات . . يختلف الفرد مع قبيلته أو قريته ، فيقطع صلته بها ، ويلتحق بقبيلة أخرى لكي تدفع عنه ضريبة فرديته أو ضريبة عداوته لعشيرته ويسمى هذا الخارج (ربيعاً) لأنه طلب السكنى في مربع القبيلة الأخرى ، وكان يسمى هذا النوع في القديم بالخلعاء لخلع قبيلتهم إياهم ولا تؤوي أي مخلوع قبيلة أخرى إلا في النادر لقيمة شخصية في المخلوع ، فشكل هؤلاء الخلعاء مجتمعاً تسموا صعاليكاً وشذاذاً وأغربة على عكس القائم في بلادنا إلى الآن ، فكم تشتعل الحروب القبلية من جراء الخارجين على قبيل والداخلين في قبيل ، وهذا الجانت أسوأ جوانب العادة ، فلو وقف الأمر عند إيواء المستجيرأو حمايته لكانت من أشرف العادات ولكن بعد معرفة غبن المستجير وإلحاق الضرر به من أهله ، أما أن تحارب جماعةٌ جماعة أخرى لشذوذ فرد أو لنوازع انتقام فردي فهذا أسوأ جوانب العادة .

إذن فالمسألة معرفة الكيفية . . هل القتال عن الفارّ انتصار لحق مظلوم ؟؟ أو إرغام معتد على الكف عن عداوته ؟ أو أنه حق الإيواء مهما كانت بواعث المستغيث !!

مهما كانت مزايا هذه العادات ومعايبها ، فإنها قَبَلية تتناسب وراثتها مع التقليديين ، ولكن الأسوأ انطباق مثل هذه العادات على الجوانب السياسية التي يفترض فيها ثقابة النظر وتجاوز غير المجدي إلى الأكثر جدوى على المجتمع كله . . فما أكثر الذين غضبوا على زعيم أو (إمام) وأصبحوا من أنصار هذا أو ذاك ، دون أن يكون التحول الآخر عن معرفة بأنه الأصلح ، ودون معرفة الآخر بموقف اللاحق به وخروجه على سواه ، وقد أدى إلى هذا ، الصراع الطويل على الزعامة ، كما أدى إليه تعدد الزعامات في الفترة الواحدة . . كان الذي يفقد مصلحة من (إمام) قائم يلجأ إلى (إمام) منتظر القيام ، بغض النظر عن مشروعية المصلحة وبدون تمييز بين أفضلية القاعد على القائم ، ولعل هذا هو

الذي سبّب تعدد الأئمة ، وتعدد الزعامات في مختلف المناطق .

كان من يفقد مكانه عند الحاكم ، يميل إلى مناهضه ويضطر إلى التزام مذهبه ، وكان هذا يشمل المثقفيْن أو المتعلمين كالأميين تماماً ، حتى أن سلطاني (حجور) وكانا من نوابغ عصرهما القرن الخامس الهجري كانا يتخذان موقفين متناقضين : أحدهما إلى جانب (السيدة أروى) الصليحية وعلى مذهبها ، وثانيهما إلى جانب السنّيين وعلى مذهبهم . وهذا الاختلاف في الوجهتين لم ينشأ عن اختلاف ثقافتين ، وإنما عن اختلاف طرق المنفعة . . ولهذين السلطانين مئات الأمثال خلقهم تعدد السلطات ، أو خلقوا تعدد السلطات ، فاجتمع سيفان في غمد واحد أكثر من مرة ، وقد لايكون هذا - في جملته - مجانياً لعهود وراثية الحكم ، لأنه الوجه الآخر لتوارث العادات أو سبباً في امتداد توارث الأخطاء . . كل هذا محسوب على الماضي ، غير أن الأدهى والأمَرّ أن يمتد هذا التوارث المواقف النظرية وإلى عهد الشعب مصدر النظريات . فكيف امتد هذا الموروث إلى عصرنا بدون تعديل ؟

أو بتعديل لايتجاوز القشرة الخارجية ؟؟

من آخر الثلاثينات بدأ التلمر من استبداد (الإمام يحيى) ، وهذه ظاهرة مشرقة تبرهن على الحيوية ومحاولة التحول ، غير أن الظاهرة المشرقة تفقد بعض إشراقها أو كل إشراقها بوراثية سوء استثمارها وعراقة انتمائها إلى القبلية الفردية ، لأن الوسيلة تحمل في صميمها وجه الغاية ، لكي تتحول هذه الغاية إلى وسيلة تملك إبداع الغاية الأجد ، فليست الوسائل بمعزل عن غاياتها ، وإنما هي منها بمثابة البذور من الزروع ، فإذا كان التحول عن (الإمام يحيى) إلى الجانب الوطني الديمقراطي فإن القصد شريف ، أما الذين تحولوا عنه إلى (الإدريسي) المحتل لتهامة وإلى (عبد العزيز آل سعود) أو إلى (مشايخ) المستعمرات البريطانية في الجنوب ، فإن هؤلاء كانوا يشكّلون خروجاً على

الوطن مهما كان بعد الغاية ، لقد كانوا يبحثون عن الساخطين على (الإمام يحيى) بلا تساؤل عمّا يملك هؤلاء الساخطون من رؤية مغايرة ، أو عن إماكانياتهم لامتلاك رؤية مغايرة لأن السخط وحده على أي وضع لايكوّن سبباً جامعاً لإنهائه دون تبني بديل أفضل ، قد يكون السخط ثورة دائمة ، ولكن تحويله إلى وسيلة تغييرية يحتم رؤية الغاية من خلال الوسائل ، فلا يكفي السخط على (الإمام يحيى) بدون نظرية تغيير ، وبالأخص إذا لاحظنا أن أغلب قادة ذلك التحرك أبعدوا من مناصب أو عجزوا عن الوصول إلى مناصب ، لأن المناصب مجرد وسائل لغايات شعبية .

المهم أن المرارة من (الإمام يحيى) كانت مؤهلاً كافياً للانتماء إلى الثوار ، بغض النظر عن نوعية أفكار المنتمي .. وقد دلّت كتابات أولئك الرجال على اعتراف بسوء الاختيار وقِصَر النظر ، أو بنقص في التخطيط الوطني ، كما دلّ على هذا كتاب عبد الله الشماحي (اليمن الحضارة والإنسان) في تناوله للإمام يحيى وعينة السخط عليه ، يقول الشماحي ما معناه : « ولما وردت الأخبار إلى الطاغية (يحيى) عن هزيمة عسكره في (حرض) زاد وجهه الأسود اسوداداً واكفهراراً ، فلم يعد ذلك الأسد الكاسر وإنما أصبح أذل من ثعالة » . فهل تلك الهزيمة على (الإمام) وحده ، أو أنها على الوطن كله ؟ وهل الإشمات بالإمام في هذا الموقف نزوع وطني ؟؟. لقد كان ينبغي على الذين شمتوا بالإمام أن يلتحقوا بالمقاتلين لتحرير (تهامة) من الغزو ، لأن الفرد زائل والوطن باق ، إن التشفي بهزيمة (الإمام يحيى) يدل على أحادية النظرة إلى استبداده ، بدون تمييز بين ماهو وطني يهم الحاكم والمحكوم معاً ، وبين ما هو ذاتي يخصّ الفرد والحاكم وحده .. مثل كتابة (الشماحي) في هذا الصدد كتاب (من وراء الأسوار) الذي أجاب على أسئلة عن الحل وعن التجاوز ، وعن خلق بديل بطرق مغايرة ، فقد تناقضت الإجابات من الدستوريين إلى حد

أنها لاتدل على تنظيم ، وأجمعت على رأي واحد هو : حاجة اليمن إلى الخبراء العرب والأجانب ، دون أن تُلَمِّح إجابة إلى الواقع المحلي وإلى الحاجة الشعبية لنوع البديل ، وإلى خطورة الخبراء في غياب كادر إداري محلي . وأكد هذا المفهوم الشاعر (محمد محمود الزبيري) في كتابه (مأساة واق الواق) وفي أشعار آخر الخمسينات :

ألمح الشعب قابعاً يدرس الثورة كيما يأتي بأخرى جديدَهْ
يتحرى الأخطاء ، يغفر للأحرار أخطاءهم ، ليبقوا جنودَهْ

هنا اعترف بالأخطاء ، ولكن الاعتراف بها لايمحو آثارها ، إلا إذا أدى إلى معرفة تجاوزها . . ومن المؤسف أن معرفة أهم الأخطاء لم تقض عليها ، بل ربما عززتها أو أبقتها على وراثيتها ، ولكن بشكل آخر . . فقد ازدحمت الخمسينات بالتذمر العنيف كما ازدحمت بالاختلاف على الوسائل التي لم تسأل عن غايتها .

كان (الاتحاد اليمني) في آخر الخمسينات بالقاهرة يحاول سبق كل التنظيمات إلى قتل (الإمام أحمد) مع أنه لم يتبن قتل الإمام يحيى في شباط ٤٨ أيام كان معارضاً في (عَدَن) لأن المعارضة غير المقاومة المسلحة كما قال الأستاذ أحمد محمد نعمان أهم مؤسسي الاتحاد : « وقع خبر قتل الإمام يحيى علينا بصنعاء وقوع الصاعقة ، لأنه باسم الدستور والدستوريين وهو في حقيقته نزوع إمام إلى مكان إمام ، وحين دعينا إلى صنعاء قبلنا الواقع » . ورغم تجنح الاتحاد فإن أغلب رجاله في الداخل أصروا على إنهاء (الإمامة) وقيام الجمهورية ، إلا أن الذين خرجوا على (الاتحاد) انضموا إلى (البدريين) في الداخل بمقدار ما انضم رجال من الداخل إلى الاتحاد في مهجره ، وإلى هذا أشار الزبيري زعيم الاتحاد :

سوف لا تأخذ الخيانة إلا هَمَلاً من صفوفنا أو غُثاءا
لا يبالي يبايع الله صبحاً ثم إبليسه اللعين مساءا

هنا رأى (الاتحاد) تيارات جديدة إلى جانب التيارات القديمة ، كلها تختلف على الوسائل ، وكلها تؤجّل الغاية أو لاترى لها وجهاً ، كما دلّت الأحداث من بعد . لقد وصل (الاتحاد) إلى الاقتناع بالجمهورية في مطلع الستينات . . ولكن ما برنامجها ؟ مانوع رجالها ؟ مامؤهلات قمتها ؟ . .

كل هذا لاتنمّ عنه إشارة ، ولا تدلّ إشارة على نوايا (البدريين) ، مع أن السخط على (الإمام أحمد) كان ملتقى (الاتحاديين) و(البدريين) باعتبار أن (البدر) سيختلف عن أبيه ، وعلى اعتبار (الاتحاديين) أن الأمل في اختلاف (إمام) عن (إمام) تجربة فاشلة ، فإنهم لم يقطعوا صلاتهم بالبدر كلياً .

لكن من أين وصلت كلتا الفكرتين إلى الفريقين ؟

لقد ورث (البدريون) هذا الخطأ من (الأحرار) الذي أصبح (اتحاداً) . . ففي مطلع الأربعينات رأى الجناح الأدبي من (الاتحاد) أن (أحمد) يختلف جذرياً عن أبيه (يحيى) وأن الالتفاف حوله يساعده على تجاوز ظروف أبيه بعد موته أو قتله ، وبعد فترة اكتشف (الأحرار) الفخ المنصوب لهم في قصر (أحمد) ، فواصلوا نضالهم ضد (الإمام) وولي عهده ، حتى مصرع (الإمام يحيى) ، هنا نجحت التجربة وفشلت في وقت واحد . . نجحت بقيام حكم الدستور ، وفشلت بسقوطه السريع ، ووقع أهم الرجال تحت السيف أو في قبضة السجن ، أو بين جدران المنفى . . لكن هذه التجربة الفاشلة امتدت إلى البدريين في آخر الخمسينات ، من انخداع (الأحرار) في أول الأربعينات ، وكاد هذا الخطأ الموروث يتكرر ، وأن يقع فيه أكثر رجال (الاتحاد) . إلا أن بزوغ قوى جديدة كادت تغير الحساب ، وإن

كانت لاتملك وسائل تغيير الموروث كلياً ، رغم اختلاف الوجهات . . فقد تشكلت في آخر الخمسينات عدة تنظيمات سريّة على غرار أمثالها في الوطن العربي : كالجبهة الشعبية ، والبعث العربي الاشتراكي ، والقوميين العرب . . وكان هؤلاء يملكون وسائل التغيير ولكن على نهج هذا القطر أو ذاك ، دون استخلاص أفكار من ميدان الممارسة . ودون صنع قوالب محلية تتمازج فيها الأفكار المستفادة والأفكار المستخلصة من واقع الوطن .

وفي مطلع الستينات تشكّل تنظيم (الضباط الأحرار) كما فصل هذا كتاب (أسرار ووثائق الثورة) وهذه التسمية تكاد تكون امتداداً لحزب الأحرار الذي تحوّل إلى (اتحاد يمني) إلى جانب محاكاة الضباط الأحرار بمصر غير أن هناك أدلة على أن هناك ضباطاً كانوا ينتمون إلى الجبهة الشعبية : كعبد الله اللقية ، ومحمد عبد الله العلفي ومحسن الهنداونة . . وقد أرادوا على يد اللقية والعلفي أن يسبقوا إلى تفجير الثورة عام ٦١م ، ولكن لم يعلن لهذه الجماعة برنامج مكتوب وكلما حققته هو محاولة اغتيال (الإمام أحمد) . لكن هل كانت تريد قيام جمهورية ؟ أو أن (البدريين) كانوا يخططون لمقتل (الإمام أحمد) لصالح (البدر) ، أو لصالحهم من خلال البدر ؟؟

وهذه التجربة تنتسب وراثياً إلى انتفاع (الإمام أحمد) من مقتل والده ، وهذا خط موروث منذ لبس (معاوية) قميص (عثمان) ، غير أن هناك جماعة تقدمية كانت تعارض استعجال الثورة ، لأن الظروف في بداية نضجها ، ولأن الوسائل لم تملك غايتها ، غير أن التوتر كان على أشدّه ضد (الإمام أحمد) ، وكانت كل المجاميع على اختلافها تتبنى مناوئيه كمؤهل وحيد ، بغض النظر عن أصالة ثورية هذا ، أو آنية ثورية ذاك ، أو نفعية ذلك ، لكن هل السخط على زعيم فترة مؤهل كاف للثورية ؟

إن الثورة مجرد وسيلة تخلقها الغاية ، لأن الوسيلة الطريق إلى الغاية ،

والغاية هي ملهمة الوسيلة ، فلا فواصل بين الوسائل وغاياتها ، حتى عند صاحب الفكرة (مكيافللي) ، فعندما رأى أن الغاية تبرر الوسائل ، كان يربط بين قوة الدولة كوسيلة ، وبين وحدة إيطاليا كغاية . . . كذلك السخط على أي وضع يكوّن إمانية إنهائه وتتوالد من خلال إمكانيات الإنهاء الغاية منه : وهو قيام الأفضل . . ولايخلق الأفضل إلا الفضلاء الذين تمثلوا من خلال القائم ملامح الممكن ونوعية صانعيه وصنعه ، لأن جنس العمل من جنس عامليه . .

لقد تمخّضت كل هذه الاختلافات إلى اتفاق موروث ، وبلور هذا الاتفاق انعدام صلاحية (الإمامة للبقاء) ، فأصبح الشعب كله سبتمبرياً بكل عناصره : إما عن أصالة ثورية ، وإما عن عدوى مرحلية ، وإما من قبيل ملاءمة الزمان . . لكن نفس الموروث تداخل في الجديد الذي جاء من موروث . . هناك تغير شكل الموروث ، فلم تميز معرة الأحداث بين صناع العهد البائد كأساس لوجوده ، وبين أعمدته كسبب في امتداده ، وبين ثمرة أوضاعه كانعكاس لعهد خلقته مئات العوامل الوراثية ، فقد كان السخط على العهد الإمامي عن تعمل أو عمل : هو المؤهل الثوري : فمن سجنه (الإمام) لأي سبب فهو ثائر . حتى الذين سرقوا الصناديق وكانوا أمناءها ، مع أنها ثروة الشعب لاخصوصيات (الإمام) ، ولاسيما بعد انتهاء عهده ، لكنهم أصبحوا ثواراً لأنهم سجناء (الطاغية) ، كما أصبح الذين فرّوا من الطاغية إلى اي مكان ثواراً بغض النظر عن الملجأ الذي آواهم ، حتى لو كان حضن الاستعمار .

أليس هذا نفس موروث الماضي البعيد أو القريب ؟

فمن يعادي زعيم فترة . . أو يثور عليه فهو ثائر دون التساؤل عما يتبنى من بديل أو ما يتبنى من مشاريع مستقبلية .

إن نوع الثائر ونوع ثقافته ومواقفه وسيلة إلى جانب الوسيلة العملية ،

غايتاهما التغيير إلى الأفضل ، ثم إلى الأفضل منه . . ولكن استجدت أحداث كانت منتظرة أعادت الموروث الماضوي بشكله القديم ، وبأشكاله الجديدة المتفرعة عن قديم . . فانقسمت الجموع الشعبية في آخر ٦٢م إلى جبهتين متحاربتين جمهورية ، ملكية . ولعبت الغالبية على الحبلين ، كما كانت تلعب أيام خروج (إمام) على (إمام) أو كما كانت تتلاعب بين (الإدريسي) المحتل وبين (الإمام يحيى) المستبد ، برغم الفروق امتد هذا إلى جماعات الستينات ، وكان يهمها امتداد مدة التلاعب . . وكانت هناك جماعة تجعل من الحاضر تتمة للماضي ، وامتداداً للمستقبل عندما تسكت النار أو تخفت ويمكن التحرك من خلالها ، وامتدت هذه الفترة من ٦٢م إلى ٦٧ . فكان انقلاب ٥ نوفمبر صفحة مختلفة اللون من سجل الموروث ، فكل سجناء الجمهورية الأولى ، وكل من فرّوا منها إلى أي مكان وكل من تجمدوا فيها ، هم ثوار نوفمبر ، بغض النظر عن أسباب سجنهم,وبدون سؤال إلى من التجؤوا ، وبدون تساؤل عن عوامل تجميدهم . . بل وبدون تفكير عما أحدث تجميدهم أو سجنهم أو فرارهم .

هل عطّل هذا كفاءات . . ؟ هل كان هذا العمل تعسفياً ؟

هل كان سببه زيادة استغلال ، أو محاولة زيادة استغلال ؟ .

إن السجن أو الجميد أو الفرار قد يصلح مقياساً ثورياً على البعض ، ولكنه لاينطبق على كل الناس إذ لايكون المرء ثائراً بمقياس واحد ، وإنما بجملة مقاييس عن جملة مواقف ثابتة متطورة في حدود فن الإمكان .

بعد الخامس من نوفمبر تبنّت الجمهورية الثانية كل مناوئي الجمهورية الأولى ، حتى ولو عن دافع غير وطني . . الجديد في شكل هذا الموروث هو التسميات والعناوين : متطرّف ، معتدل ، وطني متحمس ، وطني هادئ ، وكانت هذه امتداداً لمضمون الاتهامات الإمامية لمناوئيها : كناصبي كزنديق

كدستوري . . وبعد إعلان هذا الاتهام الجديد للقوى الوطنية دلّت لغة الاعتدال على غير مفهومها . . لأن الاعتدال فلسفياً هو نقطة الوسط بين التهور والشجاعة ، وليس هو التراجع عن أي مفهوم ، ولا هو الجبن على أي لغة ، والحماس هو عنصر النار في نفس الثائر ، لكن ليس هو مجرد رفع الصوت ، وإنما الاستماتة عن موقف وطني تمثل جمرية الصوت عطرية دخائله . . ومثل ذلك الهدوء . . هل هو عن امتلاء مستبصر ؟ أم عن فراغ من فراغ ؟ . كل هذا لم يكن مدار التساؤل والتفاهم ، وإنما كان عدو العهد الأول رجل العهد الثاني ، ولو كان عدو الذي جاء منه مجرد انتهازي يبحث عن مكان .

هناك أصبحت المناصب فرصة الفارّين ، والمناوئين ، بل ومحاربي الشعب . . وارتدى الموروث شكلاً معاصراً : الذات اليمنية ، الاتزان ، الاحتفاظ بالممكن ، حسن العلاقات مع الجيران .

وبعد هذه العناوين تواصل البحث عن ملء محتوياتها بالموروثات ، فتشكل في بداية السبعينات (الاتحاد اليمني) من خليط الوجوه ، ومن خليط المراحل السابقة . . وأدى الالتزام بهذه الشعارات والشكليات إلى تجميد البعض ، وسجن البعض ، وفرار آخرين . . ولكن الأسباب أصبحت معروفة ، كما أصبحت المناصب حكراً على مجموعة معينة ، تتناوب الصعود والنزول من فترة إلى أخرى ، كانحصار (الإمامة) في (العترة) وتقاتل (العترة) على الأولوية أو كحصر الإسرائيليين النبوة في آل إسحاق وحرمان إخوته بدون مقياس بين أولاد إبراهيم . . وأرادت قمة تلك الفترة أن تركز على شرعية وعلى قواعد . . فعينت كل أعضاء المجلس الوطني في آخر الستينات . لكن لماذا التعيين لمجلس تشريعي ؟ ليس التعيين كله سيئاً ، لكن المسألة نوعيته . . فهناك ظروف تستدعي التعيين عن اختيار لتنفيذ أجود ، باعتبار أن التعيين عن فهم أجود للتنفيذ على حين الانتخابات أصدق على التمثيل ، ومن خلال أسماء

المعينين للمجلس الوطني تبرهن الدلائل على أنه مجرد استحداث مناصب وقبض مرتب آخر . . هذا هو الشكل الجديد للموروث في آخر الستينات وأول السبعينات . . وعندما تطور المجلس عكسياً أصبح مجلس شورى تشابه فيه الانتخاب بالتعيين ، لأن الإرهاب الذي سبق الانتخاب يقضي على كل الحرية وتمتلك السلطة كل الحرية . . فقد تساوى التعيين والانتخاب ، لأنه من وجهة تعيينية في الغالبية . ثم أعيد تشكيل (الاتحاد اليمني) ، وكادت عضويته تصل إلى حد الإجبار سنة ٧٢ .

هنا تبدت حركة ٤٨ في مطلع السبعينات بكل وجوهها وبكامل قديمها وقليل جديدها . . وكل الذي حدث هو اختلاف أسماء البيوت وأسامي بعض الوجوه ، وكان هذا (الاتحاد) كالذي امتد منه بلا برنامج ، وكان هناك خلط بين البرنامج العملي وبين الدستور . . كما اعتبر الأربعينيون (الميثاق) ورقة عمل . . وهناك فرق بين الدستور أو الميثاق الذي يحدد السلطات وينظم العلاقات ، وبين البرنامج الذي يربط بين الأهم والمهم وبين المراحل ، ويحدد مدة كل انجاز وبداية كل تحول إلى غيره . . ومن الضروري أن يكون البرنامج معلناً لكي يخضع للرقابة والحساب ، لقد كانت آخر الستينات وأول السبعينات امتداداً للموروث وتشكيل بعض سطوحه ، حتى انتهى ذلك العهد بحركة ١٣ يونيو ٧٤م كتصحيح لحركة تسمت تصحيحاً ، واستمر الموروث في الجمهورية الثالثة في أشكال أكثر حداثة ، وبين تراوح وقفز ، وبين توقف وتجاوز . . فأعلنت الحركة ، الانتماء إلى سبتمبر ، واعتمدت على غير أوراقه ، بدون تساؤل عن الأوراق المستهلكة ، وعن القابلة للحياة تحت ضوء جديد . . لكن هذه الحركة اعتمدت أساساً على الشباب ، وهذه فكرة عامة ، فليست المسألة مسألة سن ، وإنما مسألة خبرة قد تتوفر للشباب ، وقد تكون أوفر عند المُسنِّين المتفاعلين عن ثقافة مع التغييرات . . إلى جانب هذا امتدّ الموروث : فمناوئو

القمة السابقة أصدقاء القمة الجديدة في يونيو ، وتمادى هذا الموروث ، فأصبح كل عدو لقمة قديمة هو صديق القمة الجديدة ، بغض النظر عن دافع الولاء والعداوة ، وبغض النظر عن وطنية التبني والرفض .

إن هذه الأخطاء الموروثة بتماديها ، تجعل كل الزمان يوماً واحداً وكل التغييرات تجري على مفهوم واحد .

إن الولاء الوطني عن ثقافة واستمرارية موقفية هو مقياس كل المقاييس ، وإن التحقيق الوطني من خلال المنصب ، هو أهم من الطموح والوصول والتشبث والنزول . . ولايمكن أن تحقق المناصب أهدافها إلا بالوسائل الجديدة المتصلة بجديد غاياتها .

إن ما كان ممكناً بالأمس أو مبرراً بالظروف ، يفقد موضوعيته بانتهاء زمنه .

إن التمادي في توارث الأخطاء وتشكيلها على اختلاف الأضواء ، يجعل من شعبنا لا يخرج من شيء ولايدخل في غيره . . وهذا لا يضمن مصالح المسؤولين ، ولايعوق طموح الشعب كحركة تتولد وسائلها ، وتتوالد منها غاياتها .

إن الولاء لفلان أو العداء لفلان ، لايصلحان مقياساً لتقييم الشخص ، وإنما أصح المقاييس هو الولاء للمبدأ العظيم الذي يكلف الصراع ، لأن شرعية الغايات ، نفس مشروعية وسائل الطموح .

* * *

موقف حسابي أمام الثمانينات

يقول بعض المتتبعين ، إن السؤال الأمريكي الملحّ كان في آخر الخمسينات : ماذا تعلم ؟

وفي آخر الستينات كان السؤال الأمريكي : ماهي أسباب ثورة الشباب ؟

وفي السبعينات كان السؤال الدائر على الشفاه الأمريكية : بأي دين تلتزم ؟

إنّ اختلاف الأسئلة من فترة إلى فترة ، يدل على قلق المهتمين ، وعلى أن القضايا أكبر من الحلول وعلى إمكانية الحلول .

وبناءً على هذا : فما هي أسئلتنا المحلية ؟

كان السؤال اليمني في مطلع الستينات ، وفي طفولة الثورة بالتحديد : كيف كنا ؟

وفي ٦٤ كانت تتمة السؤال : ومازلنا ؟

وفي ٦٦ كان السؤال : أين أصبحنا ؟

وفي آخر السبعينات كان السؤال : كيف تراجعنا ؟

وعلى امتداد السبعينات امتد سؤال واحد : ماذا حققنا ؟ فكيف نتصور سؤال الثمانينات !

استنتاجاً من الأسئلة ، فإن الثمانينات ستسأل : هل تغيرنا قبل أن تعصف بنا التغيرات ؟

ولكي نواجه الثمانينات بإجابة إيجابية ، نلتفت إلى مستهلّ الطريق ، لكي نحاسب أنفسنا من الداخل قبل أن يتحدّاها الخارج بالحساب الأشد ، ومما يطاوع على هذه المحاسبة ، هذا الامتداد الزمني من عام ٦٢ إلى ٨٠م ، فقد أصبحت الثورة ابنة ثمانية عشر عاماً ، فلو كانت امرأة لأصبحت أماً أو قابلة للأمومة ، ولو كانت رجلاً لأصبحت في سن الإنجاب ، لأن الزواج المبكر من عاداتنا ، غير أن هذا الزمن الثوري لايقاس بالعمر الأحادي البشري إلا من قبيل الاستئناس التقريبي ، لأن هذا الزمن عمر ملايين من أبناء الشعب ، فقد قُصفت أعمار شابة ، وأريقت دماء وعرق لتغذية هذه الشابة العجوز المدعوة الثورة .

إذن فقد أصبح للثورة تأريخ رقمي وتأريخ عملي وتأريخ دموي فعمرها الرقمي أطول من العمر السياسي للإمام (أحمد) و(البدر) بأربع سنوات ، فصار في إمكان هذه المدة الأطول أن تمسح آثار هذه المدة الأقصر . . أما التأريخ النفسي للثورة فهو سابق لميلادها بعشر سنوات على أقل تقدير ، لأن إمكانيات بزوغها توافرت من مطلع الخمسينات ، وتألفت هذه الإمكانية : من رفض القائم ، وتبني ماينبغي أن يقوم . .

وكانت الثورة هي الامتداد والانقطاع لعمر (الإمام) و(البدر) في الخلافة ، كانت امتداداً لذلك العهد ، لأنها جاءت منه ، وكانت انقطاعاً عنه لأنها ردّ فعل عليه . . ولم تنفرد ثورتنا بهذه الخصوصية ، فكل الثورات جاءت من فساد لكي تتجاوزه وتتجاوز آثاره ، جاءت الثورة الفرنسية من عهد الملكية اللاهية ، وجاءت الثوررة الروسية من القيصرية المتداعية ، وتمخضت الثورة الأمريكية من ركام الاحتلال الإنجليزي ، وتفجر العلم الثالث من تحت الوطأة الاستعمارية بمختلف أسمائها .

كل الثورات ولدت من نقيضها ، كما تجيء النبوءات من الجاهليات ،

وعلى تقارب الينابيع ، فإن لكل ثورة سماتها ، لاختلاف مأتاها وتأثره على الآتي ونوع رده عليه .

لكن فكرية الثورات كلها تسبق العمل الثوري ، لكي تصبح الأفكار الأداة النظرية للقوات المسلحة ، وتصبح القوات المسلحة الأداة المادية للأفكار النظرية ، وذلك بفضل التحالف بين المفكرين الثوريين وبين القطاعات النقية من الجيوش .

ولاشك أن الثقافة الإمامية كانت أشحّ من أن تُكَوِّن فكرية تصبح أداة أو أن تشكّل أداة تهتدي بالنظريات ، لكن هذا الشحّ لم يمنع من اقتحام أفكار وامتلاك أدوات عمل ، لأن محاولة الثورة عمل فكري على حجم القوة التي ستقتلعها القوة الثائرة ، فقد قابل شحّ الثقافة الشعبية تداعي الثقافة الإمامية ، وكان لثقافة الثورة - على صغر حجمها - نضارة الحداثة ، وكان سلاح الثورة هو المستقبلية ، وكان سلاح الإمامة هو الماضوية ، والمستقبل آت بالحتمية والماضي غير قابل للرجوع ، في شكله القديم .

لهذا كانت الفكرة الزمنية أمضى أسلحة الثورة يرفدها جديد الثقافات على ضآلة عطائها وإصرار العنصر الإنساني على التجاوز . . عندما تبرجت الثورة لشمس سبتمبر ٦٢م تبدّى الثوار في مستوى المسؤولية العظيمة ، فحشدوا كل المثقفين من كل مستوى ليتحملوا مسؤولية الحكم . . فشكلوا قيادة ثورية من أنقى العناصر المعروفة في الداخل والخارج . . هناك انتهى عهد الإمام ، وانتقل الثوار من المنافي والسجون والمخابئ إلى قمة السلطة .

هنا تكاثفت عدة ظواهر : اعتبر البعض نهاية (الإمام) بداية لهم لكونهم أطول صراعاً للعهد الإمامي ، ورأى البعض نهاية العهد المتوكلي ميلاد اليمن الجمهوري الذي صنعوه ، وتصور البعض لون الجمهورية ، وحاول البعض أن

تولد الجمهورية حاملة هويتها الخاصة .

كل هذه علامة صحة ، لأن اختلاف الثوار الدليل على غنى فكريتهم وعلى تعدد الرؤى بتعدد الأفكار ، فقد نشب الاختلاف بين الثوار في أكثر من مكان . إذن فأين تكمن المشكلة ؟

تكمن في توازي الاتجاهات وعدم تفوّق جانب على جانب عدداً وموقعاً ، مما يدل على تشابه النظريات واختلاف غاياتها ، حتى وصلت الاختلافات إلى شبه صراع طائفي أو جغرافي وانعدام قاسم مشترك ، إلا أن أنفاس الشعب كانت أقوى من كل العواصف . لكن كيف كان يتصور الشعب الثورة ؟

لقد كان يراها شيئاً مختلفاً عن العهد البائد كلياً ، وكأن الثورة نبات يومها ولا تربطها وشيجة بزمن رجالها الذين نشؤوا تحت الظل الملكي . . إن هذا تصور مشروع - رغم طيبته - وقد كان الثوار أو بعضهم أقرب إلى الشعب ، كان الثائر الذي يركب سيارة في أول عهد الثورة يحمّلها كل من يجد على الطريق معلناً : أن هذا الحق قد انتقل إلى الشعب الجمهوري ، لكن هذا لم يكن إلا شعور الجماهير وبعض الثوار ، وكان بصورة عكسية شعور وزراء الثورة .

لقد اختار الثوار خير من يعرفون من المثقفين السياسيين كوزراء ، غير أن هؤلاء الوزراء تصوروا الثورة إنهاء للإمامة بدون شعور بتجاوز تأثيراتها ، فحاول كل وزير أن يحمي مقعده الوزاري بإرضاء أكبر مجموعة من موظفيه ومن غيرهم كقاعدة شعبية قد توصل إلى مقعد أعلى ، غير أن كل هذا الاسترضاء لم يرض كل الناس لأن غايته الكسب الشخصي لا النفع العام ، فظل التساؤل والتذمر يشغل الشوارع والمقاهي ومجالس القات !!

وبالتالي تحول تذمر الشعب إلى سوء ظن ببعض الوزراء لامتزاجهم من خليط متنافر من عدة اتجاهات ومن عدة حرف : فقد التقى التاجر إلى جانب

الضابط ، والمثقف المعاصر إلى جانب حامل العمامة ، هذا في مقاعد الوزارات ، ومثلها المجالس والمكاتب كالمكتب السياسي الذي تبدّى أعلى سلطة : فقد تلاقى فيه الضابط والشيخ ، والجمهوري ونصف الملكي ، والمثقف والأمي .

بهذا تعتم الجو أمام المسؤول والسؤال ، لغياب الناظم المشترك بين شتى المراتب ، فتصرف كل مسؤول كإمام جمهوري : مثال على هذا كان وزير كذا يبيع ماحول وزارته من البساتين والمساحات الخالية قابضاً الثمن إلى جيبه الخاص أو مودعاً إياه البنك باسمه الشخصي لا باسم وزارته ، حتى البنك الوليد عندما أراد عمارة ملحقات اشترى من إدارة تقع جواره وقبض المدير الثمن دون أن يحسب هذا للحكومة ، وتمادت هذه الفوضى في سباق متصل ، وباتساع العمران اشترت كل وزارة من وزارة ، وباعت وزارة لأخرى ، ومن كانت أرضه أوسع فرصيده أعلى وكان من المعتاد في الحي الراقي أن يتبع الدار بستان ومدخل له ممر طويل إلى باب الدار لأن هذا الحي الذي يسمى (بئر العزب) كان متباعد البيوت لحداثة عهده بالإعمار ، فلم يقم في ذلك السهل العمران إلا في آخر القرن التاسع عشر ، ثم ورث العهد الإمامي تلك الدور وحوّلها إلى وزارات وإدارات ببساتينها ، ثم تلاحق الإعمار من أول القرن العشرين إلى أن اتصلت منطقة (بئر العزب) بحي اليهود ، الذي يجب فصله عن أحياء المسلمين بميلين ، نتيجة لتباعد الدور تكاثرت البساتين التي أصبحت عمارات من ٦٢ إلى الآن أول التسعينات ، فتشكلت إدارة الأملاك الحكومية لكي تحدّ من هذه الأطماع ، ولكنها خضعت لأصحاب النفوذ وللعلاقات الشخصية مع الوزراء ، كأن كل وزارة قطاع خاص للوزير يقبض ثمن المبيعات مباشرة أو عن طريق الشؤون المالية أو قسم المبيعات ، إلى جانب هذا كانت البلدية تبيع لحساب مسؤوليتها بلا تخطيط ، ومثلها أو أكثر فوضى وزارة الأوقاف ، فامتلك القادرون

أوسع المساحات وأضخم المبالغ ، دون أن يصل الفقراء إلى سد الضرورة المعيشية والسكنية .

إذن لم تشكل الثورة جهازاً إدارياً ، وإنما شكلت أشلاء معلقة على مشاجب جديدة ، وكانت تنكشف هذه الانتهازيات كلّ يوم للجماهير المضحية عن حاجة إلى التغيير ، غير أن دخان الحرب كانت تغطي وجوه النفعيات البشعة وتشغل الثوار عن التساؤل في اختيارهم لتلك العناصر ، وعن نقص معرفتهم بها قبل الاستيزار ، وكان بعض المسؤولين يرفضون هذا التصرف ، ولكنهم كانوا يؤثرون تآلف القلوب على إلحاق العقوبات ، نظراً للأحوال الحربية ، على أساس أن الجمهورية تواجه من العداوات ما فيه الكفاية ، فقد يلجأ الوزير المعزول إلى الجبهة المعادية للشعب .

لهذا ازدهر الاستغلال في مئات الأشكال والصور لغياب العقاب والتسيير المنظم ، ذلك لأن حاسة الضمير لا تتوفر إلا لأقل الأنقياء ، ولقد كان هذا الاستغلال يمارس نشاطه والبؤس الاقتصادي يسفر عن وجهه في كل ملمح ، فصغار الموظفين ينتظرون المرتب قرابة أربعين يوماً ، فقد اختفت النقود (ماري تريزا) تحت مبرر إبدال العملة . . وبعد ظهور الريالات الفضية الجديدة بشهور ظهرت العملة الورقية .

هنا انتبه الرأي العام متسائلاً عن النقود الفضية كم كانت وكيف صرفت وأين اختفت ؟

قيل : إن الثورة ورثت أربع مئة مليون ريال فضي كانت مخزونة في صنعاء وتَعِزّ وحجة إلى جانب عدد من صناديق الذهب . فأين ذهبت تلك الملايين وتلك الصناديق الذهبية ؟ كان التساؤل يشكل اتهاماً مصوباً إلى الذين دخلوا القصور لافتتاحها أو لحصر مقتنياتها .

صحيح أن الحكومة رفعت المرتبات لبلد يريد أن يحول الأموال إلى مشاريع ، وكانت هذه الزيادات من نوع بيع أراضي الوزارات والبلديات تقصد الترضية وإسكات الاحتجاجات ، فقد شُكِّلت الإدارات والأقسام بدون معرفة كفاءة وبدون عملية إدارية ، كانت بعض الإدارات تتكوّن من أربعة موظفين ومدير ، وكان أحياناً يتكون القسم من رئيس بلا رعايا وكان القصد من كل هذا قانونية رفع المرتب ولتغطية انتفاع بعض الوزراء ، كل هذا أدى إلى انهيار الاقتصاد اليمني عند شدّة احتياجه إلى الإمكانيات المادية للتغيير وللحرب الدفاعية .

هل تصور مسؤولو تلك الفترة مشاريع زراعية للريف أو مشاريع صناعية للمدينة ؟ وبالأخص إذا عرفنا أن المناطق المنتجة كانت خارج دائرة الحرب ! .. غير أن الحرب أصبحت مبرراً لغياب فكرية المشاريع ، كما تحولت إلى ذريعة للكسب الشخصي عند الرؤوس العالية في المكاتب والمواقع الحربية ، وامتدت هذه الظواهر السيئة دون أن يؤثر عليها تحويل وزير إلى سفير وتغيير سفير إلى وزير أو تحويل المحافظ إلى وزير ونقل الوزير إلى محافظ ، ومن المؤسف أن أغلب هؤلاء الوصوليين ينتمون إلى رفض العهد الإمامي وإلى رصيد الحركات الوطنية .

إذن فقد كانت الحرب الثورية تعاني الخيانة من الداخل عن قصد أو غير قصد ، وعن اعتماد على العون الناصري عند أحسن السيئين .

مثلما كان يحدث في كراسي الحكومة ، كان يحدث في المواقع القتالية :

استزادة الميزانية ، سوء القيادة حتى تنتفض المنطقة ، افتعال الأحداث ، تقبل التهم عن أغراض قبلية ، كان يتجذر كل هذا في تربة الثورة ، وهي في ربيع نموها .. وكانت التبريرات تُحمّل العهد الإمامي أعباء المسؤولية وكانت

مقولات الستينات : (كل هذا من رواسب الماضي) لكن لو كان الماضي راسباً ما تمخضت عنه ثورة . فهل السائل من لون الإناء ؟

أما تشكّلت الثورة عن تصورات مسبقة للعهد الجديد وبنائه على أنقى الأسس أو تأسيسه على أرض أكثر صلابة !

لقد رفعت الثورة أهدافها الستة ، ولم يتبعها تفسير فكري تنبثق عنه لوائح إدارية وناظم مشترك للتسيير .

فلماذا لم تنفذ تلك الأهداف ممارسة ؟

لابد أن الأفكار التي ألّفت الأهداف ترعرعت في مناخ الخمسينات ، وغاب عن حسابها احتمال الستينات ، وقاست نجاحها بمقياس نجاح الآخرين دون أن تفكر باختلاف شعبنا عن سواه .

لقد مارس غيرنا من الشعوب أساليب الحكم والتنظيم في أشكال متعددة ، ورغم شكلية الديمقراطيات فقد امتدت التجارب بعضها من بعض .

نلاحظ مثلاً القرن التاسع عشر : كان عندنا (محمد بن علي الشوكاني) وكان في مصر (رفاعة الطهطاوي) كانت غاية الشوكاني تجاوز المذاهب الخمسة والرجوع إلى الكتاب والسنّة ، وكانت غاية الطهطاوي مواكبة الإسلام للديمقراطيات الفرنسية ، ولتعليم البنات وتوظيف المرأة ولها بعد تجارب الوظيفة أن تسفر أو أن تتحجّب ، كما في كتابيه : المرشد الأمين في تعليم البنات والبنين ، الابريز في تلخيص باريز . شكل الشوكاني مذهب السنّة الحرفية ، وكون الطهطاوي أساس المعاصرة .

فما أبعد المسافة بين المصلح الديني والمنظِّر السياسي من قاعدة دينية !

تلى رفاعة الطهطاوي جمال الدين ومحمد عبده ، ومدّ طريقة الشوكاني

بعد مئة عام (أحمد عبد الوهاب الوريث) .

فتح الشوكاني باب الاجتهاد الفقهي ، وحاول الوريث تأسيس الإصلاح الوطني على هدى الدين . . ولعل هذه المسافة بين الشوكاني والوريث برهان القحط في خليفة (الوريث) الذي تأخرت دعوته الإصلاحية إلى آخر الثلاثينات زمن الثورات المتجاوزة للإصلاح إلى ثورة الجماهير .

وكان ثوار ٤٨ ينتمون إلى السُنّة الشوكانية ويجمعون بين السنيّة والوطنية ، حتى أطروحات الأربعينات والخمسينات المكتوبة بقلم الزبيري ونعمان ، كانت أقل طموحاً من كتابة (علي عبد الرزاق) عام ٢٥م .

في سوريا تكّون حزب البعث العربي الاشتراكي في فترة تكوين حزب الأحرار في بلادنا عام ٤٤م ، وما أبعد الفرق بين الطموحات التي طرحها التنظيمان ! .

إلى جانب هذا فإن كل التنظيمات في الشعوب الأخرى مارست علنياً نشاطها فنجحت وانتكست في عدة تجارب .

في بلادنا نشأت التنظيمات الجديدة من أول الخمسينات في الجنوب ، ومن آخر الخمسينات في الشمال ، ولم يصدر أي كتاب عن فلسفة أي تنظيم مثل كتاب (في سبيل البعث) لميشيل عفلق أو مثل (المنبر الذي اخترناه) لجورج حنا .

لهذا جاءت الثورة حاملة المدفع ومعتمدة على مثقفين لم تعلن كتاباتهم فلسفة منهجية ، فكانوا بعد الثورة كما كانوا قبل الثورة يتلمسون أسهل الحلول . يقول الأستاذ علي محمد عبده في كتابه (مسار الحركة الوطنية) : « إن قادة الاتحاد اليمني بالقاهرة كانوا مؤيدين للحسن بن علي عندما يصبح بديلاً لعمه (الإمام أحمد) على أن ينفذ مطالبهم الدستورية » .

وإلى جانب مؤيدي (الحسن بن علي) كان من رجال الاتحاد من يؤيد (البدر) ضد أبيه وعمه (الحسن) أكبر المنازغين له على السلطة .

ونتيجة لهذا تبنى الشباب من كل التنظيمات : (الجمهورية) كوريث شرعي شعبي (للملكية) بمعتدليها ومتطوريها ، لأن الذين ارتدوا التطورية من الملكيين حاولوا ركوب الموجة .

من هذا المناخ جاءت الثورة قبل نضوج أفكار وبعد شيخوخة أفكار ، فحلت الوصولية الشخصية ، أو تعتيم الرؤية محل تجذي المناخ الثوري ، فكان الانتقام من الفقر الذاتي بديلاً عن إنشاء رخاء الشعب عند أغلب القيادات السياسية والعسكرية ، بيد أن الإخلاص للجمهورية أصبح ظاهرة شعبية بدون إلماح إلى الكيفية للنظام الجمهوري ، وغطت مداخن الحرب مجال الرؤية من آخر ٦٢ إلى نهاية ٦٩ وحلت المداراة محل المواقف الشعبية الواضحة على امتداد هذه السنين الحاسمة ، وهذا ما أدى إلى غياب التحول الجذري الذي يطالب به الشعب ويضحي من أجله في كل موقع .

فهل العهد الماضي مسؤول ؟

نفترض جدلاً أنه كان مسؤولاً من جانب أحادي ولكن في السنوات الأولى للثورة ، ولعل رمي المسؤولية على هذا الجانب قد برّر الثورة المضادة نوفمبر ٦٧ . فماذا تغير بعد أن أسست هذه الفترة جذور الآنية والانتهازية ؟ تكاثرت المراكز والركائز ، ولم تختلف إلا بعض الوجوه والأسامي ، لزيادة الانفاق على المراكز وركائزها ، وانتشرت الرشوة وأصبحت المدخولات الشخصية بالملايين ومن عشرات الطرق ، وعندما انتهى عقد الستينات كانت لكل وزارة اتصالاتها بأكثر من جهة ، حتى المصالح والنوادي أصبحت لها مساعداتها الخارجية ، وبزيادة الدخول الواردة تزايد التضخم ، وأصبحت بعض المحافظات دويلات

مستقلة أو قطاعاً خاصاً للمحافظ (الشيخ فلان) غير أن الشعب لم يستكن ، لأن أعمدة الجمهورية الثانية وأتباع (الملكية) قد تواجدوا في جبهة واحدة ضد جيش الثورة وشعب الثورة ، ولأن الشعب جيش بالاستعداد والممارسة حل الغزو الإلهائي بكل أشكاله الرأسمالية محل القتال الدموي ، فسقط القابلون للسقوط ، غير أن الشعب لم يخفض له جبيناً ، لأن ثورته الجماعية حصّنته من هجمات المغريات في شكل : سيارات وشيكات وعمارات وسفرات ترفيهية .

هنا تنبّه الطامحون في القيادة إلى مشروع تصحيحي تسمى (مشروع القوات المسلحة للتصحيح المالي والإداري) وأعلن ذلك المشروع عام ٧٢ عن موافقة المجلس الجمهوري وكان هذا أول مبرر لحركة جديدة ، وجاءت حركة يونيو ٧٤ تتبنى السبتمبرية وتعلن : تنفيذ مشروع التصحيح الإداري والمالي ، وبعد شهور أعلنت إنهاء كل ولاء لغير اليمن وتبنّي الولاء الوطني بدلاً من تعدد الولاءات عن طريق الحزبية التي سادت أكثر الستينات وأول السبعينات ، وانتقلت الحركة إلى خطوة ثالثة : تشكيل لجان التصحيح ، غير أن أغلب الوجوه ظلت في مراكزها من أول الستينات وإلى الآن عند كتابة هذا ، فقد كانت تسقط القمة وقل من يستقيل مكرهاً من وزارة ، أما بعض النواب والوكلاء وبعض رؤساء المصالح فقد ينتقلون ولا يستقيلون ، مع أن الوكالة والنيابة في بلادنا منصب سياسي عن قرار ، وليس منصباً إدارياً عن تدرج وظيفي أكسب الكفاءة .

كان لتشكيل التصحيح وجهان : الوجه الظاهري تصحيحي ، والوجه الباطني تنظيمي كقاعدة للجمهورية الثالثة .

غير أن التصحيح على هذا الشكل أعجز من أن يصحح ، لأن رتبة الاستغلال والتلاعب فوق رتبة التصحيح بمسافات وأقوى مواقعاً في بعض الجهات . .

فهل يمكن أن يتم التصحيح عن طريق اللجان بوجهيها ؟

من المجرب أن أنجح طريق ، اقتلاع المستغلين الفوقيين .

ولماذا لانختار الصحيح بديلاً عن التصحيح ؟

إن اختيار الأصحاء أجدى للمهمة الوطنية من تشكيل لجان تصحيح ، وبالأخص أن التعيين يتم بقرار رئاسي ، والقرار التعييني عن مسؤولية يختار أجود المنفذين ، إن اختيار الأصحاء يغني عن التصحيح بل يغني عن الفساد الذي يستدعي التصحيح ، لكي تعمل تلك اللجان في ميادين أخرى بما عندها من أفكار تصحيحية ، لأن الإثمار في أي موقع يؤثّر بالعدوى على سائر المواقع وإن كانت عدوى الفساد أسرع .

فماذا حققت السبعينات ؟

إن الاختلاف والامتداد في الوجوه لم يأت عن حسن اختيار للأنقى والإيجابي ، فاتسمت السبعينات باختلاف شكل الاستغلال لانوعه ، وبزيادة المبالغ الفردية بديلاً عن توظيفها جماعياً .

ومن يرى مكاتبنا على اختلاف درجاتها ومبانيها تصعقه الدهشة من هذه الفخامات في دوائر شعب يعرق في بلاد الآخرين ويذبل في دياره .

لماذا لاتحل البساطة والنظافة محل الفخامات المكتبية ؟

هل تستر الفخامات المكتبية وجوه الإفلاس من الكفاءات ؟

قد يكون من اللائق بعض الفخامات لمكتب الوزير كمظهر أمام الزوار ، لكن الفخامة تعممت رغم ارتفاع أسعارها المتصاعدة ، ورغم انتزاع تكاليفها من أفواه الشعب الفقير ، وإذا كانت هذه التكاليف الخرافية من الصدقات النفطية فإنها على حساب الأرض والعرض قال مسؤول إماراتي : « هذه هي التغطية

الثالثة لمشروع توسيع الكهرباء في اليمن ، لأن الوزير الأول لايبقي من المساعدة مايمكن الوزير الثاني من الإنفاق على المشروع ، ولكن بحمد الله الخير وفير » ، تعممت الفخامة العالية الأثمان من مكتب الوزير إلى مكتب مديره إلى مكاتب الوكلاء والنواب والمستشارين والخبراء والمديرين .. حتى أصبحت الإدارة الصغيرة أكثر أثاثاً من إحدى حجرات البيت الأبيض ، ومن العجيب أن هذه الكماليات الفارغة مرصودة لحساب كل عام وعلى سباق مع موضات الديكور المختلفة الأشكال ، ومن المؤسف أن هذه الزوائد اللماعة على حساب الضروريات في بعض الوزارات والمصالح كالمراحيض والماء ومن يدخل وزارة العدل لايدري هل هو في حرم الشريعة أم أنه في فندق (شيراتون) لأنها مفروشة من أسفلها إلى أعلاها أمام الكادحين الذين يقضون العمر في البحث عن حل قضاياهم بدون رشوة أو بها ، إذا جازت فخامة الديكور ، فهل يجوز تعليق القضايا على أرقام المبالغ ؟

إن دخول السبعينات تبحث عن رقم فوق الأرقام المعروفة لكثرتها ، ولكن أين تذهب هذه الأموال ؟

في سباق موضة الديكورات واللهاث عن أحدث موديلات السيارات ، في بناء أحدث الشقق وآخر طراز الاستراحات ، بالإضافة إلى هذا تفرع من كل وزارة وزارات باسم إدارات ألوية ومؤسسات متعددة الأسماء .. على حين الملايين من شعبنا يذويون فوق رمال الصحارى النارية وتحت أمطار إفريقيّة وشمسها ، وعلى حين المئات من أطفالنا في بعض المناطق لايجدون مدرسة ، ومن يلاحظ الشوارع صبيحة كل يوم يرى الأطفال ملء الشوارع : إما لانعدام المدارس ، أو لانعدام كفاءتها التربوية والتعليمية .

أليست فخامة المباني والمكاتب والسيارات وتعدد المؤسسات المبهرجة تدل على الاهتمام بالسطوح دون أرضية الجذور وعلى الاهتمام بالكماليات بدلاً

عن الضروريات من مستشفيات ومستوصفات ومياه نقية ومنازل صحية ؟

مثل هذه الفخامات المكتبية كثرة السيولة النقدية في أيدي القلة لكي يزداد التضخم وتصبح السلعة أقل من طلب المترفين وأبعد عن تناول الغالبية .

هذه الظواهر السيئة المتلاحقة ، نمت مع قامة الثورة وتحولت فصول نموها من فاسد إلى أفسد ، حتى أصبحت أثقل الأعباء على كتف الثورة الناهد في عامها الثامن عشر .

فهل كانت الثورة هي المسؤولة ؟ أم الثوار هم المسؤولون ؟ أم المناخ هو المسؤول ؟ لايمكن الفصل بين الثورة والثوار والمناخ العام .

إن الشعب اليوم يصرّ على تفجير الثورة على النفس ، وها نحن نواجه الثمانينات بحساب النفس وإرادة التقشف ، لكي تشهد الثمانينات أننا تغيرنا من الداخل قبل أن تغيرنا غضبة الخارج ، لأن من يغير نفسه ومحيطه عن اختيار مسؤول ، لايتكسّر أمام تغير الخارج عن اضطرار المستسلم .

* * *

قضايا على بساط القلب

يقال إن الإنسان عالمٌ في حجم شخص .. لأن كل واحد من الناس موصول بكل الناس لاشتراكه معهم في المنافع العامة ... والمضارّ العامة ... إذ لا يضمن المصالح الخاصة إلا التضامن العام للشعب ، لذلك أصبحت الهموم الاجتماعية خاصة لأنها عامة ... أو عامة لأن لها اختصاصاً بكل قلب يهتم ... وبكل تفكير يبحث عن تحويل الهموم إلى أفكار ... ثم تحويل الأفكار إلى بدائع عملية يطلق عليها علمياً (الإبداع العام) ، لأن كلّ ما يدور في الرأس من أفكار نشأ في القلوب خفقاً لكي يصعد إلى الرؤوس تفكيراً ... ثم إلى الوجود إبداعاً ... فلم يكن (سد مأرب) مثلاً مجرد بناء لاختزان المياه وإنما تحول من اعتلاج في الصدور إلى أفكار في الأدمغة ... ثم انتقل من بساط القلب إلى بساط البحث ... ثم من جلسات التداول والتأجيل إلى حقيقة تحت الشمس ... فالقلوب التي تشعر هي قاعدة الأدمغة التي تفلسف ... ثم تمتد الجسور بين الأفكار وواقع الإبداع ... ولعل أكبر القلوب هماً هي أكثرها اهتماماً بالغير ، ويحسّ المسؤولية عن الغير ، لأن هذا الاتصال بالغير يخلط الذات بذوات موضوعها فتتحقق في شكل ما تحقق خارجياً .

ومن هذا المنطلق تراكضت الأفكار كالينابيع في شكل إبداعات عظيمة ... ولعل الثورات المتلاحقة كانت بدافع الحس عن الغير وحقوق هذا الغير أو ادعاء حقوق هذا الغير على الأقل ...

إذن لابد من التنادي بين هموم العظماء ونوازع كل الناس .

كانت النبوءات استجابة للظروف التغييرية ، لكي يتحول الكشف إلى اعتقاد تغييري لأن الحق والخير والنفع العام سبقت وجود النبوءات والتنبؤات وإنما كان للنبوءات والتنبؤات فضل سبق الرؤية إليها... والدلالات عليها . . . ولاشك أن أمام كل تحقيق عام ركاماً من الصعوبات . . . وكل هذه الصعوبات سبب في مزيد اختبار الإنسان واقتداره على التجاوز . . . إذ الإنسان مجبول على تجاوز نفسه والرحيل من اقتداره الشخصي إلى الاقتدار العام ، لكي يتجلى اقتداره بسواه وفي سواه . . . ولأن تحقيق الأعم نفعاً يستدعي التآزر على انقياده إلى جماعية الغايات ، عبَّرت القيادات عن هموم الشعوب ، وثبت منذ القدم أن الأكثر هماً هو الأكثر نفعاً . . . وأن الانتفاع من القيادة هو وجودها المضيء لكل العيون ولكل السائرين . . . لأن الأضواء لم تخلق لنفسها وإنما لغيرها . . . لهذا توالت الانتفاضات على توالي العصور بحثاً عن الأنفع للجميع والأضمن لمصالح الغالبية . . . وكانت أغلب الانتفاضات عائلية أو فئوية لتميز تلك العائلة أوتلك الفئة بمكانة أعلى أو نظر أبعد أو تحريك أوسع . . . وكانت تقابل تلك العائلات أو الفئات عائلات وفئات إما ممتدة من نفس الفصيلة أو معاكسة لها من أشباهها وأمثالها . . . وظلت الشعوب تبعاً لكل صائح لتوقها إلى الخروج ، بغض النظر عن مطلِق الصيحة ذلك لأن العالم تحرك وتغير . . . غير أن التحرك لذاته لايستهدف نفعاً . . . كما أن التغير قد ينحصر في مصالح قلة . . . أو يتغير إلى الأفضل أو الأسوأ . . . كل هذا كان عمل التأريخ لأنه عمل الإنسان . . . غير أن الناس لم يكونوا أتباع كل ناعق – كما قيل – إلا بفعل اشتياقهم إلى ما يترتب على النعيق باعتبار الصيحة لغة الإرادة الناطقة . . . لهذا كانت الثورات الشعبية في عصرنا أعرض الصيحات لأنها هتاف كل الحناجر وهمّ كل القلوب . . . ولعل ثورتنا لا تخرج عن هذا المفهوم العام . . . فقد كانت أعلى الصيحات لانتقالها من كل خفقات القلوب إلى تعبير الفعل . . . غير أن هذه الخفقات

كانت مختلفة الجيشان على واحدية لغتها الثورة . لكن الثورة لمن ؟ وبمن ؟ وعلى من ؟ . . .

لقد اتفقت كل الخفقات القلبية والإرادات الفعلية : على من ؟! . . . على الطغيان . . . واتفقت بمن ؟ بالشعب . . . واتفقت لمن ؟ . . . للشعب أيضاً . . .

ومن هذا الاتفاق القلبي والفكري والعملي توالد الاختلاف النظري .

هل الثورات على الطغيان مضطرة إلى الطغيان . . .؟؟ لأنها قامت على طغيان مسلّح فلابد لها من طغيان يحميها من مخلفات الطغيان ومن تكالب المؤامرات . . . وهذه غاية شعبية على أساس أن طغيان الثورة قتال ضد القتال أو طغيان ضد آثار الطغيان . . .

من هنا كانت مشروعية الطغيان كحرب في وجه . . . حرب . . . أو كسلاح يقارع سلاحاً . . . لأن الحق الأعزل لايثبت أمام الباطل المسلح . . . ولعل طغيان الثورة ممتد من طغيان الخارجين عليها .

فهل طغيان الثورة شعبي . . .؟! إذا فقد شعبيته فسوف يلحق بالطغيان الذي أنهته الثورة . . . لأن الثورة بالشعب . . . لكن من هو الشعب . . .؟؟

إنه القوة التي اقتلعت الطغيان أو كانت ضحيته . . . أو كان ضعفها أحد أسبابه . . . عندما تملك الثورة أسباب قوتها تتصف من قبل أعدائها بطغيان جاء من طغيان . . . ويتباكى هؤلاء الأعداء . . . عل الحرية وعلى الديمقراطية . . . وعلى الجماليات التي ازدان بها العهد المنقرض . . . لكن لمن كانت حرية العهد المنقرض ؟ لقد كانت محصورة في السلطة وحدها . . . ولم يكن حظ الشعب غير القهر . ولمن كانت ديمقراطية العهد المنقرض ؟ لقد كانت مِلكية خاصة لأعمدة السلطة ولثمرات وضعها . . . ولم يكن للشعب من الحرية والديمقراطية

إلا فتات الآراء الجانبية . . . أما الجماليات فقد كانت ترفاً خاصاً للقصور ولا نصيب للشعب سوى جمال الطبيعة التي تعجز كل سلطة عن احتجانها لنفسها . . .

إن أهم ما يشهر أعداء الثورات من السلاح هو النواح على الحرية . . . ولكن حرية من ؟ إنها حريتهم وحدهم التي لا تنتعش إلا باستعباد الشعب : تارة باسم الحرية ، تارة باسم التطرّف ، حيناً باسم تعويق الممكن .

إذن لابد للثورة من طغيان ولكن لمصارعة الطغيان لكي ينطلق الشعب . . . ولكن من هو الشعب . . .؟ إنه كل الناس الذين ثاروا أو الذين علمتهم الثورة أن لهم حق الحياة الحرة والسيادة على الوجود ، لأن الثورة قامت بالشعب أو باسمه فهي له على كل حال . . . ولا ينبغي أن تكون الثورة بكل قواها إلا بالشعب ومنه وله . . . وتلك هي الحرية المشروعة للطغيان المشروع . . . أو القوة الشرعية بمعنى أصح . . .

ولاشك أن كل السلطات في اليمن الجمهوري منذ قيام الثورة تبذل أقصى الجهود في الثورة بالشعب وللشعب . . . وللانطلاق من الشعب إليه . . . ولكن هناك فروقاً بين النوايا وتحقيقها . . . وبين الشعب والشعب . . . لأن كل من يريد الوصولية يلبس لها عباءة الشعب . . . وكل من يحمل الهراوة ضد الشعب يرتدي اسم الشعب لأن الشعب أصبح حقيقة الحقائق . . . باعتبار الثورة تصاعدت منه وبه وعلى تبريكاته ونداءاته . . . فلا يمكن أن تتحقق النفعيات على حسابه إلا باسمه . . . أو باسم أفراد تدّعي تمثيله . . . وإذا لاحظنا الخطوات المتعاقبة فسنجد عدة مسؤوليات لم تؤدّ مسؤولياتها لسبب واحد :

لعدم تفريقها بين الفئات وبين الملايين ، وبين الشعب والمحسوبين عليه وعدم التمييز بين الأهم والمهم ، أو بين الكمالي والضروري . . . فهل الشعب

أو بعض أفراده مشتركون في حمل هذه المسؤولية . . . ؟

إن التفاوت في حمل المسؤولية على حسب مواقعها . . . وإذا كانت الثورة مضطرة إلى القوة لمجابهة القوة فإنها أكثر اضطراراً إلى الكوادر التي يترتب عليها مشروعية القوة وشعبية غاياتها . . . وفي إمكان وقفة عند الكوادر أن تثير التساؤل .

إن كل الشعوب ترتب خطواتها إلى الأمام على عدد المتخصصين والخريجين من كل تخصص كما فعلت اليابان مثلاً . . . فما مدى جدوى هذا في بلادنا . . . ؟

لقد كانت بلادنا في ثلاثينات هذا القرن ترسل البعوث وتستوفدها ولكن بشكل محدود في العقد الرابع وبدء الخامس . . . أما من منتصف العقد الخامس إلى آخر السادس فقد تزايدت الإرساليات إلى الخارج ولكن من منظور طبقي ، لأن العهد البائد حاول دعم انهياره بأنفاس جديدة من خبرة العصر والملمين باختباره . . . غير أنه أراد أن يطبع الناس بطابعه . . . فقد تخرجت في الخمسينات جماعات في عدة تخصصات . . .

والتحقت جماعات بعدة معاهد وكليات ودورات . . . ولم تتمخض عن هذا نتيجة مرضية لفساد السلطة ولازدياد فسادها لمطلقيتها . . .

وكان غياب الجدوى من الإيفاد والبعثات مردوداً لسيطرة السلطة المطلقة . . . وكان من الممكن أن يتغير هذا جذرياً بإشراق الثورة كعهد مغاير تحت نظام مغاير . . . وفي جو أكثر مغايرة . لقد أثبتت أحداث الثورة تحمّس خريجي الخمسينات وأوائل الستينات للعهد الوليد : فهل كان ذلك بعدوى الحماس الشعبي ؟. أم كان عن نظرية ثورية ؟.

اختلف المنظور باختلاف النظريين نتيجة تمادي العدوان وإصرار دفاعنا

الشعبي على النصر . . .

من هنا تعدّد الشعب أو تعدّدت الدعاوى باسم الشعب . . . فقد أراد كل فريق شكلاً معيناً من الحكم . . . أو أراد أن يجعل قالب ذلك الشكل كما يرى . . . غير أن هذا لم يشكل مانعاً من الثورة بالشعب ، لكي يملك الاختبار والاختيار الثوري من الشعب لكي يتجذر الوضع . . . ويمتلك واقعية جِدَّته من تسارع واقعه . . . والثورة للشعب لكي يحقق الشعب منافعه ولكي تكتسب السلطة شرعيتها وشعبيتها . . . إذ لم يكن هناك اختلاف على شعبية الثورة . . . وثورية الشعب وإنما على الكيفية . . . ومهما تعددت النظريات إلى الحكم وهويته أو إلى الطريق إليه فإن توفر الكوادر الإدارية ضرورة لكل نمط أو لأي نمط . . .

لهذا تزايدت أعداد الخريجين في الستينات وتكاثر كمّ البعثات ومع كل هذا لم يؤثر هذا الكمّ على هذا النوع في قدرة الكوادر الإدارية . . . بالإضافة إلى هذا تزايدت أعداد الدورات إلى كل الدول والمنظمات الدولية . . . فبعثت كل وزارة وكل مؤسسة الأعداد تلو الأعداد للدورات الإدارية أو التخصصية أو الاستفادة على الأقل من تجارب الناس ، وكان المرء يلاحظ أن العائدين من الدورات يتخرجون وكأن لم يدخلوا . . . إما لأنهم كانوا يديرون إدارة ناقصة الكفاءة أو أنهم لم يملكوا كفاءة لخلق كفاءة غيرهم أو حسن تسيير سواهم . . . وربما لم تكن تلك الدورات تعود بأي مردود وإنما كانت تجعل من المهمة مجرد تغيير هواء ، وكان المسؤولون على اختلافهم يحاولون إرضاء بعض الموظفين بالرحلات الترفيهية باسم : دورة ترفد الاختبار .

لاشك أن هناك أفراداً اكتسبوا خبرات ولكنها ضاعت فيما نسميه بالسلبيات . . . أو فيما نسميه قلة الإمكانيات مع أن الاختبار الإنساني أول شروط الإمكانيات .

من آخر الستينات إلى أوائل الثمانينات تكاثرت أعداد الخريجين من كلياتنا وكليات العالـم واستجدت مشكلات أخطر تعوق خبرات المتخرجين داخلياً وخارجياً ، وذلك من خلال تعدد المؤسسات الأهلية وشبه الحكومية والحكومية وتفاوت المرتبات على تعدد المؤسسات . . . لهذا أصبح بعض المتخرجين يبحث عن الدخل الأكثر في تخصصه أو في غير تخصصه . . . المهم حمل الشهادة وزيادة الراتب يضاف إلى هذا مشكلة الانتماءات والولاءات . . . فهل تغيّبت مسؤولية التسيير الراصدة للتخصصات وباعث التخصصات وقيمة الإيفاد إلى الخارج ؟ .

هذه مسألة أو همّ قلبي يستثير التساؤل .

لماذا لم تؤثّر أعداد المتعلمين على امتداد ثلاثين عاماً ؟

المسألة الثانية : هل محاولة التجاوز مسؤولية مشتركة ؟ . . . وإذا كانت مشتركة فلماذا لايقوم نصب الهمّ مبدأ ؟ إن أكثر الناس نفعيون ، ولكن النظام هو الذي يقف إلى جانب النفع العام وضد الخاص إذا كان على حساب العام . . .

فهل تجدي زيادة الخبراء المجلوبين وتنوب عن اختبار الشعب ؟

لقد احتضنت بلادنا أفواج من الخبراء من منتصف الخمسينات إلى الآن ولا يلاحظ أي متتبع جدوى هذه الأفواج . . . لا في الاقتصاد ولا في الزراعة ولا في الصحة العامة ولا في الأجهزة الإدارية كلها ، بالقدر المنشود في ظل التغيرات الثورية .

لقد كان الخبراء في العهد الإمامي كالخريجين تحت التسيير الفردي وفي ظل الفردية المطلقة ، فلماذا لا تبدو جدوى الخبراء منذ التصالح عام ٧٠ إلى الآن ؟ .

السبب أن الخبراء يحتاجون إلى خبرة إدارية محلية تسيّر أعمالهم وتتعقب مسيرتها وجدواها . . . صحيح أن السلطات منذ عام ٦٢ إلى الآن تحاول مرافقة التغيير وانتقاله إلى الأفضل . . . ولكن بدون اقتدار لإمساك زمام الكوادر ووضع كل اختصاص في ميدانه وبدون يقظة على الخبراء ومن ذا يخدمون بخبراتهم .

هل الوطن الذي جاؤوا إليه أم الدوائر التي جاؤوا منها ؟ .

هذه مسألة ولكن هل هناك مسائل أشد أهمية ؟

إن السلطات المتعاقبة تركز على المشاريع كالطرقات والمستشفيات والمدارس . . . والتلفزيون والكهرباء ، ولهذه مكانها بين الأولويات لكن هل تلتقي وجهة الشعب والسلطات في هذا المنظور ؟

وهل هذه أهم أم أن غيرها أولى بالأهمية ؟ .

إن مجتمعنا قبلي حربي ولا تتهيأ قابلية المشاريع التعليمية والفنية إلا في ظلّ سلام صحو . . . وهل ينبغي التأكيد على أن الشعبية الوحيدة للإمامة تأسست على تأمين الناس من الناس ؟ . . . فلا تقع خصومة بين قرية وأخرى إلا والحكومة أسرع من رد الصوت إلى الصائح . . . ولا يشتبك اثنان بالعصي في أي سوق إلا ألقي عليهما القبض فوراً ولايتشاجر حيان في أي قرية إلا وأسكتت الحكومة الشجار بسجن رؤوس الفتنة وأيديها وبسرعة فضّ الخصومات .

صحيح أن الشعب كان أعزل وكانت السلطة الإمامية قوية لوجود هذا الضعف في الشعب ، وأن القضاء على الخصومات المسلحة كان أسهل ، لكن إمكانيات العهد البائد كانت أقل بالقياس إلى تعدد أجهزة الجمهورية ووفرة قواها الأمنية والعسكرية .

منذ قيام الثورة إلى الآن لم تتدخل المحافظات والقيادات تدخلاً جدياً

وعن مسؤولية لتأمين المواطنين من بعضهم على أهمية هذا الوجود للدولة وللشعور بحنانها ويقظتها فما السبب ؟

مهما كانت الأسباب فإن تأمين المواطنين من المواطنين أهم المهمات . . . وأول الضروريات قبل كل المشاريع لأن الإنسان أعظم المشاريع ، ولأن الأنظمة لا تطور مشاريعها بل ولا توجد قابليتها إلا بوجودها كنظام مانع للاقتتال والاشتجار ، وبالأخص في مثل شعبنا الذي أصبحت الأسلحة النارية فيه أكثر من المناجل والمعاول .

لقد كانت أسلحة الخصومات في العهد الإمامي هي العصي والأحجار والخناجر . . . وكانت البندقية على قلتها آخر الوسائل في كل اقتتال . . . أما اليوم فقد صارت البندقية الدرجة الثالثة بعد المدافع والرشاشات . . . ومع كل هذا فإن السلطات المتعاقبة أقوى وأقدر بل ومن ضرورة وجودها أن تحكم هي بدلاً من احتكام المواطنين إلى أسلحة الدمار والموت . . . لأن هذا يوهم بغياب السلطة بل يجعل غيابها حقيقة فإذا سألت المقتتلين في أي منطقة إلى متى الاقتتال وإهمال المزارع والمواشي ؟ . . .

أجاب كل الأطراف (ما بش دولة) ولاشك أن هذه الإجابة صادرة عن الغضب لا عن الحقيقة كاملة ، ولكنها دالة على ميول الناس إلى حكم السلطة بدلاً من الاحتكام إلى الدموية غير الهادفة . . . إذن فوجود السلطة أمنياً وفي كل مكان (المشروع الأول) وأساس كل المشاريع لما يترتب عليه من الأهميات التالية :

أولاً : إن حكم الناس لنفوسهم بنفوسهم بدون وعي جماعي بالتسيير الأصح ، يوهم بخلو الساحة من النظام .

ثانياً : إن هذا التنازع يشكّل المقاومات ، فعندما ينتصف كل غريم من

غريمه بيده ، يبحث عن خصومة أخرى لأنه قد أدمن هذا الاعتياد . . . وبهذا يسري الشغب غير الهادف ويمتد في الأعقاب بمقدار استحكامه في الآباء . . . ولعل أهم الوسائل لحسم الحروب المحلية منع أسواق السلاح ليسهل انتزاعها فيما بعد ، لأن وجود السلاح في وجود الإهمال الأمني يوسع دوائر العداوات ويجعل الإنتاج كله قتلاً . . . قد يرى البعض من المتنفذين أن هذا الاقتتال يصرف المشاغبين عن السلطة أو يتيح الكسب الآني باسم إخماد القلاقل ، غير أن لامتداد الحروب الأهلية وجوهاً باطنية هي أخوف ما تخاف السلطة والمتعاونون معها ، فهل هذا اتهام ؟ إنه مجرد سؤال وأظن أنه يهم المسؤول قبل المواطن .

ومن حسن الحظ أن السلطات تؤمن بالنقد البناء وتدعو إليه . . . والنقد البناء لا يُعَمر قصوراً على المدلول الحرفي وإنما يعمر قلوباً لكي تصبح بساطاً للبحث . . . ويهز رؤوساً لكي تمتد نظراتها إلى الواقع الذي نظر إليه النقد . . . أو الذي ألمح إليه التساؤل . . . فالنقد البنّاء هو الذي يتبنّى حقائق موضوعية يعرف أنها أهم من غيرها وأن الاهتمام بها طريق إلى ما يليها في الأهمية .

صحيح أن بعض الحقائق مُرَّة يشقّ على البعض استساغتها ولكنها في نفس الوقت حقائق لا يغيرها تزويقها ولا يمسحها تجاهلها ، بل يزيد التغاضي عنها من خطورتها .

من الجميل أن تنتشر المصابيح الكهربائية . . . وأن يتعمم التلفزيون والهاتف . . . وأن تحل الأضواء الكهربائية محل مصابيح الغاز ووميض النجوم . . . لكن . . . هل يشكل هذا خصباً حياتياً ؟

والمدافع الرشاشة تتساجل أراجيز الفناء من دار إلى دار . . . ومن جبل إلى جبل . . . ومن رواب إلى أودية . . .؟

إن أكثر القرى المضاءة بالكهرباء لا تتمتع بالقناديل لأنها دليل الرصاص في أكثر من ألف قرية . . . وأكثر من عشرين منطقة بعضها على مقربة من صنعاء بنحو خمسين كيلومتراً . . . وبعضها أمضت سنين داجية استعصت على الإصلاح المحلي لاحتياجها لردع السلطة ، ولعل ردع السلطة غير مستحيل بل إنه متوفّر الأسباب بمقدار توفر أسباب الاقتتال ، لأنه نتيجة لحروب الثورة على امتداد الستينات . . . وللحروب الجانبية على امتداد السبعينات . . .

فلماذا تتجه القذائف إلى غير أهدافها . . . ؟

إن القتال في اليمن يختلف عن القتال في لبنان لأنه ليس حرب طوائف ولا تنظيمات . . . ولكن غياب الأمن جسّم التوافه وأحل الرشاشات محل مسؤولية سلطة الأمن ، فما أكثر ما يشتجر القتال عل ذراع في مرتع أو مساحة منزل في سفح . . . فهل سلبيات الأمن امتداد للعجز الإداري . . . ؟

إن الدولة جهاز واحد وإن ضعف أي جانب من أثر الكل أو على حساب الكل . . . إننا نبحث عن رخاء اقتصادي وننشد مجتمعاً متقدماً ونحاول الرحيل من التخلف . . . هذا همّ يؤرّق كل الحاكمين والمحكومين : ولكن كيف يتقدم الهم وكيف يليه المهم . . . وكيف يتبعه الأقل أهمية . . . ؟ ألا يمكن أن نفهم البدائيات في الحكم . . . ؟

كيف يتعلم الخائف ؟ كيف يستمتع بالتلفزيون مرسل الرصاص ومستقبله ؟ كيف ينتفع بمشاريع الطرق الذي لايملك الخبز . . . أو الذي لا يقدر على ركوب السيارة . . . أو الذي يملك السيارة ولا يجد الطريق الآمن ؟؟

إن التأمين والخبز والدواء هذه الثلاثة على الترتيب ، أول الأوليات وأشد الضروريات إلحاحاً ، بعدها يمكن أن يمتنّ الشعب بكل مشاريع الترف لأنه لا يلاقي شهية إلا بعد التغلب على الضروريات من خوف وجوع ومرض .

قد يبصِّر التعليم النافع وقد تؤثر مشاريع الرخاء في تبريد الحدة القبلية ولكن بعد عقود من السنين ، أما الآن فلابد أن يبدأ التغلب على الضروريات كأساس حقيقي لمشاريع التعليم والري والإضاءة و(التلفزة) .

صحيح أن هناك مناطق أقل مشاكل حربية ولكن مسؤولية الدولة تمتد إلى كل منطقة وإلى كل قرية بل وإلى كل فرد في أي قرية أو في أي طريق ، فكما تكافح الجيوش والشرطة الحريق والفيضانات في كل شعوب العالم ، فإن خطورة الاقتتال في مناطقنا لاتقل أهمية عن فيضانات الهند أو القرن الإفريقي أو حرائق أمريكا ، بل إن الاحتراب في بلادنا أخطر لأصالته وتوارثه إذ لم يكن موسمياً كالفيضانات . . . ولا طارئاً كالحرائق وسقوط الطائرات وصدمات القطارات .

إذا كان لمشاكلنا لون من الفرادة فإنها لا تعدم النظائر والأشباه من مشاكل العالم . . . والمسألة حسن مواجهة المشاكل لا انعدام المشاكل لأنها من ضروريات الحياة . . . ومن ضروريات اختبار التغلب . . . فلكل شعب مشاكله . . . ولكل نظام أعباؤه الثقيلة . . . وليست المسؤولية إلا مزيداً من الأعباء ومزيداً من الطاقة على تحملها . . . لكي تنتقل مشاكلنا من بساط القلب المهموم إلى بساط البحث المسؤول ثم إلى مواقع التطبيق . . . وبهذا ننتفع من التعليم ونبني عليه خبرة وثقافة خبرة . . . وندلل على أننا نهتم بالغير بمقدار اهتمامنا بثقة الغير في جدارتنا ، ولا شك أن السلطات المتعاقبة من يوم انبلاج الثورة إلى هذه اللحظة تحاول الإفصاح عن خير ما في نفوسنا وتجهد في البرهنة للشعب على شعبيتها . . . لهذا يتحتم على المواطن المبتلى بمهنة الحرف أن يترصد ويبدي إخلاصه متوخياً واقعية القضايا ، لأنه يهتم بالوطن ويعرف أن حقيقة وجود كل إنسان في بذله لوطنه ، وكل ما توارد في هذه الأوراق تساؤل مع المسؤولين لا اتهام . . . وتفهّم معهم لا إنقاص لفهمهم ، لأن الهم واحد بمقدار واحدية أبوة الوطن .

الديمقراطية بين الإعلان والممارسة

من أكبر هموم البشرية المتحضرة ، البحث عن صيغة فكرية لممارسات سياسية مقبولة مهما كان طابع هذه الصيغة . . . لهذا كانت فلسفة الحكم من أعقد الفلسفات وأكثرها تطوراً وتناقضاً ، وذلك لشدة الاختلاف بين منظور الحاكمين ومصالح المحكومين فكلما وصل الحاكمون إلى صيغة طمحت الشعوب إلى أفضل منها بفعل التطور الثقافي والتجدد في أهداف الشعب تبعاً لزيادة أعداده ، وتوسّعه في الكماليات التي أصبحت اليوم ضروريات ، وبهذا لم يجمع كل الناس على الرضى المطلق ، عن أي مذهب من المذاهب السياسية أو سلطة من السلطات ، فكان طموح كل سلطة أن ترضي أكثر عدد ممكن من الناس لاستحالة إرضاء الكل .

من هنا لبت الديمقراطية هذا الإلحاح ، لكي يمثل الانتخاب الغالبية العظمى من سكان كل بلد ، لكن مجرد الانتخاب لا يحقق حسن التمْثيل ، فقد يكون النجاح فيه عن : قدرة دعائية ، قوة شخصية ، إثارة جماعية ، قوة شرائية في سوق الأصوات . ثم تأتي مسألة التطبيق فلا تجد الرضى الذي أوهم به الإعلان . . . وعلى قدم الديمقراطية في مدائن اليونان فإنها لم تحقق رضى الكل فتمادى البحث الفلسفي عن نوع الحكم وصفات الحاكمين ، ولعل الانتخابات اليونانية رغم اقتصارها على المدينة ، كانت أصح من النتخابات اليوم لغياب الدعاية ولممارستها في ضوء الشمس وتحت أعين الجموع بدون صناديق اقتراع وبدون دوائر يشرف عليها البوليس .

لقد جاءت الديمقراطية اليونانية من أفكار فلسفية ، ومع هذا لم تقف الفلسفة عند صيغة واحدة مهما حققت من نجاح ، فقد ظلت الفلسفة السياسية تساؤلاً يبحث عن الأفضل ، كما في (جمهورية أفلاطون) وكما في (السياسة) لأرسطو ، بالإضافة إلى عدة مدارس عالجت فلسفة الحكم . . . كـ : المكيافيلية ، والنازية ، والآرسوية . . . إلى جانب الغابية التي لم تصل دائرة التطبيق . . . .لكن كل هذه الفلسفات أصّلت أصولاً يمكن البناء عليها ويمكن تجاوزها عن تجربة فكرية ، مثل هذا حدث في الفكر العربي الإسلامي ، فقد أوصى (عمر بن الخطاب) أن يختار ستة من الصحابة (خليفة) واستثنى من الستة ابنه (عبد الله) ولعل هذا أول أصل لفكرة الديمقراطية في التأريخ العربي الإسلامي ، لكن هذا الإعلان لم يطبق رغم التزام (عثمان) بتطبيق الشروط التي فرضها عليه الصحابة الستة ، ونتيجة الفصم بين الإعلان والتطبيق سقط (عثمان) ضحية التناقض ثم تزايد التذمر بعد أن غلب (معاوية) (علياً) ذا البيعة الإجماعية ، فمن المتذمرين من حمل السلاح كالخوارج ، ومنهم من أعد نفسه للصراع الدموي كالشيعة والزبيريين ، ومنهم من التزم الزهد كاحتجاج يلبي على التسلط دون تحقيق مطامح الناس ، وقد كان أشهر الزاهدين (عبد الله ابن عمر) وكان يعلن من حين إلى آخر غضبه على التسلط الأموي ، فقد كان الزهد نوعاً من الرفض لما كان قائماً ، لخروجه عن الأصول كما جاءت في الكتاب والسنّة ونفذها أتباع النبي من الخلفاء والولاة ، ولما وصلت السياسة إلى الحضارة العربية من منتصف القرن الثاني الهجري عن طريق الترجمة من الفلسفة السياسية اليونانية ، بزغت الأفكار الدينية كأساس لفلسفة الحكم ، وكانت هذه الأفكار تقوم على أساس ديني خالص ، وعلى تجربة بشرية خالصة ، على أساس أن الدين في مصلحة الناس وليس الناس في مصلحة الدين لأن الله غني عن العالمين كما أكدت مئات الآيات القرآنية .

من هنا تبلورت المذاهب على أساس سماوي وأرضي ، إلاهي بشري ، لكي تشكل معارضة للسلطة الوراثية التي تحتمي بالدين وتنتهك قداسته ، فكانت الأصول الخمسة التي قامت عليها فلسفة (المعتزلة) تستهدف اقتلاع السلطة ، وتبتغي تأصيل فكرية الحكم ، حتى ركب (المأمون) الموجة وطبق بعض نظرية المعتزلة ، قبل أن تكون الأفكار الشعبية بديلاً عن سلطة الخلافة ، فكانت المعتزلة أول حزب حاكم في التأريخ العربي لكن هذه المدة لم تطل أكثر من عمر ثلاثة خلفاء ، ولما أحسّ (المتوكل) خطر تطور الأفكار رفض (الاعتزال) باعتباره سلطة أو باعتبار السلطة حكمت باسمه ، لما أحسّ (المتوكل) هذا في القرن الثالث الهجري تبنى (رجال السنّة) لأن سخطهم تجاوز المدى حينذاك فكادوا أن يشكلوا قوة معارضة تضاهي المعتزلة أو تحل أصحاب الرواية محل أصحاب الرأي ، وبالأخص بعد موت (أحمد بن حنبل) متأثراً بالتعذيب السلطوي . . . من هنا نشأت الفلسفة الصوفية على أساس الثنائية ، أو على أساس أن الشريعة مجرد ظاهرة للحكمة ، فالمنطوق ظاهر الشريعة ، والحقيقة باطن لتلك الظواهر ، وهذا يدل على رفض الحكم الوراثي عن نظرية فلسفية لأن الحكم كان يرتكز على الشريعة . . . ولعل الذين يؤرخون الصوفية يعزلونها عن واقعها الاجتماعي النضالي ، مع أنها جاءت كامتداد من الزهد الرافض مضيفة حكمة (الهند) ونظرية (الفيض) وحكمة (التجلي) .

لقد جاءت الفلسفة الصوفية من الزهد الإسلامي ، كما بزغت الفلسفة الخالصة من الكلامية الاعتزالية والحقيقة الصوفية . . . من هنا نشأت الفلسفة السياسية في : آراء أهل (المدينة الفاضلة) عند (الفارابي) وفي (رسائل إخوان الصفا) ، فإذا كان (أفلاطون) رأى أن يحكم رجال الفلسفة ، فقد رأى (الفارابي) أن يحكم العلماء غير أن (الفارابي) ، يحدد العالِمَ الفاضل بأنه الحاكم الذي يؤهل بلده للحكم الصالح ، وقد استعاد هذه الفكرة (ابن خلدون)

في رأيه المعروف : « ليس هناك من يرى نفسه دون الرئاسة ، لأن كل الناس يصلحون لها بقوة الشوكة ومواتاة الحال . » .

إذن فقد أدت مذاهب الزهد والتصوف والاعتزال ، إلى الفلسفة السياسية المباشرة ، بعد أن كانت المذاهب مناوئة للسلطة دون طرح فكر بديل علني ، وقد انتقلت هذه المذاهب أو خلاصتها إلى (اليمن) وتواصل انتقالها على تعاقب المراحل إليه ، فتكونت في القرن التاسع الميلادي المدارس اليمنية .

إن هذه المدارس من ضحوة نشوئها قد هيأت الأرض لانفجار حركات ، فكان القرن الثالث الهجري معرض أعنف الحركات الحمر ، ففي عقود متلاحقة من هذا العصر تفجرت الثورة (الزنجية) في (البصرة) وانتشرت مدة خمسة عشر عاماً ، ثم أخمدت لكي تشتعل الثورة (البابكية) على إثرها ، لكي تتقد بعد إخمادها الثورة (القرمطية) إلى نهاية القرن الرابع ، وبما أن هذه الحركات جاءت عن مذاهب ، فقد كان من المنتظر أن تغير شيئاً من الواقع السياسي ، كالذي حدث في أوربا فيما بعد عندما انتقلت من (الحق الإلـهي) إلى (العقد الاجتماعي) .

فلماذا فشلت الثورات العربية القديمة ؟ هل يرجع السبب إلى ضعف الأصل الفلسفي أو إلى سوء التنفيذ أو إلى القطيعة بين الفكرة والممارسة ؟؟ .

لقد كانت غالبية الثوار من أشد الناس فقراً باتفاق المؤرخين الرسميين والشعبيين ، لكن الفقر وحده لايكفي أساساً لثورة وإنما الوعي الاجتماعي أكثر أهمية ، لقد سقطت الحركات الزنجية والبابكية والقرمطية بعد أن زعزعت السلطات والتفكير الشعبي معاً ، فتحولت الصوفية إلى (حروفية) وحلت فلسفة (الغزالي) الأشعرية محل فلسفة (الاعتزال) وما نشأ عنها من فلسفات عند بعض الجموع المحافظة ، وأدى الاضطهاد الفكري إلى غياب فلسفة الحكم ،

وإلى تداعي قصور الحاكمين معاً .

لهذا كان (اليمن) الأرض البكر لامتداد الحركات الفكرية أو انتقالها ، غير أن هذه الحركات كانت تنتمي إلى أصول مثالية ،أو كانت ترافقها مثالية خالصة ، فكانت (الزيدية) امتداداً ناقصاً للمعتزلية وكانت (الهدوية) امتداداً مغايراً (للزيدية) في بعض الفروع ، إذ جعلت (الإمامة) حقاً إلاهياً وأصلاً من أصول النظر ،على حين ارتأت (الزيدية) حكم المفضول في وجود الفاضل ، وكانت قرمطية (علي بن الفضل) امتداداً مشوّهاً أو مغايراً لفلسفة (الأحساء) في البحرين فلم يجاهر (علي بن الفضل) بمذهبه كما جاهر (أبو طاهر الجنابي) ، وإنما اعتمد على فلسفة (الظاهر والحقيقة) كبداية الصوفية ، أو كأيام سرّية (الإسماعيلية) ، ومع هذا عانى (ابن الفضل) تهمة القرمطية من الزيود الهدويين ، ومن السلاطين اليعفريين الذين كانوا يتبعون خلافة بغداد اسمياً ، دون أن يعلن القرمطية أو يمارسها ، فما أبعد الفرق بين حكم (الاحساء) و(مذيخرة) ، قال (ناصر خسرو) :

« كانت دولة القرامطة في البحرين تصنع للناس كلهم طعاماً واحداً لا يتفاضل فيه الحاكم والمحكوم ، وكانت الدولة تبني المساجد للناس ولا أحد يصلي من رجالها » .

أما (علي بن الفضل) فقد كانت أكثر أوقاته للعبادة ، أو للاعتزال بدعوى العبادة ، وكان للحكام امتيازات على المواطنين .

فهل يرجع هذا إلى ضعف ابن الفضل وقوة العلويين واليعفريين في الجبال ؟ أو إلى ضعف انتمائه إلى المذهب ؟؟

مهما يكن فقد أسس (ابن الفضل) حكم (الصليحيين الباطنيين) في شمال الوطن (والزريعيين) في جنوبه ، وبعد انقراض الصليحيين والزريعيين

والنجاحيين خلا الميدان للشيعة الهدوية والسنّة الحَرفية وكانت الشيعة أكثر تطوراً فيٰ غير الأصول المنصوص عليها ، فكما كانت (الزيدية) امتداداً ناقصاً للمعتزلة ، فإن (الهدوية) كانت امتداداً تحريفياً للزيدية دون أن يؤدي التحريف أو الامتداد إلى حركة تطورية ، فقد حرّف الهدويون حكم (المفضول على الفاضل عند الزيدية) إلى أحقية (آل علي) بالحكم دون غيرهم ، باعتبار أن النسب إلى (علي) و(فاطمة) أعطاهم الأحقية لا الأولوية ، وهذا خروج على (الزيدية) ، لأنها ترى للعلوي الأولوية ، وتجيز لغيره الحكم مع الصلاحية ، فقد تجاوزت الهدوية (الزيدية) في أهم أصول الحكم ، بالإضافة إلى الاختيارات المخوّلة للإمام ، فقد كانت اختيارات (الهادي يحيى بن الحسين) شبه مستقلة عن الأصل (الزيدي) بانتمائه إلى (الاعتزال) ، ولكن بدون بُعد فلسفي كالذي أحدثه (الكندي) بالنسبة إلى (الكلاميين) ، أو الذي أحدثه الفارابي في (آراء أهل المدينة الفاضلة) .

من هنا تحوّلت الفلسفة السياسية إلى سياسة مباشرة وتحوّل (علم الكلام) وما امتد منه من فلسفة إلى ما سمي (أصول الدين) ، (معرفة الله) .

فعلى ضوء اختيارات (الهادي) ومؤلفاته تنامت الفلسفة اليمنية كتطوير لعلم الكلام ، وبالأخص في أصل المسائل : كالعدل والتوحيد ، والوعد والوعيد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . . فقد اعتبر (الهدويون) حب أهل البيت متصلاً بالعدل والتوحيد ، واستدلوا بقول الشافعي أو ما نسب إليه :

العدل والتوحيد في جانبٍ وحب أهل البيت في جانبِ

واعتبروا الجانبين كشيء واحد ، أو كائنين كل منهما سبب الآخر ، أما (الوعد والوعيد) فلا خلاف بين الهدوية والمعتزلة ، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إلا أن الهدوية والزيدية معاً يخالفون المعتزلة في (المنزلة

بين المنزلتين) فترى (الهدوية) أن هناك كفراً صريحاً وكفراً تأويلياً ، بدلاً من منزلة بين المنزلتين ، وترى (الفسق) قطعياً وهو ما نص عليه دليل ، وظنّياً وهو ما لا ينص عليه دليل فلا يترتب عليه حكم ، كذلك خالف الهادي : الإسماعيلية والمعتزلة ، في ثبوت زواج المتعة مستدلاً على تحريم زواج المتعة بهذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ .

لقد أثمرت الأقلام اليمنية كتباً فلسفية : كالأساس ، نور اليقين ، الثلاثين المسألة الكبرى ، الثلاثين المسألة الصغرى ، باب ما يجب معرفته (الينابيع) ، وكانت تركز كل هذه الكتب على الغايات التالية :

الولاء للإمام ، الحقوق عليه والحقوق له ، الخروج على الظالم ، صحة البيعة ، تعطّل الاجتماعات في موت (الإمام) حتى يقوم غيره ، عدم معارضة (الإمام) إلا من مثله ، وبذل النصح ممن هو دونه من غير شجرته وجواز قيام إمامين في قطرين متباعدين . . . وكان أساس هذه الفلسفة منتمياً إلى (علم الكلام) المعتزلي والأرقام (الفيثاغورية) ، وكان بعضها يروي الفلسفات الكلامية ولا يضيف غير مسألة (الإمامة) ، غير أن الكلامية المعتزلية ، قد شكلت من آخر القرن الثالث الهجري أساسيات فلسفية مستقلة عند (ابن سينا) و(الفارابي) ، بينما لم تؤصل الفلسفة (الهدوية) فلسفة سياسية تشير إلى (الديمقراطية) أو إلى حكم (الفلاسفة) أو فلسفة الحكام ، اكتفت بشروط العلم ، والنسب ، وإصابة الرأي واللياقة البدنية في (الإمام) ، كبديل عن العلوم النظرية بغض النظر عن أصلها الديني أو الدنيوي .

وبهذا تغيبت الأصول الفلسفية عن الحكم طيلة عهود الأئمة والملوك وما طرأ عليها من احتلالين تركيين ، إلا أن تلك النظريات كانت أصلاً ثقافياً يؤدي إلى تأصيل أي أصل للحكم ، فعندما ناضل شعبنا الاحتلال العثماني كانت تلك

الثقافات النظرية من أفتك أسلحته ، باعتبارها تراثاً وطنياً وأساسيات لصنع البديل عن المحتل ، غير أن نوع النضال كان يختلف عن النضال العربي ضد العثمانيين ، باختلاف سلطة المحتل ، فقد كان العثمانيون من آخر القرن التاسع عشر لا يحكمون (اليمن) إلا شكلياً ، لأن الإمام (المنصور) كان يملك حق تحصيل الزكوات والأوقاف وتعيين القضاة المتخرجين من مدارس الفقه (الهدوي) ، وهذا ما جعل النضال غير حار ، فقد كانت فترات التفاوض بين (يحيى) نجل (المنصور) وبين الوالي العثماني أكثر من فترات القتال ، وكانت تؤدي مفاوضات (يحيى) إلى اتساع سلطة والده الداخلية ، وعندما أصبح (يحيى) (إماماً) بعد أبيه تواكب التفاوض والقتال ، ولا شك أن قتالاً من هذا الصنف لا يعطي اختباراً ولا يقوم على نظر فكري ، لأن التفاوض كان يخنق القتال قبل أن يعطي تجربة ، كما أن القتال لم يكن إلا مجرد تعزيز للتفاوض أو ضغط للوصول إليه ، وكانت جبهة المحتل على نفس المستوى من الضعف ولاسيما بعد أن انقطع المدد بفعل ثورة (شريف الحجاز) وهيمنة السفن البريطانية على البحر الأحمر ، فأدى ضعف جبهة العدو إلى ضعف جبهة الصراع معه لأن يحيى كان يقاتل بحسَّين :

نزوع الحكم ، وشعور الحرج من قتال مسلم تعاديه دُوَل الاستعمار .

من هنا كانت تجربة النضال غير غنية لتقطعها ، ولشعور قيادتها بالحرج والخوف من البديل ، فقد عقدت عدة تفاوضات على الصلح ، وعلى سعة مصالح الإمام ، ثم على الانسحاب . . . فقد أدى صلح (القفلة) عام ١٩٠٥ إلى سيطرة (الإمام يحيى) على الداخل مقابل دفع ضريبة سنوية للباب العالي تساعده على الجهاد ، كما أدى صلح (دعّان) عام ١٩١١ إلى التنازل عن هذه الضريبة السنوية ، وعلى شرط تقوية العلاقة الإسلامية بعد الانسحاب الذي أصبح منتظراً . . . ألا يختلف نوع الاحتلال العثماني لليمن عن نوع احتلاله للشام

والعراق ومصر التي نادت بالقومية والديمقراطية ؟ .

وهذا الاختلاف هو الفاصل بين النضالين . بالإضافة إلى أن نضال الشعوب العربية كان بقيادة تنظيمات قومية ووطنية ، على حين كانت قيادة النضال اليمني فردية دينية وعلى نظرية سلفية :

هي وارثية الخلافة الإمامية بشروطها الهدوية .

لقد أدى هذا القتال والتفاوض معاً إلى التحرير ، غير أن الشعب الذي كان يخوض ميدان القتال كان بمعزل عن كل موائد المفاوضات ، وكان على غير علم بمضمون الرسائل المتبادلة بين (شهارة) و (الآستانة) .

لهذا اقتطف (الإمام يحيى) وحده كل ثمار النصر التفاوضي والقتالي ، وكل المآخذ على فرديته لا زعامته لأن كل قادة النضال على أي مستوى يتحولون إلى حكام بعضهم مدى الحياة (كالحبيب بورقيبة) ، كانت هذه الفترة تستدعي نظرية سياسية جديدة وشكلاً مختلفاً من الحكم ، فقد كانت الديمقراطيات على أي شكل معلنة ومطبقة في أكثر شعوب العالم ، وبالأخص بعد سقوط النير العثماني ، فقد نشأت أحزاب وتشكلت برلمانات في مصر وسوريا والعراق ، على حين كان الميدان في بلادنا مهيأ لفارس واحد هو (الإمام يحيى) ، وكان (العقد الاجتماعي) لعهده هو كتاب (الأزهار) لأحمد بن يحيى المرتضى من علماء القرن الثامن الهجري ، بالإضافة إلى شروحات هذا الكتاب واختيارات (الإمام) الجديد وبعض الأنظمة التركية في غير المجالات الشرعية :

كالعسكرية والمالية والوظيفية ، وكان من المنتظر أن تتمخض تلك الفترة عن نظرية متطورة عن قديم أو مسترفدة من جديد ، معتبرة إطار العصر وحاجة الواقع ، غير أن النظريات لم تشكل حركة تطورية تصلح خلفية ، فكان رد الفعل هو تمرد بعض المناطق الوسطى والشمالية على الحكم الوطني ، وكان هذا

التمرد ناشئاً من أصليْن :

اعتياد النضال الذي لم يثمر ، والحنين الباطني إلى حكم وطني مغاير ، ولكن كل هذه الحركات قمعت لكي تتنامى عوامل تجددها لكمون أسبابها السياسية ، لأن القمع يربّي القوة المناوئة على الصلابة والتطور ، فما خمدت منطقة إلا لتشتعل أخرى من عام ١٩٢٠ـ١٩٣٧ من هذا القرن ، هناك طرأ هدوء غير مبرَّر ولعله الهدوء الذي يسبق العاصفة . . . فمن مطلع الأربعينات تهامس التذمر عن هجس منتم ، وعن هجس سينتمي ، ومن ٤٤ انتقل التذمر من الهمس إلى الحوار ، وكانت عبارة الديمقراطية أبهى الأصوات ، ولو لم تصل إلى تجليّات نظرية عامة . . .

لكن أي ديمقراطية ؟ إلى ذلك الحين لم يقم أي تنظيم علني ، ولم يعلن أي انتخاب عن أي شكل ، ولم تلح أي صحافة غير صحيفة (الإيمان) التي ورثت صحيفة (صنعاء) التركية ، وغير مجلة (الحكمة) التي حامت حول الإصلاح وعبّرت عن غيره ،. ومع هذا كانت السلطة في أقلق يقظة من ذلك الإصلاح الملتوي التعبير أو الذي لم يتجل قصده ، المهم أن عبارة الديمقراطية سبقت تكوين أصولها .

لهذا ارتدت غير ردائها في منشورات تنظيم حزب الأحرار عام ٤٦م : كالدستور والشورى والفصل بين السلطات ، وهذه قد تكون إحدى وجوه الديمقراطيات ، لكنها ليست الديمقراطية الاجتماعية ، ولا الديمقراطية السياسية ولا الديمقراطية الجديدة . . . فالدستور ليس غاية في حد ذاته ، ولكن ما نوعه ؟ إلى أين تنتمي أصوله ؟ ما تعبيره عن الواقع الاجتماعي ؟ . . . إن الدستور لا يدل على الديمقراطية إلا إذا كتبه حس ديمقراطي ، ونفَّذه التزام بالديمقراطية ، ومثله الشورى : مشاورة من ؟ هل الشورى السبئية المكونة من سادة الأرض وقادة الحرب ؟ .

أم الشورى الإسلامية للاستعانة بالرأي ؟، إن شورى الأربعينات لم تحدد نوع الشورى ولا نوع رجالها ، ومثلها العدل هل هو الإنصاف بين المتشاجرين هل هو التساوي في الحقوق والواجبات ؟ إن كل هذه التسميات من أشكال الديمقراطية وليست الديمقراطية ، باعتبارها أحد وجوه الحرية وكل أصول الحكم .

لكن لماذا لم تتجلَّ الديمقراطية عن وجهها ؟ ولماذا الحومان حولها أيام صدور نشرات الأحرار بعَدَن ؟؟ . .

السبب هو غياب أصولها نظرياً والعجز عن تأصيلها في مثل تلك الظروف ، لغياب التطور التأريخي ثم الانفعال بالعصر كغاية لامتداد التطور من أقصى ينابيعه .

لقد تشكل في تلك الفترة أول تنظيم وتسمى بجمعية (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) في أول أيامه ، ثم (حزب الأحرار) ، ثم (جمعيةِ اليمن الكبرى) بعَدَن ، والمهم أن هذا أول تنظيم أو أول تجربة في النضال المنظم ، غير أن هذا التنظيم لم يعلن له برنامج ، غير دعوة الحكم إلى الإصلاح أو مقاومة الحكم لكي يقوم حكم الأحرار والدستور ، كبديل عن الاستبداد ، لكن هذا التنظيم لم يمارس نضاله تحت الشمس وفي عقر الحكم المرفوض وإنما كان مقره (عَدَن) أيام احتلالها وكانت الغضبة الشعبية على الاستعمار في حدود المظاهرات في بعض الأقطار ، بينما كان الاستعمار شبه مطمئن في جنوب الوطن بل ومناط الأمل في شماله ، فإن الالتجاء إلى ظله مثار التساؤل إلى اليوم ، ولا شك أن الأحرار أضافوا جديداً إلى ثقافتهم السياسية بما فيها النهج الديمقراطي والدستور والفصل بين السلطات ، ولكن هذا يشكل فكرة غائمة عن نظرية الديمقراطية عند الأحرار اليمنيين ، والمقارنة بينهم وبين أحزاب تلك

الفترة سيكشف عن بدائية تجربتهم ، فقد كانت التنظيمات تترشح للانتخابات وتمثلها عضويات في البرلمانات وعضويات تنظيمية في أجهزة التنفيذ بالتالي ، ووصل بعضها إلى الحكم : كالوفديين بمصر ، وحزب الأمة بالسودان . وبهذا كانت تكسب جماهيراً عن طريق الأطروحات وتستعطي اختباراً من موقع الممارسة العلنية ، على حين كان تنظيم (الأحرار) سريًّاً في الشمال على قِلَّة أعداده ، وعلنياً في (عَدَن) صحافةً ووجوداً ، وعندما حقق غايته بإسقاط (الإمام يحيى) عن طريق العمل المسلح ، واجه الحكم بدون نظرية مبلورة ، وبدون إطار اجتماعي كقاعدة ومصدر نظريات جديد . . . فكيف يمكن قيام حكم ديمقراطي لم تتكون أصوله ؟ .

بعد ثلاثة أسابيع سقط الانقلاب بكل تنظيمه غير تارك نظرية مكتوبة سوى (الميثاق الوطني المقدَّس) الذي يحدد مهام الحكم ولا يشير إلى فلسفة له والذي كتب قبل الحركة الشباطية بسنة ، على غرار نظام الإخوان المسلمين بمصر ، فهل يمكن هذا التنظيم أن يكون أحد الأساسيات لجذور ديمقراطية في السبعينات ؟

لقد عرف الشعب عبارة : الدستور ، الشورى ، الديمقراطية . . . وكانت هذه المسميات غامضة الدلالة في آخر الأربعينات ، ولو طالت مدة هذا الحكم لعرفنا من خلال ممارسته نوع فلسفته ومقدار صلاحيتها كأصل ديمقراطي يمكن تأصيله أو تعزيزه أو الانطلاق منه . هذا إذا كانوا حكّام أسابيع الانقلاب الذي نفذه (الوزيريون) وكان ذلك التنظيم مجرد شكل ، لأن (عبد الله الوزير) هو (الإمام) .

إلى بداية الخمسينات لم يلح قبس نظري لعمل سياسي ، لكن كانت هناك نوازع دخيلة تتوق إلى التغيير وإلى صنع أي بديل ، وكان الشعب يسمع بانفجار الثورات وسقوط العروش ، ثم يتتبع فلسفة تلك الثورات : العوامل الاجتماعية لاندلاعها ، مقاومة الشعوب للاستعمار ومؤامراته . من هنا تهامس الشك عن

التجاء الأحرار إلى ((عدَن)) وعن طبقيتهم الفوقية ، وعن اختلاط الدوافع الشخصية والإرادة الوطنية . لقد بدأت مرحلة الاستبصار ، وأصبح استحداث الشكل الديمقراطي ممكناً لو واتت أقلّ أصول له ، لكن غياب كل الأصول لم يحدّد سمات البديل عن (الإمامة) ، أو سمات تطور (الإمامة) .

لهذا لم يكن لانقلاب ٥٥ بتَعِزّ أي وقع ، وإنما كان إبدال أخ بأخيه ، دون إعلان نظرية أو رفع شعار .

هذا بالنسبة إلى الداخل ، أما بالنسبة إلى حزب (الأحرار) الذي أصبح (الاتحاد اليمني) بالقاهرة في منتصف الخمسينات ، فقد قاوم انقلاب (تَعِزّ) واعتبره دماً جديداً في شرايين الملكية المتداعية ، وفي تلك الفترة نشرت (صوت اليمن) لسان (الاتحاد اليمني) بالقاهرة ، تنديداً متواصلاً بالانقلاب ، ثم والت إذاعة (صوت العرب) فضح تلك المؤامرة غير أن الاتحاد لم يكن مؤيداً لأحمد من خلال التنديد بأخيه (عبد الله) الذي قام ضدّه وإنما كان يندد بالمؤامرات الأمريكية كمؤيدة لحكم (الإمامة) وتجديدها في بداية انقراضها .

في آخر الخمسينات تجلّت للاتحاد قبسات نظرية عن الحكم ، فقد أذاع الأستاذ (الزبيري) حديثاً من إذاعة صوت العرب بعنوان : (من حقي أن لا يقطع رأسي بدون محاكمة) ورافقه (نعمان) في نفس الموضوع تحت نفس العنوان المسلسل (أحاديث الأحرار اليمنيين) ، عبارة بدون محاكمة تلفت الانتباه إلى بداية نظرية ديمقراطية لكن هل المحاكمة وحدها الدليل على ديمقراطية الحكم ؟

المسألة ترجع إلى نوع الوضع السياسي ونوع المسؤولين فيه ، فمن الجائز أن تزيّف المحاكمة ويرتدي التعسف رداء الديمقراطية ، فهل المحاكمة تعطي المتّهم حق الدفاع العلني ؟ وهل الاتهام عن نص جريمة ؟

كل هذا لم توضّحه الأحاديث كمشروع نظري ، لهذا أمكن (الإمام أحمد) أن يستغل عبارة المحاكمة فشكّل عام ٦١ أكبر محكمة لمحاكمة (اللقية) و(الهندوانة) وكان الحكم هو الإعدام ، كما لو لم تعقد محكمة ، فعبارة المحاكمة عبارة مطّاطة تُعدِم بواسطتها أكثر الأنظمة استبداداً خصومها ، فهي مجرد شكل كبعض الأشكال الديمقراطية التي تمارس غير ما تعلن .

في مطلع الستينات أصدر (الاتحاد اليمني) كتاب (مأساة واق الواق) للأستاذ محمد محمود الزبيري دعى فيه إلى قيام (جمهورية ديمقراطية) وهذا هو التحول الثاني والهام ، لأنه يتبنى جمهورية ويُعيِّن نوع الحكم (الديمقراطي) . فهل هذا الكتاب كان يصلح نظرية حكم لثورة سبتمبر ، (كالعقد الاجتماعي) لرسّو مثلاً ؟ إن (مأساة واق الواق) لم تحدد أصول الديمقراطية وكيفية رجالها ، وإنما عبَّرت عن (جمهورية ديمقراطية) لم تتكون أولياتها الضرورية . . . صحيح أنها نشأت تنظيمات من منتصف الخمسينات ولكنها لم تمارس علنياً نظرياتها تحت الشمس لكي تكتسب خبرة عن تقبّلها ، وعن كيفية قولبتها محلياً ، وعن تطويرها على حرارة ميدان الفعل ، وهذا يرجع إلى شدة قمع السلطة وسرية التنظيمات ، وعندما انفجرت ثورة السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢ أعلنت مضمون الديمقراطية في مبادئها المكتوبة ، وفي الشعارات الخطابية والتعليقات السياسية ، إلا أنها لم تحدّد نوع النظرية ونوع الديمقراطية في نشرات خاصة ، مع أن كل التنظيمات قدمت تأييدها مكتوباً إلى قيادة الثورة موقعاً بأسماء القيادات التنظيمية ، وكان من المنتظر أن تتآزر النظريات والعمل المسلّح ، أو أن تستعين القيادة العسكرية بأحد البرامج أو بكل البرامج ، فهل كانت البرامج غائبة ؟

ربما : هل كان الساسة المحترفون أسرع إلى القيادة العسكرية من الثوار السّاسة ؟

لقد أدى هذا إلى غياب نظرية ديمقراطية مبلورة ، فكانت التجربة الفعلية بديلاً عنها ، لكن هل يمكن أي عمل أن يحقق أدنى غاية بدون فلسفة مسبقة ومواكبة ؟

إن من يعمر داراً مضطر إلى الخطة الفكرية العلمية قبل وضع أي حجر . . . إن النظر الفكري دليل كل عمل مهما كان حجمه . فماذا تتبنى الثورة لكي تغاير الوضع الذي انبثقت منه ؟ لقد أسكتت الحرب المفروضة كل سؤال ، وكانت حماية النظام الجمهوري من السقوط أعلى الصيحات وأولى الغايات ، وهذا أمر ضروري غير أن امتداد الحرب قد أذهل عن البحث عن نظرية تكتسب مشروعيتها من الواقع وصحتها من واقعية فكرتها ، وعندما انطفأت الحرب عن جملة أسباب ، تعالى النداء بالحكم الجماعي وانتخاب المجلس الوطني ، ثم مجلس الشورى ، ثم مجلس الشعب أخيراً ، هنا أعلنت الديمقراطية نفسها من أعلى المنابر ، كمقاومة لديمقراطية أخرى وكدليل على ديمقراطية الوضع . . .

لكن هل تكوّنت أصول تلك الديمقراطية ؟

وهل أصبحت في مرحلة تأصيل تقاليدها ؟

هل سبقت فترة الإعلان مناخات حرة وممارسة قوى لأفكارها ؟

هل تكافؤ الفرص تحقق ؟

هذه أرضية الديمقراطية ، أو أول خيوط أرومتها ، لقد كانت آخر الستينات فرصة كافية لحرث الأرض وتأصيل الديمقراطية ، لكي تلي هذه المرحلة التقاليد الديمقراطية ، ثم مرحلة تطويرها إلى الحريات العامة ، ثم إلى الانتفاع بالحرية . . . عندما أعلنت الديمقراطية نفسها آخر الستينات ، كانت مشاكل الديمقراطية قد تفاقمت في الغرب ، فقد وصل التضخم أعلى ذرواته ، واتسع مضمار القلاقل بثورات الشباب كما سُميت ، وانتشرت بطالة الملايين ، واتسعت

الإضرابات العمّالية حتى عجزت الديمقراطية التقليدية عن مواجهة الضروريات والتحديّات . . . فهل تصلح هذه الديمقراطية الشائخة بداية تجربة أي شعب ؟ وهل نعني أننا نتبنى الديمقراطية التقليدية ؟

لابد أن نعتبر أننا في مرحلة التأسيس وأننا نمارس تجربة خطيرة نحاول إيجادها لا تجويدها ، لغياب الخلفية عندنا ، فقد سبقت المراحل الديمقراطية مراحل الصراع العنيف بين الاستعمار والشعوب ، بين الانتقاء والأوربة ، بين الإصلاح والمحافظة ، بين العلمنة والدين ، وكل هذه المهيئات التي كونت الثوابت عند غيرنا ، لم تتواجد في تأريخنا المعاصر لانعدامها في تأريخنا القديم .

من هنا فنحن نخلق ديمقراطية من الخيوط الدقيقة التي لاحت وانطفأت على وجه الستينات والسبعينات ، ولابد أن يسبق هذه المرحلة جو حر وفرص متكافئة وحس بالمسؤولية كمناخ صحي للوليد الموعود ، فإننا إلى الآن لم نصنع لشعبنا المتطلع أدنى ما يصبو إليه ، فماذا أنتم صانعون ؟

* * *

توحيد الواحد ووهميّة الشطرين

بعد أن خرجت الشعوب من خصوصيات القصور إلى عمومية الشعب ومن فلك الاستعمار إلى ملكوت التحرر ، رفضت كل تقاليدها العبودية ، فانطلقت من الشعب لا من القرية ، وتبنت غايات كل الجماهير بدلاً من المنطقة أو الحارة ، لأن الثورة تعبير بالشعب عن الشعب لكل الشعب ، لكونها وعي جماعي جاء من حسّ التغيير للكل . . . وبهذا أصبح الشعب كله قبيلة واحدة ، بدلاً من القبائل المتعددة التي صنعتها العبودية وصاغتها التقاليد الكهفية ، وتقبلتها الطفولة الإنسانية ولم يكن الخروج عن التقليد القروي والعشائري سهلاً ، وإنما احتاج إلى التضحيات بعد التضحيات وإلى التغيير من الداخل عن نضج ثقافي وطني ، لأن الشعب الذي يولد من الموت هو الذي يقهر الموت الآتي من أقبية الاستعمار ويتجاوز مذهب (العرصة) إلى الشعبية العظمى عن حسّ وطني إنساني دفعته الضرورة إلى تماهي الكل في الكل . . . ولقد كان شعبنا في الشطرين يعاني معاناةً واحدة ، الاستعمار هناك ، والاستبداد هنا ، السلطنات هناك ، والعرقيات العائلية هنا ، نفس محتل الشطر الجنوبي سياسياً هو نفس محتل الشطر الشمالي اقتصادياً . . . والاحتلال السياسي يتوخّى غاية اقتصادية حتى أنه شن الحروب تحت الصليب وتحت تأثير اللون لمزيد من الاستغلال ، فواحدية معاناة الشطرين بالاحتلال زادت من واحدية الشعب الواحد ، فظل واحداً على طول تأريخه الحافل بالصراع الطبقي : كان واحداً في ظل الحضارة المعينية والسبئية والحميرية ، ثم واحداً وموحداً في ظل الأذواء والأقيال ولم تؤثر على واحديته تعدد أسماء الإمارات ، ولما اشرأبت إليه مطامع

الاحتلال القديم تصدّى الشعب اليمني كله لدحر الاحتلال ، فقاتل اليمن بشطريه الغزو الروماني ثم الغزو الحبشي ثم الغزو الفارسي في فترات متلاحقة من ٤٠٠م إلى ٦٠٠م . . . وعندما تعددت مناطق الإدارات في ظل الراية الإسلامية كان تعددها لا يمس واحدية الشعب ، وإنما كان ذلك التوزيع الإداري لتسهيل مهمة الولاة بفعل اتساع الأرض ، ولتهدئة القلاقل اليمنية المتلاحقة على العمال الوافدين من القصر الأموي بالشام أو القصر العباسي ببغداد ، وعلى تعاقب هذه القصور وولاتها ظل اليمن واحداً يقاتل الأعداء المتعددين ، ويصارع المستغلين من كل شكل إلى حد أن اليمنيين تعقبوا بالموت بعض الولاة بعد عزلهم من أمثال (معن بن زائدة) الذي قتلوه بفارس (ويحيى بن موسى) الملقب بالجزّار وأدهى قادة (المأمون) والذي لاقى مقتله ببستانه في الديوانية على مقربة من الخليفة . لهذا انتصرت عدة أنظمة رفعت راية وحدة الشطرين كراية : الصليحيين والطاهريين من القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر الميلادي .

وعندما تعددت الأنظمة في الشطرين ، كان الشعب واحداً . . . كان الفاتكيون في (تهامة) مختلفين مع الزريعيين في (عَدَن) ، غير أن الصليحيين كانوا متحدين مع الزريعيين في المذهب الفكري الباطني الإسماعيلي . . . وعندما قفز الخطر البرتغالي على الساحة مستهدفاً احتلال الشطرين في القرن الخامس عشر الميلادي تجمّع الشطران كجيش واحد ينازل البرتغاليين على شواطئ حضرموت . . . وعندما استنجد (عامر عبد الوهاب) الطاهري بالمماليك حكام مصر في القرن الخامس عشر لصد البرتغاليين ، كانت هذه أول ثغرة ولكن في النظام لا في الشعب . . . فقد كان الشعب يعادي أي نظام يعتمد على غير الشعب ، ويحتمي بالأجنبي أو يستعين به . . . لقد كان الوجود المملوكي سبباً للغزو العثماني الأول في القرن السادس عشر وحين احتل الأتراك شواطئ (عَدَن والحديدة) وامتدوا إلى سائر المناطق في الشطرين قاتل الشعب

سلطة المحتل حتى ارتد على أعقابه بعد ثمانين عاماً ، وعلى أثر هذا الانتصار سادت التجزئة مناطق الشمال ومناطق الجنوب فتعددت (الأئمة) في مناطق الشطر الشمالي وتعددت الزعامات في الشطر الجنوبي ، فأدت تجزئة الأنظمة إلى الحملة العثمانية الثانية ، وهنا اشتعلت مقاومة الشعب من آخر القرن التاسع عشر إلى آخر العقد الثاني من القرن العشرين ، وعلى أثر هذا الانتصار قامت عدة رايات : في تهامة كان الإدريسيون ، وفي الجبال الخلافة المتوكلية ، وفي الجنوب تسع سلطنات ، ومن هنا ابتدأ الشعب يناضل التقسيم ، فحاول إقامة نظام للشطرين بعد الأتراك فاسترجع الشمال بعض (تهامة) ، ورغم تخاذل السلطة (الإمامية) بصنعاء وطموح السلطنات في الشطر الجنوبي ، فإن تخطيط الشعب الواحد ظل واحداً ، وإن تعدّدت مواقعه ، فتواصل نضاله من آخر العشرينات ضد الاستبداد الذي ورث الاتراك في الشمال وضد الاستعمار البريطاني الذي احتلّ مكان الاحتلال التركي ، ذلك لأن الشعب واحد في وجه المطامع المتعددة وهذا ما فطن إليه الحكم الاستقلالي بصنعاء ، حتى أن (الإمام يحيى) رفض تسمية مناطق الجنوب بالمحميات وسماها (النواحي التسع) باعتبارها نواحياً من اليمن تنتظر التحرير . من مستهل الثلاثينات تبدّى اختلاف الثقافة بين الشطرين عن هدف تسييسي ، فكانت ماضوية الأفكار أغلب ثقافة الشطر الشمالي كفلسفة حكم ، وكانت ثقافة الشطر الجنوبي من اللون الماضوي التقليدي ومن جديد الإلهائيات الاستعمارية رغم تنافر اللونين ، إذ كان الاستعمار يؤكد الحس الشافعي ويزعم حمايته من الزيود ، وإلى جانب هذه الماضوية افتتح دور السينما التجارية والملاهي والبارات ووقف في وجه قيام النقابات المتحررة متغاضياً عن النوادي الأدبية والقروية والصحافة غير الملتزمة لانعدام خطورتها ، غير أن اختلاف الثقافتين كان من صنع السلطتين لا من اختيار الشعب الواحد لأن المعارف لاتتجزأ والثقافات المتعددة توصل إلى خير ما فيها لكي ينشأ منها غيرها بمقتضى التغيرات ، وبمقتضى النظام المعرفي لهذا

فشل التخطيط في التجزئة الشعبية عن طريق تكييف ثقافة لكل شطر ، فتعاون المثقفون في الشطرين على اجتياز ثقافة القبور إلى الحياة ، وعلى الخروج عن مذهب الحارة إلى شعبية العمل والإبداع لتجاوز الثنائية الثقافية التي لا أصل لها في الجذور التأريخية ، وذلك لأن عصر الإنسانيات أفاض معطيات ثقافية جديدة ، قضت على الثقافة القروية والعصبيات البدائية ، ولم يبق من الثقافة المحلية إلا مجرد أساس أصيل لإبداع جديد ، ومن مطلع الأربعينات زادت واحدية الشعب رسوخاً بفضل حديث الثقافة وحداثة التفكير كثمرة للتثقف عن نزوع وطني تغييري ، فتشابهت أجناس الإنتاج الثقافي في صحف الشطرين وفي أدبيات الشطرين وبالأخص الشعر ، إذ دخلت مقادير من الحداثة على شعر : عبد الكريم مطهر والزبيري والعزب وعلي عبد العزيز نصر في الشمال ، وعلى قصائد : جرادة وغانم وعلي محمد لقمان في الجنوب ، ومن مطلع الخمسينات ابتدأت مسيرة الشعب الواحد تناضل الاستبداد في الشمال والاستعمار في الجنوب ، لكي تحقق الدولة الواحدة فتنمحي وهمية الشطرين ، وتتوّج كل هذا النضال بانفجار ثورة السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢ وثورة الـ ١٤ من أكتوبر ١٩٦٣ .

وكانت الثورتان من صنع الشعب الواحد في الشطرين . . .

عندما أحسّت الجماهير في الشطرين فرار (الإمام) المخلوع من (صنعاء) عام ٦٢ تألّبت الجماهير عل ترسيخ العهد الجمهوري في الشمال فأقبلت الجموع من (عَدَن) و(تَعزّ) ومن (يافع) و(البيضاء) ومن (لحج) و(خولان) ومن (دثينة) و(الحديدة) دون أن تحسّ من أين جاءت وإنما تعرف إلى أين جاءت فقد انخرطت كل هذه الجماهير في سلك الحرس الوطني فكونت جيش الثورة عام ٦٣ ، وازداد هذا الجيش أفواجاً إلى أفواج فقاتل العدوان في شمال الشمال وأشعل فتيل الثورة في جنوب الوطن ، لأن اليمن الواحد كان يلاقي عدواً موحّداً . فقد التقى الاستعمار بالفلول البائدة الفارّة من

ثورة الشمال وانضمّت كل الأنظمة التقليدية في جبهة واحدة ضد ثورة الشطر الشمالي وضد احتمال الثورة في الشطر الجنوبي ، وزادت الجبهة تكاثراً ضد (اليمن) من شاه إيران إلى سلطان بيحان . . . لهذا أجج اليمن ثورة (ردفان) إلى جانب معارك (سنوان) و(الجوف) و(حرض) وكان عام ٦٤ عام تكامل الثورة اليمنية كثورة واحدة لشعب واحد وإن تعددت مواقعها ، في ذلك العام دخلت ثورة الشطر الجنوبي إلى قلب (عَدَن) وامتدت سيطرة ثورة الشمال إلى (صَعْدة) و(الجوف) . من هنا عرف كل الأعداء أن (اليمن) واحد وأن ثورته واحدة .

من عام خمسة وستين أخذ الاستعمار العالمي ينظم المؤامرات على الأنظمة الثورية ، وعلى الجماهير الثائرة في الوطن العربي كله ، وظهرت أول خيوط النوايا في شكل مؤتمرات باسم التصالح اليمني : كمؤتمرات أوركويت واليونان والطائف ، وتجلّت قمة تلك المؤامرة في عدوان عام ٦٧ ضد ثورة (مصر) التي كانت تؤازر ثورة اليمن في شطريه وضد جماهير الأردن وفلسطين ، وفي تلك الفترة كانت الثورة في الشطر الجنوبي قد حققت استقلالها بعد معارك ضارية بين الشعب والاستعمار ، وبين فصائل المقاتلين في أوقات كثيرة ، بهجمة عام ٦٧ حاول الاستعمار ترسيخ شطري اليمن كامتداد لمحاولاته السابقة : كتسمية الجنوب العربي ، وتسمية اليمن الجنوبية ، وتسمية اليمن العربي والجمهورية العربية إلى غير ذلك من المصطلحات الاستعمارية التي تهدف إلى تجزئة الواحد من خلال تعدّد التسميات ، كشكل يتطلب محتوى تجزيئياً ، غير أن الواحد الذي انشطر سياسياً برغمه لم ينشطر اجتماعياً وثورياً ، رغم المحاولات المتعددة لإجهاض العمل الثوري في كلا الشطرين ولتكريس التشطير كما دلت الأحداث المؤسفة والمتشابهة في الشطرين ، وكما حدث القتال بين الفصائل المناضلة في الشطر الجنوبي عام ٦٦ ، انفجر القتال بين

جيش الثورة والنظام التصالحي في الشمال في أغسطس عام ٦٨ ، وكانت معركة أغسطس عام ٦٨ بصنعاء كمعارك شوارع عَدَن عام ٦٦ ، وهذا التشابه في وجوه الأحداث انعكاس لوجوه المؤامرة على واحدية (اليمن) ، وانعكاس لواحدية أهدافه معاً ، فقد كانت المؤامرات تحاول إجهاض الثورة أو القضاء عليها بيد قياداتها من داخل مواقعها . . . لهذا تسللت إلى القيادات الثورية هنا وهناك فاصطرعت القوى فيما بينها لقلة خبرة القيادات ، ولطفولة تجربة الجماهير ، غير أن الشعب الواحد ظل واحداً ، ولم تصل أصابع المؤامرات إلى الجوهر الثوري الواحد .

من آخر الستينات أشعلت المؤامرت معارك سمّتها حدودية بين الشطرين ، ورغم تلك المناوشات المفتعلة ظل الشعب واحداً ، وظلت المؤامرة تنسج خيوطها ، حتى أدت ثمرتها المُرّة في صورة أحداث ٢٨ سبتمبر ١٩٧٢ وأدت تلك الحرب المؤسفة إلى مكاشفة النفس ومعرفة رؤوس الحراب ومعرفة الأكف التي مدّت الحراب . لهذا كانت حرب سبتمبر ٧٢ الأم الطبيعية لفكرة إعادة وحدة اليمن لأن الحرب على مآسيها تستنزف الدم الفاسد وتحرك رواكد المياه لكي تتجدد .

لكن كيف توحيد الواحد ؟

وهل أصبحت الثنائية أمراً واقعاً ؟

لقد دلت الدراسات أن أحداث ٧٢ مجرد عرض طارئ ، وأن مؤامرة التجزئة قد سقطت ، وكانت المؤامرة تستهدف ضرب شطر بشطر ، فكانت الغاية المعاكسة حتمية وحدة اليمن الواحد .

من عام ٧٣ ارتفعت أناشيد الوحدة في الشطرين وانتظرت الجماهير التنفيذ بمقتضى بيان (طرابلس) وإرادة الواقع اليمني . غير أن الوحدة لاتصنعها

البيانات ولا تولد في مكاتب اللجان وإنما تولد تحت الشمس كبُنّ (يافع) و(الحيمة) ، لأن واحدية هذا الشعب مواكبةٌ لشمس جباله مخضرة تحت كل فصول أزمنته . فهل كان بيان الوحدة ولجانه مجرد مظلة للمؤامرات ؟ لقد اهتدت الجماهير إلى مماطلة الوعود ورأت أسفار اللجان بين (صنعاء) و(عَدَن) مجرد صلات تحاول أن تكون بديلاً عن الوحدة ، فأشارت أصابع الاتهام إلى المزايدين والمناورين بتهمة التواني عن الوحدة وبإخلاف الميعاد . من هنا فرضت الجماهير على القيادات اتخاذ خطوات أسرع في طريق الوحدة وأدت هذه الجديّة إلى أحداث ١١ أكتوبر بصنعاء عام ٧٧ كان ضحيتها رئيس مجلس القيادة إبراهيم محمد الحمدي ، الذي كان عهده أزهى العهود الجمهورية ، ثم إلى أحداث يونيو ١٩٧٨م في صنعاء وعدَن معاً التي كان ضحيتهما رئيس الجمهورية أحمد حسين الغشمي بصنعاء ورئيس المجلس الجمهوري في اليمن الديمقراطية سالم ربيّع علي ؛ فهل انتهت الوحدة بانتهاء ثلاثة من القياديين ؟ إن الشعب وهو مصدر القيادات وينبوع فكرياتها ظل واحداً كما كان واحداً ، كما أن خيول الروم لم تتغير وإن غَيَّرَتْ ميادينها وألوانها ، لهذا جدَّدت المؤامرات أدواتها فكانت حرب فبراير ٧٩ تستهدف ضرب شطر بشطر في الظاهر وقتل واحدية اليمن في الباطن ، من عام ٧٨ إلى مطلع ٧٩ كشفت المؤامرات عن كل وجهها ، وكشفت حقيقة واحدية (اليمن) عن كل أسرار تأريخيتها وعن كل ضمائر أصالتها .

ومن مارس عام ٧٩ زاد نشيد الوحدة حماساً وعلوّاً وزادت حقيقة (واحدية اليمن) تألقاً وبروزاً وكان ظن الرجعية العربية يرى (عبد الفتاح إسماعيل) أممياً مغالياً لا يمكن تقبّله الوحدة مع المتخلفين فإذا بعبد الفتاح أسرع استجابة قابلاً تنازله عن رئاسة الجمهورية إذا كانت معوّقاً لتحقيق الوحدة ، وفي مصالحة الكويت قال عبد الفتاح : من الآن أتنازل لعلي عبد الله صالح

لرئاسة جمهورية اليمن الواحد عن طواعية واختيار ، فتألّبت عليه المؤامرات حتى خلعته من كل سلطاته ، وكانت هذه أعنف ختام حوادث السبعينات . ومن عام ٨٠ إلى الآن ٨٣ زاد تطلع الجماهير إلى واحدية (اليمن) الديمقراطي الثوري فشكل ضغوطاً متوالية على الرؤوس العالية ، لإعلان (الوحدة) رسمياً كما أرادها الشعب ، وأصّلها التأريخ واختزنت حرارتها نفوس الجماهير وحنايا التراب . . . ومرت شهور وعادت شهور وجماهير الثورة تعمّق الوحدة وتصنع إمكانيات إعلانها ، غير أن الصورة القديمة عادت في آخر السبعينات ومطلع الثمانينات ، فذهبت لجان وعادت لجان ، واستقبلت عواصمنا وفوداً وودعت وفوداً ، ولكن ليست هذه هي الوحدة . . . قد تكون بشكلياتها ولكن طول مدة هذا التشكيل جعلته يتبدى كبديل عن الوحدة ، لأن طول استعمال الوسائل يفقدها إمكانية الوصول إلى الغاية ولا يجعلها بديلاً عنها ، قد يتزاور المسؤولون وهذا جميل وقد تسافر الوفود وهذا جميل ، لكن هذه علاقات وليست وحدة ، هذه اتصالات ودية قد تؤسس إعلان الوحدة ، ولكن ليست الوحدة . إن ثمان سنوات من المواعيد واللقاءات واللجان كافية لإعلان الوحدة ، لأن الجماهير لا تتحمل مدة أطول لعقد جلسات التأجيل ، لأن السرعة تسود كل حياتنا إلا أكثرها أهمية فإنها سلحفية السير . اليوم ونحن في منتصف عام ٨٠ ننتظر إشراقة وحدة اليمن الواحد . فلماذا تعوقها المواعيد وهي مجرد دليل على الإنجاز ؟ ولماذا تؤخرها كَثرة اللقاءات وهي مكلفة بتحقيق الوعد قبل أن تنسحب الثقة من أماكنها ؟؟ إننا إذ نرحب بالزوار في عاصمتهم الثانية ونودعهم إلى عاصمتهم الثانية نذكرهم أن هذا التحرك ينتظر النتيجة العاجلة في إعلان تحقيق الوحدة . أمّا هذه الاتفاقيات التجارية ولقاء المؤسسات وعقد الجلسات التأجيلية فهو مجرد علاقات تجري بين شعوب متباينة وأنظمة مختلفة كظاهرة ودّية أو كتعبير عن حسن النوايا أو كتحقيق مصالح مشتركة ، لكي يشمخ أمام الأطماع ولكي يمتلك شموخه على أرضه وسيادته على أعنة مصيره ، لقد أصبحت الوحدة أكثر من

ضرورية ، لأن تغطيتها باللجان واللقاءات والجلسات يتيح للمؤامرات الرجعية التقاط أنفاسها لكي تنسل من جديد . إننا إذ نبارك اللقاءات ننتظر نتائجها الحتمية الفورية وكما ننتظر شمس الغد ننتظر أن تطلع الوحدة من جلسات التأجيل إلى واقع الوجود المشمس ، لكي يتوحد الواحد ، لأن الصعوبات أمام توحيد الواحد أهون من توحيد الاثنين لاختلاف تركيبهما ، أما شعبنا الذي انشطر برغمه فلم يقبل الانشطار وإنما هو يعبّر عن واحديته فلتنطلق الوحدة من واقع الثورة اليمنية كما انطلقت مدافع الثورة تحت النجوم والشموس ، إن هذه الصفحات التي تؤرّخ واحدية اليمن تعبّر عن الملايين من المغتربين والمقيمين في وحدة اليمن الواحد ، حتى لاتصبح الوحدة مواعيد بلا ثقة ، ولقاءات بلا جدوى ، إن تحسين العلاقات غير قيام الوحدة ، إن بروتوكول اللجان غير قيام الوحدة ، إن لقاء المؤسسات التجارية والثقافية غير إعلان الوحدة ، إذا كانت هذه وسائل حقيقية فإنها تختلف عن غاياتها بمقدار اختلاف عناقيد البن عن أوراق أغصانه . إن طول أعمال اللجان وتكرار المواعيد والاتصالات لايشكّل بديلاً عن الوحدة كما لاتشكّل واحدية اليمن عقبات توحيده ، ومهما اختلف لون الرايات فإن تجارب الشعوب لا تختلف ، ومهما تباينت الشعارات فإن الصوت واحد ورافع الشعارات واحد ، وبالأخص شعبنا الذي ينتمي إلى تربة واحدة ويرنو إلى مستقبل ثوري واحد . إذا كانت فكرة الوحدة ولدت رسمياً في مطلع السبعينات فإنها قد تحققت شعبياً منذ ثلاثة آلاف عام ، وإذا كانت لجانها بدأت من مطلع السبعينات فإن الثمانينات زمن الوحدة بلا (بروتوكولات) وبلا شروط ، سوى الشرط الاجتماعي لشعبنا ، والشرط التأريخي لمستقبلية اليمن الواحد الذي رفض الشطرية وزرع الواحدية في تربة الاستشهاد البطولي ، إن شطري اليمن مجرد وهم انتفت وهميته وانطلاؤها من مطلع الستينات لكي تتألق الوحدة في الثمانينات متكاملة الشروط وردية الجبين بنيّة الراية والإرادة . فإلى واحدية اليمن يا شعبنا الواحد العظيم .

الثائر من حقيقته إلى تحقيقه

روَّج كثير من المفكرين لتأثير البيئة الاجتماعية والمكانية ، وكان هذا الترويج يتوخّى منع التجاوز أو يقرر استحالة التجاوز ، ومن الأكيد أن للبيئة المكانية والاجتماعية تأثيراً ملحوظاً ، لكنه غير مانع من التجاوز ، وليس خروج الإنسان عن البيئة كخروج كيان الإنسان عن جلده ، لأن البيئة من صنع الناس وطوائف مؤثراتهم ، وبمقدار تغيرهم من الداخل يغيرون الخارج فيقتحمون نفوسهم إلى نفوسهم الأخرى ، فإذا لم يكن في مقدور المرء أن يتخلى عن تركيبه العضوي ، فإن في مقدوره أن يغير صيغة داخله حتى يخلق منه بديلاً عنه تام الانفصال عن أصوله ، وقد ثبت أن الثوار الحقيقيين يتجاوزون تقاليدهم البيئية عن طريق إعادة صيغتهم الداخلية ، التي لا تتحقق إلا بطول مزاولة تُرهف الملكات .

إذن فالثائر يأتي من التقليدي كما يأتي النهر من منبعه ، فيخرج عن تقليديته إلى تجدده الدائم ، فكما أن النهر يختلف عن منبعه فهو يختلف عن نفسه بالتدفق الدائم وبالتماهي في التربة والجذور التي يُرَويها ، كذلك الثائر يخرج من تقاليده لكي يثبت حقيقته التغييرية ، ثم ينتقل من حقيقته إلى تغيير سواه ، كما فعل النهر حين يحقق وجوده بما تنبثق عنه عوالم الاخضرار والازهرار بفعل تغيير التربة الذي توالد من تغيير الري . . . فأول مهمات الثائر أن يتغير حتى يتبدّى حقيقة جديدة تنتقل بالتحقيق إلى ملايين الحقائق ؛ صحيح أن هذا التغيير ليس سهلاً ولكنه غير مستحيل ، فملايين الأفذاذ من الأفراد والشعوب تغيرت وغيرت وراءها تقاليدها كما تترك الأشجار أوراقها الشتائية

لمهبات الرياح .

اختلف (محمد رسول الله) عن تقاليد أبيه وجده ورمى جسده التقليدي على باب (غار ثور) لكي يخرج منه إنسان جديد عدائي لأشرس التقاليد الوثنية الرجعية الاحتكارية ، ولم يتجاوز كيانه التقليدي بسهولة ، وإنما بعد هزة (جبريلية) حطّمت (محمد بن عبد الله) لكي يخرج منه (محمد رسول الله) ليصبح هذا الإنسان الجديد حقيقة مغايرة تغير كل الحقائق الثابتة وتستنبت كل الحقائق التحولية ، وبتغييره غيّر ما كان قائماً وأقام كل ما كان ممكن القيام ، فكان الصحابي يقاتل أباه وأخاه بعد أن كانت العصبية ديناً بلا نبوة أو بنبوة أرضية من صنع الأعراف . . . لهذا نشأ مجتمع جديد لأن الثائر القائد نسف تقاليده فجذّر جِدّته في غيره بعد أن حققها في نفسه ، ليس من المحال تجاوز المألوف إلى نقيضه ، لأن في كل إنسان إمكانية تغيير نفسه وإمكانية تغيير سواه ، ولايأتي هذا إلا بالصراع الدائم بين تقاليد المرء وتجدّده بين أنانيته واجتماعيته ، فليس كل إنسان عبد منفعته الخاصة بالضرورة كما قيل ، لأن في مقدور الثائر تحقيق سيادته على المنافع العامة . . . جاء (عقيل بن أبي طالب) إلى أخيه (علي) وهو (إمام) فاستوهبه قدراً من المال ، فقال (علي) : لاأملك شيئاً ، فقال (عقيل) : تحت يدك خزائن العراقين ، فقال (علي) : تلك أموال الأمة لا أملك منها نقيراً ، فلاذ (عقيل) بمعاوية غير مأسوف عليه . . . هذان الأَخَوان من بيئة واحدة أحدهما تجاوز بيئته وتجاوز كيانه العائلي واندغم في غمار الجماعة المتغيّرة ، وثانيهما ظل حبيس تقاليده المكانية والجسدية فالتجأ إلى مثيله .

إن تحقيق الثورية مُهِمَّة شاقة لا يقتدر عليها إلا أقوياء النفوس ، ولكنها ليست مستحيلة ، ولا أقوياء النفوس من الندرة وإنما هم كثرة بكثرة الشعوب وبديمومة نضال الشعوب . . . قد تبدأ الثورية الداخلية فردية أو إفرادية ، ولكنها

بتبلورها كحقيقة تصبح في الجموع ، لأن التغير الإبداعي لا يأتي إلا من متغيرين بدؤوا بتغيير صيغتهم ثم صاغوا قواعدهم من منظور إبداعي وعن رؤية جديدة ، وكل هذه من إمكانيات الإنسان إذا تعهدها التنامي والترويض على التجاوز ، لأن هذه الإمكانيات مزروعة في الفطرة ، فالإنسان يتجاوز صلب أبيه إلى طوايا أمه ثم يخرج عن أمه عن انفصالين من الأبوين ، وهذه بذرة إمكان التغير والتجاوز المتواصل كالنهر تماماً ، حتى أن محاولة التجاوز المتّصلة قد أدّت بأفراد إلى أفدح التضحيات ، أوصلت عبقرية الرؤية (نيتشه) إلى الجنون كبحث عن الأعلى ، لأنه رأى المعقول في عكسه وذلك عندما أصبح ما هو ضد العقل هو العقل كما رأى التقليديون . . . مثل (نيتشه) (بيتهوفن) فقد أراد أن يتجاوز المسموعات إلى حنايا الصامتات لكي يعزف لغة الصمت ، فأوصلته عبقرية السماع إلى الصمم لكي يسمع أفضل بغير أذنيه ، لأن السماع بالأذنين أصبح تقليدياً ينبغي تجاوزه إلى سماع الصمت بحاسة سادسة أو سابعة ، فقد أبدع أعظم معزوفاته عندما تجاوز تقاليد السمع ، فقد كان صمم (بيتهوفن) ثورة إبداعية ، كما كان جنون (نيتشه) عقل جديد يحقق (السوبرمان) في الحلم حين عز تحقيقه في واقع العيان ، كذلك كان عمى (المعرّي) سبب إشعال العيون الداخلية فيه ، حتى رأى ما لا يرى ملايين المبصرين ، وكان أول من فطن إلى العيون الداخلية كما يقول :

سواد العين زار سواد قلبي ليتّفقا على فهم الأمورِ

هذه أمثلة للثورة الفكرية والفنية ، وهي من جملة التجاوزات الإنسانية مما يسمى واقعاً إلى ما يمكن وقوعه . . . ولا تقلّ الثورة الاجتماعية مكابدة عن الثورة الفنية والثورة الفكرية ، لأن كل الثورات تبتغي هدفاً واحداً : هو تحطيم ما كان وإقامة ما ينبغي أن يقوم ، فإذا لم يحقّق الثائر نفسه وينتقل إلى تحقيق التغيير في خارجه فهو لم يصنع شيئاً وإنما أحسّ صنع شيء ، والثورة الكاملة

تبدأ حسّاً بالتغيير ، ثم وعياً بنوع التغيير ، ثم خلق ملكات جديدة تتناوب المواقع وتتآزر على بلوغ الهدف ، فيحل الأجدّ مكان الجديد عن تواصل يتلو تواصلاً .

فإذا كنا إلى الآن لم نثر ! فلأننا لم نُعِد صياغة نفوسنا لكي نصيغ سوانا . . . لقد انفجرت عدة ثورات ولكن عن حسٍّ ، ناقص وعي ، وثورات السلاح وحدها عمل تقليدي من العهد الحجري إلى الآن ، فكل الحيوانات تتناهش على الفريسة وتقتتل على الأنثى ، كذلك البشر تقاتلوا على المراعي والمناهل وعلى الغنيمة والسبيجة والضعينة ، وعلى الرغيف ، ثم وصل القتال إلى معترك السلطة ولكن الغرض واحد : من يحكم ؟ بدون سؤال : كيف يحكم . . . تساقطت تيجان وارتفعت تيجان دون أن يتغير سوى اللون ، لأن الذين طمحوا لم يكونوا أكثر تغييراً من الذين تشبثوا بمقاعدهم .

إذن فالسلاح أداة تقليدية لا يكسر إطار تقليده إلا تغيير مفهوم استعماله وتغيير توجيه استعماله ورقي غايته ، وإلا لا فاعلية له أمام القوة المتغيرة داخلياً ، وقد لاحظنا أن الثورات التي هزت العالم من الأساس اكتسحت بدون سلاح أعنف الأسلحة . . . اشتعلت الثورة الفرنسية حتى أحرقت نارها الحماسية بنارها ، لأنها تجاوزت تقاليدها دون أن تكسر تقاليد غيرها . . . لكن هل انطفأت ؟

لقد انتقل حريقها الكبير إلى العالم ، فكانت كل ثورة تهتدي بشرارتها وترفع شعائرها ، لأنها جاءت خلاصة التفكير الثقافي الأوربي ، فامتدت من حيث جاءت على ضياء الثورة الفرنسية . . . فما سبب احتراقها ؟؟ .

لأنها صاغت خطواتها قبل أن تصيغ طريقاً جديداً لزحفها ، ولأنها كانت وسطية الطبقة ، وكانت الأفكار العملية كمِلكية خاصة للبرجوازية بفضل ما

حققت من وسائل العيش . . . لكن هل احتكرت هذه الطبقة عن سواها الأفكار ؟

إن الأفكار لا تقبل الاحتباس وإنما ينشق عنها نقيضها من صميمها ، برجوازية الثورة الفرنسية خلقت نقيض البرجوازية وعزّزت إمكان البرجوازية ، مهما أكلت الثورة نفسها فإنها تحوّلت إلى نفوس غيرها بشكل مشابه وبشكل معاكس ، وأهم ما في الثورة أنها وليدة التغيير ، ولهذا غيّرت ولو بعد حين ، لأنها نشأت في ظل الجماليات الملوكية وتحت أغاريد أدب الصوالين الأميرية . وهذا ما دعا كبار الروائيين إلى التزام الملوكية ، لأن (ثورة الدكاكين) كما قالوا : « تعرف الأسعار وتجهل ملكوت الأشعار » .

إذا كانت هذه الثورة عزلاء من السلاح ، فإن تغيّر الثوار أنجح سلاح ، كما برهنت ثورة أكتوبر السوفييتية التي اكتسحت الدبابات والمدافع بصدور عارية ولكن بوعي تغييري تقوده عبقرية فلسفية وتسوقه عبقرية إرادية ، ولم تكن هذه هي الثورة الأخيرة بل اشبهتها من بعض الوجوه الثورة الإسلامية الإيرانية آخر السبعينات فأسقطت أعتى قوة في العالم الثالث بدون سلاح والآن تجابه قوة الإمبريالية بنفس الإصرار الثوري . . .. فماذا عن ثوراتنا ؟

من مستهل الخمسينات هبّت الثورات في أقطارنا . . . ولكن كيف كانت ؟ . . .

ومن أي الينابيع انهمرت ؟

لقد تصاعدت عن حسّ شعبي ولكن غير تغييري ، لأن سائق المدرعة لم يخلّف وراءه سائق الراحلة وإنما امتد منه رغم عصرية الآلة وسلفية الراحلة . . . لقد كان تفجير السلاح ضرورياً لأنه يقتلع سلطة مسلّحة . . . لكن هل اختلف نوعاً الوعي بين الذي قام من قعود وبين الذي قعد من قيام ؟

لقد كان القائم الجديد شديد الحسّ بالفساد قوي النوايا للتغيير ، غير أن التغيير لايتحقق بالحسّ الخارجي والنوايا الدخلية ، وإنما بتحطيم الداخل التقليدي كلياً وانبلاج الداخل الجديد في الثائر .

لكن هل هذا كان ممكناً في واقعنا العربي ؟

إن الإمكان شيء والانتفاع به شيء آخر ، إن العربي واحد من الناس يمكنه إعادة خلق وجوده لأن وراءه مئات النظريات العربية في تجاوز سن التقاليد إلى الجِدَّة . . . قال (ابن سينا) : « يأتي الوليد جديداً حتى يغرس الأهل في فراغ نفسه عاداتهم » ، فهذه دعوة تربوية لرفع راية العصيان على الأبويّات ، وإلى مثل هذا يشير ابن الرومي :

لـولا عـلاج النـاس أخـلاقهـم　　　إذن لفـــاح الحمـــأ الـــلازبُ

علاج الأخلاق دعوة إلى تجاوز الطين اللازب عن طريق ابتكار صياغة مغايرة للحمأ المسنون والطين اللازب ، إن هذا البيت مستمد من أقباس فلسفية رأت الإنسان كالنهر يتجدد دون أن يرى أحد تجدده ، كما رأت فلسفة أخرى تكوين الإنسان من تراب ونور وأن هذين المزيجين يظلان في صراع ، النور يطمح ، والطين يكبح ذلك الطموح ، وفي هذا الصراع تكمن إمكانيات التغيير المتلاحق ، فليس التأريخ العربي خالياً من الفلسفة التغييرية ولا الإنسان العربي أعزل من إمكانيات تجاوز الإنسان لذاته إلى تغيير مجتمعه إلى تلاحق تغيراته .

فلماذا لم يغيِّر ثوارنا ؟ . .

لأنهم بدون تغيير داخلي يصعدون منه ، وإنما أكثرهم من نوع ذهنية السلطة التي حلوا مكانها ، والشواهد على هذا ، سجل الثورات نفسها ، فقد خرج على الملوك ياوراتهم وحرّاسهم وأركان حروبهم ، وهذا غير معيب في ذاته ، فمن الجائز أن يختلف رئيس أركان الحرب عن الملك والياور عن سيده ،

لكن الأهم من هذا نوعية الثائر ومقدار خروجه عن تقليديته هو ، حتى ينقطع الثائر عند حلم الثورة وحقيقتها عنه ، قبل أن يهجس فيه داعي الخروج عن الكيان الموروث ، لقد ثار على الملوك قادة جيوشهم بدون تغيير نوعي فتحققت ثورات ولكن ناقصة لمحدودية التغيير في الثائر ، ولضآلة تأثير هذه المحدودية ، لأن القليل يعطي الأقل . . . وهذا ما جعل الثورات العربية ناقصة التكوين .

فهل يمكن نمو هذا النقص إلى الكمال أو هل يؤدي إلى تزايد النقص ؟؟

لقد ظل النقص في تنامٍ إلى الأكثر نقصاً ، فأدّى هذا إلى الثورات المضادة اعتماداً على النقص الذي تسمّى سلبيّات تحوّلت إلى إيجابيات للثورة المضادة ، لأن تلك النقائص التي تراكمت مع ثوراتنا رسّخت الركائز الكثيرة للثورة المضادة ، فأدّت الثورة الناقصة إلى الرِدّة الكاملة ربما لمدة أطول . . . كما ثار قادة الجيوش على الملوك في الخمسينات والستينات ثار نواب الرؤساء على الرؤساء أو النواب على النواب في السبعينات ، فكانت كل هذه الحركات فوقية بمعزل عن الطاقة التحوّلية في نفس الشعب . . . والأساس لكل هذه الحركات المتشابهة نقص ثورية الثورة الأولى ، لأن حضورها الحسّي على العدو الأول جعلها في غيبة عن نفسها الجديدة كلون الثورة .

إذن فليست الثورة تحريك دبابة أو احتلال إذاعة أو إعلان بيان تتبعه مَرْشات ، كل هذه مجرد لحظات عاطفية أو مجرد روائح آنيّة لحسّ آني . . . أما الثورة التأريخية فهي انقطاع الثوّار عن أنانيتهم ودخولهم أرضاً جديدة بالثورة ومع الثورة ، هذه هي الثورة التي تنقشها الشمس على صفحات التحوّل الدائم . . . قد يكون مطلق النار بطلاً وقد يكون مستقبِل الطلقة بطلاً وقد يستشهد شجاع تلو شجاع . . . لكن السؤال ماذا حقق الاستشهاد ؟

هل هي بطولة تغييرية من متغير ؟

ما أبعد الفرق بين البطولة التغييرية وبين البطولة الحربية ، تلك تفتتح عالماً جديداً وتلك تمدّ تقاليد صراعية غير تغييرية لانطلاقها من تقليدي لم ينفصل عن مناخ الآباء .

لقد استحكم الفساد في تركيب العالم الثالث عن علمية استعمارية وعن توارث تقليدي فيه ، ولا يمكن أن تغيّر هذا ثورات السلاح إلا عن جدة أصيلة وعن أصالة متسارعة التجدد ، وبهذا يثبت الثائر حقيقته كنبي أرضي ، وينجز تحقيقه في الأرض التي انتقل إليها من الأرض الفاسدة .

صحيح أن في كل واقع فاسد عناصر سليمة ، وقد يكون البحث عن النقاوات فيها جزءاً من مراحل التغيير ، باعتبار أن أنقى العناصر في القائم تشكّل أول أساسيات الممكن ، ومن المستحيل أن يشمل الفساد كل شيء وإلا لما كان تغيّر الثوّار رد فعل على السيئ لكي يتألق الممكن الأبهى ، ولعل ثورات الخمسينات والستينات لم تقدّر أنها تنمي معاكساتها أو أنها كانت تقدّر ذلك وتعجز عن تغييره لضعف التغيير فيها ، فكلما كانت تقتدر عليه تلك الأنظمة الثورية هو إمساك وسط العصا بين القوى كلها كمصالحة بين التناقضات أو توازن بين القوى . . . فكان المسؤولون من الخليط المتنافر وكانت الذروة العليا تحتمي بتصارع المتنافرات ، وكانت تشكل مناصب من اليمين واليسار والوسط وتارة تقوّي جانباً وتارة تضعّف آخراً بمقتضى الطقوس الدولية .

وبهذا أصبحت الثورات شبه إصلاح وشبه تصالح بين الكائن وبين الذي ينبغي أن يكون ، وكانت السلطات أكثر ضغطاً على التغييريين تحسباً لخطورتهم ، حتى داهمها الخطر من حيث لا تحتسب وهي القوى الرجعية التي وقعت بدورها بين خطرين من الأكثر ثورية ومن الأكثر رجعية ، وكل هذا ناشئ من مستهلّ المسيرة الثورية ، لأنها أحسّت بالتغيير دون أن تعي نوعيته ودون أن

تغيّر أدواته وماهيته ، في شكل قواعد مسؤولة وفي شكل رقابة ناقدة عن مسؤولية ، بل إن السلطات الثورية ألغت كل التنظيمات وعندما حاولت استحداث بديل شكّلت مجرد موظفين ومصفّقين لم يمسهم أي تغيير لأن الذي شكّلهم كان لا يملك قوة تغييرية في نفسه حتى يغيّر بها أدواته .

فهل حدث شيء ؟ وهل ثرنا ؟ وهل غيّرتنا الثقافات ؟؟ لقد حدث شيء كثير ربما لم يُستغل جيداً ، وربما لم يكن كافياً ، وربما لم يحدث ماكان ينبغي أن يحدث . . . مهما يكن فقد كان هناك اتجاه ولكنه خلق معاكساته من أول هجسه بالتغيير حتى أسقطته المضادات ، والآن تنتظر المعاكسات عكسها .

فهل اجتاحته التغييرات لكي يغيّر ؟

لعل البديل سيختلف عن نوع بديله ولا يكفي أن يكون عكسه وإنما طاوياً لكل تأريخه مبتدياً عالمه من أول خطواته المتغيرة المغيِّرة ، هناك يجدّد الثائر حقيقته ويبتكر تحقيقه مبتدئاً بالإنسان كمصدر للتغيرات ، مُثَنّياً بتجاوز الضرورات لكي يتمادى صراع الجديد ليبزغ الأجد ، لأن كلّ ما تحقق يستدعي مزيداً من التحقيقات ، وتغيّر الإنسان هو الذي يبصّر بصنع التغيرات الجذرية ، ومن المضحك أن نعتبر تغيُّر الألوان والموضات تغييراً أصيلاً ، إنه تنقيش لا تغيير ، لكي يثبت الثائر حقيقته يخلع كيانه التقليدي ، ولكي يجذِّر تحقيقه يخلق نوعية عالمه عن طريق إبداع منتجه وإنتاجه ، ولا شك أن هذا ليس سهلاً ، ولكن مزاولة الصعوبات العديدة تخلق الاختبارت المبدعة ، وإذا كانت السياسة هي فنّ الإمكان ، فإن في استطاعة الإنسان تجاوُز الإمكان بالقوة إلى الإمكان بالفعل .

* * *

الفصل الحادي عشر

رؤساء الجمهوريات

١ـ جمهورية الثورة .
٢ـ المجلس الجمهوري .
٣ـ الجمهورية الثالثة .
٤ـ في الشطر الجنوبي .

جمهورية الثورة

اتَّسمت سنة ١٩٦٢ بتزايد الاحتمالات التغييرية ، حتى لاحت الثورة واقعاً يقيني الوقوع . . . وذلك لتزايد عواملها من جهتين : من خوف السلطة ، ومن توافر إمكانيات الثورة شعبياً . . . فقد تلاحقت الإشاعات بأن القصر (الإمامي) اتفق مع الإدارة الأمريكية على بناء قاعدة عسكرية أمريكية في (الجَنَدْ) ، وأن هذه الاتفاقية قيد التنفيذ ، والإشاعة بما فيها من سر التهامس قوية الإغراء لأنها إعلام الشعب الذي لا يملك غير الإشمات بحكّامه الجائرين . صاحبت هذه الإشاعة خصومة علنية بين أعمدة السلطة من قرابة (الإمام) ومن المتقربين إليه بالإخلاص ، وبرهن على هذه الخصومة السلطوية فرار (أحمد السياغي نائب الإمام على لواء إب) إلى (عَدَن) وتوجّس (عبد الله الحجري) وزير المواصلات و(عبد الرحمن السياغي) وزير الداخلية و(محمد عبد الله عامره) وزير المعارف من سوء المصير ، نتيجة التعصب العرقي ضد المخلصين للعهد ، لأول مرة في التأريخ الإمامي ، لأن الإمامة كانت ترى من تسمّيهم (الأنصار) من الشعب سرَّ قوّتها وتغذية اعتقادها التشيعي ، فكشفت هذه الخصومة ضد المخلصين ذعر الحاشية ومحاولتها تأسيس حكم فئوي يعتمد على الحماية الامبريالية . . . وكانت كل هذه التصرفات القصورية تشي على غياب حكمة المسؤولين ، لأن الحاشية التي يجمعها بالإمام النسب تجاوزت سنَّة آبائها الذين كانوا يحكمون بالموالين خارج العائلة الإمامية ، فابتدعت معاداة المخلصين ، وهذا بسبب الرعب من الثورة الذي حجب التبصر ، لأن عوامل الثورة أخذت تتكاثر ، وكانت أخبار القاعدة الأمريكية (بالجَنَد) ، أقوى المحرضات على

الثورة التي بدأت تمتلك إمكانياتها ، فقد تخرّجت في تلك الفترة كوكبة من العسكريين الذين أنهوا دراستهم في الكلية الحربية بمصر من أمثال : عبد الله جزيلان ، علي سيف الخولاني ، محمد المخدي ، عبد اللطيف ضيف الله ، محمد محسن الشامي ، لطف العرشي ، عبد الله المقبلي ، لطف الزبيري ، عبد الكريم المقحفي . . . وكان هؤلاء مشبّعين بروح الثورة الناصرية وبالثقافة الثورية وبالوعي الوطني ، فأضافوا إلى المدد الحماسي في الداخل وقوداً جديداً ، ونظراً لحتمية وقوع الثورة ، بدأ التخطيط المجالسي يتصوّر البديل عن (الملَكية) ، ويرسم الكيفية التي تتم بها الثورة عسكرياً ، والكيفية التي يتشكل بها نظام الثورة ، فردّدت الروايات عن جلسات الضباط : بأنه سيتم اكتساح قصر (الإمام أحمد) بتعز وقصر (الأمير البدر) بصنعاء في لحظة واحدة ، وأن الثوّار سيحتفظون برجال العهد الملكي مؤقتاً للاستفادة من خبراتهم ، ثم تتبّع سلوكهم ، على غرار ما حدث في الشهور الأولى من ثورة مصر . . . التي احتفظت باسم الملكية في شخص ولي عهد (فاروق) تحتْ الوصاية مدة إحدى عشر شهراً . . . وفي غمرة الروايات عن هذه الأفكار ، تزايدت صحة (الإمام أحمد) سوءاً ، بتأثير محاولة اغتياله على يد (اللقية) ورفيقيه عام ١٩٦١ ، فأصبح موته حقيقة ، ولكن متى ؟

أدّت محاولة اغتيال (الإمام) إلى سجن الزعيم (حمود عائض الجائفي) مدير الكلية الحربية ، وهو موضوع إجماع الضباط الأحداث على ترشيحه لقيادة الثورة ، ولما أكدّت لجنة التحقيق مع (اللقية) براءة ساحة (الجائفي) من أي ارتباط بحركة اللقية والعنفي والهندوانة ، لم تقتنع حاشية (الإمام) التي كانت تحكم عنه باسمه في مرضه بهذا التأكيد كلياً لأنها كانت تستخطر كل العسكريين في ذلك الحين ، وبالأخص (حمود الجائفي) الذي شاع خبر ترشيحه لقيادة الثورة من جهة الضباط الأحداث ، والخرّيجين من الكلية الحربية بمصر .

لهذا خُفِّف سجن (الجائفي) مجرد تخفيف ، إذ صدر الأمر باسم (الإمام) بحل قيده والسماح له بإجازة يوم في الأسبوع يقضيه في بيته ، فرأى الضباط الأحداث في هذا السماح فرصة مواتية لتهريب (الجائفي) ، إبقاءً عليه إلى اليوم المناسب أو خوفاً من إعدامه ، فتصدّى الملازم (صالح الرحبي) لأداء هذه المهمة مستعيناً (بمحمد أبو لحوم) ، لخبرته بالطرق الملتوية إلى الشطر الجنوبي . . . فأصبح فرار (الجائفي) أهم أحداث سنة الثورة عند الضباط وعند القصر . . . إذ رأى الضباط تهريب (الجائفي) نصراً موعوداً ، كما اعتبره القصر خلاصاً من أهم المرشحين لقيادة الثورة ، غير أن هذا التهريب لم يعد مستغرباً في ذلك الحين ، فقد أدّى مرض (الإمام) واصطراع العائلة الحاكمة إلى تراخي السلطة ، فتتالت الأخبار عن الفرار من السجون ، وعن سرقات أمناء الصناديق نقود الدولة ، وفرار بعضهم من السجن بمبالغ من النقود .

وبعد فرار (الجائفي) إلى (عَدَن) بشهور ، أراد (البدر) اكتساب (الجائفي) ، فبعث إليه من يطمئنه ، وأعطاه عهداً بالأمان ، ولكي يؤكد (البدر) حسن نيته بعث (الجائفي) إلى (روما) للاستشفاء ، وبهذا تم إقصاؤه واكتسابه معاً . . . وربما كان (البدر) أقوى دراية بالجائفي ، إذ فطن بأنه لم يطمح إلى قيادة ثورة ، ولاسيما بعد سجنه إثر الانقلاب الدستوري عام ١٩٤٨ .

فقد عُرف (الجائفي) منذ إطلاقه بالهدوء وبانطوائه على نفسه ، فلم يكن بينه وبين الضباط الأحداث غير العلاقة الإدارية في إطار الكلية الحربية . . . فكان أكثر التزاماً بالطاعة وبلزوم بيته ، وكان كثير العكوف على كتب التأريخ والطب القديم لماضوية ذهنيته ولفرط حساسيته نحو صحته ، ولا يخرج عن هذه العزلة إلا إلى مجالس المسؤولين : كمجلس أمير الجيش النظامي وأمير الجيش الدفاعي ومجلس (البدر) في المناسبات . . . وعلى رغم اتصاله بأعلى المسؤولين وزهده عن التحرك الثوري ، ظل ترشيحه عند الضباط الأحرار

قائماً ، فكان في جانب وترشيحه في جانب آخر كما برهنت الأحداث . . . ولعل الثقافة التأريخية القديمة بالإضافة إلى السجن كرَّهت إليه الأحداث الدموية ، لأن كل حدث دموي كان يكنس مئات البيوت إلى المقابر ، وتترتب عليه أسوأ العواقب على الأحياء ، ربما زهَّدت هذه الثقافة التأريخية (الجائفي) في الطموح ، كما جرَّته الوساوس النفسية إلى قراءة الطب القديم .

بهذا كان معاصراً موصولاً بالقديم ثقافياً ووجدانياً دون أن يبدي عداء للمغرقين في المعاصرة أو المسرفين في السلفية ، لأنه ودّي القلب واسع الصدر ، فهو أشبه بزميله المقدم (أحمد يحيى الثلائي) في الانطواء على النفس والاعتدال في العلاقات ، وهذا ما استكنهه (البدر) في (الجائفي) ، ولم يفطن إليه الضباط إلا ليلة ٢٤ من سبتمبر عام ١٩٦٢ ، عندما أبى على (عبد الله جزيلان) و(أحمد الرحومي) قيامه بقيادة الثورة بعد أن قصداه من (صنعاء) إلى (الحديدة) .

بامتناع (الجائفي) عن قيامه بقيادة الثورة ، سقط أحد جوانب التخطيط ، هذه مسألة .

المسألة الثانية تباطأ تنفيذ الثورة بالشكل المرسوم لها قبل شهور ، وفي ١٩ سبتمبر ١٩٦٢ مات (الإمام أحمد) في (تَعِزّ) ، فتسبّب هذا في إلغاء اكتساح قصر (تَعِزّ) من جملة التخطيط لعدم الحاجة إليه ، وبهذا أصبحت مهمة الثورة أسهل ، وكان (الجائفي) في موكب دفن (الإمام أحمد) بصنعاء مسؤولاً عن انضباط الأمن إلى جانب الزعيم عبد الله السّلال والعقيد عبد الله الضبي مدير أمن صنعاء . . . ولما استرأى الضباط (الجائفي) في تنفيذ الثورة ساعة دفن (الإمام أحمد) ، رفض هذا بحجة موقف دفن (الإمام) وما حدث في سطوح بيوت صنعاء من المناحات ثم زيادة الضحايا وغزارة الدماء نتيجة كثرة مشيعي جنازة (الإمام) من كل الطبقات وهذا ما سيؤدي إلى انفلات الأمن ، وثبت صواب

رأي (الجائفي) ، لأن (الحسن بن يحيى) أخا (الإمام أحمد) لم يحضر جنازة أخيه كما كان متوقعاً ، بل لم يستدعى من (أمريكا) ، فإذا تم قتل (البدر) ودفنه إلى جانب أبيه ، فإن (الحسن) وهو أخطر في رأي (الجائفي) سيجد الميدان خالياً أمامه ، وكانت جماعات المستنيرين تؤيد (البدر) لأنه ضد (الحسن) الأشد جموداً .

بعد مراسم دفن (الإمام أحمد) ، عاد (الجائفي) إلى (الحديدة) ، لكي يبتعد عن الشبهة من قِبَل السلطة ، وعن الصلة بتخطيط الضباط .

وعندما طلب منه قيادة الثورة ، بذل كل جهده في خدمة الثوّار رافضاً قيادتهم . . . فلم يحصل (جزيلان) و(الرحومي) على غير موافقة (الجائفي) في التعاون مع الثوار ، وهذا كسب ولكن المطلوب كان أكثر منه .

وفي ليلة السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢م شعر الضباط في لحظة تنفيذ الثورة بشدة إلى رتبة عسكرية عالية ، لكي تعلو فوق تنافس الزملاء ، ولكي يكون للرتبة تأثيرها على الضباط الثُوّار وسائر قادة الأسلحة . . . وكان الاتجاه إلى زعيمين : الأول (عبد الله يحيى السلاّل) أمير حرس (البدر) ومدير كلية الطيران ، الثاني (حمود رشدي) قائد سلاح المدفعية . . . وكان اختيار (السلاّل) أرجح لسبقه في النضال وانتمائه إلى الطبقات الشعبية ، أما (حمود رشدي) فقد كان الارتياب به شديداً ، لأنه سجن الكثير من المناضلين فترة إدارته لأمن صنعاء عن أوامر القصر .

بهذا انطفأت فكرة اختيار (حمود رشدي) لسوء سوابقه ، وقويت فكرة اختيار (عبد الله السلاّل) ، فذهب لاستدعائه إلى بيته الملازم (أحمد الرحومي) الذي خبيه الجائفي ، والملازم (صالح الحبي) الذي غامر بتهريب الجائفي من (صنعاء) إلى (بيحان) . . . وكان هذا الاختيار موفقاً ، لأن

(السلاّل) كان نقي الصفحة أمام الجيش وأمام الشعب ، فلم يستغل منصبه العسكري ولا استغل منصبه الإداري على ميناء الحديدة ، ولا تسبّب في الاضرار بأحد مهما كان مناوئاً للعهد ، ولا أوصلته مناصبه ورتبته إلى حدود الإثراء ، على حين كان يثري سواه من مناصب أدنى ، إلى جانب هذا تجلّت له مواقف بطولية في إخماد فوضى جنود القناصة بذمار ، عندما حاولوا نهبها إثر تسريحهم من الجيش بتَعِزّ عام ١٩٥٩م ، وكانت هذه الوحدة شهيرة بالشغب والتهور القتالي ، كما تجلّت للسّلال مواقف شعبية عندما أناط به (القصر) مهمة سحق الطلاب المتظاهرين في يونيو عام ١٩٦٢م ، فأبدى تعاطفاً مع الطلاب إلى حد اتهام الحاشية إياه بالتواطؤ .

بهذا تبدّى صواب اختيار (السلاّل) ، كما تجلّت ثوريته في سرعة استجابته إبان الاضطرار إليه لأنه من الشرائح الشعبية المقهورة ، مع أن الضباط كانوا يتوقعون وقوفه إلى جانب (القصر) ويخافون من هذا حتمية الفشل ، فكانت استجابة (السلاّل) لتحمل عبء قيادة الثورة في ذلك الظرف العصيب منسجمة مع انتمائه الشعبي ، لأنه من غمار الفقراء : تعلم في مدرسة الأيتام مع أبناء الفقراء ، والتحق بالكلية الحربية العراقية في منتصف الثلاثينات ، وبعد تخرّجه شارك في الانقلاب الدستوري عام ١٩٤٨م ، واستضافه سجن حجة من عام ١٩٤٨ إلى ١٩٥٥ ، ثم شغل عدة مناصب مدة سبع سنوات ، فقاد الثورة وعلى ظهره ثلاثة وخمسون عاماً من التجارب المريرة .

فمرشّحات (السلاّل) أوفر من سواه لأن الثورة شعبية : تحالف على تنفيذها أقسام من المثقفين وأقسام من العسكريين . . . وعلى فوريّة استجابة (السلاّل) فإن الضباط الأحداث كانوا يرون قيادة (السلاّل) آنية قياساً على (محمد نجيب) في ثورة مصر وعلى (عبد السلام عارف) في ثورة العراق .

لهذا كان (جزيلان) هو المرشّح المستقبلي عند الضباط الأحداث قياساً

على (جمال عبد الناصر) أو على (عبد الكريم قاسم) ، وهذا بفعل حساسية بين من كانوا يسمون بالضباط الأحداث والضباط القدماء ، وبتأثير أحداث الثورات العسكرية في مصر والعراق والجزائر والسودان ، غير أن الأحداث التي تلت الثورة اليمنية قلبت المقاييس كلها ، وكان أهمها نجاة (البدر) وهذه ذات خلفية في التخطيط وفي حدوث عكسه ، فقد كلف الضباط الأحرار (حسين السكّري) أحد ضباط وحدة حراسة القصر على أن يقوم بقتل (البدر) ليلة ٢٦ سبتمبر ، وبعد القتل تتحرك الدبابات لاحتلال (القصر) ، فأخفقت مهمة (السكّري) لأن أحد الجنود ثنى مسدس (السكّري) إلى حلقه ، وظل الضباط ساعتين ينتظرون إشارة من (السكّري) عن نجاح مهمته ، ففاجأتهم الأخبار بإسعاف (حسين السكّري) إلى المستشفى وإصابته بسلاحه ، فتأكدوا من فشله ، وكانت هذه أول صدمة في أحرج اللحظات ، حيث لا مفرّ من الإقدام مهما كانت النتائج ، فتحرّكت الدبابات إلى (قصر البشائر) ، واستمرّت في قصفه ست عشرة ساعة ، ولما كانت الدبّابات على مقربة من القصر بأمتار ، كانت قذائفها تحدث فتحات لا تتسبب في هدم القصر ، لأنها كانت تنفجر بعيداً من المرمى ، وكان القصر يقاوم بكل قوّته حتى أحرق دبابة في الساعة العاشرة من يوم الثورة ، وهنا تدخلت مدافع الهاون من مرمى مناسب كان أشد تأثيراً على القصر ، وعندما اقتحمت الدبابات القصر بعد ١٦ ساعة لم تجد جثة (البدر) ، وإنما وجدت خواء ودماراً يسيراً ، وكان لهذا فاعلية في معاكسة التخطيط ، فبعد أن نوى الضباط سلامة رجال العهد الإمامي ، تسبّبت طوارئ الأحداث في اتخاذ الاحتياط الأقسى ، وساهم بعض رجال العهد الإمامي في عنف الدموية ، فعندما استدعت قيادة الثورة مسؤولي العهد البائد بصنعاء ، قاوم بعضهم فقتل من أمثال : (عبد القادر أبو طالب) الذي أراد تحريض معسكر (جبل نقم) على مقاومة الثورة ، ومن أمثال : (محمد علي زبارة) الذي استقبل مدرعات الجيش بإطلاق النار عليها ، ومن أمثال : (علي ابن الإمام

يحيى) الذي لم يستسلم إلا بعد أن طوّقت قصره المدرعات ، وكان أقرب مصدر إطلاق نار على الإذاعة ، ومن أمثال : الحسن بن علي الذي احتمى بقرية جدر وقبض عليه هناك ومن أمثال : عبد الله بن الحسن الذي تمادى في إطلاق النار من دار الشكر المطل على ممر الدبابات وقتل أبرياء وأصاب الملازم محمد حسين السيراجي إثر خروجه من دبابته فاكتشف فوقع إطلاق النار . . . واستجاب البعض مبدياً الرفض العنيف للثورة ، من أمثال : (يحيى محمد عباس) رئيس الاستئناف الذي شهر خنجره في ساحة القيادة أمام المدافع الرشاشة صائحاً : « لن يحكمنا هؤلاء الصبيان » فقتل فوراً ، ومن أمثال : (محمد عبد الله عاموه) وزير المعارف الذي أصرّ صراحة على تمسكه بمبايعة الإمام المنصور (محمد البدر) .

من هنا بدأت الدموية المعاكسة للنية السليمة ، ونتيجة إعدام هؤلاء ، أبرق بعض الوزراء إلى المذياع بتأييدهم للثورة من أمثال : عبد الرحمن عبد الصمد وزير الخارجية ، وحسن إبراهيم وزير الدولة ، وحمود عبد الملك محافظ حجة ، وإسماعيل بن يحيى حميد الدين . . . ولكن خروج البدر من (صنعاء) أثار الشكوك في موالاة رجال العهد الإمامي للعهد الجديد وإمكان تكتّلهم في وجه الثورة في ظل شرعية (البدر) الذي تمكن من الإفلات ، فاعتبر الثوار هذه البرقيات مجرد تغطية ، فأذاع راديو صنعاء صبيحة ٢٧ سبتمبر هذا البلاغ : (ياجماهير اليمن العظيم ، إن الثورة ثورتكم ، وحمايتها مسؤولية الجميع ، فتعقّبوا حاشية العهد البائد وألقوا القبض على كل من يحاول الفرار) .

وفي نفس اليوم وما تلاه أوصلت جماهير المناطق العشرات من مديري المناطق وقضاتها ومديري أموالها ، كما حاصرت جماهير الشطر الجنوبي طريق (المفاليس) حتى لا يفر أحد إلى الشطر الجنوبي ، كما هاجمت الفندق الذي كان ينزل فيه (عبد الرحمن يحيى حميد الدين) وحاشيته ، حتى اضطرتهم إلى مغادرة (عَدَن) فوراً ، فقد كانت جماهير الشطر الجنوبي كجماهير الشطر

الشمالي في التجاوب الحار مع الثورة نتج عن ذلك معاكس آخر ، فلأن أكثر أعمدة العهد الأحمدي وثمراته من الهاشميين كان قتلاهم أكثر ، فتألب المندسُّون في الضباط الصغار من الهاشميين وخوّفوهم من استئصال آبائهم وإخوتهم ، فاتصلوا بالضباط من كل شريحة ووافق الكل على إعدام أتباع (البدر) من أمثال عبد الله السلّال ، عبد الحميد الشوكاني ، إبراهيم الحضراني ، علي أبو الرجال ، يحيى الحرسي ، استدعا هاشم طالب من القاهرة . . . ولما كان السلّال على رأس القائمة اتفق الجميع على توقف الاعدام إلا لضرورة حربية دفاعية ، ونسبت القيادة حوادث قيل البعض إلى الغوغاء الذين اندسّوا في الثورة في أسبوعها الثاني ، وفي يوم ٢٩ سبتمبر أذاع راديو صنعاء تشكيل مجلس السيادة من رئيس الجمهورية : عبد الله يحيى السلّال ، عبد الله جزيلان ، علي عبد المغني ، عبد السلام صبرة ، محمد إسماعيل المنصور . كما أذاع بلاغاً كلف فيه شيوخ الضمان في مناطق شمال الشمال بحماية حدودهم ، وقلّدهم مناصب وزارية إلى جانب ربع زكوات مناطقهم ومن هؤلاء أعلن تشكيل مجلس الدفاع ، وكان هذا بسبب تدخل (شريف بيحان) وإرساله المسلحين إلى مأرب وحريب ، وبسبب أخبار راديو لندن بأن (الحسن بن يحيى حميد الدين) قد أعلن نفسه (إماماً) نظراً لغموض مصير (البدر) ، واكبت هذه الإجراءات والتغيرات نكسات وانتصارات من اللحظات الأولى للثورة ، فقد استشهد (المحبشي) و(الشراعي) صبيحة الثورة في دبابتهما التي احترقت بالبترول المراق عليها من قصر البشائر ، وبعد أيام استشهد (علي عبد المغني) أهم أعضاء مجلس السيادة في (حريب) ، كما تمّ القبض على وزراء العهد البائد والحاشية الملكية ، ولكي يتضح العدل شكلت قيادة الثورة (محكمة الشعب) برئاسة المقدم (غالب الشّرعي) وعضوية المقدم (عبد الله بركات) والنقيب (هادي عيسى) وعضوين مدنيين من رجال القضاء الشّرعي . . . إلا أن معرّة الأحداث أدّت إلى إعدام البعض قبل تشكيل المحكمة لخطورتهم من أمثال :

إسماعيل ابن الإمام يحيى وأخيه علي ، والحسن بن علي ، ويحيى النهاري ، وأحمد عبد الرحمن الشامي ، ومحمد علي زبارة ، وعبد الرحمن السياغي ، وحسن علي إبراهيم ، وزيد يحيى عقبات ، وعبد الرحمن عبد الصمد . . . ومن هؤلاء من قاوم في بيته ، ومنهم من حكمت عليه سوابقه في نظر الثوار .

صاحبت هذه الإجراءات تعديلات في التشكيل إلى حد إعلان تشكيل جديد في يوم ٣١ أكتوبر ١٩٦٢م ، إذ تشكل مجلس قيادة الثورة مؤلفاً من : الزعيم عبد الله السّلال رئيس المجلس ، وعضوية الدكتور عبد الرحمن البيضاني ، المقدم عبد الله جزيلان ، الرئيس محمد قائد سيف ، الطيار عبد الرحيم عبد الله ، الرئيس عبد اللطيف ضيف الله ، عبد الرحمن الإرياني ، عبد السلام صبرة ، العقيد حسن العمري ، الملازم الأول سعد الأشول ، الملازم أول محمد مفرح ، عبد القوي حاميم ، عبد الغني مطهر ، الرئيس محمد المأخذي ، محمد مهيوب ثابت ، علي محمد سعيد ، الرئيس محمد الأهنومي ، والرئيس حسين الدفعي .

وكان هذا التشكيل بديلاً عن (مجلس السيادة) ، الذي لم يدخل فيه بعض هذه الأسماء ، وربما كان توسيع المجلس وإضافة أسماء بدلاً عن أسماء وتغيير الاسم بسبب حضور بعض المناضلين المشرّدين ونتيجة صراع على السلطة وبتأثير الظروف الحربية التي استدعت وجوداً عسكرياً مصيرياً ، كان له تأثير على التشكيل الجديد لمجلس قيادة الثورة ، وعلى تأليف الحكومة في نفس التأريخ الذي تم على النحو التالي : (الزعيم عبد الله السّلال رئيساً للجمهورية ورئيساً لمجلس الوزراء وقائداً عاماً للجيش ، الدكتور عبد الرحمن البيضاني نائباً لرئيس الجمهورية ووزيراً للخارجية ، المقدّم عبد الله جزيلان وزيراً للدفاع ، الرئيس عبد اللطيف ضيف الله وزيراً للداخلية ، الرئيس محمد قائد سيف وزير دولة لشؤون رئاسة الجمهورية والإعلام ، الطيار عبد الرحيم عبد الله وزيراً للطيران ، عبد الرحمن الإرياني وزيراً للعدل ، عبد السلام صبرة وزيراً للأوقاف ولشؤون

القبائل ، العقيد حسن العمري وزيراً للمواصلات ، عبد القوي حاميم وزيراً للبلديات والقرويات ، عبد الغني مطهر وزيراً للتجارة ، محمد مهيوب ثابت وزيراً لشؤون المغتربين ، علي محمد سعيد وزيراً للصحة ، الرئيس محمد الأهنومي وزيراً للتموين ، الرئيس حسن الدفعي وزيراً للعمل ، الرائد محمد الرعيني وزيراً للزراعة ، عبد الله الكرشمي وزيراً للأشغال ، الدكتور عبد الغني علي وزيراً للمالية ، الدكتور حسن مكي وزيراً للاقتصاد ، محمد محمود الزبيري وزيراً للمعارف ، أمين عبد الواسع نعمان وزيراً للإرشاد القومي ، علي سيف الخولاني وزيراً للشؤون الاجتماعية ، وعلي أحمد الأحمدي وزيراً للإعلام) .

بعد هذا التشكيل الذي تبدى مُرضياً ، والذي كان تعديلاً لتشكيل ٢٩ سبتمبر ، تتابع التغيير والتنقّل : فتحوّل وزير إلى محافظ لواء ، وتعين وزير سفيراً . . . وكان يتم هذا التغيير والتنقل واستحداث وزارات جديدة في أقصر مدة نتيجة السباق على المناصب ، حتى أن (محسن العيني) لم يتوزر الخارجية إلا شهراً واحداً وأضيفت أعمالها إلى البيضاني نائب رئيس الجمهورية ، كذلك وزارة الإرشاد فلم يتقلدها (أمين عبد الواسع نعمان) إلا نحوَ شهرين تعين بعدهما محافظاً ، لكي يقتعد (أحمد المروني) مكانه ، ثم تسارع التعديل والاستحداث في كل وزارة باستثناء وزارة المالية والأشغال . . . فتوزَّر (أحمد المروني) مثلاً : على الإرشاد ، التربية والتعليم ، الأوقاف ، الإعلام في ظرف سنتين ثم تعيّن سفيراً . ومثله وزير الشؤون الاجتماعية ، والعمل ، والعدل .

وكذلك الوزارات المستحدثة ، فقد تسارع تعاقب الوزراء على وزارة الإدارة المحلية التي كان اسمها وزارة الحكم المحلي ، وكان أول من تقلدها فور استحداثها الأستاذ أحمد محمد نعمان الذي عاد إلى صنعاء بعد شهور من الثورة لشدة الاختلاف حوله ، مثلها وزارة الوحدة فقد تتالى عليها أربعة وزراء في مدة خمس سنوات ، حتى حل محلها مكتب شؤون الوحدة ، وكتعدد

التعديلات كان تعدد التشكيل الحكومي ففي ظرف خمس سنوات شكل الحكومة : عبد اللطيف ضيف الله ، محمد أحمد نعمان ، حمود الجائفي ، حسن العمري ، رئيس الجمهورية عبد الله السّلال . . . وبهذا تكاثر الوزراء السابقون والحكومات السابقة ، حتى رئيس الجمهورية كان يتغيب أسابيع في القاهرة ، ويبدو نائبه رئيساً مطلقاً ، لانقطاع الرئيس في راحة إجبارية أو إجازة مرضية . . . وكان يحدث هذا بتأثير اشتباك المصالح تحت ظروف حربية ، لأن الملَكية البائدة أصرّت على الحرب رغم تأكدها من خسرانها وتحقيق مصالح الذين دفعوها . . . وبهذا ظلت الجمهورية الأولى تكابد فترة الانتقال ، بحكم مغايرتها للعهد الملكي ومحاولة تجذير العهد الجديد في ظل القتال . . . وكان تعدّد التشكيلات والتنقلات لايحقق رضاء الغالبية من الطامحين ، لأنه اقتصر على مجموعة من عدة فئات يتناوبون الصعود والنزول والتحوّل من منصب إلى آخر . . . وكان رئيس الجمهورية رغم كثرة أسفاره هو الرأس الثابت . . . لأن إعلان تنحيته سينم عن التصدّع في البنيان الجمهوري . . . وكان رئيس الجمهورية (عبد الله السلاّل) على طول اختباره يواجه تجربة جديدة أكبر من طاقته وطاقة أمثاله ، حتى قال : « هذه معجزة ليست ثورة وما يزال يردّد هذه المقولة عند كل مناسبة إلى الآن » . . . ومع هذا كان يبدو بالقياس إلى كل الضباط مقنعاً ، لأنه عسكري من طراز ممتاز وشعبي السلوك وأكثر زملائه ثقافة ، وبالأخص بقواعد النحو الغائبة عن العسكريين فكان يعتمد في خطاباته الضغط على قواعد الإعراب : كرفع الفاعل ونصب المفعول وكسر المجرور بحرف الجر أو الإضافة ، ويحاول إظهار هذه المزيّة ، لتفنيد زعم الفقهاء بجهل العسكريين ، وكان في خطاباته يحبط كل الدعايات المضادة . . . فبعد حملة الإعدام ضد أعمدة العهد البائد ، أشاع المرجفون بأن الثورة تستهدف الهاشميين ، فدحر (السلاّل) هذه الإشاعة قائلاً : إن الثورة ثورة الشعب كله وإن الضباط الهاشميين من أوائل الثوار ، وإن الإعدام استهدف كل الرجعيين

المتآمرين ، ولم يفرق بين ابن السياغي وابن المتوكل .

ومضى يعدد أسماء الذين حُكِم عليهم بالإعدام من غير الهاشميين من أمثال : الضابط حسين الحرازي ، المدفعي قاسم الثور ، الضابط علي خليل ، محمد عبد الله عامورة ، محمد مجفَّن ، عبد الله طميم ، عبد الرحمن السياغي .

بهذا نفى (السّلال) الدعايات العرقية ، لأنه يريد استفتاح عهد الشعب لا مدّ عهد (الإمام) ، فإذا أراد (الإمام) أن يتعصَّب عرقياً في لحظات انهياره لكي يحتمي بالعصبية ، فإن الثورة ترفض الرجعية بكل صورها العائلية والاقتصادية والفكرية ، بل وتتخطى الإقليمية إلى العالمية .

صحيح أن الإعدامات تبرر الإشاعة ، ولكنها لم تفطن إلى السبب ، فقد كان آخر عهد الإمام أحمد يتدرع بالعصبية ، ولكنها لم تشكل نزوعاً طائفياً إلا بدافع المصلحة ، فلم يفجر الثورة أو يقف ضدها هاشميون ولا قحطانيون لذات القحطانية والهاشمية ، وإنما فجرها الوطنيون ووقف ضدها المنتفعون بعكسها بغض النظر عن الحسب والنَّسَب . . . فحارب أحمد السياغي إلى جانب السيّاني ، وحارب الغادر إلى جانب عبد الكريم الوزير ، وقاتل قاسم منصر إلى جانب حسين ساري . . . كذلك الجبهة الجمهورية ، قاتل أحمد الكبسي إلى جانب عبد الله بركات ، وقاتل لطف العرشي إلى جانب محمد مطهر ، واستشهد الحمزي كعلي عبد المغني . . . فالثورية ثمرة ثقافة ناضجة وخلاصة وعي شعبي وتجاوز للعرقية نتيجة التحولات الاجتماعية الكاسحة ، ولم تكن ثورة سبتمبر إلا ضد التآمر والتخلف أينما كانت أوكاره وأينما قامت قواعده .

لقد خاضت الجمهورية الأولى معركة السلاح ومعركة الأكاذيب ، لأنها جديدة تؤسس عهداً جديداً . . . وكان الرئيس (السلاّل) بوفرة تجاربه العسكرية والشعبية يعرف سوء الذي كان وصعوبة الذي سيكون ، فبذل كل جهده في

مغايرة العهد الجديد وعدم استحداث سوء الجِدّة ومزالقها ، فأبى أن يوافق على شراء غرفة تعذيب قائلاً : « إن الشعب اليمني معذب على طول تأريخه » ، فقد أراد (السّلال) أن يتمتع الشعب كله بالحرية النافعة ، ولكن للحرب شذوذها لأنها تحمل على غير ما يريد الخيِّرون .

وكانت الثورة تقاسي حروب المؤامرات إلى جانب توق المعارضين إلى جمهورية أفضل ، وكانت عبارة أفضل من اللغة المطّاطة تشكلها الأهواء كما تريد ، حتى أصبح (السّلال) وهو قائد الثورة مستهدَفاً من جهة زملائه .

ففي عام ١٩٦٦م تكتَّل بعض الضباط إلى جانب نائب رئيس الجمهورية الفريق حسن العمري ، وكادت تشتبك قوة الرئيس والنائب ، رغم قوة المؤامرات التي كانت تشن هجومها من عدة جبهات ، إن هذا أشد انقسام بين محاور سلطة الجمهورية الأولى ، ولعل ذلك الانقسام خصَّب التربة للثورة المضادة ، التي ارتدت الاعتدال والتصالح ودعوى الحكم الجماعي ، كنقيض لثورية الجمهورية الأولى .

فبعد خمس سنوات من رئاسة (عبد الله السّلال) للجمهورية الأولى ، بدأت تتقوّى حركة ٥ نوفمبر ١٩٦٧م وأرادت أن تنهج الاعتدال وأن تجتنب الدموية كلياً حتى دفاعياً ، فدبَّر رجالها (للسّلال) زيارة لمصر والعراق ، فأحس (السّلال) أن تلك الزيارة إبعاد له ، فقال لمودعيه : أهم من رئاسة الجمهورية الحفاظ على الجمهورية . وكأنه يرى كل ما سوف يقع من بَعده .

* * *

المجلس الجمهوري

فصّلت الفصول السابقة توق الشعب إلى الحكم الشعبي ، وتزايد التذمر على مدّعي الثورة نيابة عن الثوّار ، واستغل البعض هذا التذمر لتحقيق مطامحه ولو كانت ضد طموح المتذمرين الثوار ، فنشأت في وجه الجمهورية الأولى جماعة معارضة في وقت الافتقار إلى التضامن أمام الهجمات الرجعية الاستعمارية ، إذ أعلن الأستاذ (محمد محمود الزبيري) آخر سنة ١٩٦٤م المعارضة ودعوة السلام ، وكان (الزبيري) هو الواجهة السافرة للمعارضة التي انطوت تحتها عدة وجوه : مشيخية ، تنظيمية ، ضباطية . . . وكانت هذه المعارضة تتبنى : الجمهورية العادلة ، والحكم الجماعي ، والشورى ، والاعتماد على المشيخات ، وقد دلّ على هذا مقرّ المعارضة والوجوه التي أحاطت بها : إذ أعلنت نفسها في منطقة (برط) على مقربة من خنادق الملكيين المحاربين ، وفي ظل (آل أبي رأس) أصحاب الدور التنفيذي في حركة ٤٨ ، فكان يؤازر تلك المعارضة الجانب المعتدل من الجمهوريين من شتى المنازع : كان (الإرياني) و(نعمان) على صلة مباشرة بزعيم المعارضة (الزبيري) ، وكان الشيخ عبد الله بن حسين الأحمر وأحمد علي المطري وسنان أبو لحوم على تدبير واحد مع شيوخ المنطقة التي آوت المعارضة : كأمين أبي رأس ومطيع دمّاج وعبد العزيز الشايف ، وكان بين الشيوخ وبعض العسكريين تنافر ملحوظ ، لتوجس كل فريق من قوة الآخر كما كان البعض من العسكريين على وفاق مع الشيوخ وبالأخص الضباط الحقيقيين والفخريين ، فكان إبراهيم الحمدي وحسين المسوري ومحمد عبد الخالق . . .تبع القيادة السياسية النوفمبرية ، كما كان عبد

الرقيب عبد الوهاب وحمود ناجي ومحمد عبد السلام منصور من الثوار على تلك السلطة ، وفي مطلع ١٩٦٥م استكثر (الزبيري) من التلميح إلى (عبد الرحمن الإرياني) وأطلق عليه في إحدى الجلسات لقب الشهيد الحي ، لخلاصه من إعدامي ٤٨ و ٥٥ م وأطلق عليه في جلسة أخرى صفة ضمير الأمة اليمنية ،وشايع (الزبيري) في تقبّل هذه الصفة جماعة الإسلاميين الذين تسموا تحت زعامة (الزبيري) بحزب الله . . . تسبب تركيز (الزبيري) على (الإرياني) في غضب (النعمان) والنعمانيين ، وتساءل البعض عن تجاهل (الزبيري) لزميله الأستاذ أحمد النعمان : وهل كانت تلك الرفاقية غير تنظيمية ؟ وفي نفس العام أصدر الأستاذ محمد أحمد نعمان كتابه (الأطراف المعنيّة في اليمن) متهماً التسلّط الزيدي واستغلاله للمناطق الوسطى تحت أي راية ،والعمل على امتداد هذا التسلّط تحت راية الجمهورية ، وأشار في كتابه هذا إلى أن الأطراف المعنيّة هم زعماء كل المناطق ، ومنهم يتكوّن الحكم الجماعي ، وكان صدور هذا الكتاب في وقت التفتيش عن التصالح الذي لايتم إلا بتصفية الجو مع السعوديين والتقاء كل الأطراف اليمانية ، وتحجيم مهمة العسكرية المصيرية . . . انتشر هذا الكتاب بعد استشهاد الزبيري في أبريل ١٩٦٥ م ،ولعل المؤلف وهو نجل الأستاذ (نعمان) رأى وآخرون والده بديلاً عن (الزبيري) بحكم الرفاقية الطويلة ، واعتبر غياب (الزبيري) حضوراً لوالده ، وربما كان يقاوم فكرة ترشيح (الزبيري) للإرياني ، لأنه لم يشارك (الزبيري) في عذاب المنفى كوالده .

وكان بين النعمان والإرياني ما بين الندّين المتشابهين من مودة مطوية على كره ، أو من كراهية مطوية على ود ، أو من منافسة على التفوّق مقنّعة بالمجاملات .

باستشهاد (الزبيري) تنوّعت المعارضة بإطماع (النعمان) الفريق العمري

برئاسة الجمهورية في غياب السلاّل بمصر ، وتبدّى النعمان والعمري كفصيلة داخل المعارضة ، أما (الإرياني) فلم يكن واضح الاتجاه في المعارضة ، وإنما كان على علاقة وثيقة بالسّلال وعلى علاقة احتياطية بالمعارضة ، فكان يثق به المعارضون والسلطة معاً ، كما كان يثق به الثوار و(الإمام) قبل الثورة ، فعلى رغم أنه كان يؤدي المهمات الرسمية (الملكية) ، فإن الثوار كانوا يستنيرون برأيه ويرونه منهم كما كان يراه (البدر) وأبوه من رجال عهدهما ، أما (النعمان) فلم يحقق بتفانيه إلى جانب (البدر) عام ٥٥م ما حقق (الإرياني) من الحظوة عند القصر وعند الثوار المرتقبين .

لهذا التحق بالزبيري في القاهرة عام ٥٧م وعلى زمالته الثانية للزبيري ، فإن (الزبيري) في زعامته لمعارضة الجمهورية الأولى لم ينوّه إلى (نعمان) ، بل استكثر من إيماآته إلى (الزبيري) ضارباً صفحاً عن (نعمان) ، كذلك كان حظ (نعمان) مع (الإرياني) عندما أصبحت المعارضة سلطة نوفمبر .

على أي حال لبث هؤلاء على ما بينهم من الوفاق والخلاف أهم أساس المعارضة للجمهورية الأولى إلى أن أصبحت حركة انقلابية في ٥ نوفمبر عام ١٩٦٧ جاءت منها سلطة المجلس الجمهوري أو الحكم الجماعي كما قيل ، هنا دخلت الحركة طور تطبيق دعوتها التعقلية والاتزانية والتصالحية ، فأبرزت الاعتدال في كل شيء فلم تنل السلاّل بأي تهجّم ولم تتحفظ إلا على ثلاثة من رجال عهده : قاسم غالب وزير التربية ، جبر بن جبر وكيل وزارة المالية ، عبد الرحمن جابر مدير مكتب السلاّل ، بل كادت حركة نوفمبر توقف الدعاية ضد (الملكيين) وأشياعهم ، فسمت انقلابها (حركة بيضاء) مع أن بياضها بفضل غياب الجبهة المقابلة ، التي تُسبِّب حمرتها ، كما سمَّتها تصحيحاً .

بدأت رئاسة الجمهورية الثانية من نوفمبر ١٩٦٧م تبدي مغايرتها للجمهورية الأولى من ناحية ، وتبدي امتدادها من ناحية أخرى ، فحافظت على

اسم الجمهورية وتصالحت مع محاربيها ، وعاكس التشكيل الجمهورية الأولى ، فتشكل مجلس جمهوري بدلاً عن رئيس الجمهورية ، تحت مبدأ (الحكم الجماعي) ، وتألف ذلك المجلس من أربعة أعضاء : عبد الرحمن الإرياني ، الفريق حسن العمري ، أحمد محمد نعمان ، محمد علي عثمان . . . على أن تكون الرئاسة دورية بين الأربعة ، وترأس أول دورة (عبد الرحمن الإرياني) الذي شغل سابقاً عضوية قيادة الثورة ، ووزارة العدل ، ثم نائب رئيس الجمهورية الأولى . كان (عبد الرحمن الإرياني) يناهز الستين من عمره في بدء رئاسته للمجلس الجمهوري ، فهذه السنوات كفيلة بحصيلة هامة من الخبرة ، لأن (الإرياني) من أبناء القضاء ومن بيئته توارث التعليم والثقافة والتحرك السياسي

كان والده (يحيى الإرياني) صاحب حلقة درس بجامع (الفليحي) بصنعاء ، وكان يدرِّس إلى جانب الفقه والنحو عروض الشعر (للخليل بن أحمد) ، وكان الوحيد الذي يحسن تدريس ذلك الكتاب ، فرشّحه الفقه لرئاسة الاستئناف ، كما أهَّلته الثقافة الأدبية الخاصة لقرض الشعر وتعليم علومه الموسيقية ، وكان ابنه عبد الرحمن امتداداً متطوراً له ، فجمع بين التحقيق الفقهي واللغوي وكتابة الشعر ، وركَّز عل متابعة الثقافة المعاصرة وسياسات العصر ، وزاول الكتابة في المحاكم الشرعية ثم تولى محكمة (الشِّعر) وغيرها ، وفي الأربعينات جمع بين ولائه الرسمي للقصر وبين تعاطفه مع المعارضة ، حتى قيام حكم الدستور عام ٤٨م ، وعلى ثانوية منصبه في حكم الدستور ، فقد جنى ثمرة نكسة الدستور ، فنزل سجن حجة من عام ٤٨ إلى ٥٣ وفي انقلاب مارس ٥٥ م كاد (الإرياني) أن يُعدم لمشايعته ذلك الانقلاب ، ولما تقدم إلى ساحة الإعدام أدهش (الإمام أحمد) وحاشيته والجماهير بابتسامته العريضة التي لاقى بها السيف المصلت على عنقه ، ولما شاهد (الإمام) ابتهاج (الإرياني) بالاستشهاد أمر باغماد السيف عنه فوراً ، وعن هذا الموقف تشعّبت الروايات كل

مشعب . . .فروى البعض : أن أهم رجال حكم (الإمام) ارتموا بين قدميه مستشفعين للإرياني طالبين له سرعة العفو ، وروي أن (الإمام أحمد) أراد إدخار (الإرياني) لعهد ابنه (البدر) ، وروي أن (الإمام) أحس جرأة (الإرياني) تحت السيف إسقاطاً لمهابة الإعدام ، وأن هذا الموقف قد يجرئ آخرين ، فاضطر إلى سبق السيف بالعفو إستبقاء للمهابة واستعلاءً على مخترقها . وروي أن الإرياني تعنون بذلك الابتسام لتحقيق غايتين : إما اغتصاب الخلاص من الإعدام ، وإما تحقيق البطولة النضالية الهازئة بجبروت الجلادين .

وكل هذه الروايات لا تخلو من الصحة ، فإذا تشفّع رجال الحاشية للإرياني فهم بذاك يخدمون الضمير الإمامي ، لأنهم شمّوا قبول (الإمام) للشفاعة ومصلحته من العفو عن رجل عالم تحت السيف ، إذ لم تكن من عادات الحاشية أن تشفع لمحكوم عليه بالإعدام ، إلا إذا توسّمت رضى الضمير الإمامي بتلك الشفاعة . صحيح أن (الإرياني) كان صديقاً لأولئك الشفعاء ، فقد كان صديقاً لمحمد يحيى الذاري ، ولأحمد زبارة وعبد الله عبد الكريم ، بل كل هؤلاء زملاء (الإرياني) وظيفياً في الهيئة الشرعية وفي (الديوان الملكي) ، إلى جانب الجلسات القاتية بما فيها من نقاش أدبي ومذاكرات علمية ، وكان (الإرياني) متفوّقاً في الفقه ومعرفة الأدب التقليدي والرومانتيكي ، فشفاعة الحاشية ممكنة هنا ، كما أن هزء (الإرياني) بسيّد الإعدام ضرب من الدهاء (الإريانيّ) المعروف ممكن أيضاً ، لأن المعهود عنه الجدية في كل الأمور ، كما أن إرادة (الإمام) في استبقاء (الإرياني) ممكنة أيضاً ، وآية ذلك ترقّي (الإرياني) بعد هذا الحادث إلى عدة مناصب ، واستسفاره إلى عدة دُوَل ، لقوة حجته ومهارته في المفاوضات . . . فقد تعين أميراً للحج من عام ٥٩ إلى ٦١ م ، وهذه الإمارة منصب سياسي تشريفي وإن كانت الغاية [إمامياً] هي إقناع (السعوديين) بإمامة (البدر) وعدولهم عن ترشيح عمّه (الحسن) الذي كان

مبعداً بأمريكا ، فقد كانت إمارة الحج في هذه السنوات مهمة سياسية خاصة ، لايحسن القيام بها لتلك الغاية غير (الإرياني) ، لمكانته الفقهية والبلاغية ولدرايته بالسياسات الكبرى ، ومن المعروف أن (السعوديين) الأوائل كانوا يتأثرون بالبلاغة ، فيهضمون بتأثيرها بعض الأخطاء السياسية ، وفي عام ٦٠م أصبح (الإرياني) وزير دولة ، وكان إبان مزاولته للأعمال الرسمية وثيق الصلة بالمعارضة وبالثوار المنتظَرين ، وذلك بفعل الانفلات السياسي يومذاك .

لهذا أصبح الإرياني من الثوار ، ورُقّي في العهد الجمهوري وكان يجمع بين إرضاء (السلاّل) ومعارضيه ، وبين القيادة المصرية في اليمن والساخطين عليها ، ولما أصبح نائباً لرئيس الجمهورية عام ٦٦ـ٦٧م أشارت وقائع الفترة بأنه سيصبح رئيساً للجمهورية ، غير أن الحركة التي قام على رأسها أبت الاستمرارية للتي قبلها ، فترأس المجلس الجمهوري من عام ٦٧ إلى ٧٤م ، لأن المجلس الوطني ثم مجلس الشورى من بعده كانا يصوّتان على استمرار رئاسته في نهاية كل دورة ، فظل رئيساً وظل زملاؤه أعضاء فلم يتم تناوب الرئاسة طبق الإعلان ، على أن المجلس الجمهوري خضع للكثير من التغييرات ، فبعد التصالح مع الملكيين عام ٧٠م أصبح (أحمد محمد الشامي) وزير خارجية الملكيين عضواً خامساً ، وبرغم الزمالة بين الإرياني والشامي في سجن حجة ، فإن الشامي كان أميل إلى الفريق العمري القائد العام للقوات المسلحة ، وفي ذلك الحين انضمت قطاعات من الجيش الملكي إلى الجيش الجمهوري ، فقويت الريبة في العمري والشامي بإحداث انقلاب ، فتمكن (الإرياني) من إقصاء الاثنين بوسائل مختلفة : انتهز قتل المواطن (الحرازي) بيد (العمري) أهم أسباب إدانة مسؤول يقتل مواطناً ، وعزّز هذه الإدانة تجمهر (الحرازيين) ضد (العمري) وتهديدهم بالثأر لدم صاحبهم ، ويقول البعض : إن للإرياني يداً في تحريك الحرازيين ، حتى أصبح إبعاد (العمري) ضرورة شعبية وحجة

رسمية في يد (الإرياني) ، أما (الشامي) فكان أسهل للإقصاء ، بفضل تزايد الغضب الشعبي على التصالح مع الملكيين .

فتم إقصاء الوزراء الملكيين : إما من (صنعاء) إلى المحافظات ، أو إلى السلك الدبلوماسي في الخارج . . . فكما أبعد (العمري) إلى القاهرة ، أصبح (الشامي) سفيراً بباريس وهنا أمسى المجلس من رئيس وعضوين اثنين : هما أحمد محمد نعمان ، ومحمد علي عثمان الذي قتل بتَعِزّ سنة ١٩٧٣ ، ومع هذا ظل اسم الحكم الجماعي قائماً بعد انفراط عقده حتى صار من رئيس وعضو هو (الأستاذ النعمان) الذي شكل الحكومة في مطلع السبعينات وتسمَّت حكومته حكومة الشهرين ، نتيجة الضائقة الإقتصادية التي أعلنها (نعمان) وسمّاها بؤساً ونتيجة المظاهرة الشعبية ضد الوضع كلياً ، فسحب مجلس الشورى الثقة من (نعمان) محمِّلاً إياه وحده مسؤولية التفجّر الجماهيري ، فأصر (نعمان) بعد هذا على توزيع مسؤوليات المجلس ، فاختص بمسؤولية التربية والثقافة والإعلام ، وكاد أن يجرّ الثقافة والتعليم إلى الهاوية ، إذ حاول الوقوف في وجه الثقافة الجديدة ومنع الندوات والمحاضرات والكتب الموصوفة بالتطرف .

وكان المجلس يبتغي بهذا إسكات السخط المتكاثر من عام ٦٧ فقد رأت الجماهير في التصالح تنازلاً عن الثورة ، ولم يقلّل من هذا الاتّهام إقصاء (الشامي) والوزراء الملكيين في الجمهورية ، وأكد المجلس هذا بإقصاء الثوار ومضايقتهم على إثر أحداث أغسطس ٦٨ ، وبالمزيد من تسليط المستغلين من تجار وشيوخ وساسة محترفين ، وكان يعالج المجلس الجمهوري هذا السخط بالاستكثار من التشكيل الحكومي ، وكان هذا الاستكثار من التشكيل مقصوراً على تجمع واحد كثير الوجوه متشابه الأدوار ، فأغلب الذين شكّلوا الحكومة في آخر الستينات وأول السبعينات كانوا من المعارضة أو من مشايعيها ، بعضهم كانوا وزراء وبعضهم كانوا رؤساء مصالح وبعضهم كانوا سفراء كمبعدين . . .

فشكل أول حكومة نوفمبرية الأستاذ محسن العيني الذي كان وزيراً للخارجية في أول تشكيل للجمهورية الأولى ، والفريق حسن العمري الذي كان عضو مجلس قيادة ووزيراً للمواصلات في الجمهورية الأولى ، ثم محسن العيني مرة ثانية ، كما ترأس مجلس الوزراء عبد الله الكرشمي الذي سلم وزارة الأشغال ليحيى المضواحي بعد التصالح ، وكانت حكومة (الكرشمي) على قصر مدتها حكومة حساب تحاول ضغط مصروفات المسؤولين من أعلى رأس إلى ميزانية شيوخ الحرب ، فأقيل (الكرشمي) في نطاق امتصاص الغضب المشايخي لكي تلقى حكومة (النعمان) مظاهرة الجماهير ثم حجب ثقة مجلس الشورى ، ولكن الحكومة التي شكّلها النعمان كانت أفضل عند الجماهير من إعادة (عبد الله الحجري) إلى تشكيل الوزارة بعد أن كان من الوزراء المدانين عند الثورة ، ولكنه تمتّع بحماية الرجل السبتمبري وهو الفريق حسن العمري الذي كان مدير عام اللاسلكي أيام وزارة الحجري الملكية ، وكانت أقرب الحكومات إلى الشعب هي حكومة الدكتور حسن مكي ، لا لاختلاف وجوهها ونهجها وإنما لتميز رئيسها بالوعي الوطني والثقافة الثورية ، وكان رئيس المجلس الجمهوري يجعل من الدكتور حسن مكي بديلاً عن محسن العيني الذي كان عريض القاعدة من (نادي الخرّيجين) وبعض التنظيمات وبعض المشيخات ، وكان إذا شكّل الحكومة يزاول اختصاص رئيس وزراء حقيقي .

فهؤلاء الستة الذين شكلوا الحكومات في مدة سبع سنوات ، أشبه بأعضاء المجلس الجمهوري أو من نفس الاتجاه العام لعهد الحكم الجماعي ، الذي رأى الجماعية في تعدد الرؤوس لافي التعبير عن المجتمع .

لهذا كاد صراع النقائض المتشابهة أن يصل مداه ، وكاد المجلس الجمهوري أن يتبدى اسمياً ، فتركزت الملاحظات على العهد كله وكان أول شرخ في ذلك العهد من داخله هو إعلان مشروع القوات المسلحة للتصحيح

المالي والإداري الذي صدر عام ٧١ كأول اعتراف بالفساد ، ترتّب على هذا تحجيم المجلس الجمهوري وفي عام ٧٤ شمّت أعمدة الحكم جهد (الإرياني) في محاولة الانفراد بالسلطة ، ورأت عليه شواهد ملموسة : كتقوية حرسه الخاص ، وتشكيل غالبيتهم من منطقة (إريان) وما حولها ، وتعيين محمد الإرياني قائداً عاماً للقوات المسلحة ، إلى جانب بعض الاحتكاك مع الذين صالحهم من الجيران والزملاء ، فتفاقم الخلاف بين محاور السلطة عام ٧٤م هنا هدّد (الإرياني) - كعادته - بتقديم استقالته إلى مجلس الشورى ، وتبيّن أن استقالته هذه المرة تختلف عن التهديدات السابقة ، لأن قادة المعسكرات بدؤوا يتحرّكون مستغلين غياب القائد العام محمد الإرياني ، ولما أحس (عبد الرحمن الإرياني) اختلاف الظروف أراد تطبيق المقولة (الشمشونية) ، فاستدعى رئيس مجلس الشورى عبد الله بن حسين الأحمر ، وسنان أبو لحوم محافظ الحديدة ، وأحمد علي المطري صاحب الثقل السياسي في مجلسس الشورى ، فارتأى (الإرياني) تقديم استقالة جماعية من ناحية كل رؤوس السلطة ، باعتبار أن الحكم جماعي ، وتمّت استقالة المجلس الجمهوري ورئاسة مجلس الشورى ومحافظ الحديدة . . . وتقدمت الاستقالة في هذه المرة إلى القوات المسلحة صاحبة المشروع التصحيحي ، وتخلّص (الإرياني) من احتمالات دامية هي أخطر من (سيف الوشاح) الذي انسلّ من تحته ضاحكاً عام ٥٥م .

وباستقالة بعض الشيوخ إلى جانب المجلس الجمهوري ، ألحق (الإرياني) العقاب بالمتآمرين عليه دون أن يدري ويدروا . . . فقد تسببت استقالة سنان وابن الأحمر والمطري في كسر شوكة المشيخة على يد الجمهورية الثالثة ، وما تزال تعاني أثر تلك الاستقالة التي جاءت عن مؤامرة فاشلة بالنسبة إلى كبار الشيوخ .

لقد مهّدت السنوات الثلاث الأولى من السبعينات طريق الجمهورية

الثالثة ، لأن الجمهورية الثانية لم تشكل استمراراً للجمهورية الأولى ، وإنما عاشت فترتها وهي ملفوتة الوجه إلى الأربعينات .

صحيح أن الإرياني والسلاّل من مصدر زمني واحد ، ولكن هناك اختلاف في الصدور باختلاف المنشأ ، فالسّلال ثائر لبس عباءة السياسة ، والإرياني سياسي لبس عباءة الثورة ، والسّلال من العسكريين الذين كان يترفع عن مهنتهم أبناء الأسياد والقضاة الأثرياء .

والإرياني من أبناء القضاة الذين يوازون طبقة الأئمة والطامحين إلى الإمامة ، لأن لقب القضاة لفئة المتعلمين من القحطانيين كانت معادلة للقب الأسياد من الهاشميين ، لأن لقب القاضي أطلق على كل فقيه غير هاشمي سواء مارس القضاء الشرعي أو لم يزاوله ، فلقب القضاة صفة تكريميّة ، ولقب الأسياد قيمة تشريفية ، وكان التعادل بين القيمتين قصداً إمامياً .

لهذا كانت الضبّاطية في الغالب من الطبقة الثانية والثالثة . أما الجندية فكانت من مهنة الطبقة الثالثة كالفلاحة والنجارة والحدادة ، فالترقي إلى الضابطية دنو من الطبقة الفوقية ، وبالأخص في الخمسينات ، فقد كان (السّلال) ينتسب إلى طبقتين : الفلاحية التي أتى منها أصله ، والضابطية التي أتت منها رئاسته . . . أما (الإرياني) فهو من بيت الفقه حتى أن أحمد الشامي في بعض قصائده أطلق على (دسكرة إريان) اسم مدرسة البيان وكعبة العرفان ، والاختلاف بين السّلال والإرياني بيتي ، يستدعي الإلماح إلى ظروف الرئيسين .

جاء (السّلال) إلى الرئاسة في مطلع الستينات وهي أرغد مواسم التفجر الثوري ، فكان الطفور وفير الدواعي وأقوى مؤهلات الزعيم ، وجاء (الإرياني) إلى المجلس الجمهوري في شتاء نكسات الثورات العربية بتأثير عدوان حزيران ١٩٦٧ ، فكانت أنسب لمزاجه الاعتدالي ، فحاول أن يجعل التطور الهادئ

بديلاً عن القفز الثوري ، نتيجة المؤامرة على الثورات ، حتى بردت جذواتها في أقطار وخبت في أقطار وتورّدت في أقطار . . . فكما كانت ظروف (السّلال) تستدعي الطفور ، كانت ظروف (الإرياني) تستدعي التعقل الذي كان مصطلحاً سياسياً في السبعينات ، وهذا ما جعل الجمهورية الثانية تنتهج طريق التوسط بين الثورة والتطور ، وبالأخص بعد الحرب الهادرة مدة ثماني سنوات ، فقد كانت ظروف (الإرياني) أشد تعقيداً ، ولو لم يتمتّع بخبرة وذكاء لما استطاع أن يحكم سبع سنوات في ظل الصراع عل غنائم السلام والاحتفاظ بمخصّصات الحروب .

لهذا كان تركيب الجمهورية الثانية متنافر الخليط ، ولو لم يكن على رأسها رجل مجرّب لتداعت في مدة أقصر ، لأنها كانت تحمل عناصر تداعيها من سنة قيامها ، بفضل ما يختزن الشعب من حرارة ثورية ضد كل استغلال .

تمكن (الإرياني) على تعاقب سبع سنوات عجاف من مجاراة كل التيارات المتعاكسة بطرائقه المتطورة عن أصول ، وبمعرفته بأطروحات كل اتجاه ، فاستبقى الثورية النسبية وحوّل الّذين كانوا أعداءً إلى أصدقاء ولكن على حساب صداقة الأقرب ، إذ استحال عليه بسط الاستقرار واستئصال المقاومة ومنع الحروب الحدودية مع الشطر الجنوبي التي بلغت ذروتها في سبتمبر ١٩٧٢م ، أما موقفه مع الطرف الآخر من الجيران فكان يمزج بين الاستقلالية والتصافي ، كما يشهد تعقيبه على تصريح سعودي بعدم الاعتراف بالجمهورية عام ١٩٦٩م ، فكان ردّ (الإرياني) مزيجاً من الاستقلالية والتودّد : « نحن نقول لجيراننا آل سعود : اعترفوا أو لاتعترفوا وحسبنا أن نستشهد بما قاله المرحوم الملك عبد العزيز لحكومة بريطانيا : (حنّا هِنا) » .

فإذا كان في هذا التعقيب بداية تودّد ، فإن (الإرياني) اختتم عهده بتلك الكلمة الشهيرة : « إن الشعب اليمني من أقوى الشعوب حساسية بذاته ولا يقبل

عن سيادته بديلاً » . جاءت هذه الكلمة في خطاب افتتاح المحطة الجديدة للكهرباء عام ١٩٧٤م وهي أصرح تحدّ بعد تحدي (الوشاح) عام ١٩٥٥م ولعل (الإرياني) بهذه المكاشفة أراد تسجيل موقف وطني قبل تنحيته عن الرئاسة .

لهذا كان خروجه من الرئاسة ، كخروجه من تحت (سيف الوشاح) ، أو كخلاصه من سجن ١٩٦٧م عند احتباس المسؤولين اليمنيين بالقاهرة .

ففي يوم ١٤ حزيران ١٩٧٤م ودّع (الإرياني) عهد الرئاسة وأرض الوطن محاطاً بالتكريم وبالوداع الرسمي وكأنه راحل لمهمة رسمية لا خارج من ذروة الحكم ، حتى شبّهه البعض بعمرو بن العاص : (ولاّج خرّاج) فكما ودعت (تَعِزّ) الإرياني رسمياً استقبلته (دمشق) استقبال الرؤساء ، وبتوديعه واستقباله انطوت صفحة الجمهورية الثانية .

* * *

الجمهورية الثالثة

كما أهلّت الجمهورية الأولى منقطعة عن مأتاها - لأنها عكس الذي كان بالضرورة - جاءت الجمهورية الثانية موصولة بالجمهورية الأولى منقطعة عنها ، لأنها تضرب إلى الماضي بجذرين : جذر إلى تربة الجمهورية الأولى ، وجذر إلى إصلاحية الأربعينات . . . فحاولت أن تستعيد الإصلاحية ، وتمسّكت بالنظام الجمهوري وأقنعت الآخرين به . . . فحين أراد بعض الجيران تحويل اسم الجمهورية إلى (دولة إسلامية) ، قال رئيس المجلس الجمهوري عبد الرحمن الإرياني لمحاوريه : « أنتم لم تطلقوا على نظامكم اسم الدولة الإسلامية ، لأن الإسلام ليس مجرد عنوان ، وإنما هو مضمون تحت أية تسمية » .

وجاءت الجمهورية الثالثة من أساس الجمهورية الأولى ومن أرومة حكم المجلس الجمهوري ، فكما رُبّيَت الجمهورية الثانية في حضن الجمهورية الثانية ، ربَت الجمهورية الثالثة على جذوع المجلس الجمهوري ، والفرق أن الجمهورية الثانية جاءت من المعارضة ألى السلطة ، وجاءت الجمهورية الثالثة من الولاء للجمهورية الثانية وإن انطوت على بعض المعارضة في بدء السبعينات حول الإصلاح الإداري والمالي .

لقد كان أعضاء المجلس الجمهوري من ثمرة أوضاع العهد الإمامي ومن أركان الجمهورية الأولى . . . وكان بعض أعضاء مجلس القيادة في الجمهورية الثالثة من أقوى دعائم المجلس الجمهوري ، رغم شبه المعارضة التي تبدّت في أوائل السبعينات .

سبق التنويه إلى مشروع التصحيح المالي والإداري الذي قدمه (إبراهيم الحمدي) باسم القوات المسلحة عام ١٩٧٢م إلى المجلس الجمهوري ، فتقبله رئيس المجلس وعيَّن (إبراهيم الحمدي) نائباً لرئيس الوزراء لكي ينفّذ مشروع التصحيح من موقع الاقتدار في حكومة (محسن العيني) .

وفي حكومة (عبد الله الحجري) تحوّل (الحمدي) إلى نائب القائد العام للقوات المسلحة محمد الإرياني ، وكان ذلك التحوّل لايُنْذِر بخطر ، لأن (الحمدي) مضغوط بين موقعين مواليين للسلطة : موقع القائد العام (محمد الإرياني) ، وموقع رئيس الأركان (حسين المسوري) ، فتوهّم البعض أن مد (الحمدي) قد انحصر بين حائطين ، ولكنه أخذ يعزّز علاقاته بسائر الضباط من وراء ظهر القيادة ورئاسة الأركان ، مستعيناً بتجربته في قيادة الاحتياط وبوكالته في وزارة الداخلية في آخر الستينات وتحت ذرور قرن السبعينات وبخبرته السياسية من انتمائه الحزبي إلى القوميين ، إلى جانب تطلّعه الخاص إلى أعلى ذروة ، وعندما رأى تداعي النقائض في المجلس الجمهوري ومجلس الشورى ، ركن إلى القوة المحركة التي كانت تختفي وراء صورة السلطة ، وكانت تتكوّن هذه القوة المحرّكة من شيوخ وضباط من عائلات الشيوخ .

لهذا كان عهد الجمهورية الثالثة مزيجاً من عهد الجمهورية الأولى وعهد المجلس الجمهوري ، فيوم حركة ١٣ حزيران عام ١٩٧٤م شكّل (الحمدي) مجلس قيادة من قادة أهم الأسلحة : كعبد الله عبد العالم قائد سلاح المظلات ، علي أبو لحوم قائد الاحتياطي العام ، محمد أبو لحوم قائد اللواء السادس مدرع ، مجاهد أبو شوارب قائد الجيش الشعبي ، علي الضبعي نائب رئيس الأركان . . . فحلّ (مجلس القيادة) محل المجلس الجمهوري الذي طوت صفحته حركة يونيو زمنياً دون أن تطويه تأثّراً واقتداءً كما في أول بيان أصدره الحمدي : « لقد حمّلتنا الظروف عبأً ما اخترناه وإنما اختارتنا المرحلة لصراع

التناقض بين السلطة وبعضها وبينها وبين بعض الدول التي تعهدت لها بما عجزت عن أدائه وبالأخص تلك القوائم » إشارة إلى قوائم الإعدامات التي تريد السعودية التخلص ممن شملتهم القوائم في أوقات متباعدة . وهذا أبرز وجه الاستمرارية للذي كان ، لأن حركة يونيو كحركة نوفمبر ارتدت الاعتدال ولاسيما في أول أيامها . . . ففي ليلة ١٣ حزيران أذاع مجلس القيادة بيان الحركة ونهجها السياسي ، فتبدّى أن ذلك الانقلاب عن اضطرار سياسي لا ضرورة شعبية ، على حد إفصاح ذلك البيان : « ياجماهير شعبنا ، ياأبناء سبتمبر العظيم ، نظراً إلى أن المجلس الجمهوري ومجلس الشورى قدّما استقالتهما إلى القوات المسلحة ، تحمّلت قيادة القوات المسلحة والأمن أمانة المسؤولية ، وإننا نعاهدكم على مواصلة ثورة سبتمبر وعلى الالتزام بالنهج الحكيم الذي اختطه رئيس المجلس الجمهوري (القاضي عبد الرحمن الإرياني) ، ولن نألوَ جهداً في تحقيق طموح جماهير شعبنا والله على ما نقول وكيل » .

العقيد إبراهيم الحمدي
رئيس مجلس القيادة

فهذا البيان يختلف عن بيان حركة ٥ نوفمبر ١٩٦٧م ، لأنه لم ينوّه إلى الفساد الإداري والمالي الذي تصدّى مشروع القوات المسلحة لإصلاحه ، على حين ألمح بيان حركة نوفمبر إلى ضرورة تلك الحركة ، لكي تحقن الدماء وتخلّص الشعب من الفوضوية والديماغوجية على حد تعبير البيان النوفمبري الذي عمل على نجاح سياسته ثقافياً وسياسياً ، ففتح لعبد الرحمن البيضاني الضوء الأخضر لإلقاء محاضرات أسبوعية على طلاب اليمن بالقاهرة تحت إشراف السفارة وكان حضورها إجبارياً ثم نشرت تلك المحاضرات في شكل كتب تحمل عناوين متشابهة : بدلاً عن الصراع الدموي ، سوق الشعارات في اليمن ، نحن نرفض الماركسية . وهذا هو الفرق بين بيان يونيو وبيان نوفمبر ،

فلم يعلن بيان يونيو مغايرة الحركة الحزيرانية لعهد المجلس الجمهوري ، وإن كان الشعب قد بدأ يلاحظ الفرق بين حماس الإذاعة ونارية أناشيدها ومن تحمّس التأييد الجماهيري لحركة يونيو ، لأنها ضغطت في بيانها وبلاغاتها وخطابات رئيس مجلسها على السبتمبرية وعلى الإثارة الوطنية ، وكانت السنوات السبع التي سبقتها قد حاولت تبريد الحسّ الوطني وإطفاء التوهج الثوري ، حتى كانت تردّد بعض المجالس التنديد بالحماس الوطني وتسمّيه تشنجاً ، وتعيب الألق الثوري وتسمّيه مزايدة بالشعارات ، كما كانت تشيد الدعاية الإعلامية بالوطنية الهادئة وبالتعقّل والاتّزان ، إلى حدّ أن (عبد الله الحجري) أمر في أيام حكومته بتغيير الشعلة الحمراء التي كانت تزدان بها صحيفة الثورة كرمز للحدث التأريخي (ثورة سبتمبر) .

لهذا ركّزت حركة ١٣ يونيو على الكوابت النفسية وأطلقت أنفاس الوطنية الثورية ، فلاقت شعبية لأنها تبدت ثورية الثورة ، ونتيجة للابتهاج الشعبي والمدّ الجماهيري أعلنت الحركة : المزيد من اتقادها السبتمبري الوطني ، فأنتجت الشهور الأولى للحركة أجود الأناشيد الوطنية وأكثرها حماسة مثل : (اليمن بلادنا ، يايمن احنا رجالك ، امش بنا سريعاً يامجلس القيادة) .

بهذا وأمثاله تحدّدت سمات الحركة وتميّزت روائحها ، برغم الخيوط التي تنم على اتصال العهد الحزيراني بأصول عهد الحكم الجماعي ، ولعل هذا بسبب التشابه الضئيل بين رأسي القيادتين .

سبق الإلماح إلى تأريخ عبد الرحمن الإرياني والمشير عبد الله السلاّل ، وهذا يستدعي الإلماح إلى رئيس مجلس قيادة يونيو لتلمس مكوناته : ولد (إبراهيم الحمدي) في بداية فترة القلق الوطني وفي آخر زمن الاطمئنان ، لأن الأربعينات - مدرج طفولة الحمدي - كانت فجر اليقظة الحالمة ، كما كان الميلاد الزمني للحمدي مرتعش الساعات ، فإن أمكنة طفولته وصباه ، كانت

متنوّعة المناخات ، ولد في منطقة (ماوية) أيام كان والده القاضي الشرعي فيها ، وتعلّم الابتدائية في عدة مراكز تبعاً لتنقل والده من محكمة إلى محكمة في مركز آخر ، وأهمّها مدينة (ثلا) التي ينتمي إليها آل الحمدي ، فالحمدي من أبناء القضاء كالإرياني ، ولكنه لم يشكل امتداداً لأبيه كالإرياني هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن (محمد الحمدي) والد إبراهيم كان فذّاً في عائلته ، فلم يكن من عائلة قضائية كالإريانيين وإنما من بيت فقهاء من صغار الموظفين فكوّن نفسه فتميَّز على ذويه ، فكان فقيهاً متبحّراً ، وكان فرَضياً حاذقاً . . . فتنقَّل من محكمة إلى محكمة ، واتُّصف بالعدل وقلَّة الاختلاس ، وفي مطلع الخمسينات سجَّل (محمد الحمدي) موقفاً فرَضياً دلَّ على صرامته في العدل ، حتى شبَّهه معاصروه بـ (أحمد بن أحمد الجرافي) في تحرّي العدل حتى في أحرج المآزق ، فكما حكم (الجرافي) لعنقاد على (الإمام يحيى) بالبستان المتنازَع عليه ، حكم (الحمدي) على مكتسبات (الإمام أحمد) في حياة أبيه : بأنها من أملاك والده يجب أن توزّع حصصاً بين كل الورثة ، ولا تكون حصة (الإمام أحمد) منها إلا كحصة واحدة من الورثة الذكور .

لكن (إبراهيم الحمدي) لم يصادف زمناً كزمن أبيه وأسلافه من علماء (ثلا) الشهيرة بإنجاب النوابغ : كصالح مهدي المقبلي في القرن الحادي عشر الهجري ، فاختلف إبراهيم عن أبيه على كثرة محاولته اكتساب صفاته كإظهار أبّهة القاضي وإسكات الخصومات ليجري القضاء مجراه ، ونتيجة لهذه المحاولة آثر (محمد الحمدي) ابنه إبراهيم بمكانة خاصة في قلبه ، لمحاولة تشبّهه به ، أو لأنه أصغر بنيه أو لأنه ابن الزوجة الأثيرة ، أو لكل هذه الأسباب مجتمعة ، وربما أصاب هذا التدليل (إبراهيم الحمدي) منذ الصغر ، فبعد أن تلقى الابتدائية في عدة مراكز غلب عليه الميل إلى تحولات الخمسينات ، فلم يلتحق بدار العلوم كسائر أولاد القضاة ، وإنما ظل تحت جناح والده يتلقى أوائل الفقه

بدون استيعاب وبدون تشدّد من جهة الأب ، فكاد أن يضيع صبا (إبراهيم الحمدي) ، ولما فُتحت المدرسة التحضيرية بصنعاء عام ١٩٥٥م التحق بها بعد افتتاحها بعام واحد ، وكانت تلك المدرسة تقع بين موقعين : أعلى من ثانوية الخمسينات ، ودون دار العلوم التي كانت تخرّج القضاة . . . كانت مدة الدراسة في التحضيرية أربع سنوات ، فهي أكثر من الثانوية التي مدتها ثلاث سنوات ، وأقل من دار العلوم التي يتم التخرج منها بعد دراسة اثني عشر عاماً ، وعلى اختصار التحضيرية من دار العلوم ، وعلى تركيز الأضواء عليها واختيار تلاميذها من أبناء الموثوق بهم وعلى انتقاء أساتذتها ، فإن (إبراهيم الحمدي) لم يصل إلى مرحلة التخرج ، وإنما خرج بعد عامين ، وظل مساعداً لوالده إلى أن افتتحت كلية الطيران في آخر الخمسينات ، فالتحق بها مدة شهور ، ثم صحب والده في رحلة استطبابية إلى (روما) ، رجع من تلك الرحلة وكيلاً رسمياً لأبيه ، فاصبح كحاكم في مدينة (ذمار) ثم صار حاكماً تام الصلاحية ، وكان أقل الحكام دراية بالفقه الشرعي ، وإنما تقلّد ذلك المنصب بفضل أبيه ، واستطاع مزاولته بفضل كاتب المحكمة العلاّمة (علي بن حسن الديلمي) الذي تمم نقص الحاكم ، ولما شعر (الحمدي) بعجزه عن إصدار الأحكام بمقتضى معرفة خاصة به ، مال إلى المصالحة بين المتشاجرين ، فأشبه بهذا الأسلوب (عبد الله بن أحمد الحجري) أيام تولّيه القضاء في آخر الأربعينات وأول الخمسينات بمنطقة (النّادرة) ، إلى حد أن المتشاجرين كانوا يرتضون إصلاح (الحجري) بعد عزله ، ويؤثرونه على الحاكم الرسمي ، ونتيجة تحوّله من حاكم رسمي إلى حاكم تراضي أقوى من الرسمي وأقدر على فضّ الخصومات بالصلح ، لفت اهتمام القصر إليه فترقى إلى أن تقلّد أكثر من وزارة وأحياناً شغل وزارتين في وقت واحد في آخر الخمسينات وأول الستينات ، غير أن (الحجري) لايشبه (إبراهيم الحمدي) من كل الوجوه ، وإنما في وجه واحد هو الخبرة بالتصالح ، الذي يستدعي معرفة النقطة الوسط التي يمكن للغرماء

الالتقاء عندها ، على أن (الحجري) كان على إلمام يسير بالفقه ، لأنه درس إلى الشعبة الثالثة من الصف الأول بدار العلوم ، على حين لم يصل (الحمدي) إلى هذه المرحلة ، فالحكم التصالحي يعتمد على الذكاء الاجتماعي بدلاً عن الفقه الشرعي ، على أن له صفة الشرعية إذا كان عليه صبغة منها ، والمهم رضى الغرماء كما يقول المثَل الشعبي : (الصلح سيد الأحكام) .

على أن مدة (الحمدي) في محكمة (ذمار) لم تكن طويلة تشكّل حكماً على تجاربه ودرايته بنقاط الالتقاء بين أطراف الخصومات ، إذ قطع مدته قيام ثورة الـ ٢٦ من سبتمبر ، فوصل إلى (صنعاء) هارباً من جماهير (ذمار) التي كانت توصل المسؤولين إلى قيادة الثورة بصنعاء مكتوفين أو محاطين بالجماهير كسائر جماهير المراكز .

هنا تأتي مشابهة بين الحجري والحمدي ، إذ تحصَّن الاثنان بكنف (الفريق حسن العمري) ، إلا أن الحمدي أحسن استغلال تحصّنه بمرافقته العمري في الأعمال الحربية والمدنية ، فبات جزءاً من السلطة وباحثاً عن المستقبلية ، فانتظم بمنتصف الستينات في تنظيم حركة القوميين العرب . . . وبعد حركة نوفمبر ١٩٦٧م عُيِّن وكيلاً لوزارة الداخلية ، وأخذ يتراوح بين الابتعاد عن تنظيمه وبين الاقتراب منه لحساسية مكانه في السلطة ، فتسبّبت حركيته في إلحاق الضرر الشديد بتنظيمه الذي فجّر حركة أغسطس عام ١٩٦٨م ، فكان (الحمدي) يتعقّب ذلك التنظيم عن معرفة بأعضائه وأطروحاته ومخابئه وكانت الحساسية بين الجبهة القومية حكام الجمهورية الأولى في الشطر الجنوبي وبين أعمدة جمهورية نوفمبر إلى حد أن النوفمبريين بصنعاء أقاموا حفلة ابتهاج بسقوط نظام الجبهة القومية برئاسة قحطان الشعبي الذي كان يحرّك قطاعات من جماهير الشمال ويحققون انتصارات على مواقع حكومة الشمال بقيادة أحمد عبد ربه العواضي ، وفي عام ١٩٦٩م أصبح (الحمدي) قائداً

لمعسكر العاصفة ، وبعد المعركة الحدودية بين الشطرين سنة ١٩٧٢م التي ترتّب عليها تشكيل لجان الوحدة وقف (الحمدي) في وجه الوحدة بطريقة غير مباشرة ، إذ رأى التصحيح المالي والإداري في الشطر الشمالي أولى بالسبق على الوحدة ، لكي يتحِد متشابهان ، لأنّه كان يتوهّم دقَّة السير الإداري في (عَدَن) أو كان يريد اكتساب المتخوّفين من الوحدة ، وهذا ما برَّر تقديمه مشروع التصحيح المالي والإداري باسم القوات المسلحة ، وكان هذا المشروع شبه معارضة يختلف عن معارضة الستينات التي جاءت منها سلطة نوفمبر ، إلا أن ذلك المشروع التصحيحي كان أول الروائح الواشية بطموح (الحمدي) .

فمن ذلك الحين كوَّن الصلات المتعددة مع الأصدقاء ، وتعززت مكانته بتنصيب أخيه (عبد الله) قائداً لمعسكر (العمالقة) بذمار ، وعندما أصبح نائباً للقائد العام للقوات المسلحة ، استغلّ غياب القائد ورئيس الأركان ومضى يحرّك الأحداث ضد المجلس الجمهوري ، حتى قدَّم المجلس الجمهوري ومجلس الشورى استقالتهما إلى القوات المسلحة في ١٣ يونيو ١٩٧٤م .

من ذلك الحين أصبح (إبراهيم الحمدي) رئيس مجلس القيادة العامة للقوات المسلحة ورئيس الدولة ، ونظراً لثقل بيت (أبي لحوم) مشيخياً وعسكرياً يومذاك شكّل صهرهم (محسن العيني) أول حكومة في الجمهورية الثالثة ، وكالعادة لم تطل مدة (محسن العيني) ، ولم تطل حسن علاقة مجلس القيادة ، إذ أصابه ما أصاب المجلس الجمهوري من قبله من تناقص العضوية ، نتيجة الطموح والتشبث ، فلم يكد يمر عام حتى أقصى (الحمدي) (مجاهد أبا شوارب) و(آل أبي لحوم) ورئيس الأركان (علي الضبعاني) فأضحى مجلس القيادة من رئيس وعضوين هما : عبد الله عبد العالم ، وأحمد الغشمي ، وكان الإقصاء يبرّر نفسه بزعم تعدد الولاءات ، وهو يضاهي مراكز القوى عند (السادات) .

من بداية ١٩٧٥م انفرد (الحمدي) بالسلطة مقصياً أركان نوفمبر وسبتمبر معاً ، فأهاج شعبية واسعة المدى ، لأن أكثر السبتمبريين ماعوا في عهد التصالح ، وأغلب النوفمبريين تلاشوا في معركة المصالح ، فلم يحرق (الحمدي) غير محروقين سلفاً ، ومع هذا تسبّب في فتح النار على نفسه ، لأنه حاول أن يبدو أكثر من حقيقته ، فحوّل مشروع التصحيح إلى لجان تصحيح تراءت كتنظيم سياسي ، ولكن من تلك التنظيمات التي تولد ميتة ، لأنها من صنع النظام وليست من صنع الحاجة الشعبية والتحوّل الاجتماعي عن نظرية ، فأشبه ذلك التنظيم كل التنظيمات التي تشكّلها القيادات من أمثال : الاتّحاد الوطني الذي شكله (الملك حسين) عام ١٩٧١م ، أو الحزب الذي شكله (شاه إيران) عام ١٩٧٨م ، أو الحزب الوطني الديمقراطي الذي شكّله (السادات) .

فهذه التنظيمات لاتنبض فيها حياة ، لأنها مجرد شكل توظيفي لايحمي شكله من الشعب ولا يحمي الذين شكّلوه من السقوط ، ومع هذا بدت لجان التصحيح كتنظيم مخيف لاختلاطه من كل الوجوه والاتجاهات ، وثبت عدم وجوده يوم لقي (الحمدي) مقتله في ١١ أكتوبر عام ١٩٧٨م .

في ذاك اليوم لقي (الحمدي) أغرب مقتل إذ سُجلت الجريمة ضد مجهول لأول مرة في مقاتل الرؤساء . . . فقيل فيه عدة أقاويل ، كلها في صالح (الحمدي) لبذاءتها وعدم تركيزها على غاية سياسية أعلى . . . إذ شيّعت نعشه أكبر مظاهرة جماهيرية عرفتها صنعاء مردّدة : أين الحمدي ياغشمي ، لأن مقتله حدث في بيت الغشمي بظلاع همدان وكان مدعواً إلى وليمة غداء حضرها كبار المسؤولين فشكّل هذا على الحمدي شدّاً إلى حضوره فكان التوجّس ، ولعل ذلك القتل على تلك الصفة كان منعاً لزيارة الحمدي (عَدَن) في اليوم التالي لاغتياله . ومن غمار المظاهرة المندّدة بالقتل والقتلة ، صعد (أحمد حسين الغشمي) إلى رئاسة مجلس القيادة والجمهورية كاستمرار لفترة (الحمدي) ،

وقبل أن يمر أو يستمر لقي مقتله بعد ثمانية شهور صاخبة مندّدة . . . وكان قتل (الغشمي) أغرب وأعلى دوياً من مقتل (الحمدي) لأنه نتيجة صراع بين إيديولوجيتين . . . قيل : إن رسول (سالم ربيّع علي) رئيس جمهورية الشطر الجنوبي فجّر حقيبته الملغومة في مكتب (الغشمي) ، وقيل إن لغماً كان مدسوساً تحت مكتب (الغشمي) انفجر به وبرسول ربيّع .

من هنا لاحت الرئاسة كأخطر الأخطار ، فلم يكد المواطنون ينسون مقتل (الحمدي) ، حتى دوّى مقتل (الغشمي) . . . فلأن رئاسته كانت مفاجئة ، كانت نهايته العنيفة مفاجئة أيضاً .

لقي (الغشمي) مصرعه وهو على باب الأربعينات من عمره ، وكان الحمدي يوم مقتله في تلك السن أو يقاربها ، وعلى تشابه المصيرين ، فإن خلفية الرئيسين متباينتان .

نشأ أحمد الغشمي في (دسكرة ظلاع) من قبيلة همدان ذات الصيت التأريخي ، وكانت نشأته في بيت قائم بين دار الشيخ وبيوت الفلاحين ، فبيت (الغشمي) من البيوت التي تُسمّى بـ (العقّال) أي بين شريحة المشيخة وشريحة الفلاحين . كان (محمد قائد العذيب) شيخ (ظلاع) إلى عام ١٩٤٨م ، ومن ذلك الحين صعد (عاطف المصلي) بفعل تفانيه في نصرة (الإمام أحمد) على الدستوريين عام ١٩٤٨م ، وظل يتربّص بالعُذَيب حتى دسَّ له من يقتله ، وبهذا خلا الميدان لعاطف المصلي ، غير أن مقتل (العُذَيب) جمهر أهل ظلاع حول (محمد حسين الغشمي) كمزاحم مرتقب لعاطف المصلي ، وظل عاطف أغلب وأقوى ، حتى أنه كان يسجن كالحكام ويحل الخصومات كمديري المناطق ، ولأن نجمه تألّق في غير مداره ، انطفأ بأول ريح ، ولأنه دخل من باب القتل خرج من باب القتل . . . ففي صبيحة ثورة سبتمبر وقف آل الغشمي إلى جانبها ، وأراد (عاطف المصلي) اتخاذ الأحوط فأعلن تأييده للثورة لكي يغطّي تهريبه

للبدر ، فلقي مقتله بسبب الذي أراد نجاته أو بفعل الثأر الغيبي للعُذَيب .

من سبتمبر ١٩٦٢م فرغت ساحة مشيخة (ظلاع) لأولاد الغشمي ، فارتكبوا نفس الجرائم التي جرَّت (عاطف) إلى مقتله تخلصاً من المنافسين ، فكما ارتكب (عاطف المصلي) قتل (العُذَيب) وأمثاله في الخمسينات ، ارتكب (أولاد الغشمي) قتل (يحيى القناني) وأشباهه في آخر الستينات . . . وكان انتماء شباب الشيوخ إلى القوات المسلحة في الستينات من أقوى نوازعه ، لكي تحتمي العشائرية بالعسكرية ، فالتحق (أحمد الغشمي) بالجيش عن تعليم ابتدائي ، وترقّت به الحال حتى وصل إلى رئاسة الأركان عام ١٩٧٥م ، وكان في مدة رئاسته على الأركان أكثر صرفاً من الخزينة العسكرية حتى فاقت حوالاته حوالات الرئيس .

بهذا كسب واكتسب ووصل الرئاسة على جثمان (الحمدي) في أكتوبر ١٩٧٧م ، واحتسى نفس الكأس بعد ثمانية شهور أي : في ٢٤ يونيو ١٩٧٨م ، ومن أجل الاستمرار رأس الجمهورية نائب الرئيس (عبد الكريم العرشي) مدة أربعين يوماً ، ثم أجمع مجلس الشعب على ترشيح (علي عبد الله صالح) الرئيس الحالي .

جاء (علي عبد الله صالح) إلى الرئاسة من أنقى الشرائح الشعبية ، ومن أكثرها إنتاجاً ، لأنه من طبقة الفلاحين الذين عجنت تربتهم أنامل الأشعة وقبلات المطر .

درج (علي عبد الله صالح) على الأرض التي يروِّيها العَرَق الإنساني وعبير السنابل وتتكئ عليها أهداب المجرّات ، فمن المعروف عن قبيلة (سنحان) قوة التفاني في الأرض وعشق الفلاحة ، يتساوى في هذين الرَّجل والمرأة ، لأن الأرض ينبوع عطاء الرَّب الذي وضعها للأنام وزخرفها بالخضرة والأنداء .

تلقى (علي عبد الله صالح) القراءة والكتابة بذكاء ابن الفلاح ، .ثم التحق بالجندية في (بلوك سنحان) فتحول من موقع شعبي إلى موقع أوفر شعبية ، وعندما حملت الثورة فجر (اليمن الجمهوري) كان الرئيس من جنودها الأوفياء على امتداد مسيرتها القتالية ، برغم أن أشباه الاقطاعيين من منطقته وسائر المناطق تاجروا بالحرب بين المعسكرين ، وجارى بعض جنود النظام تجّار الحروب ، أما (علي عبد الله صالح) فإنه يؤكد في كل أحاديثه جنديته للثورة ، ولا يدّعي ما لا يفعل ولا يحب أن يدعي له أحد ، لأنه خير من يعي أن نفاق المديح يعزل الممدوح عن الحقائق الموضوعية ، كما أن الحقيقة ذاتها أهدى إلى دخائل الأمور ، ويكفي أن (علي عبد الله صالح) من شرائح القوة المنتجة التي تصنع رغد اليمن ، فالفلاحون بكل المقاييس هم غالبية شعبنا وغالبية كل الشعوب ، وهم طاقة الإنتاج والعطاء ومواطن البراءة والطيبة .

انتقل (علي عبد الله صالح) من الفلاحية إلى الجندية ، فكان تناميه من الشعب إليه ، وكان ترقّيه بتدرج خبرته ، فمن حركة يونيو ٧٤ إلى ٧٨م مارس الاختبار المباشر في العسكرية والموطن ،تولى عام ٧٥م قيادة لواء تَعِزّ ، وقوّى صلاته بكل المواطنين ، وبعد مقتل أحمد الغشمي في يونيو ٧٨م ترقّى علي عبد الله صالح إلى رئيس أركان ، لكي يضبط الأمور ويحقق الأمن في الوقت الذي أفزع منصب الرئاسة كل الشجعان ، لأنه رادف القتل العنيف ، فأصبح الطموح إليه فراراً منه ، وعلى خطورة ذلك المكان قبل (علي عبد الله صالح) ترشيح مجلس الشعب له رئيساً للجمهورية وقائداً عاماً للقوات المسلحة في يوليو عام ١٩٧٨م وعمره يقرع بوّابة الأربعين .

فكيف يمكن تأريخ هذه الفترة وهي لم تزل تصنع تأريخها حياتياً ، لكي تنتقل إلى مادة كتابية ؟؟ . .

بغض النظر عن حياة المؤرخ له أو غيابه ، فإن لهذه الفترة معالم تستحق التنويه قبل أن تصبح تأريخاً ، فإذا كان التأريخ علم الماضي ، فإن هذا لا يمنعه من الإشارة إلى الحاضر ، قبل أن تتحوّل ملامحه إلى تأريخ علمي ، فلأن الفترة مازالت تنسج تأريخها ، فإنها مازالت تكتب نفسها لكي يستكتبها المؤرخون على أن أبهى المعالم التي ستحول تأريخاً ، هي مغامرة الرئيس في استلام الرئاسة في ذلك الظرف الذي تحالف فيه النظام العراقي والنظام السعودي في وجه الجبهة الوطنية الديمقراطية ، التي كانت تقيم في (عدَن) ومن حملة الوفاق بين النظامين اختيار علي عبد الله صالح رئيساً للجمهورية . المعلم الثاني ، هو أن الرئيس أول رئيس من أبناء الفلاحين الكادحين الذين يشكِّلون غالبية الناس وأكثرية القوى المنتجة . المعلم الثالث أن الرئاسة الحالية اقتدرت على استمرار الكائن من منتصف عام ٧٨ إلى آخر عام ٨٠م ، وكان مجرد الاستمرار أهم الحاجات الأمنية في ذلك الحين ، أما من عام ٨١ إلى ٨٣م فقد بدأ الرئيس يشكل عهده المميّز ، ففتح صدره للحوار الشعبي الديمقراطي وأصدر (الميثاق الوطني) وشكَّل (المؤتمر الشعبي) كأول تنظيم علني رسمي وعاد إلى دورته الثانية في الرئاسة على أكتاف المظاهرات الجماهيرية التي أصرّت على استمرار رئاسته . . . وهذه المعالم مهما كانت موطن إعجاب فإنها لم تَؤُلْ إلى مادة المؤرخ ، فالجمهورية الثالثة سلسلة واحدة تواصل نفس المسيرة من يونيو ٧٤ إلى كتابة هذا ١٩٨٣ .

ولعل المؤرخ الآتي هو الذي سوف يلاحظ اختلاف الفترة الحالية وخصبها عن سوابقها ، ولعل أجمل ما فيها قيمتها في ذاتها ولما سيترتب عليها ، كقيمة وقيمة ناتجة عنها ، فإن البواكير التي تلوح الآن تثير حاسة التنبؤ بأن هذه الفترة واعدة بالمأمول وبغاية ما ينشد الناشدون ، فليست هذه الوقفة حول هذه الفترة إلا مجرد إشارة إلى البعيد ودلالة على الحاضر الخصب ، لأن كل كاتب لايملك الكلمة الأخيرة إذا صح أن للكلام آخر .

في الشطر الجنوبي

ليس تقديم اسم شطر على اسم شطر في الكتابة والحديث دليل المفاضلة بين الشطرين ولا التقديم والتأخير لأهمية المقدم لغوياً ، وإنما لقصد ترتيب الأحداث في سياقها التأريخي ، وليس شعار الوحدة هو الرمز لمكانين في الشطرين ، فإذا رمزتَ بالميفعة اضطريت أن ترمز بيافع ، وإذا وصفت (همدان) تكلّفت أن تصف (بيحان) ، فالمشاكلة في الأمكنة وتجاور أسمائها ليس برهان الوحدة ، لأنها مضمون فوق الرمز والتنويه ، فقد توهّم البعض أن مجرد ذكر اسم منطقتين من الشطرين في شعر الأغاني والقصائد والكتابة ، أغنى دلائل الوحدة ، وتصوّر البعض أن دخول وفدي الشطرين قاعات المؤتمرات والمهرجانات أزهى آيات الوحدة ، وهذا التساوي والتشابه في الرمز بالأسماء أو توحيد الوفدين أقرب إلى تساوي أعداد لجان الوحدة وأعداد جلساتها كل مرة في عاصمة من الشطرين ، كل هذا التشكيل قد يجمع أضداداً ولا يثري مفهوم الواحدية ولا يؤصل قيام الوحدة ، وسوف يخالف هذا البحث إخوته من البحوث ، فلا يلتفت إلى خلفيات رؤساء الجمهوريات وإلى المكوّنات الشخصية والتعليمية لكل رئيس في الشطر الجنوبي ، لسبب واحد هو أن الرئاسة في الشطر الجنوبي لم تتحقق بعبقرية شخصية أو فرادة ذاتية ، وإنما تأتّت من صراع تنظيمي طمح إلى السلطة وحقق الوصول إلى المطمح أو أخفق في الوصول ، وكل هذا الإخفاق والفوز عائد إلى قوة القاعدة حزبياً ، على عكس رئاسات الشمال فإن قوة الشخصية أو العائلية من أهم المؤهلات للرئاسة ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن تقديم رئاسات الشطر الشمالي ترجع إلى سبق الشمال بالثورة التي

حملت على أجنحة نارها (النظام الجمهوري) ، الذي سبق قيام النظام الجمهوري في الجنوب بخمس سنوات ، كانت هذه السنوات أقوى المواقع لانطلاق ثورة الشطر الجنوبي التي حملت على موج اتقادها (النظام الجمهوري) الذي هو محور هذا البحث ، ومن أقرب القريب إلى الذاكرة أن أول نظام جمهوري قام في الشطر الجنوبي عام ٦٧م بزعامة الجبهة القومية ورئاسة (قحطان محمد الشعبي) الذي تدرج رقيّه بتطور تنظيمه ، فقد نشأ تنظيم (حركة القوميين العرب) في الشطر الجنوبي عام ١٩٥٧ ، وكان ذلك التنظيم يحتمي بالسرِّية ، فلا تنطق عنه صحيفة ولا تهدي إليه لافتات مكتبية ، وإنما نشأ بين الجماهير بدون اسم حزبي علني في غمرة عناوين التنظيمات والنقابات والاتحادات من منتصف الخمسينات إلى آخر الستينات ، وكان يتميّز ذلك التنظيم بمتابعة الصحف القومية ومؤلفات القوميين مثل : كتابات ساطع الحصري ، محسن إبراهيم وعبد الرحمن البزّاز ، وكان مثقفو التنظيم ينشرون كتاباتهم القليلة في صحف الكويت ومجلاتها وبالأخص مجلة الطليعةِ ، وفي صحافة الشطر الشمالي عندما تحوَّلت من (النصر) و(سبأ) إلى (الثورة) و(الجمهورية) بقرار جمهوري .

إذن فلم يكن لتنظيم (حركة القوميين العرب) علنية التنظيمات في الشطر الجنوبي في أصيل الخمسينات وأسحار الستينات . . . وكانت أول ما ظهر (قحطان محمد الشعبي) كزعيم لحركة القوميين العرب في أكتوبر عام ٦٢م في حوار سياسي نشرته جريدة (الحرية) البيروتية ، وكان في ذلك الحين بصنعاء كأحد أعضاء (جبهة التحرير) التي سوف تصبح جبهتين ، والتي تكوَّنت جبهة واحدة أهم غاياتها تحرير الشطر الجنوبي من الاستعمار ، وكانت عبارة (التحرير) عند القوميين العرب بديلاً عن الحرية في مبادئ أمثالهم من التنظيمات القومية ، فكانت صفة (جبهة التحرير) أقرب إلى مبادئ الحركيين القوميين وأنسب لطبيعة النظام التحريري ، إذ كان عبير (جبهة التحرير

الجزائرية) يعبق في الآفاق صبيحة الستينات .

لهذا امتزجت الجبهة القومية في إطار جبهة التحرير التي جاءت من حزب الشعب الاشتراكي وسائر الشرائح الاجتماعية ، وتوارى اسم الحركيين تحت اسم القوميين ، وهذا غطاء عريض يلفّ كل القوميين على اقترابهم وابتعادهم ، وكانت شدة المعركة تلم سائر الأفواج المقاتلة ، التي تتعنون بجبهة التحرير ، وينطوي تحت عنوانها فصيلان من التنظيم وفصول من التخطيط ، ومن عام ٦٤م أعلنت (الجبهة القومية) اختلاف وجهتها عن وجهة (جبهة التحرير) ، وكان (قحطان محمد الشعبي) يضاهي زعيم جبهة التحرير في السباق على تأييد جمهورية سبتمبر وتأييد (الجمهورية العربية المتحدة) الواقفة إلى جانب جمهورية سبتمبر ، غير أن التأييد الرسمي من الجمهوريتين كان يتبنى جبهة واحدة تسمَّت (جبهة التحرير) وانصهرت فيها كل العناصر النضالية ، ومع هذا انفصلت الجبهة القومية عن جبهة التحرير عام ٦٤ ، واتّخذت تحريك المقاتلين من الريف بدلاً عن تحريك شوارع (عدَن) بالمظاهرات ، وحدث بين الجبهتين من الصراع الدموي ، كالذي حدث بينهما وبين قوى الاستعمار ، ولعدة أسباب سبق إيضاحها رجّحت كفّة الجبهة القومية ، فأصبحت زعيمة الشطر الجنوبي وأقامت (جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية) في عام ١٩٦٧ برئاسة (قحطان محمد الشعبي) ، من ذلك الحين انطوى اسم (الحركية) ولمع اسم (الجبهة القومية) في الجنوب ، وعلى تغلب الجبهة القومية ، فإنها واجهت القلاقل والانفجارات من مطلع عهدها ، فنسبت هذا إلى طبيعة التوتر أيام القتال ضد الاستعمار ، كما أعلنت تعليقات راديو (عَدَن) التي دعت المواطنين لِنَبْذ السلاح لذهاب أوان تحريكه ، فقد كانت تواجه الجبهة القومية مقاومتين : من الأكثر يسارية في داخلها ، ومن عناصر (جبهة التحرير) التي كانت تتلقى المدد والتوجيه من زعامتها في (تَعِزّ) . . . فارتأى (قحطان الشعبي) ضمان

الاستقرار يكمن في تحريك عناصر الجبهة القومية في الشطر الشماني ، لكي يقطع نهر القلاقل من ينبوعه ، وكان في (صنعاء) وتعز أعداد من (الجبهة القومية) ومن (جبهة التحرير) يسمّون بالحركيين والتحريريين ، غير أن الحركيين كانوا في مواقع أقوى ، بل كان بعضهم قادة أسلحة في جيش صنعاء ، وبالأخص في ظروف حصار صنعاء ١٩٦٧م . إذ كان (عبد الرقيب عبد الوهاب) قائد سلاح الصاعقة و(حمود ناجي) قائد سلاح المظلات و(علي مثنى جبران) قائد سلاح المدفعية ، فمدّوا الجبهة القومية من وراء ظهر الحكومة المعترفة سياسياً بجبهة التحرير بالسلاح والمقاتلين .

لهذا سعى (الحركيون) على تفجير انقلاب في ٢٣ أغسطس عام ٦٨م ضد المجلس الجمهوري بصنعاء الذي اعتمد على سلاح المدرعات والقوى القبلية ، وانطفأ انقلاب الحركيين في مدة ٢٤ ساعة ، وتعاون على إنهائه جماعة التحرير إلى جانب قوة المجلس الجمهوري والقوى المشيخية ، ورغم وأد ذلك الانقلاب في مهده فقد استعاد بعثه من عدة مهود ، لأنه لم يكن من جهة واحدة ، وإنما من تنافر الوجوه ومنسجمها ، وتسبب (المجلس الجمهوري) في تزايد مدّ الحركيين ، لأنه استغلّ ذلك الحادث الانقلابي وفشله كذريعة لضرب كل العسكريين ، بقصد إماتة فكرة الانقلابات العسكرية مستقبلاً ، وبهدف إضعاف العسكريين جملة لكي يخلو الميدان للقوى القبلية ، التي كانت القوى المحرّكة للسلطة السياسية ، فشمل التسريح والإقصاء إلى الخارج ضباطاً غير (حركيين) بل من الذين قاوموا (الحركيين) في محاولتهم الانقلابية . . .

ولعل القوى المشيخية - كعادتها - كانت تريد الحروب مع أي أحد ، فلم يؤد القضاء على الانقلاب ، القضاء على أدواته ، بل تجمّع المسرّحون والهاربون والثائرون على القوى التقليدية في معسكر واحد (المقاومة الشعبية) فشهدت الشهور الأخيرة من عام ٦٨م والأولى من ٦٩م عدة أحداث حمر بين حدود

الشطرين وفي داخل الشمال ، فأشارت اتهامات (صنعاء) إلى (قحطان الشعبي) بأنه يحبو زحفاً إلى صنعاء .

وبهذا نقل القلاقل من الشطر الجنوبي إلى الشطر الشمالي دون أن يتمكّن من تأصيل جناحه في الجبهة القومية ، فقد جر عليه تفجير قلاقل الشمال نقمة صُنّاع الحدود في شمال الجزيرة ، فألّبت (صنعاء) كل النازحين من الشطر الجنوبي ردّاً على تأليب (الشعبي) لعناصر المقاومة والمسرّحين من الجيش عل قلّتهم ، وكان الجناح اليساري في الجبهة القومية يواصل اختباراته التنظيمية ويستطلع بوارق الأحداث التي كانت تتألب حتى وصلت ذروتها في أيام معركة (الوديعة) ، فبرَّر سقوط تلك المنطقة سقوط رئيس الجمهورية (قحطان الشعبي) عام ١٩٦٩م ، فابتهجت (صنعاء) لسقوط الشعبي ، دون أن تفطن ودون أن يفطن أمثالها إلى نوع البديل ، لأن نوع الانقلاب على (الشعبي) كان أغرب انقلاب ، إذ لم يتفجر فيه سلاح ولا احتلال قصر وإذاعة ، وإنما حدث هياج جماهيري جرف الشوارع وأسكت الإذاعة ، وبعد ساعات من أيام شهر يونيو ١٩٦٩م طويت صفحة (قحطان الشعبي) ، وسُمّيت تلك الحركة تصحيحية ولكن عكس تصحيح نوفمبر بصنعاء عام ١٩٦٧ ، رغم تشابه الظواهر فإن الفروق أكثر وضوحاً ، كان انقلاب (عَدَن) في ١٩٦٩م أبيضاً هائجاً ، وكان انقلاب (صنعاء) في ٥ نوفمبر ١٩٦٧م أبيضاً صامتاً ، لم تخدش هدوءه غير تلك الدبابات الست التي احتل بعضها الإذاعة وبعضها القصر الجمهوري بدون أي هجوم أو مقاومة ، فكلا الانقلابين سلمي : انقلاب (صنعاء) سفَّر رئيس الجمهورية إلى خارج القطر قبل أيام من حدوثه ، وانقلاب (عدَن) طوى رئيس الجمهورية داخل السجن ، من يونيو ١٩٦٩م هدأت المقاومة والمناوشة الحدودية بين الشطرين ، لأن الرئيس الجديد (سالم ربيِّع علي) والأمين العام (عبد الفتاح إسماعيل) اشتغلا بتقوية التنظيم والنظام في الداخل وبإبعاد ضباط

(الليوي) عندما أرادوا تحريك انقلاب عسكري على (الشعبي) فأحبطته قوة الجناح اليساري ومن ذلك الحين تبدّى تأييد الجيش (الجبهة القومية) لكي ينقلب عليها من داخلها ، فتشابهت أحداث (صنعاء) و(عدَن) غير أن زعيمي الجبهة القومية ركّزا على تجذير القواعد الاقتصادية وتماسك أجهزة النظام ، فأتمَّ (نوفمبر) مخططه التصالحي بصنعاء مع الملكيين وتوثيق علاقاته مع الجيران ، وتبدّى النظام في (عدَن) هادئاً من بداية رئاسة (سالم ربيِّع) للجمهورية سنة ١٩٦٩م إلى معركة سبتمبر بين الشطرين عام ١٩٧٢م أو بعد التصحيح الثاني في الشطر الجنوبي وقبل التصحيح الثاني في الشطر الشمالي ، لقد أراد (سالم ربيِّع) بالاتفاق مع الأمين العام أن لا تطفر التغييرات ، فلم يعلنا غير أطروحة الجبهة القومية وتنقيتها من الانتهازيين ، فشكّل (محمد علي هيثم) رئاسة الوزراء كامتداد لقحطان الشعبي الذي انتهت مدته ، وظلّت الرئاسة والأمانة العامة على أتم يقظة إزاء ذلك الامتداد حتى لا يتجاوز مداه ، فأمكنت تنحية (محمد علي هيثم) بمجرد تعديل وزاري وحل محله (علي ناصر محمد) الرئيس الحالي .

من هنا حقق الجناح اليساري إمساك كل أعنَّة السلطة ، فتهيأ الجو العام لانزراع القواعد الاقتصادية ، ولتدفق التحولات الاجتماعية . من يونيو ١٩٧٢ إلى يونيو ١٩٧٨م تراءى الانسجام سائداً ، ووشت بعض الأخبار على الصراع بين الأمانة العامة ورئاسة الجمهورية ، وكانت رئاسة الوزراء هي المحبس القوي التي تمنع الانفجار وتبدي ظواهر الانسجام ، وكان رئيس الجمهورية سالم ربيِّع يزاول مسؤوليتين : سياسية وتنظيمية ، فهو رئيس الجمهورية سياسياً ، وهو مدير الإدارة السياسية للجيش تنظيمياً وعسكرياً ، وكان (عبد الفتاح) يزاول مسؤولية التنظير للتنظيم وقيادة (المليشيا الشعبية) ، ومن حين إلى حين تردّدت أخبار عن قتل جندي هناك وعن قتل عضو مليشيا هنا ، ولم يستطع أحد أن يلاحظ

صراعاً بين المليشيا والجيش ، وذلك بفضل أمن الثورة وبموقع (علي ناصر محمد) بين الموقعين ، وفي ٢٠ يونيو عام ١٩٧٨م شمَّت الأمانة العامة ورئاسة الوزراء علاقات (سالم ربيِّع) بعدة أطراف ، وعقدت اللجنة المركزية جلسة تدارست فيها أسباب التذمر في قيادة الجيش ومجاهرة أعداد من الضباط بالسخط ، وألزمت اللجنة (سالم ربيِّع) رئيس الجمهورية بتقديم تقرير مفصّل عن أسباب تذمر الضباط بصفته مسؤولاً تنظيمياً عن الإدارة السياسية للجيش ، فأبدى موافقته وأخفى المماطلة والتسويف ، وفي يوم ٢٤ يونيو تعالى هدير ذلك الحدث بصنعاء الذي أطاح بأحمد الغشمي والذي اتُّهم فيه رسول سالم ربيِّع ، وقيل إن الأمانة العامة استرجعت الرسول الأول لربيِّع من المطار واكتشفت أنه يحمل مخطَّطاً إلى (الغشمي) فحواه : أن يشن (الغشمي) هجوماً على حدود الشطر الجنوبي ، لكي يستعيد (سالم ربيِّع) مكانه القيادي في الجيش فيقود انقلاباً ضد المتطرفين ، ولما اكتشفت الأمانة العامة هذا غيَّرت الرسول وشحنت حقيبته بمواد مقتل (الغشمي) وقد تفنَّنت الروايات في صحة هذا الحدث وفي عكسه ، وتوالى في حدود يومين موقفان : في ليلة ٢٤ يونيو نفى مذياع (عدَن) تهمة (صنعاء) ضد (سالم ربيِّع) وفي ليلة ٢٦ من نفس الشهر أعلن مذياع عَدَن مقتل (سالم ربيِّع) بسبب محاولته قيادة انقلاب عسكري ضد النظام والتنظيم ، وكان يوم ٢٦ يونيو أشد عنفاً من يونيو ١٩٦٩م الذي أنهى (قحطان الشعبي) من الرئاسة ، لأن يوم (ربيِّع) تفجّر بالنار وتسربل بالدم ، فكان (ربيِّع) أول رئيس في رئاسة الشطر الجنوبي يموت قتلاً ، كما كان (الغشمي) ثاني رئيس يسقط في صنعاء قتيلاً .

بعد هذا سقط التخطيط (الغشمي) (الربيِّعي) المزعوم بما ينطوي عليه من رهان على تغيير النظام في الشطر الجنوبي فخلت ساحة السلطة والتنظيم من يومذاك للأمين العام (عبد الفتاح إسماعيل) و(علي ناصر محمد) فأصبح رئيساً

للجمهورية وهيئة مجلس الشعب الأعلى من ٢٧ يونيو ١٩٧٩م إلى ٢٢ إبريل عام ١٩٨٠م ، وكانت مدة (عبد الفتاح إسماعيل) مليئة بالتوتر والاحتكاك ، ربما لمجيئها من التوتر والعنف ، فقد توالت الملاحظات على مقتل (سالم ربيِّع) . ولماذا تم إعدامه بعد أن انتهى خطره ؟

وكان (سالم ربيِّع) قد أشاع في ظروف رئاسته الحسّ الشطري والنزوع القروي ، ولم يمسح تلك الإثارة دم (سالم ربيِّع) ، فعانى (عبد الفتاح إسماعيل) شدة الاعتراضات وهمس الشوارع والمقاهي حول اقتداره وحول حكمة تنظيره وحول أصله العائلي ، برغم تفوّقه الثقافي على كل رفاقه ، وبرغم حنبليته الحزبية التي تجاوزت به العصبية والقروية ، ومع هذا تكالب الطموح من الذين شايعوا (ربيِّع) ومن الذين تواكبوا عليه مثل (علي ناصر محمد) رئيس الوزراء ، واستهدفت نقمة الطامحين الأمين العام ، وفي أمسية ٢٢ إبريل سنة ١٩٨٠م أعلن راديو عدَن استقالة (عبد الفتاح إسماعيل) من رئاسة الجمهورية ورئاسة هيئة الشعب الأعلى ومن الأمانة العامة للحزب اليمني الاشتراكي ، وأحدث هذا البيان أغرب دهشة عند البعض وتأكّدت نبوءات البعض ، فقبل استقالة (عبد الفتاح) تردّدت عدة إشاعات عن محاولة قتله في (عدَن) وعن تزعم (محمد صالح مطيع) و(علي عنتر) التهجّم على الأمين العام ، وعن محاولة قتل (الأمين العام) بطريقة فنية عندما عجزت طائرته عن الهبوط في مطار (ليبيا) لامتناع عجلاتها عن التدلِّي ، فتتابعت الإشارات إلى مكيدة طيرانية طبخت في (عدَن) وكادت أن تؤكل في مطار (ليبيا) ، وأريد إبطال تلك الإشاعة فدمغت إبطالها ومبطليها استقالة (عبد الفتاح) الإجبارية ، التي سبقت إمكان انقلاب عسكري بقيادة (علي عنتر) .

في ٢٢ إبريل سنة ١٩٨٠م تنحَّى (عبد الفتاح إسماعيل) عن السلطة بعد نضال عشرين عاماً في ساحة القتال ومجال الجدال وقمّة السلطة ، وأصبح

مجرد رئيس رمزي للحزب لا يرمز إلى شيء ، وتسبَّب تنحِّي (عبد الفتاح) في تمادي التساؤل :

هل هو بداية تراجع أو أول مراجعة للحساب ؟

وهل يؤدي إلى تغير ورائي أو أمامي ؟

وما موقف ذاك ، وما مصلحة هذا ؟ وهل الجمع بين قدرة التنفيذ وثقابة التنظير لايصلح في هذا الزمان ؟؟ . .

من عام ١٩٨٠ إلى ١٩٨٣م عند كتابة هذا ترأس الجمهورية في الشطر الجنوبي (علي ناصر محمد) الذي تولَّى رئاسة مجلس الوزراء من ١٩٧٢ إلى ١٩٨٠م فارتقى من الرئاسة إلى الرئاسات : رئاسة الجمهورية ، رئاسة هيئة مجلس الشعب الأعلى ، رئاسة مجلس الوزراء ، الأمانة العامة . . . وما يزال (علي ناصر محمد) ينسج خيوط سياسة عهده حياتياً ، لكي تتحول إلى تأريخ متصل بالحلقات الماضوية والمستقبلية ، لأن المقاييس التأريخية لا تمتلك صحة استنتاجها وتقويمها إلا بعد انتهاء العهد المؤرخ له ، بل بعد انتهاء العصر الذي تداخلت حلقاته على مختلف الرؤوس التي تعاقبت على سِدّة الحكم فيه .

وبعد : هل أرَّخ هذا الفصل رؤساء الجمهوريات أحياءً وأمواتاً ؟

لقد وقف مع حقائق فتراتهم طارحاً أفكاره عنها ، عن مودَّة للحقيقة وعن احترام للرئاسات ، دون أن تغلب المجاملة الضرورية على الحقائق العامة ، ودون إصدار أحكام وإنما مجرد تدارس للحاضر الذي يفسِّره الماضي وللماضي الذي يعزِّز الحاضر ، فإذا كان الماضي يصلح تفسيراً للحاضر ، فإن الحاضر يرفع علامات تومئ إلى المستقبل .

ولقد حاول هذا الكتاب على تعاقب فصوله أن يمد التفاتة إلى الماضي ويطيل وقوفه عند الحاضر ، لكي تتألَّق نظرات اليوم إلى بواكير الغد .

محتويات الكتاب

الموضوع **صفحة**

الموضوع **صفحة**

* * *



يؤرخ المؤلف لليمن المعاصر، لكنه يرى العشرين سنة التي هي عمر اليمن الجمهوري، حصيلة عشرات السنوات، بل يؤكد أن عصرنا خلاصة عصور.

ولذا فهو يطيل الالتفات الى الينابيع، ويرافق التطورات على تعاقب العصور إلى عهد اليمن الجمهوري، ثم يقف عند اليمن الجمهوري في الثلاثة الفصول الأخيرة، ويستحضر الخلفيات لكل ظاهرة من ظواهر اليمن الجمهوري معللاً لكل حادث مبرهناً على كل رأي.



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

